الدكتور موسى عبد الله حامد

صدى السنين ـ ٢

(ذكريات حبيبة)

أم درمـان الأميرية ... سراديب الصدى

١٩٩٧

- هذا كتاب ربما كانت له خصوصية . ولكنها لا ترتبط بشخص كاتبه إلا كما يرتبط الأثر تحدثه القدم على التراب ثم يزول . فهو أثر قديم لإنسان - أي إنسان . فما جاء في هذه الصفحات يمكن أن يصدر عن أي أحد عاش تلك اللحظات . إن ما يرويه هذا الكتاب أشمل وأرحب من أن يكون سيرة ذاتية . أو حتى سيرة جماعية إن صح هذا التعبير . فهو أوسع من ذلك إن تأمله متأمل . لأنه يلملم أطرافًا كثرًا متقاربات وأخر متباعدات متباينات لينسج من ذلك حلة يمكن أن يلبسها أكثر الناس دون مشقة . ويرسم ملامح جيل بأسره في غضون أزمان كانت تتوهج على امتدادها قيم رفيعة وأوقات ملاح ومعان وضيئة .. وآمال وأحلام ما تحقق منها إلا اليسير .

- ليس هذا الكتاب سفرًا في التاريخ ولا رسالة في علوم الاجتماع والسياسة ولا تطاولاً إلى مراقي الفنون والثقافة والأدب . ولكنه محاولة صادقة لسرد ذكريات حبيبة وصادقة وأمينة قد تجد طريقها إلى وجدان الكثيرين . إنه كتاب تجتمع فيه - بلا دقة وعلى غير انتظام - ملامح البناء القصصي وأشباه السرد الروائي . وبقايا آثار الطرفة القديمة . ونماذج من نوادر الطفولة عند التلامذة . وعزائم العطاء عند الأساتيذ . فهو يقرأ الحدث الصغير بشيء من التفصيل . ويجتلي في الأوجه من المعاني ما لا تبصره العين . وينقل ما انطبع على الذاكرة من كل ذلك بحذافيره .

المؤلف



- تخرج في كلية الطب جامعة الخرطوم - بكالوريوس الطب والجراحة .
- ماجستير الجراحة - جامعة الخرطوم .
- دكتوراه الجراحة العامة - موسكو .
- عمل عميدًا لكلية جامعة الأحفاد للبنات (أم درمان) .
- حالياً أستاذ كرسي الجراحة بكلية الطب - جامعة جوبا (الخرطوم) منذ عام ١٩٩٣ .
- متزوج وله سبعة أولاد .

صدر للمؤلف :

١ - كتاب « صدى السنين » مع صديقه الأستاذ كمال حمزة .
٢ - كتاب « تبصرة وذكرى » - سياحة في راتب الإمام المهدي ويقع في أكثر من ٥٠٠ صفحة .
٣ - كتيبات أخرى في مختلف المواضيع الاجتماعية .

صدى السنين - ٢

(ذكريات حبيبة)

أم درمان الأميرية ... سراديب الصدى

الدكتور موسى عبد الله حامد

صدى السنين - ٢

(ذكريات حبيبة)

أم درمان الأميرية ... سراديب الصدى



النمرة : م ق ص م/أ ع/٣٩/ب/٥

التاريخ ٢٨/ محرم/ ١٨ هـ

الموافق ٤/ يونيو/ ٧ م

السيد/ د. موسى عبد الله حامد

السلام عليكم ورحمة الله

الموضوع/ تصديق طباعة كتاب ذكريات حبيبة

اشارة للطلب المقدم منكم لهذه الأمانة والخاص بموضوع أعلاه ، يسعدنا أن ننقل لكم موافقتنا على طباعة هذا الكتاب وفقاً للضوابط والشروط التالية : -

١/ كتابة اسم المطبوع في مكان بارز .

٢/ كتابة رقم الإيداع (١٧/٣١٠) في آخر صفحة من المطبوع .

٣/ إيداع خمس نسخ من الكتاب لدى الأمانة العامة للمجلس .

٤/ من حق الأمانة العامة للمجلس إيقاف أي توزيع لأي كتاب لا يستوفي الشروط المذكورة أعلاه .

٥/ يسري مفعول هذا التصديق لمدة عام .

والله ولي التوفيق ...

د. عثمان أبوزيد عثمان

الأمين العام للمجلس القومي للصحافة والمطبوعات

إهـــــــداء

إلى رفقة تلك الأيام النجب الملاح ..
تلامـذة واسـاتذة وعـاملين .. أهدى هذه
الصفحات . وفاء للذكرى ، وحنينا للوداد ،
وادكارا للمحبة .

المؤلـــــف

هَذى الرُّبـا كم ضـاق فِىَّ فضاؤها
مـــالى عَـــلَى جَنبَـــاتها أتعَـــثَّرُ !

شَبَّ الحَصَى فيهـا ودون زحـامـه
دربٌ يغيبُ وآخَـــرٌ يتكسَّـــــرُ

ومَـلاعِـــبى ومجـــرُّ أذيـالى بِـــهَـا
بَعُدَتْ ، فمـا تَـرْقى إليها الأنسُـرُ

ما كُنتُ أَحســـبُ أَنَّهـا تَتَغَـــيَّرُ !

عمر أبو ريشة

الاخ الصديق موسى

تحية طيبة مباركة وبعد

كتاب « صدى السنين » اعارني له الاخ العزيز الدكتور احمد حسب الرسول مصراً على ان أرجعه له بعد اطلاعي عليه ووعدته بذلك . وتصفحت هذا السفر اثناء وجودي مع أحمد ورجعت بي الذاكرة الى تلك الأيام الزاخرة والى ذلك الجمع المخلص الأمين من الاخوة والرفاق الاعزاء الافاضل . والذى يعرف الصديق العزيز موسى عبدالله حامد لا يستغرب البتة لهذا الانجاز الضخم الذى يحوى ويصور حياة الاخوة العظماء الذين عايشوا تلك الحقبة وانى اذكرهم ويضنيني الاسى لمن فارق منهم الحياة عليهم رحمة الله واتشوق لملاقاة من هم على قيد الحياة مشتتين داخل البلاد وخارجها فقد حرك هذا الكتاب فى الصدور عوامل التقاء الأحبة والصفاء والطيبة .

وموسى وشخصى التقيا فى اول عام ١٩٤٦ – بمدرسة ام درمان الاميرية – الثوانى (كان الثوانى فى ذلك العام ببيت المال - والاوائل بود نوباوى) وقدم موسى من بحر ابيض ومن الكوة على وجه التحديد وقدمت انا من السروراب - ريفى شمال العاصمة وكان القادم من بحر ابيض مبهوراً فى بدء حياته بام درمان رغم انه كان احسن حالاً ممن قدم من ام غنيم الاخ الفاضل عبد الرحمن كنتباى (الدكتور حالياً نسأل الله له العافية) وكانت الطفرة الحضارية الشديدة للقادمين من بحر ابيض تشجيعهما العنيف لفريق الهلال .

وقضينا بمدرسة ام درمان الاميرية اياماً طيبة ولم تمح مسحة المدنية اصالة القرية وطيبتها وان انس لا انسى اساتذتنا الاجلاء بمدرسة ام درمان الأميرية – وكان ان بدأنا جهداً قبل سنوات لنعمر مدرسة ام درما ن الأميرية ونجدد حيوتها ونحيى تراثها ولم يشأ الله لنا ان نواصل المشوار واسأله تعالى ان يوفقنا للقيام بتلك المهمة السامية لتمجيد ام درمان الأميريه وتخليد ذكراها وفاءاً وعرفانا ليس لجيلنا فحسب ولكن لاجيال آبائنا السابقين وقد تخرج منها ابى رحمه الله عام ١٩١٢ .

واذكر اساتذتنا الاجلاء بمدرسة ام درمان الأميرية شاكراً ومقدراً لهم انهم قبل تعليمهم لنا الدرس وهذا بالطبع واجبهم الاساسى فانهم علمونا الحياة وعلمونا علاقة الطالب باستاذه وملأوا قلوبنا بالاستبشار لمستقبل هذه الأمة .

أعود الى كلمات موسى فى صدى السنين وكما يقال فان الكلمة احياناً قد تمنع رصاصة لانها بالطبع اقوى وبالقطع ابقى - فموسى الاديب قبل ان يكو ن موسى الطبيب واذكر كيف كان يتجلى والاخ ابو الدفا ع (الاستاذ دفع الله الحاج يوسف) كيف كانا يصولان ويجولان فى ليالى القبعة بمدرسة ام درمان الاميرية حينما يفرض عليك ان تاخذ وريقة من القبعة مكتوباً عليها موضوعاً لا سابق معرفة لك به و،يطلب منك ان تتحدث فى ذلك الموضوع لمدة خمس دقائق على اقلها - وكان ذلك بالطبع اسلوباً ممتازاً فى تعليم الطالب على الخطابة منذ صغره ولم يكن ذلك تنقيصاً لقدر اللغة الانجليزية وقتها بقدر ما كان دعماً وتدريباً على اجادة لغة البلاد - واين نحن من ذلك الزمن عندما كان يفرض علينا استاذنا محمود على الياس قراءة كتاب بالانجليزية وتلخيصه للفصل كل يوم اربعاء اسبوعياً .

انتقل عدد كبير من تلامذة ام درمان الأميرية الى خور طقت الثانوية فى اول عام ١٩٥٠ ورغم ان هنالك من قدم من الأهلية وحى العرب لكن مجموعة ام درمان الأميرية كانت مؤثرة مع اعتذارى للأخوين صديق احمد اسماعيل ومختار التوم (الأهلية) وقد قدما لخور طقت منضمين للسنة الثانية - والاخوان عمرابى وابو العايلة والشفيع واحمد المامون حى العرب - وغيرهم من الأهليه وحى العرب .

وبالطبع كون القادمون من مدارس العاصمة ما سمى باولاد العاصمة والتقوا بمجموعة اولاد الغرب والقادمين من مناطق السودان المختلفة وربطت بين المجموعتين وشائج حميمة .

وقد تعمدت ان اصل ام درما ن الأميرية بخور طقت لفاعلية تلك الثقة فى مجتمع الخور الجديد رغم قلة عدديتها مقارنة بالكل - وكثرتهم بالنسبة للمدرسة الوسطى القادمين

منها وكونوا حلقة مترابطة كان اثرها واضحاً فى مجتمع مدرسة خور طقت الثانوية .
ومن هذه الحلقة – ولا اود ان اسميها النواة (رغم ان النواة هى اصل النخلة السامقة) امتدت بل انشرت العلاقات الواسعة والصلات الطيبة الى بقية اسرة المدرسة من ابناء الغرب وابناء الشمال وكان ان امتزجت الثقافات المختلفة (العادات والتقاليد) ونشأت صداقات حميمة فى شلليات لطيفة – ابو الحسوس مع الحاج الكبتل وانور عبد الحليم ويوسف المبارك عليه رحمة الله مع الرشيد ابو الزين ومختار وابو العايلة والاغبش وأبو الزبير وغيرهم وغيرهم .
الاخ الصديق لقد جاءت كلماتى هذه عفوية ومستعجلة كما كانت كلمات خطابك من قبل « عفوية متتابعة تتواثب من افكار الذاكرة ومسارب الوجدان »
ورغم ان الكلام عن ام درما ن الأميرية قد ورد عرضاً فى ثنايا الحديث فرجائى ان يشمل « صدى السنين » سنوات ام درمان الوسطى فقد كانت ايامنا بها زاخرة ايضاً وربط الحقبتين يكمل صورة مجتمعنا الحقيقية فى ذلك الزمان والعتبى للقادمين الى خور طقت من مدارس غير ام درمان الأميرية .
انى انا شدك وانت صاحب فكر ثاقب وذكاء حاد وذا كرة قوية واسلوب ممتع اخاذ اريدك ان تتحدث عن الاساتذة – احمد محمد صالح (رحمه الله) ويوسف زمراوى (رحمه الله) وفرح اطال الله عمره والشيخ ابوبكر (رحمه الله) وبقيتهم اذكر منهم : محمد المامون الريح – ابراهيم الياس . السبكى الجزولى – كمال البكرى كيلانى – محمود الضرير – احمد اسماعيل النضيف – عوض طلحة – عبد الوهاب الشيخ – خليفة خوجلى – محمد الطيب – احمد زين العابدين – محمد عبد الماجد احمد – محمود على الياس ثابت احمد ثابت – غزالى السراج – عثمان على ابراهيم – ابراهيم على (التجارة الثانوية الصغرى) – حسن رابح – محجوب على – الهادى احمد محمد صالح – حسن محمد الأمين – حسين الغول – مالك محمد مالك – يوسف الخليفة – شيخ الخاتم . ومن مدرسة التجارة الثانوية الصغرى ايضاً هاشم ضيف الله

وعلك تذكره جيداً ياموسى وانت واله بحب الهلال كيف كان يدرب كابتن صديق منزول منفرداً على تسديد ركلة الجزاء بميادين جامع الخليفة . كما لا يفوتنى ان اذكرك بالعم مبارك وعبد العزيز بكدوسه وشيخ ادريس وجادين وغيرهم من اسرة المدرسة لهم التحية والتقدير والاجلال .

رحم الله من اختاره منهم الى جواره رحمة واسعة وأمد الله فى ايام الاحياء صحة وعافية .

وختاماً اخالك انت فاعلاً ذلك ياموسى ونحن من
ورائك مساعدون وفقك الله وهو المستعان ولك منى
أجزل الشكر .

اخوك
مصباح الصادق
(السرورابى)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كنت قد تلقيت منذ بضع سنين خطاباً رقيقاً من الاخ الحبيب مصباح الصادق زميل الدراسة والحداثة والصبا ، يعبر فيه عن مشاعر صادقة وفية أثارهـا فى نفسه كتيب « صدى السنين » الذى ما كا ن فى أصله سوى خطاب بعثت به إلى الاخ الحبيب كمال حمزة رداً على رسالة كريمة منه تساند بالقول والفعل جهودنا لتطوير وتحديث مستشفى ام درمان التعليمى . فكان الفضل فى صدور كتيب « صدى السنين » فى هذه الطبعة الانيقة عائداً الى كمال فهو شريكى فى السنوات الخضر التى خلفت ذلك الصدى . وها هو ذا خطاب مصباح مثبت فى هذه الصفحات التى سلفت ، يتغنى بأصداء سنوات اخرى سبقت ذلك الصدى ثم اندغمت فيه اذلولا ذاك لما كان هذا . لقد قرأت خطاب مصباح ساعة استلامه وسعدت به ، ولكنى كنت فى شغل شاغل عن الكتابة التى رأيته يستحثنى عليها ويغرينى بها ، وذلك بعد أن فرغت لتوى من كتابة سفر عن راتب الامام المهدى مازال يتعثر فى الطباعة . شغلتنى هموم الحياة ومشقاتها التى تفاقمت فى السنوات الأخيرة ، حتى صار اليوم لا يساوى فى حساب الزمن إلا ما يساويه الجنيه فى أتون السوق . فطويت خطاب مصباح واودعته مع شتات أوراقى فى ركن قصى من أركان مكتبتى ، ثم أنسيته تماماً . ولكنى كنت التقى مصباحا من وقت لآخر – وأن كان ذلك فى فترات متباعدة – فيدور الحديث فيما بيننا حول أيام ام درمان الأميرية وخور طقت . فاذا كان ذلك استشعرت نوعاً من الخجل والتقصير فى ما ندب إلى خطابه أن أشرع فيه . وأكدت له مازحاً ذات مرة أنى اعرف خطه منذ أيام الدراسة وهو ليس أوضح أو « أشيك » من خطى ، وأنَّ هذا الخط الذى رأيته فى الخطاب ينم عن مقدرة عالية وموهبة أصيلة ومعرفة محيطة بفنون خط « الرقعة » ما كان لرجل من قرية السروراب بعيداً عن أسباب الحضارة ودواعى المدنية أن تتاح له أو يجد اليها سبيلا . فكان مصباح يضحك طويلا ويقول : بالله شوف بتاع الكوة

والجزيرة أبا دا كمانعاوز يكلمنا عن الحضارة والمدنية ! ولكنه اعترف لى في نهاية الأمر بأن نص الخطاب وروحه من بنات وجدانه وخواطره ، غير أن الخط ورسم الأحرف والكلمات انما أبدعته يد الاستاذ الخالد هاشم ضيف الله . فأوحى إليَّ هذا « الاعتراف » فيما اوحى بأن مصباحاً كان شديد الاهتمام بهذا الخطاب وما اشتمل عليه ، وأن عدم استجابتى لرغبته الوفية الصادقة فى هذه الرسالة ربما ثقل على نفسه فمنعه الحياء من إظهار ذلك . ومصباح أخ أثير حبيب إلى النفس ، ليس بمقدورى أن أتغافل عن بغيته أو أعده بأمر ثم أدفع بالمطل والتسويف . ولذلك عدت إلى دارى اقلب أوراقى بحثاً عن ذلك الخطاب ، فظللت ابحث عنه بين أكوام الكتب والأوراق طوال أسابيع حتى أعثرنى الله عليه بما يشبه المعجزة . فحمدت ربى على ذلك وتلوته مراراً ، ثم أمسكت بقلمى أحاول أن أتذكر أولاد فصلنا « التوانى » فى ام درمان الاميرية . وعجبت كيف تواردت علىَّ الأسماء والوجوه تباعاً حتى رصدت جميع اولاد الفصل والاساتذة فى وقت قصير . وكأنى اقرأ الاسماء من صفحات دفاتر الغيب وهى مثبتة منقوشة امام ناظرىَّ ، وكأنى أتفرَّس الوجوه وهى تطالعنى جلية واضحة من وراء ستور الحقب والدهور .

ثم عدت أقرأ خطاب مصباح علي رسلى بشئ من التفكير والتدبر فتحركت فى نفسى وطافت بمخيلتى أسراب أحاسيس قديمة وتصاوير أحداث بعيدة طفقت تمر بخاطرى متهادية وئيدة الخطى وتخاطبنى أصداؤها من وراء الاماد جهرة دون خفاء . فعرفتها كما يعرف الجسم بعضه وأنست بها كما يأنس بالغريب غريب مثله .

خليلىَّ انا غريبان هاهنا .·. وكل غريب للغـريب نسيب

انها صور جليات تبينتها من خلال أحرف الخطاب ، تتدافع تلقائى تباعاً وأنا ارقب سيرها شطر خواطرى يكتب فى صفحات الغيب المشاهد بنور الذاكرة وبصر البصيرة كلمات رقيقات تومض بأضواء أحلام تفرقت بين هضاب السنين ووديان المدى وقرَّت أصداؤها فى رحاب الأثير وأجواف الغيوب . كلمات رقائق نواطق دون السـنة أو شفاه منتقشات سواطع بلا طرس ولا قلم . أشبه شئ بالهمس أوالرفيف أو اهتزاز

الغصون تراقص سكرى نسيمات السحر . خضلات مفعمات بنطاف الندى ذافئات كدموع شوق وذكرى وحنين ، ناثرات على رياض الخواطر وأكمامها - كما الوسمى - أشباه الدرر . سمعتها جميع مشاعرى وهى تنشد :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً .٠. من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد فتَّق النيروز فى غسق الدجى .٠. أوائل ورد كـنَّ بالامـس نُوَّما

لقد جاءت كلمات هذا الخطاب كما يجئ الربيع الطلق يختال ضاحكاً ، أو كما تجيء لَمَّةُ الملك يتغشّاك على أثرها الرضا والأمان . فأنست بها بعد وحشة ، وانفرجت لها جوانح القلب بعد انقباض . وذلك أنها تقرع أبواب الذاكرة فى الحاح فتُسرج فيها مشاعل أوشكت أن تخبو أو تركن إلى الذبول ، وتبعث من طياتها أطيافاً وتصاوير من مرائى الطفولة والحداثة ظلت غوافي ساكنات من وراء جحافل السنين حتى كادت أن تطفئ مصابيحها رياح الزمن . فتتقد السرج فى عرصات الذاكرة بضياء غمر وهاج ينضوعنها ظلمات الغفلة والنسيان . فاذا الأحداث كما لو وقعت منذ هنيهة ، واذا الناس كما لو أيقظهم من بعد الهجعة فى قاع الماضى أنغام الذكرى تحتشد بها الآفاق ، يمثلون بذواتهم التى عرفت منذ « أيام زمان » وتدعوهم اليك بأسمائهم وكنياتهم وألقابهم ، فاذا هم قيام ينظرون . فنحن - كما قلت لك من قبل فى غير هذا السياق - أمة ذكريات لأن الذكريات حبيبة إلى انفسنا أثيرة عندنا . نحن امة البكاء على الماضى ، نوّاحون على مافات ولن يعود نحسن الأسى ونستعذب من الزاد الحنين. تدركنا أيام الغيوث والخصب والرخاء نزرع سبع سنين دأبا فما حصدناه لا نذره فى سنبله الا قليلا مما نأكل حتى اذا الم بنا الأزمنة القحط الترابية الكالحة المغبرة استبد بنا الحنين وها جنا الشوق إلى عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . ولهذا حببت إلى نفوسنا الذكريات لأنها بعض أحلام غوال فيها كثير من السلوان . فلا غرو أنى تلوت مشوقاً خطاب مصباح ونعمت به لان وراء كلماته البينات صحائف ذكريات حبيبة خفيت أحرفها عن نظر العين خفاء فاطلعت عليها الذاكرة ببصر الفؤاد ونور الوفاء . قرأتها على انبهام حروفها ، وسمعتها على خفوت رنينها ، وأبصرتها على

بعد الشقة واتساع المدى ، فاذا هى ظاهرة من وراء ستر من الغيب سميك . واذا هذه الذكريات منبعثة من مرقدها شديدة التمسك بالبقاء ، تأبى إلاّ ان تترامى فى رحاب هذه الأسطر والصفحات ، والا ان تسيل من قنن الماضى الآهل البعيد الى وديان الغربة الجديدة التى يعيشها جيلنا البكاء . فهى مثله غريبة تمشى فى شعاب لا تعرف دروبها ، ويعييها السير على ارض الصخور والحصباء والرمضاء والأشواك ، فتشرع جناحيها لتسبح فى فضاء رحب ينقلها من إسار الضيق الى آفاق السعة ، لأنها تستوحش فى ملأ ينكرها ويكبلها بالأغلال ، وتأنس بالوحدة فى دنيا لاتعرف معنى الأصفاد . وذلك لان الاسر فى الضيق ولان السعة فى الطلاقة

كل افق تضيق به أسيراً ∴ سعة الأفق أن تكون طليقا

غير ان الذى ادعوك لمطالعته علي هذه الصفحات ليس من التوثيق فى شئ بل هو شتات انطباعات متفرقة . ولولا خطاب مصباح لربما تأخر او تعذر اجتماعها على هذه الطروس وربما لم يجد كاتبها من الهمة والوقت مايهون عليه مؤونة التصدى لها استكتاباً للذاكرة ورصداً لبعض ما علق بها منذ تلك الأزمان . فاذا قرأت هذا الحديث وقدر له ان يقع من نفسك موقعاً ترضاه فعد بشكرك على مصباح الصادق لأنه صاحب الفكرة التى أتت به ورائد هذه السياحات التى نود ان تصحبنا على دروبها . واذا كانت الاخرى فلا تلومن مصباحاً ولمنى ، لانه اراد خيراً وجانبنى التوفيق . فهو قد ائتمننى على كتابة هذه الذكريات ، ولو انه توفر على سردها لجاءت ابلغ وأتم ، لانى رايته يختزن دقائقها في ذاكرته اوفى اختزان . فاذا رأيت – وانت تقرأ حديثى هذا – أنى قد تعديت على سلامة ذوقك بطرح مايمكن ان ينعت بالغثاثة او بالفساد امام ناظريك فانى آمل ان توطئ لى عند نفسك العذر والصفح والمسامحة . فانى لو خرجت من هذا الذى اكتب كفافاً لالى ولا على لكنت رابحاً موفور الحمد لربى . وذلك لان الذى يكتب غير الذى يُقال . فاذا كان الكلام مظنة التعرض لزلات اللسان فان سلطان النسيان كفيل بمحوه وان طيات الاثير قمينة بابتلاعه حتى لايبقى منه شئ . ولكن الكتابة هى مظنة الوقوع فى الخطأ وهى تبقى شاهداً عليه ليس الي رد شهادته من سبيل . وكتابة

الذكريات بطريقة ترضى كل الناس هى أقرب شئ للمستحيل ، لان العقل عاجز عن الاحاطة بصحائح الأمور ، وقاصر عن الافتاء المعافى فى عصيات القضايا . وذلك هو الذى أشعر أبا العلاء المعرى بالبؤس وشئ من القنوط ، فصار يصور حالته هذا التصوير الهادئ المؤثر اللطيف الذى ينزل على النفس هيناً ترضاه إذ يقول :

عيون العالمين الى اغتماضٍ .·. وأبصار النجوم سيغتمضنهْ
وقد سرٌ المعاشر باقيات .·. من الأنباء سرْنَ ليستفضنه
أرى الأزمان أوعية لذكر .·. إذا بُسط الأوان له نفضننه
قد انقرضت ممالك آل كسرى .·. سوى سير لهن سينقرضنه
فطر ان كنت يو ماً ذا جناح .·. فان قوادم البازى يهضنه
وكم طير قصصن لغير ذنب .·. والزمن السجون فمانهضنه

ومادام الانسان حياً فهو معين ذكريات لاينضب ، الا ان يكون فاقد الاحساس فليس ذلك من الحياة فى شئ . فالحى لايزهد فى اجتلاء ما حُبِّبَ الى نفسه من ذكريات لأنها غذاء لروحه وزاد لوجدانه خلال الأزمنة القاسية . وماذ بقى لنا فى هذه الأزمنة الكوالح سوى أن ننبش ركام الماضى ونأوى إليه نتداوى به من الشرق بالأسى والغصة بعلاقم العصر الذى نعيش فيه . لو شهد ابوالعلاء هذا الزمان الذى نحن فيه لحق له ان ينشد مرة أخرى دون تثريب عليه من أحد :

يدل على فضل الممات وكونه .·. إراحة جسم أن مسلكه صعبُ
ألم تر أن المجد تلقاك دونه .·. شدائد من أمثالها وجب الرعب ؟
اذا افترقت أجزاؤنا حط ثقلنا .·. ونحمل عبئاً حين يلتئم الشعْب
وأمسِ ثوى راعيك وهو مودع .·. ولو كان حياً قام فى يده قعب

فهذا زمان الخيارات الصعبة والبدائل المستحيلة وليس بالمستنكر أن يقال فى مثله : باطن الأرض خير من ظاهرها . ولو أدركه ابوالعلاء لحمد الكمه ولوضع هذا الزمان النكد مكان العمى ثالثاً لسجونه التى أنشد فى حقها :

أرانى فى الثلاثة من سجونى .·. فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدى ناظرى ولزوم بيتـــى ... وكون النفس فى الجسم الخبيث

ولكن ، لنعد الي حديث الذكريات ، فلعله يعيننا على استشراف آفاق السلوان . فقد كانت ام درمـان الأمـيرية الوسطى عالماً من عوالم النور . ولما بين ام درمـان الامـيرية وخـو طقت الثـانوية من صلة وثيقـة تشـمل الاسـاتذة والتـلاميـذ علي السـواء فـان هذه الذكريات تتارجح بين صـخب كشـة الكلية وهدوء اودية العمـارة . فليـعذرني من تختلط عليه الامور وتعـييـه وعثاء التنقل والترحـال بين هذين الربعين الأثيرين الحـبيـبين الى النفس فكلاهما قد شهد ألواناً من مسرات ذلك الجيل، وكلاهما أصبح اليوم فى حقيقة الأمر أثراً بعد عين . وذلك أنى لا اكتب مؤرخاً ، وانما انثر على هذه الصفحات لوافت اشتاتاً من ذكريات أجد نفسى مشدوداً اليها مستهاماً بها دون ارادة منى او اختيار .

فلك العتبى يا من تضيق نفسه بهذا السـرد المضطرب المتداعى بغير نظام حتى يبلغ منك الرضا والصـفح عنا مبلغاً تلتمس لنا مـعه العذر والعفو وحسن الظن بالدوافع التى أملته فجاء بهذه الصورة التى لاتخلو من كثيـر من العيوب . ان شفع لنا عندك شئ فليكن سلامة النية ، فمـا قصدنا الا إيناسك بالعود الأحمد الى ما انطوى بين أجواف الأيام والسنين التى تقضت سـراعـاً ولن تعود . ولو أنى اوتيت بيـان شـوقى رحـمـه الله وملكتـه القـادرة علي تخليد ايام الحـداثة بخـرائد الشـعر النظيم لما أثقلت عليك بكثـرة الكلام . ولكنى لست من ذلك فى شئ ، ولـم يبق أمـامـى الا ان اطيل عليك فـى الحـديث حـتى يبلغك منى طرف مما ابتـغى وأريد . ولتنظر مـعى – لتـرى صـدق قـولـى – الى مانظمه أمير الشعراء وهويتغنى بذكريات الحداثة يصورها اروع تصوير إذ يقول :

ألا ياحـبـذا صـحـبـة المكتب	وأحـــبـب بأيامـــــه أحــبـب
وياحـبـذا صـبـيـة يمرحـون	عنانُ الحـيــاة عليـهم صـبى
كــأنهم بســمـــات الحـيـــاة	وأنفــاس ريحـــانهـــا الطيب
يُراح ويُغــدى بهم كــالقطيع	على مـشـرق الشـمـس والمغـرب

إلى مرتع ألفوا غيره	وراع غريب العصا أجنبى
ومستقبل من قيود الحياة	شديد على النفس مستصعب
فراخ بأنك فمن ناهض	يروض الجناح ، ومن أزغب
عصافير عند تهجي الدروس	مهار عرابيد فى اللعب
خليون من نبعات الحياة	على الأم يلقونها والأب
جنون الحداثة من حولهم	تضيق به سعة المذهب
عدا فاستبدَّ بعقل الصبى	وأعدى المؤدب حتى صبى !
لهم جرس مطرب في السراح	وليس اذا جد بالمطرب
وتلك الأواعى بأيمانهم	حقائب فيها الغد المختبى
وفيها المؤخر خلف الزحام	وفيها المقدم فى الموكب
جميل عليهم قشيب الثياب	ومالم يجمل ولم يقشب
كساهم بنان الصباحلة	أعز من المخمل المذهب
وأبهى من الورد تحت الندى	اذا رف فى فرعه الأهدب
وأطهر من ذيلها لم يلمّ	من الناس ماشٍ ، ولم يسحب

وانظر الى هذه الروعة فى تصوير هذا القطيع بين اصبعى الدهر يزجيه كيف كانت المشيئة والقضاء ، وذلك قول الشاعر في الأقدار المحيطة والارادة النافذة :

قطيع يزجّيه راعٍ من الدهر	ليس بلين ولا صُلّب
أهابت هراواته بالرفاق	ونادت على الحُيَّد الهُرَّبَ
وصَرَّف قطعانه فاستبدّ	ولم يخشَ شيئاً ولم يرهب
أراد لمن شاء رعى الجديب	وأنزل من شاء بالمخصب
وروّى على ريها الناهلات	وردّ الظّماء فلم تشرب
وألقى رقاباً الى الضاربين	وضنّ بأُخرى فلم تُضرب
وليس يبالى رضا المستريح	ولا ضجر الناقم المتّعَب
وليس بمبقٍ على الحاضرين	وليس بباكٍ على الغُيّب

ثم انظر اليه كيف ابدع فى وصف التحول من الحداثة الى النضوج ، وكيف بكى نواعم الأيام التى تقضت وأفضت بأهلها الى شقاء العقل بالعلم ، وكيف أثمر الطموح منارات شواهق ، فذلك قوله :

فيا ويحهم ! هل أحسُّوا الحياة ... لقد لعبوا وهى لم تلعبِ
ودار الزمان فدال الصبا ... وشبّ الصغار عن المكتب
وجَدّ الطّلاب وكدّ الشباب ... وأوغل فى الصعب فالأصعب
وعادت نواعم أيامه ... سنينَ من الدّأب المُنْصِبِ
وعُذّب بالعلم طلابه ... وغَصّوا بمنهله الأعذب
رمتهم به شهوات الحياة ... وحُبّ النباهة والمكسب
وزهو الأبوة من منجب ... يفاخر من ليس بالمنجب
وعقل بعيد مرامى الطماح ... كبير اللبانة والمأرب
ولوعُ الرجاء بما لم تنل ... عقول الأوالى ولم تطلب
تنقّل كالنجم من غيهب ... يجوب العصور الى غيهب
قديم الشعاع كشمس النهار ... جديد كمصباحها الملهب
أبو قراط مثل ابن سينا ... وهومير مثلُ أبى الطيب
وكلهمُ حجر فى البناء ... وغرس من المثمر المعقب

وانظر الى عبقرية الشاعر كيف أكملت دورة الزمان بما عوّد عليه الناس منذ القدم ، وكيف تحرى آثارها بهذه الدقة الفائقة ، وكيف أبدع فى وصف تصاريف الأقدار واختلاف الدروب وتباين المصائر بعد أن كبر الصغار وشابوا وتفرقت بهم السبل . فذلك قوله :

وخدّش ظفر الزمان الوجوه ... وغَيّض من بشرها المعجبِ
وغال الحداثةَ شرخ الشباب ... ولوشيت المرد فى الشيب
سرى الشيب متئداً فى الرؤوس ... سرى النار فى الموضع المعشب
حريق أحاط بخيط الحياة ... تعجبت كيف عليهم غبى
ومن تظهر النار فى داره ... وفى زرعه منهمو يرعب

قد انصرفوا بعد علم الكتاب لبـــاب من العلم لم يُكتب
حـياة يغامر فيها امرؤ تسلح بالناب والمخلب
وصار الى الفاقة ابن الغنى ولاقى الغنى ولدُ المتـرب
وقد ذهب الممتلى صحة وصحّ السقيم فلم يذهب
وكم منجب فى تلقى الدروس تلقى الحياة فلم ينجب
وغاب الرفاق كأن لم يكن بهم لك عهد ولم تصحب
الى أن فنوا ثلة ثلة فناء السراب على السبسب

فهذا قول رائع وهو من أحسن الكلام . وانى لأذكر قصيدة كتبتها وأنا طالب آنذاك فى كلية الطب بجامعة الخرطوم جاء فيها هذا البيت :

كبرنا والزمان فتى وشبنا والمنى مُرْدُ

فماذ ترانى قائلاً اليوم بعد ان اشتعل الرأس شيباً بالفعل وصارت المنى الى ريب المحاق ؟ ولكن بعض أهل الشعر الذين هم أهله حقيقة استوفى المعنى أحسن استيفاء حين قال :

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرهمْ ، وأتيناه على الهرم

أفتعجب من بعد كل هذا اذا دعوتك كى نجتلى معاً لطائف كثراً تقضت ولم يبق منها غير الذكريات ؟ أتعجب من طوافى حولها وادّكارى مراتعها وأنت تزعم ان الوفاء خلق كريم وأن الحنين رديف الوفاء ؟ أتعجب أنى هُرعت الى الماضى اجتليه وأنى زهدت فيما هو ماثل أمامى من حاضر يورث السقام ؟ أتعجب أنى لا أحدثك عن مستقبل مجهول التوقيت معلوم الملامح وأنت تقرأ قول الحق تعالى (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ؟ فمتى نغير ما بأنفسنا ياترى ؟ والى ان نحدث بأنفسنا هذا التغيير الذى هو شرط التغيير الالهى الموعود فانى ادعوك الى ردهات الماضى لأنى اشفق عليك من حاضرك البئيس الذى تلتقى فيه احلامك المواضى وأنت مذهب نفسك عليها حسرات ، بأمانيك المستقبلية وانت باخع نفسك على اثارها ، ثم تبقى هاتيك الأحلام والأمانى أسارى زمانك هذا الذى أنت فيه لاتعدوه ولاتريم . وانى

لأعلم ان هذا الذى اخطه بيميني قد لايجد طريقه اليك ولايبلغك . او قد يتأخر كثيراً فى الوصول اليك . وذلك لان الذي بيننا وبين الطباعة والنشر والتوزيع انما هو عقبات جسام كأداء . لغلاء الاسعار ، وقلة اليسار ، وشدة الاعسار ، وغيبة الايثار ، وأثرة الصغار ، وصغر الكبار ، وتفشى البوار . انعكست الاية ، واستشكلت الغاية ، وكثرت الغواية ، وانطوت الراية عند نقطة البداية ، لغيبة الدراية ، واقتربت النهاية ، فماهى الحكاية ؟ أعذرنى على هذا السجع فانى لا أحسنه لكنه لايدعني ! لقد طلب منى بعض الاخوة ان أعيد كتابة «صدى السنين» بتفصيل ادق ، لانهم مشدودون – مثلى إلى ذلك الصدى ، مدنفون بذكرى تلك الاويقات . وما كان كتيب «صدى السنين» فى حقيقته الا رسالة عجلى بعثت بها الى الاخ الحبيب كمال حمزة فألبسها من وفائه الصادق تلك الحلة الزاهية . وطلب منى اخوة آخرون أن أكتب عن ايام الجامعة ، فتلك ايام ملأى بأحداث شتى وأقوام ميامين . فلئن قدر لهذه الصحائف التى اقدم لها بهذه الكلمات ان تجد قبولاً او بعض استحسان او مايشبه ذلك فلعله يعزز من هممى إذا يسر الله ومنّ بالقدرة والعافية . وليت هؤلاء واولئك يعيوننى بما يختزنون فى الذاكرة من صور الناس والأحداث والمكان والزمان ، فان ذلك يجعل مهمتى أيسر قضاءً واوفى بلاغاً . واذا كان ذلك الكتيب الصغير قد حمل اسماً كبيراً فكيف لى بتسمية هذا الحديث الطويل ؟ هذا يشق علىّ كما شق غيره على غيرى فقال :

كأنى مريغ فى الديار طريدة ٠٠ أراها أمامى تارة وورائى

ولكن لماذا ندور حول الاشياء وحول أنفسنا ؟ اليست هذه الذكريات قديمة ؟ فلماذا لا نسمى الاشياء بأسمائها ؟ غير ان العجلة من الشيطان . فهذه الذكريات لاتخلو من محتوى عبثى صرف ، ولكن نسبتها اليه مظنة اتهامنا بفساد الذوق . فمنذا الذى يجمع عبثاً خالصاً فى كتاب ؟ لقد دوختنى التعاريف اللغوية التى تطلق على تلك الأعمار الغضة الحافلة بالعبث ، وأعيتنى محاولة التفريق بين الحداثة والطفولة واليفاعة (اواليفوعة) والصبا . فان نسبت هذه الذكريات لأى من هاتيك فانى لا آمن مكر أهل

اللغة ونعيهم عليّ جهلي وقلة إلمامي بحقيقة الفروق بين هذه الألغاز اللفظية . ويخيل الى أني واجد في القدم متكأً مريحاً أسند اليه ظهري وأنسب اليه هذه الذكريات . ولكني أخشى ايضاً من علماء التاريخ ، لان القديم عندهم قد يكون قريباً من بداية الخليقة . فهم اذا حدثوك عن تاريخ السودان الحديث فاعلم انك ربما تكون على موعد مع أحداث وقعت في مطلع هذا القرن الذى توشك شمسه ان تغيب وتتوارى عن الوجود . وانا لست ادرى بعد كل هذا ان كانت كلمة الحديث هذه صفة للسودان او التاريخ في هذه العبارة . وقد يكون من الأسلم ان نختار نعتاً فضفاضاً بعض الشئ لهذه الذكريات ، كقولك متباينة او متنوعة او متفرقة او ما شابه ذلك . غير اننا لانظفر من ذلك بغناء ، ولا نعود بطائل ، لانها لابد ان تكون كذلك سواء أطلقنا عليها هذا الوصف او لم نطلقه.

غاية الامر اننا – كما اوضحت لك من قبل – امة مولعة بالذكريات كلفة بها عاشقة لها . وليس من شروط هذا العشق ان نكون قد عشناها بالفعل . واية ذلك اننا كثيراً ما نقرأ ذكريات غيرنا فتعجبنا أشد العجب ، ربما لاننا نرى فيها أنفسنا ونلمس فيها شبهاً بالظروف التى كانت تحيط بنا . وعلى الرغم من ان الاحباب الذين نذكرهم على متن هذه الصفحات أناس حقيقيون وان الأحداث التى نرويها لك قد وقعت بالفعل الا ان ما وراء ذلك من تصاوير وتفسيرات وتأملات انما هى قراءة صادقة في الوجوه ونظر متمهل او غير متمهل في الحدث والزمان والمكان ، واجتلاء حر طليق لما دق وانبهم من معانٍ واشارات كانت كامنة كمون الدر في بطون الأصداف . تلك أيام زاهيات ضواحك مضت سراعاً وكأنها لم تكن . يلذ لنا ان نعود اليها ونتمرغ في سراب نعيمها لاننا نعلم انها كانت عجلى وانها تقضت ولن تعود، ونعلم ان نعيمها لم يبق منه الا هذا السراب الذى نراه بعيون الذاكرة والخيال ، ولا تلامس حواسنا منه الا مثل ما لامست ثياب ابى الطيب عند الشعب (دنانيراً تفر من البنان) . هل ترانا نعدو الحقيقة اذا وصفنا هذه الذكريات بانها (حبيبة) ؟ وأى شئ احق بالتذكر والمحبة والحنين من ايام (الجهل) الغر وساعات ربيع العمر ؟ الم تر الى العباسى – يرحمه الله – كيف حنَّ إلى

صباه وتمنى على أحبابه الأماني حين سالت روحه وجداً في كلمات ؟ فانظر الى هذه الروعة في قوله :

يا من وجدت بحبهم ما أشتهى .·. هل من شباب لى يباع ويشترى ؟
ولو انهم ملكوا لما بخلوا به .·. ولأرجعونى والزمان القهقرى
لأظل أرفل فى نعيم فاتنى .·. زمن الشباب وفُتُّهُ متحسرا

واذا كان الزمان كنوداً وعنيداً لايلين ولايرق فيرجع القهقرى فان الذاكرة وفية طيعة قادرة على مثل هذا العود الأحمد حيناً بعد حين فدع الزمان وشأنه ، (ذلك ماكنا نبغ)، ولنعد بهامعاً ، نرتد على آثارنا قصصا . وعلى ما يغلب على هذه الصفحات من أخبار عبث الطفولة وطرائق التعبير عنه فى تلك الايام فانها ايضاً تتأمل بعض قسمات من اوجه تلك الحياة التى انقضت ، وتنقل اليك أطرافاً من ملامح جيل من بين طلائعه اساتذة أجلاء نذروا أخصب ايام العمر لتربية الناشئة وتبصيرهم بسبل الفلاح . ولو ان ابناء تلك الحقب يكتبون لوافانا منهم ماهو أهدى من هذا الذى نكتب ، ولظفرنا منهم بخير عميم . ولست أزعم أن فى هذا الكتاب فائده تذكر من قبيل الموعظة أو التجربة . غير أنى آمل أن يطلع عليه الناس ، وان يثير فيهم الرغبة فى تدوين ونشر ماهو اجدى وأنفع واحق ان يتلى للتسلية والمتعة الذهنية على أقل تقدير . فان هو أوحى بمثل هذا الى من لايزالون عازفين عن امتشاق القلم وهم كنوز علوم ومعارف وخزائن تجارب وطرائف ، فان ذلك هو اقصى ما ابتغيه ، وهو مغنمى الحقيقى من وراء هذا السفر الذى بين يديك . أسال الله ان يوطئ له القبول ، وان يلهم قارئه الصبر عليه والدعاء لكاتبه بالخير . وأساله سبحانه وتعالى لي ولك المغفرة والعافية والمعافاة التامة الدائمة في الدين والدنيا والاخرة ، انه سميع مجيب .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

دكتور موسى عبد الله حامد

غرة شعبان ١٤١٧هـ الموافق ١١ ديسمبر ١٩٩٦م
ام درمان – البقعة المباركه


الباب الأول

مقبلٍ مدبرٍ معاً :

فى أول يوم لنا فى السنة الاولى دخل علينا فى فصلنا «الثوانى» بحى بيت المال الشيخ ابوبكر عبد الله استاذ الدين والقرآن . وكان التلميذ محمد عثمان ابراهيم - «الكبتل» فيما بعد - قد تم تعيينه «ألفة» للفصل . وقد أهله لهذا الموقع القيادى الخطير طول قامته وكمال جسمه وشئ من البسطة فى السن . . وان كان من بين اولاد الفصل من يضارعه فى تلك المؤهلات . الا انه لسبب او آخر قد اختير لتلك المهمة وظل متلبساً بها حريصاً عليها حتى آخر يوم لنا فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى . فاعجب لولاية بالتعيين دامت أربع سنوات دون ان يحدث عليها احتجاج من أحد ، ودون ان يصيب اميرها الضجر والملال !

دخل الشيخ ابوبكر الفصل لاول مرة فوقفنا جميعاً لتحيته . وعندما أمرنا بالجلوس أخذ كل منا يتفرس فى وجه اول استاذ في حياتنا الدراسية الجديدة . فاذا بنا امام شيخ يرتدى الجبة والقفطان ويضع على رأسه عمامة قصيرة تلتف في نظام وعناية بادية حول غطاء للرأس أحمر اللون يشبه الطربوش ويختلف عنه ، وهو ما علمنا فيما بعد انه يتخذ مع «الككولا» الذى هو تقليد أزهرى . وكان الشيخ قواماً بين الطول والقصر وبين البدانة والنحافة ، غير انه ابان منذ اللحظة الاولى انه على قدر هائل من الحيوية والمكر والدهاء ، وكان من ابناء الموردة فى فصلنا التلميذ محمد على مقبل وهو تلميذ مرح ذكى يمتاز بخفة روح حببت فيه زملاءه . وهو وان كان يدين بولاء خاص ومقدم لمجموعة اولاد الموردة فى الفصل الا انه اوتى مرونة فى علاقاته بالناس وكان احد الاسباب الهامة للوصل بين تلك المجموعة الصارمة وبقية اولاد الفصل . . تماماً كما كان بعض أصدقائنا فى مدرسة خور طقت من بعد سبباً للاتصال الحميم الذى أثمر مودات باقية بين اولاد كردفان ودارفور من جهة واولاد البحر من جهة اخرى . قال الشيخ ابوبكر · من منكم يقرأ لى سورة من القرآن ؟ فرفع محمد على مقبل يده وهو يشير بسبابته ويقول : فندى فندى . . انا . فقال له الشيخ . ما اسمك ؟ قال :

محمد على مقبل . فقال الشيخ بارتياح ظاهر وهو يبتسم ابتسامة لم تترك لى ريبة فى مكره . ما شاء الله . . مقبل اسم جميل . . . الولد مرآة البيت . . الاقبال صفة الناس الطيبين . . لعله اسم على مسمى . . « أقرا لنا » يا مقبل . فبدأ مقبل بالاستعاذة ، ثم البسملة . . ثم ارتج عليه وتلعثم ، وطارت وضاعت منه الايات ، وضاق ذرعاً بما ادخل فيه نفسه من مأزق . . وكادت نظرات الشيخ المنكرة تخترق جسده اختراقاً وتوشك ان تستحيل الي كلمات تصب على راسه الحمم والحميم . . ومن خَبِرَ مثل هذه المواقف يعلم جيداً ان مثل هذه النظرات الساخرة التي كان شررهايتطاير من عين الشيخ كالنبال من قوس السهام لاتورث كل من تستهدف الا مزيداً من الحيرة والارتباك . ولو ان مقبلاً قرأ سورة الفاتحة او سورة الاخلاص او احدى المعوذتين لنجا بجلده من ذلك اللسان القارص الذى كتب علينا ان نصبر على لسعاته المتتابعة طوال بضعة أعوام ! ولكن مقبلاً لم يبلغ من أمره مبلغاً بعد الاستعاذة والبسملة واحاط به عجز لم يسعه معه الا ان يعلن فى يأس حزين · يافندى ما حافظ ! فصاح به الشيخ ابوبكر هازئاً مردداً مقولته بلهجة ساخرة مؤذية : يافندى ما حافظ . . يافندى ماحافظ . . ثم اردف متندراً : انت مقبل ؟ انت ماك مقبل . انت مدبر . . وظل يناديه مدبراً فيما بعد حتى كره ذلك وكرهناه . ثم قال مخاطباً الألفة : ألفة .. أدو صفر من اطناشر واكتب قدامه - يعنى امام اسمه - هؤلاء قليلو الأدب ! والتفت الشيخ من بعد ذلك الي بقية اولاد الفصل طالباً من يقرأ . وكنت احفظ شيئاً من القرآن فرفعت يدى مشيراً بسبابتى واذن لى الشيخ فتلوت سورة النبأ - عم يتساءلون - حتى آخرها . فسعد الشيخ ابوبكر ايما سعادة ولقبنى بالشريف قائلاً الشريف ولد مهذب يحفظ القرآن . ثم قال للألفة : ياالفة ، الشريف ادو اطناشر من اطناشر واكتب قدامه : فتح الله عليك وعلى والديك . ولقد سرنى هذا الظفر الذى أصبته ، ولم أكن أدرى ان الايام تخبئ لى سقطة في نظر هذا الشيخ نفسه تهوى بى الى مكان سحيق . . ولو كان مقبل يدرى ذلك او يتوقعه لصبر وتذرع بالأناة والتغافل حتى أصير الى ما صار اليه فى نظر الشيخ ، فما

اسرع ما كان الشيخ يغير رأيه في الناس ! ولكن الذى حدث أغضب مقبلاً اشد الغضب فأسر في نفسه مالم يبد امام الشيخ . وعندما خرجنا للفسحة اتى الى وعيناه تشعان بشر مستطير . وخاطبنى قائلاً : يعنى انت أرجل منى ؟ قلت له : نعم انا أرجل منك . قال لى : طيب طالعنى الخلا . قلت : مرحباً . وذهبنا الى ركن قصى من فناء المدرسة نشتجر ولكن على مرأى من بقية التلاميذ ، ودار بيننا عراك مشهود . ورغم أنَّ مقبلاً كان أوفر منى بنية في الجسد فقد تمكنت من طرحه ارضاً وجلست علي صدره . . فخف الينا بعض الزملاء وخاصة الكبار منهم وفضوا النزا ع وباعدوا بينى وبينه ، رغم ان الكثيرين كانوا يرقبون تلك المعركة من بعد ويشيرون بأصابعهم فى شئ من الاعجاب والارتياح لايخفى . ومهما يكن من امر فقد كانت تلك المعركة التي لم تدم طويلاً ولم يكتب فيها النصر الكامل لأى منا بداية صداقة حميمة ربطت بينى وبين الاخ مقبل طوال سنى ام درمان الاميرية الوسطى وخور طقت الثانوية وما بعدهما من مراحل الحياة . وقد سار علي مقبل اسم مدبر الذى اطلقه عليه الشيخ فكنا ندعوه به مداعبين فلا يغضب ، ولم يكن هذا بشئ ، انما المصيبة انه منذ تلك اللحظة التى قرر فيها الشيخ انه مدبر ظل نصيبه عند الألفة صفراً من اطناشر مهما اجتهد وحفظ سور القرآن . وذلك ان الشيخ ابابكر كان كذلك . . اذا قصرت قامتك فى نظره فانها لا ترتفع بعد ذلك ابداً . . حتى لو بلغت الجبال طولا ! ولعلَّ من حسناته انه يبدؤك بحسن الظن . فان ألفاك أهلاً لحسن ظنه كان نصيبك اطناشر من اطناشر حتى ولو لم تحفظ شيئاً من القرآن وان كانت الاخرى فأنت صاحب صفر من اطناشر حتى ولوكنت من حملة القرآن وعلماء التفسير وأسباب النزول ! ليس ذلك فحسب ، ولكن على الالفة ان يكتب امام اسمك : هؤلاء قليلو الادب . وصيغة الجمع هذه تعنى بوضوح ان هذه القائمة فيها متسع رحب لغيرك من الناس . وهى قد بدأت بمحمد علي مقبل كما راينا ، ولكن حكمة الشيخ وفراسته هى التى هدته الي استخدام صيغة الجمع ، اذ كان يبصر من وراء الغيب ان الذين ستشملهم هذه العبارة كثيرون . فانظر الي هذا

الاستعداد الواثق لسلك التلاميذ فى هذه السلسلة التى كان الشيخ يطلق على كل مرتاد جديد لها قوله : انت ماك نافع ! ولقد صدقت نبوءته ايما صدق - اوقل تحققت مقاصده ايما تحقيق - لان عدد الحاصلين علي صفر من اطناشر ، ومن بعد ذلك بالضرورة هؤلاء قليلو الادب قد اخذ يتنامى في اضطراد حتى شمل أحب التلاميذ اليه، وهم - بجانب الألفة - الدرديري وعكود والحبيب . فقد كان يناديهم بهذه الاسماء ، وهم الاخوة الأصدقاء : عبد الرحمن الدرديري - عليه رحمة الله - وقاسم عبد القادر ابوعكر واحمد الحبيب حسين . اما الشريف - وهو كاتب هذه السطور - فقد ظل ينال اطناشر من اطناشر ووسام : فتح الله عليك وعلى والديك حتى كان ذلك اليوم الكالح البئيس الذى طلب منى الشيخ فيه ان اقرأ سورة « ويل للمطففين » فكان منى ومن هاشم محمود ما سنرويه في هذا الحديث . ودخلت - اوقل ادخلت - دائرة غضب الشيخ من اوسع ابوابها ولحقت بصديقى مقبل على جمل اصهب وحتلت معه ومع غيره من ضحايا الشيخ الى مستنقع الصفر الذى لايهوى الى دركه الاسفل احد الا اخلد اليه وبقى فيه لايرفع منه راساً لان الشيخ يعجبه ذلك ويستهويه . ولقد حدث لى ذلك في السنة الثالثة . وعندما بلغنا السنة الرابعة - والشيخ هو مدرس الدين خلال السنوات الاربع - لم يكن قد نجا من خزى الـ «صفر من اطناشر» وميسم هؤلاء قليلو الادب الا هؤلاء الرهط الاربعة . . الكبتل الالفة واضلاع المثلث . وكان الشيخ قد ادرك او ايقن ان ذلك ليس من العدل في شئ . واية ذلك انه جاءنا فى ذات صباح عاصف وهو فى حالة اقرب للهياج منها لهدوئه المعهود . وطلب التسميع دون سابق انذار ، ودون ان يرتل علي اسماعنا شيئاً من آيات الله كعادته فى ابتداء الدرس ، فكان اول ما انهار هو اضلاع المثلث كما كان يسميه . . مثلث الدرديري وعكود والحبيب . ويبدو ان كلاً منهم كان يعتقد انه قد اصبح في مأمن من غضب الشيخ وبأسه ، وكان الأحوط الا يركن احد منهم الى هذا الامان الزائف . . فقد انتهوا تباعاً بعد ذلك اليوم الى القائمة المعلومة - قائمة صفر من اطناشر وهؤلاء قليلو الادب . ثم لم يبق امام الشيخ الا

الالفة نفسه ، وكأنه اراد ان يورده موارد السوء ذاتها . . ولاول مرة منذ ازمان طويلة يطلب الى الكبتل ان « يُسَمِّعَ » سورة من السور . وكان الكبتل كغيره قد انس بثقة الشيخ وقر بها عيناً ، وفاتت عليه حكمة من قال :

اذا تم امر بدا نقصه ∴ ترقبْ زوالاً اذا قيل تم

فهو لم يدر ان الشيخ لا امان له ولا عاصم من غضبه . وان كان هناك عاصم فهو القرآن كلام الله لا عاصم سواه . ولكن أنى له في تلك السنوات مثل هذا الإدراك ! وهو قد ركن الى السلطة – سلطة الالفوية ، واخلد الي تكليف الامانة – امانة الاحتفاظ بدرجات زملائه وقد تكاملت كلها صفراً ، وامانة الاحتفاظ بنياشينهم – وقد تناهت كلها الى نيشان «هؤلاء قليلو الادب» فهل يعقل ان يبقى هو في مأمن مما صار اليه زملاؤه كلهم ؟ عندما طلب اليه الشيخ ان يقرأ كانت المفاجأة عظيمة بالنسبة لـه ، فـاذا بـه « يتنحنح » مراراً ثم يبدأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فلم يمهله الشيخ حتى يأتي بالبسملة وانما صاح به مستنكراً في تساؤل ساخر : أعوذِ ؟ (بكسر الذال) ؟ . . . لا اعوذُ بالضم . سبحان الله ، حتى القواعد مابتعرفوها ؟ ثم لم ينفعه شئ بعد ذلك فرغم ما أتى به من آيات خلطها بشئ من الهذرمة في محاولته اليائسة للنجاة الا ان الشيخ كان قد اصدر حكمه عليه ، وماهي الا لحظات حتى قال له : والألفة كمان سجمان . . الفة أدى نفسك صفر من اطناشر واكتب قدام اسمك هؤلاء قليلو الادب ! وهكذا انتهى بنا الامر جميعاً مع الشيخ ابى بكر الى هذا الدرك الاسفل . ولقد كان سرور محمد على مقبل بالغاً ، فهو الذى ظل في قائمة الالفة على ذلك المنوال منذ السنة الاولى ، رغم تكاثر اللاحقين به تباعاً بين الفينة والاخرى . ولكنه كان شديد الموجدة على الكبتل والثالوث المقرب ، فلما شهد مصارعهم في ذلك اليوم والايام التى تلت استبشر خيراً لانه كان جازم الاعتقاد بان « موت الكتيرة عيد » وان عموم البلاء رحمة . . . اوقل مدعاة للرحمة . وحقاً هكذا كان الامر ، اذ ان شدة الشيخ على التلاميذ وحملهم الي تلك المهاوى شكل حافزاً قوياً لهم على اجتماع الهمم وانبعاث

العزائم ، اذ العبرة الحقيقية هى بما يؤول اليه امرهم فى نهاية السنة الرابعة . وليس سراً ان اغلبيتهم العظمى قد حققت نجاحاً مرموقاً بدخول الثانويات : وادى سيدنا وخور طقت وحنتوب . وحتى القلة التى لم توفق فقد دخلت المدارس الثانوية الاهلية ، فنال جميعهم حظاً من التعليم عالياً في تلك الازمنة . ورغم ان سخرية الشيخ ابى بكر كانت كاوية وحارقة الا انها اثمرت دفعاً قوياً للهمم ، فكان محمد على مقبل بعد تخرجه من خور طقت مقبلا بحق إذ أنه صار فيما بعد ضابطاً فى القوات المسلحة عند تخرجه بتفوق من الكلية الحربية ، حيث يحمد الاقبال ويعاب الادبار . . (الا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة) . الانفال ١٦ . لقد كان محمد على مقبل محبوباً بين زملائه طوال سنوات ام درمان الاميرية وفي خور طقت الثانوية لمع نجمه بين اقرانه وبرز بمقدراته الفائقة على استحداث الملح والطرائف ، وصار من اساطين « الكديت » ومن أحب جنوده للمدرب العم الصول يوسف . واشتهر مقبل باستهانته بالمتاعب واستهزائه بالخطوب وافتعاله للدعابات لتخفيف وقعها على النفوس . فلما صار امتحان الشهادة الثانوية « كيمبردج » على الابواب فى برد شهر ديسمبر القارص كان مقبل قد بلغ من هزله مبلغاً استطاع معه ان يستقطب الي فلكه احد الطلاب الذين اشتهروا « بمصاقرة » الكتب وإكثار الحملقة فى معمياتها . . ذلك هو محمد عبد العزيز الذي اطلق عليه احمد وادى كنية « أب لاطومة » . ولست ادرى ان كان ذلك لحسن بلائه فى القولى بول ام فى الصفرة (غرفة الطعام) فقد شهد له الجميع بحسن البلاء فى كليهما ! واما مقبل فقد كان بلاؤه في الثانية اكثر وضوحاً ، وهو واحد من قلائل اذا رايتهم خارج الفصل او خارج الداخلية فاعلم ان جرس خالد وشيك القرع ايذاناً بموعد الشاى او الوجبة ، وان العالم پاڤلوف لو عثر عليهم فى تلك البقاع لما احتاج الى اجراء كل التجارب المضنية ولايقن ان توقيت الفطرة اصدق انباء من صلصلة الاجراس !

ومن عاصر محمد على مقبل فى امدرمان الاميرية يذكر كيف كان يكاد « يدوخ »

من محاولة تفهم الخرائط . ففي بدايات دروس الجغرافيا كان الاستاذ يعلمنا طريقى من مكانى الي مكتب المدرس ويطلب منا ان نوضح ذلك رسماً على الاوراق ثم نهتدى بهذا الرسم للوصول الى الهدف المطلوب . وهو مازال بناعلى ذلك حتى عرفنا طريقنا الى صهريج المياه وتوابعه على شاطئ النيل . وانى لاذكر كيف كان مقبل يجد صعوبة في رسم طريقه الى مختلف الفجاج والنواحى وكيف كان يلقى فى سبيل ذلك العنت من قبل الاستاذ . ولكنه فى خور طقت لم يكن فى حوجة لخرائط او رسومات ليستبين طريقه فقد اغناه اكتمال حاسته السادسة من كل ذلك واثبت فى خاطره ساعة مثل بق بن تنبئه في الوقت المناسب ان جرس خالد وشيك الصليل ، وان هجو ورفاقه يمسكون بمقابض الابواب ايذاناً بترحاب الصفرة بالقادمين . فليس من عجب ان يكون مقبل فى طليعة هؤلاء وهو يردد نشيد الاميرية القديم الذى كان يحفظه عن ظهر قلب ويتلوه وهو فرح ضاحك :

we walk a mile . and rest a while we are five miles form home .

والاميال الخمس تصير اربعاً ثم ثلاثاً الى ان تنمحى ويتم الوصول . ولكنها صارت عند مقبل ثوان خمساً لاتزيد . فهو اول من يدخل غرفة الطعام . هذا امر أعرفه . وقد أكد لى محمد العوض انه آخر من يغادرها . ومحمد يضحك من ذلك ، ولكنه فى حضرة مقبل يبدى اعجابه بهذا الانضباط ويمتدحه ويطريه حتى اذا تهللت اسارير مقبل وفهم ما اراد له محمد ان يفهم كاد محمد ان ينشده : ان وردن بجيك فى اول الواردات ، مرناً مو نشيط ان قبلن شاردات ، ولكنه كان يخشى ان ينفجر هو نفسه ضاحكاً فينكشف المستور !

ولقد كان مقبل علي ايام ام درمان الاميرية من التلاميذ المعجبين برهان « الكرتلة » . فقد اتانا بها مراراً وعرضها علينا مؤكداً ان الرابح الذى يكسب النمرة الرابحة – سيتلقى قلم حبر ، واحياناً صندوق بسكويت ، وطوراً ثالثاً علبة حلاوة . وقد كان بعض الطامعين يشرون اكثر من نمرة واحدة وخاصة هاشم الأطرش ، فالنمرة الواحدة تكلف قرشاً واحداً وأحياناً تعريفة لا تزيد . ويبقى كل منا أياماً يتطلع الجائزة

الثمينة التى يحضرها مقبل بالفعل ليراها الجميع . بل ان بعض التلاميذ يبتاعون نمراً آخرى جديدة اختصاراً للزمن لأن الكرتلة لا تفتح ليعرف الرابح - او النمرة الرابحة - حتى تبتاع كل النمر . على كل فقد كان مقبل يخبرنا فى كل مرة ان الكرتلة قد كسبها احد اولاد الحلة ، وهو دائماً شخص لا نعرفه ! ولما لم يكن فريق أوحى المورِدة قريباً من خور طقت فقد ادار مقبل ظهره لرهان الكرتلة نهائياً عندما بلغنا تلك الديار . وقد فعل ذلك في الوقت المناسب . واسلوبه هذا الذى كان يتبعه معنا في رهان الكرتلة يذكرنى باحدى طرائف موسى ودنفاش في تعامله مع حمار هريدى الشهير . فقد قيل ان ودنفاش اصبح ذات يوم في حالة فلس شديد . واثناء سيره وجد حمار هريدى وهو مسرج وعلى سرجه فروة ريف آخر صيحة ، وعليه لجام محكم حسن الهيئة . فراودته فكرة لم يتردد فى انفاذها لحظة واحدة . فما كان منه الا ان اطلق الحمار من عقاله واقتاده على تلك الهيئة البهية حتى بلغ به سوق الشجرة حيث ابتاع « كرتلة » وذهب مسرعاً بها وبالحمار إلى بعض أصدقائه ومعارفه هناك وأعلن لهم أنه « أخرج حماره فى الكرتلة » . فلما باع اغلب نمرها وتسلم أثمانها عاد بالحمار واعاد ربطه فى ذات مكانه الذى اخذه منه . وبعد ايام سأله اصدقاؤه عن نتيجة رهان الكرتلة ومن الذى كسب الحمار . فقال لهم : كسبه هريدى ! هكذا عاد حمار هريدى لصاحبه وقد افاد من ورائه ودنفاش خيراً كثيراً . ويقينى الجازم ان كرتلات مقبل المتعاقبة والتي لم نعلم على وجه اليقين من كان الفائزون برهانها لم تكن الا شيئاً شديد الشبه بكرتلة حمار هريدى. فقد سبق مقبل ودنفاش في هذا المضمار مراراً دون ان يدرى .

نعم هذا هو محمد على مقبل الذى سماه الشيخ ابوبكر مدبراً . فهو تلميذ ذكى شديد الهزل . وانى لاذكر أنى التقيته مرة فى مطار الخرطوم بعد ان أعفى من الخدمة في القوات المسلحة وكان ذلك على عهد النميرى . وقلت له : البعض يتهمونك بالضلوع في محاولة انقلاب . فواتته حاسته السادسة وقال لى بصوت عالٍ وهو يضحك ليسمع من حولنا ممن ظنهم من رجال الأمن : « يا أخى انقلاب شنو ؟ والله الواحد فينا لما يرقد

ما يكون عارف الجنبو دى كراعو هو ولاكراع ولدو . لقد فهمت ما كان يريدهم ان يفهموا وآمل ان تكون قد فهمت انت ايضاً قارئى العزيز . كان مقبل ايضاً دنيا من المكر والدهاء !

محمد العوض مصطفى . . . الدرة الغالية :

ثم ، كيف لى ان أنسى صديق الصبا ورفيق تلك الايام الزاهية النواضر ، الاخ الحبيب محمد العوض مصطفى عليه رحمة الله ؟ كان محمد العوض تلميذاً فريداً أثيراً بين زملائه وشخصية مرحة الى أبعد الحدود . ورغم انه ينتمى الى الموردة موطناً ومذهباً كروياً الا انه اختلط بكل زملائه اختلاط الهواء النقى بخلايا الجسم ، وذاب فيهم ذوبان السكر فى الماء . . وصار - فى وقت قصير - محط اعجاب زملائه ومحبتهم . ولقد أوتى - على خفة روحه وحلاوة معشره - مقدرة فائقة على السخرية من كل شئ . . من الدروس ، ومن الأساتذة وزملاء الفصل ، ومن اداء الكثيرين من التلاميذ فى مباريات كرة القدم والليالى الثقافية التى كانت تتلى فيها الأشعار والنوادر والملح . وهو تلميذ ذكى متفتح الذهن خصب الخيال ، كثير الضحك حتى على نفسه فى بعض الاحايين . ولقد استطاع ان يؤاخى بين ابناء الموردة وغيرهم من تلاميذ الفصل ، وأبلى فى ذلك اعظم بلاء . ذلك ان ابناء الموردة - وعلى رأسهم محمد الحسن الشايقى وهاشم مصطفى - كانوا يستعينون على غيرهم باخوان لهم من الموردة لم يكونوا تلاميذاً في ام درمان الاميرية ، ولعلهم لم يكونوا تلاميذاً على الاطلاق ، لانا كنا نلتقيهم في ساحة المولد فنبصر عمالقة ذوى سحنات داكنة واوجه تنطق بالوعيد والثبور . فكنا نتحاشاهم ، وربما خطب بعضنا ودهم وهش فى اوجههم تقية ورجاء للسلامة والعافية . فانك ان امنت جانب هؤلاء غشيتك السكينة من سائر جوانبك الأخرى وصرت فى حرز امين . غير انهم لايتركونك وشأنك وان اكرمت وفادتهم وبذلت في سبيل استمالتهم اليك ماتستطيع ، لانهم لايبغون لفرض السيادة علـى غيرهم بديلاً ، ولا يألون جهداً في التذكير بشدة بأسهم وصعوبة مراسهم . وفى ذات مرة

التـقت ثلة من اولاد فـصلنا في خـيـمـة الانصـار فى المولد ، وكـان صلف المورداب واستهانتهم بنا قد بلغ من انفسنا مبلغاً عظيماً اثار فيها قدراً كبيراً من عدم الرضا واحساساً بالضعف والهوان كبر عـلى إبائنا ضيمـاً ان يتقبله ويذعن لما يمكـن ان يتـريتب علـيه مـن « ملطشة » وصغار . فخلصنا نجياً نتفاكر في هذا الامر ونتدبر مخرجاً يحفظ علينا كرامتنا بين الناس . وكان بين ظهرانينا الصديق الحاج محمد عثمان ابراهيـم (الكبتل) ، وهو الفة الفصل ، وكان طويلاً تليعاً يكبر زملاءه ببضعة سنوات دون ريب ، ولذلك انعقد له لواء الزعامة ، وبايعه حتى الصقور على القيادة والريادة . قال لى الكبتل في ذلك المساء بصوت مرعد واثق وروح مقدامة غير مبالية : الى متى نحن نداهن هؤلاء القوم وهم يمعنون فى الصلف والكبرياء ؟ والى متى نسكت لهم على هذه الحقارة وهذا الاستخفاف بنا ؟ ! ألسنا رجالاً مثلهم ؟ قلت له : وما العمل ، وواحدهم يستطيع ان يصرع ثلاثة أو أربعة منا دون عناء يذكر ؟ قال لى : فلنذهب اليهم ذات امسية فى عقر دارهم ونتحرش بهم لننزل بهم هزيمة لن ينسوها ابداً تكون لنا عيداً ومفخرة ، وتضعنا فى مكاننا اللائق . فلما رايت حماسته وصادق استعداده للنزال وافقت على الخطة ، ووافق الاخرون . وحددنا الموعد فاجتمع ستة نفر منا كلهم عتاة ماعدا شخصى فقد كنت اقلهم شأناً فى هذا المضمار الذى تؤهل له بسطة الجسم دون غيرها . وفى المساء المحدد حملنا بعض العصى الخفيفة وذهبنا الى الموردة . فاذا بجمهرة من غرمائنا منبطحين على الخور غير بعيد من نادى الموردة الذى كان قريباً من حى الهاشماب في تلك العهود . ولما بلغناهم بدأناهم بالتحية فلم يحفلوا برد السلام وكأنهم علموا بأمرنا ومابيتنا عليه النية . وبعد قليل صاح أحدهم بنا وهو منبطح على حافة الخور مثل الورل قائلاً : مـاذا تريدون هنا ؟ فر د عليه الكبتل فى ثبات اضفى علينا روحاً من الجـرأة والاستبشار بالنصر : نريد رقابكم وأنفاسكم . وكانت كل خلجات نفسه تنشد فى ارادة وتصميم :

ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم ⁘ وليس لنا إلا السيوف وسائل

ثم هجم عليه بعصاه الصغيرة ، وفعل ذلك بقيتنا على من كانوا معه . ودارت بيننا معركة حامية ، وثار النقع وارتفعت العجائز بالسباب . وبان لنا بعد قليل أننا نجالد عمالقة وعتاة لا قبل لنا بهم ، فسرعان ما طارت هراواتنا من ايدينا ، وضيق علينا القوم الخناق ، حتى صاح الكبتل قائلاً : الهرب والنجاة ! وبدأ سباق « الماراثون » اذ اطلقنا سيقاننا للريح وفى مقدمتنا الكبتل قائد الحملة وصاحب فكرة الهجوم المباغت ، ومن ورائنا اولئك العتاة الضخام المتمرسون ، يشيعوننا حصباً بالحجارة ورشقاً بالشتائم وتعييراً بسبة الفرار ، يكادون يمسكون بتلابيبنا من فرط قربهم منا ، ونحن نعدو عدواً ننتهب الخطي انتهاباً ونطوى الارض طياً . وماهى الا لحظات حتى بلغنا جامع الخليفة ، وهم من ورائنا حذو النعل بالنعل توشك ايديهم ان تمسك برقابنا فتفصل الرؤوس عن الاجساد . وما ان بلغنا ساحة المولد التي كانت تعج بالناس حتى انخنس بعضنا وانزوى فى حلقات الطار وصفوف الذاكرين ، وبلغت أنا خيمة الانصار بعد جهد جهيد لاجد صديقى الكبتل هناك وانفاسه كأنها مرجل يغلى . وفى ذلك الجناب الآمن تراجع عنا من بلغ منهم فى مطاردتنا تلك التخوم ، فقد علموا يقيناً ان من بلغ تلك العرصات واحتمى بها فهو آمن ، وأنبأهم احساسهم الصادق انهم ان اوغلوا اكثر من ذلك فستكون عاقبتهم خسراناً مبيناً . اما الكبتل فقد كان فى حالة من الهلع لم يشعر معها انه اصيب بفكك في قدمه اليمنى جعلت خاله عم محمدين يحمله الى ودبتى في اليوم التالى . وظلت خطاه تتعثر من ذلك الفكك - رغم تطبيب ودبتى -اياماً وأسابيع ، حتى شفاه من ذلك الشافى .

وبلغ امرنا محمد العوض كما بلغ غيره . ورغم ان محمد العوض - صاحب الخيال الخصب والروح المرحة - قد نسج حول هذا الحدث الاقاصيص التى بهدلت سمعتنا في نظر التلاميذ ، الا انه فى نهاية الامر ، وبعد تدخل بعض الصقور فى فصلنا لصالحنا ، قاد مجهوداً جباراً انتهى بمصالحة بيننا وبين المورداب ما وسعنا الا ان نتقبل شروطها المجحفة في حقنا مذعنين واهمها ان نعلن تعهدنا بالامتناع عن الذهاب الى حى الموردة

لأى سبب من الاسباب ، وان فعلنا ذلك حنثاً بالعهد فلا نلومنّ الا انفسنا . قبلنا هذا الشرط على مضض منا ، وسلمنا لهم بالنصر ونحن نلعق جراح الهزيمة . ولكى اعبر عن حنقى قلت للكبتل امام الجميع رغم انه كان عزيزاً علىّ ان اوذيه :

ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

ولست ادرى ان كان قد فهم مقصدى ام لم يفهمه ، لانه لم يزد على ان ضحك ضحكة قصيرة ، ثم اعتدل النقرابى الذى كان على خده ، فصارت تعابير وجهه لا تثير في نفسك او توحى لك بأى معنى من المعانى ! ولقد اسر لى محمد العوض فيما بعد ان الكبتل قد فهم مقصدى ولكنه تصنع العىّ « والتلامة » حتى لاتتوالى عليه العبارات مذكرة بمرارة الانهزام .

ورغم ان محمد العوض كان يجلس فى الصفوف الامامية فى الفصل الا انه كان حليفاً مأموناً لجماعة الربع الخراب - عبدالكريم وشيعته . وهؤلاء كانوا أساطين الهرجلة الحازمة فى الفصل ، بأصواتهم المتباينة العمق والنبرات ، وموسيقاهم التى برعوا في اخفاء منبعها وآلاتها عن اسماع وانظار المدرسين ، والتى كانت تتقاطر من كل مكان فتبلغ آذانهم فى صخب مثير . واما محمد العوض فقد كانت « هرجلته » الهازلة تدعم هذه الفوضى وتثبت اركانها وتثريها بالحيوية والتنوع . ولكنه كان حذراً فطناً . وكانت اسارير وجهه المشرقة علي الدوام - رغم سواد سحنته الذى يصله بالمورداب وصلاً لا انفصام له - تدفع عنه ظنون الاساتذة وحنقهم ، وتزكيه فى اعينهم ، فلا يناله منهم اذى في كثير من احيانه ، رغم انه كان فى حقيقة امره وراء كل صخب وضجيج أو همس وفحيح يقاطع سيل فكر الاستاذ واسترساله فى الشرح والتبيين . ولقد ظل محمد العوض آمناً من بطش الأساتذة يحتمى وراء ابتسامته الآسرة ردحاً من الزمان ، حتى كان ذلك اليوم الرهيب . . الذى كتب له ان يلقى فيه من العنت والشقاء مالم يكن يدور بخلده انه ملاقيه . لقد كانت الشيطنة والجنوح الى احداث الفوضى والهرجلة صفات كامنة فى كل النفوس ، وانما تفاوت التعبير عنها والاتيان

بها بين التلاميذ تبعاً لامرين : بنية جسم التلميذ ومدى جسارته ، وربما كان الامر الثاني وليد الاول . فاذا كان التلميذ صغير الجسم واهى البنية فان ذلك يقلل من جسارته . ونقيض ذلك موقظ لصفات الاقدام . ولقد كان محمد العوض (عواناً بين ذلك) . وفى ذلك اليوم « الرهيب » دخل علينا الشيخ ابوبكر عبد الله فى حصة الدين . وطفق يصب سخريته وتعابيره الحارقة على مجموعة فى الفصل بعينها يسميهم بأسمائهم . وبدأت الموسيقى المعهودة تصدح ويتداعى رنينها وتتصاعد موجاتها ويتعالى صخبها ، دون ان تنبئ بوضوح قاطع عن مصدرها الحقيقى ومبعثها اليقينى . ثم تصمت دون ان تفشى آخر آنغامها بسر منبعها المكتوم . ولما عجزت حواس الشيخ الست عن تحديد مكمن الازعاج ومركزه - او هكذا خيل الينا - تغافل عن هذا الأمر وبان وكأنه لم يعبأ به . ثم قال شيئاً وتساءل بصوت لايحمل كلمة وانما يتداح فى نبرة أفقية معروفة . . وران صمت خرق سكونه أحد التلاميذ وهو يقول : اررر . . . فدوت هذه الكلمة الغريبة دوياً لاتخطئه اذن . . وأحدثت موجات اعقبتها أصداء متتابعة . . ثم ران صمت مطبق خلال دقائق بانت وكأنها دهور . . اما الشيخ فقد عجب لهذه الكلمة أشد العجب ، وغضب غضباً انتفخت من فرطه اوداجه ، وتحركت من أثره يداه حركات عفوية جمعت بين معانى الحيرة والرغبة الصادقة فى الانتقام على ما اعتبره جرماً لايغتفر . ثم رفع عمامته عن راسه ووضعها على المنضدة ، وقال بلهجة هى خليط من الشايقية والرباطابية والمصرية ، وبصوت ظاهره الهدوء والسكينة وباطنه الوعيد والنكير · اللى قال أررر . . . يوقف . . . أى من قال هذه الكلمة الغريبة فليقف . فلم يقف احد بل ظل جميع التلاميذ جلوساً صامتين . وردد الشيخ اوامره ، فلم يقف أحد . ثم صار يمشى بين صفوف الادراج ليفاجئ بعض التلاميذ : أنت اللى قلت ؟ فكنت تسمع : لا والله يافندى دا ما أنا ! وبالطبع مضى بخطواته الوئيده حتى بلغ الربع الخراب - آخر الصفوف في الفصل . وصرف قلماً او قلمين لعبد الكريم احمد حميدة بوصفه قائد عصبة الهرجلة والفوضى في نظره ، وبوصفه المسئول والمجرم حتى تثبت

براءته . فتحمل عبد الكريم هذه الصفعات بشجاعته المعهودة وصبره المألوف على مثل هذا الاذى دون ان يزيد على قوله : لا ، داما أنا ! وكان التلاميذ كلما اوغلوا في الصمت والنكران زاد غضب الشيخ وحمى مرجله وغلى ، فنسى الدين والتدريس ، وصار همه الاوحد هو العثور علي هذا المجرم الاثم . وعندما باءت كل محاولاته بالفشل وقف امام محمد العوض مصطفى ، فطالعته منه ابتسامته المعهودة رغم الهلع الذى كان قد سيطر عليه وعلى غيره من تلاميذ الفصل . ولعل الشيخ قد استنكر ان يطالع وجهاً مبتسماً في ذلك الجو الحزين المملوء بالفرق وتوقع الشر . ولست ارتاب فى ان كل احد من التلاميذ كان مثلى في تلك اللحظات المفزعة يقرأ في سره كل ما واتته به ذاكرته من كلام الله ويدعو بكل ما تواثب اليها من صالح الدعاء عساه ينجو بجلده من تلك الورطة . ولما طال وقوف الشيخ امام محمد العوض أخذت الابتسامة التى كانت تضوئ وجه محمد تذبل شيئاً فشيئاً حتى استحالت فى نهاية أمرها الى شحوب واجف وامتقاع بئيس . وصاح الشيخ وقد أوشكت سبابة يده اليمنى ان تفقأ عين محمد اليسرى : اوقف يا كلب . . مين غيرك انت المجرم ؟ انت الذى قلتها ! ثم لم ينفع محمداً انكاره للتهمة ولم تسعفه براءته الحقيقية ، ولم يشفع له عند الشيخ انه متهم وان المتهم برئ حتى تثبت ادانته . بل سبقت ادانته جزافاً وانهال عليه الشيخ صفعاً ولطماً حتى اشتفى منه اشتفاء ثم انفثأ حنقه وثاب الى بعض رشده . ورغم ان اولاد الفصل كلهم كانوا يحبون محمداً ويغلونه الا انهم حمدوا الله فى تلك اللحظات القاسية على النجاة من غضبة الشيخ المضرية ومن عقابه الماحق . اما القائل الحقيقى لتلك الكلمة التى أحنقت الشيخ وجلبت كل ذلك الهول والفزع فقد كانوا جميعاً يعلمونه ، ولكنهم آثروا الا يبوحوا بما علموا . ولست ادرى ان كان ذلك شفقة منهم عليه ، او حمداً لله على ان الشيخ اكتفى بفريسة واحدةً صب عليها جام غضبه - رغم ان محمد العوض الفريسة كان أثيراً عندهم جميعاً - ، او خوفاً مما يمكن ان يترتب عليه مثل هذا البوح ان هم اقدموا عليه ، او اعجاباً بذلك القول ورضاً به واشتفاءً ثم ضناً بقائله (ان يسجن

او عذاب اليم)، او هو طلب للسلامة والعافية وتصميم على الابتعاد عن امر لاينفعهم الدخول فيه بشئ. ولكن الحقيقة انهم قد علموا من القائل. وان القائل لم يكن محمد العوض، وانهم سكتوا على ذلك ولم يذيعوا به. ولاشك ان سكوتهم كان فى نظر القائل الحقيقى محمدة لهم وهى قد ضاعفت من احترامه لهم واشعرته بمزيد من الانتماء اليهم والقرب منهم. واما محمد العوض الضحية، البرئ مما الصقه به الشيخ واقتص منه بسببه، فان ذلك العقاب القاسى الذى تعرض له لم يقلل من مرحه وصفاء روحه وسخريته اللاذعة... ولكنه القى فى نفسه ظلالاً داكنة تجاه الشيخ ابى بكر حتى صار الشيخ مادة دائمة من مواد سخريته وتندره، فكان يسميه «الشايقى التغيان» ويحكى عنه من المثالب مالا عين رأت ولا اذن سمعت فى ذلك الزمان... باسلوبه الفذ وعباراته الدقيقة وخياله المبدع ومرحه الأخاذ. فكنا نلتف من حوله فى «الفسحة» بعد تناول الفطور لنسمع الاعاجيب ونقضى وقتاً طيباً على الانفس الواجدة يضحك فيه الصبية ملء الاشداق والقلوب. وماكان الشيخ «تغياناً» ولا شايقياً ولاذا مثلبة، ولكنه عبث الطفولة!

على ان محمد العوض لم يكن يضمر سوءاً ابداً وانما كان يثأر لنفسه بما اوتى من مقدرات عجيبة على تشقيق المعانى وتفتيق الكلام واثارة الضحك لانه كان ميالاً الى الهزل والسخرية فى غير ماسوء طوية، فهو هزل من اجل الهزل، وضحك من اجل الضحك ومرح من اجل ان يسود جو المرح. ولقد كان لمحمد العوض شأن مع كل احد من زملائه تقريباً، فى امدرمان الاميرية وخور طقت الثانوية على السواء وسنشير الى بعض ذلك فى محله ان شاء الله.

غير ان محمد العوض لم يكن هازلاً فى كل احيانه وان ميزته هذه الموهبة كثيرا بين اقرانه... لقد كان تلميذاً ذكياً مجداً يأخذ بالاسباب ولايدع الامور تمضى فى عفوية. ولذلك اختاره اساتذته للقيام بتمثيل الادوار الصارمة فى بعض الروايات التى كان التلاميذ يقومون بعرضها على خشبة المسرح فى امدرمان الاميرية الوسطى. وهى روايات من نظم امير الشعراء احمد شوقى وغيره من الشعراء تحتوى على حوار

نظيم بالغ الجودة . واني لأكاد اسمع باذني الان ومن وراء ما يقارب نصف قرن من الزمان صوت محمد العوض مصطفى وهو على المسرح يردد شعراً بعض وصية امير المؤمنين عمر بن الخطاب لقائد جنده يحثه على الاستمساك بمكارم الاخلاق حتى في مواطن قتال الاعداء :

ولاتمدوا يداً بالسوء لامراة ∴ ولاتذيقوا طعام الموت صبيانا

واكاد اسمعه وهو يتمثل قيساً ولم ينسه هيامه بليلى وجنونه بحبهاان يسأل فتاة الحى بلهاء : كيف الحى كيف أميا .. فهو يذكر الحى الذى ترعرع فيه ، ويذكر امه التى احاطته بحبها وحنانها . . ويعلم انها تسر لسروره . . ولذلك طلب من صديقه زياد ان يبلغها فرحته وامتنانه للأمير . . .

.... ∴ زياد طر نحو الحمى بجناحى المشتاق

اذهب وسل امى اعـــزّ ملابسى ∴ من كـل شامـى وكــل عراقـــى

واذكر لها نعم الأمير ولـــم تزل ∴ نعـم الامـير قـلائد الأعـــناق

وعندما يتحول محمد العوض الى القيام بدور عنترة العبسى يضفى على صوته نبرة الوعيد وهو يجادل غريمه في حب عبلة ابنة عمه فيجئ فصله في الامر قاطعاً في حسم الصراع العاطفى بمنطق ذلك الزمان :

الــرأى عـــندى ان نصير معـــاً ∴ الى جمال تضحية او فضل إيثار

رأسى ورأسك في الميزان قد وضعا ∴ وحكم سيفك او سيفى هو الجارى

من مات منا قضى حق الهوى كرماً ∴ وليس بالموت دون الحب من عـار

فاذا غريمه ينكل عن المواجهة ويبحث عن كلمات يبتاع بها موقفاً يقربه من مواطن السلامة :

رأيت عنترة رأياً لست اتبعه ∴ يأباه حبى واعجابى وإكبارى

فيقاطعه الفارس العبسى : . . لم لا ؟ الحرب تجمع مغواراً بمغوار . .

وعندما يقوم محمد العوض بدور قيصر يشتد حواره مع خادمه اوروس وقد بلغ منه

اليأس أقصى مبلغ فزهد في الحياة وطلب من اوروس ان يريحه منها « بضربة سيف او بطعنة خنجر » قائلاً بلسان محمد العوض وصوته ونحن جلوس امام المسرح.

فانك حر ان فعلت وفائز ∴ بسيفى ودرعى وأثوابى ومغفرى

ولكن اوروس المولى المخلص يتملكه ألم ممض ليأس سيده من الحياة ويؤذيه أذى بالغاً ان يطلب منه سيده قيصر هذا الطلب ، وتتحرك فى نفسه بواعث الالف والوفاء والعرفان فتخرج الكلمات من فمه مضمخة بالاسى معبرة أصدق تعبير عما يجيش بخاطره :

معاذ خلال البر مولاى فاعفنى ∴ فليس يدى تقوى ولا السيف يجترى

وأنت الذى لوبيع بالروح وده ∴ ومالى سوى روحى تقدمت اشترى

ثم تتداعى فى نفسه معانى اليأس لهول ما سمع من طلب سيده ويتصاعد انفعاله وزهده فى البقاء حتى يفضى به الامر الى إغماد خنجره فى صدره مفضلاً الموت على ان تمتد يده لسيده بسوء ، فتجئ آخر كلماته نهاية لمأساة عامرة بالوفاء والفداء :

لقد جاد لى بالسيف والدرع قيصر ∴ وجدت بأيام الحياة لقيصر

وأمام هذا المشهد الرائع يصاب قيصر بصدمة ماحقة اذ يفاجأ بعبده وقد ذبح نفسه على مرأى منه ومسمع فيكبر فيه هذا الوفاء الصادق الذى جعله يعصى امره لاول مرة ، فيبكى قيصر هذا الوفاء شعراً يرفع به عجيرته قبل ان يمضى على ذات السبيل ، ناسباً الى نفسه التخاذل والتقاعس والجبن وشاهداً لمولاه اوروس بالوفاء والنبل والاقدام ، مكباً عليه وهو مضرج بالدماء وقد فارق الحياة :

اوروس عفواً قد ذهبت ضحية ∴ وجنــى عليك ترددى المقوت

فعلمت منى كيف يجبن قيصر ∴ وعلمت منك العبد كيف يموت

وكاد محمد العوض ان يموت بالفعل امام اعيننا من فرط اتقانه للدور الذى كان يقوم بتمثيله ويستغرق في ادائه استغراقاً ، لولا ان صيحات الاستحسان والتصفيق الداوى تعالت بها الاصوات والأكف لتذكره ان الامر لا يتجاوز التمثيل وان كان التمثيل

متقناً كل الاتقان !

هذه الابيات والمقاطع التى تقدمت ما تزال منقوشة في ذاكرتى بصوت محمد العوض مصطفى منذ تلك الايام البعيدة النائية وتلك العهود الماضية السحيقة ، واقسم انى لم اطلع عليها فى كتاب ولم ارها في أي سفر من الاسفار او صحيفة من الصحف او دفتر سوى دفتر الذاكرة .. وها هى ذى تسيل من منعرجات الذاكرة مع هذه الكلمات ، شاهدة على نضارة تلك الازمنة الحبيبة وصفاء ايامها وجلىّ انتقاشها فى اغوار النفس وانطباعها فى مسارب الوجدان . وهى ايضاً شاهدة على مقدرات محمد العوض التى تركت ذلك الانطباع باقياً لا يريم .

ذلك هو محمد العوض الذى تجدد لقائى به فى خور طقت الثانوية فاتصلت بيننا عرى المودة اتصالاً وتمتنت فيما بيننا اواصر الود تمتيناً حتى صرنا لانفترق . ولقد كان محمد العوض فى خور طقت – كما كان فى امدرمان الاميرية – قارورة عطر نموم وقمر تم منير . كان الكل يحبونه ويهرعون الى مجالسته . . وكان كلما كبر وتكاملت معارفه ازداد مرحاً وانشراح صدر وطيبة نفس ، له فى كل مرتع من تلك المراتع الحبيبة فى خور طقت مسرح ومقيل . واستطاع بروحه الحية الجذلانة المحببة ان ينشر الفرح والسرور بين زملائه وان ينفذ الى اعماقهم ويحتل من انفسهم موقعاً مرموقاً من الاحترام والتبجيل . لم يدخل في جدال مع احد منهم الا وواتته موهبته الساحرة ومقدراته الهائلة على تحويله الى هزل وسخرية والى صفاء لا كدر فيه ولا شائبة ، فلم يغادر الا وهو محل احترام وتقدير . ما عادى أحداً وما عاداه أحد ، وانما احبه الجميع لانه كان أهلاً لحبهم . وانى لاذكر كيف كان محمد يروى قصة مفاهمته مع ادريس سالم فى اوائل مراحل خور طقت ، وكيف كاد ادريس ان يقضى عليه لولا ان تداركه الله برحمته وعنايته فخف لنجدته الشريف احمد حسب الرسول الكوقلى وفض النزاع الذى كان قد احتدم بينهما . كان محمد العوض يروى تلك القصة باسلوبه الساحر المبدع يحليها برتوش تكسبها نكهة لاتنسى ، ويعزو تلك الورطة التى وقع فيها الى

شخصى قائلاً فى كلمات مازال يرددها ويفتتح بها رواية القصة كلما بدأ سردها حتى صارت هذه الكلمات مدخلاً معروفاً لرواية هذه الحادثة : والله ياخي موسى دا مرة كان عاوز يودينا في دهية ! والحق أننى لم اكن انا الذى كنت اريد ان اوديه في دهية ولكنها سلاطة لسانه ومواهبه المواتية فى ابتداع الالقاب والاسماء واطلاقها على من يريد ، ثم استشعاره الأمن والأمان في كل أحايينه . ولاعجب في ذلك ، فهى سجيته التى جبل عليها ، ومقدرته الوافرة على الالمام من كل فن بطرف ثم اتقان ذلك ، وطبيعته العابثة التى تبحث عن المتاعب فى عقر دارها . ولو انه استمع لنصيحتى لاكتفى بالتعميم بديلاً عن التخصيص ، ولأسر بالارقام عوضاً عن الاذاعة بها ، ولغطى سخريته اللاذعة بغشاء واقٍ من التقية والمصانعة . والذين كانوا فى خور طقت يعلمون جلية الأمر ، وفى مقدمتهم الاخ الصديق دفع الله الحاج يوسف والاخ الصديق الكوقلى والاخ الصديق ادريس سالم ورهطه الكرام . ألا رحم الله الاخ الكريم محمد العوض فقد كان والله درة غالية . لقد فاجأته في داره في ابوظبى زائراً ومعى الاخ الصديق بارودى – ذلك الفنان المرح الضاحك الطروب المولع بالشعر والأدب وسائر الفنون – فقضينا معه واسرته ساعات طيبة لاتنسى . فرح محمد بمقدمنا إليه أيما فرح وسُرّ بنا أيما سرور ، وكان عهدى به دوماً كريماً مضيافاً مرحاً ضاحكاً مستبشراً ، وكانت زوجته وام اولاده السيدة الفضلى عواطف الشيخ تجسيداً رائعاً لاصالة بنات البلد وكرمهن . علمت أنى صديق قديم لزوجها فأسعدها حضورى لزيارته وراحت تحملنا فى حدق عينيها . ومن عجب أنى التقيت محمداً ثانية بعد طول فراق وكان ذلك في شهر سبتمبر من العام ١٩٩٥م ، فجلسنا نطوف بواحات الماضى هنيهة نستعيد ذكرياتنا عندها وكأننا نعيشها في تلك اللحظات . ومحمد هو محمد . الضحك والسخرية والذاكرة المتقدة والوجدان الشفيف والقصص الذى لاينتهى ولا يُمل . رجعنا القهقرى سوياً نتصحف سوالف العهود حتى اذا بلغنا احداثاً بعينها فى سنوات ام درمان الاميرية وخور طقت انخنا مطينا عندها وأقمنا بين ظهرانيها طويلاً نجتر أقاصيص تلك

الازمنة ونقرأ فصولاً من حكاياتها وطرائفها التى لم تزل عالقة بالأذهان . ثم التقينا من بعد ذلك في دار الاخ العزيز والصديق القديم الاستاذ دفع الله الحاج يوسف فاشتملت علينا أمسية لاتنسى جمعت فى رحاب تلك الدار المضيافة ثلاً متباينة المهن والمشارب وحد بينها وفاء جامع لماضٍ مشترك بعيد . قلت لمحمد : متى القاك في دارى أجمع لك بعض الاخوة نتسامر ونقضى وقتاً طيباً ؟ قال لى : سأتصل بك قبل عودتى للخليج بوقت كافٍ لأحدد لك الامسية التى تناسبنى . وبقيت منتظراً لأفرح به فى دارى وافرح باخوتى الآخرين . . . ثم ماهى الا أيام قلائل حتى فجعنى نبأ وفاته المفاجأة ، فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله . اللهم ارحمه واجعل الجنة مثواه .

فليت نفوسنا والحق آتٍ .'. ذهبن كما أتين وما أحَسْنَه

قدمنا والقوابل ضاحكات .'. وسرنا والمدامع ينبجسنه

سورة المطففين .... وهاشم الأطرش :

لست أنسى ذلك الصديق القديم هاشم محمود الذى أطلق عليه محمد العوض اسم (الأطرش) فصار يعرف به بين زملائه . ولم نكن ندرى ان كان المقصود من اطلاق هذا الاسم على هاشم هو المدح أو الذم ، أو هو تأكيد المدح بما يشبه الذم لأن هاشماً لم يكن أطرشا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة وان كان « يتطارش» أو يدعى الطرش عندما لا يعجبه ما يقال . فقد كنت لا أتمالك نفسى من الضحك كلما لقيته ، وذلك أنه هو نفسه يضحك من كل شئ ، وله طريقة فى الكلام يصعب وصفها بأى درجة من الدقة ، فهى خليط من اللعثمة « والتمتمة » واختزال الحروف اختزالاً وأكلها فى كثير من الأحابين «أكلاً » يستعصى معه عليك اجتلاء المعنى الذى يريد . وهو يخلط بين الجدية والهزل ، بين المرح والأسى ، وبين الحياء والجسارة ، خلطاً ينم عن ذكاء موفور ومكر ساذج . غير أنه يتخير «أصحابه» تخيُّراً محسوباً فلا يغامر فى ذلك ولا يطلق لعواطفه العنان ، وذلك لأنه موقن بأن أولاد ام درمان « شياطين» وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى حى الموردة وهو لم يتعلم «الشيطنة » « والشفتنة » بعد – أو قل لم يتقنهما

وان شرع بنية صادقة فى استلهامهما وتوطين النفس على تعلمهما . أبوه تاجر فى الجبلين ، وربما كان هو الولد الأثير بين ذرية يغلب عليها الاناث . ويبدو أنه نشأ طفلا مدللا بعض الشئ ، وذلك واضح من طريقته فى التعامل مع الحياة الجديدة التى كان يعتبر كثيراً من جوانبها صعاباً تحتاج إلي شدة مراس وعظيم جلد . وهو كذلك واضح من اعتنائه الفائق بمظهره عموماً وهندامه على وجه الخصوص . فجلابيته نظيفة دائماً وناصعة البياض بل هى دوماً « مكوية سيف » . ورغم أن غالبيتنا – بعد أن نتناول طعام الافطار عند عم محمدين – تصبح خالية الوفاض إذ نصير « معلمين الله من الفرطاقة » فى اكثر الاوقات ، إلا أن هاشماًلم يكن كذلك . فقد رأيته بعينى رأسى وهو يحمل فى جيبه شلناً كاملاً حتى بعد انفاقه قرش الفطور . ولقد تكرم ودعانى لتناول الباسطة أكثر من مرة ، الأمر الذى أحنق علىَّ بعض الزملاء ممن غبطونى على احتلال هذه المكانة العظيمة من نفس هاشم ، ولكنهم تذكروا أننى كنت جاره فى الفصل وفى هذا بعض مايبرر ما نشأ وتطور بينى وبينه من صداقة حميمة. وكنت فى بعض الأوقات أرد له هذا الجميل فاكرمه بقطعة باسطة ولكنها نادراً ما تكون ركنية (كورنر) لأن الركنية تكلف قرشاً ونصف قرش بينما لا تكلف القطعة العادية سوى قرش واحد وهذا فرق هائل بحق ! وفوق ذلك كنت أبره ببعض الشروح لما يستعصى عليه فهمه من الدروس ، خاصة فى اللغة العربية واللغة الانجليزية وفى التاريخ والدين ، وأحياناً كثيرة فى الحساب « فراق الحبايب » . فكان هاشم يحمل لى تقديراً خاصاً لذلك.ولم يكن هاشم لينقصه الذكاء بحال ، ولكنه كان لسبب لم أتبينه تماماً يهاب الاساتذة ويخشى أن يخطئ امامهم فى شئ وربما كان ذلك لشدة حيائه.لست أدرى.فاذا سئل عن امر من امور الدروس انتابه فزع واضح وعلت وجهه مسحة حزن وكآبة لا تخطئها العين ، وجاءت اجابته اشد عسراً على الفهم من السؤال ذاته ! فاذا وفق لاصابة الاجابة الصحيحة تهلل وجهه بالبشر وضحك ضحكته المميزة الخافتة حتى اذا اتسع مداها وبانت لثته الحمراء من وراء اسنانه الناصعة البياض سعل سعلات خفيفة متتابعة ربما

ختمها بعطسة أو عطستين ثم رفع يديه إلى رأسه وكأنه يود أن يتأكد أن عمامته مازالت ثابتة عليه لم تبرح مكانها .

وفي مرة من المرات كنت أجلس إلى جانبه في الفصل عندما دخل علينا الشيخ ابوبكر استاذ القرآن فألفى ضجيجاً وصخباً وهرجاً فى الفصل كنت جزءاً منه أصيلاً . فقرر الشيخ فى نفسه أن يبلونى أأثبت لحسن ظنه ام أتهاوى . فقد كـــان ينــادينى « الشريف » وكثيراً ما كان يقول : الشريف ولد ممتاز .. الشريف يحفظ القرآن . ياألفة : الشريف أدُّو اطناشر من اطناشر واكتب قدام اسمه فتح الله عليك وعلي والديك . فظللت أنعم برضاء الشيخ ردحاً من الزمان . حتي اذا كان ذلك اليوم الكالح ودخل علينا الشيخ فى ذلك الصباح النكد ورآنى بعينى رأسه واستمع اليَّ بأذنيه الارنبيتين وانا فى حالة من الهرج والمرج لم يعهدها فيَّ من قبل لأنى كنت حذراً فيما مضى – ساءه أمرى وأغضبه حالى أشد الغضب . وقد رأيت ذلك وقرأته فى عينيه وأحسست احساساً صادقاً يقيناً أنه أضمر حيالى أمراً جللاً وأنه قرر فى نفسه دون أي مقدمات تذكر اننى لم أكن أهلاً لثقته الغالية التى خصنى بها زمناً طويلاً . ورغم انى كنت اعلم أن الشيخ متقلب المزاج ولا يؤمن جانبه بحال إلا أنى أخذت على حين غرة هذه المرة . وكان هاشم (الأطرش) واحداً من الذين دفعونى للهرجلة والصخب ، وهم كوكبة « رمتنى بدائها وانسلت» . وبعد دخول الشيخ بقليل ران على الجميع الخرس وسيطر على الفصل صمت ثقيل .و ادركت خلال تلك الدقائق القرون أن الشيخ كان يقلب فى ذهنه أمراً وأيقنت انه كان يبحث عن مبرر مناسب لينزع عنى ما كان يخلعه عليَّ من ثقة ورضا وتوقير خلال عامين أو تزيد. فقد ظل يسدد اليّ نظرات ذات معانٍ راكزة لا تريم .. ثم قال بعد هنيهة : مين المهرجل ؟ فاذا بأحد الخبثاء – وهو عبد الرحيم قلِّى عليه رحمة الله – يقول : فندى دا الشريف ! فقال الشيخ – بلهجة جمعت بين المكر والحنق والارتياح للعثور علي الضالة – : لا . الشريف لا يهرجل . الشريف ولد مهذب يحفظ القرآن . الشريف .. اقرا لنا ويل للمطففين . فانخلع قلبى

وزادت دقاته بشكل ملحوظ حتى ظننت انه سيخرج من صدرى . ولكنى استجمعت شجاعتى وقواى ، وبحركة سريعة لم يحلظها الشيخ لانه كان يقف بعيداً – اخرجت المصحف من درجي ووضعته على حجر هاشم الأطرش جارى وصديقى وأشرت اليه بيدى أن يفتح السورة . ولكن هاشماً طفق يرتعد فرقاً ويتصبب عرقاً .. فحاولت تثبيته وقلت له فى همس : افتح سورة ويل للمطففين فان الشيخ يجلس على كرسيه بعيداً عنا ولن ينالك سوء . وقد كان الشيخ يراخى عمامته من امام يكاد يغطى بها وجهه حتى نحجب عن عينيه ونظراتهما الفاحصة المدققة مما أفاء علىّ وعلى هاشم قدراً قليلاً من الاطمئنان ، رغم أن يدى هاشم ظلتا ترتعشان وهما تحاولان عبثاً العثور فى المصحف الشريف على صفحة السورة المطلوبة . واخيراً ابرز لى هاشم سورة النازعات فتلوتها وأنا استرق النظر الى المصحف الذى كان يهتز اهتزازاً على حجر هاشم . ولما فرغت من تلاوتها قال الشيخ ابوبكر وهو يجلس مكانه وعمامته تكاد تغطى وجهه تماماً : ياسلام ! ما قلت ليكم الشريف ولد مؤدب ويحفظ القرآن ؟ الشريف ، كدى أقرالنا ويل للمطففين ! ولكزت هاشماً فحاول ولم يعثر عليها فى المصحف . ولكن وقع بصرى علي سورة المرسلات ، والمصحف كله يهتز علي حجر هاشم حتى خشيت أن يسقط منه على الأرض فيحدث صوتاً يفضح أمرنا . فساعدته بيدى اليمنى على تثبيت الصفحة ثم تلوت سورة المرسلات وعيناى تجولان بين المصحف والشيخ فى تعاقب سريع وتتابع لاينى ، حتى أحسست باعياء مقيت . وفرغت من التلاوة وأنا أظن أن الشيخ ابابكر قد استسلم إلى إغفاءة وهو على كرسيه فقد كاد رأسه أن يرتطم بالمنضدة التى أمامه . ولكن ، ما اسرع ما خاب أملى ! فبعد انتهائى من التلاوة بقليل رفع الشيخ رأسه وأصلح من وضع عمامته علي رأسه وسأل وكأنه لا يعلم : الشريف : انتهيت ؟ قلت : نعم يافندى .. فقال بلهجة موقرة بالغضب والمكر والدهاء : ماشاء الله ، الشريف ولد مهذب يحفظ القرآن . الشريف كدى اقرا لنا ويل للمطففين ثانى أنا باقي شالتنى غمدة ! وعندها أدركت عظم مكر الشيخ واستيقنت نفسى ماسيتبع ذلك من هول ، ولَملمت

المصحف الشريف بسرعة فائقة واودعته درجي ، لأنى رأيت أن ارتعاد هاشم قد تفاقم وتناهى ، وتعاظم توقعه للشر المستطير وبلغ منه الرهق والعناء مبلغاً فخشيت أن يفضح أمرى ويكشف المستور فأجد نفسى مضطراً لأن أبوء بذنبين : عدم الحفظ واستراق النظر إلى المصحف . ورأيت من الحكمة ان ابوء باثم واحد ، وهو على كل حال اثم يشاركنى فيه اكثر تلاميذ الفصل ان لم يكن كلهم مقترفاً له متلبساً به . فاستجمعت ماتبقى لى من جرأة وتوكلت على الحى الذى لا يموت وقلت بنبرة جمعت كل معانى الجسارة واليأس : يافندى ماحافظها ! فردد الشيخ مقولتى بلهجته الساخرة وقال – وقد عثر على ما كان يرمى اليه . أى قول كدى . الشريف واطى ، الشريف كلب ، الشريف لا يحفظ القرآن ، الشريف ولد ما نافع ، الى آخر مفردات سبابه التى لا يجاريه فيها أحد . . الى ان قال مخاطباً الكبتل : ألفة ، الشريف أدو صفر من اطناشر واكتب قدامه هؤلاء قليلو الادب . ومنذ ذلك الحين الذى دفع الشيخ بى فيه الى الهاوية السحيقة صارت درجتى في القرآن عنده صفراً من اطناشر ودخلت عالم هؤلاء قليلو الادب من اوسع ابوابه . ولسان حالى يقول :

أيذهب يوم واحد ان أسأته ∴ بصالح أيامى وحسن بلائيا

واذا كان الشيخ ابوبكر هو استاذ القرآن فقد كان هناك شيخ آخر – الشيخ محمد الطيب – هو استاذ الدين . واذا كانت الدرجة القصوى في القرآن بالنسبة للتلاميذ هى اثنا عشر فان الدرجة القصوى فى الدين هى ايضاً اثنا عشر ، والمجموع اربع وعشرون درجة . وكان استاذ الدين – الشيخ محمد – شاباً وسيماً هادئاً يرتدى القفطان او الككولا ولعله كان فى الثلاثينات من عمره . وهو رجل نحيف البنية اقرب للطول منه للقصر قحمى لون البشرة ، دائم الابتسام لم اره يوماً واحداً يعاقب تلميذاً . وهو قد أجبر التلاميذ على احترامه فهم فى حصته سكوت نواكس الاذقان . ورغم ارتدائه للزى التقليدى لمعلمى العلوم الدينية فهو حليق اللحية يرتدى شارباً خفيفاً

مشذباً ويمشى فى هدوء وسكينة . ورغم ان بقاءه معنا لم يطل كثيراً فقد سعدنا به حقاً وذلك ان وجوده قد استنقذ اكثرنا من الدائرة الحمراء التى كانت ربما تحيط بنمرتك في شهادة النقل من سنة دراسية الي السنة التى تليها . ولو ظل أمرنا رهيناً بالشيخ ابى بكر وحده لما نجا احد منا من هذه الدائرة الحمراء البغيضة حول نمرة العلوم الدينية ، وهى - على مافيها من المثلبة الواضحة - ربما كانت مدعاة لعقوبة أخرى اذا اطلع عليها والدك او ولى أمرك . وقد كنت من الذين يبلغون عند الاستاذ الشيخ محمد فى بقية علوم الدين الاخرى «اطناشر من اطناشر » ليصبح متوسط الحصيلة «اطناشر من اربعة وعشرين» . ورغم ان ذلك « مرور على الحركرك » فان الذى يبلغه هو من الخيار القلة ، لان اغلب تلاميذ الفصل - بل جميعهم في نهاية الأمر - كان قد انتهى مع الشيخ ابى بكر الى درك صفر من اطناشر فى القرآن ، ثم هم بعد ذلك كلهم من زمرة هؤلاء قليلو الادب .

والله يعلم اننا لم نكن كذلك ، بل كان جميع التلاميذ فى عموم مسلكهم يقطرون أدباً وحياءً وطيبة . ولكن الشيخ ابابكر كان رجلاً من طراز فريد ، ولعله كان يعتقد ان خير وسيلة لدفع التلاميذ لمزيد من الجهد والتحصيل هى تناولهم بهذه السخرية اللاذعة التى كانت تشتمل على ألفاظ مسيئة فى مظهرها على أقل تقدير . ولكن من عجب اننا لم نكن نكترث لها كثيراً بل كنا نضحك منها أشد الضحك ، ويكثر بيننا رواتها فى ملأ غير ملأ الفصل الدراسى ، فما تثير فى أنفسنا الا المرح والتشويق ، بل هى لم تكن تقلل من مكانة الشيخ فى أنظارنا . وربما كان هذا الاحساس نابعاً من النظرة العامة للمعلم في تلك الأزمان الغابرة ، وهى أزمان شهدت شيوع مقولة أمير الشعراء أحمد شوقى بين الناس :

قم للمعلم وفه التبجيلا .·. كاد المعلم ان يكون رسولا

فالمعلم وان لم يكن رسولاً سماوياً فى نظرنا فهو صاحب رسالة أرضية مضمونها تربية النشء على مكارم الأخلاق ومن بينها استيفاء جميع الحقوق التى على الرقاب ،

سواء كانت تلك الحقوق دروساً يتعين على التلميذ اتقان معرفتها والوفاء بما تلقيه عليه من التزامات ، أو كانت تلك الحقوق معاملات مع الاقران والاساتذة يتوجب ابتدارها بالحزم المطلوب والامانة المبتغاة . فكانت نظرتنا للاستاذ عموماً هى عين نظرة الحيران للفكى في الخلوة ، وهى نفس نظرة الابن لابيه الرحيم . ولست امارى فى انه كانت هنالك بعض استثناءات لهذه القاعدة ، ولكنها بعض استثناءات على كل حال ، انما الأصل هو تبجيل المعلم وحمل أقواله وتعليقاته وحتى صرامته فى انزال العقوبة بالتلاميذ محملاً طيباً يعترف له بحسن النوايا ونبل المقاصد .

لقد كان هاشم محمود (الاطرش) يحسب الف حساب للشيخ ابى بكر ، ويخشى بأسه ولذلك يجهد نفسه لكى يخرج من حصته معافى من شر يده ولسانه . ورغم انه قليلاً ما كان ينجح فى ذلك ، تماماً كالآخرين ، الا انه كان يجل الشيخ ، ويكاد يجهش بالبكاء اذا تلا الشيخ على مسامعنا شيئاً من آى الذكر الحكيم ، لان الشيخ كان قد أوتى صوتاً من مزامير داؤود فاذا استمعت اليه تداعى قلبك وسائر اعضاء جسدك بالخشوع والاخبات . ولقد بلغت بهاشم الحيرة فى أمر الشيخ حتى وصفه لى مرة بأنه ملك في صورة شيءآخرفى محاولة جاهدة للتفريق بين الشيخ ابى بكر الذى يتلو القرآن فيأخذ بمجامع القلوب ، والشيخ ابى بكر الذى يمكن ان يطلق عليك اعيرة نارية من لسانه الذى بين فكيه ! وعندما سألنا محمد العوض عن السر وراء اطلاقه لاسم «الاطرش» علي هاشم مازاد على ان ضحك طويلاً وطلب منا أن نخمن السبب . فقالت طائفة منا : هو فريد الاطرش لان هاشماً كان يترنم في بعض احايينه بنغمات لم نكن نتبينها بوضوح ، وربما أطلق عليه محمد العوض هذا الاسم من باب الهزء والسخرية . وظنت طائفة أخرى منا ان المقصود هو : الأطرش في الزفة لان الزفة هى كانت ذلك الضجيج الذى يحدثه عبد الكريم في الفصل ويعاونه عليه قوم آخرون ، وذلك ان هاشماً كان – في اغلب أحيانه – يقف من هذه الزفة موقف المتفرج لايزيد في المشاركة فيها على ابتسامة عريضة تنبئ عن ارتياح صادق لما يحدث ولكنه مشسوبٌ بشئ من

القلق والخوف مما يمكن ان يترتب عليه خاصة اذا كان ذلك قبل دخول الشيخ ابى بكر للفصل بقليل . وظنت طائفة ثالثة ان مبعث هذا الاسم - الاطرش - هو ان هاشماً كان يدعى الطرش احسن ادعاء ويتقن تمثيله ايما اتقان ، واية ذلك انك تحدثه وهو ينظر اليك دون أي استجابة وكأن حديثك لا يعنيه فهو يسمع مايود ان يسمعه واما ما لايريد ان يسمعه فان باذنيه منه وقراً . وقد ساعده علي ذلك طريقته التى هو مجبول عليها في الكلام فهى أقرب الى طريقة الطرش منها الى طريقة الذين يسمعون ، يأكل حروف حديثه أكلاً ، ويمضغ تعابيره مضغاً فلا يبلغ اذنيك منها الا مقاطع هى أشبه بالفحيح والا كلمات مبهمات هى أقرب للهمس لولا ان قهقهاته المقتضبة قد تعلى من نبراتها وتقترب بها من اسس الكلام الذى بعد كل ذلك يصعب على الفهم أيما صعوبة . على ان محمد العوض قد سرته حيرتنا هذه وصار فى بعض احيانه ينكر أنه هو الذى ابتدع لهاشم هذا الاسم ، وربما كان التفسير الاخير هو اقرب التفاسير للحقيقة وذلك ان هاشماً لم يعترض على تلقيبه «بالاطرش» ولعله سر به في قرارة نفسه لانه كان له في كثير من الاوقات اشبه بطوق النجاة . فهو لايسمع هرجلة عبد الكريم إذا أراد ذلك ويصعب سلك الأطرش فى زمرة المهرجلين ، فهو بمنجاة عما يمكن ان يترتب على هذه الهرجلة من عقوبة ! وهو لايسمع سؤال الاستاذ ، وقد ينجيه هذا الطرش من الخوض في اجابة قد يتنكب فيها طريق الصواب فيجر على نفسه ماهو فى غنى عنه من متاعب . ولكنه رغم ذلك لم يسلم من دفتر عم مبارك كما اسلفنا ، فذلك محشر لامرد لاحد من ولوج اسمه بين صفحاته مهما أوتى من مقدرات على ادعاء الصمم او البكم او العى . حقاً لقد كان هاشم رفيق دراسة لاينسى فهو عذب الروح خفيف الظل موفور الحياء . ولقد أسفنى كثيراً ان صلتى به قد انقطعت منذ انتهائنا من ام درمان الاميرية ولم اره بعد ذلك ابداً ولا سمعت خبره عند احد. غير انه ترك في نفسى لوافت من مثل هذه الذكريات التى تستقر في الوجدان ولا تزول . الى أين دفعت به ظروف الزمان وتقلبات الحياة يا ترى ؟ ليتنى أعلم ! ومجمل احساسى انه كان ولداً رقيق الحواشى طيب

النفس . واعجب شئ فيه انه كان يتحكم فى حيائه ابلغ تحكم يبلغ به الذروة ان اراد ، ويحيله – فى بعض المواقف – الى جسارة لاتقيم وزناً لشئ . ولكنه كان تلميذاً واسع الحيلة يسمع بأعين اسماعه مايريد ان يسمعه ، ويصاب بالصمم حيال ما لايسره ولايرضيه ، ويرى ببصيرته المدققة جميع الخطوط الحمراء فلا يتعداها بحال . لذلك كان هاشم بعيداً عن المغامرات بعد المشرقين معصوماً عن الدخول في المآزق والمطبات عصمة من ايقن انه ان دخل فيها فلن يخرج سالماً ، حذراً بالغ الحذر ، مسالماً محباً للسلامة والنجاة . فان كان قد شب على ذلك فما أفدح ما واجهته به صعاب الحياة وصروف الزمان وما أقسى ما طالبته به احداث الايام وتصاريف الدهور . ذلك ان الاويقات التى قضيناها سوياً في ام درمان الاميرية كانت عهوداً رغدة العيش لينة الأعطاف هينة المتون ، فكيف له بمواجهة ماتلتها بأزمان من أوقات العسرة والضيق وطوارق الأحداث ؟ !

مكى . . . يرعى . . وسقوط العمامة :

ورغم أنى استعرض زملاء الفصل في ام درمان الاميرية من وراء قرابة نصف قرن من الزمان فانى أنظر اليهم بوضوح . . غير انى لا اذكرهم في هذا السياق وضمن هذا الاطار وفق ترتيب معين او تصنيف يستند الي السن او نتائج التحصيل او أى شئ من هذا القبيل وانما اعتماداً على سبق أي منهم الى الذاكرة أثناء الكتابة . وكيف تخفى على ذاكرة أحد من تلامذة تلك الايام الوضيئة صورة الصديق الأثير مكى برعى؟

لقد كان مكى « شاباً» هادئاً وقوراً ، وهو دائماً يفضل الجلوس اما فى قلب الربع الخراب وأقاصيه – وهو الصف الاخير من الفصل – او ضمن مجموعة العقد التى تنتظم الصف الذى يليه اماماً . وحيثما كان مقعده في الفصل ، فان مكى يبدو هادئاً مبتسماً في اغلب الاحيان . ولكنك اذا دققت النظر اليه ألفيته ساهماً مستغرقاً فى عالم غير الذى يجلس بين ظهرانيه . وقد كان مكى طويلاً فارع الطول بالنسبة لأغلب زملائه في الفصل لايكاد يضاهيه في ذلك إلا أحاد تقفز الي الذاكرة منهم صور الكبتل

ومحجوب وعباس وكرم - شقيق الزعيم الطيب الذى صار في خور طقت «باك القيامة» . ولفرط طول قامة مكى - ولربما لأسباب اخرى يعلمها الله وقد أطلع سبحانه عليها الشيخ أبابكر دون سواه - كان الشيخ ابوبكر يناديه : مكي يرعى . . . اوقف يا مكى يرعى . . بياء بنقطتين في اسمه الثانى (اسم أبيه) بدل باء بنقطة واحدة . وهذا الاسم الذى اطلقه عليه الشيخ تصحيف مقصود يحرف الاسم ويجعله فعلاً مضارعاً بفتح الياء وسكون الراء وفتح العين ! ولا اذكر ان مكى ابدى اعتراضاً على هذا التصحيف بل انه تقبله بروح سمحة وكانت ابتسامته التى تكاد لا تفارق وجهه تتزايد ويتسع مداها كلما دعاه الشيخ بهذا الاسم وطلب اليه ان ينتصب واقفاً ، حتى يفضى به الامر الى الضحك الصراح . ومن عجب ان هذا الضحك الذى يجد مكى نفسه مدفوعاً اليه دفعاً كان مما يثير عليه حفيظة الشيخ ، وكأنه عمد الى ايلامه بهذا الاسم المبتدع فلم يبلغ من مبتغاه شيئاً . ورغم سخرية الشيخ اللاذعة واحياناً صفعاته المباغتة فان مكى كان يتحمل كل ذلك في صبر وجلد ودون ادنى احتجاج ، بينما كان البعض ممن هم فى طول قامته لايكفون عن الاحتجاج على بعض تجاوزات الشيخ وغيره ، ويكادون يبطشون بالذى هو عدو لهم فى نظرهم من الاساتذة . . ويقينى ان مكى كان راضى النفس بما يصيبه من لسان الشيخ ويده ، ولوشاء لابدى صفحة السوء دون اكتراث يذكر ، ولكنه كان وقوراً صبوراً موفور الادب والفطنة والكياسة . ولقد امتاز مكى - على أخلاقه العالية الكريمة وسريرته الطيبة - بأناقة ظاهرة في ملبسه ، فجلابيته ناصعة البياض ، وعمامته مثبة على رأسه في انتظام ونسق يبعث على الاحترام والتوقير ، وتكمل صورة حسنه وبهائه ابتسامته الهادئه المشرقة التى لا تكاد تفارق وجهه الا فى بعض ساعات الضيق والحلك عندما يلم بنا الشيخ ابوبكر وهو سقيم المزاج . ولقد كنت أعجب كثيراً لعمامة مكى وكيف كانت تلتف حول رأسه وكأنها قطعة واحدة ذات فصوص ثابتة . فكل العمائم كانت تنحسر عن الرؤوس منسدلة على غير انتظام خاصة في ساعات النشاط المتزايد والركض واللعب الذى يستغرق فيه

التلاميذ في الفسحة الكبيرة وغيرها من الفترات التى تفصل بين الحصص ، الا عمامة مكى فانها كانت اشد ثباتاً واطول بقاء علي راسه من برنيطة الخواجة . واليوم الوحيد الذى رأيت فيه عمامة مكى تسقط عن رأسه - من بين عمائم كثر سقطن من رؤوس اصحابهن إثر صفعات قاسية - كان ذلك اليوم الذى جاء فيه الى فصلنا ، ولاول مرة استاذ يدعى الشيخ الباقر . وهو شيخ يبدو انه كان فى اواخر الاربعينات او مطلع الخمسينات من عمره ، يرتدى الزى الأزهرى المعروف : الجبة والقفطان او الككولا وذات الطاقية الطربوشية الحمراء ، ويتحدث بلهجة فيها شئ من الغلظة والتعسير ، يعتصر الكلمات اعتصاراً فتندفع من فيه على هيئة فرقعات متتالية كأنها قذائف البارود غير انها قد تدمى المشاعر دون ان تصيب الاجساد . والشيخ الباقر يختلف عن الشيخ ابى بكر من وجوه : فهو سريع الحركة بادى العصبية دائم الهياج ، بينما الشيخ ابوبكر بطئ الحركة ثعلبى الخطى قططى التحفز والانقضاض . والشيخ الباقر لايود ان يستمع اليك ، بينما الشيخ ابوبكر يمد لك حبال الصبر مداً وينصب لك الشراك نصباً ، حتى اذا أحاطت بك خطيئتك واحتوشتك شباكه التى برع فى نسجها من حولك فلن تفلت من قبضته وان اوتيت مكراً (لتزول منه الجبال) . ولن ينفعك ومن معك انكم حيئذ في العذاب مشتركون . ونحن قد تعودنا على الشيخ ابى بكر وألفناه - وقد يؤلف الشئ الذى ليس بالحسن - بل ان نوادره كانت تشكل بالنسبة لنا مادة غزيرة للحديث والانس والضحك فى اوقات فراغنا . . وقد اكبرنا فيه على أقل تقدير انه كان يرتل القرآن على مسامعنا فنهتز طرباً ونحلق فى آفاق ملائكية بعيدة . ولكن الشيخ الباقر لم يكن من كل ذلك في شئ . فهو قادم جديد ، لم نعرفه من قبل ولم يعرفنا . وبدل ان يبدأ من حيث انتهى غيره كان الاخلق به ان يصدر حكمه بناء على تجربة متمهلة . ولكنه آثر ان يذعن لانطباع لم يكن اصيلاً في نفسه لانه لم يكن نتيجة تجربة ذاتية بالنسبة له . كان الشيخ ابوبكر قد مهد له السبيل لهذا الانطباع الخاطئ بحمله جميع تلاميذ الفصل على قاعدة صفر من اطناشر دون استثناء ، وربما وقر فى

صدره أيضاً اننا جميعاً «هؤلاء قليلو الادب» . فجاءنا في ذلك اليوم البئيس – ونحن نراه لاول مرة – فى حالة هياج ظاهر لا تخطئه عين . وكنا من قبل قد أحسسنا بشئ غير قليل من الضيق والبرم . فقد ايقن التلاميذ ان لاشئ يجدى مع الشيخ ابى بكر . فلما استيأسوا خلصوا نجياً ثم عقدوا العزم واتفقت كلمتهم وقالوا : لا نحفظ القرآن ، لاننا لن نفلت من صفر الشيخ ابى بكر مهما فعلنا ، سواء علينا أجزعنا ام صبرنا . وكانت قيادة ذلك التمرد الامتناعى قد انعقد لواؤها لكرم – عبد الكريم احمد حميدة – ومساعديه من فرسان الربع الخراب . ويقينى ان مكى برعى لم يكن بمنأى عن ذلك القرار الحاسم ، بل انى أميل الى الاعتقاد بأنه كان من ابرز القادة ، وان كان وجهه المشرق لايوحى بمكر ولا تآمر وانما توحي ابتسامته الهادئه بالرضا والمسالمة وتشى ببراءة ربما كان فى حقيقة امره بريئاً منها ! ولعل الغرض من اتخاذ ذلك القرار الامتناعى – الذى انبعث اساساً من حظيرة الصقور في الفصل – كان إظهار شئ من الاحتجاج الايجابى للشيخ ابى بكر لعله يرعوى هوناً ويخفف من غلوائه . ولكنا فوجئنا فى ذلك الصباح بأن الداخل علينا لم يكن هو الشيخ ابوبكر وانما شيخ آخر هو الشيخ الباقر ، الذى ما ان وطئت قدماه عرصات فصلنا حتى قرأنا على وجهه المتجهم علامات الصرامة وآيات النذير . فلم يخالج احداً منا ريب في انه جاء يحمل فى طى خاطره احكاماً مسبقة عن اولاد الفصل جميعهم . ولقد صدق حدسنا اذا بدأ الشيخ بيوسف خضر وقال له : اقرأ سورة كذا . فشرع يوسف في القراءة مفترعاً تلاوته بالاستعاذة من الشيطان الرجيم ، وكأنه يستعيذ في سره وعلانيته ممن هو في نظره لايقل فى تلك اللحظة خطراً عليه من الشيطان الرجيم ! ثم تلا البسملة ، ولم يقدم نحو السورة خطوة واحدة . ولكنه تسمر فى مكانه وقد تفلتت الايات من صدره تفلت الماء من خلال فروج الاصابع . وطال صمته ، فانتهره الشيخ بفظاظة بادية . اذا ما حافظ قول ما حافظ . ثم أشار الى عبد الرحيم سعيد ، فعباس صالح ، فمحمد العوض ، فمحمد على مقبل ، وآخرين (من خلفهم لما يلحقوا بهم) فلم يظفر من احد منهم بطائل . واغتاظ الشيخ

اغتياظاً شديداً وتملكه هياج عارم وصار يذرع رحاب الفصل بين ادراج التلاميذ جيئة وذهوباً وهو يصيح : يا ناس ، ما حافظين سور الصلاة ؟ انتو مسلمين كيف ؟ وطفق يصفع يمنة ويسرة ، والتلاميذ منهم من يرتعد ارتعاداً ، ومنهم من يدعى ويحاول اظهار الثبات وان كانت دقات قلبه قد جاوزت المائة في الدقيقة بكثير دون ريب ، ومنهم من يحاول أن يدندن بشئ من القرآن دون ان يبلغ من ذلك شأناً يذكر . فتطايرت العمائم وفى مقدمتها عمامة كاتب هذه السطور . ولكن الشئ الذى أحزننى حقاً هو سقوط عمامة مكى برعى فقد خيل الى ان سقوطها فى تلك اللحظة – وبالصورة التى تهاوت بها – قد سلب مكى قدراً ليس بالقليل من كبريائه ووقاره ، وذلك هو ما آسفنى لان مكى كان يمثل – في نظرى – عنصر ثبات وهيبة بالنسبة لتلاميذ الفصل . فهو وان كان هازلاً مثل كثير من زملائه الا ان هزله كان قواماً قسطاً قد برئ من المغالاة والابتذال لاينقص من اتزانه الذى تميز به ولاينال من اعتداله الذى كان يدنيه من قلوب أقرانه .

اما بقية سكان الربع الخراب فانهم قد تعودا على مثل هذه الصفعات فكان كل منهم ثابتاً كالطود لايتزعزع . بل انك لم تكن تسمع الا هدير الشيخ الباقر وصدى صفعاته . . اللهم الا صيحتين خافتتين منشؤهما الفرق وتوقع المصيبة ، تيقنت ان احداهما من عباس صالح والثانية من اسماعيل عبد الصادق ، وقد كانتا أشبه بالانين المشوب برنة احتجاج يائس حزين . ثم اراد الله ان يصنع بنا خيراً وينجينا بفضله من العذاب الاليم ففتح سبحانه من فيض رحمته على عبد الحميد عباس الذى استطاع اخيراً ان يقرأ علي الشيخ سورة من سور المفصل القصار ولعلها كانت سورة تبت يدا ابى لهبٍ او ما يماثلها في القصر ، فقد كنا فى شغل شاغل عن تبين أى شئ من الاشياء . لقد قرأ عبد الحميد السورة من الذاكرة دون ان يخطئ ، فانفثأ حنق الشيخ وتراخى انفعاله وتطامن غضبه لانه قد وجد اخيراً – على حد قوله – من يحفظ سورة من سور الصلاة ! وكان ذلك يوماً مشهوداً . ورغم ان مدة الحصة لم تتجاوز في حقيقة

الامر خمساً واربعين دقيقة الا انها بدت لنا بعض يوم مقداره ألف سنة . ومن عجب ان المنقذ من تلك المحنة لم يكن غير جرس عم مبارك الذى اعلن نهاية الحصة بصلصلة كانت احلى لنا من التغريد والألحان وهبت علينا مثل نفحة باردة هانئة مريئة كأنها ريح الصبا جاءت بريّا القرنفل ! فاعجب لمنقذ من العذاب هو نفسه نذير بالعذاب . . واعجب لنجاة من التلف بموعد مع التلف ! ولعله من حسن الطالع ان الشيخ الباقر لم يكن قد تعرف بعد على النظام الصارم الذى كان سارياً ، وهو ان التلميذ يجب ان يصفى حسابه مع عم مبارك قبل مغادرته لرحاب المدرسة بعد انتهاء الحصص . ولو علم ذلك لتكاثرت الظباء علي عم مبارك في ذلك اليوم الكالح تكاثرها على حراش . . فما يدرى حراش ما يصيد ! ومن احسن حسن الطالع ان تلك الحصة التى شهدت تطاير العمائم وهدير الشيخ وأصداء الصفعات وازدياد وجيب القلوب كانت هى حصته الاولى والاخيرة معنا .. فانظر كيف يمكن لحدث واحد ان يبقى في الذاكرة جلياً واضح المعالم رغم مضى ما يقارب نصف قرن من الزمان على وقوعه ! ولو علم الشيخ الباقر اننا لن نذكره بعد نصف قرن من الزمان الا مقروناً بهذا الحدث المرعب لكان منه عندئذ غير الذى كان . فما يورد التطرف صاحبه الا موارد الخسران ، ولايترك الغلو والتشدد في الانفس الامثل هذا الانطباع الاسيان ، ولذلك جاء فى التنزيل : (وكان بين ذلك قواما) في معرض المدح للذين (اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) لان الاسراف في انفاق المال مذمة فى عمومه الا في حالات مستثناة ، وهو في انزال الرعب بالآمنين ابلغ في الظلم وتجاوز حدود الاعتدال . وجاء ايضاً في التنزيل : (وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) . وحتى البقرة التى أمر قوم موسى عليه السلام بذبحها فان وصفها الذى بينه القرآن يحمد الاعتدال وتشتمل معانيه على امتداح الوسطية : (قالوا ادع لنا ربك يبين ماهى ، قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولابكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون) . والفارض هى المسنة والبكر هى الصغيرة ، والعوان نصف بين ذلك ، أى المذكور من السنين .

ويقيني ان مكي برعي لن ينسى الشيخ الباقر ابداً مابقى لا لانه أطار عمامته الثابتة الوقورة عن رأسه في ذلك اليوم البئيس فحسب ، ولكن لانه اشاع بين التلاميذ وفي يومه الاول معهم جواً من الرعب جعلهم ينسون حتى قصار السور . . ولو انه تعامل معهم بشئ من الهدوء لما وجد من بينهم صدراً خالياً من القرآن ولدفعهم – ان هو احسن توجيه الخطاب لهم – الى مزيد من الحفظ والاستظهار . اما الامر مع الشيخ ابى بكر فقد كان شأناً آخر . لقد تحمل مكي برعي من الشيخ ابى بكر ماكنت احسبه لايتحمله من غيره . فبجانب انه مكي يرعى – في اشارة واضحة الى الجملية ومايكمن في غضون هذه الاشارة من المعاني الاستخفافية – فان مكي لم يكن بدعاً من التلاميذ ولم تشفع له ابتسامته الوادعة ولا اناقة ملبسه الظاهرة من ان يهوى الى درجة صفر من اطناشر ويستقر نهائياً في قائمة هؤلاء قليلو الادب . ولكن ، رغم كل ذلك ، فان مكي كغيره من التلاميذ كان قد الف الشيخ ابابكر وتقبل تجاوزاته عن طيب خاطر وصفاء نفس ، فقد كان فى الشيخ نوع من السحر يجذب اليه التلاميذ ويحببهم فيه وينسيهم – او قل يهون عليهم – متون الشطط التى يركبها في كثير من حالاته ركوباً ويحمل التلاميذ على سفائنها حملاً . فهى كلها – كما قلنا – تشكل مادة غزيرة للتلاميذ يبعث فيهم اجترارهم لها في مجالس انسهم حيوية ملأى بالطرائف ومتاع الحديث . ومن يدرى ، ربما كان الشيخ الباقر يتمتع بملكات خفيت علينا فقد ابى سوء حظه الا ان تكون تلك الحصة التى لاتنسى هى كل تجربته معنا ، اوقل تجربتنا معه . ومع ذلك فان الامر الذى لا مشاحة فيه ولا ريب هو ان الشيخ الباقر كان من اولئك الرهط من الاساتذة الذين يحرصون على ابلاغ تلامذتهم مستويات عالية من المعرفة ويرون ان التشدد معهم كفيل بأن يفتق من عقولهم ما غفا منها وأخلد الى نوم الغفلة . ولكن ربما فات عليه ان من هؤلاء الفتية الصغار – بل ان الغالبية العظمى منهم – من لا تستجيب انفسهم للاستكراه ولايسلس قيادهم للترهيب ، وانما تأسرهم الملاطفة ويتألف قلوبهم اللين ، لان الشدة جفاء يستجلب جفاءً وعزوفاً ، واللطف معروف

يستدر الطاعة والعرفان .

ولم أر كالمعروف أما مذاقه .·. فحلو وأما وجهه فجميل

الكاوبوى المسالم :

وأما الصديق العزيز محجوب حسن سعيد فقد كان جزءا لايتجزأ من سكان الربع الخراب فى الفصل وركيزة أصيلة من ركائزه فهو يجلس فى المؤخرة بالقرب من عبد الكريم احمد حميدة ، وفى قليل من احيانه يتحول الي الصف الذى امامه ، ولكنه لايتعدى تلك الحدود ابداً ربما لانه آلى على نفسه ان يجعل بينه وبين الاستاذ مساحة كافية تتيح له حرية شبه كاملة في ما قد يحلو له أن يأتى به من حركات او تصرفات قد تثير عليه حفيظة الاستاذ ان كان قريباً من بصره او سمعه . ورغم حرصه على هذا البعد ومهما كانت الاسباب الحقيقية لايثاره لهذا البعد فان محجوباً كان تلميذاً هادئاً جداً ووقوراً مكتمل الوقار . وهو حسن الهندام بهيُّ المظهر مهذب ذو خلق عالٍ كريم . ولكنه قليل الكلام ، لايدخل فيما لايعنيه ، ولايطيل الدخول حتى فى مايعنيه . يجيب على قدر السؤال وأحياناً بأقل مما يتطلب السؤال . يفعل ذلك مع التلاميذ والاساتذة على السواء . اذا أشكل عليه أمر صمت ولاذ بصمته لايبغى عنه حولاً فلم ينبس ببنت شفة ، ودون ان تبين علي وجهه علامات اضطراب او خوف او محاذرة من سوء عاقبة . حتى ان وجهه – على صباحته وحسن سمته – لايوحى بتعبير معين ولاينطق بمعنى معلوم . وكان ذلك مما يغضب بعض الاساتذة عليه ويثير حنقهم ويوقظ فضولهم فيظنون به الظنون ، ويحسبون انه متهاون بأمر أسئلتهم غير موقر لهم . والحق ان محجوباً كان يوقر اساتذته أشد توقير ويكبرهم أعظم إكبار ، بل هو يحترم زملاءه احتراماً صادقاً ويعاملهم برقة حانية ولطف محبب وأدب جم مطبوع . اما مع الاساتذة فقد كان محجوب موفور الأدب والحياء ، لدرجة أضرت بقضيته وشأنه عند بعضهم ممن حسبوه غير عابئ بهم زاهداً فى التعلُّم منهم . ومن منا لايذكر ذلك الموقف الذى تعرض له محجوب مع الاستاذ احمد عبد الله سامى استاذ اللغة العربية ؟ لقد كان الاستاذ

سامى متميزاً بحيوية دافقة ، فهو أثناء شرحه للدروس يجوب عرصات الفصل مراراً ، يكاد يقف امام كل تلميذ فيه حيث يجلس ، يلقى بأسئلته على هذا ويجذب انتباه ذاك بما يبديه له من ملاحظات ، ويثير اهتمام غيره بما يخصُّه به من شرح يسمعه الجميع . وكان كغيره من الاساتذة شديد الريبة فى أمر جماعة الربع الخراب ، وهو محق فى ذلك ، لان جميع التعليقات التى تسخر من الاساتذة ولايعلم على وجه الدقة مصدرها الحقيقى إنما هى نابعة من تلك البقاع دون ريب ، ولكن يصعب ضبط الأمر والحاق الجرم بشخص معين . فقد برع اولئك النفر الاشقياء فى اخفاء المصدر الحقيقى وان لم يكن فى وسعهم إلصاق التهمة بغيرهم ممن يتقدمونهم فى صفوف الفصل ويصغرونهم فى السن ، على الرغم مما حاك فى صدورهم من امانى مبتغاها ان يقترفوا الاثم ويرموا به غيرهم من الابرياء ، وذاك هو الخبث الطفولى الذى يتبدَّى من وراء براءة جامعة ! وقف الاستاذ سامى اثناء تجواله الدؤوب امام محجوب فى ذلك الصباح ، وكان قد وقر فى صدره أن محجوباً هو مصدر تلك الاصوات العجيبة الخافتة التى تشوش على الاستاذ وتقاطع سيل افكاره وهو يشرح الدرس ويشقق المعانى ويخاطب العقول . وحقيقة الأمر ان محجوباً كان بريئاً من احداث ذلك الازعاج الذى اغضب الاستاذ سامى وكدر صفوه . فمحجوب – كما قلنا – تلميذ مهذب غاية التهذيب ، وانما يدل مظهره المسن نسبياً بالمقارنة الى كثير من زملائه على انه – على أقل تقدير – أحد صانعى الفوضى واساطين الازعاج ، ان لم يكن القائد المسلم له بالريادة في هذا المضمار . ولما كان الاستاذ احمد سامى واجداً على محجوب ظاناً به السوء متهماً له باجتراح هذه المعصية فقد فاجأه بسؤال صعب لم يحر له محجوب إجابة شافية . فظل واقفاً امام الاستاذ والاستاذ يوبخه وينحى عليه باللائمة ويتهمه بالاهمال وعدم استذكار الدروس ، ومحجوب صامت فى ادب ووقار ، يكاد يماثل الاستاذ طولاً وارتفاع قامة او يفوقه اذا انحنى الاستاذ قليلاً ليعيره أذنيه . وقد كان محجوب حيياً جم الحياء كما قلنا ، وهو ايضاً صبور طويل البال ، فى جفنية الأعليين ثقل ظاهر لاتخطئه عين خاصة

عندما يحاول ان ينظر الى أعلى ، اما اذا خفض بصره فان عيناه تبدوان كالمغمضتين لولا ان جفن عينه اليسرى الاعلى يبطئ عن نظيره فيطالعك من هذه العين – على غير وضوح – ما يشبه سواد العين وبياضها . ولست ادرى ان كان ينام بعين مغمضة واخرى ناظرة . وقد قرأت فيما بعد في وصف الذئب انه حيوان ينام باحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى تمل فيغمضها ويفتح الاخرى ، ولذلك قيل فيه :

ينام باحدى مقلتيه ويتقى ∴ بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وليس هناك من شبه بين محجوب والذئب ، بل ان محجوباً كان اشد براءة من الحمل الوديع . لقد ظل محجوب ينظر الى الاستاذ حتى اذاغلبه حياؤه غض طرفه واسبل جفنيه وكأنه حوار يطلب من شيخه العفو والمسامحة . ولكن فات على الاستاذ ان الصبر له حدود وان احتمال الاذى ورؤية جانبه غذاء تضوى به الاجسام . لقد صبر محجوب طويلاً ، فلما طال عليه التقريع والوعيد والزجر ضاق ذرعاً بذلك فقال للاستاذ فى نبرة لم تخل من الحدة ولم تتجاوز حدود الادب : يافندى قلت ليك ما عارف . فما كان من الاستاذ سامى الا ان انهال عليه بمزيد من التعنيف وتصاعد غضبه فراغ عليه ضرباً باليمين . وظل محجوب رغم ذلك هادئاً متماسكاً يتلقى صفعات الاستاذ فى بسالة ورباطة جأش وصبر على الاذى واحتمال للمكروه . وانخلعت عمامته عن راسه وكاد هو فى مرة او مرتين ان يسقط على الارض على اثر تلك الضربات المبرحة ولكنه تمالك نفسه واستعاد اتزانه وصمد امامها . ولقد طال الامر حتى خشينا ان يتطور الى مالا تحمد عقباه ، فقد رأينا كيف ان محجوباً – وقد اوشك صبره ان ينفذ – قد كور قبضته اليمنى وكاد ان يهوى بها على وجه الاستاذ لولا ان الاخير تدارك الموقف فى اللحظة المناسبة وتركه لشأنه . فبان محجوب كأسد جريح ولاحت على محياه تعابير لم نألفها من قبل ، ووشت كل تقاطيع وجهه وبعض حركات جسمه بأنه كان على وشك ان يثأر لنفسه . ولكن غلب عليه حياؤه وادبه ، وساعده على ذلك تراجع الاستاذ في الوقت المناسب . فجلس على كرسيه والتقط عمامته من الارض ، ووضع طاقيته على رأسه

بحركة عصبية أفشت عن مقصده الذى اخفاه فى نفسه ، ثم طرح العمامة عليها دون ان يحسن لفها كما هى عادته . . فقد كان محجوب انيقاً فى ملبسه عموماً وفى اتقان لف عمامته بوجه خاص . ولكنه من شدة حنقه وعظم سخطه تركها هذه المرة تترامى اطرافها على كتفيه وهو يحرك قبضتيه اليمنى واليسرى تباعاً على ظهر درجه فى عصبية ظاهرة . ولقد حمدنا الله على السلامة التى انتهى اليها الامر لاننا كنا نعلم جيداً ان محجوباً كاوبوى من الطراز الاول ، وانه اذا قدر له ان يوجه اللكمة التي كاد ان يأتى بها الى وجه الاستاذ سامى لفقأ او خلع احدى عينيه على أقل تقدير ، ولربما ادخل انفه بضعة سنتمترات الى داخل تجاويف جمجمته ، او أصاب احد فكيه او كليهما بكسر قد يصاحبه انخلاع الأضراس والاسنان على نطاق واسع ! ولكن الله سلم والهم الاستاذ احمد سامى الحكمة والسداد وترك محجوباً وشأنه . لقد كان محجوب تلميذاً عاتياً رغم هدوئه البادى ورقته ودماثة خلقه فهو اسد صغير ولكنه ذو مرة وبأس ، فلا يغرنك فيه سمت الوداعة . اذا أحسَّ شيئاً من العدواة من أحد تجمعت قدراته الكامنة كلها فى قبضة يده فصارت تنشد النزال . لايطيق الغبن ولا المذلة ويحرص ان ينام على الرضا والظفر . لا يأبه بالضعاف وان تجاسروا عليه ولايقيل من يحسبهم أكفاءه وان نكلوا عن منازلته . يعف عن ايذاء من دونه فى البأس وتتقد عيناه فى وجه أهل الضراوة :

هزبر مشى يبغى هزبراً وأغلب ٠٠٠ من القوم يبغى باسل القوم أغلبا

فقد كان في عينيه احمرار دائم يخفف من وطأته ثقل جفنيه المتراخيين هوناً ويسطع منها بريق يحسبه المستهين به سلاماً وما هو بسلام . كان محجوب قوى البنية ، وهو مولع برياضة الملاكمة منذ تلك العهود حتى انه اصبح بعد انتهاء سني الدراسة علماً من اعلام الملاكمة وصار رئيساً لنادى العاب القوى فى البلاد ! بل هو صار فيما بعد احد أبطال السودان البارزين في هذا المضمار . ولو علم الاستاذ احمد سامى ان تلميذه محجوب حسن سعيد سيصبح في يوم من الايام احد ابرز ابطال رياضة

الملاكمة ورياضة حمل الاثقال لما حام حول حماه ، ولما وجه اليه تلك الصفعات المتتابعة والتى كان يمكن ان تجر عليه من المتاعب مالا قبل له به ، ولما انتهره بتلك الكلمات الجوارح التى صمد في وجهها محجوب بلا نطق ولا حراك ، والتى كان يمكن ان يتلقى الاستاذ رداً عليها بنية او بنيتين من محجوب لا يعرف بعدها سبيلاً الي العافية . فقد قلت لك ان محجوباً كان قليل الكلام لا يستخدمه الا لدى الضرورة القصوى . وهو لم يكن يعتدى على احد ، ولكنه يرد الاعتداء عليه بأكثر من مثله فعلاً لا قولاً . ففى مرة من المرات القليلة التى بلغ فيها صبره اقاصيه فلم يعد يسعه لكم تلميذاً فى السنة الرابعة لكمة – وكنا وقتها في السنة الثانية – كادت تكون كوكزة موسى عليه السلام اذ لولا فضل الله لقضى عليه . والحق ان محجوباً لم يكن يريد ان يكون جباراً فى الارض وانما كان يريد ان يكون من المصلحين – ولكن ، ما العمل ازاء الاعتداء الصريح سوى ان يكون ما ليس له بد ؟ اجتمع التلاميذ حول ذلك التلميذ الذى سقط على الارض اثر لكمة – اوقل بنية – محجوب ، وصاروا الى هرج ومرج وصيحات فزع واستنكار لم يحفل بها محجوب وانما وقف بعيداً « يكفكف » كمي جلابيته فى اشارة واضحة لاستعداده للنزال ودعوة واضحة لمن اراد ان تثكله امه ان يقترب ! ولكن قلّ من كان يريد ذلك . وأفاق التلميذ الملكوز ووقف على قدميه وهو لايكاد يصدق وقد تعفر وجهه وهندامه بالتراب ، وبادل محجوباً نظرات لها معانى ، ولكنها لم تتعد ذلك بحال ، ثم اختفى من اعيننا فى خضم جمهرة التلاميذ ، وهم بين حاث له على الاقدام والأخذ بالثأر ومحذر من مغبة الدنو مرة اخرى من تلك القبضة الماحقة . وماهى الا دقائق حتي أعلن صليل جرس العم مبارك بداية الحصة التالية ، فذهب كل منا لشأنه . تلك واقعة لم يعلم أمرها الاستاذ احمد سامى لانها سبقت مجيئه للمدرسة بأيام ، ولوعلمه لما كان منه ما كان فى حق محجوب ، وللزم حدود التقية والحذر .

ذلك هو محجوب حسن سعيد . . التلميذ المهذب الصامت الوقور ، الذى يعامل زملاءه بلطف ووداد ويمشي بين الناس برأس مرفوع بشكل ملحوظ ، ونصف ابتسامة

ترتسم على وجهه الناضر ، هى قابلة للاتساع والاستكمال ان اعجبه حديثك وتعاملك معه ، وهى قريبة من المحو والزوال ان أسأت معه الادب . فعند ذلك يصمت فمه كما هى عادته ويغان على وجهه ، وانما تتحدث يمناه . . والويل لك ان تحدث اليك بيمناه !
فهو لا يكون الا حديثاً موجعاً مر المذاق . وهكذا عرف كثير من القنادف محجوباً فتحاشوه فى ذكاء وفطنة ، واكبر ذلك محجوب منهم فلم يتعرض لهم بمكروه . لقد كان محجوب فى حقيقة امره مسالماً وذا روح سمحة ونفس متواضعة ولكنه لم يكن ليحتمل المسخرة وتعدى حدود اللياقة . ولعله كان مشغولاً برياضته المحببة من حمل الاثقال والملاكمة فما كان شديد الاكتراث باستذكار الدروس ولاشديد الحرص على التفوق فيها على ما كان يمتاز به من ذكاء فطرى شهد له به اقرانه واساتذته على السواء . وكان من متاعبه التى لم يهتد الى سبيلللتخلص منها تصحيفه الظاهر فى نطق بعض الكلمات الانجليزية . . فقد عجز تماماً عن نطق كلمة إيجبت (EGYPT) نطقاً صحيحاً اذ كان ينطقها اجيبت (EGEEBIT) مما أثار حنق كثير من الاساتذة ، ولكنهم ابصروا النذر وكانوا اولى ابصار فاعتبروا ، وتركوه وشأنه ، واثار سخرية بين التلاميذ اقتصرت على همس خافت دون الجهر فى كثير من الاحيان ، وضحكات مكبوتة لم تجد من الجرأة ما يجعلها تعبر عن نفسها بوضوح ، في اغلب الحالات .
ورغم ذلك فان بعض شياطين الفصل المغامرين اطلقوا على محجـوب اسـم اجيـبـت (EGEEBIT) ، يسرون به فى اول امرهم ولا يعلنون . ومن عجب ان محجوباً لما علم بهذا الاسم لم يغضب ولم يصدر منه ماينبئ بعدم القبول ، بل هو تحمله منهم راضياً دون ان يلجأ الى استنكار او تعنيف ، وما كان ذلك الا دليلاً ساطعاً على سماحة نفسه وكريم خلقه وواسع حلمه . . فصار يعرف بهذا الاسم وينادى به فلا يلقى ذلك الا بوجه صبوح بسام . ولما رأى زملاؤه تلك السماحة وأطمأنوا اليها ، اطلقوا عليه اسم جوبتر Jupiter فيما بعد ، فقد كان ينطق هذه الكلمة ايضاً بطريقة غريبة ، ولكن غلب عليه الاسم الاول ، لان الكلمة كانت اكثر شيوعاً بين الناس ، ومهما يكن من امر فقد كان

محجوب يعفو ويصفح فى كلا الحالين ، ولم يمسس احداً من هؤلاء الاشقياء المتعبين بسوء ، وانما كان يخفض لهم جناحه ويتلقاهم بوداده الاصيل ، ولذلك فقد احبه زملاؤه ووقروه . وجعلوا له فى انفسهم مكانة عالية . ولقد لقيت محجوباً بعد سنوات طويلة فاذا هو محجوب بعينه وقد اصاب كمالاً فى الجسم ومزيداً من الوقار ونضوجاً مبكراً فى الفهم والادراك . . يذكر جميع زملائه واساتذته ويحن اليهم ، فى وفاء صادق واجلال مطبوع ، وتواضع جم أصيل .

عبد الكريم . . وما ادراك من عبد الكريم :

واما عبد الكريم احمد حميدة او كرم – كما كان يسميه الشيخ ابوبكر عبدالله استاذ القران – فأمره عجب كله ، وهو يصلح ان يكون موضوعاً لرسالة كاملة لنيل درجة علميه محترمة . فقد كانت له مواقف مع كل المدرسين تقريباً ، وخرج منها جميعاً سميناً معافى لم يمسسه سوء ولم يؤثر على روحه المرحة الضاحكة مكروه . كانت له جرأة عجيبة في احداث كل ما يعكر صفو الاساتذة اثناء الحصة ، وقد أوتى مقدرة هائلة علي اخفاء وسائله التى برع فى احداث الضجيج والضوضاء بها . كان لايهتم كثيراً باستعمال آلات علم الهندسة فى مواطنها التى هى مواطنها ، من قياس للزوايا ورسم للمثلثات وابداع للخطوط المتقاطعة التى تطرح على التلميذ سيلاً من الاسئلة والقضايا المعقدة من تعريف لاوصاف الزوايا ومقاديرها ومعرفة المتساويات منها والمكملات للمائة والثمانين درجة . والقائمة منها والحادة والمنفرجة . كان عبد الكريم قليل الاهتمام بهذه الغايات التي من اجلها ابتدعت ادوات الهندسة . ولم يكن ذلك لزهد منه فى سبر أغوار العلوم الرياضية والسياحة في اقطارها الملتوية الدروب ، ولا لجهل منه بأهمية ذلك او بمعرفة قيمته ، ولكن لسخرية منه لاذعة اثبتت الايام صحتها وحكمة انتهاجها ، ولشيطنة مقتدرة هو مطبوع عليها اضافت لصفاء تلك الايام الزاهية طعماً خاصاً حلو المذاق ، وعنصراً هاماً من عناصر البهجة التى لاتنسى ، فعبد الكريم يستعمل تلك الادوات الهندسية لأغراض هي نقيض ماصنعت من أجله فكان يلائم بينها

في نسق لم يخطر علي بال مبتدعيها ولا من سار على دربهم من اساتذة العلوم الرياضية ، ويشحذها بأنامله فيحدث بها انغاماً شجية تجتذب اليها اسماع واهتمام التلاميذ ولكنها تشوش على الاستاذ وتعيل صبره وتملأ نفسه حنقاً وغيظاً ورغبة عارمة فى الانتقام . . وهى بهذا تفى بالمقصود منها اعظم وفاء ، فهل وراء ذلك من متعة لعبد الكريم ؟ ! نعم كان كثيراً مايلاقى العنت اثر ذلك ، فلا ينجو من صفعات الاستاذ اثناء الحصة ، وان هو نجا منها بمعجزة او مواتاة حسن حظ ، او لمقدرة منه على انكار ضلوعه فى الشوشرة – كما كان بعض الاساتذة يسمى تلك الانغام الكريمية الحالمة – فانه غالباً لاينجو من كراسة عم مبارك ، فيذهب اليه في نهاية اليوم الدراسى راغماً لينبطح علي الكنبة المجاورة لمكتب ضابط المدرسة غير بعيد من مكتب الناظر يتلقى ما كتب الله له على أقلام الاساتذة من جلدات ينفذ حكمها العم مبارك بصرامته الظاهرة وعطفه المستتر .

كان عبد الكريم احمد حميدة دنيا من البهجة وطاقة هائلة لاثارة الضحك والسخرية من كل ما يتصل بالجد او يقترب منه او يشير اليه ، ولسان حاله يقول فى قدرية واضحة · لن يكون الا ما سطر قدراً ان يكون ! ولن يبلغ الانسان الا ماقدر له ان يبلغ . ومع صدق هذه القدرية الا انها تتجاوز أصل الحكمة من الوجود ، وهو السعى من أجل تحقيق الأمانى وان كانت تبدو أنجماً صغيرة فى السماء ليس فى المقدور والمنظور ان تبتغى لها سلماً فتصعد تلقاءها ، او ذهباً خالصاً دفيناً فى اغوار الارض السحيقة، ليس من الميسور المواتى أن تشق له نفقاً فتغوص اليه . ولكن عبد الكريم لم يكن يحفل بهذا ولم يكن له كبير اهتمام بالتصدى للقضايا المعقدة ، لانه كان على يقين من ان حلاوة الحياة فى يسرها ، وان ما شق عليك نيله فالحكمة ان تزهد فيه ، وان ضحكة واحدة ملء الاشداق جالبة للسرور خير من حمل النفس على ما يورثها العناء والرهق ، ثم هى لاتدرى من بعد ذلك أبالغة من ذلك مبلغاً ام مخترمة دون الظفر منه بطائل . . .

ومن ظن ان الرزق يأتى بحيلة ... لقد كذَبَتْهُ نفسه وهو آثمُ

يفوت الغنى من لاينام عن السرى ... وآخر يأتيه رزقه وهو نائمُ

ففى حصص الجغرافيا كانت لعبد الكريم مواقف مشهودة مع الاستاذ الحاج هاشم ، فلطالما اعتاد على بأس هذا الاستاذ وبطشه وتعليقاته الجهورية الرعدية المرعبة . ولكن عبد الكريم يبحث دوماً عن كل ما يسلى ويثير الضحك وأفانين السخرية . . لايبغى وراء ذلك الا المتعة وتمضية الوقت وسيادة المراح وخفة الروح على أجواء تشوبها الجدية الصارمة وتكتنفها التوترات الذهنية من جميع اقطارها واطرافها . فالاستاذ الحاج هاشم كان حكماً من حكام كرة القدم وكنا نشاهد تحكيمه فى دار الرياضة با مدرمان . وفى احدى المباريات بين فريقى الموردة والهلال اعتدى عليه نفر من جمهور الورداب وذلك لاحتسابه ضربة جزاء على فريقهم خرج الفريق على أثرها منهزماً امام فريق الهلال باصابتين لواحدة ، رغم وجود ترنة ودرار « البشتنوا المريخ والهلال » ، ورغم وجود الصافى والجاك مدافعى فريق الموردة الذين كانا كسد ذى القرنين . . كثيراً ما تكسرت امامه وعلى سفوحه هجمات المغيرين ، (فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا) . وفي اليوم التالى شاع نبأ العلقة التى تلقاها الاستاذ الحاج هاشم فى دار الرياضة وذاع خبرها وعم جميع التلاميذ ، فكانوا يضحكون ويقهقهون كلما وقعت أنظارهم على الاستاذ الحاج ، وكأنهم راوا فى ذلك ثأراً لهم ورد اعتبار ، اذ ان الاستاذ الحاج هاشم كان – بجسمه الضخم وتعليقاته اللاذعة ، وصوته المدوى المرعب وصفعاته الحارقة – قوة ارها بية كبرى بالنسبة للتلاميذ . ينال منهم وهو فى مأمن لانه استاذ ، والاستاذ له حصانة معنوية عظيمة فى ذلك الزمان ، قلَّ ان يجرأ أحد من تلامذته على مواجهته بمكروه . وجميع تصرفاته تقريباً محمولة على حسن النية ونبل المقصد والمعنى الحسن . ولذلك لجأ عبد الكريم الى الحيل ، والى احداث الاصوات المزعجة فى حصته ليشفى بعض غليله وليرفع راية المرح التى آلى على نفسه ان يحمى حماها ويعليها دائماً خفاقة كلما ران على الانفس انقباض مبعثه صرامة الدروس . ولكن عبد الكريم كان بريئاً من تهمة إفشاء سر العلقة التى تعرض

لها الاستاذ الحاج هاشم فى دار الرياضة فذاك أمر ما كان له ان يستتر عن اعين الناس ، ثم هو من الطرافة بحيث لم يكن يحتاج لوقت حتى يشيع بين الناس . ولقد كان سرور عبد الكريم بهذه العلقة عظيماً ولكنه لم يكن في مقدمة المروجين لخبرها بحال ، بل ان حكمته الراسخة اوحت اليه ان يلتزم الصمت ازاء تداول الناس لقصصها وملابسات وقوعها ، فقد كان يعلم جيداً ان اصبع الاتهام بافشاء اسرارها بين العالمين ستشير اليه دون ريب . وقد صدق حدسه رغم صمته الماكر وابتعاده الفطن عن الخوض فى موضوعها والارجاف بخبرها لان الاستاذ الحاج هاشم لم يكن حسن الظن بعبد الكريم فيما يتعلق بمثل هذه الامور وقد استدل على صحة سوء ظنه بالقرائن ورأى فى « تحدى » عبد الكريم له في الحصة باثارة الشغب اللحني البرجلي المنقلي برهاناً لايقبل الشك على أن عبد الكريم هو الذى اذاع بخبر تعرضه للاعتداء في دار الرياضة بين التلاميذ ، رغم ان ذلك الاعتداء كان قد تم على مرأى ومسمع من آلاف الناس لم يكن من بينهم الا نفر قليل من تلاميذ ام درمان الاميرية ، فلا غرو ان تفشى وذاع الخبر ، وعم القرى والحضر . والمعذرة للصديق القديم الشاعر المبدع الحسين الحسن في استعمال هذه الكلمات هنا ، فان خبره غير هذا الخبر ، وشيوعه غير هذا الشيوع ، وشتان ما بين خبر علقة اشتملت على الحصب بالطوب والحجارة واكتملت بضربات الآيدى والأخذ بالتلابيب والخناق ، وبين خبر ينزل على النفس ويستقر فيها برداً وسلاماً ، مداره حول رقة العواطف وحلاوات العشق واستعذاب مرارات الصبر والهجران بين المحبين ! ومهما يكن من أمر فقد رست في خلد الاستاذ الحاج هاشم قناعة لامبرر لها ان عبد الكريم هو المسئول الاول عن افتضاح أمره بين الناس . . ولعلً مما ضاعف شعوره بالحنق ان الأذى الذى أصابه في دار الرياضة كان من باب ظلم ذوى القربى لانها ان لم تكن قربى دم وسلالة فانها قربى جوار لم تراع ولم ترع حرمته ، فالاستاذ الحاج هاشم هاشمابى يقطن ديار الهاشماب ، ومعلوم ان الموردة ونادى الموردة وأصلب مؤيدى فريق الموردة تجمعهم مع الهاشماب

بقعة واحدة تتقارب فيها الديار ولاتعدو المسافات امتاراً معدودة قليلة العدد ، وتؤلف بينهم وبين الهاشماب اواصر مودة وجيرة يفترض أن تعصمهم من أن يذيق بعضهم بأس بعض.فاعجب لرجل يحصبه جيرانه بالحجارة ويمزقون ثيابه امام الناس جزاء له وفاقاً على احتسابه ضربة جزاء اكبر الظن انه كان محقاً في احتسابها ، ثم ينشر خبر مأساته – على حد اعتقاده – تلميذ خبيث من اولاد بيت المال التى تفصل بينها وبين الموردة والهاشماب مسافات ومسافات ! فكان الاستاذ الحاج هاشم قاسياً مع عبد الكريم ، وان كانت تلك القسوة لاتفت فى عضد عبد الكريم ولاتلجم اندفاعه فى ماحبب الى نفسه من هزل وسخرية ، فتلقى بأس استاذه ونقمته بجنان ثابت ورباطه جأش محيرة ، ووضع على وجهه ظلال ابتسامة لاهى تريد ان تكتمل ولاترغب فى ان تزول . وكان الاستاذ الحاج هاشم احياناً يصيح بالانجليزية : عبد الكريم احمد حميدة وشركاؤه (... and company) قفوا ، ورددوا معى . . ثم يقول كلاماً يقصد به تجريحهم واتهامهم بالغباء – تماماً كما يفعل مع مجموعة بعينها في فصل الاوائل . ولكن عبد الكريم كان يردد ما أمر ان يصدع به مسروراً ، فيزيد ذلك من حنق الاستاذ عليه . ويصبر عبد الكريم على لأواء الامر حتى يقضى الله امراً كان مفعولاً . . فيذهب الاستاذ الحاج هاشم ، ويبقى عبد الكريم ، رافعاً راية السخرية من كل شئ ، وفى هذا من الظفر بالنسبة له ما لايخفى .

وأما شأن عبد الكريم مع الشيخ أبى بكر فقد كان هو العجب العجاب . عبد الكريم لا يأبه كثيراً حتى لصوت الشيخ الرخيم وهو يرتل القرآن فى الحصة ترتيلاً ينفذ الى أغوار الوجدان ، وانما يضع عبد الكريم بعض الشفرات على شقوق بظهر درجه لا أرتاب فى انها من صنعه ، ويستخدم المنقلة والبرجل والمثلث والمسطرة – أى كافة معدات الهندسة – ليحدث مع الشفرات اصواتاً منغمة ينزعج لها الشيخ ابوبكر ايما انزعاج ، ويهتاج ايما اهتياج .. فيباعد بين يديه ويخنس برقبته ورأسه حتى يكاد كتفاه ان يبتلعاهما لولا ان عمامته وقلنوسته الطربوشيه – التى تتخذ عادة مع الككولا

الأزهرية – تذكر الناظر اليه بوجود رأس آدمى فوق المنكبين . . ثم يبدو وكأنه يتحفز للوثوب على فريسة غافلة ، او كأنه يجمع أطرافه استعداداً للطيران من وجه الارض ! فتنخلع قلوب التلاميذ لفرط مايتوقعون من شر وسوء ، ويرين صمت ماحق على الفصل قرابة الدقيقتين او الثلاث . . ثم ينبس الشيخ قائلاً فى هدوء ظاهر ووعيد خفى : « اللي بيدق الرمبة لى كرم وكرم يرقص يوقف على حيلو » ! فلا يجيب احد ، ولا يقف احد . وذلك لعدة امور : منها ان معنى كلمة الرمبة – وان كان الشيخ وهو مدرس القرآن والدين يعرفه – لم يكن شيئاً معروفاً لكثير منا . فأنى لهاشم الاطرش وهو من الجبلين ان يعرفه ؟ وانى لعربى من الضهارى مثل مصباح الصادق ابن السروراب ان يسمع به ، وهو ليس من ارث الجموعية ولا من طارف فنونهم او تليدها ؟ وانى لعبد الرحمن كنتباى – والعالم فى نظره من تأدب بقيم قرية ام غانيم ومأثوراتها – ان يلم به ؟ والامر الثانى انه لم يكن أحد ليجرأ على دق الرمبة لعبد الكريم – حتى وان عرفها وعلم امرها – لان عبد الكريم قد آلى على نفسه ان يكون قائداً فرداً فى هذا المضمار التشويشى لايدانيه فى موقع الريادة فيه أحد ، وما كان من الآخرين فانما يتم تحت قيادته ووفق توجيهاته واتساقاً مع قوافيه الصوتية وبحور شعره الموزونة بميزان ادوات الهندسة وقطع الشفرات . فحقيقة الأمر انه لم يكن هنالك احد يدق الرمبة لى كرم . والامر الثالث هو ان رقص كرم الذى أشار اليه الشيخ لم يكن رقصاً بالهيئة التى تلفت الانظار ، وانما كان اهتزازاً طروباً وتمايلاً موقعاً مع انغام لايتقن التجاوب معها الا من احدثها وابتدع موجاتها وحدد نصيب كل منها فى الطول والقصر ، وفى الارتفاع والانخفاض . وان دل طلب الشيخ الذى اعلن عنه عن شئ ، فانما يدل على حنقة ومكره

فهو قد ضمن فريسة حنيذة فى عبد الكريم ، وانما طمع فى ان يضيف الى صيده فرائس أخر فهو يعلم ان عبد الكريم هو صاحب الأهازيج وهو المتجاوب معها فى ارتياح ظاهر وان حاول ان يخفيه . . لا خوفاً من عقاب ولكن استحياءً من ان يتُّهم بفساد الطبع . والامر الرابع والأهم هو ان الذين تجابوا مع انغام عبد الكريم ورمبته

تجاوباً لم يغادر سرائرهم ودخائل نفوسهم ولم يبلغ حد الاعلان عن نفسه بأى صورة من الصور ، لم يكن يسهل عليهم ان يلقوا بأيديهم الى التهلكة بالوقوف على اثر طلب الشيخ ، وانما كان همهم ومبلغ جهدهم ان يتبرؤوا من أى علاقة تربطهم بعمايل عبد الكريم ، وان كانوا يضمرون له فى قرارة انفسهم اعظم آيات الاعجاب والاكبار .

ويكرر الشيخ ابوبكر قوله بعد مضى دقيقتين او ثلاث على طلبه الاول . . والصمت كأنه ظلة نتق الله جبلها فوقهم ، وكأنه فوهة بركان يوشك ان ينفجر فيتطاير منها الحمم والشظايا والبروق : « يا اولاد . . اللى بيدق الرمبة لى كرم وكرم يرقص يوقف على حيلو » . فلا يقف أحد ، ولايجرؤ تلميذ على الكلام . ثم يكرر الشيخ طلبه ثالثاً ، وبعدها يستل رقبته من بين كتفيه ، ويصلح من تثبيت العمامة على رأسه ، ويجمع طرفى قفطانه حتى يكاد يخفى الحزام الذى يشد وسطه ، ثم يمضى بين الادارج صوب الربع الخراب فى هدوء يشبه الزحف والدبيب ، لاتكاد تسمع لوقع اقدامه صوتاً . . حتى يبلغ عبد الكريم فى آخر الفصل . وعبد الكريم جالس فى سكينة ووقار بعد ان اخفى بأساليبه الشيطانية الماكرة البالغة الحصافة جميع « معدات الشغل » وبان درجه بريئاً الا من الشقوق التى تميزه عن بقية الادارج ، ليس على ظهره مايشير الى أى علاقة بينه وبين ما كان يوجع أذنى الشيخ ويقلق خواطره . ويقف الشيخ امامه ثم يأمره بالوقوف ، فتنتصب قامة عبد الكريم تكاد تبلغ قامة الشيخ ارتفاعاً او تعلوها ، خاصة عندما يخنس الشيخ برقبته بين كتفيه كما كان يفعل كلما جمع همته ليهوى بكفه على خد أحد ضحاياه . ثم تتوالى صفعاته على عبد الكريم ، تسبقها وتتلوها وتتخللها عبارات الشتم والتقريع التى برع الشيخ في تنويعها ورصها وإهالتها . . وعبد الكريم ثابت راكز كالطود لا تحركه هذه اللطمات والكفوف الا بمقدار مايحمى وجهه وعينيه بيديه من شرها . ثم يغادره الشيخ وقد اشتفى وقضى وطراً من الصفع واللكم والاهانة ، ليجلس على كرسيه امام الفصل ، وقد أخذ منه الغضب والحنق كل مأخذ ، فيهوى بعبارات الشتم والتقريع على بقية التلاميذ دون سبب معروف . وقد

يستمر الحال على ماهو عليه والآمال كلها معلقة بجرس عم مبارك الذى طال انتظار الصبية الصغار لصلصلته ورنينه ، ليجئ معه الفرج وانقضاء الكرب بانتهاء زمن الحصة . وقد يتغير مزاج الشيخ بعد قليل ، ودون مقدمات ، فيقول : ماشاء الله ، الحبيب والدرديرى وعكود اولاد مهذبين . . الولد مرآة البيت . كرم ولد قليل أدب . . انتو صعاليك » . . الى غير ذلك . فقد كانت له مقدرة عجيبة على الانتقال من حال الى حال ، وعلى رفع اقوام ثم خفضهم في لمح البصر ودون مبرر ظاهر الا ان يكون احساساً غامضاً فى دخيلته بحدوث شئ هو لم يحدث في حقيقة الامر . وآية ذلك ان الحبيب وعكود والدرديرى لم يدم لهم صفو وداد الشيخ طويلاً وانما صاوروا جميعاً – الواحد تلو الآخر – الى ما صار اليه غيرهم واحتل كل منهم مكانه الذى يليق به في نظر الشيخ ضمن كوكبة هؤلاء قليلو الادب ، والتى ارغم حتى الالفة – الكبتل محمد عثمان ابراهيم – على ادراج اسمه في مؤخرتها ايذاناً بتأكيد الحكمة القائلة بأن دوام الحال من المحال ، وبرهاناً ساطعاً على صحة مقولة عبد الكريم الخالدة وهو يصف الشيخ ابابكر : دازى الدنيا ، ما تملا بيهو ايدك !

نعم هذا هو عبد الكريم احمد حميدة ، الشقيق الاصغر للزعيم الطيب . . احدث فى ام درمان الاميرية الأعاجيب وأتى بما لم يسبقه اليه الاوائل ، واحبه زملاؤه حباً جماً ، لانه كان طيب القلب عامر الوجدان ، يعالج صرامة الدروس ولأواء الحصص بما اوتى من موهبة على تحويل الضجر الى سلوة ومراح ، وبما يأتى من حركات وهمهمات ونغمات بريئة ومسلية ، تجبرك على الضحك وان كان في نفسك شئ من حزن وأسى ، وتثير البهجة وتشيعها بين الناس وان ران على مشاعرهم من قبلها سلطان الملل والانقباض ، فيتزود التلاميذ بمواضيع حية ومثيرة يتجاذبون اطرافها فى اوقات فراغهم بحبور بالغ وسرور مقيم . وليس هناك من ريب في ان منهج عبد الكريم في السخرية كان يشكل مدرسة فكرية قائمة بذاتها ، وان كثيراً من افكاره قد برهنت تقلبات الحياة على صحتها وعدالة منطقها ، وان ذكاءه وحكمته ومرونته وصدق نبواءته

– كانت أموراً فوق الشبهات .

الراعى واعى :

كان من اولاد فصلنا الثوانى الفاضل شريف ، وهو من اولاد ود نوباوى ولذلك كانت لى به صلة خاصة . وقد كان – على ضآلة حجمه وضعف بنية جسمه – علماً بارزاًبين زملائه . وذلك لسرعة بديهته ، ولمقدرته على السخرية من كل شئ . وهى تختلف عن سخرية عبد الكريم فى انها سخرية بلا هدف ، لا ترعي حكمة معينة ، ولا تلتزم بحدود مرقومة وانما تسيل علي سجيتها دون أن يحفل صاحبها بأى ضوابط اجتماعية او مواقيت زمانية ، حتى انك لتكاد تجزم ان الفاضل لايدرى ما يقول احياناً ، او انه لايملك القدرة على حبس لسانه بين فكيه لانه يجهل تماماً ما يمكن ان يصير اليه الناس حصائد ألسنتهم . تراه وقد جلس في الفصل فى وداعة الفأر او القط او ام قيردون ، ولكن مظهره لاينم عن محتواه . فهو في حقيقته مجموعة مقدرات هائلة على الهرجلة واحداث الفوضى فى الفصل . وتظهر مقدراته هذه بجلاء ووضوح وبشكل خاص في خلال الدقائق الخمس التى تفصل بين حصة وأخرى . . وتبلغ دروتها عند فسحة الفطور ، واحياناً بعد الحصة الاخيرة وخاصة عندما يكون الفاضل من القلائل الذين لايتوجب عليهم مراجعة عم مبارك قبل مغادرة فناء المدرسة . وهذا بالطبع أمر نادر ، لان كمال الانتساب الى ام درمان الاميرية فى تلك الايام الخالية يكاد لايبلغ مداه الا بمراجعة عم مبارك في نهاية اليوم الدراسى في كل ايام الاسبوع تقريباً . ولذلك فان أعلى مراحل هرجلة الفاضل شريف تكون بعد تناول فول عم محمدين وطعميته . فهو ينطلق في فناء المدرسة راكضاً يجذب هذا ويلكز ذاك ويضاحك آخرين وكأنه فرس فك من عقاله وقد اختلطت عليه الجهات فما يدرى أى سبيل يسلك . ثم هو يروى اقاصيصه وطرائفه التي لاتنتهى ، على أى تلميذ يلقاه ، عرفه ام لم يعرفه ، لايبالى بما يترتب علي ذلك من استحسان – وهو أمر قليل الحدوث – او انكار واستياء قد تترتب عليه صفعة على قفاه ، وهو ماتعود عليه الفاضل وصار بالنسبة له امراً متوقعاً فى كل حين ! ولكنه

بالرغم من ذلك لايكف عما هو سادر فيه من غي . يبدؤك وعلامات الجد تظلل وجهه الصغير وتبرق من عينيه المعمشتين قائلاً : انت عارف . . في واحد كان ماشي يقعد في القهوة . . وبعدين . . . قعد في الشاي ! ثم ينفجر ضاحكاً وينطلق راكضاً في فناء المدرسة . واذا زجرته بقولك : يا الفاضل ، بالله دعك من هذه النكات السخيفة البايخة فانه لاينزجر ولايرعوى وانما يرد الصاع صاعين فيقول لك متسائلاً وكأنه يصفعك : الـ ..نى كات . . ولا الركبة ماوس ؟ ثم يقهقه مسروراً ويجرى من امامك لانك توشك ان تصفعه او تحثو على فمه التراب . اما في الفصل ، فبالرغم من هدوئه الظاهر - وذلك خشية بأس الاستاذ - فقد اكتشفنا بأخرة انه كان من مجموعة كومبارس عبد الكريم ، وهو كما يبدو - قد تتلمذ على عبد الكريم طويلاً حتى برع في اجادة استعمال ادوات الهندسة وأوتي ملكة مقتدرة علي اخفاء نشاطه الهرجلى عن اعين الاساتذة ، ولذلك احبه عبد الكريم وقربه منه واحتفل بأمره اشد الاحتفال . ولكن قل في تلك الازمان من يقترف جرماً ثم ينجو من يد العدالة وان دق شخصه وصغر حجمه وخفيت وسائله لان العيون شهود تشير بشئ ضد ما أضمر الحشا . وكما هي حال الدنيا - تستر عنك شيئاً وتفضح عنك اشياء - فقد ضبط الفاضل شريف مرة والبرجل في يده ، ولكنه لم « يتبرجل » بل ثبت للتجربة وانكر تلبسه باحداث الشغب وحلف يميناً مغلظة ان البرجل كان ساقطاً علي الارض فرفعه ليدخله في جوف درجه . غير ان عين الاستاذ الفاحصة وقعت عليه قبل ان يفعل ذلك . ورغم انه تلقى صفعتين او ثلاثاً جزاءً وفاقاً له على الجرم وانكاره ، الا انه ترك في نفس الاستاذ شعوراً بالأسى وإحساساً مقيتاً بأنه ربما يكون قد ظلمه من حيث ظن به التواطؤ على الشغب ، وانه قد يكون بريئاً مما رمى به من ممالأة لعبد الكريم . وهو في الحق برئ من تلك البراءة التى غلبت على ظن الاستاذ حياله . وبالرغم من ان الشيخ ابابكر لم يتمكن ابداً من ضبط الفاضل متلبساً بجريمة الهرجلة والشغب الا انه رجح ان يكون الفاضل واحداً من المشاغبين على اقل تقدير ان لم يكن احد أهم الاركان . . . فكان الفاضل من اوائل الذين انتهى بهم الامر الى صفر

من اطناشـر وهؤلاء قليلو الادب ، وذلك ان مـجـرد الاتـهـام في نظر الشيخ كـان يعني الادانة الكاملة وان حـاك في صـدره شـعـور خـفـى تنبئ عنه درجـة رد الفـعل عنده بان اركان الجريمة لم تكتمل ، وان البينات والقرائن لاترقى في مجموعها الي ثوابت تسمو عن النقض والوهن . ويمكن القول بأن الشخ ابابكر لم يكن قد تيقن بعد من تحديد دور الفاضل في الهرجلة بصورة قاطعة لان الفاضل - كما قدمنا - كان بارعاً فى اخفاء امره . ولو انه استوعب الدرس الذى تلقاه لما خانته مقدراته . . ولكنها سخريته المرسلة التى لاهدف لها سوى السخرية ذاتها . . هى التى اوقعته في شر اعماله . فهو قد نجا من ذلك الاستاذ والبرجل في يده . . علامة ظاهرة لاتقبل الشك . دالة على الشروع فى الهرجلة او انتواء الدخول فيها على أقل تقدير . وكان عليه ان يحمد الله على نجاته وعلى ان اسمه لم يبلغ دفتر عم مبارك فى ذلك اليوم ، ولكننا لم نسمعه يفعل ولم توح لنا تصـرفاته التى أعقبت ذلك بأنه قد فـعل . ولذلك ، لما اراد الله ان يفـضح امره وان يأخذه من حيث لايحتسب - فـالحذر يؤتى من مـأمنه - تـهيـأت لذلك الاسباب بفـعل القدرة . (واذا اراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال) . الرعد ١١ .
ففى ذات يوم افلح عبد الكريم فى نقل معداته الشغبية بسرعة فائقة وخاطفة الى ظهر درج الفاضل الذى كان يجلس امامه ، وذلك عندما قرأ عبد الكريم بذكائه اللماح وفطنته الوقادة شراً مستطيراً في وجه الشيخ ابى بكر على اثر الموسيقى التى عزف مقطوعاتها عبد الكريم نفسه والتى تعودت آذاننا على انغامها الشجية ، وهى ذات الموسيقى على وجه التحديد التى تثير حفيظة الشيخ ويجن لها جنونه . ومن عجب ان الفاضل شريف كان غافلاً عن فعلة عبد الكريم ، ولم يتبين الهول الذى احاط به الا حينما وقف الشيخ امامه وقد انخنس اعلاه فى وسطه وتقوس اسفله وانحقبت يداه على مؤخرته وصار كالقنفذ يوشك ان ينقض عليك بكل اشواكه . فاجأ الفاضل صوت الشيخ هو يعلنه في ثقة هادئة - كما يعلن قاضى المحكمة أحكامه في وجه المتهم : انت اللى بيدق الرمبة لى كرم وكرم يرقص ؟ قال الفاضل : لا والله يافندى دا ما انا .

فأشار الشيخ الى مجموعة الادوات الهندسية التى كانت تقبع على ظهر درجه وقال . وماهذه الأشياء ولماذا هي هنا في حصة الدين ؟ فاسقط في يد الفاضل تماماً ، وصار يتمتم بكلمات لاتحمل معني سوي الاعتراف وطلب الرحمة . ولكن الشيخ كان قد ظفر بمراده ، وقد اعيا كفه وصبره صمود عبد الكريم فطفق يبحث عن فريسة جديدة . فصاح بالفاضل : حتى انت يا أعمش ؟ انت اسمك منو ؟ قال الفاضل : اسمى الفاضل شريف يافندى . قال الشيخ : انت ماك الفاضل وماك شريف . . انت العاطل الماكر الكضاب . . ثم انهالت عليه الكفوف والنعوت التى اتقن الشيخ صياغتها وبرع في ارسالها تباعاً كالقذائف الحارقة . . ثم مازال به يصفعه تارة ويعيره اخرى ويجره من اذنه يكاد يقتلعها من اصلها حتى ظننا ان احدهما – او كليهما – الفاضل والشيخ – سيفقد وعيه تماماً بعد لحظات . ثم تراخت غضبة الشيخ بعض الشئ ، ولعله احسّ بأنه يتعامل باسلوبه المبرح ذاك مع شخص غير عبد الكريم . ولقد أسينا نحن كثيراً للفاضل ، رغم شعورنا الخفى اللاواعى بشئ من السرور والغبطة . وذلك ان الفاضل كان عفريتاً صغيراً لايدع احداً منا ينعم بهدوء . ولقد افلحت تلك العلقة الساخنة التى تلقاها الفاضل علي يدى الشيخ ولسانه فى خفض معنوياته لايام طوال تلت ، ولكنه سرعان ما عاود نشاطه من جديد فتكاثرت نكاته البايخة التى كان يرسلها تباعاً ويضحك لها ، ويضحك منها زملاؤه ضحكاً كالبكاء !

واما الفاضل شريف الذى كنت القاه في ود نوباوي عندما نجتمع لنلعب بكرة الشراب ، فقد كان شخصاً أخر . . يتمتع بهدوء عجيب ، ولايجرؤ على المعافسة الكروية اتقاءً لشرورها علي بنية جسمه الضعيفة الواهنة . ولكنه كان يعوض ذلك بتمتين علائقه الودية بأولاد الحى ، ويكف عن النكات البايخة خوفاً مما قد تجره عليه من اهوال . فاذا كان في المدرسة يستطيع ان يشكو من يعتدى عليه للناظر او ضابط المدرسة او من هو ابو الفصل من الاساتذة ، فلمن يشكو من يتهدده او يناله بأذى في الحى ؟ فهو لايعرف العمدة ، ناهيك عن مفتش المركز او من ينوب عنه . ولذلك آثر

الفاضل ان يكون مسلكه في الحى مسلكاً متزناً يخطب ود الناس ولايغامر بينهم بهذه النكات التى قد يترتب عليها او ينجم عنها مالا يرضيه . فكان فى بعض أحيانه يدعو طائفة منا الى داره القريبة من ميدان الدافورى وذلك لتناول شربات الليمون . . فاستطاع بذلك ان يقيم حلفاً مع مجموعة لا بأس بها من اولاد الحى كان بعضهم من بين زملائه في ام درمان الاميرية . فاذا اشتمل عليه عراك مع واحد اوثلة من القنادف في المدرسة خف من كان من حلفائه هناك لنجدته فصار بهم اكثر جنداً واعز نفراً ، وخرج في أغلب احيانه ظافراً يضحك ملء شدقيه ويرسل ملحه وطرائفه ونكاته دون اكتراث ، وان كان كثير منها هو مما ألفه زملاؤه واعتادوا على بياخته ، فهم يتضاحكون أسى له ورثاءً لحاله . ثم هو من بعد ذلك يروى ما حدث – او ما يوهم انه قد حدث – فى تلك المعارك باسلوبه الفريد فيضفي على الامر كله من البطولات والخوارق ما لم يكن فيه بحال ، وينسب الى نفسه من القوة وشدة البأس ما يكذبه قوام جسمه الضاوى وساعديه الواهنين . وعندما نلعب كرة الشراب فى حوش الجمال بحى ود نوباوى كان الفاضل شريف يفضل حراسة المرمى على أي موقع متقدم في الميدان . وهو شديد الاعجاب بالخواجة وليم حارس مرمى فريق الهلال ، وكثيراً ما كان يحاول ان يقلده فى كل حركاته . ولكن ما أكثر ما كانت الكرة تنفذ من بين يديه او رجليه لتتهادى طليقة مطمئنة الى داخل مرماه . وما اكثر ما يخطئ ظنه الرمية فينبطح على الارض فى زاوية يسابق الكرة ، فاذا بها تلج مرماه من الزاوية الاخرى ، وهو خزيان ينظر . . . فكنا نضحك من هذا اكثر مما نضحك من نكاته التى حفظناها عن ظهر قلب . وما كان يحميه من غضب فريقه المهزوم على أثر غفلاته المميتة فى حراسة المرمى الا انه كان هلالابياً صاحب عقيدة لاتتزحزح ، فهى التى كانت تشفع له فى احيان كثيرة . والا فهو دقيق الجرم لايعجز خصمه عن ان يصرعه فى وقت يسير . كما كانت تشفع له خفة روحه ودماثة خلقه التى تبلغ في ساعات الصفاء مدىً بعيداً . ورغم انه كان عفريتاً فى المدرسة وحذراً مدبراً لأمر نفسه في الحى إلا أنَّ مرحه لم يكن ليفارقه

أبداً ، وإن كان يكثر منه في المدرسة ويقل منه في الحي ، خاصة في جلسات المساء على كبرى ود نوباوى عندما كنا نستمع الى انجليزية ابى الوفاع فى إعجاب وانبهار ، والى حكايات شمشون وهو يروى لنا عن عالم المسرح الاعاجيب . وشمشون هو اسم اطلقناه على احد قنادف ود نوباوى ، واما المسرح - بفتح الميم والسين والراء المشددة والمرققة في نفس الوقت - فهو ذلك المكان الخالى شمالى ودنوباوى الذى كانت ترتاده الناقلات الكبيرة لنقل التراب . وكلمة المسرح تعنى انك تستطيع ان تحصل على التراب من ذلك المكان بموجب تصريح رسمى ، وهكذا يتضح لك أصل التصحيف في هذه الكلمة . كنا نستمع الى ابى الدفاع وشمشون وطلب واولاد ود التويم وعبد التام وغيرهم وهم يروون على مسامعنا اساطير الاولين واعاجيب الاخرين من قصص الجن والسحرة والبعاعيت.ورغم ان ابا الدفاع وشمشون والآخرين كانوا يكبروننا كثيراً في السن الا اننا كنا نهرع الى هذا الندى لنتزود بالقصص الذى يلهب الخيال ويدعو الى اطالة التأمل والتفكير . وكان من بين شخصيات المنتدى التى لاتنسى خالد الشفيع ، الذى كان تلميذاً فى مدرسة حى العرب وهو يتقدمنا بسنوات . واذا كانت قصص شمشون عن المسرح وشياطينه وعفاريته وبعاعيته التى أكد شمشون انه صافحها جميعاً بيده وخرج منها سالماً لم يمسسه سوء واذا كانت احاديث ابى الدفاع عن الحرب العالمية الثانية والقنابل التي كانت تقع وتنفجر عن يمينه ويساره ومن بين يديه ومن خلفه ومن تحته ومن فوقه دون ان تصاب بدلته العسكرية - ناهيك عن جسده - منها بشظيه واحدة، واذا كانت حكايات طلب - وهو فتى قصير القامة عظيم الراس مقوس الساقين شثن الكفين والقدمين - عن صرعه للبعاتى فى ليلة مقمرة امام مسجد الهجرة فى ود نوباوى ، ثم اختفاء البعاتى من بين يديه دون ان يدرى لذلك سبباً مقنعاً . . اذا كانت كل هذه الاقاصيص تروى وتؤكد بالايمان المغلظ ، فان خالداً لم يكن ليترك هؤلاء القنادف يطلعون بنا الجو وحدهم ، ولذلك فهو يروى فى هدوء أخاذ وبنبرة تنم عما حسبناه صدقاً لايتطرق اليه الشك عن مغامراته البطولية الخارقة مع « قطيفة».

وهى بعاتية او عفريتة او شيطانة مرعبة حقاً . ولقد اوتى خالد مقدرة فريدة على تصوير قطيفة هذه ووصفها بدقة لا تترك فى نفسك أى أثر للشك فى انك ستلاقيها فى اول خطوة تخطوها نحو دارك بعد ان ينفض سامر الكبرى . وكان الفاضل شريف يضحك بكل جسده ومشاعره وهو يستمع الى كل هذه الروايات حتى تستحيل عيناه الى شقين على جلد ما حول ارنبة أنفه ، وضوء القمر اللجيني يكشف حتى عن اعماق ذلك الخور العتيق الذى يشق حى ود نوباوى حتى يبلغ مشارف الهجرة ، فيخيل الينا ونحن نجلس على ذلك الكبرى ونطل منه على بعض الضفادع والهوام والحشرات فى قاع المصرف اننا ربما فوجئنا فى أى لحظة من اللحظات بمجموعة من البعاعيت او الشياطين المردة ، او قطيفة نفسها دون سواها ، وهى خارجة من تلك الاعماق متوجهة تلقاءنا شاهرة فى اوجهنا اعيناً حمراً مثل الجمر واللهب ومخالب تنهش لحوم البشر وانياباً واضراساً تمزقها مزقاً وتقضمها قضماً . . ورغم ضحكات الفاضل شريف الرنانة فقد كان في حقيقة امره يمتلئ رعباً – وان لم نكن نحن نقل عنه فزعاً ورعباً . واية ذلك انه كان يلح علينا بعد ان ينفض السامر ويعلن القمر عن انتصاف الليلة ، ان نصحبه حتى نبلغ به داره ، وهى على مرمى حجر من مكان ذلك المنتدى . فكنا اذا ابلغناه مأمنه عدنا ادراجنا راكضين مفزوعين حتى يبلغ كل منا داره ، ودقات قلبه قائلة له – من فرط ما سيطر عليه من فزع وتوقع جازم لمقابلة البعاتى او الشيطان الرجيم – ان الحياة دقائق وثوانى !

ومما كان يحيرنى ان محمد العوض اطلق على الفاضل شريف اسم « الراعي » – براء مرققة – وقد سار عليه هذا الاسم وعرف به حتي في الحي . ولم اكن أدري لماذا أطلق عليه محمد العوض هذا الاسم ، ولكني أحسست بأنه يناسب الفاضل تماماً . فبالرغم من ان الفاضل من اولاد ام درمان ومن أحد احيائها الشهيرة الا انه كان فى طبعه سمات قروية واضحة . فهو يبدو مندهشاً من كل شئ تقريباً ، ويكره الطرماج ولايقربه ابداً ، وقد رايت في داره بعينى رأسى مجموعة من الاغنام لعل خبرها قد بلغ

محمد العوض فساعده على ابتداع هذه التسمية العبقرية واطلاقها على الفاضل ، ومهما يكن من امر فان الفاضل تقبل هذا الاسم بنفس راضية ، وهو قد شاع بين الناس الى درجة ان الشيخ ابابكر كان يناديه به وقد نسى اسمه الحقيقى تماماً . وكان محمد العوض اذا اراد ان يشاغله وهما في حالة خصام يكثر من ترديد قوله · الراعى واعي ثم يضحك ملء روحه وهو جذلان ظافر ، ويضحك معه الحاضرون وقد تبينوا مرماه ، ويضحك الفاضل شريف نفسه لضحك الآخرين دون ان تبدو عليه أثارة من استياء . ذلك هو الفاضل شريف الذى لم ألقه منذ تلك الأزمنة ومنذ ان رمى بيننا البين المشت المراميا . لقد كان والله كنزاً من كنوز الحيوية والمرح وزنبقة من زنبقات أصائل ايامنا المترعة بالضياء والعبير والسنا . اوتى مقدرة على الالتفاف من حول احرج المواقف وتحويلها الى مواطن امنة تنضح بالمرح والمسرات ، والى لحظات من البهجة خصيبة الاديم تفشى الوداد وتجلو عن النفوس الملل . اوتى مواهب كثيرة وجزيلة وتفرد بخلال من بعضها الأصالة والصدق والايثار ، وامتاز فى حديثه بمنهاج تألف به قلوب الناس وبفكاهة مرسلة لاتصنع فيها ، وبكلف بالدعابة والبساطة نسيج وحده . فهو لا يستعير نوادره من احد وانما يبدعها ابداعاً وتصدر عنه فى تلقائية معافاة صادقة ، وكأنه مثل الاعشى يعيب من ينتحل شعر غيره اذ يقول :

ولا أغير على الاشعار اسرقها .·. عنها غنيتُ ، وشر الناس من سرقا

وان أحسن بيت أنت قائلـــه .·. بيت يقـــال ، اذا أنشدته ، صدقـا

الرجل . . وتمباك الدمار :

من الغرائب ان الفاضل شريف – على ضآلة حجمه كان مقعده فى الفصل بالقرب من الربع الخراب الذى هو عرين العمالقة . وكان عثمان محمد الحسن جاراً له . وعثمان هو احد العماليق في الفصل – ان كان لهذه الكلمة صلة بالعملقة غير صلتها بالمجموعة البشرية التاريخية المعروفة . لقد اتى عثمان الى فصلنا من شندى فادركنا ونحن فى السنة الثانية وهو رجل قد بلغ الحلم وتخطاه دون ريب . ولذلك اطلق عليه

محمد العوض اسم الرجل تمييزاً له عن الصبى الذى هو يوسف خضر . ولم يكن عثمان ينكر ذلك ، بل ربما كان ذلك سبباً فى اعتداده الظاهر بنفسه ، وهو امر يؤكده ارتفاع قامته وافتتال ساعديه ، وينبئ عنه فى وجهه شارب نامٍ لاتخطئه عين وحبوب ودمامل على خدّيه ، وطول ما حق يتقزم حياله حتى بعض الاساتذة ، وصوت رعودى يتفرقع اذا تحدث عثمان فرقعة ليست من الحداثة فى شئ . ولقد كنا فى بعض الاوقات نتحلق حول عثمان الرجل وهو يروى لنا عن شندى والقرى المجاورة لها ماهو فى مرتبة المعجزات . فهو قد عرف جميع الربابيط الذين كانوا يقطعون الطريق وكلهم اصدقاؤه ، ورغم البطولات الخارقة التى كانوا يبدونها ويمتازون بها إلا أنهم – على حد قول عثمان – لايتعرضون «للمساكين» من المسافرين الضاربين في الفيافي بسوء ، بل كثيراً ماكانوا يعينونهم على امرهم ويجزلون لهم فى العطاء . وكان عثمان يهمس باسماء بعضهم همساً وهو يتلفت يمنة ويسرة وكأنه يخشى من اعلان شئ خطير ربما اوقعه – او اوقعهم – فى سوء ان علمت به السلطة الحاكمة فى البلاد !

وكان عثمان يجيد الترنم بالدوبيت ، لايتفوق عليه في ذلك الا الامين عبيد الذى كان فى السنة الرابعة عندما كنا نحن في السنة الاولى . ويقيني ان عثمان الرجل ما كان ليجرؤ على التغنى بالدوبيت امام الامين عبيد لو التقاه ، رغم ان الامين ربما كان اصغر منه سناً ! وذلك لان عثمان كان اقل موهبة من الامين فى هذا المضمار . ولكن الامين كان قد غادر المدرسة وعلمنا من بعد انه التحق بخدمة الحكومة فى مشروع الجزيرة ، فخلا بذلك الجو لعثمان ، فغدا يسحرنا بكلماته وصوته ولحنه عندما يدوبى ، فنعجب لذلك اشد العجب . ولست انسى اهازيجه الدوبيتية فهى مطبوعة فى الذاكرة بمفرداتها وطريقته في الاداء : الليل بوبا وطلق النسام والنوم قسموه وايضاً على ما حام . .

من ليم أب فلج طولت لى ايام .·. وتمباك الدمار فوق سدرى تورشام

انظر الى « ايضاً » هذه كيف حشرت حشراً ! الم تكن كلمة « لكن » اجمل منها

هنا ؟

ومنها قوله : واحد واربعين بت اللبيب عتمان (بكسر حرف العين تليها تاء بنقطتين)

لاحامت فريق لاجالست صبيان

نهدك برتكان حاجبك هلال رمضان

شوفتك تسند الراقد بالسنين مرضان

ومنها : واحد واربعين بت اللبيب عبد الله

لا حامت فريق لا جالست خلق الله

نهدك برتكان حاجبك هلالاً هلّ

وشوفتك ترفع القلب الشهادة وولّي .

هذه مجموعة من أبيات الدوبيت التى كان ينشدها الامين عبيد فى اجتماعات كبيرة ضمن الليالى الثقافية في ام درمان الاميرية ، وسط استحسان الطلاب والاساتذة على السواء وتصفيقهم الحاد وصيحاتهم « عقّبْ .. عقّبْ » طلباً لاعادة الانشاد واستكمالاً للمتعة والطرب ولذة التأمل فى المعانى . . ثم جاء عثمان الرجل من بعده وهو يستظهرها ويتحفنا بها ونحن من حوله نستمع في التذاذ وانتشاء واعجاب . . وان كنا لاندرى من هو – اوهى – اب فلج ، وماهو تمباك الدمار هذا ، ولماذا ينبت الشام على الصدر . . وأعترف انى لم افلح فى إدراك معانى بعض هذه المفردات ادراكاً تاماً الى يومى هذا وان كان زميل الصبا ومراتع الطفولة – احمد محمد طاهر عبد الجليل – هو الآخر يترنم بها على اسماعنا فى ابا وفى خورطقت من بعد ذلك ، ونحن جلوس على الارض في ضوء القمر فى تلك الليالي الحالمة التى لا تنسى ولاتغيب عن الذاكرة ، وتلك الثلل البريئة الممتلئة النفوس والصدور بأورق الامانى واعذب المنى . . ونحن نستمع فى انبهار واعجاب الى احمد وهو ينشد ذات الكلمات والمقاطع بصوته الدافئ الحنون ، فتنقلها نسائم الليل الباردة هوناً الى اقاصى المدى . . ولكنا كنا نفهم قول عثمان الرجل : لاحامت فريق ولاجالست صبيان ، فهى كانت بعضاً من القيم الرفيعة فى تلك

الازمنة ، ورغم اننا لم نكن ندرى من هو اللبيب عثمان ومن هواللبيب عبد الله ، ولماذا هما لبيبان . ورغم اننا لم نكن ندرى لماذا هذا الرقم واحد واربعين ولماذ ليس هو اكثر من ذلك ولا اقل ، الا ان غير ذلك من المعانى لم يكن عنا بخاف او غريب ولا يكتنفه غموض ، ففى قوله : لا حامت فريق لاجالست خلق الله تنويه ايضاً بتلك الخلائق المشتملة على معانى العفة والطهر والنقاء مما كان يعتبر فى تلك الازمنة الخوالى - وحق له ان يبقى علي ذلك الاعتبار فى اعتدال مبرئ من التزمت والابتذال - تجسيداً لارفع القيم .

ولقد كان عثمان الرجل شخصاً لاينسى . فهو فتى معجب بنفسه ايما اعجاب ، يمشى برأس مرفوع يكاد يميل به الى الوراء من فرط مغالاته في اثبات ذاته وجذب اهتمام الناس اليها ، ثم اذا مال به الي امام فهو ينظر نظر الصقر فى أعطافه . . بل هو يتحدث بطريقة فسرها زملاؤه بالتعالى والعجب والكبر ، ولكنى كنت أعزو ذلك إلي إحساس عثمان بالنضوج وزيادة المعرفة اذا قورن بكثير من زملائه الآخرين ، والا فهو شخص متواضع ومهذب . على ان ذلك المظهر الذى كان يحيط بعثمان فى ام درمان الاميرية ، والذى حسبه كثير من زملائه وبعض اساتذته تعالياً منه واستكباراً فى الارض ، قد جلب اليه من المتاعب مالم يكن فى حسبانه . فاذا هو أخطأ في حصة الحساب - وكثيراً ما كان يفعل كسائر خلق الله - تلقاه الاستاذ غزالى السراج بسخرية مريرة ، واذا تلعثم فى تلاوة القران كان له من الشيخ ابى بكر صفعات موجعات من اليد واللسان . . وكان موضع تندر الاستاذ محمود الضرير الذى يستطيع ان يحدث فيك بكلمة هى أقرب للهمس من الجهر مالا يحدثه فيك سوط عم مبارك ولا توبيخ الاستاذ احمد سامى ولا لكمات الاستاذ الحاج هاشم ولسعات لسانه التى تقرضك بالمقاريض . كان عثمان ضحية لهذا المظهر الذى يوحى بانه « متقرضم » على حد تعبير البعض . وما كان عثمان فى حقيقة امره « متقرضما » وانما كان شخصاً مباشراً لا يعرف الالتواء ولا المصانعة ولا المماراة ، يعبر عما حاك في صدره بما يظن

انه الحق ، ثم لايعول من بعد ذلك الا على صدق نواياه وسلامة مقاصده . وفى مرة من المرات اجتمع على الغدر به كوكبة من اولاد سنة رابعة ، وكنا وقتها في السنة الثانية ، وقد التأم امرهم فى الايقاع به والاعتداء عليه مع آخرين من خارج المدرسة . . فاستدرجوه الي خارج البوابة الشرقية ، ونحن لاندرى لم كان ذلك . وكل الذى اذكره اننا افتقدناه فى فسحة الفطور ، ثم وجدناه فى الزقاق الشرقى خارج بوابة المدرسة طريحاً على الارض وقد تضافر عليه نفر من الاشقياء ، فهرعنا الى نجدته ونحن عصبة من اولاد سنة ثانية ، فاستنقذناه من براثنهم ، وصبرنا على لكماتهم وضرباتهم حتى ازحناهم عنه ، وحتى استوى عثمان واقفاً . . وكنا لما حمى علينا وطيس العراك استنجدنا بمحجوب حسن سعيد ومكى برعى وعبد الكريم احمد حميدة ، وما ان جاء هؤلاء العتاة حتى تشتت شمل المعتدين في دقائق معدودة ولاذوا بالفرار . وعدنا الى فناء المدرسة ظافرين بعد ان اطلقت ثلة المعتدين سيقانها للريح . . وسار أمامنا عثمان يحمل عمامته على كتفه ويضع طاقيته على رأسه بحيث تكاد تغطى حاجبيه ، وقد «تكندكت» جلابيته بالتراب وتعفر به وجهه ويداه . . فمضى يخطر امامنا برأسه المرفوع ومشيته المتحدية الطالبة لمزيد من النزال ، ومن حوله الفتية الاشاوس الصبر عند اللقاء : عبد الكريم و مكى ، ومحجوب متوعدين من لاذوا بالهرب معلنين للملأ ان عثمان في حماية الصقور ، وان من اراد ان يمسه بسوء فلن يفلت من هذا الجبروت ،، (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب سينقلبون) . وسار من ورائنا بعض الخبثاء ، وفى طليعتهم الفاضل شريف «الراعى» وهاشم مصطفى «القرد» . . يضحكون بأصوات خافتة ، ويتغامزون بحركات حذرة خشية ان يستثيروا عثمان الذى تمرغ وجهه وجسده وهندامه فى التراب فكاد يذكر الفاضل بمرأي البعاعيت وعمالقة الجن ، لولا ان المكان كان غير المسرح في ودنوباوى ، والذى يخطر امامه ليس هو قطيفة بل هو عثمان الرجل بلحمه ودمه ورأسه الذى يكاد ان يستلقى على قفاه !

واحسب ان عثمان كان يحس فى قرارة نفسه انه لم يحسن صنعاً بوفـــوده الى

ام درمان الاميرية حيث وجد نفسه فى محيط احس فيه بالغربة والوحشة والهوان . . وانه كان الاجدر به ان يمضى الى وسط آمن يناسبه اكثر من هذا الوسط الغريب الذى وجد نفسه في احشائه . ولو انه خير فى امره لنجا بجلده من بطش بعض الاساتذة ودفتر عم مبارك وتطاول صغار التلاميذ الذين رموه بالقرضمة ظلماً وعدواناً وهو الوادع المتواضع . . ولكنها المقادير التى لايملك لها دفعاً ولايعلم لها رداً . . ومن حكم القرية ان الصبر على ما تجرى به المقادير فضيلة من اعظم الفضائل ، ولعلّ ذلك كان عزاء عثمان فى محنته .

ولقد انتقل عثمان بعد تلك العذابات التى صبر عليها اجمل صبر ، والتى انما جلبها عليه اعتداده بنفسه ، الى مدرسة خور طقت فى نهاية امره ، فالتقيته هناك ايضاً ، ونحن قد اصبنا شيئاً من الوعى وقليلاً من التجربة ، فألفيته تلميذاً هادئاً وقوراً متمسكاً بأخلاق القرية التى من بينها المروءة والنجدة والكرم . وهو قد ألفى فى خور طقت مرتعاً خصيباً ومسرحاً هانئاً ومقيلاً . ولقى فيها ترحيباً من فتية يماثلونه فى النضوح ويشاركونه فى التمسك بفضيلة الانتماء الى القرية والوفاء لمعانى ذلك الانتماء وصدق المباهاة به والولاء له . . والتشبث بكل قيمة السمحة التى بعضها ارسال النفس على سجيتها والبوح بما فى قرارتها دون تحفظ او مواراة او مخافة عذل او حرج . وهناك شعت محاسنه على طبيعتها وأضاءت الارجاء بما فيها من نور . . فطفق عثمان «يدوبى» مع الفراشين وهم جلوس او وقوف على رمال ميادين الكرة ، ويتغنى بهوى بت اللبيب عبد الله وبت اللبيب عثمان ويبثهم نجواه وشكواه من فقده ليم اب فلج ومن تمباك الدمار الذى «فوق سدرى تورّ شام» . . رافعاً بكل ذلك عجيرته غير هياب ولا وجل . . يطارحه التغنى بمثل هذه المعانى الدوبيتية كل من على وهجو وسرور . . والليل المقمر قد «بوبا» وطلق النسام بالفعل فاشتمل عليهم بهدوئه ورقائق نسماته واوقد في خواطرهم نيران الصبابات واشعل حرائق الهجران . وكان عثمان فى خور طقت مسالماً ألوفاً محبوباً بين اقرانه ، وقد تراخى عنه ذلك المظهر الذى أخذ عليه في ام

درمان الاميرية والذى كان يدل على اعتداد بالنفس والقدرات الذاتية . وربما جال فى خاطره . اذا قدرت فتذكر قدرة الله عليك . . فان قدرة الله قد جعلت من بين اترابه فى خور طقت الفاتح بشارة وابراهيم بلل ، وحسن الفكى والتاج حمد وعلى سالم وحمدنا الله طه طويل وعبد الوهاب ريس والطيب احمد حميدة باك القيامة وحسن ابو العايلة والتجانى الصاموتى ، وكمر وحسن الاسطى وكمان دقو وابو الحسوس . وغيرهم من الصناديد . فخلد عثمان الى كثير من التواضع ونكران الذات ، هما فى الحقيقة بعض من طباعه وشيمه الاصيلة وان كانا قد خفيا - فى سالف عهده - على الناس .

حقاً لقد تغير عثمان ام درمان الاميرية فى خور طقت ، ولكنه تغيير كان يتماشى مع سنة التطور وتبدل الظروف والمناخ . فهو لم يمسس اساسيات اخلاقه الطيبة بسوء وانما صقلها وهذبها وارتفع بها الى آفاق ارحب ومدارج أعلي . فقد التقت في خور طقت « ثقافات » متباينة وعادات وتقاليد تمثل تنوع المنابت واختلاف الاصول ، الا انها كانت فى مجملها وأهم اركانها متقاربة تكثر فيها اوجه الشبه . ولذلك سرعان ما ذاب التمايز فى اغلب اشكاله بين التلاميذ وسرعان ما اتحدت مشارب الحياة بينهم فى محيط جامع هادئ الا من بعض الفورات الطفيفة التى لاتدوم طويلاً حتى تهدأ وتصب امواجها في ذات المجرى وتختلط فى ذات الخضم . فكان لقاء اولاد البحر باولاد كردفان ودارفور هادئاً مباركاً كما يلتقى النيلان فى الخرطوم يمكن للناظر ان يميز بين مياه كل منهما وهما يجريان جنباً الى جنب ، حتى اذا ألفا بعضهما البعض وتلامسا فى شئ من النفور فى اول امرهما أحس كل منهما بشدة الانتماء الى رفيقه فلم يسعهما الا ان يختلطا فيما بينهما أختلاطاً وان يندغما سوياً فى تيار واحد يركض هادئاً حيناً وصاخباً فى حين آخر وهو يولى وجهه شطر الشمال حاملاً فى احشائه اسباب الحياة والخير والنماء . هكذا اختلط عثمان ببقية رفاقه من اولاد البحر والغرب والشرق اختلاط هذين النهرين ببعضهما البعض ، وصار دوبيت عثمان الموقر بمعانى القيم الرفيعة رافداً ثراً من روافد الغذاء الفكرى والروحى الذى يعب منه رفاقه من

اولاد كردفان ودارفور وهم جلوس على بسط الرمال الهشة الندية يستمعون الى نبراته الواثقة فى انبهار واجلال .

كذلك تغير مظهر عثمان . فقد كان على ايام الاميرية يرتدى الجلابية والعمامة يخطر بين اقرانه فى مشية لاتخلو من عجب وخيلاء أضفت عليه صفة شيخ العرب عن جدارة واستحقاق . اما في خور طقت فان الزى الرسمى للتلاميذ هو «الشورط» ، أى القميص الابيض والردى الكاكى . فكان مظهر عثمان فى هذا الزى مضحكاً فى مراحله الاولى . وذلك ان الردى الكاكى عنده كان يبلغ إلي ماتحت الركبة قليلاً ، والأصل فيه أن يكون فوقها . ثم إن عثمان لم يكن قد تعود تماماً على حلق شعر رأسه على هيئة «الكوريه» التى كانت سائدة آنذاك وما تزال . ولعله كان فى بادئ امره يستنكر هذه المظاهر ويرى انها لاتليق بمظهر «شاب» حمش مثله ما زال عهده بالقرية نصب عينيه وما زال يكن لذلك العهد كل الوفاء . ولكنه لم يكن بمقدوره مخالفة ماتفرضه سنن التطور والتغيير ، فسرعان ما ارتفع الردى الكاكى الى ما فوق الركبتين وتحول الرأس بعد تعوده على حلاقة «الكوريه» الى شئ أشبه بسرج العجلة . لقد كان عثمان في اول امره عازفاً عن عادات المدينة ومستحدثات التحضر ، برماً بما كانت تفرضه عليه حياته الجديدة حتى كادت نفسه ان تركن الى القلق الذى أخذ يساوره ويكدر عليه صفوه . وظلت نفسه مسرحاً لصراع داخلى مُشتّ حتى هداه ربه الى اليقين ، وكأنما جال في خاطره قول ابى الطيب .

وما أربت على العشرين سنى ... فكيف مللت من البقاء ؟

وساعدته عاطفته الجياشة على الصمود فى وجه البيئة الغريبة فهو رقيق الطبع يكاد يجهش بالبكاء عندما ترتفع عجيرته بالدوبيت . وقد وجد من استحسان التلاميذ والاساتذة لادائه ما زاد من ثقته بنفسه وهون عيه كثيراً مما كان يلقى من الشوق الى اهله ولداته فى شندى والقرى المجاورة لها . ومن عجب ان عثمان الذى كان يتغنى بنفس أبيات الدوبيت التى كان يشدو بها الامين عبيد فى ام درمان الاميرية قد انتهى

به المطاف فى آخر امره الى عين المقر الذى صار اليه الامين عبيد وهو مشروع الجزيرة . . ولقد انتهى الى مشروع الجزيرة ايضاً نفر واعد من اساتذة الفنون أذكر منهم الاستاذ جمال وربما الاستاذ الجنيد ، فاعجب للوزة القطن ونوارته التى تجذب الى افيائها اهل الفن والشعر تنتقى خيارهم انتقاءً ! ففى كل جمال وملاحة وشبيه الشئ منجذب اليه . وما اصدق ما قال ابو ماضي :

والذى نفسه بغير جمال .:. لايرى في الوجود شيئاً جميلاً

مصطفى عابدين . . وإرثُ المحابر والأقلام :

كان مصطفى عابدين عبد الرؤوف تلميذاً طويل القامة نسبياً تتوسط بنية جسمه بين النحول والامتلاء ولكنه أقرب للنحافة منه للسمن . يرتدى جلابية بيضاء بياقة اكثر بسطة من غيرها من الياقات التى كانت تزدان بها اكثر جلاليب التلاميذ ، ويكور عمامته على راسه بطريقة متميزة تجعلها اشبه بالقبعة الضخمة وان كانت اطرافها متراخية تكاد تغطى اذنيه وتنسدل على ناصيته – او جبهته – يلامس ذيل منها حاجبيه اذا التفت او اهتز ضاحكاً ، فيصلح من وضعها على رأسه بحركة سريعة من يده اليمنى . ومصطفى من التلاميذ الذين ينحون منحى الهزل فى اغلب احيانهم ، بل هو من عشاق الهزل ان صح التعبير . تضايقه حصة الحساب بشكل خاص لان موضوعها لم يكن من مواهبه العديدة ، ولكنه يسعد بحصة اللغة العربيه لانه كان من محبيها وفرسانها ، واما فى غير هذين العلمين فقد تتساوى عنده الاشياء . . فلا يأخذها مأخذ الجدان ثقلت عليه واستعصت عن الفهم والاحاطة ، ولايستخف بها ان انس فى الاساتذة حيوية تجذبه الى شروحهم وملكة مقتدرة علي الايضاح والتبيين فى يسر وهدوء . وهو تلميذ ذكى ولكنه يجنح الى تبسيط الامور والتعامل معها بعفوية وسهولة . ولقد كان مصطفى شديد الاعجاب بعبد الكريم وزمرته ، الا ان مقدراته الهرجلية والازعاجية لم تكن ترقى الي مستوى مقدراتهم الرفيع ، ولم تكن محاولاته الاماتيرية العابثة فى هذا المنحنى لترفعه الى مصافهم فى نظر بقية التلاميذ . وبما انه كان

يتحرق شوقاً الى منافسة اولئك الدهاقنة البارعين فقد آثر ان يعوض ما فاته من تلك الامجاد مما لم تسعه حيلته ومواهبه بشيطنة ينتهجها خارج الفصل فى اوقات الفسحة الكبيرة والفسحة الصغيرة وبين الحصص . . من هرولة فى فناء المدرسة ، وركض يدعمه ببعض الاناشيد والضحكات يلفت اليه الانظار ، وبعض المشاكسات التي كان يفتعلها مع أناس يختارهم بعناية وفطنة وحذر ، ليس من بينهم احد من العمالقة على أي حال . وذلك ابتغاء لسلوك دروب السلامة وارتياد مناحى الامان ، وخوفاً من ان يوقعه حب المغامرة – ان هو لم يستصحب الحذر الكافى – فيما لا تحمد عقباه . وهو ايضاً شديد السخرية لاذع التعليقات ، ولكنه يتخير من يجعلهم هدفاً لسخريته وسلاطة لسانه تخيراً . .فيتجنب القنادف لان السخرية منهم مظنة وقوع الانتقام ، طال الزمن ام قصر . . ويتجنب محمد العوض لان لسانه فلغة وهو يرد الصاع صاعين ويجزى السيئة بالسيئة لايدع من حقوقه شيئاً في هذا المجال ، ولسان حاله يقول :

لسانى طويل فاحترس من شذاته .·. عليك وسيفى من لسانى أطول

والشذاة هى الحدة . . وهل سيف محمد العوض إلا صناديد الموردة ، الذين لايخفى امرهم على مصطفى عابدين ؟ ولذلك فان مصطفى يوجه سخريته الى نوعين من الناس : الى من يتفهمون مقاصده العبثية البريئة ويبادلونه الوداد ، فلا يحملون مقولاته وتعليقاته اكثر مما تحتمل ، والى من يحسب انه قادر عليهم اذا دعا الداعى وحل الجد محل الهزل ! فكان اذا الم بهاشم مصطفى سماه قرداً على مسمع من الناس لايخاف بخساً ولارهقاً . .اولاً لان هاشم مصطفى – وان كان من الموردة ، وهم القوم الذين يخشى بأسهم ويعمل لهم العاقل الف حساب – الا انه صغير الجرم يستطيع مصطفى ان يتغمده فى أى لحظة بكفين قادرتين دون ان يناله منه اذى يذكر . وثانياً لان هذا الاسم الذى سار على هاشم (القرد) – كان من ابداعات محمد العوض، الامر الذى يكسبه صبغة رسمية ويؤكد ان مجموعة الموردة ، بحمائمها وصقورها لا تعترض على اطلاق هذا الاسم علي هاشم . ولكن مصطفى عابدين كان حصيفاً فى

كل شأنه، فهو يتحاشى هاشم مصطفى اذا الفاه فى وسط قطيعه من ابناء الموردة، فذلك مورد للتهلكة لايحسن ان يرده عاقل . ولقد ساعد مصطفى عابدين على التمكن من فن السخرية ورسوخ القدم فى علومها وآدابها انه اوتى لساناً فيه «لجنة» خفية الا عمن القى السمع وهو شهيد. فهى تضفى على نطقة وحديثه لوناً من السحر وتنغم كلماته برنة مبهمة حالية وجرس فيه غرابة محببة تلصقها بالاسماع لصقاً وتثبيتها فى الاذهان تثبيتاً. وهو يعقب تعليقاته الساخرة بضحكات هى ابلغ فى السخرية، فيبغضها من يبغضها ممن هو من ضحاياها ويلتذ لها ويتعشقها من يلتذ لها ويتعشقها ويرتاح اليها من هو واجد على من وجهت اليه وصار هدفاً لها. وقد حسن عند مصطفى الحذر فقد كان بإحدى عينيه سقم ظاهر ، ولكن زملاءه كانوا كبارا ، فقد منعهم الحياء من ان يعيروه بما لم يكن له ذنب فيه. الا ان الشيخ ابابكر لم يكن ليقيم لمثل هذه الاعتبارات وزناً اذا اغضبه مسلك التلاميذ. فكان مع مصطفى كما كان مع غيره من زملائه. فاذا ضحك مصطفى ضحكته الخافتة اثناء اداء الشيخ لشروحه التى يستغرق فيها بسلاسة تستوجب الاطراق والانتباه فان رادار الشيخ يلتقط الاشارة فلا تخفى عليه. ولذلك دخل مصطفى عابدين زمرة «هؤلاء قليلو الادب» من اوسع ابوابها ونال من سخرية الشيخ وتعليقاته اللاذعة نصيبه غير منقوص . ولكن مصطفى قابل تلك السخرية بروح عالية ونفس موطنة على الصبر والتسامح، وبحياء جم منعه من قص تباريحه واوجاعه على اقرب الناس اليه. ولقد احسن مصطفى صنعاً بتقطيعه لهذا الكمد فى «حشاه» كما يقولون. اذ لو قص كل منا ماكان يلقاه من اعيرة الشيخ اللفظية على ذويه لما احتفلوا بأمره. ولذلك فان الصبية كانوا يتحملون مقولات الشيخ فى صبر واناة وجلد بعضهم يجعلون من اصداء صولاته العارمة احاديث يمزقونه بها فى ناديهم كل ممزق، والبعض الاخر كان يغفر له تماماً ولايحمل تلقاءه ضغناً ولا موجدة، بل يحيل الامر برمته الى هزل كوميدى، فيحكى ماكان يأتيه الشيخ من حركات واصوات وتعابير بطريقة مسلية، يتمثل كل ذلك ويمثله امام الاخرين

وهم من حوله يضحكون ويمرحون . وقد برع مصطفى عابدين فى ذلك براعة واضحة ، فكنت اذا اردت ان تستعيد شريط ذكريات مع الشيخ لم يمض عليها الا حين قصير عمدت الى مجموعة مصطفى وهم جلوس فى ركن قصى من اركان المدرسة فى اوقات الفراغ . فاذا انت بمصطفى يدب ويتقاصر ويتطاول ويتكور ويعتدل ، ويعلى من صوته ويخفض منه ويحرك يديه وعضلات وجهه . . يقلد بذلك الشيخ . والصبية من حوله يضحكون ويعجبون .

ولم يكن دور مصطفى عابدين ليقف من الشيخ عند هذا الحد ، وان كان هذا التقليد وهذه المحاكاة التي يأتى بها بدقة تشفى بعض غيظه ، وذلك ان نفسه لم تكن تخلو من دخل وحفيظة على الشيخ ، وبراعته الظاهرة لم تكن تخلو من خبث وجنوح فطرى الى الانتقام . ولذلك فكر مصطفى ثم قدر . انه لايستطع ان يناطح الشيخ كما كان يناطحه عبد الكريم وجماعته . فاذا كان عبد الكريم قد أوتى «جلداً تخيناً» يتحمل الأذى الجسدى واحساساً مغلفاً بغشاء سميك من اللامبالاة يتحمل الأذى المعنوى ، فان مصطفى لم يؤت من هاتين الموهبتين نصيباً يعتد به ، فلا بد له من ابتداع وسيلة اكثر مباشرة من التمثيل والمحاكاة من وراء ظهر الشيخ يشفى بها غليله للثأر والانتقام . فرأى مصطفى ان الشيخ اذا تملكته احدى سورات الغضب التى لاتفتأ تلازمه فانه يمشى بين الصفوف والادراج مرعداً مرزماً تارة ، هامساً «موسوساً» تارة اخرى ، مطلقاً لسانه في الحالين بأنكى مفردات الوعيد وتعابير الثبور على التلاميذ . . فتنفتح ضفتا فرجيته عن قفطان داخلى ابيض ناصع يجمع شقيه على جسمه حزام يشد وسطه شداً . وهنا طرأت لمصطفى فكرته الجهنمية والتى جند لها قلة احسن تدريبهم . . فصار ينثر على ملابس الشيخ من محبرته رذاذاً متصلاً فيتبعه الآخرون بما هو أكثف منه وأشفى للغليل . ولقد كان الشيخ في شغل شاغل عما يحدثه مصطفي وزمرته فى ملابسه . . فهو يغادر الفصل بعد انتهاء الحصة دون ان تقع عيناه على البقع الظاهرة في قفطانه ، ململماً أطراف فرجيته مغطياً بذلك - دون علم

او شعور منه – تلك الاثار التي احدثها كيد الكائدين علي ملابسه النظيفة . ومن عجب ان الشيخ لم يحفل بذلك ابداً ولم يذكره في يوم من الايام . ولعل أهله فى البيت كانوا يخفون عنه ذلك حياء منهم وظناً منهم ان رجفة كانت تعتريه فيندلق الحبر من جرَّائها على ملابسه دون أن يملك لذلك دفعاً . او لعله علم ولكنه خشى ان هو اعلن علمه ان يتحول ميسم الانتقام الى ماهو أنكى وأكثر أيذاءً ، لان هؤلاء « الشواطين » المردة الصغار يمكن ان يجعلوا منه العوبة في ايديهم ان هو ضيق عليهم اكثر مما كان يفعل . فالله وحده يعلم حقيقة الامر . ولكن الذى كان يعلمه الجميع هو ان مصطفى عابدين انما اراد ان يثأر لنفسه ولرفاقه بهذا الاسلوب الموغل فى الخبث والخفاء . ودون ان تضمَّخ اصابعه نقطة واحدة من الحبر . فهى الوسيلة الشافية الوحيدة التى يحسن استخدامها لاخذ الثأر من الشيخ . ولقد تمرس عليها مصطفى وصار يتقنها بدقة عجيبة . وهو قد وطن نفسه على ان ينكرها جملة وتفصيلاً اذا حدث ان وجهت اليه أصابع الاتهام ، لأنه كان يخرج منها نظيف اليدين لم يعلق بهما سوء ، وإن كان اختضاب الاصابع بالحبر بالنسبة للتلاميذ امراً عادياً ولايصلح ان يقوم دليلاً على سوء الظن بهم ورميهم بارتكاب مثل هذه الفعلة . فالتلاميذ يكتبون فهم بالضرورة يلامسون الدواة ، ولايعقل ان يكون ما لحق بأصابعهم منها صك ادانة بأى حال من الأحوال . ورغم ذلك ، فان مصطفى قد أعد حتى للمستحيل عدته وذلك باتقان «عمله» اتقاناً سلمت معه اصابعه تماماً من أى أثر قد يثير شكوك الشيخ التى لاتحتاج اثارتها الا لأخف الدلالات وابعدها عن مواطن الاحتمال . . فبرئ مصطفى من مجرد احتمال ان يرمى بهذا الاتهام براءة الذئب من دم ابن يعقوب . . وشفى بذلك صدور قوم موتورين . ولم يكن من بين التلاميذ من يمكن ان يشى بمصطفى في هذا الصدد ، وذلك لانهم في المكان الاول كانوا يسرون ارتياحاً بالغاً لما كان يضطلع به مصطفى نيابة عن مشاعرهم واحاسيسهم الراغبة في اخذ الثأر ، وثانياً لاعجابهم بأسلوبه البارع الذى اخفى به فعلته عن دقة ملاحظة الشيخ ، علماً بأن الشيخ كان شديد التوجس لايثق

بأحد ولا يطمئن لشئ . وثالثاً لانهم كانوا يعلمون ان مصطفى عابدين لم يكن وحده في هذا المضمار وان كان ابرع من غيره وادق اداءً وابلغ اثراً . . واذا انكشف امر مصطفى فلابد ان يقود ذلك الى انكشاف أمر الاخرين ، وان تم ذلك فان بقية اولاد الفصل لابد واقعون تحت طائلة سوء الظن والتجريم ، لان الشيخ قد تعود على أن يأخذ التلميذ بجريرة جاره . فكان اذا فرغ من عقاب تلميذ لم يهدأ له بال حتى ينال ممن يجلس بقربه اذا تبسم او قطب او ابدى أى نوع من الحراك ، اللهم الا اذا تحجر او تخشب او استطاع بمعجزة أن يضفى على وجهه مسحة من الجمود لا تشى بأى نوع من الاحساس . ومن ذا الذى يمكن ان يتأتى له ذلك ؟ وعلى كل فقد نال مصطفى عابدين اعجاب زملائه واحبوه حباً جماً لعديد صفاته الطيبة وفى طليعتها مرحه الدافق وروحه السمحة وذلك المكر العابث البرئ .

لقد ترك مصطفى عابدين في ذاكرتى أثراً باقياً لاينسى . فقد كان فيه شئ من ملكة إعلامية ، ولو انه وجد الفرص المواتية وتلقى التدريب المطلوب لصار من ابرز رجال الاعلام . فهو مشغوف بالأدب والشعر عموماً وبالأخبار خصوصاً . ليس ذلك فحسب بل هو من المجددين فى طريقة تمليك الأخبار لعامة التلاميذ . فهو لم يكن يكتفى بما يسطره قلمه فى الصحف الحائطية ولكنه يتابع ما يكتب غيره ويدعو الآخرين لقراءته ، وعندما يفيق من هزله يعقد لقاءات بينه وبين رفاقه لمناقشة الموضوعات التى تنشرها جرائد الحائط وبعض الموضوعات التى كانت مثار جدل فى بعض ليالى القبعة التى كانت تقليداً اصيلاً من تقاليد جمعية الثقافة عموماً والجمعية الادبية على وجه الخصوص . وكان مصطفى عابدين كثيراً ما يرى وهو يكتب وان لم اكن ادرى على وجه التحديد ما يكتبه . ولعل كلفه بالكتابة ومن ثم ارتباطه بالقلم والدواة هى من بعض الامور التى فتقت عبقريته العابثة عن اتخاذه الحبر وسيلة ماضية لشفاء الصدر والثأر من الشيخ ابي بكر . ولقد كانت براعته حتى فى هذا العبث البرئ واتقانه لما يأتى من اضرار بقفاطين الشيخ دون ان تعلق بأصابعه أثارة من مداد إحدى

الدلائل القاطعة على ان علاقة مصطفى بالمحابر والاقلام علاقة روحية عميقة . ولذلك فانى كنت أرى في مصطفى منذ تلك السنوات الغضة الباكرة مقدرات جمة على الالمام بالمعارف الثقافية عموماً اذا ألفى قبالته الظروف المواتية ، وعزمات صادقة على تسنُّم هذه المراقى اذا اوتى الادوات المناسبة لهذا الصعود وانفتحت امام عينيه آفاقها الفساح . ورغم انى لا اعلم اين هو مصطفى عابدين الان الا انى لا ارتاب فى انه يختزن بين اعطافه كنوزاً من المعارف والثقافة . وانى لأسأل الله ان يكون نصيبه موفوراً من الخير الموعود في الحديث الشريف الذى يشير معناه الى ان من كان ورثته المحابر والاقلام دخل الجنة . وليس يخفى مايعنيه هذا القول العظيم في معناه الواسع المحيط . غير اننا اليوم نعيش فى عصر غير الذى نتحدث عنه فى هذه الصفحات ، وهو غير ما كان يراود فتيان تلك الحقب من احلام وآمال ، ومناخه سوى ما كان يتراءى لأولئك الفتية من أمانى ، فهو عصر الاسى والتقوقع والاستعداد للرحيل والفراق ، فهل تراه يكتنف مصطفى عابدين ويجبره على الاستسلام ؟ ام تراه ينتصر على الأسى ويجود بمكنوناته التى لا ارتاب في انها صارت كنوزاً من وراء قضبان ؟ ولعله بين هذا وذاك يتأسَّى بمقولة سيد الشعراء :

إلف هذا الهـــواء أوقع فى الأ نفس أن الحـمــام مــر المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعــد الفــراق

لقد كان مصطفى عابدين جاداً حتى فى هزله ودعاباته. وهو لم يكن يدعى أى نوع من البطولات والاتيان بالاعاجيب . ورغم ولعه بموسيقى عبد الكريم وتقديره الوافى لملكات رجال الربع الخراب الذين كان يحب الجلوس على مقربة منهم في الفصل ، الا انه كان عالماً بحدود امكاناته يضع قدمه حيث يحسن عنده الموضع ويحفظ لسانه حيث يحسن حفظ اللسان . وكان لسان حاله يردد مقولة العالم الذى احسن فهم اهمية مركز الثقل فقال لمن القوا عليه القبض بقصد محاكمته على هذا الجرم الذى اعتبر خروجاً على الكنيسة وعلى المألوف : أعطنى مكاناً اقف عليه وسأرفع الارض ! Give me a

place to stand , and I will raise the world !

وعندى ان مصطفى عابدين واشباهه مازالوا يبحثون عن هذا المكان الذى يقفون عليه . . ولو انهم عثروا عليه لافادت بلادنا منهم خيراً عميماً .

ولما كان مصطفى عابدين لايحسن الشعبطة فى الطرماج ولا طلوع حيطة دار الرياضة ولا مجالسة بلة الاحمرانى واللّبخ فانه لم يكثر من مجادلة اقرانه في هذه الامور وانما سلم الامر لهم راضياً ، ولكنه آثر ان يتشعبط في اسوار المعارف والثقافة ، ولو انه ضمن السلامة من خيول السوارى الجامحة وسياطهم اللاهبة لبلغ قمة المانع الذى ظل يتشعبط عليه منذ تلك العهود ولخرج علينا من تلك الاعالى بغناء عظيم .

ولكن الغيوث اذا توالت .٠. بأرض مسافر كره الغماما

والغيوث قد تكون نقمة والغمام مقدماتها ولذلك جاء في أثر الاستسقاء : اللهم حوالينا لا علينا !

عكود . . ثالث الثلاثة الذين خلفوا :

اول تلميذ يلقاك حين تدخل فصلنا «الثوانى» وهو يجلس في اول الصف الامامى في اقصى اليمين هو قاسم عبد القادر أبوعكر . . وهو عكود بعينه . . الذى كان ثالث ثلاثة نالوا اعجاب الشيخ ابى بكر فخصّهم بدرجة عالية من التقدير والاهتمام . ورغم ان قاسماً كان تلميذاً فاتح لون البشرة حسن السمت والسحنة هادئ الطبع – في الفصل على اقل تقدير – الا انه كان من الموردة . . موردابياً قحاً موطن سكن ومبدأ عقيدة كروية ، ولكنه من الحمائم . فرغم انتمائه الى مجموعة اولاد الموردة عموماً الا انه كان ذا افق واسع وذهن مفتوح فيما يختص باقامة العلائق الطيبة مع الاخرين وتدعيمها بالاشتراك معهم فى اغلب وجوه ومناحى الانشطة التى يشتغلون بها . على ان اعجاب الشيخ ابى بكر بقاسم وافراده له ضمن قلة من اولاد الفصل بالاهتمام الزائد كان مثيراً لفضول زملائه وحفيظتهم على السواء . ليس ذلك لانهم كانوا يغبطون هؤلاء الرهط على المكانة التى احتلوها من نفس الشيخ ، فتلك مكانة لايتطلع اليها الا

من حيث انها مؤدية في احسن الاحوال الى امتياز اطناشر من اطناشر وفتح الله عليك وعلى والديك فى دفتر الالفة ، وهو امتياز برهنت الاحداث المتعاقبة برهاناً قاطعاً على انه مؤقت لايدوم ، وككل اعمال ومراتب التلاميذ التى يتحكم الشيخ ابوبكر فى خواتيمها تكون عاقبته الخسران المبين . فلطالما سعد قاسم وصنواه - الحبيب والدرديرى - بهذا المقام الرفيع عند الشيخ ، ولكن دوام الحال من المحال والدنيا فرندقس ، ومن اسمه ابوعكر كيف يدوم له الصفاء ؟ وحكمة الشعر تقول على لسان ابن الرومى :

وما احدث العصران شيئاً كرهته .·. هما السالبان الواهبان هماهما

والمطلوب هو هذا الرضا الذى يعبر عنه صدر البيت ولكن ما أقل من يدين به ويصبر على السلب بعد الوهب ! فقد أفضت الايام بهؤلاء الثلاثة (الذين خُلِّفوا) عن السقوط الجماعى - وفى طليعتهم قاسم ابو عكر - الى حتمية غضب الشيخ الذى لا مهرب منه ، فصاروا الى ماصار اليه غيرهم من زملائهم ، وحلت عليهم لعنة البرامكة فانتهى أمرهم جميعاً الى مذلة صفر من اطناشر وميسم هؤلاء قليلو الادب . ولعله من الغريب ان سقوط الجميع من عين الشيخ وترديهم جميعاً بلا استثناء في نهاية المطاف الى صفر المذلة وهوان قلة الادب قد اسقط عنهم أى اثر لمشاعر الضغينة او الموجدة تلقاء بعضهم البعض ، وجعل منهم شرقاً واحداً فى الهم والمصير ، وساوى بينهم فى المكانة من نفس ذلك الشيخ الاستاذ ، فوطد ذلك من رباط التعاضد بينهم ، وأحال أحساسهم تجاه بعضهم البعض الى صفاء صادق ومودات حميمة متبادلة . ولعلَّ فى هذا بعض سر ديمومة تلك العلائق الوثيقة العرى التى كانت وما تزال تربط بين تلاميذ تلك الازمنة السحيقة ، فهى علائق ماتنفك باقية متينة بين من بقى منهم الى هذا الحين.

كان قاسم ابوعكر تلميذاً نبيهاً لين العريكة محبوباً بين أقرانه . . مبرزاً فى دروسه حسن السمت والمظهر وجهاً وملبساً وخلقاً وحرصاً صادقاً على اقامة اطيب العلائق والصلات مع زملائه . وكان اصراره على الجلوس في مقدمة الصف الاول وميمنته

دليلاً واضحاً على صدق عزمه وشدة رغبته فى متابعة شروح الاساتذة والالمام بها وتحصيل اكبر قدر ممكن من المعارف والعلوم . ولكنه لم يكن بمنجاة من خبث الآخرين وآثار « عفرتتهم » ، وخاصة عندما تقرع اسماعهم إشادة الشيخ ابى بكر به عند دخوله الفصل وهو يقول :ما شاء الله . . عكود والحبيب والدرديرى . . مثلث الاخلاق العالية . . الولد مرآة البيت . . الى آخر موداته التى لاتدوم ، واطرءاته التي يمكن ان تنقلب الى نقيضها فى لحظة واحدة من لحظات هياجه . كان محمد العوض يستثير قاسماً من جانبه الايسر (فجانب قاسم الايمن الى حائط الفصل وبذلك آمن من ان ياتيه الشيطان عن يمينه ايضاً على اقل تقدير !) واما من خلفه فقد كان يجلس هاشم محمود (هاشم الاطرش) . وهاشم كان يخشى الشيخ ابابكر كما تخشى الفئران القطط ، بل هو يخشى كل الاساتذة ، ولكن بدرجة أقل ، ولذلك فهو يكون هادئاً ساكناً فى اثناء الحصة معظم الوقت ، الا انه كانت تعتريه في بعض الاحايين لسبب لاندريه تماماً – نوبات من الشيطنة والعفرتة تعوضه مافاته منها وقت هدوئه وتزيد . واغلب الظن انه كان يستلهم الشجاعة للامتثال لهذه النوبات والسدور فى غيها من جسارة محمد العوض مصطفي الذى كان يسخر من طرف خفى من كل كلمة يقولها الشيخ فى مدح قاسم . ثم يبدأ هاشم فى مشاغلة قاسم من خلفه يشجعه على ذلك محمد العوض . . ولا يزالان بقاسم يناوشانه ويخنسان حتى ينفد صبره فتحمله محاولة الرد عليهما وايقافهما عند حدهما الى احداث ما اصطلح على تسميته بالهرجلة ، فيفضى به ذلك – فى احسن حالاته – الى دفتر عم مبارك ، ولاينتهى يومه الدراسى الا وهو منبطح على تلك الكنبة الملتصقة بحائط مكتب الضابط لينال جزاء ما دفعه الى اقترافه خبث محمد العوض وهاشم الاطرش ... وهما قد خرجا سليمين كما تخرج شعرتان من عجين دقيق الفينو ! ولعله مما كان يثير قاسماً أشد الاثارة تلك الضحكات الهازئة الخافتة المكتومة التى مصدرها هاشم الاطرش دون ريب ولايسمعها ولايدرك مبعثها الا من كان على مقربة منه ، وان وشى وجهه بها وبمدى المكر والخبث الذى كانت تنطوى عليه . وذلك ان

هاشماً لم يكن ليخشى من بطش قاسم فما كان قاسم ليتفوق عليه بسطة فى الجسم ولا في المال . ولكن اخشى ما كان يخشاه هو ان يؤلب عليه قاسم مجموعة اولاد الموردة وهم رهط متين الرباط ولا طاقة لهاشم بواحد من عتاتهم ناهيك عما فوق ذلك . وهاشم كذلك لا يأمن مكر محمد العوض لان محمداً – وان شاركه والح عليه فى التنغيص على قاسم – ينتمى ، على الرغم من عمرابيته ، الى مجموعة الموردة قدراً وموطناً وعقيدة كروية . وهاشم هلالابى ، وهو من الجبلين التى تبعد عن ام درمان بمئات الكيلو مترات . فهو يخشى على نفسه من حلف اولاد ام درمان عموماً ومن تطرف الموردا بصفة خاصة . وهما امران ان اجتمعا فى خصم لك فالأجدر بك ان تجتنب منازلته وان تخطب وده بكل الوسائل المكنة.ربما كان هذا هو السبب فى أننى قد ضبطت هاشماً فى غير ما مرة وهو متلبس بدعوة قاسم ومحمد العوض واكرامهما بالباسطة الكورنر ، الامر الذى كان يكلفه ثلاثة قروش بالتمام والكمال . وكنت كلما لقيته على هذه الحال تزايدت تمتمته وهمهمته واسفر وجهه عن خليط عجيب من الضحك والعبوس والطلاقة والارتباك فى محاولات جهيدة لاصطناع المبررات واختلاق المعاذير . ولكنى لم ألمه على تصرفه بل حمدته له وأثنيت عليه لانى كنت متفهماً لمشاعره مدركاً لمقاصده وحكمته من وراء ذلك – فهو وان كان صادقاً فى مودته واقباله عليهما الا انه كان ينظر ايضاً من مواقع الحيطة والحذر الى ما يمكن ان يحدث بعد نهاية اليوم الدراسى ، فقد كانت الحسابات المعلقة بين التلاميذ تصفى عندئذٍ حيث لارقيب ولاحسيب من سلطات المدرسة ، وحيث الغلبة للعصبة الاقوى او من هو أكثر جنداً وأعز نفرا . . ولان هاشماً كان حريصاً على ان يصل داره فى نهاية اليوم وثيابه على نظافتها او – قل على أقل تقدير – فى هيئة مقبولة ومعقولة دون ان تعفر بالثرى إثر شكلة او عراك يعلم هاشم تماماً انه لن يكتب له النصر والفوز فيه . وكان قاسم ابوعكر ايضاً متفهماً لهذا ، واشهد انه لم يؤلب على هاشم عصبة اولاد الموردة فى يوم من الايام رغم ان ذلك كان فى متناول يده ان اراد . وهو فى ذات الوقت يحمل بين جنبيه

قلباً حانياً على هاشم ويعطف عليه بصدق واخلاص ، ولست اعلم لذلك سبباً حقيقياً الا ان هاشماً كان جاراً خلفياً له فى الفصل ، وهو تلميذ طيب مسالم اذا استثنينا هذه المرات التى تنتابه فيها نوبات الشيطنة فتدفعه الى هذه المشاغبات التى ذكرنا . ثم توطد الشعور بينهما بالاخوة كثيراً إثر السقطة التى منى بها قاسم فى نظر الشيخ ابى بكر فواساه هاشم بسيل من العواطف الرقيقة التى لم يتسع لها نطق لسانه فجاءت واضحة جلية وصادقة فى تقلصات عضلات وجهه وتتابع ضيق واتساع عينيه وارتجاف حاجبيه واشارات يديه واهتزاز سائر جسده وهو يرسل ضحكاته المقتضبة بين حين وحين كلما أعوزه التعبير وغلب عليه الحياء .

ومن عجب ان قاسم اباعكر كان فى بداية امره من التلاميذ الذين يتمتعون باحترام الاستاذ الحاج هاشم وهذه منقبة كبرى وهامة لان الفوز باحترام الاستاذ الحاج هاشم كان امراً عصياً بعيد المنال . ولربما كان الاستاذ يعرف عائلة ابى عكر بجامع القرب بين حيه وحيهم ، ولربما كان السبب غير ذلك . ولكن الشئ المؤكد هو ان قاسم اباعكر قد استحق هذا الاحترام عن جدارة ، فهو كما قلنا تلميذ نبيه كل حاله منظم ، وهو كثير الاصابة في اجاباته على اسئلة الاساتذة ، يأتى الى الفصل وقد استذكر دروس اليوم السالف جيداً ، فلا يؤوده ان يجيب على سؤال ، اللهم الا بعض العصيات الغوامض من الاسئلة . ولكن حال السرور لايدوم كما هو معلوم ، وكما قال سيد الشعراء : من سره زمن ساءته أزمان . ففى ذلك اليوم الذى أتى فيه الاستاذ الحاج هاشم مقطباً فاسد المزاج ، وهو اليوم الذى تلا تلك العلقة الشهيرة التى تعرض لها فى دار الرياضة بام درمان ، كان قد خيل اليه ان جميع اولاد الفصل قد شهدوا ذلك الحدث واطلعوا عن قرب مباشر على ذلك المشهد الذى عده مخزياً فى حقه ، وانه ربما شارك بعضهم فى حصبه بالحجارة او الامساك بتلابيبه وتمزيق ملابسه ، وهو – وان كانت أصابع اتهامه الحقيقى تشير الى عبد الكريم ومحجوب ومكى والكبتل وهم عتاة اولاد الفصل – لم يستبعد غيرهم من الضلوع فى المؤامرة ومعاقرة ذلك الجرم الفادح .

ورغم انه قد صب جام غضبه فى ذلك الصباح على عبد الكريم بوجه خاص دون ان ندرى لذلك سبباً مقنعاً ، الا ان قاسم اباعكر لم يفلت من آثار تلك السورة الغضبية الماحقة ، فلم يشفع له حسن بلائه فى علم الجغرافيا ولا كراساته الانيقة المنمقة ، ولقى من الضرب والشتم والتقريع وغير ذلك مالم يكن قد تعود عليه من قبل . وقد تركت هذه الزلزلة اثراً باقياً فى نفس قاسم لست ارتاب فى انه لايزال يذكره بشئ غير قليل من الضغن او عدم الرضا . وذلك ان الاستاذالحاج هاشم قد نسى في ذلك الصباح الكالح - او لعله تناسى - من فرط تأثره بما تعرض له فى عصر اليوم السابق فى دار الرياضة - ان قاسماً كان من انجب التلاميذ ومن انبغهم فى علم الجغرافيا الذى يقوم بتدريسه الاستاذ الحاج هاشم ، وان كراسته كانت مثالاً لاناقة الخط والنظام والتبويب والتسطير ، فلم يقم لذلك وزناً ولم يأبه به في ذلك الصباح ، بل كان فى شغل شاغل عنه لان نفسه كانت ممتلئة غيظاً على من اعتدوا عليه وقد دفعه سوء ظنه بالتلاميذ - او قل رغبته فى الانتقام عموماً - الى اتهامهم بالتواطؤ على الاذى الذى أصابه من قوم آخرين ، فان لم يكونوا مشاركين فيه بأيديهم وحجارتهم فهم مشاركون دون ريب - فيما يظن - بعواطفهم على اقل تقدير ، وهم عليه من الشامتين .

هكذا كان جزاء قاسم ابى عكر الذى لقيه من استاذه الحاج هاشم رغم قرب الديار واتصال المودات . وهكذا انقلب عليه استاذه الذى كان يكبره ويصطفيه.غير ان قاسماً كان سمح الطباع ، فسرعان مانسى تلك الاساءة التى كان امضها على نفسه واقساها ما دفعه الى غسل وجهه وتنظيفه من الدموع وآثار الصعوط التى نثرها استاذه عليه . . فقد بقى قاسم اياماً لايحدثنا ولانحدثه وقد غابت عن وجهه ابتسامته الوضيئة وخيمت عليه سحائب حزن بئيس . ولكنه استطاع بعد قليل ان ينضو عن نفسه ثياب الاسى فعاوده مرحه الذى اسعدنا وارضانا . ولم يجرؤ احد منا ان يتعرض امامه لهذه الحادثة التى اشقته كثيراً . ومن العجيب ان محمد العوض الذى كان لا يفوت مثل هذه الاشياء ابداً قد وجد من نفسه وازعاً وحياءً جعله يتحاشى ذكر هذه الواقعة سواء كان

قاسم حاضراً او لم يكن . وذلك امر ساعد على نسيانها - او تناسيها - تماماً ، وهو ان دل على شئ فانما يدل على اكبار زملاء قاسم لقاسم ، وعلى مكانته فى نفوسهم وحتى هاشم الاطرش الذى كان يتحين الفرص والمناسبات للتندر على قاسم عفّ عن الخوض فى هذا الامر واكتفى بضحكاته الخافتة المقتضبة التى ما ان تدركه عيون الصقور وقد شرع فيها حتى ينهيها سريعاً بتلك السعلات المصطنعة الثلاث ثم العطسات الخواتم المعتادة ، ثم يرفع يمينه يثبت بها عمامته على رأسه فى خليط عجيب من العصبية والاحساس بالحرج والرغبة في الاعتذار . واما محمد على مقبل الذى كان مولعاً بالضحك على الناس وتعقب زلاتهم وافشاء أمرها لا رغبة فى الايذاء ولكن محبة في الضحك فانه فى هذه المره آثر الصمت ولم يشنع على قاسم . وقد اعجزتنى معرفة السر الذى اخرس لسان مقبل فى مثل هذه المواقف اذ عهدى به انه لايتورع . ولكنى وجدت الاجابة الشافية عند محمد الحسن الشايقى .

لقد علمت لاول مرة ان والد محمد على مقبل كان صاحب متجر فى سوق الموردة وانه كان يدير محلاً لايجار العجلات . وان قاسم اباعكر وشقيقه مصطفى الذى كان يتقدمنا فى الدفعة كانا من اهم زبائن المحل . وان الطريفى شقيق محمد على مقبل الاكبر كان صديقاً لمصطفى ابى عكر . ولو ان مقبلاً اغضب قاسماً لفقد المحل بعض زبائنه الذين ربما كان آل ابى عكر واصدقاؤهم وجيرانهم يشكلون جزءاً هاماً منهم . وعندها علمت ان المصالح الاقتصادية - او قل المادية - هى فوق المسرات المعنوية ، وان مقبلاً انما كان يراعى هذه القاعدة ويحافظ على هذا التوازن .

وبما ان قاسم اباعكر كان بارعاً فى ركوب العجلات ، يستطع ان يرفع يديه عن الميزان وهو جالس على السرج يحرك بقدميه البدال دون ان ينحرف به البسكليت لمسافات طويلة ، فان ذلك كان مما يثير دهشة كل من مصباح الصادق وعبد الرحمن كنتباى . اما مصباح فقد كان يعتبر ذلك جنوناً ما بعده جنون ، وان والد مقبل الذى افتتح دكاناً لايجار العجلات انما هو رجل يبيع الموت للناس بدريهمات ، وان

قاسم ابا عكر ومن سار على دربه انما يشترون الردى من منابعه بحر مالهم ، فكيف يأسى على قوم مخالطين ؟ واما عبد الرحمن كنتباى فقد كان ينظر لهذا الامر من زاوية اخرى . فمع يقينه ان العجلة نفسها دابة مستحدثة فانه لايرى فى ركوبها أى نوع من البطولة . كيف وهو سليل امير البحرين الذى حاصر الخرطوم مع صحبه الاماجد فافتتحوها عنوة وهم على ظهور الجياد . .

اصحاب الامام راكبين عواتى الخيل

قول المهدى فوقو مصممين بالحيل

اين هذا من ذاك ؟ اذا كان قاسم ابوعكر حمشاً او فارساً فليركب حصاناً يقلب به فى شوارع ام درمان ليملأ آفاقها بالصهيل ويثير غبارها بنقر الحوافر ، بدلاً من هذا البسكليت البئيس الذى يرقعونه بالسلسيون ويهبونه القدرة على السير بالمنفاخ ! وهكذا التقى كل من مصباح وعبد الرحمن فى موقفهما من هذه الدابة الحديدية المستحدثة ، وان تباينت بينهما اسباب النفور منها ! هذا يرى انها الموت بعينه ولذلك فهو يمقتها ، وذاك يرى ان بعض المنايا اشرف من بعض ، ولذلك فهو يزدريها ! والتقى كل من مقبل وقاسم فى تثمين البسكليت وان اختلفت الاسباب ، فعند مقبل الذى ينظر الى متجر ابيه فان العجلة احد ابواب الرزق وان كانت الرقع والبلوف وبعض التأخير فى ارجاع العجلة تأكل من هذا الرزق . وعند قاسم انها جالبة للمتعة وان كانت تنتهب الجيب وتفقر . فانظر الى تباين هذه المواقف وقل ماذا ترى فى هذا البيت الذى صاغه ابو العلاء المعرى :

ولم أعرض عن اللذات الا .'. لان خيارها عنى خنسنه !

وهل بين هؤلاء الفتية من كانت تجول بخاطره اشباه هذه المعانى يا ترى ؟

الصبى . . . وجمل العصَّارة :

غير بعيد من قاسم ولكن فى الصف الثانى كان يجلس يوسف خضر ، وهو من مجموعة الموردة ايضاً . وهو تلميذ نابه نبض الفؤاد . ورغم قصر قامته الظاهر للعيان

فقد كان زملاؤه عموماً وشيعته من اولاد الموردة على وجه الخصوص ، يرون انه يكبر كثيراً منهم فى السن . واية ذلك ان صوته بدأ يتغير منذ نهاية السنة الثانية ، وفى السنة الثالثة كان قد اوتى صوت فتىّ بالغ الحلم . وكان يوسف يضحك لتعليقاتهم وقفشاتهم لايغضب لقولهم ولاينهاهم عما يخوضون فيه من امره . فهو تلميذ وديع سهل الطباع كريم الخلق . ينحاز الى عصبة اولاد الموردة عموماً عند وقوع الشدائد ، وهو فى الوقت ذاته يحرص على أطيب العلائق بالجميع لانه من فصيلة الحمائم لا الصقور . وهو تلميذ ذكى يحسن دروسه ويمتاز فى التحصيل ، ويكبر فيه اساتذته مستواه الرفيع واستعداده الوافى للتلقى والفهم . ولقد اطلق عليه محمد العوض اسم «الصبى» فصار معروفاً به بين اولاد الفصل بشكل خاص . ولقب «الصبى» فى نظر التلاميذ هو كناية مهذبة عن كبر السن النسبى بالمقارنة لهم . . وهى كنية لم تغضب يوسف بل ربما سر بها فى قرارة نفسه لان فيها اعترافاً بالسابقة ، واقراراً خفياً منهم له بمقدرات ليست في متناول غيره ، ثم هى جنة له من الاستهانة بشأنه لان الاستهانة مدعاة الى اندلاع الخصومات واجتلاء مواطن الغلبة وذيوع الصيت بشدة البأس والاشتهار بالقوة والتفوق . وقد كان يوسف بهذه الكنية فى منجاة من كثير من المهالك . ولكنها مثل كل صفات البشر لم تكن لتنجى من ايذاء بعض الاساتذة . بل كانت هى في الواقع مدعاة ومجلبة لهذا الايذاء . فقد كان بعضهم يخاطبه «ياعجوز» ! ورغم ان يوسف لم يكن يبدى اعتراضاً على ذلك او امتعاضاً منه ، وذلك لحرصه على السلامة وتجنب ما يمكن ان يكون اكثر ايذاءً ، الا ان نفسه لم تطب به ، ولم تتقبله تماماً . فكان يوسف الساكت على هذا الضيم اثناء الحصة يشارك زملاءه فى فسحة الفطور فى التندر على الاساتذة ومحاكاتهم والنيل منهم على البعد ، أخذاً بالثأر لنفسه وتعبيراً مشروعاً عن عظيم استنكاره لاتهاماتهم الجائرة فى نظره . فكنية «الصبى» التى أطلقتها عبقرية محمد العوض على يوسف خضر هى فى الواقع سلاح ذو حدين : جانب باطنه فيه الرحمة - وهو الجانب الذى يضعه فى مرتبة متقدمة على زملائه

فيخشون بأسه لانه «صبى» اسن منهم ولذا فهو اقدر منهم على الفوز بالنصر فى أى عراك قد يدور بينه وبين أى احد منهم ، وجانب ظاهره من قبله العذاب ، لانه يعرضه احياناً لسخرية بعض التلاميذ وان كانت سخرية خفية غائبة عنه فى اكثر احيانها لانهم يباشرونها مع بعضهم البعض ويتغامزون بها عليه من وراء ستار . وكذلك للسخرية المباشرة الصريحة المؤذية من بعض الاساتذة الذين ينادونه كفاحاً دون مواربة «ياعجوز» ، فتلك سخرية لايملك لها دفعاً ولا هو لها من المقرنين ! ومن منا يمكن ان ينسى ذلك اليوم الذي دخل فيه على فصلنا ولاول مرة الشيخ الباقر استاذ الدين ؟ فهو قد جاءنا فى ذلك الصباح كما تأتى ريح فيها صر او تهب عاصفة هوجاء تسحق النجم وتقتلع اعجاز الاشجار . . يرغى ويزيد دون ان ندرى لذلك سبباً . ربما كان قد بلغه ان تلاميذ هذا الفصل خالية صدورهم من القران وذلك بشهادة الشيخ ابى بكر المدعومة بقائمة الكبتل الالفة التى انتهى فيها الجميع الى المساواة التامة فى مقام صفر من اطناشر ومنزلة هؤلاء قليلو الادب . فلابد ان الشيخ قد جاء وفى نفسه من هذا الخبر اصداء واسعة فكان اول ما طلبه ان نقرأ عليه القران استظهاراً من الذاكرة . فطفق يتحدث بعصبية ظاهرة ويشير بيد اوحت بالتهديد وغلظ الوعيد : ...أنت ياولد

. اقرأ سورة لم يكن . . . انت اقرأ سورة لا اقسم بهذا البلد . . انت اقرأ سورة الماعون . . انت . . وذلك فى تتابع ماحق ، وعجلة لاتنتظرك حتى تفيق من هول المفاجأة وتستجمع قواك المعنوية والذهنية . وكان أغلب التلاميذ قد تصالحوا مع الواقع الذى اوقعهم فيه الشيخ ابوبكر ورضوا به لما استيأسوا من جدوى الملاواة التى ليس من ورائها طائل والتى لا تجدى مع انفعالاته فتيلا . . ولذلك فهم قد تقاعسوا عن استذكار هذه الدروس وعن متابعة الحفظ وترسيخ أى التنزيل في الذاكرة لانهم يعلمون علم اليقين ان الاحكام فى حقهم تصدر جزافياً قبل الاستماع اليهم والاحتكام الى تحسس مقدراتهم « الحفظية » فلما طلع عليهم الشيخ الباقر في ذلك الصباح طالباً منهم تسميع السور وهو يغلى غيظاً كما تغلى القدور الراسيات على الأثافى وقد احاطت بها

السنة اللهب الفاهم سكوتاً مطرقين وافئدتهم هواء . فكان بعضهم اذا من الله عليه فخرج من صمته يبدأ متلعثما وقد أحاط به جو خانق من غضب الشيخ وصراخه ووعيده . . فلا يبلغ من أمر التسميع شيئاً . ثم انتهى الامر ببعضهم وخاصة اهل الربع الخراب الى ان يقولوا تباعاً وفي رباطه جاش تنطق باليأس والقنوط . ودون أى محاولة للقراءة من الذاكرة : يافندى ما حافظ . فركب الشيخ مزيد من الهياج وطفق يذرع ارجاء الغرفة جيئة وذهوباً يكاد قفطانه يطير لولا انه يمسك بأطرافه بيد ويتوعد بالاخرى ويصيح في استنكار واستنكاف بالغ : سور الصلاة . . يا ناس ما حافظين سور الصلاة ؟ انتو جايين من وين ؟ الى آخر تعليقاته الماحقة . وكأن الصلاة لها سور معينة وما عداها فهو ليس للصلاة ! وكان يوسف خضر في مقدمة من اصبحوا هدفاً قريباً لتندره وسخريته ، فهو يقول له : حتى انت يا عجوز ما حافظ سور الصلاة ؟ كيف تصلى ؟ ويوسف ترتسم على وجهه ابتسامته الهادئة الصافية المعهودة دون أن ينبس بكلمة وان كان في دخيلته يغلى ويكاد صبره ان يتبخر كما تبخرت عن ذاكرته وصدره الايات . ولكنه لا يملك دفع ذلك الضر عن نفسه بفعل او قول فليصمت اذا وليحن راسه لهذه العاصفة حتى تمر وتجتازه بسلام . ويقيني انه كان يتمنى في قرارة اغوار نفسه ان لو لم يكن صبياً فحسب ولا «عجوزاً» كما كان يعيره الشيخ فحسب ، بل ان لو كان رجلاً ناضجاً كامل الفتوة ضخم الجسم مفتول السواعد . . . اذا لثأر من الشيخ لنفسه ولزملائه ولاورده المهالك ولرد عليه الصاعين اربعاً او تزيد وللقنه درساً لن ينساه ما بقى حياً يدرس التلاميذ . ولكن ما الحيلة ويوسف «الصبى» لايعدو ان يكون صبياً على احسن الفروض ، والشيخ يرغى ويزبد مثل جمل العصارة كما قال احد التلاميذ فيما بعد يصف سورة غضبه ؟ وهل الى خروج من سبيل ؟ ولقد حق ليوسف ان يتضاعف غضبه وقد ناله الاذى من الشيخ ضعفين . فبقية زملائه نالهم اذى الاتهام بالجهل لانهم لايحفظون سور الصلاة . واما هو فقد ناله ما نالهم من هذا الخزى ثم ضوعف له الاذى بوصفه بالعجوز ..(وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) وذلك لان

الذى لا يحفظ سور الصلاة وهو صغير يرجي له أن يلم بها عندما يكبر ، وأما « العجوز » الذي لا يحفظ سور الصلاة ويستظهرها فأمره اجل وأخطر وعاقبته لا محالة خسران مبين . ولم يخطر ببال يوسف انه قد فات على الشيخ الباقر الذى يحفظ سور الصلاة وربما غيرها من الطوال انه هو نفسه ليس فى مأمن من نسيانها اما بفعل تقدم السن ونضوب معين الذاكرة او نتاج مكر الشيطان الذى أنسى يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام حوتهما بمجمع البحرين (فاتخذ سبيله في البحر سربا) . . فقال الفتى : (وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره) ، ولو علم يوسف لانشد الشيخ حكمة القائل .

الم تر ان الفقر يُرجي له الغنى .:. وان الغنى بخشى عليه من الفقر ؟

لقد ادرك يوسف عظم الاذى المضاعف الذى انزله به الشيخ ووقر ذلك في صدره غيظاً مكتوماً يتحين الفرص المواتية للتعبير عنه بصورة تجلو عنه الاسى وتشفى نار الحرور . فصار الشيخ الباقر موضوع سخريته وانتقاده لفترة طويلة ، غير انه كان يتخير المجالس الآمنة بحذر مشوب بالخوف وابتغاء العافية حتي يطلق السانه العنان في الشيخ ناشراً له بين الناس من المثالب مالم يخطر لنا على بال ومالم يكن فى حقيقته الا نسيجاً متقن الحلقات من محض صنع الخيال . ولقد كان يوسف حكيماً محاذراً لايلقى بنفسه الى التهلكة ، وقد ميزته هذه الحكمة وهذه الأناة المتدبرة لعواقب الامور بين زملائه . على ان تلك الحصة العاصفة قد انقضت بسلام وان تركت فى الانفس والخواطر جراحات واوراماً وكدمات . . ليس لها من برء وشفاء الا بتعاقب الايام . ومن عجب ان تلك الحصة لم تنته بأى منا الى دفتر عم مبارك ، وربما كان ذلك لان الشيخ الباقر استاذ جديد على المدرسة لم يعلم بعد بأمر ذلك الدفتر الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة على التلاميذ الا احصاها (ووجدوا ماعملوا حاضراً ولايظلم ربك احدا) اذ من المستبعد ان يكون قد علم بذلك الدفتر ولم يبلغ بنا اليه لان الغضب الذى كان مسيطراً عليه فى تلك اللحظات يوحى بأنه يود ان لو سقط سقف الحجرة علينا

وسحقنا جميعاً ثم لم ينج ممن كان تحته الا هو بنفسه . ولكن الشئ الذى خفف من غضبة الشيخ قليلا هو ان تلميذاً رفع يده مشيراً بسبابته وهو يقول بعد ان رانت على الناس لحظات مميتة من الفزع والرهق والعناء الذي احدثه هياج الشيخ وتعليقاته الكاوية : يافندى انا حافظ . فقال له الشيخ وقد انفثأ حنقه شيئاً قليلاً : اذاً اقرأ اذا كنت حافظاً . . فقرأ ذلك التلميذ سورة من قصار المفصل دون ان يخطئ ، او يتلعثم . فسكن غيظ الشيخ وتطامنت سورة غضبه وهدأت عواصف رياحه . . وكانت الحصة قد شارفت نهايتها . . وعندما صلصل الجرس معلناً نهايتها بالفعل كان ذلك بالنسبة لنا كنفخة الصور الثانية التى توذن بحياة الاموات وبعث من في القبور (فاذا هم قيام ينظرون) وقد انجابت عنهم آثار الصعقة (واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون) .

كان ذلك التلميذ الذى انقذ الموقف وافتدى الارواح من ما كان يمكن ان تنزله بها غضبة الشيخ هو عبد الحميد عباس ... فقد قرأ إحدي قصار السور قراءة صحيحة من الذاكرة وفاز برضا الشيخ المهتاج . ولكن عبد الحميد حظى في الوقت ذاته بحنق التلاميذ واصبح عرضة لتعليقاتهم الساخرة . . «خلاص ياسيدنا» . . « خلاص يا مولانا » . . «يعنى الود فكى» . . «يعنى الود شيخ الاسلام» . . الى آخر القائمة التى صاغ مفرداتها رجال الربع الخراب وسرت بين التلاميذ سريان النار فى الهشيم . ولكن من حق عبد الحميد علينا ان نقر له بكمال ملكة الهدوء ومزية السيطرة على النفس والاعصاب وبالشجاعة ورباطه الجأش فى ذلك الموقف الصعب وتلك اللحظات المشحونة بالوعيد . فالسورة التى قرأها كانت فى متناول ذاكرة كل واحد من اولاد الفصل ، ولم تكن قراءته الصائبة لها تسميعاً بمعجزة او امر مستحيل . ولكن الجو الإرهابى الذى اشاعه الشيخ فى الفصل بين التلاميذ قد أطار من الرؤوس كل مقدرة على التركيز واذهب عنها كل تدبر يهدى الى الصواب . وحتى يوسف خضر «الصبى» الهادئ الوقور صاحب السكينة والفطنة والذكاء ، الذى كان في مصاف المتقدمين من اولاد الفصل فى الدروس ، والذى كان

مبرزاً في كل المواد ، طارت من رأسه السور القصار وتفلتت من صدره الآيات البينات وذلك من فرط التشويش والضجيج الذى احدثه الشيخ الباقر ثم من فرط مخاطبته له بقوله الحارق : حتى انت يا عجوز ! تلك القولة التى محت من ذاكرة يوسف ما كان قد بقى فيها من كلام الله ، فباء بما باء به غيره ونطق بما نطق به سواه : يافندى ما حافظ، ونفسه ممتلئة حفيظة وحنقاً وغيظاً على هذا الشيخ الذى كأنما جئ به إلينا – فى نظر يوسف – من وادى سقر ليسلكنا في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً من سوء العذاب المهين . واما عبد الحميد عباس فقد امتاز بهذا الحضور الذهنى الوافر وهذا الهدوء والثبات المحمود الذى اورثه يقيناً وصفاءً ومكنه من تسميع سورة قصيرة ما كانت لتستعصى على غيره من اولاد الفصل لولا ذلك المناخ التوعدى المرعب الذى بسط الشيخ سلطانه علينا وأشاع مخاوفه بين ظهرانينا . وعلى كل فقد كان يوسف خضر اول من حمد لعبد الحميد بسالته واقدامه وصموده فى وجه ذلك التحدى الجارف ، فعبد الحميد كان يجلس الى جواره ، وهو الذى برهن للشيخ فى نهاية المطاف ان من بين التلاميذ من يحفظ سور الصلاة ، وان من بينهم من بمقدوره الا يلقى بالاً للوعيد والدعاء بالثبور ، فعاد ذلك على يوسف وغيره بما يشبه حلاوة الظفر من خلال مرارة طعم الهزيمة ، وبما يشبه شفاء الصدر فى اوج حالات غيظ القلوب .

ولقد تعرض يوسف خضر كغيره من التلاميذ لبطش الشيخ ابى بكر والاستاذ الحاج هاشم وللسعات لسان الاستاذ محمود الضرير الذى كان كثيراً ما يتخذنا هزواً ولكن يوسف كان صابراً موفور الاناة ، لاتفارق وجهه البسمة ولاتبدو عليه الا علامات الرضا . . . وكان متزناً وقوراً لايغالى فى الضحك ولا يسرف فى الثرثرة . . وقليلاً ما كان الكبتل الالفة يضع اسمه بين ثلة المهرجلين فى الفصل . فاذا كان منه ذلك سعى يوسف كغيره الى كنبة عم مبارك فى نهاية اليوم الدراسى فى خطوات ثابتة وجلد ظاهر وتلقى ما كتب عليه فى صبر وانضباط . وكان مما نفعه انه «صبى» يطلع على العواقب من وراء ظهر الغيب فيلبس لكل حالة لبوسها . . فقد كنت تسمع لوقع السوط

على عقبه فرقعة تدل على انه ارتدى مايخفف عنه الاذى . واما في المعارك التى كانت تدور فى فناء المدرسة بين التلاميذ فلم يكن ليوسف فيها نشاط ظاهر او مبادرة جلية ، وان كان هو في الحقيقة من وراء بعضها يضرم نيرانها ويحمى من اوارها ويعلى من السنة لهيبها ، وخاصة عندما يرى بفطنته التى كانت تريه ما لا يرى غيره ان الغلبة ستكون فيها لابناء الموردة وهو عموماً لايحب الاعتداء على الاخرين ولايسعى اليه ولايتعلق بأسبابه ما امكنه ذلك . . بل هو كثيراً ما يصبر ويغفر ان اعتدى عليه ، لانه ذو خلق حسن ولان ذلك من عزم الامور . ولكن اذا كان ذلك الاعتداء على مشهد من شيعته وعصبته الورداب فانه يخشى من المذمة والاتهام « بالمرمطة » وقبول الذل والخزيان ، فيبين ساعتها عن مقدرات على الردع والانتقام كانت خافية على غريمه من وراء مظهره الهادئ وطبيعته المسالمة . وحتى حينما يحتدم الشجار ويتراخى سلطان المنطق السليم والحوار العقلانى الهادئ ويفضى الامر الى تحكيم الايدى والارجل والرؤوس (البينة والشلوت والهد) فان يوسف كان – بعد ان يفقد الخيار الادنى – يلجأ ايضاً الي استخدام هذه الادوات والوسائل ذاتها في حربه ، ولكنه لايتعداها ، فهو لا يطلق لسانه فى الناس كما يفعل غيره ، لانه عف لاينطق هجراً « ولايردح » بالهرطقات . . ذلك هو تعامل يوسف مع زملائه فى اقصى حالات العراك . اما بعض الاساتذة الذين يؤذونه وخاصة اولئك الذين ينادونه عجوزاً فقد كان له معهم شأن آخر . وذلك انه ينالهم من وراء ظهورهم بتعليقات ونعوت تشفى غيظه ولا تخرج فى مجملها عن دائراة السخرية البريئة والتشنيع المعتدل . . . عامل قفطانه المشخت دا . . عامل طربوشه الزى الفشفاش دا . . عامل شلوخه العجيبة دى . . وهو قايل نفسه شنو يعنى ؟ . . الى غير ذلك من التعليقات التى لا تؤذى غيره فى كثير او قليل ، ولكنها تفرج عن نفسه الكروب وتعود عليه بقدر من السلوان وراحة البال !

ذلك هو يوسف خضر «الصبى» الذى كان درة من درر الثوانى فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى . لم تنته صلتى به حتى بعد ان افترقنا . فقد ولج هو ابواب

مدرسة وادى سيدنا الثانوية وذهبت انا فى طائفة من زملائى الاخرين الى مدرسة خور طقت الثانوية . ثم التقينا كثيراً فيما بعد في الحياة ، فكنا ننعم باجترار تلك الذكريات الخوالد والعود القهقرى الى سيرة تلك الازمان الغر والايام النواضر . ونحن لا نزال على وفائنا لتلك العهود الميمونة كلما التقينا او حمل التحايا من احدنا الى الاخر رسول .

عبد الحميد الدكشنرى :

واما عبد الحميد عباس الذى كان يجلس جاراً ليوسف خضر فى الفصل فقد كان بعيد الموطن والمزاج عن عصبة الموردة . فهو من حى سوق الشجرة بام درمان وهو حى قريب من حى ابى روف الشهير ولا يفصل بينه وبين حى بيت المال الاكثر شهرة الا ذلك « الطريق الشاقى الترام » . لحق بنا عبد الحميد فى ام درمان الاميرية بأخرة بعد ان استقر والده القاضى الشرعى باسرته فى ام درمان. ولقد ربطتنى بعبد الحميد صداقة حميمة منذ ان صار من اولاد فصلنا واستمرت هذه الصداقة حميمة رغم افتراقنا بعد ام درمان الاميرية وكأنها على موعد مع وثوق العرى الذى لا انفصام له ، لانها قد توجت ورسخت وتأصلت بعد ازمان عندما اصهر شقيقى الاستاذ الصادق لهذه الاسرة الكريمة فتزوج شقيقة عبد الحميد واخوته الذين كان اكبرهم الاستاذ حسن عباس زميلاً لاخى الصادق . وبيننا وبينهم اليوم روضة غناء خضراء زاهية بالأزهار اليانعة التى يضوع منها بالعبير والشذى كل من الصديق ولينا ووليد ووائل وعبد الله والهادى . (ثم ريحانات لينا الثلاث الناضرات : دعد وسحر وريان) هم ابناء شقيقى الصادق الذين يمت لهم عبد الحميد واخوته بالخؤولة وأمت لهم انا واخوتى بالعمومة . امهم سيدة فضلى من كرائم نساء البلاد واهلها قوم اخيار من اطيب منبت . . حفظهم الله جميعاً وتولاهم . عندما التقيت عبد الحميد فى ذلك الزمان لم أكن ادرى بالطبع ان صلتى به ستتوثق الى هذا الحد . ولكن من المدهش ان الصداقة بيننا نشأت منذ اول لقاء ، وكاننا على موعد مع هذا الذى كان . ولقد كان عبد الحميد تلميذاً مجداً يغلب عليه الحزم والصرامة ، بخلاف ما كان يميز اخاه عبد الحليم الذى كان يلينا فى الدفعة

فى ام درمان الاميرية . فعبد الحليم كان عفريتاً مشاغباً كثير الضحك والهزء بالآخرين وهو اليوم مهندس مرموق وعالم محيط بمعارف مادته وفنونها ، ولكنه هو عبد الحليم الضاحك الساخر من كل شئ ، الذى يستطيع بروحه السمحة واستهانته بالصعاب ان يحول احرج المواقف واشقها على النفس الى هزل معافى ينبت الضحك على ارض المأساة ويزرع الامل فى قفار الأسى . تلك ملكة من ملكات عبد الحليم كانت تنبئ عنها حيويته الدافقة على ايام ام درمان الاميرية وصارت تنطق بها وتصدقها مناحيه فى الحياة وفلسفته فى مواجهة صعابها حتى بعد ان اصبح مهندساً « درس الموقف » وجمع علوم هذا الفن من اطرافها ، وصاحب مصنع تبدع آلاته ماهو جنة واقية من نيران الحر والهجير . واما عبد الحميد فقد سلك طريقاً غير هذا فصار فى اول أمره ضابط مطار ثم تدرج في مراقي هذا الفن حتي صار خبيراً متمكناً فاستعانت به دولة الامارات العربية الشقيقة فى اخص شؤونها سنين طوالاً . ولست ارتاب فى ان انضباط عبد الحميد المبكر كان ذا علاقة وطيدة بما صار اليه امره من بعد .

وانى لاذكر بوضوح اننا كنا فى مرة من المرات نلعب كرة القدم فى جامع الخليفة ، وكان معنا فى الميدان التلميذ عبد الله عبيد حسن الذى كان فى الدفعة التى تلينا فى سنى الدراسة . وكنت قد اكتسبت خبرة لا بأس بها من اللعب بكرة الشراب . . فراوغته كثيراً وافلت منه بالكرة وهو منبطح على الارض . فأغضبه ذلك وأثار حفيظته خاصة عندما ضجّ بعض المتفرجين من التلاميذ وغيرهم بالضحك ، وصاح بعضهم : امك . . وقع . . و هتف بعضهم : ابوك . . . حوّتو . . دس منو الكورة . . . بهدلو .... الى غير ذلك . وعندما انتهت المبارة بفوزنا عليهم كان الحنق قد بلغ من صدر عبد الله عبيد حسن مبلغاً هائلاً واخذ منه مأخذاً عظيماً . . ودفعه للانتقام . . فتحرش بى داعياً الى المنازلة ، وهو قد كان يكن لى شيئاً من الدخن والضغينة من قبل وانا اعلم ذلك ، واعلم ان مبعثه هو أنى انصارى وهو ختمى . فما كنا لنلتقى إلاثار بيننا جدل . وفى ذلك اليوم جعل عبد الله من « بهدلتى » له فى الكرة مدخلاً الى شجار طال شوقه

اليه وطال تطلعه لاجتلاب اسباب قوية له . وما كنت لألاقى تحرشه بالنكوص ولا تعديه الا بمثله . فالتقطت القفاز واحتدم بيننا العراك وثار النقع والغبار ، وتجمع التلاميذ من حولنا منهم من يود فض النزاع وخاصة من كانوا فى الفصول المتقدمة ، ومنهم من كان شعاره « المديدة حرقتنى » واغنيته للشر وهو بعيد عنه : «حرب الديك سك الديك » وخاصة من كان منهم فى دفعة عبد الله عبيد حسن . وكان عبد الحميد معنا فى ذلك اليوم فتدخل فى ذلك الصراع الى جانبى فحملنا على عبد الله عبيد حملة رجل واحد وطرجناه ارضاً حتى كادت انفاسه ان تختنق . . لولا ان شبيلية وخليل أبوزيد واخرين من اساطين كرة القدم من اولاد السنة النهائية تدخلوا وفضوا ذلك النزاع . فأكبرت في عبد الحميد شهامته ونجدته وانحيازه للحق ، وحفظت له ذلك الموقف وتلك المكرمة ، وزاد من تقديرى له واكبارى لنصرته اياى انه من اصول ختمية وهو يعلم انى انصارى وان عبد الله عبيد ختمي . ولكنه رأى ان عبد الله عبيد كان معتدياً وان ذلك الاعتداء الظالم قد وقع على احد زملائه فى الفصل فأسرع لنجدته وفاءً لزمالة الفصل وانصافاً ونصرة لمظلوم لم يجترح فى حق ظالمه ذنباً سوى انه اعجزه فى كرة القدم وهلهله هلهلة وبهدله بهدلة امام اعين الناس . ولقد كان بعض زملاء فصل عبد الله عبيد يتأهبون لمساندته ويتحفزون للانضمام له ولنصرته . فلما راوا اننى لم اكن وحدى وان عبد الحميد عباس قد تصدى لهذا الحيف الذى احاق بى وهب لمواجهة مقترفه والبادئ به ، وان عبد الرحمن كنتباى وهو صديق وفى لم يكن بعيداً عن موقع الشجار بل هو اخذ « يكفكف » أكمام جلابيته ايذاناً بارتياده الوشيك للحلبة واقفاً الى جانبى - لما رأوا ذلك قنعوا بعض الأنامل وماتوا بغيظهم وارتدعوا امام حزم عبد الحميد وكلماته القاطعة ، ونبراته المتوعدة التى كانت توحى بالبسالة والصمود . ومن عجب ان ذلك الشجار انتهى بى الى صداقة حميمة مع عبد الله عبيد حسن نفسه ، تواصلت وتمتنت اواصرها الى هذا اليوم ، وان ذلك الصراع العقائدى او المذهبى بيننا قد أفضي بنا الى وفاق وطنى كبير . . . فالتقينا فى عام ١٩٧٦ فى سجن كوبر طوال اشهر عديدة ،

وكلنا فى الهم شرق . وهناك استعدنا ذكريات الماضى الحبيب فصولاً وغايات بعيدة المدى واحداثاً خالدة لاتنسى من بينها الشجارات البريئة واللقاءات الحلوة العامرة على دروب الادب والشعر والتمثيل فى رحاب جمعية الثقافة . وما زال عبد الله عبيد صديقاً عزيزاً بالنسبة لى وان بعدت فيما بيننا الشقة وتباينت الديار . اما عبد الحميد فقد كان موقفه الشهم ذاك امراً بالغ الاثر فى نفسى فتوطدت بيننا وشائج الود والصداقة ، ونحن لا نزال نجتر هذه الذكريات الحبيبة كلما التقينا عرضاً أو اشتمل علينا مجلس انس او مناسبة اجتماعية من المناسبات .

كان عبد الحميد تلميذاً جاداً صادق العزم حسن المظهر أنيق الهيئة معتزاً بنفسه فى غير ما لجاجة او سرف او ادعاء . يغلب عليه الحزم والجد ، وهو لايطيق نكات الفاضل شريف لانها فى نظره سلسلة من السخافات والسذاجات التى لاتنتهى . ولذلك كان الفاضل يتجنبه ويقول لى عندما نفترق فى نهاية اليوم الدراسى : طبعاً الليلة ماشى مع صاحبك الثقيل دا بى درب الصور ! والصور هو السور . . وقد نفخت فيه ارادة المولى فاذا هو هذه العمائر الهائلة على امتداد البصر التى تشكل اليوم حى الملازمين المعروف في امدرمان وقد فارق اهلها نوم الغفلة عن امتياز هذا الموقع فاذا هم قيام ينظرون . واما عبد الحميد فلم يكن ثقيلاً كما زعم الفاضل ، فقد فات عليه انه كان تلميذاً مرحاً ولكن في اقتصاد ووقار ، ولعل هذا راجع الى نشأته ، اوقل هو بعض خلائق ابيه . وفى الحقيقة لم يكن فى فصلنا ثقلاء على الاطلاق بل هم اخف التلاميذ ظلالاً وأنفساً وارواحا . ولقد اطلعت من ضمن ما اطلعت عليه في ادب الثقلاء على هذه الابيات التى تقول :

سقط الثقيل من السفينة فى الدجى .·. فبكى عليه رفاقه وترحموا
حتى اذا طلع الصباح أتت به .·. نحو السفينة موجة تتقدم
قالت خذوه كما أتانى سالماً .·. لم ابتلعه لأنه لايهضم

والابيات اصلا من شعر امير الشعراء احمد شوقى وقد استبدل احد الظرفاء كلمة الحمار وهى الاصل فى النص الشعرى بكلمة الثقيل .

فهل من العدل ان يظن بعبد الحميد مجرد الاقتراب من هذا الوصف ؟ فهذه احدى تجاوزات الفاضل التى كثيراً ما « يلحسها » اذا حملت عليه او راى منك جفاء قد يعنى رفضك لما يقول . . ومن الانصاف لعبد الحميد انه لم يكن يصف نكات الفاضل شريف بالبياخة وان كانت تقاطيع وجهه تنطق باعتقاده الجازم ببياختها الا ان الحياء يعقد لسانه فلا يقولب هذه القناعة فى كلمات ، ثم هو لم يصف الفاضل ابداً بالثقل عموماً او بثقل الدم خصوصاً او بثقل النكات على اخص الخصوص . وفى هذا من عفة اللسان ما فيه ، الا ان التعابير التى ترتسم على الوجه قد لايكون للانسان تحكم كامل فيها . ويقيني ان الفاضل كان يتفهم ذلك ويكبر عبد الحميد من اجله وان كانت المماراة مانعة له من قول الحق الصراح .

واهم ما كان يميز عبد الحميد هو الانضباط فى كل شئ . . فى الملبس والمواعيد والدروس واداء كل ما يطلب منه اداؤه على وجه الدقة . واية ذلك ان زملاءه انتخبوه رئيساً لجمعية الصحة فى المدرسة ، فكنت ترى عبد الحميد فى الصباح الباكر وهو يقود افراد جمعيته يجوب بهم فناء المدرسة المترامى الاطراف ، يأمرهم فيطيعون ممتثلين فى نظام بديع . . يلتقطون الاوراق ويميطون عن وجه الساحة ما تناثر عليها من اوشاب ، فلا ندخل الفصول الا وفناء المدرسة على قدر من النظافة والنسق عظيم . ولقد كان انتخاب عبد الحميد انتخاباً حراً مباشراً لرئاسة جمعية الصحة هو احد مظاهر الحرية والحياة الديمقراطية فى المدرسة ، فهو لم يكن بالتعيين ولا بالترهيب ولا بالترغيب ، وانما كان بالاقتراع السرى الحر . لقد عرفت الحياة الطلابية فى تلك العهود السحيقة – وحتى في المدارس الوسطى – مذاق الحرية ونعمة امتلاك حق الاختيار دون تدخل من سلطات الادارة المدرسية او غيرها . ولقد انتخب كاتب هذه السطور فى تلك الايام رئيساً لجمعية الثقافة الطلابية – ومن ثم رئيساً ايضاً للجمعية الادبية التى هى بعض قوام جمعية الثقافة – وكان ذلك فى غيبته ! وسنتعرض لهذا

الامر فى مكانه ان شاء الله . اما عبد الحميد عباس فقد تمتع بثقة زملائه فيما ولوه من شؤونهم عن جدارة واستحقاق ، فاجاد فن قيادة جمعية الصحة وابان عن مقدرات عملية هائلة ، مما رفع من شأنه بين زملائه واساتذته وصار به علماً من اعلام التلاميذ.
وقد بدأ عبد الحميد مع الشيخ ابى بكر كما بدأ غيره . . ولداً مهذباً ، ومرآة للبيت ، ولداً مؤدباً . . يحفظ القران الى آخر مفردات قاموس الشيخ الاشادية الاطرائية . . ثم انتهى الى ما انتهى اليه زملاؤه : ولد ما نافع . . لايحفظ القران . . ماعندو اخلاق . . ايضاً الى آخر النقائص التى حفل بها قاموس الشيخ من وجهه الآخر ، فدخل عبد الحميد زمرة « صفر من اطناشر» واحتل مكانه اللائق المرموق بين « هؤلاء قليلو الادب» . فقد كان الشيخ مثل الدنيا تماماً لا تشرق عليك شمسها بصحو ووهج الا وهى آخذة بشحوب وامتقاع ثم زوال . ولكننا كنا نحمد لعبد الحميد انه اخرجنا من ورطتنا مع الشيخ الباقر رغم ان بعضنا قد شق عليهم ان يعترفوا له بهذا الفضل المبين . وذلك لان السورة القصيرة التى تلاها من ذاكرته عندما « تبكم » غيره وارتج عليهم لم تكن بخافية على الناس ولم تكن بالامر المستحيل او العصى ، وانما اخرجته من ذلك الموقف العصيب المرعب رباطة جأشه ومقدرته على التركيز فى اوقات الهلع والحرج واطباق الغيوم وخرس الالسنة ، فمن نافلة القول ومن باب الانصاف ان يحمد له ذلك ، ويقر له به ، ويعتبر حسنة ظاهرة من حسناته لا سبيل الى انكارها او التقليل من شأنها . ولو ان الشيخ الباقر لم يعثر اخيراً في عبد الحميد على ما هدأ كثيراً من هياجه وشدة انفعاله لأ صلت اعقا بنا سياط حارقة ولفرت ظهورنا لبعات مميتة من فصيلة ام دلدوم . فحق لعبد الحميد ان يباهى بثباته الذى اخرجنا جميعاً من ذلك الضيق الخانق ، وتوجب علينا ان ندين له بذلك المعروف .

وأما الاستاذ فرح الذى كان يعلمنا اللغة الانجليزية في السنة الثالثة وبعض الرابعة فلم يكن يرضي منا إلا بالكمال وهو امر عصى صعب المنال . وفى ذات مرة فاجأنا كعادته بامتحان استهجاء للكلمات الانجليزية (سبلنق - Spelling) وعندما عاد بعد

يومين بنتائج الاختبار كان من ورائه عم محمود وعم عبد العزيز ، وكنا ندعوهما «منكر ونكير » كل منهما فى بزته الكاكى وطاقية او طربوش عليه عمامة كأنها خلقت مع رأسه او كأنه نبت من تحتها.ومهمتهما حمل التلميذ احدهما من اليدين والاخر من القدمين ليسبح جسده في الهواء ، بصره ينظر الـــى الارض وعقبه الـــى اعـــلى وذلك لإ نزال عقوبة الجلد عليه بسوط كأنما انتشرت علي طوله مخالب ونوائب وأسنان. ولست انسى ذلك اليوم بحال . فقد كان التلميذ الوحيد الذى نال مائة درجة من مائة هو عبد الحميد عباس دون سواه ، وهو الوحيد الذى نجا من العقوبة فى ذلك اليوم . وكان الاستاذ فرح قد قال لنا من قبل ان كل غلطة بجلدة ، ولكنه في ذلك اليوم وحد العقوبة فصارت عشر جلدات لكل من قلت حصيلته عن النمرة الكاملة . وانى لاذكركم كنت حانقاً عليه ، فقد نلت الدرجة الثانية وهى تسع وتسعون من مائة ولكن جزائى كان مثل غيرى ممن تروا ح ما نالوا من درجات بين التسعين والصفر ! ولشدة حنقى طلبت الا يحملنى عم محمود وعم عبد العزيز واستقليت على الكنبة لاتلقى عشر جلدات دون ان احرك ساكناً او انبس بكلمة . حتى قال لى الاستاذ فرح بعد الجلدة العاشرة قوم . . انت اصلك حجر ؟ وما كنت حجراً كما قال ، ولكنى استشعرت ظلماً وضيماً سافرت معه مشاعرى واحاسيسى بعيداً عما كان ينهال على جسدى من بلاء :

وما زلت طوداً لا تزول مناكبى .·. الى ان بدت للضيم فىّ زلازل

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا .·. قـــلاقل عيس كلهن قـلاقل

وما كانت هذه العيس الا من بنات الخواطر وابتداعات الخيال ! كانت الجلدات مؤلمة حقاً ولم اكن ارتدى لها لبوس الوقاية كما كان يفعل غيرى ، ولكن حنقى على الاستـــاذ وشعورى بمرارة الظلم جعلانى اتحمل السياط وكأنى فتى فى حلقة « بطان » يضرم أوراه ثلة من الحسناوات على « السباتة » وقد احطن بالعروس وهي كعرجون لدن فى مهب ريح رخاء طيبة تتقن رقص الحمامة ، والنسوة قد انطلقت السنتهن بالأهازيج والزغاريد ! والذى المنى هو اننى عوملت كما عومل نفر من تلاميذ

فصلنا هم عمرو وزيد وعبيد وبعض اهل الحزم والعزم وغيرهم ممن كانت درجاتى لا تقارن بما نالوا من درجات بأى حال من الاحوال . وكلهم حمله العمان محمود وعبد العزيز ، واكثرهم بلغ منه الجزع ابعد مبلغ . . « يا فندى عليك الله .» « . يا فندى بالراحة » ، الى اخر تلك الرجاءات والاستغاثات التي لم تكن تجدي فتيلا . وبالطبع خرج عبد الحميد من تلك المحنة الجماعية ظافراً منتصراً ، ولكنه باء بغضب من كثير من زملائه ، مبعثه ضغن يفتقر الى المنطق والعدالة والانصاف . غير ان ذلك لم يقدح فيما كان يربطنى بعبد الحميد من علائق المودة ، خاصة عندما ابدى تعاطفه معى فى رقة صادقة ومجاملة سمحة وحقيقية . وقد سمعت بأذنى بعض الخبثاء وهم يتوعدون عبد الحميد ، وقد تنادوا بالفعل من بعد وازمعوا ان « يربطوا الدرب » عليه بغية الايقاع به وتأديبه على حد قولهم . ولكن عبد الكريم زجرهم ونهاهم عن ذلك وتوعدهم ان هم اقدموا على هذه الفعلة بالثبور وعظائم الامور .ولعله قد فعل ذلك وفاءً لعلاقته السكنيه الجغرافية بعبد الحميد ، فلا يفصل بين بيت المال حيث دار عبد الكريم وبين سوق الشجرة حيث تقطن اسرة عبد الحميد الا الشارع الذى تشقه جيئة وذهوباً مركبات الترام ! ولما راى اولئك الخبثاء موقف عبد الكريم وتصميمه وايقنوا بمساندتى واخرين لايستهان بهم لهذا الموقف ، انكروا ما كانوا قد تهامسوا به وصرفوا النظر عما كانوا قد بيتوا عليه النية . وربما ساعد علي ذلك انى – وقد كنت اكثرهم تعرضاً للظلم – قد انتصرت لعبد الحميد واعلنت ان ما نعم به من نجاة وسلامة كان ظفراً مستحقاً قد ناله عبد الحميد بجدارة تدعو الى تهنئته والاشادة به بدلاً من الضيق به والتآمر عليه . لقد كانوا يؤملون استدراجي الى جانبهم مراهنين على انى – بدافع من الحنق والغيظ والاحساس بالحيف والضيم – سأشاركهم خبث نواياهم وسوء طواياهم . . فلما راوا ذلك منى كفوا عنه شرورهم واكتفوا بتعليقات هامسة : يعنى الود خواجة . . يعنى الود دكشنرى . . يعنى الود حافظ الكمبانيون !الى غير ذلك من أفانين السخرية التى لا تغنى من الحق شيئاً ولاتزيد نيران الغيظ إلا اشتعالاً . وهكذا

خرج عبد الحميد من تلك المعمعة سالماً معافى متنعماً بظفره ، فلم يكدر صفوه الا بعض كلمات معادية متوعدة جهربها فتحى ابراهيم وصفى والتجانى الطاهر ، وسرعان ما افترق التلاميذ كل صوب داره . ورغم ان عبد الحميد لم يكن يخشى بأس احد منهم الا انه كان من الممكن ان يتعرض الى علقة ساخنة دون ذنب جناه لولا حزم عبد الكريم ووقوفى بجانبه معضداً ، فقد كانت مساندة عبد الكريم تعنى ايضاً مساندة الكبتل ومكى برعى ومحجوب ، واما وقوفى انا لجانب عبد الحميد فقد كان يعنى انحياز عبد الرحمن كنتباى والنفراوى واولاد ود نوباوى الذين هم رهطى ، فاذا اتحدت هاتان القوتان وانتصرتا لعبد الحميد فقد اصبح فى ظل حماية قادرة لا قبل لمجموعة الموردة او غيرها بها .

لقد كان عبد الحميد عباس تلميذاً حصيفاً لايتملكه الغرور ان اصاب نصراً ولاتفت فى عضده الهزيمة اذا قارف اخفاقاً . وهو يضحك لحركات الشيخ أبى بكر ويحبه مثل بقية زملائه ، ولكنه لا يركن الى رخاء رياح السلام ولا يغتر بطلاوة نسائم الفجر حينما تكون السماء مسفرة عن بهاء وصفاء على انجلاء الغيوم . بل يجهد كى يعد نفسه للمكاره وطوارقها التى قد تأتى من دون مقدمات فيدرك بذلك كثيراً مما فات على بعض اقرانه ، رغم انه يُرزأ احياناً بما لم يكن فى حسبانه وقد يؤخذ على غرة منه فلا يسعه مابذل من جهد ولا يستنقذه ما يدل دلالة واضحة على هذا الجهد المبذول من محاولات فيها من الصواب ما يستحق ان يوضع له فى كفة ميزانه عندما تطفف الموازين الاخرى او تخف فيها كفة الحسنات . ولقد رايته وهو يكاد يبكى يوم ان سقط احمد الحبيب من عين الشيخ ابى بكر تلك السقطة المدوية ولسان حاله يقول :

لما رايت السيف جندل جعفراً .٠. ونادى منادٍ للخليفة فى يحى

بكيت على الدنيا وزاد تأسفى .٠. عليهم وقلت الأن لاتنفع الدنيا

واذا كان جعفر هذا هو احمد الحبيب فلقد استيقن عبد الحميد ان يحى لن يكون سوى الكبتل نفسه إذ لم يبق بعد احمد فى نظر الشيخ الا اياه . وقد صدق ظن

عبد الحميد فسرعان ما تهاوى الكبتل ايضاً الى ذات القرار ، فما فائدة البكاء على الدنيا وزيادة التأسف وقد بان لك صدق قول الشاعر «الان لاتنفع الدنيا» رغم انه جاء متأخراً؟ وكان غيره اكثر لطفاً حين قال : « انا الغريق فما خوفى من البلل » ؟ ولكن عبد الحميد كان فتى ذا عزيمة صادقة لايركن الى مثل هذا التسليم ولايرضى بما دون بلوغ المعالى . واية ذلك انه كان يحتفظ بروح عالية فى جميع الظروف ، ولو واتته معارفه فى تلك المراحل المبكرة لعزى كلاً من الكبتل واحمد الحبيب بقول الى الطيب :

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا .·. فلما دهتنى لم تزدنى بها علما

ورغم ان احمد الحبيب قد حسم موقفه بعد تلك الواقعة حسماً فغادر المدرسة غير أسف على فراقها متحملاً فى سبيل كرامته الم مفارقة الاتراب والاقران واللدات الا ان الكبتل « ابتلع المرمطة » التى تعرض لها وصبر على السوء الذى حاق به ووضع كبرياء نفسه فى جيب جلابينه وكاد ان ينشد على عبد الحميد الذى واساه بعواطفه الصادقة ، وعلى مسامع الاخرين من زملائه هذا البيت اليائس من شعر الاعور الشنى :

لقد أصبحت لا أحتاج فيما .·. يكون من الأمور الى السؤال !

الحبيب . . ونكبة البرامكة :

كان احمد الحبيب حسين ملاكاً من الملائكة . . فهو تلميذ يسيل رقة ووداعة وعذوبة . وهو من بيت المال ، ولذا فهو اقليمياً فى حماية عبد الكريم . انه تلميذ هادئ متزن حسن الصورة والهندام ، كثير الصمت مهتم بدروسه اعظم اهتمام . وهو ركن هام – ولعله اهم ركن – من اركان المثلث الذى نال اعجاب الشيخ ابى بكر . فالشيخ يبدأ الحصة بالثناء العاطر على الحبيب وعكود والدرديرى . . ويختم الحصة ايضاً بالاشادة بهم والثناء عليهم ونعتهم بأكرم النعوت . وكلهم كان – من قبل ان تدور عليهم الدوائر – من اهل « اطناشر من اطناشر وفتح الله عليك وعلى والديك . الحبيب لا يقرأ – الحبيب يحفظ القران . . الحبيب ولد ممتاز . . ولد مهذب . . مرآة البيت . . يا سلام على الحبيب . .» تلك هى بعض مقولات الشيخ فى حقه وبعض دلائل اعجابه به . وفى

الحقيقة كان احمد الحبيب كذلك . فهو تلميذ مهذب بالفعل وهو نابه ومجد ، لا يميل الى العبث والثرثرة وانما يجد فى الامور ويبدى من صادق العزم والاجتهاد ما يرفع من شأنه بين الناس . وقد حق لاساتذته ان يفخروا به ويعجبوا . . وقد كان من القلة النادرة الذين لا ينالهم الاستاذ الحاج هاشم بسوء من يده او لسانه ، وكفى بذلك تزكية للتلميذ فى ذلك الزمان ! لان الذين نجوا من لسان الاستاذ الحاج هاشم ومن يده كانوا هم السعداء ، وقليل ما هم ، وكان فى طليعتهم احمد الحبيب عن جدارة واستحقاق . وكان احمد الحبيب كريماً مع زملائه يدعو بعضهم فى احايين كثيرة الى طبلية عم محمدين ، ثم تحول بينه وبين دعوتهم الى التحلية كثرتهم . وحتى الكبتل الذى آلى على نفسه ان يورد كل احد موارد المهرجلين فى الفصل لم يسعه الا ان يحترم احمد الحبيب ويكف عنه شروره ، فلست اذكر انه ضم اسمه الى قائمة اسماء هؤلاء المشاغبين مرة واحدة . وهكذا ظل احمد ينعم باحترام اقرانه واساتذته . غير ان السعادة لاتدوم ، ورغد العيش كثيراً ما يغر الانسان ، وماهى الا اويقات قصار حتى تقلب له الدنيا ظهر المجن وتبدى له ما كان قد خفى عليه من صفحة السوء ، ويأتيه بالانباء من لم يزود . فلقد تعرض احمد الحبيب الى حدثين نغّصا عليه الحياة واشقياه كثيراً . . اولهما تلقيه خطاباً مسيئاً من أحد التلاميذ دون توقيع ، وما تبع ذلك من أحداث اهتزت لها اركان ام درمان الاميرية اهتزازاً . . وثانيهما سقوطه المفاجئ من نظر الشيخ ابى بكر دون مقدمات تذكر فى مأساة كانت اشبه بنكبة البرامكة .

اما ذلك الخطاب الآثم الذى تلقاه احمد فقد ساءه كثيراً واحزنه اشد الحزن ، وظل احمد محتاراً فى امره حتى هداه تفكيره الى اطلاع الاستاذ عثمان على عليه . وذلك ان الاستاذ عثمان كان يدرسنا اللغة العربية وهو ابو الفصل وكنا ساعتها فى السنة الثانية . وكان الاستاذ عثمان يعامل تلاميذه معاملة كريمة جعلتهم يجلونه ويحترمونه ويحبونه ويتشوقون الى حصته . لقد كان الاستاذ عثمان شاباً رقيق المشاعر كريم الخلق طيب النفس ، لا يؤذى احداً ولا يقسو ولا ينطق هجراً من القول ولا فحشاً . بل

كان يحرص على تعليمنا – ونحن فى تلك المرحلة المبكرة – قواعد الشعر وابتداع القوافى وفنون تذوق حلاوات البيان . فأحبه تلاميذه ووقروه وارتضوه قدوة لهم وإماماً فى المعارف والعلوم . وعندما اطلعه احمد الحبيب على ذلك الخطاب المنكر حزن الاستاذ عثمان حزناً شديداً وود لو انه يعرف كاتب الخطاب ليثأر لتلميذه احمد منه ويقتص له ويرضيه . ثم كان من الامر ما كان مما قد روينا احداثه فى غير هذا السياق ، تلك الاحداث التى صار بطلها المقدم الاستاذ محمود بلال رزق ناظر المدرسة في ذلك الحين . ولقد خرج الاستاذ عثمان من هذه الواقعة – بعد ان عرف الجانى – حزيناً باكياً شقى الخواطر والنفس والوجدان . فكان يأتى الى الفصل فيجلس على كرسيه واثار الآسى بادية على وجهه ظاهرة جلية ، فلا يجد من نفسه رغبة فى القاء الدرس ولا يستشعر من نفسه نزوعاً الي الحديث . يجلس كئيباً يحدق في المدى البعيد يخترق نوافذ الغرفة بعينين ساهمتين تحملقان فى افاق المدى من وراء نظارة داكنة يخفى خلفها الواناً من الشجون واطيافاً من الاسى . وظل على تلك الحال اسابيع طوالاً لاينبس بكلمة ولا يبوح بحديث . . حتى اذا تعاقبت الايام رواكض سراعاً مفعمات بأحداث واحداث ، طوت فى ثناياها بقايا ذلك الاسى ، وجرفت فى خضمها تلك التباريح ، وعادت الى استاذنا حيويته الدافقة بعد ان ظننا انها لن تعود ، وطالعتنا من وجهه الصبوح ابتسامته الحانية بعد ان حسبنا انها قد فارقته الى غير رجعة . فأنشأ بعد حين يجوب بنا رياض البيان ويمخر بنا عباب القوافى والنثر والرجز والقصيد ، يحملنا على متن سفائن من كرائم فلك الشروح والتبيين ويحط بنا على قمم باسقات من دوحات المعانى طلعها نضيد . اما احمد الحبيب فقد القت تلك المحنة على وجهه البسام ظلالاً غائمة من الكابة والاسى والشرود . فهو وان كان قسطاً فى مرحه لايجاوز حدود الوقار ، الا انه كان قبل تلك الواقعة يخالط زملاءه بوجه مشرق وضاح ويجاريهم فى عبثهم البرئ بروح سمحة موفورة الحياء ... فلما كان ذلك الذى كان صار احمد ساهماً يحدق فيما لا نرى ويبصر ما لانبصر . اذا تحدثت اليه أجابك فى اقتضاب

يقتضيه الواجب ثم أشاح بوجهه عنك فى حياء وأدب . لا يزجرك لسانه ولا ترتفع نحوك يده ، ولكن تباعد بينك وبينه نفرة رانت على سمته وحببت اليه العزلة واجتناب الناس . غير انه كان واجداً شيئاً من السلوى فيما خصه به الشيخ ابوبكر من تقريب وثناء وما افرده به من مدح واطراء كاد ان يؤلب عليه اقرانه لولا انهم احسوا نحوه بعطف حقيقى لما مسه من اذى وما لحق بكبريائه من جرح اليم . . فغضوا الطرف عما كان يمكن ان يثير حفيظتهم عليه . فهم يغبطونه لحظوته عند الشيخ ، ولكنهم لا يحملون له بين جوانحهم اصراً ولا ضغنا ولاقلى ، يحبونه لانه جدير بحبهم ويكبرونه لانه مستحق لاكبار اساتذته وثنائهم عليه . ولقد علم جميع الاساتذة بما تعرض له احمد وهو المسالم الذى لا يؤذى احداً ، فأحسنوا مواساته بما حفوه به من احترام . فكان الاستاذ غزالى السراج لا ينتهره ان هو جانب الصواب كما ينتهر الاخرين . ولا يعنفه كما يعنفهم ولا يتوعده بالنكير والثبور كما يفعل مع غيره من التلاميذ . غير ان احمد لم يسلم من دفتر عم مبارك تماماً فان كنبته مثل نار جهنم ما من احد من التلاميذ الا هو واردها وصادر عنها ، وان تباعدت مواقيت الورود واختلفت هيئات الصدور ، وان قلّ تعاقب الورود او كثر . غير ان احمد الحبيب لم يقم وزناً كبيراً لذلك ، فهى بالنسبة له زورات متباعدة ، وعدد جلداتها لايتعدى الثلاث او الاربع فى كل مرة وهو كغيره قد اعد لمثل هذه الحال لبوسها مما يثقل الاعجاز ويحدث عند وقوع السوط عليها فرقعة تنبئ عن حقيقة وسائل الحيطة والاحتراز وتشى بسر اللبد المستأزرة على الاعقاب . ولقد كان أحمد فى مأمن من مكر الشيخ ابى بكر ، اذ كيف يخشى من بأس الشيخ من يردد الشيخ اسمه فى اعجاب ومدح وتقريظ كلما دخل الفصل وانس بطلعة الحبيب؟ وكيف يظن غير الظن الحسن ولايرجو وينتظر غير الخير من كان الشيخ يدعوه تلميذاً مثالياً ؟ ولو أمعن احمد النظر في امره ونفذ بنور بصيرته الى دخيلة نفس الشيخ لايقن ان الحذر قد يؤتى من مأمنه ، وان اطراء الشيخ لا يعتد به ، وان رضاءه لا يركن اليه الاغافل غارق فى نوم الغفلة ، ولايسعد به الا من ذهل عن حقيقة أمر الشيخ وسرعة

تقلب مزاجه، علم ذلك من علمه وغاب ذلك عمن غاب عنه. وكان الاجدر باحمد ان يتعظ بسقطة كل من قاسم ابوعكر وعبدالرحمن الدرديرى فقد كان كلاهما مكان اعجاب الشيخ فيما يبدو ولكنهما سرعان ماسقطا من نظره دون جريرة منهما تذكر سوى انه فاجأهما وقد بيت النية على ذلك - كلاً فى ميقات معين - وطلب اليهما قراءة سور بعينها من الذاكرة دون انذار سابق يحملهما على الإستعداد . وكان كل منهما قد ركن الى اطراء الشيخ الذى كان ينثره عليه ويكلله به من قبل. فغرهما ذلك واغراهما بالتفريط فى المداومة على الحفظ. ولو ان احمد الحبيب وعى الدرس الذى طرحه امامه سقوطهما فى نظر الشيخ - اوقل اسقاط الشيخ لهما من شاهق عل - ثم بطشه بهما وتندره عليهما واصداره اوامره الناجزة للالفة الكبتل ليضعها ضمن القائمة المعروفة التى كانت اكثريتنا قد انتهت اليها فى ذلك الوقت - لو انه وعى ذلك الدرس لاعد لكل شئ عدته. ولكنها الغفلة المردية. وهى فى ذات الوقت الخطأ والنسيان اللذان رفعا عن امة محمد صلى الله عليه وسلم وابى الشيخ الا ان يظلا - فى مثل هذه المواقف - اثماً يستحق عليه مقترفهما العقوبة التى تشتمل على الجلد والتعزير . اما الجلد فهو فى عرف الشيخ طائفة من "كفوف" ختامها "دام دلدوم"... وربما بعض جلدات عند عم مبارك آخر النهار. واما التعزير فقد كان فى قانون عقوباته سخرية ثم الحاقاً فى آخر الامر بقائمة "هؤلاء قليلو الادب" وهى عقوبات تطهيرية يبتغى الشيخ من ورائها هدايتك وحملك على الجادة. والفرق ان الحدود تدرأ بالشبهات ولايصح تطبيقها على اساس الظنة وحدها! وهكذا جاء الحدث الثانى الذى نغص على احمد الحبيب حياته واشقاه. فقد كان ذلك اليوم الذى دخل فيه الشيخ ابوبكر الفضل وهو ينوى التحرش بأحمد الحبيب يوماً عبوساً قمطريراً بالنسبة لاحمد. بدأه الشيخ بكلماته المألوفة المعروفة: الحبيب ولد مؤدب، ولد مهذب، الولد مرآة البيت.... الى آخر سلسلة تعابيره الاطرائية. ولعل من سوء حظ احمد فى ذاك الصباح انه كان قد غير مكان جلوسه مرتداً الى تخوم الصفوف الخلفية، مقترباً بصورة واضحة من مواطن الربع الخراب، تلك المرابض التى كان

الشيخ يحسب – وهو مصيب فى كثير من توجساته – انها مصدر الفوضى ومنابت الشوشرة والازعاج . وزاد من شكوك الشيخ ان احمد الحبيب كان وجهه فى ذلك الصباح يشرق بمشروع ابتسامة كبرى لست أرتاب في أن الشيخ قد ظن أنها استجابة صريحة لهمس نابع من الربع الخراب قصد منه النيل من الشيخ أو الاستهانة بحصته على أقل تقدير . وعلى كل فبعد المقدمات المألوفة طلب الشيخ من احمد الحبيب جهرة وعياناً بياناً أن « يسمّع » سورة التكوير . فتكورت الغصة فى حلق أحمد وطار لبه وارتج عليه . وذلك لأنه كان من قبل فى مأمن من مغبة التسميع لأنه كلما أراد أن يقرأ صاح بنا الشيخ : لا ... الحبيب لا يقرا ... الحبيب ولد يحفظ القران . . الحبيب ولد مهذب . . . الفة . . الحبيب ادو اطناشر من اطناشر واكتب عليه فتح الله عليك وعلى والديك . . لقد ألف احمد هذا التجاوز والاعفاء كما الفه من قبله كثيرون فأرداهم الفهم الذى الفوا ولم ينقذهم من مغبة غفلتهم شئ ولم ينفعهم ما كان الشيخ يهيل عليهم من مدح واطراء وما كان يمنيهم به من أمان . ويقينى ان الشيخ قد سر سروراً بالغاً لما رأى من ارتباك احمد الحبيب وحيرته فقد اتت مفاجأته التى فاجأه بها اكلها الذى يريد . وها هو ذا الحبيب الذى ظن انه ناجٍ يقع فى ذات الشراك التى طالما اهاضت أجنحة غيره وكسرت قوادمهم ، فما الذى هو فاعل يا ترى ؟ والشيخ صاحب مزاج غريب فهو يلتذ ايما التذاذ عندما يطرح عليك سؤالاً تعييك الاجابة عليه وان كنت أحبَّ احبائه وانجب تلامذته فيدفن رقبته بين كتفيه ويبسط يديه ويباعد بينهما وكأنه يريد ان يسبح فى الهواء قبل ان ينقضَّ عليك . . . ولقد تلعثم احمد الحبيب طويلاً ولم يأت بشئ مما طلب منه ، ولكنه فى نهاية الامر وطن نفسه على مجابهة ما لا بد ان يكون ، وايقن الا ملجأ من الله الا اليه وان « الكاتل الله والحايى الله » فتوكل على ربه وقال للشيخ فى نبرة يائسة ملأى بالبرم والقنوط : يافندى ما حافظها !وتلك كانت هى غاية الشيخ ، وذلك كان هو مرماه ومبتغاه.فصمت هنيهة يستلهم قاموسه الماحق ليتزود بالكلمات المناسبة وصار يدب نحو احمد الحبيب بذات خطاه الوئيدة المفزعة وهو يتجمع

وينفرط ، ويتكور ويعتدل ويتقاصر ويتطاول حتى اذا بلغ احمد حيث يجلس اخذ يردد مقولته فى سخرية بالغة وهمس ملئ بالوعيد : يافندى ما حافظها .. يافندى ما حافظها .. ثم أخذ صوته يعلو شيئاً فشيئاً متناغماً مع تنامى سورة غضبه وتزايد درجة انفعاله .. حتى قال لأحمد بصوت لم يدع مكاناً لريبة فيما سيحدث بعد قليل : اوقف على حيلك . فوقف أحمد وقد رانت على قسمات وجهه دهشة هادئة ووشى مظهره بتماسك واتزان .واقترب منه الشيخ قرباً مقيتاً فأسرع بعد أن كان يدب دبيب الحية الرقطاء ، واستطالت رقبته بعد أن كانت قد اندغمت فى مدخل قفصه الصدرى وانصبت على مسامع احمد من فمه ألسنه لهب حامية من السخرية والشتم والسباب : يافندى ما حافظ .. أى قول كدى .. أىّ قول ما حافظ يا كلب .. الحبيب ولد ما نافع .. الحبيب لا يحفظ القرآن ... الحبيب ولد مشاغب .. الحبيب ولد تربيتو ناقصة .. الولد مرأة البيت (وهذا التعبير الأخير من الأضداد ، فهو يصلح عند الشيخ للاستعمال فى حالتى المدح والذم والفيصل هو السياق ، ولكن التعبير واحد ، فاعجب للبيت والمرآة على السواء وكيف فعل بهما الشيخ الافاعيل !) وانهالت يمناه على أحمد بصفعة كاد أن يسقط على أثرها على الأرض ، غير أنه تمالك نفسه واستجمع ما بقى له من شجاعة وقوى ، وانتصب واقفاً بعد ترنح . فتعاقبت عليه صفعات الشيخ وتوالت عليه مفردات سبابه واكفة تتعالى وتتصاعد فى نسق مع « الكفوف » حارق ومميت ، حتى خشينا على سلامة أحمد وانتابنا فزع لم نتعرض لمثله من قبل . ولكن أحمد كان صامداً فى وجه الشيخ ولم يفه بكلمة .. فقد راى أن الاستسلام لعقاب الاستاذ واجب تقتضيه تعاليم العصر وآداب التلمذة . ذلك كان مبلغ علمنا على تلك العهود . لايجوز الاعتراض على الاستاذ مهما أنزل بك من عقوبة ومهما سامك من اهانة واذلال وخسف فقد كنا جيل خلائق الخلوة والمسيد حيث يؤتى بالطفل إلى الفكي ووالد الطفل يقـــول : « ياسيدنا ليك اللحم ولينا العضم » . ورغم أن الشيخ ابابكر قد أكل لحم أحمد أكلاً بلسانه وقطَّعَهُ تقطيعاً بيديه إلا أنه كاد أن يهشم منه « العضم » أيضا ويسحقه سحقاً ،

غير أن أحمد الحبيب لم يجرؤ على مجرد الاحتجاج ، وانما طفق يحرك يديه من موضع إلى موضع حذر أن تصاب مقاتله . يا الهى ! هل كانت هذه الطاعة وذلك الاستسلام ظلاً من ظلال التأثر بتقاليد صوفية ؟ وهل ذنب الحوار دائماً اكبر من تجاوزات الشيخ ؟ اليس للشيخ حدود يجب أن تراعى فى حالة عظم نقمته وتمثيله بالحوار ؟ فقد كان أحمد أشبه بالحوار المطيع الذى يغضُّ الطرف عن كل ما يأتى به الشيخ وان كان هجراً من القول والفعل ونكراً .. بل هو كان أشبه بالميت بين يدى الغاسل . غير أن الميت لا حراك له ، أما الحى فهو يتنفس على اقل تقدير ويعتريه بعض حراك وان لم تكن له فيه مشيئة ولا ارادة .

كان ذلك اليوم العبوس آخر يوم لأحمد الحبيب معنا فى المدرسة ، فلم نره فيها بعد ذلك اليوم أبداً . وعندما لقيه محمد العوض بعد ذلك بأيام سأله عن سبب غيابه . فقال له احمد الحبيب : لقد تركت المدرسة لهذا الشايقى اللسن (يعنى الشيخ ابابكر) . هكذا سمعت محمد العوض يروى عن أحمد . وبالفعل ترك احمد المدرسة وفارقها وفارق الشيخ « فراق الطريفى لى جملو » .. ولم تفلح مساعينا لا عادته اليها ابداً فقد كان احمد ذا ارادة وتصميم . ولكن ربما كان هنالك عامل آخر فقد علمنا أن والده كان مريضاً بداء عضال وأحمد اكبر أبنائه ، ولعله رأى أن يتفرغ لأعمال أبيه فى ذلك الوقت المبكر من حياته ، والله أعلم بحقيقة الأمر . ومن العجيب أنى التقيت أحمد بعد سنوات فى « صوف الخلا» كما يقولون وهو يجلس على المقعد الامـــامى لناقلة كبيرة (لوري) تحمل بضاعة ، وكنت وقتها مسافراً اقطع فيافى منطقة النيل الأبيض وانا جالس على « تندة » « اللورى » ، فقد كان الجلوس على « التندة » فى تلك الأيام الزاهية والعربة إذ تخوض الرمال تئن أنيناً ، هو غاية مبتغانا وأطيب لحظاتنا . فتحدثنا طويلاً فعلمت منه أنه اشتغل بالتجارة والترحيل بعد وفاة أبيه ، وأنه بحمدالله فى سعة من الحال وحسن المآل . وكنت وقتها تلميذاً فى خور طقت وأحمد الحبيب رجل أعمال وهو دون العشرين بسنوات ! وقد علمت من احمد أنه كان كثير السفر والترحال . ولم

تخف عنى ابتسامته الوضيئه ووجهه المشرق ما كان يكمن فى قرارة نفسه من أسى دفين . فلعل الذى حمله على ترك المدرسة فى ذلك الوقت المبكر كان خليطاً من أمور واسباب لم يجد بداً من الرضوخ لها . وذلك أنه كان من التلاميذ المبشرين بنبوغ وحسن بلاء . ولو أنه لم يتعرض لهذه الظروف لكان له شأن اخر . ولكنها ظروف الحياة المعقدة دفعت به إلى هذا الترحال الدؤوب وهو فى ميعة صباه . وعندما أعود الأن بذاكرتى إلى تلك اللحظة التى التقيت فيها احمد في ذلك العراء الموحش والى ذلك الحديث الذى دار بيننا طويلاً فانى آحسُّ أنه كان – على غير وعى منه – يتأسى بأبى الطيب اذ يقول :

أشد الغمِ عندى ســــــــرور .·. تيقن عنه صاحبه ارتحالا
ألفتُ ترحلِّى وجـــعلت أرضى .·. قــتودى والغريرىَّ الجُلالا
فما حاولت فى أرض مقـــاماً .·. ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأن الــــريح تحتى .·. أوجهها يميناً أو شــــمالا

ومن عجب أن اكثر التلاميذ كانوا يعتبرون الشيخ ابابكر شايقياً وهو ليس كذلك فقد بلغنا أنه رباطابى . وقد سكت الحاج عبد الرحيم عن هذه الحقيقة لأسباب لا ندريها وقال بعض علماء الأنساب من أولاد فصلنا ان الشيخ رباطابى ولكنه تربى فى بيئة شايقية فنشأ على لهجتها . وربما كانت اللهجتان متقاربتين . وأما القبيلتان فهما فى طليعة القبائل السودانية التى لها تاريخ يروى وأمجاد تذكر . والشيخ ابو بكر فى حقيقة الأمر من خيرة الاساتذة السودانيين الذين تربت على ايديهم اجيال والذين أعطوا عطاء ليس إلى إنكار قدره العظيم من سبيل . ولكن عبث الطفولة لايغادر شيئاً إلا وتجنى عليه بصورة من الصور . فلايظنن أحد أننا نقلل من شأن فرد أو جماعة .. فهى انطباعات ننقلها كما استقرت في الذاكرة حين تبدت لها ،وهى تعليقات وملاحظات وردت حول الشيخ ربما كان بعضها ظالماً فى حقه .ويقينى أن احمد الحبيب نفسه يعلم كم نحن كلنا مدينون للشيخ ابى بكر علي ما بذل من جهد لتبصيرنا بعلوم الدين والقرآن وما أجهد نفسه لينشئنا عليه من عزة النفس وكرائم الأخلاق . ورغم كل هذا

الذى نرويه عنه – وهو أحداث وانطباعات حقيقية – فقد كان الشيخ أقرب الاساتذة إلى وجداننا وآية ذلك أن الكل كانوا يحرصون على شهود حصصه ويسعدون بها سعادة حقيقية وأن صفعاته وكلماته التى كان ينزلها بهم لم تزدهم الا محبة فيه واعجاباً باسلوبه الفريد الذى كان يشكل اهم مادة لهم فى حلقات الونسة والمرح خارج الفصول . فهو شيخ خالد في اذهان ذلك الجيل بلا ريب لا تكاد تذكر اسمه فى محفل من محافل عجائز اليوم من فتية تلك الأيام النواضر الخوالى إلا انفرجت أساريرهم عن بسمات راضية وأسفرت وجوههم عن ضحكات مرحة صافية وروى كل منهم من طرائف الشيخ ما أشاع بينهم الفرح والسرور وحملهم على أجنحة الذكرى والحنين إلى أجمل الأيام وأهنأ الأوقات .

المسكين .. ضقل :

زين العادين الشفيع تلميذ هادئ جداً ، نحيف الجسم ، يرتدى جلابية بياقة ، اذناه بارزتان بشكل ملحوظ وعيناه ساهمتان فيهما حيرة وقلق . على وجهه سمة حزن غامض واسى دفين . وهو من اسرة تسكن فى حى وداورو . لايشارك التلاميذ فى لعبهم الا قليلاً . فهو ميال الى الصمت والعزلة . ولكنك ان عرفته عن قرب وجدته كنزاً من المودة صافياً لا شوب فيه ولا كدر . وهو رغم تحفظه وعزوفه عن مخالطة الناس لاعب كرة ماهر بارع فى كرة الشراب . فقد رايته فى وداورو احياناً يلعب مع سرى وحجازى ولطفى وفتحى ابراهيم وصفى وغيرهم ، وعندما نذهب لجامع الخليفة كان يفضل الا ينزل الى الملعب ، وكنت اشجعه على اللعب فيستجيب وهو غير مقتنع تماماً ، فلا يلبث فى الميدان الا ريثما ينتهى الشوط الاول يغادر بعده الملعب . وكنت احياناً اسير معه بعد انتهاء اليوم الدراسى ونحن زمرة من التلاميذ نشق فيافى الصور – وهو السور او « الملازمين » . . الحى المعروف الذى وصل ماضى مدينة ام درمان بحاضرها وصلاً جلياً واضحاً عجزت عن محوه الدهور والدثور . . نجد السير اذا بلغنا تلك القفار ونحن نستعيذ من شياطين الجن والانس والبعاعيت ووداء بعلو ، حتى

إذاانفلتنا من تلك الوهاد وادرنا ظهورنا لشرورها وخرجنا منها سالمين اسرعنا الخطى حتى نبلغ حى وداورو . وهناك – وقبل ان نبلغ محطة الطرماج بقليل يدلف عنى زين العابدين الى جهة اليسار ، يكاد يغيبه عن ناظرى زقاق صغير وانا ارقبه من بعد . . وهو يمضى مسرعاً لا يلوى على شئ حتى يبتلعه زقاق آخر أصغر من ذاك الذى سار فيه بدءاً ، فيغيب عن ناظرى بعد حين ليبلغ داره فى تلك المناحى ، فلا أراه الا فى اليوم التالى فى المدرسة . ثم امضى انا سيراً على قدمى مخترقاً قضيب الطرماج متلفتاً يمنة ويسرة اتقى شر هذه المركبة الملعونة ، واعبر شارع الاسفلت الذى يربط بين السوق وابى روف ، حتى اذا جعلت حى الخنادقة عن يمينى ومقابر الشهداء عن يسارى شعرت بالامن والسكينة ومشيت مشية هادئة مطمئنة هابطاً من زقاق الشفايعة حتى كبرى ود نوباوى منتدى سمرنا في الليالى المقمرة وكنز معارفنا من القصص الأسطورى الذى نتزود بأعاجيبه لننازل بها فى اليوم التالى دهاقنة الـــرواة فى المدرسة .

كان زين العابدين صديقاً اثيراً بالنسبة لى ، ولقد كان كل زملائى فى الفصل اصدقاء اعزاء . ولكنى كنت اشعر نحو زين العابدين بعطف خاص لانى كنت اقرأ فى تعابير وجهه حروف اسى ولوعة واتبين فى مقاطع حديثه رنة حزن وانة شكوى ، ولكنه لايفصح عما يجول فى خاطره ولا يطلعك على ما يحتدم فى اغوار نفسه . ورغم ان زين العابدين كان يحدثنى احياناً عن بعض مغامراته وكيف أنه يجيد الشعبطة فى الطرماج ، ويتقن فنون الزوغان من الكمسارى والمفتش على السواء ، بل ويجيد النزول من الطرماج فى أى كشة من كشاته ، الانه لم يدع المقدرة على النزول عكس فى هذه الكشات ولو قال بذلك لما صدقته ، فما كان لهذين الساقين الرقيقتين وهاتين الجريدتين الضاويتين ان تخرج سالمة من مثل هذه المغامرة التى يعد أبطالها المقتدرون على الاتيان بها على رؤوس الاصابع ! ولست انت بسالك زين العابدين فى زمرتهم ان كنت من المنصفين .

ولقد دعوته مراراً للذهاب معى الى ود نوباوى ولم افلح فى اقناعه ، ولعله كان يرتاب في دخيلة نفسه واعماق خاطره فيشكرنى ويعد ولايفى . ورغم ان ذلك كان يحزننى بل ويحنقنى عليه احياناً الا انى كنت التمس له الاعذار . فالقصص التى كنا نرويها عن منتدى كبرى ود نوباوى والتى تشتمل على كل بطولات المسرح الخارقة حيث الجن والعفاريت وكل انوع المردة والبعاعيت ، والفظائع التى كان يرويها على اسماعنا الصغيرة ابو الدفاع عن قنابل الحرب وشظايا الاذان والارجل والايدى والاعين والانوف وسائر قطع البشر التى تتطاير فى الهواء والتى كنا ننقلها الى زملائنا في المدرسة بعد ان نضفى عليها حللاً مريعة من ألبسة التشويق ، كانت تفزعه كثيراً وتزيد من ارتيابه في سلامة المنقلب ان هو تخطى حى وداورو الى تلك البقاع النائية الحافلة بكل مايخلع القلوب ويصعق الالباب . فهو يسألنى احياناً يبغى اجابة شافية حتى لا يؤخذ على حين غرة : وهل رأى ابو الدفاع كل ذلك وهو لايزال حياً وهل ذهبت انت الى المسرح لترى ذلك العالم الجنى المسحور الذى يربض على مشارف ام ردمان ؟ وهل رأيت البعاتى بعينيك ؟ وماذايفعل الانسان اذا التقاه في ذات مساء ، هل يمكنك أن تسبقه اذا أطلقت ساقيك للريح ؟ واذا كان الانسان يمكن أن يقوم « بعاتياً » بعد أن يموت وقبل أن ينفخ فى الصور فما هى الحكمة من وراء الموت ؟ ولماذا يموت الناس على أي حال حتى يضطر بعضهم إلى أن يعود للحياة مرة أخرى ولكن على هيئة « بعاتى » يثير الفزع والهلع بين الأحياء ؟ وهل يموت « البعاتى » أبداً بعد قيامه ؟ واذا كان ذلك ممكناً فهل بمقدوره أن يقوم « بعاتياً » مرة أخرى بعد موتته الثانية واذا كان ذلك بمقدوره فما الذى يمكن أن يفعله الناس أولاد الناس حتى يتجنبوا شرور « البعاعيت » ويخلصوا أنفسهم من هذا الهاجس المرعب ؟ وهل البعاتى هو « ودام بعلو» نفسه ام أن هذا الأخير مصيبة أخرى تضيف الى حياتنا مزيداً من بواعث الرعب والفزع ؟ الا يكفى « البعاتى » وحده حتى نرزأ بما قد يكون أنكى منه واشد خطراً وهو « ودام بعلو» ؟ إن حرف العين هنا فى كل من الاسمين يوحى بالرعب ويثير الهلع . وخاصة

حينما يكون حرف العين مشدداً بهذه الصورة و قد سبقه حرف الباء . اما اذا اصبح حرف العين فى الاسم الثانى مرفوعاً وقد أحاطت به من جانبيه باء مرفوعة ولام مشددة ومرفوعة للدرجة التى يتولد من بعدها حرف الواو فان مجرد التفكر فى معناها يذهب العقل ويورث البكم والصمم وعدم القدرة على الحراك ! الا توافقنى على ذلك ؟ الا ترى ما ارى وتحار كما احار ؟ إلى غير ذلك من الاسئلة الفاحصة الدقيقة التى يترجى من وراء الاجابة عليها ما يساعده على اتخاذ التدابير المناسبة واعداد العدة للافلات من قبضة هذه الاهوال اذا قدر له ان يقترب منها او تقترب هي منه . وذلك لأنه آمن فى حى ود اورو الا من بعض شياطين الانس . والنجاة من مثل هؤلاء ان اعترضوا سبيلك ليست مستحيلة على كل حال ، لان زين العابدين يعلم - ويسعده انه يعلم - انه قد أوتى ساقين رقيقتين خفيفتين مثل الفلكاب يمكنه ان يطلقهما للريح فى اي وقت يشاء وقدمين طيعتين اشد معرفة بدروب الارض من حوافر فرس الرهان ، يمكنهما ان تحملاه فى سرعة البرق الخاطف الى بر الامان في حدود حى وداورو . ولكن هذه المواهب العضوية التى اوتيها زين العابدين ربما لا تقوى على اجتياز الفيافى من ود نوباوى اذا الم به هنالك مكروه . ولذلك صار زين العابدين يستمع الى اخبار ود نوباوى عموماً وما يدور فى جلسة كبرى الخور على وجه الخصوص باهتمام بالغ وشوق وتطلع . اما الاهتمام البالغ فمبعثه التدبر واعمال الفكر فى اتخاذ التدابير المناسبة والتحوط المبتغى لتجنب الوقوع فى هذه المصيدة والابتعاد عن ما يمكن ان يقود الى الاقتراب منها بقدر الامكان . واما الشوق و التطلع فهما شوق وتطلع لمعرفة الحقائق على ما هى عليه بغيه التأكدُ من معرفة مواقع السلامة والنجاة بصورة قاطعة لا تبقى للشك اى مجال او احتمال ، فالشوق ليس هو بالشوق لارتياد تلك المجاهل بحال من الاحوال ، و التطلع ليس هو بالتطلع الى الوقوف على اسرارها وعجائبها .. اللهم الا عن طريق الرواية والسماع ولكن دون الرؤية والمشاهدة .

لقد تكاثرت الهموم على زين العابدين لشدة مسكنته وزاد من معاناته انه ربما لم

يكن يحب المدرسة حقيقة ، وبدا وكانه مساق اليها راغم الانف . فهو ولد ذكى نابه اذا تحدثت اليه ولكنه ضائق ذرعاً بالدروس وسخافاتها . فلا هو ناج من استاذ الحساب ولا هو بمأمن من استاذ اللغة الانجليزية ، ولا هو ظان خيراً بغيرهما من الاساتذة ، فكلهم فى نظره رسل شقاء كتب علينا ان نصيخ الى رغباتهم التى لاترضى للكمال بديلا ، وأن نمتثل الى ما يرونه صواباً دون ان نتجرأ على مجرد الشك فى صحته . وما فائدة حفظ هذه الكلمات الانجليزية التى لانهاية لكثرتها ، ثم استعمالها في جمل يسمونها مفيدة وهي عديمة الفائدة . هذامع أننا نتحدث إلى جميع الناس فى ودا ورو رجالاً ونساء وأقراناً وأتراباً لنابما يفهمونه من الكلام الذى لا علاقه له بهذا السخف الذى نكره على التعرف عليه بحد السوط ؟ ومافائدة هذه الزوايا والخطوط والدرجات التى هى مرة ستون وأخرى تسعون وثالثة مائة وثمانون ورابعة ثلاثمائة وستون درجة ، ومـا بين هذه من الأرقام مـا لايحصيه عد ؟ ومـاذا نحن صـانعون بالمثلث والمربع والمستطيل والدائرة ومتوازى الأضلاع فى مقتبل حياتنا ؟ ألم يقم أهلنا من قديم الزمان بتشييد هذه المنازل التى نسكنها الان ونجد فيها الامان والطمأنينة دون أى المام سابق لهم بهذه المعميات والرموز التى تحتشد بها السبورة أمام انظارنا كل صباح فلا ينتقل منها إلى أدمغتنا إلا ما يصيبها بمزيد من الحيرة والارتباك ؟ ثم ماذا ترانا نجنى من معرفة قمم الهملايا والالب والسهول والوديان والصحارى فى كولارادو وكلاهارى والنقب وما إلى ذلك مما يصر استاذ الجغرافيا على حشو رؤوسنا به ؟ فمن منا سوف يذهب إلى تلك الأقاصى فى يوم من الأيام ان كانت هى موجودة بالفعل ولم تكن من صنع الخيال ؟ ومن الذى فرض علينا أن نرفع المبتدأ والخبر ونؤخر أولهما ونقدم الثانى كما نشاء ، وننصب اسم إنَّ وخبر كان ثم نكسر أى كلمة (غير ممنوعة من الصرف) يسبقها ما يسمى بحرف الجر وان كان هو نفسه كلمة كاملة وليس حرفاً واحداً ؟ ولكي تتضاعف علينا الحيرة وتتعقد الامور ونبوء بمزيد من الارتباك فقد جعلوا للقاعدة استثناءات وطلعوا علينا بما يسمى « الممنوع من الصرف » حماية له من

الخفض الذى تحدثه فيه « حروف » الجر وتجره عليه الاضافة . وقالوا إن الممنوع من الصرف أو التنوين هو اسم لا يلحقه تنوين ولا كسرة . فهو يجر بالفتحة عوضاً عن الكسرة ولا ينون . وليتهم اكتفوا بعلامات الاعراب الظاهرة التى لا تكلفنا معرفتها شططا يذكر مثل الضمة والفتحة والكسرة ، ولكنهم أحدثوا بدعة أخـــرى وهى قولهم الضمة (أو الفتحة أو الكسرة) المقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر أو الثقل ! وأى شئ «أثقل» من هذه السخافات ومعرفة التعامل بها فى الحديث والتقيد بها تقيداً يعيا ويعطب به اللسان ويعوج ويضوى به الفكر وينخبل ؟

وأما إذا تخطيت المفرد للمثنى والجمع فالحيرة أعظم والبلاء أفدح لأن علامة الاعراب تصبح حرفاً كاملاً بقدرة قادر ، فيرفع جمع المذكر السالم والملحق به بالواو وينصب ويجر بالياء ، والنون فيه بدل التنوين فى الاسم المفرد وتحذف هذه النون عند الاضافة . ولذلك فهم يقولون : وعلامة رفعه الواو فى الجمع أو الألف فى المثنى ، وعلامة نصبه أو جره الياء فى كل من الجمع والمثنى . وأما حرف النون فأمره عجب . فهو تارة نون الجمع وتارة بدل التنوين وتارة أخرى هو حرف زائد ، وحيناً آخر هو نـون النسوة، ، وكأن النسوة فى حوجة إلى هذا النون لارهاب الرجال وردعهم والاستيلاء على جميع مايملكون ! و الجمع قد يسمونه جمع مذكر سالم وهذا ما قد علمت ، وقد يسمونه جمع مؤنث سالم وهذا يرفعونه بالضمة غير أنهم ينصبونه ويجرونه فى ذات الوقت بالكسرة يحرمون عليه الفتحة تحريماً ! وذلك فى اشارة منهم غير معلنة إلى خفض مقام التأنيث بالنسبة إلى مقام التذكير وكأنهم لم يسمعوا مقولة أبى الطيب :

فما التأنيث لاسم الشمس عيب .·. ولا التذكير فخر للهـــلال

وانما اعتمدوا البيت الذى سبقه وجاء فيه :

ولـوكـــان النساء كمن فقدنا .·. لفضلت النساء على الرجال

وذلك لأن النساء فى نظرهم لسن « كمن فقدنا » !

وحتى يبلغوا غايتهم من تكسير رؤوسنا بهذه السخافات فقد زعموا أن هنالك جمعاً

غير هذين لا يتصف بالذكورة ولا بالانوثة . ولذلك سموه جمع تكسير بعد أن أحالوه إلى شظايا ثم لملموها وصاروا يعاملونها معاملة المفرد . ولم يمنعهم من التمثيل بهذا « اللموم» من الشتات الذى جعلوه مفرداً ومن وضع علامات الاعراب على آخره الاتحايلهم بما صاروا يدعونه بالثقل تارة أو التعذر وظهور حرف العلة تارة أخرى .

ثم هم بعد ذلك يقسمون هذا الجمع إلى جمع قلة وجمع كثرة ويبتدعون منه مايطلقون عليه « صيغة منتهى الجموع » وهو كل جمع تكسير فى وسطه الف ساكنة بعدها حرفان أو ثلاثة أحرف ، وله تسعة عشر وزناً قياسياً كما يزعمون ! وأما الأفعال الخمسة فهى عندهم كل فعل مضارع اتصلت به ألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المؤنث المخاطبة كما فى قولك : (تعلمان ، تعلمون ، تعلمين) . فعلامة الرفع هنا ثبوت النون ، وعلامة النصب والجر هى حذف النون . ونحن نعلم أن النون هى حرف وليست علامة ، وأن المحذوف غائب ولا يرى فكيف يكون علامة ؟ واذا كتب الله لك الراحة التامة وكفاك شر هذا مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة و هذا منصوب أو مجرور وعلامة نصبه أو جره الفتحة الظاهرة أو الكسرة الظاهرة ... إذا انجاك الله من هذه الرموز والعلامات لتقرأ « على كيفك » فانهم لايتركونك وشأنك لأن الاعـــراب عندهم لا ينتهى باختفاء هذه العلامات وعدم ظهورها انما يعقده ذلك تعقيداً لأنهم يلحون فى أن الجار والمجرور« فى محل رفع » أو « فى محل نصب » ، بل ان جملة بأكملها يمكن أن تكون فى هذا «المحل» . وهم يحذفون حرفاً بأكمله إذا دخل على الكلمة ما يسمونه أداة الجزم ويجعلون هذا الحذف هو عين علامة الجزم . فاعجب لعلامة هى نفسها غائبة غير مثبتة !وليتهم وقفوا عند هذا الحد وأراحونا من المزيد من التعقيدات . ولكنهم فرقوا حتى بين الجمل ، فجعلوا لجمل بعينها محلاً من الاعراب وحرموا غيرها من هذا «المحل» ، فانظر إلى هذا الظلم فى حق بعض الجمل !

ولقد ابتدعوا فوق ذلك ما أسموه « حرف نداء » مع أنك تستطيع أن تنادى من تريد وما تريد دون استعمال أى حرف من الحروف . وحتى اذا استعملت الحرف فانك لا

تريد أن تتقيد بضبط المنادى - غير أنهم تفننوا فى هذا المجال ؛ فالمنادى عندهم منصوب إذا كان مضافاً أو شبيهاً بالمضاف ، أو جامداً موصوفاً أو نكرة غير مقصودة . وهو مبنى على الضم فى محل نصب اذا كان نكرة مقصودة أو مفرداً علماً ! ولكى يبرروا هذا الزعم وهذه الفعلة المنكرة فانهم يقولون إن المنادى فى أصله مفعول به لحرف النداء «يا» لأنها تقوم مقام «أنادي» وهكذا حرمونا من الوقوف المريح على السكون المريح الذى يسكن الأنفاس ويقى اللسان من الوقوع فى اللحن والتصحيف . وكل ذلك لم يكفهم بل انهم خلقوا لنا خلقاً طائفة أخرى من الالغاز نصبوها نصباً وسموا بعضها تمَيِيزاً والبعض الآخر حالاً ، وكأنَّ الحال لا يميز صاحبه ! وقد تكون جملة بأكملها «فى محل» هذا «النصب» . ولم يكفهم نصب المفعول به بعد رفع الفاعل وانما نصبوا أيضاً ما اسموه بالمفعول المطلق والمفعول معه والمفعول لأجله والمفعول فيه وجعلوا للمفعول نائباً وللفاعل أيضاً نائباً ! ولم يبق لهم إلا أن يصدروا مرسوماً بتعيين نائب ثان لكل منهما !

وأعجب من كل هذا كلمة «لاسيما» إن كانت هى كلمة واحدة كما يزعمون ، إذْ الواضح أنهما كلمتان ، ولكنهم يفعلون ما يشاؤون . فقد قالوا إن «لاسيما» تفيد أن ما بعدها وما قبلها مشتركان فى أمر واحد ولكن نصيب ما بعدها أكثر وأوفر من نصيب ما قبلها ، ولذلك جوزوا فى الاسم بعد « لاسيما » كلاً من الرفع والنصب والجر سَواء كان نكرة أو معرفة ! وأنت لن تبلغ أى مبلغ اذا تابعت هذه الألغاز وانفتحت امامك عوالم كان وليس وكادواخواتهن ، وأدوات الشرط الجازمة وغير الجازمة ، والضمائر الظاهرة والمستترة ، وافعال الذم والمدح ، والمركبات ، واسماء أو ظروف الزمان والمكان ، وغير ذلك مما يحيل اللغة إلى طلاسم يبتغى من ورائها الفصاحة والبيان وهى إلى العجمة والاستعصاء أقرب « وأهدى » سبيلا . وهكذا ليس لهذه الغرائب من منتهى . وهذا بعض ما كان يحير زين العابدين ويحيرنى أيضاً ! ولا يظنَنَّ أحد من علماء اللغة العربية وأساتذتها الاجلاء أننى أسخر من لغة العرب . معاذ الله أن أفعل ذلك . ولكنها

كانت قراءاتي في خواطر زين العابدين وربما غيره من التلاميذ «الموحوسين» وأنا واحد منهم . فنحن نعلم أن أقواماً كثراً يكتبون العربية صحيحة وينطقونها في خطبهم واشعارهم وأحاديثهم في فصاحة معافاة من اللحن والتصحيف وذلك لكثرة الاطلاع وطول المراس ، غير انى لا أرتاب في أن اكثرهم يجدون صعوبة بالغة في ارجاع كل كلمة أو جملة الى قالب اعرابها الصحيح ، يقيمهم على الصواب حسن المران ويعصمهم من الخطأ والزلل عاصم الذوق السليم .

هذه لو افت كنت أقرأها في ملامح الحيرة التي كانت تتغشى زين العابدين . وهي حيرة حببت إليه العزلة وأورثته شعوراً غامضاً بالريبة في نوايا بعض أقرانه حبسه في داخل نفسه حبساً عن الالمام بحلقاتهم وتجمعاتهم ، وفاقم من عدم اطمئنانه إلى كثير منهم وإلى الاساتذة بشكل خاص . ولست ادرى كيف كان يتعامل مع أهله في البيت فهو لا يذكر عنهم شيئاً . ورغم أني كنت وثيق الصلة به وأحمل له عطفاً ومحبة واحتراماً إلا أنه كان شحيحاً في الإخبار عن خفايا داره واسرته وحياته الخاصة . بل هو كان قليل الضحك نزر الكلام . وعندما يلم به الفاضل شريف في «الفسحة» ويوسعه نكاتاً بايخة لم يكن زين العابدين يجرؤ على ايقافه عند حده كما يفعل الاخرون بل هو يفتعل الابتسام والضحك في وجهه ، وهو في حقيقة نفسه يود لو أن بينه وبين الفاضل مدى بعيداً . ولذلك وجد فيه الفاضل ضالَّته «وتختته» - كما يقول بعض اخواننا العسكريين - فطفقت أحياناً أهب لنجدته واستنقذه من براثن نكات الفاضل شريف ، وهي نكات « بايخة » أغلب الأحيان (وصاحبها يعلم ذلك ويعترف به ويسعد به) . لاذعة في بعضها ، محتملة في جملتها ، يسيرة على النفس إن أوتيت الصبر عليها وحباك الله بشئ من الجسارة والحزم « ونشاف الوش » الذى يمكنك من قول «كفى» . وهذه الجسارة ان صحت منك فلا قبل للفاضل شريف بها ، لأنها تزجره في حينها ، إلا اذا كانت آتية من زين العابدين فهو يستهين بها وهي قل ما كانت تأتي من زين العابدين .

وكغيره من التلاميذ كان زين العابدين فريسة سهلة للشيخ ابى بكر . فرغم أنه لم يكن مهرجلاً مرموقاً فى الفصل ، ورغم أن الكبتل كان يعطف عليه فلا يكتب اسمه ضمن قائمة المهرجلين فى الفصل ، إلا أنه لم يكن مفتوناً بحصة الدين ولم يكن من عشاقها الحريصين عليها . وكأنما قرأ الشيخ أفكاره ونفوره الخفى - أوقل ضيقه بحصته ومقته لها وعلامات نفاذ صبره فيها - فصار منذ وقت مبكر من مشاهير أهل « صفر من اطناشر» وما يتلو ذلك عادة من نعت معروف . ولم تقم له قائمة بعد ذلك ابداً حتى كان من أمر بقية أولاد الفصل ما كان . فارتاحت نفسه إلى ذلك المصير الجامع أيما ارتياح ! ولقد لقى زين العابدين الأمرين من الاستاذ فرح والاستاذ السبكى فى حصص اللغة الانجليزية ، وبلغ حد النكد من الشيخ يوسف الخليفة فى حصص اللغة العربية . والعجيب فى الأمر أن زين العابدين رغم كل سوء الطالع الذى لازمه مع بعض الاساتذة كان يحفظ كثيراً من الأناشيد ويترنم بها بصوت عذب حنون . بل كان فى بعض الأحايين - عندما يكون الملأ من حوله قليلاً - يكاد يرفع عجيرته ببعض الأغانى فيؤديها في براعة ورقة تتناسب مع مظهره النحيف ودقة تقاطيعه . فهو وان كان محاذراً شديد المحاذرة قليل الثقة بنوايا البعض إلا أنه لم يكن يبالى بالغناء والترنم على مسامع كوكبة قليلة من الذين يحسن الظن بهم وينسبهم إلى الخير . وبما أنى كنت عنده فى طليعة هؤلاء فقد نعمت بومضاته واشراقاته وعرفته عن قرب وأحسست نحوه بعطف وحنان ومودة . وذلك أنى كنت اعتبره مظلوماً من قبل الاساتذة والتلاميذ على السواء إذ ليس من بينهم من اهتم بأمره كبير اهتمام أو حاول أن ينفذ إلى خفايا نفسه ليجتلى ما فيها بعض اجتلاء . وبالرغم من أنى حاولت ذلك ولم أظفر بطائل يذكر ، إلا أن شيئاً غامضاً فيه هو أقرب للبراءة من الخبث كان يجتذ بنى إليه اجتذاباً ، فأوليه شيئاً غير قليل من الاهتمام . ولست أرتاب فى أنه كان واثقاً من حسن نواياى تلقاءه ، إلا أنه كان مقتصداً فى ابداء مشاعره أشد الاقتصاد . وربما كان السبب فى ذلك هو شعور منه خفى بالاعتزاز ، أو هو احساس غائر بأن البوح بما فى

نفسه قد يعرضه لشئ من الصغار أو الهوان أو الزراية . وقد نفعه صمته وبعده وعزلته عن الناس أيما نفع .. وذلك فى صبيحة «العلقة» التى تعرض لها الاستاذ الحاج هاشم فى دار الرياضة . فقد كان زين العابدين واحداً من القلائل الذين سلموا فى ذلك اليوم من لسان الاستاذ الحاج هاشم ويده ، لأن مظهره « المسكين » أقنع الاستاذ بأنه برئ مما نسب للآخرين من شهود المثلبة التى حلت به أو الفرح بها ، ولأن تقاطيع وجهه لم تكن تنبئ عن شئ من ذلك ، فكان هذا سبب نجاته ، رغم أن الاستاذ الحاج كان فى بعض الأحايين يعتبر « المسكنة » وخلو صفحة الوجه من أي معنى من المعانى جريمة فى حد ذاته يستحق مرتكبها أشد العذاب ، وسنرى أن ذلك كذلك حينما نذكر بالخير ان شاء الله الصديق محمد عبدالله الشيخ . وقد صرح الاستاذ الحاج فى احدى حالات هدوئه النادرة أن زين العابدين ولد «مسكين» بالفعل ، وإن كنا لم نتبين بوضوح ان كان ذلك مدحاً أو ذماً فى حقه . ولكن محمد العوض – الذى تعود الأ يترك احداً وشأنه ينعم بنعمة أو يأسى لنقمة – أطلق على زين العابدين تعبير «المسكين ضقل» . ومعلوم أن هذا المثل الشعبى – وهو جملة مفيدة من اسم وخبر لا يعترف الناس عامة في نطقهم لها بالضمة وانما يقفون على كل من الكلمتين على السكون المريح – إنما يقال فى معرض اللوم على عدم الاهتمام ، لأنك لا تعرف «الضقل» ولا تراه إلا أذا «عترت » عليه وارتطمت به قدمك فادماها . ولكنى على يقين من أن محمد العوض لم يكن يرمي الى هذا المعنى الاول وانما كان يعنى الاثر الذى تحدثه هذه « العترة » ، وهو الايذاء ! ولكنه كعادته ولحدة ذكائه وخبثه يطلق القول الذى يمكن أن يحمل اكثر من معنى ، ويريد به المعنى الذى يريده .

لقد افترقنا بعد انقضاء ايام ام درمان الاميرية الحافلات بالمباهج والمنى ، ولم أر زين العابدين منذ ذلك الوقت فقد ذهب كل منا إلى شأنه . وقد سألت عنه الصديق القديم مكى برعى منذ أشهر قلائل فلم ألق من خبره عنده شيئاً . ولقد كنت تنبأت لزين العابدين أن يصبح فناناً وموسيقاراً أو لاعباً بارزاً فى مجال كرة القدم أو معلماً شديد

العناية والاهتمام بتلامذته .. غير انى لم أسمع عنه شيئا ، وأنا أمل أن يكون بخير وعلى خير ، فقد كان صديقاً عزيزاً بحق .

الفنان الموهوب :

ذلك هو محمد عبدالله الشيخ . ومحمد هذا تلميذ وديع سمح الخلال ، لا يدخل أنفه فيما لا يعنيه ابداً ولا يؤذى أحداً ولا يغتاب الناس ولا يطلق لسانه فيهم كما كان يفعل كثير من التلاميذ العفاريت الذين أوتوا السنة حداداً يسلقون بها أقرانهم واساتذتهم على السواء . غير أنها لم تكن «غيبة» تهدف إلى الايذاء بقدر ما كانت عبث طفولة مرسل ينبئ عن البرءاة والرغبة فى تمضية الوقت بما يسلى ويضحك إذهاباً للضجر وابقاء على المرح «وتفريقاً » للهموم عن النفوس وهى قد تلم بها إلماماً أو فى تتابع . حتى عن مثل هذه « الغيبة » البرئية فقد عف لسان محمد عبدالله الشيخ ، فحفظه بين فكيه لا ينبس هجراً ولا ينطق فحشاً ولا ينال به من أحد ولا يتندر عليه . فهو تلميذ مهذب بحق أحسب أنه لم يكن يعرف غير المدرسة وحى ود البنا الذى يقطنه ، والذى يأتي منه فى كل صباح إلى المدرسة سائراً فى أغلب أحيانه على قدميه ، عاطفاً عند بلوغه محطة ود اورو إلى جهة اليسار ، يجتاز مرابض القبانية وآل و صفى ، سالكاً بعد ذلك تخوم « الصور» حتى يفضى به سيره المسرع الحثيث إلى ما وراء مستشفى ام درمان ، فيغيب مع غيره فى تلك المنعطفات والسبل التى تتلوى من خلف المستشفى ، لينفذ إلى الباب الشرقى لمدرسة ام درمان الاميرية فيلجها حامداً لربه شاكراً نعمه . ثم يعود القهقرى فى نهاية يومه الدراسى فيذرع تلك المفاوز مرة أخرى حتى يصل إلى داره ويبلغ مأمنه فى حى ود البنا . وفى بعض الأحايين عندما يفئ الله برزق معلوم فانه يمتع نفسه بركوب الترام . وذلك أن محطة ود البنا معلم بارز فى ام درمان غير أن الترام أحياناً يتهادى عندها تهادياً ويبطئ ابطاء ، دون أن يقف تماماً .. وذلك عندما تكون رحابه وجنباته وسلاله غاصة بالركاب ملأى « بالمتشعبطين » ، فينتهز محمد فرصة ابطاء المركبة السحرية ليقفز إلى داخل « عربة » الدرجة الثانية ويده فى

جيبه تفصل فى شئ من الاضطراب والعصبية بين تعريفة الطرماج وقرش الفطور إذا أحدق به الكمسارى أو اذا أبصر هو « المفتش » ذا البردلوية الكاكى والبرنيطة التى تجسد السلطان والجبروت . وقد يقف الطرمـــاج فى المحطة قليلاً ولذلك سموهـــا « سندة » تمييزاً لها عن « المحطة » التى عادة ما يكون المنتظرون على رصيفها أمة من الناس وعادة ما يحترمها سائق الطرماج بايقاف المركبة عندها تماماً ولدقائق معدودة حتى ينزل منه من بلغ بغيته من ركابه ويصعد إلى داخله ويقر فى كنباته من كان له فضل السبق فى الانتظار . وكمسارى الطرماج لا يعرف محمد عبدالله الشيخ بالطبع ، ولا يعرف غيره من التلاميذ ، لأن دفتر التذاكر الذى يتدلى من عنقه يعلن للملأ أن السفر على هذه المركبات يحتاج إلى تذكرة ، والتذكرة تحتاج إلى تعريفة ، والحصول على التعريفة بجانب قرش الفطور يحتاج أحيانا إلى اقناع الأب أو الام بجدوى مثل هذا الانفاق ومبررات مثل هذا السرف فى وجه البديل المنطقى الذى لا يكلف شططا ولا ينتهب الجيب ولا « المحفضة » .. وهو السير على القدمين جيئة وذهوباً . نعم فى بعض الأحايين يتهرب التلاميذ وغيرهم من دفع التعريفة الاجرة ، رغم أن مظهر الكمسارى بسترته وسراويله الكاكى يذكر بوجود السلطان واحداقه بك من كل جانب ، فلا يسعك إلا أن تهرب من عربة إلى أخرى فى داخل سلسلة المركبات التى تشكل هيئة الترام . وربما غضَّ الكمسارى عنك النظر اذا رأى علامات الضيق والحير ة والفرق بادية عليك وخاصة اذا كان هو عم خضر أو شخصاً آخر من اولئك النفر الطيبين الذين يشى مظهرهم بالرحمة وتنطق وجوههم بالعطف . أما إذا كان من النوع الصارم الذى لا يجامل فى مثل هذه « المقدسات » فاعلم أنه قد أحيط بك ، لأنه لا يدعك تفلت من قبضته وان أوتيت أعظم فنون المرواغة ورزقت موهبة اصطناع ابرع أنواع الحيل ، وخاصة إذا حملك حظك التعس إلى داخل « طرماج » صعد إليه المفتش ؛ لأن المفتش – و هو أيضا يرتدى السترة والسراويل الكاكى ويفضل الكمسارى بارتداء البرنيطة على رأسه دائماً – يصبح هو السلطة المطلقة العليا فى دنيا تلك المركبات . والكمسارى

يحرص عند وجود المفتش علي ظهر المركبة أن يبرهن له عن أقصى درجات الكفاءة وأعلى مراقى الانضباط . لذلك تجرى ملا حقتك من عربة إلى أخرى . فان كنت من الضعفاء الذين لا يرون حيلة ولايجدون ما ينفقون سألت الله أن تهدأ مسيرة الترام حتى يمكنك النزول على الارض بسلام قبل أن تبلغ المحطة القادمة ، نجاة بنفسك من الكمسارى والمفتش الذين يكادان أن يمسكا بتلابيبك ليخمدا أنفاسك . وان كنت من القنادف الواقعين من السماء مائة مرة أو تزيد فلن يعجزك أن تهبط إلى الأرض والترام يسير بأقصى سرعته . فان فعلت فلابد لك - مهما كنت «مدردحاً» وخبيراً بهذه الامور - من أن تعثر « وتتتعتع » « وتترتع » حتى يثبتك الله على الأرض أو تسقط عليها ثم تنهض مرة أخرى وقد تشتتت كراساتك وكتبك وجميع محتويات شنطة المدرسة واتسخت ملابسك وطارت عمامتك ، وكاد أن يطأك حصان « الكارو » بحوافره الصلبة وهو يعدو على شارع الظلط وقد الهبت ظهره السياط . فاذا سلمك الله واستويت قائماً جمعت أشتاتك ونفضت عن وجهك ويديك وملابسك الغبار « والعفار» واكملت المشوار سيراً على قدميك وأنت تلعن فى سريرتك - وربما فى علانية - كل من أفسدوا على الناس حياتهم بتعيين مفتش للتذاكر فى الطرماج . ألم يكن فى الكمسارى وحده ارهاب كاف للناس ؟ فما بالهم يضاعفون الفزع على خلق الله باضافة مفتش يحصى عليهم أنفاسهم حينما يطلب من الركاب ابراز التذاكر ، فيتضح أمر من لا يحمل تذكرة ويضطر للنزول فى أحرج الأوقات ؟ ورغم أن بعض « القنادف » قد برعوا فى فنون النزول « عكس » فى كل الكشات ، بما فى ذلك كشة العصاصير وكشة السوق وكشة الكلية ، بل وكشة « الظبطية » وسبيل سلاطين أيضاً إلا أن محمد عبدالله الشيخ لم يكن واحداً من هؤلاء القنادف بحال من الأحوال ، بل كان فتىً وديعاً مسالماً لا يدخل نفسه فى مثل هذه المآزق و« المطبات » ، واذا حدث أن أدخله فيها بعض زملائه ثم أحاط به الكمسارى والمفتش فانه - ان لم يكن يصطحب معه التعريفة الاضافية مع قرش الفطور وقليلاً ما يكون ذلك - يدفع من قرش الفطور ثم يقنع نفسه بنصف

«عيش» من عم محمدين فى المدرسة بالتعريفة المتبقية ، « يقرضه » دون فول أو طعمية ويتبع ذلك بكوز ماء من احد أزيار المدرسة ، ولله الحمد والمنة فقد كان نصف الرغيفة المستديرة كافياً مع ماء التيبار لسد الرمق ودفع غائلة الطوى . ومحمد عبدالله الشيخ تلميذ متواضع جداً كثير الابتسام ميال إلى الصمت والهدوء ، فى فناء المدرسة وسط زملائه عموماً وفى الفصل أثناء الدرس على وجه الخصوص . لم يكن متطلعاً لنيل الدرجات العلا فى العلوم الشتى ، ولا تواقاً للظهور بمظهو الشطارة « والحداقة » والعبقرية ، ناهيك عن « التقفيل » ، وهو من مفردات لغة تلاميذ اليوم ويعنى عندهم الحصول على « النمرة الكاملة » فى المادة المعينة . ومثل هذا الحصول لم يكن متاحاً على أيامنا بحال وإن أتيت بمالم يستطعه الاوائل ، ولذلك لم تجد هذه الكلمة بهذا المعنى مكاناً لها فى قاموس مفردات تلك الأيام الخالية ، كان محمد عبدالله الشيخ تلميذاً قنوعاً عارفاً بحدود ما يمكن ومتاهات ما لايمكن ، متواضعاً جم التواضع حيياً موفور الادب والحياء ، وهو لم يكن يدعى شيئاً مما ليست تبلغه ملكاته ومقدراته ، بل هو قانع طيب النفس بما يرزقه الله به من نتيجة . ولكن ، من يقنع الديك بأنك لست حبة قمح ؟ ولذلك تعرض محمد الهادئ المهذب المؤدب لعذابات شتى وشقاءات ضروباً . فهو لم يكن ينجو من بطش الاستاذ الحاج هاشم على وجه الخصوص، وهو قد تحمل فى هدوء وسكينة ورضا فورات الاستاذ السراج ، ولسعات لسان الشيخ يوسف الخليفة وصفعات الشيخ ابي بكر الماحقة التى لا يجدى معها أدب وتهذيب ولا يراخى من شدتها حياء ولا يعصم من لأوائها وخشونتها حسن سمت ولا كرم خلائق . وهى لا تقف عند الايذاء الجسدى لتكف عنك بانزاله عليك بعض شرورها ... فانها ان فعلت لصح قول من قال : حنانيك بعض الشرأهون من بعض . ولكنها تتجاوز ذلك إلى ما هو أنكى منه وأبلغ من الايذاء المعنوى ، فينتهى المطاف بالتلميذ محمد عبدالله الشيخ – مثل كثير من زملائه – إلى « صفر من اطناشر » « وهؤلاء قليلو الأدب » . والله يعلم أن محمد عبدالله الشيخ كان من القلائل الذين يسيلون رقة وأدباً. ثم هو أيضاً ينتهى

– كفيره – فى نهاية يومه الدراسى إلى دفتر عم مبارك وكنبة عم مبارك وسوط عم مبارك .. الذى لا يفرق بين مهذب وغير مهذب ، ولابين مؤدب وعفريت ، ولابين ملاك وشيطان رجيم . على أن محمداً كان يمتاز على جميع أقرانه بموهبة فنية عالية ، فهو رسام ممتاز ومصور مبدع يجيد رسم مختلف الأشكال والهيئات على الورق بقلم الرصاص أروع إجادة ، ولم يكن أحد منا يضاهيه فى هذا المضمار أبداً . له قلم فنان وأنامل فنان وأحاسيس فنان ووجدان فنان . كراساته انيقة « مجلدة » ورسوماته دقيقة معبرة ملأى بالحياة والمعانى ، وخطوطه وظلاله ثابتة راكزة وقوية موحية باقتدار مبكر ومواهب كثر زاخرات . ومن سوء حظه كان الفن عموماً والرسم على وجه الخصوص أموراً لا يحفل بها كثيراً فى تلك الايام . وآية ذلك أن الاستاذ الحاج هاشم جاء إلى فصلنا فى يوم من الأيام وطلب منا أن نرسم اىَّ اشكال نريد . وقد كنت واحداً من الذين اسقط فى ايديهم . فلا معرفة لى بالرسم ولا موهبة لى فى هذه العوالم . ولذلك بلغ منى الفزع مبلغاً عظيماً وايقنت – مثل كثيرين غيرى ممن لم يرزقهم الله شيئاً من هذه الملكة العظيمة الآسرة – أنى على موعد مع عم مبارك فى نهاية اليوم الدراسى على احسن الفروض . ومر الاستاذ بعد قليل على كل تلميذ ورغم أن كلاً منا كانت دقات قلبه قد جاوزت كل الحدود التى تؤذن بالبقاء على قيد الحياة إلا أنا عجبنا كثيراً كيف تخطانا الاستاذ دون أن يعلق مجرد تعليق على الرسم « العواليق » الذى سودنا به نواصع الصفحات . ولكنه وقف امام محمد عبدالله الشيخ وسأله : ما هذا الذى رسمت ؟ وكان محمد قد رسم فانوساً لو اشعلت قبالته عود ثقاب لا تَّقد وأفاض بالنور والضياء . ولكن الاستاذ قال له ألم تعلم أنى قلت فى سريرتى : الويل لمن يرسم فانوساً اليوم ؟ ثم انهال عليه ضرباً وشتماً وتقريعاً حتى أوسعه كرب العذاب . ولم نعلم لذلك اىَّ سبب مقنع أو حتى غير مقنع غير رغبته الجامحة فى انزال عقوبة غير مستحقة على هذا التلميذ الهادئ المهذب الذى أبدع فى الرسم وأجاد . ورغم أننا اسفنا اشد الأسف لما صار اليه امر محمد عبدالله الشيخ على يد الاستاذ الحاج هاشم ، وتعاطفنا معه

أصدق تعاطف ، إلا أننا – فى تلك اللحظة الحرجة – قد حمد كل منا ربه على سلا مته ، وشكر ربه فى سريرته على النجاة ، مع علمنا اليقينى أن محمد عبدالله الشيخ كان فى الحقيقة هو التلميذ الوحيد الذى يستحق النجاة ، بل يستحق الاشادة على روعة ما صور قلمه ودقة مارسمت أنامله . وظلت الحيرة من هذا الحدث ملازمة لنا لم تفارقنا حتى فارقنا ام درمان الاميرية . وحتى الصقور من اولاد فصلنا قد بلغ منهم الغضب على الاستاذ مبلغاً عظيماً ، وتوافدوا على محمد عبدالله الشيخ فى الفسحة يواسونه ويرفعون من معنوياتهوقد هالهم ما حل به من ظلم فادح وأذى بليغ وهو الفنان الذى يبدع بريشته وانامله ورقة حواشيه ورفيع ذوقه أبهى صور الجمال . ولكن ، من منا يستطيع أن يقول للاستاذ الحاج هاشم : البغلة فى الابريق وان كانت هذه البغلة فى الابريق بالفعل ؟ ومن من التلاميذ يستطيع أن يطلع على الغيوب وسرائر الناس حتى يلم بسريرة الاستاذ الحاج هاشم ويعلم أنها انطوت على الوعيد والعذاب والثبور لكل من تسول له نفسه ان يرسم فانوساً حتى وان كان المطلوب المعلن هو رسم ايّ شكل من الأشكال ؟ وهكذا حيف على محمد عبدالله الشيخ حتى فى المادة التى كان يجيدها أيما اجادة يشهد له بالنبوغ فيها كل أحد.

والظلم من شيم النفوس فان تجد .'. ذا عفة فلعـــلة لايظلـــــم

واذا كان هذا هو شأن الرسم فى تلك الايام ، لايؤبه به ولا يلقى النابغون فيه جليل اهتمام ، فان الانجليزى والحساب والعربى والجغرافيا وغيرها من العلوم كانت هى الخيول الرابحة والتى عليها الرهان وفى مداها ترتسم ابعاد أشواط السباق . ولسبب مالم يؤت محمد عبدالله الشيخ سعة ولا بسطة فى مثل هذه الامور . أو لعله – وعندى هذا هو الأصح – لم يحفل بها احتفاله بالرسم والفنون ، ولم يعن بها عنايته بهما ، لأن محمداً كان تلميذاً رقيقاً سمحاً عذب الروح حلو المعشر ذكى الفؤاد . فماذا يفعل من كان فى رقته وعبق روحه بالكسور العشرية وتحويلها إلى كسور عادية ؟ وبالزوايا القائمة وغير القائمة المنفرجة منها والحادة ؟ وبمحيط الدائرة وأهمية مربع نصف

قطرها وعلاقته بنسبة « پای » ومحل الاثنين وعشرين من كل ذلك السخف الحسابى الممل ؟ ماذا يفعل بمعرفة مناطق السافنا وقمم الجبال التى تغطيها الثلوج ؟ وماذا يفيد من معرفته لأنهار العالم وطول كل منها ، ومدى اعماق المحيطات وما هو كامن فى اعماقها مما يعلم الاً وسيلة له ولا رغبة له فى الوصول إليه والوقوف على حقيقة أمره ؟ وما هو الخير الذى يمكن أن يجنيه من معرفة القطب الشمالى والاسكيمو والدب الذى يتهادى بين تلك الثلوج والنمر أو الاسد أو المرفعين الذى يتخذ من الغابات الاستوائية ملاذاً ومرتعاً ومقيلاً ؟ وماذا يفيد من معرفة صحارى العالم وقنن جباله وقيعان وديانه ؟ وهو الذى لم يعرف فى حياته غير حى ود البنا ومدرسة امدرمان الاميرية الوسطى ، وشذرات من التاريخ الذى يروى فتلتقطه اذناه ، والذى انطبقت آثاره على اسماء الأحياء المختلفة فى مدينة ام درمان حتى صارت تجسيداً حياً لهذا التاريخ ، مما يروى غلة المعرفة بعض الشئ وينفض عن الفكر والذاكرة غبار الجهالات و ينجى من الحرج إذا دعا الداعى واجبر الانسان على الخوض فى مثل هذه الامور . أما الرسم ، أما الابداع فهو وليد الروح الطليقة المحلقة فى أجواء الحرية ، المتأملة فى عظمة القدرة الالهية وجلالها وإعجازها ... إنه وليد الوجدان الصافى والاحساس المرهف والشفافية التى تميط الحجب وتهدى إلى ما وراء الغيوب . ولو أن محمداً الفنان الرسام قد وجد فى ذلك الزمان من يعنى بملكته الفريدة ومقدراته الخلاقة وموهبته النادرة الباهرة لأصبح له شأن اخر . ولست أدرى اليوم أين انتهى به المطاف ، فقد افترقنا منذ مغادرتنا لمدرسة ام درمان الاميرية الوسطى ولم ألقه بعد ذلك أبداً . ولكننى كلما ذكرت تلك الأيام غشيتنى نسائم تحمل أنفاساً من رقته وصوراً حساناً من ابداعه ، وحزنت كثيراً لأنه لم يجد فرصة مواتية لتطوير تلك المقدارات التى خصه بها الله وهباً خالصاً والتي كانت تنم عن ذكاء وقاد وتبشر بنبوغ واعد بعطاء جليل فى هذا المضمار . لقد كان محمد عبدالله الشيخ - على اقل تقدير- فناناً موهوباً.

عباس صالح .. والانعتاق :

ينتمي التلميذ عباس صالح موسى إلى مجموعة اولاد الموردة في الفصل خاصة وفي المدرسة عموماً وهو انتماء سكني وجهوي وعقائدي ، وان لم يغال عباس في تشيعه لفريق الموردة بما يخرجه عن حدود الاعتدال كثيراً. وذلك لأن عباساً كان حريصاً على تحسين صلاته بالاخرين من ذوي المشارب الكروية الأخرى . فعندما يتغلب فريق الموردة على فريق الهلال مثلاً فان عباساً لا يشارك في « زفة » أولاد الموردة الذين يتجمعون في فناء المدرسة يهتفون بحياة فريق الموردة ونجومه اللألاءة : ترنة ودرار والصافي والجاك وغيرهم ، ويسخرون من فريق الهلال . وهذا أمر يؤدي في كثير من الاحيان إلى احتكاكات بين التلاميذ وقد تنتج عنه صدامات بن طائفتي مشجعي الفريقين منهم . وفي مثل هذه الحالات التي تضع الغرماء والفرقاء على حافة الشجار أو تتخطاها إلى العراك الصريح يكون عباس صالح حذراً شديد الحيطة لا يغمس نفسه في النزاع ليدفع بالموقف إلى حافة الخطورة وما بعدها ، ولا هو يحاول أن يتداركه بنوع من التدخل قد يخفف حدة الصراع أو يقضي على اسبابه ، ولكنه يرقب الموقف من بعد لعله يرى دروب السلامة ويقف على مواطن الغلبة فلا يلقى عنتاً ولا يخالط شططا ولا رهقاً .ولكنه ربما أسر لبعض أقرانه من الهلالاب – تقية منه ودرءاً للخطوب – أنه معجب بالدرديري باك الهلال وعثمان البنا وشقيقه النور (كبرَى) وحامد منزول وكذلك الشاويش جمعة ! فهو يضع سيفه مع معاوية ويبقى احاسيسه ومشاعره مع علي ! وماذلك إلا لصفاء ذهنه الذي ينبئه بحقيقة العواقب وصحة أقوى الاحتمالات ، وما يمكن أن يسفر عنه التشيع الصريح المغالي لفريق الموردة ويحمله عليه من تصرفات يمكن أن توغر عليه صدور الصقور في الفصل – عبد الكريم ومكي ومحجوب والكبتل . ولا قبل لعباس صالح ببأس هؤلاء ان اجتمعت كلمتهم على الثأر منه ، خاصة وهو لا يثق كثيراً بسرعة نجدة المورداب ان زلت به قدمهُ وأحاطت به خطيئته في نظر هؤلاء الصقور . وذلك لأن المورداب لم يكونوا راضين أصلاً عن مواقفه الرخوة المتهاونة في مثل هذه القضايا العقائدية . ولقد أنفق عباس صالح دهراً يشترى

ود هؤلاء بالكلمة الطيبة ويتحاشى بأس أولئك بالفطنة والتغافل والتماس الأعذار والمبررات .

وعباس صالح تلميذ فارع الطول بالنسبة لكثير من أقرانه ، ولكنه ناحل الجسم لا تؤهله بنية جسده لخوض غمارالشدائد . وهو تلميذ لين العريكة خفيف الروح ميال إلى الهزل يعجبه الضحك وتستبيه الدعابة ، ولكنه محاذر لا يغامر ولا يدخل معتركاً إن وجد إلى اجتنابه سبيلاً . وهو يفضل الجلوس فى المقاعد الخلفية من الفصل ، غير بعيد من مرابض الصقور ، وغالباً ما يكون قريباً من مكى ومحجوب . وقد يكون ذلك رغبة منه صادقة وذكية فى الاقتراب من أولى البأس وابتياع مودتهم بالمجاورة واقامة أطيب العلائق ، وقد يكون ذلك فى الوقت ذاته ابتعاداً عن أعين الأساتذة الفاحصة حتى لا يشقى منهم بكثرة الأسئلة التى تصعب الاجابة عليها وربما تستحيل .. فينتج عن ذلك عذاب جسدى ومعنوى يخشى عباس على جسمه الناحل وروحه الطلقة المراحة من مغبة اثاره وعواقبه . وفى مقدمة هؤلاء الاساتذة الذين يكادون يخترقونك بنظراتهم النافذة الاستاذ غزالى السراج والاستاذ السبكى الجزولى والاستاذ فرح . فقد كان من مواهبهم اسئلة الفجاءة والأخذ على حين غرة ، وهى أمور لايفلح معها إلا من وضعها فى الحسبان واستعد لها أحسن استعداد . ومن عجب أن عباس صالح لم يكن تلميذاًمهملاً وانما كان مجداً يحاول أن يعد لكل شئ عدته ولكنه ليس بثبت الجنانً عند المباغتة ولا بحصين اللب عند المفاجأة ، وانما تطير نفسه شعاعاً اذا المَّ به وأدركه حال لم يكن فى حسبانه . وهو يجلس بالقرب من نافذة الفصل التى تطل على الجهة الشمالية من فناء المدرسة . ولعله كان يمنى نفسه فى أعمق أغوارها بأن الجلوس بقرب النافذة ليس هو لمجرد الالتذاذ بالهواء النقى المتجدد فحسب ، وإنما هو يشكل ايضاً نوعاً من انواع طوق النجاة إذا ادلهمَّ بالتلاميذ خطب واحاطت بهم نذر مكروه - كما كان يحدث ابان فورات الشيخ ابى بكر العاصفة - وعزت عليهم منافذ الهرب . على أن عباساً بالرغم من اختياره لهذا الموقع لجلوسه فى الفصل لم يكن ليجرأ يوماً على

استخدام ذلك المنفذ « الاضطرارى » نجاة بجلده ، لأنه يعلم علم اليقين الاً مهرب من عقاب الاستاذ اذا حل به سخطه ، وأن يد المدرسة طويلة ، وهى قادرة على اعادته حتى وان أطلق ساقيه للريح وبلغ داره وهو آمن . فقد كان أولياء الامور متعاونين مع سلطات المدرسة أشد تعاون ، وليس من سبيل للافلات من شقى الرحى حتى ولو أوتيت حوافر فرس امرئ القيس وكان لك أيطلا ظبى وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل ! ولذلك قنع عباس صالح بالخلود إلى الجلوس فى هدوء هش مصطنع ، ينبئ عن حقيقته ارتجاف لاتخطئه عين ، يتحول إلى استعطاف علنى إذا أوشكت صفعات الاستاذ أن تنهال عليه ، وساعتها تختلط الاستغاثة بالجزع .. يافندى عليك الله ، يافندى خلينى ، وليس ذلك بمصرخ لعباس او لغيره من التلاميذ ، لأن « الباقى باقى » « والزارعو الله فى شارع الظلط بقوم » كما يقول عبد الكريم .

كان عباس صالح تلميذاً مجتهداً حسن الفهم موفور العقل . ولكن ، من منا لا تخونه ذاكرته ، خاصة إذا ووجه بأستاذ يبدؤه بالسخرية والتقريع والاستهانة ، ويفاجئه بما لم يجل فى خاطره أو يكن فى حسبانه ، ثم يستنجزه الاجابة الصحيحة دون إبطاء ؟ فى مثل هذه المباغتات يطير القول الصواب من خلايا الدماغ وان كان مخالطاً لها قبل هنيهة ، وتنمحى الحكمة من صفحات الذاكرة وان كانت منقوشة عليها قبل لحظة ، وتجتهض المفاجئة ما فى أرحام الخواطر وان كانت حبلى به منذ حين . فيّغان على القلب ، ويسود سلطان النسيان ، وتتعثر فى خضمه المباغت الكلمات ، ويستحيل النطق إلى سلسلة مبهمة المقاطع من التلعثم والتلكؤ والهذرمة ، فتخرج الاجابة – على أحسن أحوالها – مبتورة منقوصة مقصرة عما يتطلبه الموقف ويبتغيه السائل ... ثم تحل اللعنة الاستاذية الغاشمة علي التلميذ « المسكين » فيتلقى من استاذه ماكان يخشاه من قادح الكلام وقارح اللطم ، حتى إذا قضى من تلك العقوبة وطراً أثبت اسم التلميذ فى الدفتر المعلوم فلم يكن له بد من تصفية حسابه مع عم مبارك فى نهاية ذلك اليوم الحزين ! على أن جزع عباس كان له ما يبرره ، فهو تلميذ وديع أصلاً مسالم

بطبعه ، وهو مجد يبذل جهده من أجل اجادة التحصيل وفى سبيل ارضاء الاساتذة . يحاول ملاحقة المستعصيات من الدروس والعلوم بكل ما أوتى من صبر وقوة ارادة ومقدرة على الاستذكار والحفظ والاستظهار ، ثم هو يواجه بسؤال لم يخطر له على بال يلبس عليه أمره « ويتعتعه » تعتعة لا ينفك منها . فمن أين له بالصواب ليدفع به غائلة ما يمكن أن يترتب على مجانبته ؟ ولكن هذه « الورطات » لم تكن تفت فى عضد عباس وهى لم تفقده الثقة فى مقدراته الذهنية ولا فى سلامة مقاصد أساتذته . وذلك لأنه أدرك بتجربته الذاتية وبالبرهان القاطع أن الاجابات الصحيحة على كل الاسئلة المضنية لا تكون إلا ثمرة جنية لمزيد من الاجتهاد والتحصيل واعادة الكرة مراراً بغية الالمام بالمعارف المبتغاة . ورغم أن مثل هذه الاسئلة الصعبة كانت تعتبر فى نظرتنا السطحية لها تجسيداً ظاهراً لجور الاساتذة وظلمهم ، إلا أنها كانت تشتمل فى حقيقتها وصدق مراميها على حكمة بالغة أدركها ذلك الجيل فيما تعاقب عليه من أزمان ، إذ كان المقصود منها الاَّ يقتصر جهد التلميذ على استذكار ما يلقى على مسامعه من دروس فى الفصل ، وانما يجب أن يتعداه إلى آفاق أرحب ، فيتعود على القراءة والاطلاع ويتعشقهما ، ليوسع ذلك من مداركه ويثرى معارفه وينمى فيه قوة الخيال المستبصر واتساع رقعته ، ويغرس فى نفسه حب التعلم والاستزادة من الثقافة والعلوم والنزوع الواعى إلى اجتلاء حقائق الأشياء . وليس أدلَّ على ذلك من مطالبة الاساتذة لنا بحفظ كثير من القصائد الشعرية التى لم تكن تتلى فى الفصل والقيام بتمثيل كثير من الروايات التى لم يكن يجرى تدريس نصوصها بين الجدران ، و تحرير صحف الحائط بما يمكن أن يفيئه الله على التلميذ الصغير من المعارف وادوات التعبير . فكان المطلوب من بعد اتقان الدروس التى تدرس فى الفصل والاحاطة بها هو الإلمام أيضاً بكنوز المعرفة التى تستحق أن تجتلى والتى يمكن أن تستوعبها مقدرات التلميذ . وكان اكثر ما يُزعج عباساً إذا رأى عم عبدالعزيز وعم محمود أو عم جادين وعم شيخ ادريس وكل منهم يرتدى البردلوبة والبنطلون الكاكى ويضع على رأسه عمامة

احكم ربطها وكأنه استدعى من توه لجهاد الأعداء ! فاذا دخل عم محمود وعم عبد العزيز – أو احدهما مع عم جادين – إلى عرصات الفصل من وراء الاستاذ ، فذلك يومئذ يوم عسير من أيام الشؤم التى يطول مداها فلا تكاد تنتهى إلا « بخراج الروح » . فدخولهما للفصل هو واحد من أهم العوامل التى تطيح بالثبات وتخلخل العزائم وتضوى العقول والاجسام . فاذا كان الداخل قبلهما هو الاستاذ محمود بلال رزق ناظر المدرسة فذلك هو الطوفان بعينه ، ولا سبيل معه إلى ولوج سفينة النجاة وركوبها إلا لمن رضى عنه الاستاذ ، ومارضى إلا عن قليل . وحتى القليل الذين ربما رضى عنهم الاستاذ هم فى دخيلة انفسهم نهب للفزع وافئدتهم هواء ، تراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ، وتحسبهم متماسكين وهم فى حقيقتهم شظايا متفرقات وشتات متناثر ... حتى يجمعه الله القادر على تسوية البنان حينما تستنقذهم من الخطر المحدق صلصلة الجرس وهى تعلن نهاية الحصة ومعها انتهاء العذاب . ولعله من المفارقات العجيبة أن يكون الجرس الذى يجلجل فى يد عم مبارك هو المنقذ من العذاب فى الوقت الذى يعلن فيه دفتر عم مبارك الذى يحمله فى يده الأخرى فى صمته الكئيب : وما نوخره إلا لوقت معلوم ! فاعجب لرجل جمع سلطانه بين الإنجاء والتطويق ... جرسه الذى يقرعه بين الحصص فيه نجاة من عذابات بعض تلك الحصص . وجرسه الذى يقرعه فى نهاية الحصة الأخيرة انما هو نداء لا يرضىً بما دون الاستجابة الفورية ، وهو دعوة صريحة للمثول أمامه فى نهاية المطاف .. مالك من ذلك من محيص . وما أ ندر ما كان مثل هذا المثول ينتهى بسلام ! وفى الحقيقة لم يكن ظهور عم عبد العزيز وعم محمود (أو عم جادين) فى الفصل أمراً كثير الحدوث ، وان كان حتى الالتقاء بهما فى صحن المدرسة مثيراً للرعب داعياً للريبة باعثاً على استصحاب الحذر وتفادى الاقتراب . فاذا أبصرهما عباس فى الفصل ارتج عليه من كل جانب وأخذ منه الفزع كل مأخذ وبلغ به الجزع مبلغاً . وغالباً ما ينتهى به الامر إلى عين ما يخشى ويحاذر .. فاذا هو محمول بعد قليل بينهما ، عم محمود يمسكه من يديه

وعم عبد العزيز يحكم قبضته على قدميه ليصير جسمه عائماً في الــهــواء ، و السوط (واحياناً البشمة) يهوى على عقبه في لسعات حرار متتابعة ، فلا يفيد الصراخ ولا يجدى العويل ولا ينفع الجزع .. حتى يبلغ الكتاب أجله . ولست أرتاب في أن عباس صالح – تماماً كغيره من زملائه التلاميذ – قد أوذى كثيراً من مثل هذه « البطحات » على الهواء ، ولكنه كان أذىً مؤقتاً ، وقد جنى ثمار مقاصد الاساتذة مزيداً من الجد والاجتهاد ومضاعفة العزيمة ، فحقق بذلك نصراً مؤزراً ونجاحاً مرموقاً ، ودخل مدرسة خور طقت الثانوية من اوسع ابوابها متفوقاً على كثير من زملائه ، وتأهل فيها وانشحذت همته وفطانته حتى صعد إلى مدارج جامعة الخرطوم وهو راض عن نفسه سعيد بأنه من أجل ذلك أشقاها . ولو أنه آنس تراخيا من أساتذته في مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى لتراخى في استذكار دروسه ، ولما بلغ من أمره ما بلغ . ونحن نذكر تلك الوقفات الصعبة وذلك التشديد الحازم من قبل الاساتذة بجلاء ووضوح ، ونسميه عذاباً وشقاءً من باب تسمية الأشياء بمسميات تلك العقول الصغيرة في تلك الازمنة الغابرة . ولكنه كان في الواقع اشقاءً قصير الأجل قصد من ورائه اسعاد طويل الامد ، وكان « عذاباً » يستصحب في متونه ومراميه اسباب الراحة والفوز ، إن كان في هذه الدنيا ما يصح أن يسمى فوزاً أو راحة ، وكانت تلك السياسة المتشددة في حقيقة أمرها ومقصدها سياسة حكيمة نافعة جنينا ثمارها كاملةً فيما بعد وأفدنا منها خيراً عميماً . فقد وهبت مراحل التعليم الاولية في تلك الازمنة بلادنا اعلاماً خالدين في مجال الادب والسياسة والتربية وشتى حقول النشاط المهنى . فان ذكرناها في هذه الصفحات وغيرها باسلوب تغلب عليه أحياناً روح السخرية ويصورها وكأنها كانت شراً مستطيراً وقدراً نكيراً ، فما ذلك إلا محاولة منا لتقليب ما كان ينطبع على الأذهان في ذلك الوقت على غير هيئة مقاصده الحقيقية وربما دون تبين واع لمراميه المرادة .

ولقد قدر لصلتي بعباس صالح أن تستمر وتطول .. وأن تثمر على مر الايام مودة متبادلة باقية ، فالتقينا مرة أخرى في رحاب مدرسة خور طقت الخالدة ، وعباس صالح

قد زاد طولاً وارتفاع قامة فبان جسمه أكثر نحافة مما كان عليه . وفارقه ذلك الجزع وفارقته هواجسه بعد أن أفاد من اسبابها وبواعثها انكباباً على التحصيل وثقة بالنفس وسعة فى المدارك أثمرت نجاحاً مظفراً صعد به إلى مراقى خور طقت الثانوية عن جدارة واستحقاق وفى يسر وطمأنينة . وبذلك فارق عم عبد العزيز وعم محمود وعم جادين والاستاذ محمود بلال رزق وغيرهم من « مهددات الأمن » النفسى إلى الأبد . واكتسب عقله وجسمه نمواً متزايداً وشعت على وجهه وحديثه ومسلكه مطالع النضوج وبواكير الرشد والسداد . لقد انعتق عباس من ربقة « الحداثة » التى كانت تغرى بعض اساتذته - وربما بعض « عواجيز » التلاميذ بالاستخفاف بشأنه والتعدى على حريته وإحصاء أنفاسه عليه . وحق له أن يفرح بهذا الانعتاق ، وحق لمحمد العوض الساخر أن يقول كلما أبصر عباس صالح وهو يلهو ويرتع فى تلك البقاع الخضر الحبيبة . « هذا هو الانعتاق .. لقد انعتق عباس صالح » ! ولقد صدق محمد العوض ، وان كنا لا ندرى من فرط ما ألفنا سخريته وتحويره للكلام أكان يعنى ما قال حقاً ام كان يرمى من وراء ذلك إلى التندر على عباس . وذلك أن محمد العوض ربما كان يعنى بهذا القول : « غاب ابو شنب ولعب أبو ضنب » ! وان عنى ذلك فهو حق أيضاً لأن الحرية التى أظلتنا فى خور طقت لم تكن لتتسع لأشناب وما كان التنعم برحابة آفاقها يحتاج إلى أذناب . فهى حرية حقيقية وجامعة فى إطارضوابط ترضاها النفس ولا يضيق بها الصدر ، وافت فتية أعلوا قيمها وأكبروا معانيها وجعلوا من مناخها المعافى غذاء طيباً للروح عذب المذاق ومشرباً هانئاً للفكر صافى الأديم . فكان عباس صالح من تلاميذ خور طقت البارزين . وله من مجموعة أولاد الموردة وزملاء ام درمان الاميرية السابقين عصبة لا بأس بها ، من بينهم محمد العوض مصطفى ومختار التوم وابراهيم محمد ابراهيم (ظعوط - الخواجة) والكبتل محمد عثمان ابراهيم ومحمد على مقبل ومصباح الصادق وعباس مدنى وطائفة أخرى من الفتية الميامين يضيق الحيز عن احصائهم فرداً فرداً. لقد لقى عباس صالح الأمان في خور طقت ، وزال عنه الضنك ،

وعاودته خفة روحه ولطائف دعاباته التى كانت قد رانت عليها أحزانه السالفة واجتاحتها - أو غطت عليها وغمرتها - صرامة الاساتذة فى المدرسة الوسطى ونزاعات الانتماءات السكنية والعقائد الكروية .. وما أن هبت على روحه نسمات الحرية الندية فى تلك الربوع الكردفانية الحالمة ، وما أن ولج ذلك المجتمع الطلابى الجديد الذى كان تجسيداً رائعاً للتنوع والائتلاف ، ومثالاً حياً نابضاً للوحدة فى اطار التباين ، حتى تفتقت عن أفوافها موهبته الساخرة وتفجرت مقدراته على ابتداع الطرائف والملح واتخاذ المواقف الباعثة للمرح والضحك والتسلية والعبث البرئ . فكان عباس صالح ومحمد على مقبل وعباس مدنى أبطالاً مرموقين من صناديد « الصفرة » فى خور طقت والصاد فى كلمة « الصفرة » تصحيف لحرف السين ، فالأصل هو « السفرة » وهى التى يؤكل عليها ، وسميت « سفرة » لأنها تبسط إذا أكل عليها . والتعبير يشمل المنضدة التى يوضع عليها الطعام ، وصار يشمل غرفة الطعام نفسها فتسمى « سفرة » ونقول فى العامية السودانية « صفرة » . كان عباس صالح وبرفقته أولئك الفتية الميامين صناديد « الصفرة » بحق ، يدركهم اخر قرع للجرس وهم بداخلها ، لايسبقهم - فى بعض الأحايين - إلى عرصاتها الامنة إلا أبطال آخرون صبر عند اللقاء وفى مقدمتهم الزعيم الطيب أحمد حميدة ومحمد عبد العزيز (أبو لاطومة) وحسين عبدالله (أبو الحسوس) وكوكبة اخرى من الجنود المجهولين ممن حسن بلاؤهم فى هذه المواقف وشهد لهم بالسابقة فيها كل من حكم بعين الانصاف وبصر العدالة . ولقد استمر افتتان عباس « بالصفرة » ومداومته على احراز قصب السبق إلى « ميسها » حتى دخولنا جامعة الخرطوم . وقد كان ذلك مدعاة للتساؤل المشروع الذى طرحه عليه عبد الحفيظ الرفاعى قائلاً : يا عباس ، ترى ماذا كتبت أنت فى استمارة التقديم إلى الجامعة؟ هل قدمت إلى كلية الاداب ام إلى « الصفرة » ؟ فما زاد عباس على أن ضحك ملء شدقيه ، ولم يجب بشئ . ولم يدر بخلد أحد منا أن يتصفح استمارات التقديم فى تلك الايام ، ولو أنا فعلنا ذلك لطرحنا أشباه هذه الاسئلة على

رهط كريم من زملائنا كان لبعضهم حضور دائم فى قهوة عم خوجلى صالحين ، ولغيرهم مثله فى دار الاتحاد ، ولآخرين أبلغ منه فى « خباز » « وشناكة » وأمثالها ! غير أن شأن الجامعة شأن آخر وربما تناولناه فى غير هذا الملف ان كان فى العمر بقية ، والله هو المستعان والموفق لاسواه .

ومن دلائل الانعتاق الذى اصابه عباس وحظى به فى خور طقت ولعه بالتصوير الفوتوغرافى . فقد كانت الكاميرا (Pinhole) فى تلك الأيام الرخية لا تكلف اكثر من مائة وخمسين قرشاً . وكانت رحلات التلاميذ مع مستر ودول (Woodall) استاذ الجغرافيا أحداثاً تستحق التسجيل . وقد برع عباس صالح فى هذه الفنون واحتفظ بلقطات نادرة هى اليوم عنده وعند بعض زملائه كتاب يتلى واجنحة خضر تمخر بك عباب المدى وفضاء السنين عوداً الى أيام الصبا الحالمة المراحة ومراتع اللهو البهية النضيرة . فاذا تأملتها أعادت إلى مخيلتك جميع الأحداث التى عشتها وانت فى ميعة الصبا وغمرتك بحنان طالما افتقدته وضل سعيك أن تأتى له بمثيل . فذكرت ذلك الإلف الذى جمع بينك وبين لداتك فأحكم الرباط ووثق العرى حتى عجزت غوائل الحقب الطوال أن تفرق أو تباعد بين القلوب . فهذه حسنة واحدة من حسنات عباس الكثر وموهبة واحدة من مواهبه العديدة لا يدانيه فى ذلك إلا بضعة افراد اذكر منهم زميل الصبا ذا الاحساس المرهف والوفاء الأصيل أحمد الأمين عبد الرحمن ، وصديق الكل وأمير الدعابة والملح والطرائف احمد صالح الذى كان يدير « كنتين » العمارة ويحسن الادارة والوداد . ولقد حفظ ثلاثتهم شموس تلك الأيام وأقمارها ونجومها فى حرز من اللقطات الخوالد أمين . ومن عجب أنك لا تطالع وجه عباس صالح فى اى من هذه اللقطات الرائعة إلا وهو ضاحك جذلان . فاذا ذكرت عباس ام درمان الاميرية فانك واجد فى صحائف خور طقت عباساً غير الذى خبرت هناك ، وملامس صواب ما ذهب اليه محمد العوض كلما أبصر عباس صالح وهو يركض ويلهو على أديم تلك الرمال الندية العطرة الحبيبة ، فقد كان محمد يشير ضاحكاً إلى عباس ويقول : هذا هو

الانعتاق . وكاد عباس الذى عشق الخضرة وهام بالرمال أن يصدع بالأشعار والنشيد . ولو فعل لما تعاظمه أن يغنى بلسان شاعر النيل اذ يقول :

أيها الوسمى زرنبت الربى .·. واسبق الفجر إلى روض الزهر

حيه وأنثر على أكمامه .·. من نطاف الماء أشباه الدرر

الشايقى .. ما عندو أمان :

كان من شيعة عباس صالح فى فصلنا تلميذ موردابى اخر اسمه محمد الحسن وهو ينتمى إلى فرسان الربع الخراب فى الفصل بقلبه وجسده وعواطفه ، يجلس مثلهم فى موخرة الفصل ويتحدث لغتهم ويتبعهم حذو النعل بالنعل فيما يأتون من صخب وضجة وازعاج . وهو فى ارتفاع قاماتهم إلا قليلاً وفى مثل « ربيع» أعمارهم إلا أسابيع أو أياماً ، وفى درجة جسارتهم إلا من بعض مظاهر الحيطة والحذر . ولقد كانت هذه المظاهر من بعض الاسباب التى جعلت محمد العوض يسر الىّ فى مرات عديدة وهو يشير إلى محمد الحسن : « الشايقى ما عندو أمان » .. ورغم أنى لم أقف على مقصد محمد العوض من هذه المقولة فى أول الأمر ، إلا أن الأيام قد برهنت على أنه كان حكيماً بعيد النظر .فقد توفرت لى مع مرور الزمن أسباب للاعتقاد – وإن لم يكن جازماً ولم اتحقق على وجه الدقة من صحته بعد – أن محمد الحسن كان من طرف خفى وراء العلقة التى تعرضنا لها بالقرب من نادى الموردة فى تلك الليلة الحالكة التى قادنا فيها الكبتل إلى غزوة منينا فيها بهزيمة ماحقة . ولقد سألت محمد الحسن مراراً عن جلية ذلك الأمر ولكنه أنكر ضلوعه فيه جملة وتفصيلاً ، غير أن تلك البسمة الساخرة الماكرة التى كنت أطالعها فى وجهه كلما طرقت معه هذا الموضوع وهو له منكر ، تركت فى نفسى ظلالاً من الشكوك لم تفلح فى محوها وازالتها كل محاولاته اللاحقة من الدنو من مجموعتنا « الود نوباوبية » والتقرب اليها .

كان محمد الحسن موردابياً حتى النخاع ، لا يجامل فى ذلك ولا يصانع ولا يرائى ، ويعتبر تهاون عباس صالح فى العقيدة الموردابية وتسامحه في أمرها خوراً وتنكراً

للمقدسات ؛ ولذلك لم يكن يحفل بعباس كثيراً فى مثل هذه القضايا وان كان عباس يشاركه الانتماء الجغرافى السكنى وبعضاً من التشبث العقائدى الكروى . غير أن محمد الحسن كان صادقاً فى تشيعه وانحيازه لفريق الموردة ومجاهراً بذلك حتي أمام الصقور الهلالية .فقد كان بينه وبينها اتفاق غير مكتوب على الاجتماع على احداث الهرجلة فى الفصل بكل الوسائل المتاحة والأدوات الفاعلة وخاصة فى حصة الشيخ أبى بكر ، وعلى احتفاظ كل منهم بحرية الانتماء والتشيع إلى ما يريد ويختار من الأندية الرياضية الكروية . وهو انتماء وجدانى صرف اذ لم يكن من بين اؤلئك التلاميذ الصغار من بلغ مرتبة العضوية فى ناد من الأندية الرياضية . ورغم أن المعارك كانت تحتدم أحياناً بين مشجعى هذا الفريق وذاك إلا أن بقية مجموعة الصقور كانت تحترم بنودذلك الاتفاق المضمر بين الطرفين ، وتراعى عواطف محمد الحسن الكروية وتصطنع له المعاذير ان مال إلى الشطط بعد أن ترده عنه بالتى هى أحسن ، بل ربما خفت إلى نجدته ان هو تعارك مع المريخاب أو ناله منهم سوء . وربما لم يكن ذلك حماية له كحليف فحسب وانما محافظة على هيبة الصقور من أن تصبح « ملطشة » فى نظر الناس واصراراً منهم على الاحتفاظ بدرجة التفوق فى ميزان القوى ومقدرات الردع والمنعة . أما عندماتنشب المعارك على أساس الأحياء السكنية فانى رأيت بقية المناطق تتضافر جهودها على مجموعة الموردة ، ولم أدر لذلك التضافر سبباً مقنعاً إلا أن يكون ضيقاً بما يبدونه أحياناً من صلف ومايؤخذ عليهم من جنوح إلى الغرور . ولم يكن لفظ « القراقير» قد تبلور وشاع وعرف طريقه إلى قواميس تلك العهود بعد ، وقد اشتملت مجموعة الموردة على محمد الحسن وهو شايقى ، وعلى محمد العوض وصلاح سليمان وهما عمرابيان ، وعلى غيرهم ممن كاوا يعتبرون غرباء فى تلك الديار .

ولم يكن محمد الحسن يبدى كثير اهتمام بالدروس ، رغم أنه كان من أكثر المتعرضين لبطش بعض الاساتذة وأليم عقابهم . ولكنه كان مولعاً بالدعابة مفتوناً بالنكتة صخَّاباً بالمراح . وكان فى ذلك خير كثير ، لأن محمد الحسن زعيم مرموق بين

فتية الموردة وفى تقبله للدعابة وحرصه عليها وولعه بالنكات وأسباب المرح مدخل للآخرين إلى صميم تلك المجموعة الصارمة ومدعاة لاقامة وترسيخ علائق الود والمسالمة معهم . وربما كان الشئ الوحيد الذى يحفظ محمد الحسن على الاخرين - سوى تشيعهم لغير فريق الموردة - هو أن الكبتل الألفة كثيراً ما كان يفتتح باسمه قائمة المهرجلين فى الفصل ، لايهابه ولا يخشاه ، وأن الباقين قد سكتوا عن هذه الفعلة راضين بها لا ريب .. والكبتل كما قدمنا هو الذى حرضنا على غزو المورداب فى عقر دارهم من قبل ، وعرضنا بذلك التحريض المتعجل الذى كانت تنقصه أبسط قواعد الحيطة والاستعداد « لعلقة » لا تنسى وعار لا يمحى وانكسار مشين كنا فى غنىً عن تقحم أسبابه . ومثلما كان الكبتل إمامنا فى الاقتحام كان امامنا فى الهرب ومحاولة النجاة من بطش اولئك العتاة الذين تضافر على أجسامنا الصغيرة منهم نفر لا قبل لنا ببأسهم ولا بهراواتهم الغليظة « المضببة » . لم يكن محمد الحسن من بينهم يوم ذاك ، ولكنه ربما أبلغهم بأمر مخططنا وهيأهم بذلك لاتخاذ الوسائل الدفاعية الكفيلة بدحرنا واحراز النصر علينا ، فهذا هو ما تهامس به الناس من بعد ولم نقف على صحته بصورة قاطعة فقد انكره محمد الحسن جملة وتفصيلاً وتبرأ من التهمة به أمام الملأ . وزعم أنه علم جلية الامر فى الصباح وقد حمد قومه السرى . ولكنه لم يبد أسفاً للذى حدث ، وانما جاء إلى المدرسة فى الصباح التالى يشيع بين الناس خبر الهزيمة الماحقة التى منينا بها ويضحك ملء شدقيه من سذاجتنا التى أوردتنا المهالك ، ويتندر على الكبتل - من وراء ظهره - بكل ما أوتى من كلمات جارحة . وبلغ ذلك الكبتل فأسرها فى نفسه ولم يبدها له . ورأى أن خير وسيلة للثأر منه هى اعتماد اسمه مفتاحاً دائماً لقائمة المهرجلين فى الفصل ، وهو يعلم أن لأولئك جزاء ين : جزاء عاجلاً يوقعه بهم الاستاذ الذى يدخل الفصل عند بداية الحصة ويطلع على القائمة إن أراد أن يعاقبهم ، وجزاء آجلاً أو مؤجلاً ولكنه مؤكد عند عم مبارك فى نهاية اليوم الدراسى عندما تتحول قائمة السبورة إلى دفتره الجامع بأمر الاستاذ . وبذلك أصبح محمد

الحسن أقربنا إلى سوط عم مبارك ، وأصبح حنقه على الكبتل يتزايد يوماً بعد يوم . وهو ربما أسر فى نفسه تدبيراً للايقاع بالكبتل ولكنه كان يخشى من عاقبتين ان فعل ذلك : أولاهما اجتماع كلمة الصقور عليه وهم حلفاء طبيعيون دائمون للكبتل . والثانية أن عم محمدين صاحب الطبلية التى تمدنا بالقوت الضرورى - الفول والطعمية - هو خال الكبتل وولى أمره . ولا حرية فى التصرف المطلق لمن يعتمد فى غذائه على الآخرين ! وأنى لمحمد الحسن الاعتماد على نفسه فى أمر حيوى كهذا ؟! وهكذا شكلت هاتان المعضلتان رادعاً لمحمد الحسن ، ولم يجد بداً من بسط يده للكبتل مصالحاً معتذراً منيباً ، ومن الكف عما كان يشيع ويذيع به من مثلبة الهرب والفرار من الزحف التى تولى كبرها فعادت علينا فعلتنا الفطيرة بشماتة أقل فصولها زراية بنا واكثرها رحمة لنا أن يقال عنا : « ابوزيد لا غزا ولا شاف الغزوة » ، رغم أننا « شفنا » الغزوة « وشفنا » على أثرها أهوالاً نجانا منها الله المستعان . وعلى كل فقد انتهى الامر بمحمد الحسن إلى مصانعة الكبتل رغم ان اسمه ظل فى مقدمة المهرجلين أياماً إلى أن توسطنا فى الامر ، وساعد على هذا أن الجميع « سقطوا » عند الشيخ أبى بكر وكان آخرهم سقوطاً الكبتل نفسه ، فلم يعد يحفل بعد تلك السقطة بشئ ... فقد صرنا كلنا فى الهم شرقاً .

•

كان محمد الحسن تلميذاً مديد القامة بالنسبة لاكثر اقرانه ، مع امتلاء فى الجسم يقارب السمنة يجعله أقرب هيئة إلى عبد الكريم منه إلى مكى أو محجوب . له عينان ذكيتان لماحتان يعلوهما حاجبان كثان يكادان يقترنان إلا قليلاً ، ينبت من تحت ركنيهما الداخليان أنف يعلو شيئاً فشيئاً حتى يبلغ قمة ارتفاعه فينحدر جانباه على هيئة قوسين متساويين يحيطان بمنخرين تبدو منهما شعيرات صغيرة لا تخطئها عين من يقف قبالته اذا هو تبسم اوضحك أو نفخ فيهما بحركة لا شعورية .. فهو انف حسن الصورة ، لا هو بالمقوس ولا هو بالافطس ولكنه قوام بين ذلك . وهو يشرف على «مشروع » شارب بدأت بوادره تبشر - أو تنذر - بنمو متعاظم ... يؤهل محمداً

لينسلك فى عقد الصقور . ورغم أن محمد الحسن كان يجلس على مقربة منهم وتجمع بينه وبينهم تطلعات مشتركة للزعامة والريادة والرغبة فى الهيمنة وبسط السلطان على الاخرين ، إلا أن عواطـفة الحقيقية كانت مع مجموعة الموردابى ، فلاشئ يعدل الوطن ! ولذلك تعرضت صلاته بالصقور لشئ من المد والجزر وتخللتها اشتباكات لم يكن محمد الحسن يقوى على متابعتها والصمود فيها إلى نهاية الشوط دون سند مـــوردابى حقيقى . ولما كان من ضمن مجموعة الموردابى رهط مسالم ومؤثر يتكون من محمد العوض ويوسف خضر وقاسم عبد القادر أبى عكر فان محمد الحسن آثر المسالمة فى نهاية المطاف . وعلى كل فهو يعلم أنه شايقى وشتان ما بينه وبين العمراب وغيرهم . وقد كان أمله أن تسعده هذه « الشايقية » عند الشيخ أبى بكر الرباطابى ، ولكنه رغـــم هـــذا « التقارب » القبلى لقى من الشيخ الأمرين ، فما كان الشيخ ليقيم وزناً لمثل هذه الامور . ولذلك لم تعد هذه الشايقية على محمد الحسن إلا بالشقوة والنكير ، وظل الشيخ ابوبكر متوجساً فى أمره على الدوام ، وهو محق فى أكثر حالات توجسه . فعندما يضع عبد الكريم شفرته على الشق الذى احتفره على ظهر درجه ويعزف عليها بالبرجل والمنقلة والمثلث ليحدث تلك الانغام التى يبدو الشيخ عند سماعها وكأنه قد خولط أو اعتراه مس من مارد من نار فان محمد الحسن كان يتمايل طرباً مع تلك الأهازيج ، وترتسم علي وجهه علامات الرضا والسرور فلا تخطئها عين الشيخ . ثم يبوء محمد الحسن فى نهاية الامر باثم غيره ويلقى من الجزاء ما هو ليس بأولى به من عبدالكريم . وذلك أن الشيخ يقول : « اللى بيدق الرمبة لى كرم وكرم يرقص يوقف على حيلو » . والواقع أن كرم هو الذى « يدق الرمبة » فى أغلب الأحيان ، وان كان الذين يرقصون على انغامها كثراً لم يكن محمد الحسن بأجلهم شأناً ولا أبلغهم مهارة غير أنه لا يحسن اخفاء سروره ورضاه فيلمح الشيخ فى وجهه واهتزاز جسمه هذه العلامات ظاهرة جلية . ولم يكن حفظ قصار السور من الامور المستعصية على محمد الحسن إن هو وطن نفسه على ذلك وصح عزمه عليه ، ولكنه يئس كما يئس غيره من

إرضاء الشيخ لانك لا يمكن أن تتنبأ بما يريده منك الشيخ فى اى لحظة من اللحظات . فهو قد يفاجئك فى أى وقت طالباً منك « تسميع » سورة لا قبل لك بها وهى لم تخطرلك على بال فاذا تلعثمت أو أقررت واعترفت بأنك لا تحفظها انهال عليك الشيخ ضرباً وشتماً واتخذك هزواً وأشعرك بالصغار والذل ، وختم ثورته عليك باصدار أوأمره للالفة ليضع اسمك ضمن قائمة « هؤلاء قليلو الادب » وأنت « صفر » اليدين من أى درجة من الدرجات . ولذلك كان محمد الحسن من المعجبين بمصطفى عابدين وأساليبه الماكرة التى يلوث بها ملابس الشيخ بحبر الدواة باقتدار بالغ دون أن يشعر الشيخ بذلك . وكم كان محمد الحسن يود لو تواتيه مقدراته فيقفو أثر مصطفى عابدين . ولكن الهلع والرعب الذى كان يتملكه كلما دب الشيخ بين الصفوف مثل دبيبه ا لمعهود يبحث عن من « يدق الرمبة لى كرم » لم يترك له ملكة - أو قل جرأة - للاقدام على مثل هذه الفعلة . ولما وقعت عينا الشيخ ذات مرة على محمد الحسن وهو يرقص طرباً على أنغام « رمبة » عبد الكريم أوسعه ضرباً وزراية وصغاراً . فلم يجد محمد الحسن وسيلة للانتقام من الشيخ سوى أن يعجب - على البعد - بما كان يفعله مصطفى عابدين وبعض الأشقياء الذين برعوا فى مثل هذه الفنون وأمطروا قفاطين الشيخ بوابل من رذاذ حبر الدواة .

لقد انتهى عهدى بالصديق محمد الحسن الشايقى عند مغادرتنا لمدرسة امدرمان الاميرية الوسطى ولم أره بعد ذلك أبداً . وانى لأ ذكر له رقته و دعابته وحيويته الدافقة ومحاولاته الصادقة الدؤوبة لمد حبال المودة وجسور الوصال بينه وبين زملائه على اختلاف انتماءاتهم السكنية والكروية، رغم موردابيته التى كان وفياً لها كل الوفاء ، فخوراً بها كل الفخر . ولم أكن أعلم ما كان يفعله محمد الحسن بعد انتهاء اليوم الدراسى وذهابه إلى داره ، ولكننى كنت أشعر أنه لم يكن يولى دروسه كبير اهتمام ، ولعله كان من أولئك الرهط الذين « استطالوا » اعوام الدراسة واستبطأوا موعد التخرج ، وربما تعلقت آمالهم بامتحان السى إس (C.S) أو الالتحاق ببخت

الرضا اختزالاً للوقت وتعجلاً للانخراط فى سلك الوظيفة أو ما كنا نسميه « بالحياة العملية » عوناً للاسرة وانعتاقاً من عذابات الدرس والتحصيل . فقد جالت مثل هذه الأفكار فى خواطر الكثيرين منا طويلاً وكدنا نركن اليها شيئاً قليلاً ، ولكن الله يفعل ما يريد .

هاشم مصطفى ... ومكر القردة :

إذا ذكرت مجموعة المورداب فى فصلنا « التوانى » فان اسم هاشم مصطفى يأتى فى المقدمة . وليس ذلك لأن هاشماً كان من القادة البارزين لهذه المجموعة ، ولكن لميزات أخرى . كان هاشم مصطفى تلميذاً صغير الحجم طولاً وعرضاً ، ذا عينين دقيقتين يشع منهما مكر ظاهر وذكاء خفى ، له أنف صغير يعلو فماً قليل الابتسام قليل الكلام . يضع على رأسه الصغير عمامة قصيرة هى دائماً أقل نصوعاً وبياضاً من جلابيته ذات الياقة القصيرة التى تحيط بأسفل عنقه احاطة السوار بالمعصم . عمامته لا تفارق رأسه أبداً ، ويقينى أن أحداً لم ير ذلك الرأس بلا عمامة ، لأن هاشم مصطفى لم يكن مولعاً بالدافورى الذى يرتاده التلاميذ ويخفون إلى ميادينه وهم حاسرو الرؤوس وجلهم عارى الصدر والبطن حافى القدمين . لقد كان هاشم يفضل الوقوف على البعد والنظر دون الاشتراك . ورغم أنه ينتمى إلى « منزل » الموردة إلا أنه لم يكن يؤذيه فى كثير أو قليل أن يتغلب على هذا « المنزل » أىٌّ من المنازل الأخرى - مثل « منزل السوق » أو « منزل ابى روف » . ففى « منزل ابى روف » كان يلعب مرزوق قلباً للهجوم وهو ثعلب الكرة الماكر وكابتن فريق المدرسة (التيم الأول) وكان هاشم معجباً به أيما اعجاب ، وخاصة عندما يكون من ضمن « المنتخب » كل من « شبيلية » « وخليل ابو زيد » .

ورغم أن هاشم مصطفى لم يكن يشارك كثيراً فى الأنشطة الرياضية على وجه العموم إلا أنه كان مصيبة من المصائب ومارداً من المردة وشيطاناً رجيماً ،رغم صغر حجمه وقلة حيلته . له حضور دائم فى دفتر عم مبارك لا ينفك عنه أبداً ، ولن تطلع

قائمة من قوائم المهرجلين في الفصل إلا واسمه في وسطها دون ريب ، ان لم يكن في طليعتها . وذلك أن شيطنته الحركية – وهي تعبير صادق عن مدى حيويته الدافقة – انما كانت تبلغ قمتها في الدقائق القليلة التي تفصل بين حصة وأخرى . وكان الكبتل الالفة لا يتعاطف معه ابداً ، ويقدمه دوماً فريسة للعقاب ، ولم تفلح محاولاتنا لا ثنائه عن التنكيل بهاشم رغم أننا توسطنا لديه كثيراً في ذلك . ولم ندرك سر حفيظته على هاشم إلا بعد أعوام . فقد اكتشفنا – ولا ريب في أن الكبتل قد علم قبلنا – أن هاشماً كان « يحاكيه » ويتندر عليه في غيابه ومن وراء ظهره . فلما علم الكبتل ذلك أطلق على هاشم اسم أوصفة او لقب « القرد الأعمش » تقليلاً لشأنه وتزهيداً له في « المحاكاة » . ومن عجب أن هذا الاسم الذي اطلقه عليه أصلاً محمد العوض لصق بهاشم لصوقا ولازمه ملازمة وصار يعرف به إلى النهاية . ولعل زملاء هاشم وجدوا في هذا الاسم وصفاً ملائماً له إذ دلت على ذلك اعماله وحركاته اكثر من دلالة تقاطيع وجهه ، ودل عليه مكره الذي عرف به بين أقرانه . وعلم الشيخ أبوبكر بهذا الاسم فارتاح له ابلغ ارتياح وصار يناديه به في بعض هجائه الذي لايتوقف . وبالطبع لم يكن هاشم أحسن حالاً من زملائه في نظر الشيخ ، فهو هاشم القرد ، وهو الذي لا يحفظ القرآن ، وهو من فصيلة « هؤلاء قليلو الأدب » و « الولد مرأة البيت » من الجانب الآخر لهذا التعبير الذي افتتن به الشيخ ابو بكر أيما افتتان فانظر إلى قدر هذا « البيت » وحاله في نظر الشيخ ! أما هاشم فقد كره الشيخ وود لو أنه لا يراه . وهو كثيراً ما كان يجلس تحت الشمس ليصيب شيئاً من حرارة الجسم تؤهله لدفتر المستشفى . غير أنه كان يعود في أغلب أحيانه وقد كتبت قبالة اسمه في الدفتر كلمة « متصنع » فيلقى جزاءه ضعفين ، بعضاً في الفصل على يد الاستاذ – وهو الشيخ ابوبكر في الغالب الاعم – والبعض الاخر عند عم مبارك في نهاية اليوم . لذلك تعلم هاشم أساليب مصطفى عابدين وأتقنها ، يرش ملابس الشيخ بحبر الدواة في براعة وخفة يد ، ثم لا تنبئ تقاطيع وجهه بأي معنى من المعاني . وربما كان الشيخ ابوبكر يشعر في دخيلة نفسه أن هاشماً

يمقته ولا يرحب بحصته ولا يعبأ بشروحه ، فكان شديد الفتك بهاشم .. حتى عندما لا يكون هنالك سبب ظاهر .

وفى مرة من المرات التى لا تنسى كان ذلك اليوم الرهيب الذى سلفت الاشارة إليه .. ذلك اليوم الذى انفق فيه بعض غلاة الماكرين طناً من الفحم على تسويد جدران المدرسة بتعابير حفلت بمختلف آيات الشتم والهزء والسخرية والتقريع على الناظر – الاستاذ محمود بلال رزق . وكان الاستاذ محمد الدرديرى « متجلياً » فى ذلك الصباح بادى الحيوية والسعادة ، غير انه لم يكن ليعلن أو يبدى عن صفحة سوء ظاهرة للناظر الذى فعلت به الأفاعيل ، وانما اكتفى بقوله : « والله غايتو دى كتابة عاوزة ليها شوال فحم » ! .. يردد ذلك وهو يضحك ضحكات مقتضبة ، ويهتز معها اهتزازاً يجعل ميل كتفه أشد ظهوراً وأوضح منظراً ، تكاد كفه من فرطه تلامس التراب . كان ذلك اليوم رهيباً بحق ، فهو يوم حزين بالنسبة للناظر لأنه قد أسئ إليه فيه أبلغ اساءة ومثل به فيه اشنع تمثيل . وهو يوم مجموع له الناس لأن الناظر آلى على نفسه أن يعثر على « المجرمين » ويقتص منهم أشد قصاص . كان التلاميذ والاساتذة والعاملون فى المدرسة في حالة من التوتر والقلق يصعب وصفها . كانت دخائل النفوس شتى وحقائق المشاعر ضروباً وخلجات الخواطر الواناً .. فمن حانق على الاستاذ محمود بلال رزق يشمت عليه فى قرارة نفسه ، ومن حريص على الانضباط وسيادة النظام وحسن السلوك يستنكر أن تغدو المدرسة مسرحاً لمثل هذا الفحش والخروج على حدود اللياقة والأدب ، ومن حادب على القيم والأخلاق يوذيه أن يزج بذلك الوسط المهذب فى وحل التنابز بالالقاب ومستنقع الاثم والفسوق والعصيان ، ومن واجد على الاستاذ الناظر محمود بلال رزق سعيد بالذي حدث ولكنه يخشى أن يصبح هو نفسه هدفاً لمثل هذا النيل المنكر البشع .. لقد خلف هذا الحدث انطباعاً فى نفوس التلاميذ الصغار لا يمحى .. وسرت فيهم قناعة أيقنوا معها أن الاستاذ محمود – على الرغم من جبروته وصولجانه – لا يكاد يجد فى ذلك اليوم من يتعاطف معه حقاً وحقيقة . تباينت المشاعر

فى اغلب ما ذهبت إليه ولكنها التقت فى شئ واحد وهو حالة الرعب والفزع والهلع والخوف الذي ليس عليه من مزيد . لقد سيطر علي التلاميذ صمت مريع قاتل ، وما كان من الهمس الخافت وتحريك الشفاه اليابسة لم يتعد محاولة الاسرار بالدعاء طلباً للنجاة من هول ذلك الموقف العصيب . وفى السابعة من صباح ذلك اليوم البيئس قرع عم مبارك الجرس مراراً وطويلاً على غير عادته ، إيذاناً ببدء طابور الصباح . كان الطابور فيما مضى للتأكد من حسن هيئة التلاميذ ونظافة ملابسهم واجراء « التمام » . ولكنه في ذلك الصباح المشئوم كان لشئ آخر .. فالتلاميذ فى نظر الاستاذ محمود هم المتهمون والمجرمون بين ظهرانيهم « منهم وفيهم » ولذلك فهم يوزعون .. ويصطفون قسراً دون أدنى رغبة منهم فى الاصطفاف . لقد أعد الاستاذ محمود بلال رزق العدة ، ووقف فى وسط الطابور الذى اشتمل على جميع تلاميذ المدرسة ، وإلى جواره بعض الاساتذة وهو يحمل « البشمة » فى يمينه يلوح بها فى الهواء ، وتقدح عيناه المحمرتان بشر مستطير وتنذر تقاطيع وجهه وتجاعيد جبينه المقطب الحزين بالبلاء والثبور والنكير . وقفنا وكل منا يرتجف من قلة رأسه إلى أخمص قدميه وكأن الأرض من تحت أقدامنا تهتز اهتزازاً وتميد ميداً وتمور موراً ، وتوشك أن تبتلعنا ابتلاعاً . لم يحفل الاساتذة فى ذلك الصباح بتفتيش العمائم والزرائر و ياقات الجلاليب واكمامها كما كانوا يفعلون . لقد تبدل الحال ، ولم تعد النظافة وحسن السمت والهندام أموراً ذات بال حتى يعبأبها . كان الهاجس واحداً لا ثانى له ولا ثالث .. من الذى فعل تلك الفعلة الشنيعة ، أو من هم الذين فعلوها ؟ والغريب فى الأمرأن أصابع الاتهام أشارت منذ وقت مبكر إلى تلاميذ المدرسة دون سواهم . فلم تعد المدرسة فى ذلك الصباح إلا قفص اتهام بالنسة للتلاميذ يرسفون فى الأغلال من وراء قضبانه . ولم يعد ذلك الطابور الصباحى إلا استعراضاً عاماً ودقيقاً لكافة المتهمين واعتقالاً لهم فى صحن المدرسة منذ صباح الرحمن . ويقينى أن التلاميذ إذا علموا قبل مجيئهم انهم سيواجهون مثل هذا العذاب فى صباحهم ذاك لما وطئت قدم احد منهم رحاب أرض المدرسة ، رغم علمهم بأن

التغيب عن الدراسة جريمة يعاقب عليها بالجلد والتعزير ، إلا أن يتغمدك الله برحمته فيحضر معك ولى أمرك ليشفع أمام ادارةالمدرسة بأنك كنت مريضاً أو على سفر ضرورى أو بك أذى من رأسك ! لو علموا بأمر ذلك اليوم العصيب لتغيبوا عن المدرسة دون ريب ، لأن جلدات عم مبارك - وان كانت مؤلمة فى كثير من الاحيان - أرحم بكثير من عذاب ذلك اليوم المشهود .

لقد اصطف التلاميذ فى طوابير طويلة كل فصل على حدة ، ولكنهم كانوا فى شغل شاغل عما تعودوا عليه من قبل فقد كانت الأعصاب متوترة والحلوق يابسة والأرجل والاقدام راجفة من فرط الخوف والفزع والقلوب تكاد تتفطر وتندفع إلى خارج الصدور من شدة الخفقان وسرعة الوجيب . ما أسعد من تغيب عن المدرسة فى ذلك اليوم وان كان مريضاً حقاً ! وما أشقى من كان حاضراً وهو شارد اللب منصدع الكيان متهدم الأعضاء والوجدان ! لقد خيم السكون على المكان وران الصمت وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزل التلاميذ زلزالا شديداً . لقد توسط الناظر الاستاذ محمد بلال رزق فناء المدرسة وقد أحاطت به طوابير التلاميذ وتحلق حوله لفيف من الاساتذة لا تكاد تقرأ فى وجوههم معنىً بعينه.وفجأة دوى صوت الاستاذ محمود الناظر ليجتث أى أثر للسكون الذى كان سائداً باسطاً سلطانه على الجميع . « يا أولاد .. أحسن تطلعوا المجرم » .. فارتجت لمقولته ارجاء المدرسة . وارتجت معها أدمغة التلاميذ وساخت اقدامهم فى الارض وغارت القلوب فى الاجواف .. وما أن اطبق الصمت من بعد ذلك الدوى وأوشكت نسائم العافية أن تغشى الناس حتى صاح الاستاذ محمود مرة اخرى صيحة سرت فيهم سريان الصعقة : « نحن عارفين المجرمين ، أحسن يطلعوا قبل ما نطلعهم » فلم يبق أحد منا إلا وقد تيقَّن أنه هو المجرم المعنى دون ريب ! كاد كل منا رغم براءته التى يعلمها أن يدل على نفسه نجاة من كرب الانتظار ، واهتداء غير مستبصر بالحكمة القائلة : إذا هبت أمراً فقع فيه ، فان شدة توقيه أعظم مما تخاف منه . غير أن سلطان الصمت ساد من جديد ولم يقدم أحد منا على شئ .. ولما لم يبد

احد حراكاً ولم يحرك احد ساكناً اذا بنا نبصر التلميذ «عموش» وهو يتهادى عن ميسرة الناظر... يخطو فى حذر وتؤدة مثل ثعلب ماكر يهم بافتراس زغب من الحمائم وامهاتها لاهيات غوافل.
و«عموش» تلميذ فى السنة الاولى قصير القامة اعمش العينين يرتدى جلابية قصيرة مربدة اللون وعمامة كأنها التقطت لتوها من التراب لتستدير على رأسه «المقودس» دون انتظام، وجزمة باتا ذات شقوق وثقوب ظاهرة يلمحها من يبصر. تقدم «عموش» وطفق «يشمشم» التلاميذ واحداً واحداً. فتصاعدت حرارة الانفاس وبلغ الرعب منا مبلغاً عظيماً لايماثله ولايدانيه فى الاثر الاعظم الحيرة وفاجعة المفاجأة. ذلك انه قد وضح لنا بجلاء لاريب فى حقيقته ان «عموش» لم يكن الا «غواصة» بين التلاميذ، ولم يكن الا مخبراً مندساً بين الصفوف. لابد انه ادعى المقدرة على التعرف على من سودوا جدران المدرسة بعبارات الايذاء، وخاصة الاجزاء الحجرية من هذه الجدران وفى مقدمتها الناحية الشمالية من المدرسة حيث مكتب الناظر نفسه فى الطابق الارضى، مستخدمين لهذا الغرض الاسود البشع اردباً كاملاً من فحم حالك السواد! كان «عموش» كلما اطال الوقوف امام احد التلاميذ المصطفين صاح به الاستاذ محمود بلال رزق مثل ارخميدس: «هو دا المجرم»؟ فيكاد التلميذ المعنى ان يغمى عليه من فرط الرعب والهلع... حتى اذا تخطاه صامتاً افاق المسكين من الصعق وعادت اليه نصف حياة! اما «عموش» فقد ارتدى وجهه الكالح هدوءاً غريباً، فهو لايرد بل يمضى الى التلميذ الذي يليه فيغادره وهو للموت اقرب منه للحياة. ورغم انه عندما مر بى لم يقف امامى طويلاً الا اننى حسبت انه لبث تلقائى من عمره سنين، وذلك من شدة الهول ودوام الكرب العظيم. وهكذا سار «عموش» يتفحص التلاميذ واحداً واحداً بعينين كأنهما ثقبان فى جلد معزة ذبحت لتوها ولم يحسن سلخها بحد السكين... استغفر الله.. بل هما اشبه مايكونان بعينى جرو ولد لتوه يحاول

ان يفتحهما على دنيا لم يألفها من قبل .

بعد طواف طويل وتدقيق متأن قاتل اشار «عموش» الى تلميذين: احدهما كان فى الفصول المتقدمة اسمه خليفة، وثانيهما - وياللهول - كان هو هاشم مصطفى زميلنا فى الفصل. وتنفس بقية التلاميذ الصعداء وارتفعت عن صدورهم الصخور وامثال الجبال، وانجلت عن نواظرهم الغشاوات... وعادت الى بعض الوجوه بواكير الطلاقة، حباً للسلامة وايثار للعافية وفرحاً بالنجاة. ثم جاء عم عبدالعزيز وعم محمود فحملا التلميذ الاول وسط تلك الصفوف المتراصة لينهال عليه الاستاذ محمود الناظر ضرباً مبرحاً بالبشمة، والتلميذ يتلوى وينكر فى ضراعة - لم تكن تجدى - اية صلة له بتلك الجريمة. ودام الجلد طوال ماحسبناه دهوراً.. ثم القى التلميذ على الارض وهو يصرخ ويتلوى.

وحمل من بعده هاشم مصطفى المسكين على ذات الايدى وانهالت على ظهره وعقبه السياط. وصاح هاشم فى بداية الأمر ولكنه بعد قليل سكن الى الالم والفه واعتاده وصبر عليه. فكف عن الصياح وزهد فى «المرصعة» وتلقى سائر عقابه فى ثبات وامتثال لم نكن ندرى اكان ذلك شجاعة منه بحق ام مظهراً من مظاهر الصدمة التى تقوض وتميت مراكز تلقى الاحساس بالالم فى جسم الانسان. ثم القى به على الارض وهو يئن بعض انين. وانتهى الامر بفصل هذين التلميذين من المدرسة دون ابطاء. ونحن لم نكن ابداً على يقين من انهما هما الفاعلان لما جلب عليهما هذا العقاب. فكيف لهاشم مصطفى وهو القصير الناحل الجسم ان يرقى الى جدران الطابق الاول (فوق الارضى) ليخط بالفحم الاسود عبارات يعير بها الناظر؟ ولقد زعم بعض الخبراء فى فصلنا ان «عموش» هو ««ازيرق» حفيد استاذنا المحبوب الشيخ ابى بكر، فكنا - ومانزال - من هذا الزعم فى شك مريب.

وهكذا انتهت المأساة واسدل عليها الستار، ولكنها بقيت في الذاكرة جلية فصولها ودقائق مشاهدها لاتريم. ودخلنا الفصول من بعد ذلك كما يقتاد السجناء الى زنزانات الحبس الانفرادي. فلم يكن هنالك درس يذكر في ذلك اليوم الحزين.

واذا كان هاشم مصطفى - صديقنا وزميلنا في التوانى - قد اوقعه مكر «عموش» في ذلك المأزق الضنك الخانق فقاسى ما قاسى من اهوال الجلد والشتم على رؤوس الاشهاد ثم الفصل من المدرسة، فلاشك انه نال - بجانب ذلك البلاء - عطف جميع زملائه الذين اسفوا لما حاق به اشد الاسف وحزنوا له اشد الحزن. ولقد شكلت تلك المحنة هاجساً مرعباً لكل تلميذ، وصرنا نقص تفاصيل هذه الواقعة الدرامية المرعبة في كبرى ودنوباوى في الامسيات: ونسأل الله الا يرينا مثلها مرة اخرى وان يهدى ناظرنا الى الطيب من القول. ولعل تلك الاقاصيص كانت تروى في كل حى من احياء ام درمان طوال فترة لم تكن قصيرة. فكان يضاف اليها مالم يكن منها بغية التشويق والاثارة. ورغم كل شئ فقد كان حزم الاستاذ محمود بلال رزق عاملاً مهماً من عوامل الانضباط في المدرسة. وعندما تم نقله الى موقع آخر افتقد فيه تلامذته احد اساتذة اللغة الانجليزية البارزين. ولكن حل محله الاستاذ يوسف زمراوى الذى اعيد هاشم مصطفى في عهده الى المدرسة مرة اخرى. وظل معنا الى نهاية السنة الرابعة. ولست ادرى ماذا حدث للتلميذ الضحية الاخر خليفة سوى اننا سمعنا بانه ربما التحق بمدرسة حى العرب او المدرسة الاهلية الوسطى دون ان نقف على جلية الامر بصورة قاطعة. ولقد سعدنا بعودة هاشم مصطفى الينا سعادة بالغة، واية ذلك ان الكبتل كف عن اطلاق اسم «القرد الاعمش» عليه، تعبيراً صادقاً عن غفرانه له كل ما كان يأخذه عليه من قبل، وطلب الينا مراراً ان نحذو حذوه في رفع هذا الاسم عن هاشم. ولكن محمد العوض كان يقول مستلهماً حكمه التى لاتنتهى ورغم تعاطفه مع هاشم وفرحه بعودته وتعدد اسباب ذلك التعاطف وبواعثه - كان يقول: «اللى راجيك تركة تلبسو فركة»... وقد لبس هاشم هذا الاسم ولازمه ملازمة لم ينفك عنها ... ذلك كان هو قدر الصديق هاشم

مصطفى ابن الموردة... ذى القامة القصيرة والجسد الناحل والعينين الدقيقتين. ولقد اختفى «عموش» الغواصة بعد تلك الواقعة رغم ان قريبه الذى كان احد اساتذتنا ظل باقيا حتى مغادرتنا للمدرسة. ولعل بقاء هذا الاستاذ كان هو الوازع الاهم فى تثبيط همم من كادت كلمتهم منا ان تجتمع على تدبير ابرع الخطط واستحداث اسلم الوسائل لاخذ الثأر من «عموش» والانتصاف لهاشم. وقد كان هاشم بالطبع اكثرنا توقاً لاخذ الثأر بنفسه غير ان الظروف لم تكن مواتية لذلك. ولو علم هاشم لتغنى بمقولة عنترة حين توعده النعمان ولقال بلسان الحال:

فإن كنت تعلم يانعمان ان يدى

قصيرة عنك فالايام تنقلب

احسان عبدالقدوس والامير ابو قرجة

كان عبدالرحمن كنتباى ابو قرجة من اقرب الاصدقاء لى فى الفصل ان لم يكن اقربهم جميعا على الإطلاق ، فقد جمعت بيننا عرى مودة مردها الى آماد بعيدة قديمة ضاربة الجذور فى ارض الوطن، ليس هنا مجال سردها باى نوع من التفصيل. ولقد كان عبدالرحمن كنتباى فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى تلميذا جاداً مجداً تغلب عليه الصرامة ويتميز بالانضباط والحزم. ورغم انه كان يجلس قريباً من مرابض الصقور وتخوم الربع الخراب فى الفصل الا انه لم يكن فى اول امره يجنح الى الهزل كثيراً. وقد خبر الصقور فيه هذه الخصلة فتعاملوا معه باحترام مشوب بالحذر، وبخاصة لان عبدالرحمن كان انصارياً متشدداً ينظر الى الامور بهذا المنظار ويزن صداقاته بهذا الميزان ويقترب من الناس بمقدار اقترابهم او ابتعادهم من هذه المعانى وتقييمهم لها. وحق له ذلك، فهو امير ابن امير وهو حفيد امير البحرين الحاج محمد عثمان «ابوقرجة» القائد الفارس الشهير فى تاريخ السودان الناصع الحافل بالبطولات وامثلة الفداء النادرة. ورغم ان عهودنا تلك الخالية لم تشهد صرعاً بين التلاميذ على اسس مثل هذا الانتماء العقائدى، الا ان عبدالرحمن لم يكن ليتهاون فى معتقدات وتراث آبائه. وآية ذلك انه كثيراً ما كان «يناكف» مدرس التاريخ

الاستاذ عمر مصطفى ان هو أتى يقول فى تاريخ المهدية يخالف ما شب عليه عبد الرحمن وأشربه فى نفسه من أحداث هذا التاريخ المجيد . ولما كنت أشرب من ذات المنهل واقتات من ذات الثمار فقد توطدت علاقتى به توطيداً وتأصلت صلتى به تأصيلاً ، وجمعت بيننا منذ تلك العهود صداقة حميمة ماتزال على غضارتها ومانزال على عهدنا فى الوفاء لها كلما التقينا حتى يومنا هذا . وكانت أحلى ليالينا فى تلك الأزمنة هى ليالى المولد النبوى الشريف حيث كنا نلتقى فى ظل خيمة الأنصار نستمع المدائح والأناشيد الدينية ، فنتمايل معها وعلى انغامها طرباً ، وتتجاوب كل حواسنا وجوارحنا مع مايتخللها من التهليل والتكبير والتحميد وأشعار الحماسة التى كانت تدوى فى الآفاق فتبعث الهمم وتشحذ العزائم .

ومن عجب أن عبد الرحمن كنتباى لم يكن ضمن كتيبتنا التى حاولت غزو المورداب فى عقر دارهم تحت قيادة الكبتل ، فهو لم يكن حاضراً يوم أن اجتمعت كلمتنا على ذلك وغدونا نُبوّءُ بعضنا بعضاً مقاعد للقتال نعد العدة لقهر الطائفة غير ذات الشوكة من المورداب . ولما علم عبد الرحمن كنتباى فيما بعد بانكسارنا أمام « القراقير » وبلغه أنا ولينا مدبرين ، عاب ذلك علينا كثيراً وتمنى لو أنه كان معنا ، إذاً لقاتل قتال الأبطال ولتغيرت نتيجة المعركة وعدنا ظافرين . غير أنى أوضحت له أن الحرب كر وفر ، وأننا سنعاود الغزو مرة أخرى ان شاء الله محواً لهذا العار ووضعاً للامور فى نصابها الصحيح . وهو قد لام الكبتل بصورة خاصة على هذا التفريط وعنفه على ما أسماه بسوء القيادة وحمله مسئولية الانكسار التى لطخت سمعة فصلنا « التوانى » عموماً ووسمت بمثلبة الفرار احد صقوره على وجه الخصوص . ولما تكاثر لومه وبرم به الكبتل وضجر منه صاح فى وجه عبد الرحمن : « اللى علي البر عوّام ... لو كنت معنا لسبقتنا إلى خيمة الأنصار » ! فغضب عبد الرحمن ولكنه تمالك نفسه ، ولم يزد على أن قال : « إسمعن البنات » ! ورغم أنى « عزيت » عبد الرحمن بأننا لن نترك هذا العار يلصق بنا إلى الأبد وأننا سنعاود الكرة فى ظروف أفضل ، فانه لم يأخذ حديثى مأخذ الجد

وانما قال فى شيء من الاستخفاف حسبته موجهاً للكبتل فى المكان الأول : « طيب ، نشوف » . ولما لم تجر المشيئة بذلك ولم تتهيأ لمخططنا الاسباب فاننا لم نفعل ولم نتصدّ للغزو مرة اخرى ، وانما اكتفينا بافتعال بعض المعارك الخاطفة الطفيفة مع بعض أحاد المورداب ثأرا لأنفسنا ومحواً لعار الفرار الذى ألحقه بنا الكبتل . فكان أن « علقنا » محمد الحسن الشايقى «الموردابى » مرة فى جامع الخليفة علقة لن ينساها ، أسهم فيها عبد الرحمن كنتباى إسهاماً بارزاً . وبالرغم من أننا لم نكن نعرف المعارك العقائدية فى تلك الأيام إلا أن المعتقدات الكروية – أو قل الانتماءات العاطفية لمختلف الأندية الرياضية الكروية وفي طليعتها الهلال والمريخ والموردة – كانت تشكل أساس الصراعات بين التلاميذ . ولم تكن الأنصارية وحدها هى التى تجمع بينى وبين عبد الرحمن كنتباى وان كانت هى أهم الروابط وأقواها ، بل كانت تجمع بيننا أيضاً العقيدة الهلالابية . فعندما ينتصر فريق الهلال يأتى عبد الرحمن كنتباى فى اليوم التالى إلى المدرسة وهو فى روح عالية وابتهاج . أما إذا كان النصر حليفاً لفريق الموردة على فريق الهلال فان المورداب يتجنبون عبد الرحمن كنتباى لأن كلمة استفزازية واحدة منهم تبلغ سمعه كانت كفيلة بتفجير المعارك واثارة النقع . وهنا يخف الصقور لنجدتنا ، يدفعهم لذلك الوفاء الهلالى والرغبة الجامحة فى الاّ يتعدى المورداب حجمهم الطبيعى . فاذا بدأ العراك كانت النتيجة دائماً واحدة ... هزيمة منكرة للمورداب . فمن ذا الذى يستطيع أن يناطح الصقور اذا خفوا لنصرة عبد الرحمن كنتباى ؟ ولقد أدركت مجموعة الحمائم الموردابية حقائق الامور – وهى مجموعة على رأسها محمد العوض وقاسم ابو عكر ويوسف خضر – فآثرت أن تقيم مع عبد الرحمن كنتباى علائق الود والصفاء ، وخاصة فى اعقاب تلك « العلقة » التى تعرض لها محمد الحسن الشايقي والتى أبلى فيها عبد الرحمن كنتباى بلاء الأبطال .

غير أن عبد الرحمن كنتباى – على الرغم من صرامته وجديته واهتمامه بالدروس عموماً وحصص الدين والقرآن على وجه الخصوص – لم يكن بمأ من من غوائل الشيخ

أبى بكر وتجاوزات الاستاذ الحاج هاشم ، فقد نال منهما وعلى أيديهماما ناله بقية رفاقه التلاميذ . أما الاستاذ الحاج هاشم فقد بطش بعبد الرحمن كنتباى فيمن بطش بهم فى ذلك الصباح الذى أعقب ما تعرض له من اعتداء « غاشم » فى دارالرياضة بام درمان . وأما الشيخ ابوبكر فلم يكن عبد الرحمن كنتباى بالنسبة له بدعاً من التلاميذ . وقد أفلح عبد الكريم وشركاؤه فى استقطاب عبد الرحمن لتلك الثلة التى كانت تبدع الأهازيج فى الفصل فيسر لها التلاميذ سروراً بالغاً ويخافون فى الوقت نفسه ويخشون عواقبها ... وهى تملأ نفس الشيخ أبى بكر غيظاً وحنقاً ، ويزيد من غيظه وحنقه أنه لا يعلم مصدرها بصورة قاطعة ولا المضطلعين بها والضالعين فيها كلهم على وجه التحديد والدقة . فيبلغ منه الغضب مبلغاً وتشتط به الحيرة اشتطاطاً .. فيأخذ المحسن بالمسيئ والمقيم بالظاعن ، وهذا بجريرة ذاك .. حتى انه ليصح أن يقال ان ضحاياه من الأبرياء كانوا اكثر من الفعلة الحقيقيين . فالبراءة لا تجدى شيئاً مع الشيخ ان غشيتك ظلال شكه وريبته . أدرك عبد الرحمن كنتباى ذلك ، وأحسبه قرر فى دخيلة نفسه أن الشيخ ابابكر لا يفرق بين المسئ والبرئ وانما ينزل عقوبته على الجميع لأنه لا يثق بأحد ولأنه لا يود أن يفلت من سوط عذابه « مجرم » . ولذلك انحاز عبد الرحمن فى نهاية الامر إلى مجموعة عبد الكريم بكليته ، وصار ينقر معهم على الشفرات بالمنقلة والبرجل والمثلث فيحدث تلك النغمات التى يطيش لها صواب الشيخ وترزم لها رعوده وتبرق لها بروقه ، وينفد معها صبره - إن بقى فى معينه شئ من الصبر يذكر . ولقد اكتسب عبد الرحمن بهذا الميل النشط للهزل البرئ كثيراً من القبول فى نظر زملائه الذين ربما كانوا ينفرون من صرامته الزائدة وتشدده الذى لم يجدوا له مبرراً ولم يستسيغوه . فمازال به عبد الكريم وبطانته يستميلونه إلى « دنياواتهم » الهازلة المستخفة بكل شئ حتى لانت لهم قناته وصغى لتعاليمهم فؤاده وصار بعد قليل واحداً من فرقتهم .. فقر به ذلك من زملائه كلهم ، فأحبوه وأنسوا له وتزايد اتصالهم به وكان ذلك دافعاً لهم للاسراع لنصرته كلما ألمَّ به خطب أو تضافرت عليه أيد وجهود .

وكان الاستاذ السبكى يدرسنا فى السنة الثالثة. وهو استاذ قصير القامة نحيف بنية الجسم، لست ارتاب فى ان مكى وعبدالكريم ومحجوب والكبتل وربما عبدالرحمن كنتباى نفسه كانوا يفوقونه طولاً وبعضهم يفوقه ضخامة جسم. والاستاذ السبكى كان شاباً معجباً بنفسه شديد العناية بمظهره بالغ الاهتمام باستكمال عناصر «القيافة» كلها، حتى انه كان «يشق» شعر رأسه عند نصفه الايسر ويعتنى «بتسريحه» عناية فائقة، ينبئ انتظامه ونسقه ووهجه عن قدر الجهد المبذول، ويشى لمعانه الذى لاتخطئه عين ورائحته الزكية التى لاتخطئها حاسة شم «متحضرة» عن عظم شأن الدهن والطيب الذى خالطه وشذاه واستقر فيه. ولعل ذلك مما كان يثير فضول قوم وحيرة آخرين، لم يكن اقلهم اندهاشاً مصباح الصادق والكبتل وهاشم الاطرش. واذا كان عزالدين عباس راضياً عن ذلك تمام الرضا فان عبدالرحمن كنتباى كان يتعجب من هذا المظهر تعجب البدوى الذى قد تستهوى فضوله رقائق التحضر وتنفر منها غرائزه. وعلى كل فهو ابن امير وحفيد امير مقاتل جسور ما كان له ان يتصالح مع مظاهرالدعة وخفض العيش ونعم التألق والملاحة والوان الالق والترف والعطور. ولكن الاستاذ السبكى كان شاباً مقتدراً وذكياً ومهذباً. فهو قد لمس فى تلميذه نفوراً لم يرله مبرراً ولم يدرك له مبعثاً ولم يقف له على سبب - فأراد ان «يروض» عبدالرحمن عما تراءى له انه ضرب من ضروب الجلافة والابتعاد عن حقائق العصر، او قصور عن استيعاب (خصائص) الحضارة والمدنية، فطفق يستدرجه بكثرة الاسئلة ويدعوه «احسان عبدالقدوس»! فغضب عبدالرحمن كنتباى لهذا الاسم أشد الغضب وقرر فى أول أمره ان يستجير بالصمت وألا يجيب بكلمة. فلما كرر عليه الاستاذ السبكى مراراً قوله: يا احسان، او يا إحسان عبدالقدوس، صاح عبد الرحمن فى استنكار ظاهر واستهجان ملغوم :« يافندى أنا اسمى عبدالرحمن كنتباى، تانى ماتسمينى باسم النسوان... انا مرة عشان تقول لى إحسان؟ وضحك

الاستاذ السبكى طويلاً وتساءل فى استغراب : « ألا تعرف اسم احسان عبد القدوس ؟ هذا اسم رجل وليس هو اسم امرأة » . ولعل عبد الرحمن لم يعلم ذلك ، وبالقطع كان جلنا يجهل احسان عبد القدوس الصحفى والكاتب القصصى فى ذلك الزمان . فتعاطفنا مع عبدالرحمن كنتباى أشد التعاطف ، ولم تجد ضحكات الاستاذ السبكى أيَّ تجاوب منا . وأصر عبد الرحمن على موقفه وتشدد فى ذلك ولم يثنه شئ مما حاول الاستاذ توضيحه ، وظل يرفض هذا الاسم ويستنكر اطلاقه عليه حتى تنازل السبكى معتذراً وعاد يناديه باسمه المعروف .

وفى فسحة الفطور ناقشنا هذا الموضوع مناقشة ضافية من كل جوانبه ، فازدادت قناعتنا بأن الاستاذ السبكى انما قصد الاستهانة ، فبرزت على اثر المناقشة اقتراحات عديدة أبانت عن اجتماع كلمة أولاد الفصل وأصالة رفضهم « للحقارة » أيا كان المقصود بها ، وأظهرت أصالة مساندتهم لعبد الرحمن فى هذه القضية الخطيرة وهذه « المهانة » التى تعرض لها من قبل الاستاذ وهو أحد « رجال » الفصل الاشاوس . ومن الاقتراحات التى تبلورت فى ذلك الاجتماع التداولى الحاسم الجامع قول بعض المتطرفين بضرورة تنظيم « علقة » للاستاذ السبكى ـ ـى يعرف « درب الله » واضحاً . ورغم أن الفكرة قد راقت لأغلب تلاميذ الفصل وأعجبت عبد الرحمن كنتباى وسر لها سروراً بالغاً ، إلا أن بعض العقلاء وفى مقدمتهم الصقور الذين كان عليهم « الرك » فى إحداث مثل هذا الحدث ، أشاروا بوعى وحصافة إلى المخاطر التى تكتنف تنفيذ هذا « العمل »والصعاب التى يمكن أن تصحب أو تنجم عن الاقدام عليه والشروع فيه ، وأبانوا أن العواقب قد تكون وخيمة ، مؤكدين أن « علقة » الاستاذ أمر سهل التنفيذ فى حد ذاته على الاقل من الناحية العملية ، ولكن ما يستتبعه قد يكون وبالاً على الجميع . واقترح الكبتل أن « تلبد » له عصبة منا فى أحد الازقة قرب المستشفى لتفعل به الأفاعيل وتلقنه درساً لا ينساه ، وسمى نفسه قائداً لهذه العصبة المقترحة . ولكنى عارضت هذا التوجه أشد معارضة لمعرفتى بمدى ثبات الكبتل فى مثل هذه المعارك

التى قد يخف لمساندة الاستاذ السبكى فيها من لا نعرفهم ولا نعرف شدة بأسهم وما حادثة الخور فى الموردة بغائبة عن الأذهان . وهى حادثة رويت تفاصيلها من قبل على عبد الرحمن فكان موقفه منها ما علمت فى سياق هذا الحديث . فلما رأى عبد الرحمن اعتراضى على هذا النهج بصورته التى افصح عنها الكبتل تفهمه عن دراية ووقف إلى جانبى وأيد اعتراضى ، رغم أنه كان أحرصنا على الثأر من الاستاذ السبكى وأشوقنا إلى النيل منه ووضعه فى مواعينه ! ولما رأى التلاميذ أن صاحب القضية الأول وطالب الثأر الأصلى لم يكن متحمساً لهذه المغامرة - ربما لعدم ثقته فى القيادة الكبتلية المتصدية للأمر - صرفوا عنها النظر ، وفضلوا الانتظار والتفكر والتفاكر فى انجع الوسائل بدلاً من الدخول فى مثل هذه اللجج المغرقة . وكان اقتراح عبد الرحمن كنتباى الاول أكثر طرافة واسهل تنفيذاً ، ولكنه أشد خطراً وأدعى للوقوع الجماعى في شراك الغفلة وأحابيل السذاجة ... وهو قوله بأن نقفل باب الفصل بمجرد دخول الاستاذ السبكى للحصة ، ثم تنهال عليه مجموعة منا متباينة من الأيدى حتي يتفرق « أذاه » بين الاولاد ، فلا يدرى حراش - وهو هنا سلطة الادارة فى المدرسة - ما يصيد ، ولا يعرف أحد على وجه التحديد من هم الذين « علقوا » الاستاذ . ولقد رفض هذا الاقتراح بالطبع لانه صك ادانة لجميع أولاد الفصل ، حتي اولئك الذين ربما تقاعسوا عن المشاركة فى تنفيذ الخطة وأخذ الثأر فى اللحظة المحددة . وانتهى الامر بنا إلى تحريض عبد الرحمن كنتباى علي « ملاواة» الاستاذ السبكى فى كل حصة ، فان ناله منه أذى وقفنا إلى جانبه محتجين بالصوت العالى أو متجمهرين امام مكتب الناظر نبلغه ما حاق بنا ويزميلنا من ظلامة علنا نثير بذلك الخواطر ونستعدى السلطة الرسمية والرأى العام الشعبى على هذا الاستاذ الذى بلغت به استهانته بنا وجسارته على حقوقنا « النوعية » أنه صار يطلق على أحدنا اسم امرأة جهاراً نهاراً ثم يحاول أن يوهمنا ان اسم « احسان » هو اسم رجل ! ولكن الله سلم وألهم الاستاذ السبكى السداد ، فترك عبد الرحمن كنتباى وشأنه رغم « الملاواة » التى اخذ عبد الرحمن

ينتهجها معه ، ولم يعد عليه باسم احسان أبداً بعد ذلك . ومن الطريف أننا التقينا الاستاذ السبكى بعد أعوام فى جامعة الخرطوم حيث كان يعمل بها فى وظيفة ادارية رفيعة ، فذكرته بما كان بينه وبين عبد الرحمن كنتباى فى ام درمان الاميرية الوسطى ، وقصصت عليه كيف أننا شرعنا فى التآمر عليه اقتصاصاً لعبد الرحمن إلا أن الله نجاه منا . فضحك الاستاذ السبكى طويلاً وقال لى - وكان قد اصبح صديقاً لنا حميماً - وهو يكاد « يموت » من الضحك · « لسع الله ينجينى منكم » ! ولقد ادرك عبد الرحمن كنتباى وادرك غيره أن الاستاذ السبكى كان من اكثر الاساتذة اهتماماً بتلاميذه ومحبة لهم ومن اشدهم حرصاً على بلوغ تلامذته أعلى المستويات فقد كان لا يسمح بالتحدث فى حصته إلا باللغة الانجليزية . ورغم أن ذلك كان دأب الاساتذة الآخرين إلا أن الاستاذ السبكى تفرد فى هذا الشأن بحزم شديد ، وقد كان من فضائل هذا الحزم أن عبد الرحمن كنتباى صار في طليعة الذين يحسنون هذه الرطانة منذ وقت مبكر . ولوصبر على اسم احسان الذى خلعه عليه الاستاذ السبكى لربما اصبح كاتباً قصصياً او روائياً يطالع الناس روائعه على « شاشات » السينما والتلفزيون !

المسكنة ليها حوبة :

واذا ذكرعبد الرحمن كنتباى فلابد ان يذكر النفراوى . وهو تلميذ لحق بنا فى مدرسة ام درمان الاميرية بأخرة . ورغم انه كان تلميذاً يحسن الصمت ولايميل الى كثرة الكلام ، ويجيد التزين بالسكينة ولاينزع الى اللجاجة والمماراة ، الا انه من ناحية اخرى كان انصارياً متشدداً يطر به الحديث عن تاريخ الانصار ويستهويه . وهو قد صار بالطبع صديقاً أثيراً لى ولعبد الرحمن كنتباى . وهو ايضاً من المتشيعين لفريق الهلال ، يتملكه حزن عميق اذا انهزم فريق الهلال ، وتنتابه موجة فرح بالغ تخرجه احياناً عن وقاره المعهود اذا انتصر فريق الهلال . وهو رباطابى شديد الاعتزاز برباطابيته ، ولكنه كان يتناساها اذا التقى بى او بعبد عبد الرحمن كنتباى ، فكلانا لم

يكن ليقيم وزناً للقبيلة بقدر ما كان يثمن الانتماء الى الانصارية وما صنعت للسودان من خوالد السير والامجاد.. فكان النفراوى يتيه بمجده القبلى على غيرنا ويفاخرهم بذلك ، فاذا اشتمل عليه اللقاء بنا تجرد من عصبية القبيلة وشرع يعدد امجاد اهل السودان الذين التفوا حول الامام المهدى وامنوا بدعوته وافتدوها بدمائهم ومهجهم وارواحهم واصبحوا بها بفضل الله امة واحدة بعد ان كانوا طرائق قددا .

كان النفراوى على وجه العموم تلميذاً هادئاً جداً فى اغلب احيانه ، نزر الكلام قليل المشاركة فى منتديات التلاميذ وتجمعاتهم ، فهو لايثق كثيراً باولاد ام درمان ولا يهرع الى مجالستهم الا مضطراً او مدفوعاً بسبب من الاسباب ، يؤثر العزلة ويميل الى التفكير والتأمل الانفرادى بعيداً عن محيط التلاميذ . وكان يبدو وكأن به شيئاً من البداوة يباعد بينه وبين كثير من زملائه ، ولكنه مع ذلك كان تلميذاً حسن الهيئة نظيف الثياب موفور الاناقة . ورغم محبته لفريق الهلال فهو لايعبر عن عواطفه وحقيقة ولعه بهذا الفريق الا فى حدود مرسومة لا يتعداها ، وينظر للمعارك التى تنشب بين التلاميذ فى هذا الخصوص من بعيد ، لايشارك فيها الا قليلاً والا ان يكون مدفوعاً للمشاركة فيها دفعاً لايجد سبيلاً الى النكوص عنه والتغافل عن ندائه . ومع ذلك فقد كان كريماً مجاملاً طلق الوجه واليد والمشاعر . قال عنه بعض الخبثاء من زملائه انه ابن تجار واتهموه من وراء ظهره بالبخل وبأنه مقبوض اليدين . ولكنه ابان عن نقيض ذلك . ولقد دعانى وعبد الرحمن كنتباى اكثر من مرة لتناول الباسطة الكورنر – أى الركنية – وذلك غاية فى الكرم . ومنذ مجيئه الى المدرسة اجلسه الاستاذ فى الصفوف المتاخمة للربع الخراب ، فنشأت بينه وبين الصقور صلات ، ولكنه – فى اول امره – لم يكن يبدى حرصاً عليها ولا اهتماماً بها رغم نصحنا له بأن يحترم هذه الصلات ويعمل على تمتينها وتطويرها . وماذلك الا انه لم يكن قد الم بعد بحقائق الاشياء وموازين القوى ، ولم يكن بعد قد اطلع على مواقع الغلبة والهيمنة وعلى اهمية الاحلاف والمعاهدات غير المكتوبة فى مجتمع لايرى فى العزلة والابتعاد عن الجهود الجماعية الا ضعفاً وهواناً

على الناس . ولقد وصفه عبد الكريم مرة بانه مسكين وحاولنا - عبدالرحمن كنتباى وشخصى - ان ننفى عنه هذا الاتهام ونباعد بينه وبين هذه الصفة باعتبارها مقللة من شأنه . ولكنا فوجئنا بانه لم يكن يعترض عليها ، وربما كان ذلك لتبينه للامور وتفهمه لها ورغبة منه فى ان يكتب - بفضل هذه الصفة ، صفة المسكنة - مسالماً فى دفاتر عبد الكريم ، لان من كتب غير ذلك فلابد ان ينتهى به الامر الى شجار مع عبد الكريم فى يوم من الايام . ومثل هذا الشجار امر معروف النتائج ملغوم العواقب ، لان حلفاء عبد الكريم - وهم بقية الصقور فى الفصل - لن يتركوه وحيداً . ومن تضافرت عليه مخالب الصقور لا أمل له فى النصر إلا أن تهبّ لنجدته ونصرته قوات خارجية من أولاد الحى . وكان مثل هذا يحدث أحياناً في ساحة المولد أو فى سوق الزلعة خارج السور الشمالى لجامع الخليفة . غير أن النفرواى لم يكن من مرتادى سوق الزلعة المداومين ، بل ان ارتياده لجامع الخليفة نفسه لايتعدى فى أغلب أحيانه دخول خيمة الأنصار ، الأمر الذى يحدث بضعة مرات فى طول العام كله . وبالفعل - ولدهشتنا الكبيرة - أفاد النفراوى كثيراً من وصف عبد الكريم له بأنه مسكين إذ كفاه ذلك الوصف شر عبد الكريم نفسه فى المكان الاول ، وكفاه شر الصقور عموماً . وفى الأدب الشعبى السودانى وسيره ان الربابيط - وهم قطاع الطريق - يتمتعون بقيم عالية ويتخلقون بأخلاق رفيعة فيها من معانى المروءة والنجدة ما تحتار فيه العقول ولكن ترتاح له النفوس . فهم اذا عثروا فى مرابضهم على قافلة اغنياء جردوها مما تملك واستحوذوا على متاعها وخزائنها قسراً وعنوة واقتداراً ، دون ان تطرف لهم عين او تخالجهم شفقة . واما اذا لاقوا فقيراً او مسكيناً فانهم يعطفون عليه ويغمرونه بحنانهم ويبلغونه مأمنه سالماً معافى ، وربما تكرموا عليه بشئ مما عندهم . ورغم ان الصقور فى فصلنا لم يكونوا «ربابيطاً» او قطاع طريق - حاشاهم ذلك وحاشى قيمهم العالية - الا انهم كانوا عناصر ردع مهمة لكل من تسول له نفسه العبث بكبريائهم او كبرياء من يكون فى حمايتهم . ولايكون فى حمايتهم الا من هو حليفهم او من ينعتونه

بالمسكنة . وهم كذلك عناصر ردع لكل من يعترض على هزلهم البرئ او يقلل من أهميته ومن شأنهم من التلاميذ . وذلك ان الهزل الذى كانوا يباشرونه فى الفصل وخارجه من هرجلة او موسيقى «برجلية» ومن ركض ورفس وأناشيد انما كان فى اعتقادهم امراً ضرورياً لاشاعة الحيوية بين الناس ولاجتثاث أسباب السأم والضجر من وجه الارض . ولقد كانوا بالفعل اركاناً هامة لبعث هذه الحيوية والمحافظة عليها من غوائل البرم والرتابة . وكنا نحترمهم كثيراً ، لا لبأسهم ومقدراتهم البدنية – وان كانت هذه ايضاً اموراً تجبر على الاحترام الناتج عن الخشية – ولكن لهذا الهزل الذى يحدثونه ببراعة وتشويق ، فيميط عنا أذى الملال ويرفع عن صدورنا أثقال السأم ، خاصة فى بعض الحصص ذات المواضيع الجافة الصارمة ، وعند بعض الاساتذة الذين يلحون على اجتذاب اهتمامنا وانتباهنا طيلة خمس واربعين دقيقةمتتابعة ! وانى لأذكر الآن كيف سألنى استاذى بروفسور تيلر استاذ الجراحة فى كلية الطب وقد كان صديقا لى – سألنى وهو يشير باصبعه الى مبنى جامعة الخرطوم ونحن على مقربة منه قائلاً : أتدرى ماهذا المبنى ؟ قلت نعم . هو جامعة الخرطوم . فقال : لا . انما اعنى ذلك المبنى ، انه المبنى الذى يجتمع فيه مجلس الجامعة . أتدرى ما معنى مجلس الجامعة ؟ قلت : نعم انه مجلس لكذا وكذا . قال : كلا . ان معنى مجلس الجامعة هو : ساعتان من الملل القاتل مرة فى كل اسبوع ! ولو كان فى مجلس الجامعة عبد الكريم وزمرته بشفراتهم ومناقلهم وبراجلهم ومثلثاتهم لما شكا هذا العالم المرموق من الضجر ولا برم بانعقاد المجلس وان دام ذلك الانعقاد ساعتين بالتمام والكمال !

وربما لم يكن النفراوى شديد الاهتمام بدروسه بالرغم من هذا الهدوء الذى يسيطر على كل جوارحه فى اكثر الاوقات . غير ان ذلك لايقدح فى ذكائه ولامقدرته على الاستيعاب . فهو تلميذ ذكى ولكنه لايستذكر دروسه ولايعبأ كثيراً بما يمكن أن يجره ذلك عليه . ومن آيات ذكائه وبعد نظره وفطنته انه لم يعترض على وصف عبد الكريم له بأنه مسكين بل فرح بهذا النعت وسعد به وجهد فى أن يؤكده ويتلبس به بين الناس .

وهو قد أفاد منه بالفعل . ففى عصر يوم من الايام كنا نلعب كرة القدم فى أحد الميادين بجامع الخليفة وكان النفراوى ضمن ثلة من المتفرجين ، فهو لم يكن كلفاً بلعب الكرة وان كان يجد متعة فى مشاهدة المباريات ومتابعتها . وفجأة حدث اشتباك وجد النفراوى نفسه فى لبه . وتناولته بعض الايدى وألقى به على الارض ففارقت العمامة رأسه واغبرت ملابسه وعفر وجهه التراب ، وصار يدافع عن نفسه بكل ما أوتى من قوة.

ولما هرعنا الى نجدته كان من بيننا عبد الرحمن كنتباى وعبد الكريم ، فما هى الا بعض بنيات ولبعات وشلاليت متتابعة حتى انقشع مثار النقع وهدأت العاصفة وتفرق الجمع وهرب المعتدون وكانوا من خارج المدرسة . وقد وشت سحناتهم بأنهم ربما كانوا من اولاد الموردة ، وأكد ذلك وقوف الكبتل بعيداً عن ميدان المعركة ، فهو العليم بما يعنيه التعارك مع اولاد الموردة ! غير ان عبد الكريم وعبد الرحمن وجدا فرصتهما واستشعرا ما كنت قصصته عليهما من انباء تلك الواقعة التى لاتنسى والتى كان قد زجنا فيها الكبتل ثم فر من الزحف فراراً ونحن من ورائه نجر جر أذيال الخيبة والاندحار . ولذلك خف كل من عبد الكريم وعبد الرحمن كنتباى الى نصرة النفراوى « المسكين » رغبة فى استنقاذه من براثن اولئك المردة المعتدين ، ومحبة فى اصدار اعلان عملى صريح للجميع ان فصل الثوانى - وهو فصلنا - لايمكن ان يكون «ملطشة» بحال من الاحوال . ورغم انى قد تلقيت فى تلك المعركة لطمتين أو ثلاثاً على أرنبة أنفى مما أصاب وجهى بورم دام أياماً قبل أن « ينفش » ويزول إلا أننى كنت سعيداً غاية السعادة ، فقد تمكنت من تسديد بعض الضربات الموجعة لاكثر من واحد من المعتدين ، ولويت ذراع « القندف » الذى كان يجثو على صدر النفرواى يحبس انفاسه حتى صرخ القندف من فرط الألم ، وما ان تخلص من يدى حتى ركب ساقيه المغبرتين وأوغل فى عار الفرار . . وهو يتعثر من أثر شلوت اخير اصابه من قدم عبد الكريم الفولاذية . ولو تمكن منه ذلك « الشلوت » تماماً لطرحه على الارض مغشياً عليه . ولكنها جاءت « سلاخية » فأفلت من كامل أثرها ومما كان سيتبعها من شلاليت أشد

وأقوى ، وهو يترنح ويتصايح من فرط الالم . وعندما ساعدنا النفراوى حتى استوى قائماً من الارض ينفض عن وجهه وملابسه التراب سألناه عن سبب العراك فقال : كنت اشاهد المباراة وفى اثناء ذلك تفوهت بكلمة واحدة استاء لها من كانوا يقفون من حولى وانا لا اعرفهم ، فانهالوا علىّ ضرباً ثم كان ما كان . وقال عبد الكريم : الم اقل لكم ، ان النفراوى مسكين ؟ وعندها ادركنا فطنة النفراوى فى تقبله لهذا النعت من عبد الكريم ، وادرك النفراوى القيمة الحقيقية لوصف عبد الكريم له بالمسكنة ، وظل النفرواى «مسكينا» - وذلك يعنى انه فى حماية الصقور - حتى غادرنا المدرسة الاميرية . ولو انه كان غير ذلك فى نظر عبد الكريم لما سعد بانتصاره له فى ذلك المشهد المريع ، وربما كان انتصارى وانتصار عبد الرحمن كنتباى له غير كافيين ، وقد رأى بعينى رأسه كيف وقف الكبتل بعيداً عن الشر وهو يكاد ان يغنى له فرحاً به وهو آمن منه بعيد .

وفي اليوم التالى كانت تفاصيل هذا العراك قد بلغت الجميع فحمدوا لنا نجدتنا للنفراوى وان كان جل الحمد موجهاً الى عبد الكريم لانه فى اعتقادهم هو العنصر الحاسم فى تحقيق النصر وانزال الهزيمة بالمعتدين . ولقد اثنوا ايضاً على عبد الرحمن كنتباى ، ولكنهم حاولوا الاستخفاف بشأنى فى ذلك التصدى وذلك الصمود ، ولم يشفع لى عندهم ورم أنفى الذى كنت أبصره ناتئاً كالجبل أمام وجهى لايام طويلة ، وكنت بسببه موضع تندر الفاضل شريف ومحمد العوض ، فصبرت على ذلك حتى شفانى الله . اما الكبتل فقد لقى من بقية الصقور لوماً شديداً على تثاقله عن خوض العراك . . وهو قد ادعى انه «زعلان» من النفراوى فلم يصدقه أحد . وقال بعض الخبثاء : المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، فأخروجنى بذلك من الايمان وابقوا فيه الكبتل . وتحاشى محمد العوض مثل هذه التعليقات «اللزجة» واكتفى بقوله : امانة المسكنةَ ما ليها حوبة !

لقد كان فى تعابير وجه النفراوى احياناً بعض غموض . فحيناً تلقاه ساهماً مثقل

الخواطر بالهموم وكأنه موكل بوضع حلول ناجزة لمشاكل جميع ابناء البشر فى الارض . فاذا الفيته على هذه الحال فانك تقرأ على وجهه شيئاً من الكآبة والضيق . فاذا دنوت منه نفر عنك نفوراً واشاح بوجهه عنك فى ادب وحياء . ولكنه كان يأنس بحاج حنفى عندما تعتريه مثل هذه الحالات ، ويجد فى حكمه ومواعظه كثيراً من الراحة والسلوى ، وذلك ان الحاج حنفى هادئ مثله وانما يباينه فى قدريته التى حاول النفراوى ان يقتنع بها دون ان تواتيه الطمأنينة التامة لها او الركون المستقر اليها . وقد كان حاج حنفى بارعاً فى ضرب الامثال والاستشهاد بالأقوال التى تعلل النفس بالآمال وتهون عليها ما تظن انه من مصائب الدنيا . فكنت تراه يحدث النفراوى بنغمة حزينة ولكنها مطمئنة ، وترى النفراوى يستمع اليه بروح قلقة بعض الشئ فيها تطلع الى بشرى غامضة خفية ، كأنها تأمل ان تستشرفها من وراء ذلك الحديث ، وكان من حسن حظى اننى احظى بالقبول عند كليهما . فاذا المت بهما وهما فى غضون تلك المناجاة الهادئة فانهما يبسمان فى وجهى ولاينفران منى ويشركانى فى موضوع حديثهما ويبديان رغبة فى تحسس ارائى حول ما يتطارحان فيه من بثوث . غير انى - فيما كنت أظن - لا اسعفهما بطائل ، فقد كنت بعيداً عن تلك العوالم القلقة التى يحلق فى اجوائها النفراوى عندما تلم به ساعات الكدر ، رغم أنا كنا نلتقى فى كثير من الامور وفى طليعتها أمور العقيدة والتاريخ . وكنت على قرب مناسب من حكم الحاج حنفى ومواعظه ومعانيه التفويضية ، رغم ما كان يباعد بيننا من تباين فى النظر الى حقائق التاريخ ودور جذور كل منا فيه . واذا قدر لى ان أصف ما كان يجمعها فى تلك اللحظات الهادئة وما كان يسودها من تفكر وتدبر فى امور الدنيا والخلائق فانى أحسب - وانا أقرب لليقين عما سواه - أنها كانت تدور حول المعانى التى جسدها المعرى فى بعض شعره الذى يقول فيه :

صنوف هذه الحياة يجمعها .·. طول انتباه ورقدة وسنهْ

دنياك لو حاورتك ناطقةً .·. خاطبت منها بليغة لسنه

ليفعل الدهر مايهم به .·. إن ظنوني بخالقي حسنه

لا تيأس النفس من تفضله .·. ولو أقامت في النار ألف سنه

ولو علما لوجد كل منهما ابلغ عزاء في معاني التفويض التي تنطق بعجز البشر وتقصير الفهوم عن ادراك ماخفي واستتر في طيات الغيوب ، وهو الذي عبر عنه المعري ايضاً بقوله الرائع المحيط :

وروم الفتى ماقد طوى الله علمه .·. يُعد جنوناً أو شبيه جنون

على ان النفراوي كان سرعان ما يتماثل من تلك الوهدات الفكرية التأملية فينطلق جبينه ويعود من أسفار الغيوب ، ولكنه قلما يطلق لنفسه العنان وقلما يخرج بها من ضيق التماسك والانضباط الى سعة المرح والعبث الصريح . وذلك انه مجبول على المحافظة ، مفطور على مراعاة خلائق وحدود بعينها . ولقد وددت لو انه انطلق وتوسع وارخى لنفسه العنان وخاض في بعض ما كان يخوض فيه غيره من استحداث للطرائف واختلاق للملح والمواقف المسلية ليزيح عن خاطره ما كان يحتشد فيه من هموم لم نقف على اصلها ودواعيها ولم نفلح في تفريج كروبها عنه تماماً . ولقد حمدت للحاج حنفي اهتمامه بالنفراوي وعطفه الصادق عليه ، لان النفراوي كان طيب الخلائق والأعراق . وكنت احسب ان عبد الرحمن كنتباي سيوليه مزيداً من الاهتام خاصة بعد ان اصبح عبد الرحمن نجماً لامعاً من نجوم الفصل خاصة والمدرسة عموماً . ولكني ادركت ان عبد الرحمن كان في بعض احيانه يضيق بصمت النفراوي وشدة هدوئه ولكنه لا يتوانى عن الانتصار له ان هوتعرض لسوء او عدوان . فالذي يجمع بينهما امر عظيم . وقد ظل النفراوي راغباً اشد الرغبة في الانعتاق من اسار هذه التأملات التي تشقيه من حين لآخر دون ان يجد لجوارحه استجابة لهذه الرغائب . فهو الاسير الطليق ، وهو الآبق المملوك . وما المالك الا رب العرش الكريم

وهل يأبق الانسان من ملك ربه .·. فيخرج من أرض له وسماء ؟

دوز .. ومد البوز:

من اولاد الموردة في فصلنا صلاح سليمان ابو صالح . فهو ينتمي الي الموردة سكناً وموطناً وعقيدة كروية ، ولكنه عمرابي الاصل والعصبية ، وهو قليل الحجم متوسط الطول وقد تردد موقفه بين الصقور والحمائم من اولاد الموردة .فتارة هو مع محمد الحسن الشايقي وأخري هو مع محمد العوض وقاسم ابو عكر .وذلك من ذكاء صلاح ودهائه.فهو يتخذ الموقف الذي يناسبه ويرتاد المناخ الذي تنتعش روحه فيه ، من غير تفريط في عقيدته الكروية . ولقد كان صلاح من اوائل التلاميذ الذين وضعهم الشيخ ابو بكر في قائمته المعروفة ولكنه لم يأبه كثيرا بمثل هذه الامور ،واتخذ من تكتيكاته الخاصة ملاذاً ينجيه من كثير من الورطات والمآزق .ورغم انه كان مرتبطا مع محمد الحسن في حلف غيرمكتوب ولكنه ملزم إذْ تقضي بذلك الأعراف والسنن الا انه تباطأ فى نجدته له عندما ادلهم الخطب بمحمد الحسن ، وآثر التحليق فى الآفاق مع حمائم الموردة بعيداً عن المخاطر وموارد الشقاء . فكان له فى ابتعاد الحمائم عن مثل هذه المضائق اسوة حسنة ، ولكن محمد الحسن لم يغفرها له الا بعد جهد جهيد ومخاصمة طويلة الامد . وقد شق ذلك على صلاح وأيقن بسوء مايمكن ان يترتب على هذه القطيعة لانه – كما كان يقول – لا يأمن مكر الشايقية وان كانوا رفاق موطن موردى واخوان عقيدة كروية . . ولكن الله سلم ، فقد سعى بعض الخيرين من اولاد الفصل بينهما حتى تم الصلح وعادت المياه الى مجاريها . فعادت الى صلاح حيويته بعد ذبول ، وأضحت سماء وجهه بعد ان كانت قد تلبدت بالغيوم وانذرت بقصف الرعود . وعاد الصفاء ونسى محمد الحسن ما كان من تخاذل صلاح عن نجدته تماماً .

ولقد امتاز صلاح سليمان برقة فى طبعه ودماثة فى خلقه حببت فيه زملاءه فكانوا يعطفون عليه كثيراً ويدركون ان الذى يقعد به عن التصدى للمعارك والأهوال ليس هو الجبن ولا الفرق وانما هو قلة الحيلة وضعف البنية وربما جنوحه بطبعه الى المسالمة وبغضه للشحناء والعداوة . وعندما تعرض صلاح لنكير الشيخ ابى بكر كان تعاطف زملائه معه بالغاً ، وذلك لسببين : اولهما ان صلاحاً كان بالفعل يحفظ بعض سور

القران ولكن الشيخ الملحاح لا يمهله حتى يقدح ذاكرته لتنثال على لسانه آيات الله البينات تباعاً ، بل ينتهره ويغلظ عليه فى القول فتتفلت السور والآيات من صدره كما يتفلت الماء من بين فروج الأصابع لايبقى منه شئ . وثانيهما ان صلاحاً كان تلميذاً مؤدباً طيب الاخلاق والأعراق . ورغم ذلك فقد أمر الشيخ ان يدرج اسمه فى سلك هؤلاء قليلو الادب ثم اتبع ذلك بتعابيره القارصة القارضة الكاوية التى تدور كلها حول البيت ومرآته . والبيت هو البيت ، والمرآة عند الشيخ تعكس ما يريده الشيخ وتنطبع عليها الصورة التى تروقه وترضيه . . وكثيراً ما يكون ذلك خيالاً صرفاً من خيالات الشيخ المسرعة الوثابة ، لايمت الى حقيقة البيت بصلة . وقد بلغ من تعاطف التلاميذ مع صلاح ان أوحى اليه بعض العفاريت الخبثاء منهم - رغم علمهم بمقدرات صلاح ومدى استعداده النفسى - ان ينهج فى انتقامه لنفسه من الشيخ منهج مصطفى عابدين وجماعته ، الا ان صلاحاً لم تطب نفسه بهذا الاقتراح ولم يستهوه مجرد التفكر فى الدخول فى مثل هذه المغامرة المفعمة بالأخطار والمحاذير . وذلك ايضاً لسببين : الاول ان طبيعة صلاح تختلف عن طبيعة مصطفى عابدين وشيعته ، ومزاجه السلوكى يغاير امزجتهم . . فهو تلميذ منضبط فى أغلب تصرفاته لا يجنح للتفريط الا سهواً ولا ينغمس فى لُججِ التسيب الا ناسياً غافلاً يكاد يدركه الغرق ، وهو مع ذلك سريع العودة الى الصواب والرشاد شديد الاسف والاسى على مافات وفرط منه تحت سلطان الغفلة والشرود فهو بطبعه اكثر ميلاً للجد من الهزل وللاستقامة من الاعوجاج.

والثانى ان دقة مصطفى عابديين فى احداث مايحدث من عبث تحتاج الى قدر غير قليل من التدريب والتمكين في اجادة هذا الفن ، لأن العبرة ليست في الاتيان بهذا العمل علي أي وجه من الوجوه لتلطيخ ملابس الشيخ بحبر الدواة فذلك امر قد يكون في متناول أيدي الجميع ، وإنما هي في اتقانه واجادته بحيث لاتقع نقطة واحدة من الحبر المرشوش إلاحيث أريد لها أن تقع ، ثم الخروج بعد ذلك كله من اي احتمال للاتهام أوالتجريم كما تخرج الشعرة من العجين لايعلق منه شيء بها . وذلك لم يكن

في مقدور صلاح لأنه لم يؤت مكر مصطفي عابدين ودهاءه وثعلبيته ، ولم يؤت ملكته في إدعاء البراءة والظهور بمظهرها ظهوراً لايرقي اليه معه شك ولايدنو منه معه أصبع اتهام . ولو أن صلاحا حاول ذلك لافتضح أمره في لحظات لأن تقاطيع وجهه كانت تنم عما في دخيلته بوضوح ، وتنطبع أحاسيسه وان دقت وتناهت في الدقة علي عينيه بل وسائر جوارحه ، يكاد يقول خذوني . ولما كان ذلك كذلك فقد ادرك صلاح أن اي محاولة منه للثأر لنفسه علي غرار هذا المنهج المتفرد لامحالة ستورده مهالك أخر هو في غني عنها وستدفع به الي كرب لاقبل له بها .لذلك قنع صلاح بما قسمه الله له من حنق الشيخ وفجاءاته التي لا تمهلك حتي تستجمع اشتات ما في ذاكرتك فتبوء بما عندك ، ورضى بما يستتبعه ذلك الحنق ، وطأطأ رأسه للعاصفة عساها تمضى بسلام. وعندما نلتقي في فناء المدرسة في فسحة الفطور أوغيرها من لحظات الفراغ الغالية لم يكن صلاح يزيد في تعليقه علي الشيخ بأكثر من قوله «ياخي دا شايقي» ! وماهو بشايقي . ولكنه كان يتردد كثيراً ويتلفت كثيراً قبل أن ينبس بهذه المقولة حتي يطمئن على أن محمد الحسن الشايقي ليس بمقربة منا ، لأن محمد الحسن شايقي حقاً وصدقاً وهو بعد ذلك – ولعل الأصح أن يقال أنه قبل ذلك – موردابي موطنا وعقيدة كروية ، وتلك وشائج كبري وأواصر وثقي تجمعه بصلاح . وهو وان كان من صقور المورداب فان من يصادق الحمائم لابد أنه يحتاج الي مصادقة الصقور أومصانعتهم علي اقل تقدير ، فهو محتاج الي عونهم ان احتوشته المكاره أوالمت به الفتن أوداهمته الخطوب . ومن تمام العقل وكمال المعرفة أن تبقي حبال الود بينك وبين مختلف القطاعات علي قدر طيب من المتانة والثبات . وهكذا تأرجحت استراتيجية صلاح سليمان بين هؤلاء واولئك لايزيده اقترابه من هذا المحور اي بعد من ذلك المحور الاخر . وهو قد نجح تماما في اكتساب عطف المحورين وقارب بين الفلسفتين وانتهج سبيلا وسطا حبب فيه الجناحين علي ما بينهما من تباين في النظر الي الاشياء وترتيب الامورعلي أساس الأولويات . ولكن حقيقة الامر وسر النجاح هى أن صلاحاً كان

تلميذاً حلو المعشر طيب النوايا حسن السريرة ، لايضمر سوءاً ولاشراً لأحد . واذا أحدق به مكروه فهو يبتغي أيسر السبل لاجتنابه وربما تحايل علي ذلك بفطنة وحسن تدبير ، لأنه ينشد السلامة وينفر من دواعي الوقوع في المآزق .

وصلاح تلميذ مجتهد مافي ذلك من شك ، وقد شهد له بذلك اساتذته وزملاؤه ، وهو يرسل نفسه علي سجيتها فى اغلب الاوقات وقد ميزته هذه التلقائية وأكدت للناس براءته ونقاء جبلته ، ولكنه كثيراً مايبدي بعض الحذر اذا رأي بعينى بصيرته سحباً من الشر تتجمع فى الافق البعيد وتنذر بوقوع ما لا يرتضيه . فهو بطبعه يتجنب المعارك التي كثيراً ماكانت تنشب بين التلاميذ «وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئم»..... ولم يكن ذلك لخور في نفسه أومخافة إقدام ولكنه جزء من طبيعته التي فطر عليها ومزاجه الذي نشأ عليه ، فهو مسالم سجيته المميزة المسالمة ، لايجنح إلى المغامرات ولا يغشي دروب الأهوال . يعرف مقدراته معرفة تامة فلا يضعها في موضع اختبار يجهل عاقبته ، ويحترم نفسه احتراماً واعياً فلا يزج بها فى مايصعب عليه الخروج منه . واية ذلك أنه كان معتدلاً في تشيعه لفريق الموردة ، لاتحمله فى خضمها موجات التطرف التي قد تنتظم الاخرين ، وقد كنا نشهدها خاصة عندما يخرج فريق الموردة منتصراً علي فريق الهلال ، لأن الهلالاب لم يكونوا يحتملون تطرف المورداب وتماديهم فى الشماتة عليهم ، فتنشب علي أثر ذلك المعارك الضارية بين الشيعتين ، ويعود صانعوها من « متلقين الحجج» إلي منازلهم فى نهاية اليوم وكأنهم « بعاعيت » خرجت لتوها من مقابر حمد النيل من فرط « العفار » والتراب العالق بالوجوه والأيدى والارجل والثياب .

ولكن صلاحا كانت تغلب عليه هذه التلقائية التى اشرنا اليها من قبل ، وهي تنبيء عن البراءة وسلامة النية ، الا انها قد تجر علي صاحبها ما لايكون فى حسبانه من المتاعب ومالايدور بخلده من المثالب . ولأنه يرسل نفسه علي سجيتها فى أغلب أحيانه فان بعض الامور التى تحتاج الى شئ من التدبر قد تفلت من القبضة فيجري على اللسان دون وعي حقيقي ما يستحيل تداركه بعد فوات الاوان فيعود على صاحبه

بخسران ولات ساعة مندم . ففى ذات مرة كان استاذ اللغة الانجليزية يلقى علينا درسه ونحن في السنة الاولى . فكان يقول إن الفعل المضارع «قو» (بمعنى يذهب) عندما يسند مثلا للشخص المفرد الثالث أو الغائب يصير «قوز» (He goes) وهكذا... ثم طفق الاستاذ يسأل . كيف يصير نطق الفعل «دو» (بمعنى يفعل) عندما يسند هذا الاسناد ؟ فصاح صلاح بحماس بالغ : فندى ... فندى ... فندى ... وهو يرفع يده ويشير بسبابته . وعندما أشار عليه الاستاذ بأن يتكلم قال بالصوت العالي : « دوز » ونطقها هكذا (DooZ) فانفجر الاستاذ ضاحكا مقهقها .. وضحك بقية التلاميذ ايضاً ، وربما حمل بعضهم علي ذلك ضحك الاستاذ دون سواه ، وربما أدركت قلة منهم سبب الضحك . وأحس صلاح بخجل شديد خاصة بعد أن أبان الاستاذ أن الاجابة الصحيحة هي « دظ » (DOES) وليست «دوز» كما قال صلاح . وزاد من خجله أن الاستاذ أخذ يردد مقولته الخاطئة مراراً في تعجب وزراية بينة وهو يضحك ضحكات تحمل كل معاني الهزء والسخرية . وظل خبثاء التلاميذ يتندرون علي صلاح وينادونه صلاح دوز . فكان صلاح يغضب من ذلك غضباً شديداً يظهر علي ملامح وجهه كلها ، فتنتفخ أوداجه وتجحظ عيناه وتحمران وتبتلان بدموع الحرقة والاسي ، ويضطرب أنفه في تقلصات متتالية تنطق بالوعيد ، وترتعش شفتاه وقد تراختا وتمددتا في انتحاب صامت . ورغم أن محمد العوض كان يبدو وكأنه أكثرنا تعاطفاً مع صلاح وذلك لشتي الوشائج التي تربط بينهما إلا انه لم يكن ليفوت علي نفسه فرصة كهذه .. فاذا كان صلاح حاضرا فهو يعزيه ويهون عليه وقع المصيبة قائلاً : ياأخى سيبك بلا دوز بلازفت ، يعنى إيه ؟ الواحد ما بتعلم . ما كلنا كنا حنقول كده ! أصلو نحن خواجات ولا شنو ؟ . أما اذا كان صلاح بعيدا أوغائباً فان محمداً «يموت » بالضحك ويقول : صلاح قال دوز ... ومد البوز . ولعله أمر ملاحظ أن غضب صلاح من اطلاق اسم « دوز » عليه كان مدعاة لاكثار التلاميذ من ترديده على مسامعه رغبة عبثية منهم في اثارته . ولو أن صلاحاً أحني رأسه لهذه العاصفة أيضا لمضت وسكنت دون أن

تترك اثاراً تذكر . ورغم أنه قد أبان لزملائه واساتذته عملياً عن مقدراته في الالمام المعافي بلغة بني السكسون إلا أن ذلك الاسم الذي جره علي نفسه بتسرعه وارساله لنفسه علي سجيتها لم يفارقه أبداً حتي نهاية فترة بقائنا في امدرمان الاميرية . فكان التلاميذ ينادونه ويشيرون اليه باسم « صلاح دوز » مغالاة منهم في « المكاواة » وتأديباً له علي استنكاره لهذا اللقب الذي جناه هو علي نفسه ولم يجنه عليه أحد . والواقع أن كثيرين من اولاد الفصل قد لحنوا مراراً في نطق الكلمات الانجليزية ونودوا بأسماء من جنس لحنهم هذا ولكنهم بددوا هذه الاسماء وأزاحوا هذه الالقاب عن أنفسهم بالضحك واصطناع عدم المبالاة . ومنهم من كان التلاميذ أصلاً لايجرأون علي مناداتهم بها ان أحسوا منهم بوادر امتعاض اونذر ضيق أوعدم قبول . ومثال ذلك محجوب حسن سعيد الذي كان ينطق كلمة « ايجبت » (Egypt) بالتركيز علي حرف « الواي » فيقول « أجيبت » فيمد الجيم ويكسر الباء ويجعلها باء عربية وهي ليست بباء ! ورغم أن محجوبا قد عرف بين التلاميذ بهذا الاسم إلا أن أحداً منهم لم يكن ليتجاسر بالجهر به في حضرته دون أن يتأكد من اعتدال مزاجه ، وانما كانوا يشيرون به اليه من وراء ظهره في غالب أحيانهم . وبالطبع لم تكن هذه الخشية لأن محجوبا كان له ذهب المعز ولكن لأنهم تهيبوا كفه الرادع وزنده الواري . وأما صلاح فانه لم يؤت بسطة في الجسم ولاسعة في المال ، فمنذا الذي يهابه ؟ غير أن تلك التسمية - أو ذلك اللقب - لم تكن لتنال من مكانة صلاح أو تخفض أو تقلل من قيمته الحقيقة فى نظر زملائه ، فكلهم كان يحبه ويغليه ، ولكنها شيطنة الأولاد المطبوعة قل من ينجو من نزقها وخبثها وعفرتتها !

أحمراني ياكل ... ازرقاني جلى :

من أبرز شياطين فصلنا التجاني الطاهر . والتجاني تلميذ شديد الذكاء جلي النبوغ . ولكنه واقع من السماء مائة مرة . وهو كثير الضحك شديد التندر علي زملائه ، يجيد هذا التندر اجادة لايكاد يضارعه فيها أحد ، وله فيه نهج متفرد من

الفكاهة لايغضب أحداً وانما يحبب فيه الناس . والتجاني ليس من الموردة ولا من بيت المال ، ولكنه كان يجلس على مقربة من عبد الكريم وهو معجب به ويجيد ألاعيبه أتم وأكمل اجادة . ورغم أنه كان من التلاميذ « الشطار » إلا أنه كان ميالاً إلي العبث والفوضي بشكل ملحوظ . فلا تكاد قائمة للمهرجلين في الفصل تخلو من اسمه . وقد تعود على عم مبارك لدرجة الإلف الذى يكاد يبلغ به مشارف الحنين . وهو من أقدر التلاميذ الذين يتخذون اللبد فوق سراويلهم ، فلا يغادر كنبة عم مبارك إلا وهو ضاحك جذلان يسخر من الاخرين . والتجاني من حي العرب وهو حي من أحياء امدرمان الشهيرة ، يقع جنوبي السوق الرئيسي للمدينة ، ويمتاز عندنا نحن تلاميذ تلك الازمان بشيئين هما في غاية الاهمية بالنسبة لنا .أولهما أنه كان الحي الذي أنشئت فيه مدرسة حي العرب الوسطي الشهيرة والتي تخرج منها من دفعتنا برعي أحمد البشير وحسن ابو العائلة وعبد الملك عبد الله حامد وبشري عمر أحمد والشفيع ابراهيم سعيد وخالد بابكر سعيد وغيرهم . وثانيهما تلك الأقاصيص الأعاجيب التي تشبه الاساطير يرويها علي مسامعنا التجاني الطاهر عن حرافيش حي العرب « والقنادف » العتاة الذين كانوا – علي حد رواياته الساحرة الأخاذة – يصولون ويجولون وينشرون الواناً من الرعب والفزع بين خلق الله وهم في مأمن من يد السلطان وكف القانون . وفي طليعة هؤلاء القنادف « بلة الاحمراني » . فاذا روي لك التجاني شيئاً عن « بلة الاحمراني » وكنت تسمع ذلك لاول مرة وقف شعر رأسك وامتقع لون وجهك وشحب سائرك وتيبست شفتاك واعتراك محاق يأكل كيانك أكلاً .. وذلك من شدة الهول الذي تجسده هذه الأقاصيص حيالك وامام ناظريك . ولكن مع مرور الأيام ألفنا هذه المشاهد في ساحات أخيلتنا وسكنالها وأحببناها . ولقد كنت أنا مولعاً بقصص التجاني عن « بلة الاحمراني » وبطولاته الخارقة لأني كنت أجد فيها مصداقاً لما كان يروي علينا في كبري ودنوباوي من أعاجيب . والفرق أن حي العرب لم يكن فيه « المسرح » وهو مسرح العفاريت والبعاعيت وأصناف الجن التي لاتحصي ، ولكن يبدو أنه كان لهم

جنهم الذي لايختلف إلا قليلاً عما يأتي به جن « المسرح » مما كان يرويه علي مسامعنا شمشون ودعبد الله وطلب وعبد التام وود التويم وأبوزعانف وسلسيون وغيرهم من كوكبة منتدي كبري ودنوباوي . والتجاني - كما قلنا - تلميذ حاد الذكاء ، وهو يغلف رواياته بملح وطرائف لم أكن أرتاب في أنه يبتدع أغلبها ابتداعا ويختلق جلها اختلاقا ، ولكنها كانت تتسق احسن اتساق مع مناخ أقاصيصه العام ولا تنبو عنه نبواً ظاهراً إلاّ فيما ندر . وتلك مقدرة وموهبة امتاز بها التجاني واستطاع أن يسحر بها عبد الكريم احمد حميدة وبقية الصقور ، فصار من المقربين اليهم ونعم بحمايتهم دهراً طويلاً . بل هو استطاع أن يدخل في هذه الحماية ابن عمته فتحي ابراهيم وصفي . كان عبد الكريم وزمرته يعجبون بأقاصيص التجاني أيما أعجاب . وهي وان كانت تروي وتجسد بطولات « بلة الاحمراني » التي يزعم التجاني انه كان شاهد عيان لها - رغم أني كنت اشك في ذلك كثيراً - إلاّ انها كانت تثير اعجاب الصقور ، وخاصة أجزاؤها الحافلة بالبنية والشلوت وأم دلدوم والصراع الذي ينتهي دائما وأبداً بانتصار « بلة الاحمراني » علي جميع « قنادف » الحلة المحليين والوافدين ولو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وكونوا جيشاً جراراً . ولو سمع ابو زيد الهلالي بهذه القصص التي يرويها التجاني لجاء الي حي العرب يبايع « بلة الاحمراني » علي السمع والطاعة وتنفيذ الاوامر ولو كان من بينها الحصول علي لبن الطير وعرق الحجر الازرق ومخ الضب الأعزب وبول قنفذ الدويم واحضارها له جميعاً علي وجه السرعة ودون ابطاء ! والعجيب في « بلة الاحمراني » أنه يلبس فى ذراعه الأيسر سكيناً فى طول السيف ، ولكنها لا تسل من غمدها أبداً حتى فى أحرج الأوقات ، لأن « بلة الأحمرانى » يعتمد فى إنزال الهزيمة الماحقة بأعدائه على قبضة يده اليمنى الحديدية المدمرة وقوة رجله اليسرى الفولاذية القاتلة . فهو « يلبع » باليمين ويركل « باللفت » . وقد كان التجانى يشبه يديه ورجليه بمروق العناقريب وأحياناً بقضيب الطرماج . واذا كان « بلة الأحمرانى » دائماً فى غنى عن استعمال السكين التى يزين بها ذراعه

الايسر فهذا من علامات الفروسية التى يندر ان تتوفر لمخلوق . وهو يذكرنى بقصص المدرسة الأولية وفى مقدمتها قصة ملك الفرس الذى كبرت سنه وعجز عن عمله ، واراد ان يسند الملك من بعده لأشجع اولاده ، فجمعهم وانبأهم بذلك . فقال أكبرهم : انا يا ابى قتلت الأسد وهزمت العدو بيدى فقط . وقال الثانى : انا يا أبى قد قتلت الأسد وهزمت العدو بسوطى فقط . وقال الثالث وهو أصغرهم : أما أنا يا أبى فقد قتلت الأسد وهزمت العدو ولكن كان ذلك بالسلاح . فقال له أبوه الملك : أنت أشجع اولادى ، والملك لك من بعدى ! وأنا لست ادرى ان كان «بلة الاحمرانى» بهزيمته للاعداء وتشتيت شملهم دون استخدام السكين يريد ان يرث ملكاً من ابيه ، لان التجانى لم يذكر لنا من هو الاحمرانى هذا ، ولم يبين لنا ان كانت الكلمة صفة لبلة او هى اسم لابيه ، ولقد تعرفت بعد سنين طوال على حقيقة «بلة الاحمرانى» وبعض افراد اسرته ، وهم من أحسن الناس خلقاً واكثرهم مسالمة ، تربطهم صلات قوية وطيبة باسرة صديقى التجانى الطاهر عليه رحمة الله . ولكن الصورة التى ارتسمت فى اذهاننا عنهم - وبخاصة عن «بلة الاحمرانى» خلال تلك الايام السحيقة - كانت صورة فتوات يقطعون الطريق ويرهبون الخلائق وهم من فزع آمنون ، لأنهم يفلتون من حساب القانون ويشكلون هاجساً مرعباً حتى بالنسبة للسلطان والقانون ! ومع ان عبد الكريم والكبتل وبقية الصقور كانوا يستمعون الى اقاصيص التجانى عن قنادف فريق العرب او حى العرب وفى طليعتهم «بلة الاحمرانى» بانبهار واعجاب الا ان احداً منهم لم يجرؤ ابداً على مجرد الموافقة او الوعد بالذهاب فى صحبة التجانى الى حى العرب فى يوم من الايام رغم دعوته الكريمة لهم فى اكثر من مناسبة وإلحاحه في ذلك . فهم يعلمون

علم اليقين انهم مهما اوتوا من قوة وجبروت فلا قبل لهم بمواجهة «بلة الاحمرانى» الذى أكد لنا التجانى مراراً بأسلوبه الساحر والأخاذ ان اقل واحد من عصبته التابعة له يستطيع ان يصرع اربعة اشخاص كبار ضخام فى اقصر وقت دون ان يناله رهق او اثر من اعياء او اثارة من غبار ! فراع ذلك عبد الكريم وصحابه وافزعهم ، رغم ان بعضهم حاول ان يروى عن حيه اقاصيص مشابهة اقل مافيها انها تشير الى المقولة الرائجة فى مثل هذه المواقف : "كان ما متنا غايتو المقابر شقيناها " ! وهذا أضعف الايمان ! ولكن الصقور على أى حال - رغم هذه المحاولات الرامية الى اظهار شئ من الندية والمماثلة - لم ينالوا من نفوسنا واخيلتنا ما ناله التجانى لانهم لم يؤتوا ما أوتى التجانى من موهبة وقدرة على تشقيق الحديث وحشوه وتحليته بالفستق والعسل وطرحه فى قالب من السرد شيق واخاذ . ولما دعاهم التجانى لاصطحابه لحى العرب ليروا بأعين رؤوسهم «بلة الاحمرانى» وبعضاً من بطانته نكلوا جميعاً «وتماحكوا» ولم يسعف احداً منهم مجرد الوعد مع ايقاف التنفيذ . ولذلك كان محمد العوض يهمس فى اذنى وهو يكاد يموت من الضحك : سيد امى بى سيدو ! .

ان بطولات «بلة الاحمرانى» لاتقف عند هذا الحد لانها متنوعة ولكنها واحدة من حيث انتهائها دائماً بالنصر المبين في أى نزاع مهما كان نوعه وفى أى مجال كيفما اختلفت اوجهه وأنماطه . ففى قهوة الزيبق كان هناك بعض العتاة يلعبون الللوص منهم من يغنم ومنهم يؤوب بالخسران . والخاسر منهم لايملك الا ان يلعق جراحه في صمت ويستقبل الهزيمة برضا وتسليم ، وذلك لان صاحب لعبة الللوص الذى يدير دفتها ويتحكم فى نتائج الرهان المنوط بها هو عملاق لاقبل لهؤلاء العتاة « اللاعبين » به ، وفوق ذلك فمن ورائه عصبة من العمالقة الضخام يشدون من ازره ويضمنون له الظفر فى كل الحالات . ولكن عندما يأتى الى هذه الحلبة «بلة الاحمرانى» فان الامر يصبح مختلفاً جداً . وذلك لان «بلة الاحمرانى» جيش وحده ، والعتاة والعمالقة من مرتادى الللوص كلهم يعلمون ذلك جيداً . ولما كان صاحب اللعبة ومديرها

اعلمهم قاطبة بقوة بأس الرجل فانه يصيح عند مقدمه : احمراني ياكل . . . ازرقاني ما يأكل . وهو قول حق لأن « بلة الأحمراني » لا يضارع في « الشفتنة » المتعلقة بهذه اللعبة ، وهو يكسب في جميع محاولاته ، زوراً او نوراً ، ولا احد يستطيع ان يقول « بغِمْ » . هكذا أكد لنا التجاني ، ولم يكن لنا بد من تصديقه ، لان مضاء بله الذى لاينكسر ولاينحسر كان قد وقرت معانيه فى صدورنا ، وتغلغلت حقائقه فى أغوار خواطرنا . فهو لم يعرف في حياته الهزيمة ابدا ولم يذق طعمها وانما دان له الجميع بمن فى ذلك مدير لعبة الملوص نفسه الذى كان صدره مثل باب السنط ورأسه اكبر من رأس الثور وذراعه اليمنى مثل عمود الفندك ورجله اليسرى كأنها أحد أعمدة الكهرباء . هكذا وصفه لنا التجانى ! .

واما امام سينما قديس او سينما « برمبل » ، واحياناً امام السينما الوطنية ، فقد كانت بطولة « بلة الأحمراني » وعصبته تظهر للقاصى والدانى جلية واضحة ، وكثيراً ما كانت تفوق بطولة من يتدافس الناس ويتعافسون لمشاهدتهم على شاشة السينما ذاتها ! وبلة وجماعته يدخلون السينما بدون تذاكر ، وعلى عينك يا تاجر . . هكذا حدثنا التجانى ، ولذلك فان اعجابنا بهم بلغ اقصى الدرجات ، فما اسعد من يستطيع دخول أي فيلم من الافلام دون ان يقطع تذكرة ، ودون ان يعترضه أحد ! ففى هذا من البطولة ما فيه . ولكن «بلة الاحمرانى» وجماعته لم يكونوا يكتفون بذلك بل هم احياناً يصعدون على اكتاف الناس ليبلغوا شباك التذاكر ، ويشترون التذاكر - وربما تحصلوا عليها دون مقابل ، والله أعلم ، وهذا هو الأمر الوحيد من امورهم الذى كان يتحفظ فيه التجانى ويسند العلم فيه لله - ثم هم يبيعون هذه التذاكر للناس فى ما يعرف فى أيامنا هذه باسم السوق السوداء . ولم تكن في ايامنا النواضر تلك سوق سوداء ، فالسوق كله أبيض والقرش نفسه ابيض . ولو علم « بلة الاحمرانى » ورهطه الابرار ان فى طى الازمنة المقبلة يوم أسود او اعوام سود لعملوا بمقتضى الحكمة المعروفة ولكان شأنهم اليوم غير شأنهم بالأمس . فحسب رواية التجانى كان هؤلاء النفر مقرشين

دائماً ولكنهم مبسوطو الايدى ينفقون يمنة ويسرة . وعندما سألناه هل هم ربابيط ؟ نفى عنهم هذه التهمة وقال انهم أبطال وفتوات . . يأخذون مايريدون عنوة واقتساراً ثم هم يجودون بما في ايديهم على المساكين . وقد رآهم التجانى بعينيه وهم امام سينما قديس كل منهم « يغرف» من ريكة صاحب «الجرم» ملء يديه من التسالى دون استئذان ، ويجلسون فى أى مكان داخل السينما يفرقعون حبات «الجرم» « يقزقزون » بها ويلفظون القشور فى أى اتجاه وعلى ملابس أى أحد او وجهه او يديه ، فلا يرتفع صوت بشكوى ولا تتحرك حاسة تنبئ عن أى لون من الوان الاعتراض او الأستنكار . لقد كان «بلة الاحمرانى» وفتيته الاشاوش ابطالاً لا يشق لهم غبار ولا تصمد امامهم قوة ولا يعجزهم امر من الامور . ولوكان الخواجة « برميل » نفسه موجوداً لما استطاع ان يحول بينهم وبين ما يريدون . هكذا نفث التجانى فى روعنا بمقدراته الرائعة على السرد والاقناع ، وهكذا استقر فى أنفسنا ان اللبخ نفسه لا يساوى شيئاً بالمقارنة مع هؤلاء الجبارين ! .

ولقد أقسم التجانى ان الفرد العادى من ثلة «بلة الاحمرانى» كان خليقاً بالدخول فى أى هول من الأهوال ومصادمة أى خطر من الأخطار ، وهو يستطيع أن يركب أى طرماج – بما فى ذلك طرماج «السمع» المكشوف – دون أن يضطر لابتياع تذكرة لانه لايخاف بخساً ولايخشى رهقاً ولايفزعه ولا يرهبه أى كمسارى او مفتش ، فكلهم يعلمون حقيقة الاشياء وواقع ميزان القوى الحقيقى فلا يباشرونه الا بالابتسام والتبجيل والترحيب . ويستطيع ان اراد ان ينزل «عديل» او «عكس» فى أى كشة من الكشات لاسيما كشة الكلية والظبطية وسبيل سلاطين وكشة الاسكلا في الخرطوم ، دون ان « يتترتع» أو يختل توازنه . وهذه « النزلات » العديلة والعكسية اذا حدثت فهى تكون من قبيل الحركات العبثية او بقصد التسلى وتمضية الوقت ، وليست خوفاً من الكمسارى او المفتش او الحاكم العام ! والتجانى عندما يروى لنا هذه الخوارق التى تميز بها أفراد ثلة «بلة الاحمرانى» في مجال الفروسيات الطرماجية انما يعلم علم

اليقين ان أى أحد من الصقور فى فصلنا يستطيع ان ينزل «عكس» فى بعض الكشات على الاقل ، ولكنه «يتترتع» ويفقد توازنه ، وربما انخبط على الارض وامتلأ وانشحن فمه ومنخراه بالتراب . . . غير أننا لانجرؤ على اذاعة نبأ الواقعة بين الناس وان كنا من شهود العيان . وهم ايضاً يستطيعون ركوب الطرماج بدون تذكرة ، ولكنهم ان صمدوا فى وجه الكمسارى فلا قبل لهم بالصمود فى حضرة المفتش ، ولذلك كان بعضهم يلجأ الي النزول وهو غالباً مايكون نزولاً عديلاً غير « عكس » ويحدث عندما يقترب الطرماج من المحطة « ويهدِّن » فتقل سرعته كثيراً . فهم ينشدون السلامة فى الطرماج – وان كانوا في المدرسة مردة اشداء – لانهم شاهدوا نفراً غير قليل من خلق الله وقد قطع الطرماج ايديهم وارجلهم واوصالهم ، فشتان ما بين هؤلاء واولئك ، شتان ما بين صقور التوانى وجماعة «بلة الأحمرانى» والامر لا يحتاج الى مزيد من التوضيح . . لقد استطاع التجانى بهذه الروايات التى صور بها ضراوة «بلة الأحمرانى» وثلته الميمونة ان يضع صقور فصلنا فى « مواعينهم » وان يقول لكل واحد منهم أنه – على احسن الفروض – قد ادرك شيئاً وغابت عنه اشياء ! .

على ان التجانى الطاهر كان من اكثر الاولاد «شطارة» فى الفصل . فهو رغم احاديثه الشيقة التى يتحفنا بها كل يوم تقريباً فانه ياتى الى المدرسة وقد استذكر دروسه جيداً واستوعبها . ورغم ان خطه فى العربية والانجليزية علي السواء كان اقرب الى الخربشة ودرب النمل منه الى الكتابة المنتظمة الواضحة المعالم الا انه موفق فى اصابة الأجوبة الصحيحة ، وينال علي ذلك درجات ممتازة . ولكنه كغيره من التلاميذ كثيراً ما صار فريسة من فرائس الشيخ ابى بكر والاستاذ الحاج هاشم . فهذان استاذان لا اعتقد ان تلميذاً واحداً نجا منهما او افلت من بأسهما وان قضى الساعات يحاول إرضاءهما بما يبدى من المام وادراك او ما ينتهج من مسلك وسبيل . فقد كان الاستاذ الحاج هاشم يعاقبه على مالم يرتكب من اثام ومالم يقترف من معاصى ، اما الشيخ ابوبكر فقد شك – وكان علي حق – فى ان التجانى جزء لايتجزأ من كومبارس

عبد الكريم ، فلقى منه العنت والنكال من اجل ذلك . ولقد ظللنا نعجب الى ان غادرنا مدرسة امدرمان الاميرية لماذا لم يتمكن التجانى من الاستعانة بواحد على الاقل من ثلة «بلة الاحمرانى» على هذا الشيخ الذى صار بعبعاً « يطرطش » رؤوس الجميع !

ولقد ذهبت مرات مع شقيقى عبد الملك الي مدرسة حى العرب الوسطى - وهو تلميذ بها - وهناك لقيت اناساً عاديين فى فريق او حى العرب ، لايختلفون عن بقية الخلائق في كثير او قليل ، وتعرفت فى المدرسة على بعض التلاميذ من زملاء شقيقى عبد الملك وصار بعضهم من خلص اصدقائى فيما بعد . ولكنى لم اقف على خبر «بلة الاحمرانى» ومجموعته لافى المدرسة ولافى الحى . وعندما ذكرت ذلك للتجانى سخر منى طويلاً وزعم ان الذهاب الى تلك المجالى في وضح النهار هو غير بلوغها في اويقات الظلمة أو الغلس ، وكأن المردة وشياطين الجن والانس تصفد فى تلك المناحى بالنهار وتطلق من عقالها بعد الغروب . وقد تحدانى التجانى على مسامع جمهرة من اولاد الفصل ان الم بديار حى العرب فى المساء بعد حلول العتمة . ولقد وجدت من ثقتى بنفسى ما يجعلنى أقبل تحديه واعلن قبولى في اول الامر على الملأ ، ولكنى بعد تقليب الرأي وتمحيص الامر مع الكبتل وعبد الرحمن كنتباى أصخت لنصيحتهما ، ونفضت يدى عن هذه المغامرة جملة وتفصيلاً . وسر التجانى لنكوصى ولكنه حفظ لسانه عنى بين فكيه لانه كان يعلم حقيقة الاشياء ، وحزنت انا عن تراجعى وكففت عن مغالطة التجانى لانى كنت اجهل حقائق الامور !

هذا هو التجانى الطاهر ، الصديق الحميم ، فارقته بمفارقتى لمدرسة امدرمان الاميريه ولم نلتق بعد ذلك الا ونحن اطباء نعمل في موسسة علاجية واحدة . فكان التجانى هو تجانى الاميرية بذاته وصفاته . . ذكى الفؤاد ، عبق الروح ، دمث الخلق ،مرحاً طروباً وفياً أبياً متفانياً في خدمة الناس .

فتحى وسرعة الرضا:

واذا ذكر التجانى الطاهر فانه يذكرك بقريبه وأظنه ابن عمته فتحى ابراهيم وصفى

. وقد كان فتحي تلميذاً ذكياً ايضاً . وهو لايسكن حي العرب مثل التجاني بل يسكن حي ود اورو . ولكنه لما رأى التجاني يقص علينا من انباء فريق العرب ما يحير الألباب ويقف له شعر الرأس غبط قريبه التجاني على هذا الاهتمام الواسع الذى لقيه بين التلاميذ فصار هو الاخر يحكي لنا اطرافاً من انباء حيه ود اورو يحاول تنميقها والنفخ في اوصال غرائبها بما تيسّر له من ضروب المبالغات والرتوش المضفاة والمضافة حتى كنا احياناً ننسى هل نحن فى حى العرب ام فى ود اورو . ولكننا سرعان ما نعود الى رشدنا ونلم بحقائق الاشياء فنوقفه عند حده ، لاننا لم نكن نريد ان ندعه يطلع بنا الجو ، الأمر الذى ربما كان يفعله التجاني ونحن عاجزون عن رده عليه ، وذلك لسببين : الاول هو «سلاطة» لسان التجاني ومقدرته الفائقة على الاقناع والخروج من مواقف الحرج – ان هو وقع فيها – بلباقة ويسر . والثانى هو ان التجاني من حى العرب وذلك الحى بالنسبة لأغلب التلاميذ هو جزائر واق الواق بعينها ، والأعاجيب التى كان يرويها لنا عنه هى وحدها كفيلة بصدنا عن مجرد التفكير فى ارتياد مجاهله . اما حى ود اورو فلم يكن مشتهراً بمثل هؤلاء المردة والقنادف ، وهو على كل حال حى نعرفه ونمر به كل يوم جيئة وذهوباً من ود نوباوى . بل نحن نعرف بعض أولاده من خارج ام درمان الأميرية . نعرف سرى شقيق لا عب المريخ « قرعم » الذى سطع نجمه فيما بعد ، ونعرف لطفى الأشول ونعرف شقيقه حجازى الذى صار صديقاً لنا فى خور طقت فيما تلا تلك الازمنة من عهود ، ونعرف أهلهم القبانية وغيرهم في ذلك الحى ، فلم يكن فيه مايخيفنا . بل ان الذى يجتاز « السور » كل يوم – وكنا نسميه « الصور » – يستطيع ان « يقدل » فى حى ود اورو علي راحته غير عابئ بشئ . فالسور مسكون ومرعب ، وحى ود اورو مأهول وآمن . وحتى أولاده الذين كانوا يتقدموننا ببضع سنوات – صلاح مازرى وعمر محمد سعيد وغيرهما – لم يكونوا يدعون لحى ود اورو – فيما علمنا – بطولات تذكر ولا خوارق تستجلب الفزع . ولكن فتحى ابراهيم وصفى لما رأى تحلقنا والتفافنا حول التجانى الطاهر واستماعنا لاقاصيصه بكل احاسيسنا واعجابنا

بها حاول ان يجاريه فقصرت به عن ذلك مادة الرواية ورشاقة الاسلوب ، فلا هو اوتى غزارة وتنوعاً من مادة الرواية ، ولا هو اوتى فصاحة وتشويقاً فى سرده القصصى . ولذلك لم يبلغ من امره الذى اراد شيئاً . ولقد كان اولاد بيت المال وود البنا وابى روف وود نوباوى كلهم يقطعون مفاوز الطريق سيراً علي الاقدام فى اكثر احوالهم ، فيجتازون فيما يجتازون هذا الحى الآمن ولايلاقون ما يكدر صفوهم او يثير مخاوفهم . وفتحى يحاول ان يصور لنا حى ود اورو وكأنه حى العرب ويكاد - لولا بقية من حياء او من خوف من لسان التجانى الطاهر ومحمد العوض والفاضل شريف - ان يزعم ان «بلة الاحمرانى» نفسه من حى ود اورو أصلاً . ولكن رواياته كانت تدخل من هذه الاذن لتخرج من الاخرى ، وما كانت لتنطلى علينا بحال . ولقد أحنقه ذلك علينا أشد الحنق . وربما كان من سوء حظه ان التلاميذ من حى ود اورو كانوا كثراً ، ورغم ذلك - ورغم اعجابهم وانبهارهم بقصص التجانى - لم يكن أحد منهم يباهى بهذا الحى كما كان يفعل فتحى . وقد كان شقيقه فوزى اكثر تواضعاً منه ومسالمة ، ولكنه كان من الحياء بحيث لا يجرؤ على نقص كلام فتحى فى ملأ من الناس ، وان كانت تعابير وجهه تنطق بالتكذيب ! ولقد لقيت فوزى فيما بعد فى خور طقت الثانوية ثم في الجامعة - مثلما لقيت فتحى - وقامت بيننا صداقات وطيدة هى بعض نبات ام درمان الاميرية الوسطى . اما التجانى فقد كان هو التلميذ الوحيد فى فصلنا من حى العرب ، ولذلك خلا له الجو تماماً وصار يصعد بنا الى اقصى اعالى المدى ، ونحن بين معجب وغابط نجتمع على تصديقه - الا نادراً - فى ما يروى من اعاجيب لانه اوتى ملكة فى الرواية لم يرزقها فتحى ولم يفتح الله عليه بما هو قريب منها .

وعلى النقيض من هدوء التجانى في الرواية وسلاسة حديثه كان فتحى يعتمد فى احداث التأثير الذى يبتغيه على ارتفاع العجيرة فى ما كان يسميه بعضنا «بالكواريك» وعلى مفاجآت تخرج حديثه عن لباقة التسلسل الموضوعى ، وذلك ما كنا نسميه «النطيط» ، وعلى زجر كل معترض او مستفسر بعنف يسلب حديثه سمة السلاسة

وينبويه عن محاسن النسق . لعلّ هذه العيوب - وربما اضيف اليها غيرها - هى التى حملت محمد العوض على ان يعتبر فتحي ابراهيم وصفى «هراشاً» ولا يصدقه فى ما يرويه علينا من حكايات . وفى مرة من المرات نعته جهرة بالحلبى الهراش ، فثارت ثائرة فتحى واشتد به الغضب وسمى محمد العوض «عبداً» وهو يعلم انه عمر ابى حر وان الكل عبيد الله . وكاد ان يحدث بينهما عراك لا تحمد عقباه لولا ان بعض العقلاء تدخلوا فى الامر وفضوا النزاع فانفض السامر في سلام . ولقد ساعد علي تهدئة الخواطر روح محمد العوض السمحة المراحة - واغراقه في الضحك حتي في ساعات الجد والحرج . ولما كان التجانى الطاهر على قدر عظيم ايضاً من المرح وخفة الروح والنزوع الى الدعابة والكلف بالفكاهة والطرائف فقد كان تعاطفه مع محمد العوض شديداً ، ولم يمنعه من ذلك التعاطف ان فتحى يمت له بصلة القربى وانه هو وفتحى ابيضان - او احمرانيان كما كنا نقول - وان محمد العوض اسود او شديد السمرة - او ازرق اللون - كما كنا نقول ايضاً . ولم يغره او يبطره انه وفتحى اثنان ومحمد العوض واحد ، بل وقف لجانب محمد العوض يشجب تحرش فتحى به ويعيبه عليه ، ويتغاضى - فى موافقة ظاهرة - عن معرة كلمة «الهراش» التى أطلقها محمد العوض على فتحى ويتغافل عمداً عن تداعيات كلمة «الحلبى» التي يصيبه هو نفسه بعض رشاشها ويبلغه هو نفسه من اطلاقها «رأس السوط» .

ولكن رغم اتهام بعضنا لفتحى بقدر غير قليل من الحماقة والنزق وركوب الرأس الا ان فتحى قد برهن فى ذلك الموقف وغيره من مواقف تلت على خلق سامٍ بحق . اما فى ذلك الموقف فقد رضى دون لجاجة تذكر بتدخل المتدخلين لفض النزاع وصافح محمد العوض نزولاً على رغبتهم ، فانتهى الصلح بينهما على شروط أهمها أن يكف محمد العوض عن تسمية فتحى حلبياً او هراشاً وان يمتنع فتحى عن مناداة محمد العوض «بالعب» رغم علمنا بأن محمد العوض لم يكن يبالى ابداً بهذا ، ولم تكن «ابوالعبيد» التى تعود عليها منا كثيراً فيما بعد لتقع من نفسه موقع كره او استنكار ، فاذا قيل له

في ذلك اجاب وهو يهتز ضاحكاً مرحاً طلق الوجه والمشاعر : «ياخي العارف عزو مستريح» !

وعلى الرغم من ان فتحى ابراهيم وصفى لم يكن لاعب كرة متميزاً الا انه استطاع ان يفرض نفسه علينا ، فهو دائماً يتشدق بانه لعب الدافورى مع سرى ولطفى الاشول وصلاح ميزرى واشباههم ، وانه لعب مباريات هامة فى ود اورو مع فتية يكبرونه بسنوات وكانت المباريات تختم فى اواخر شوطها الثانى بأن اللعبة « كسر مدوّر » « وطفى » « ولز» و« دفر » ، وان العنفَ احياناً يتعدى الارجل ليصير « من النخرة ولى فوق » . ورغم كل ذلك فان فريقه يخرج ظافراً منتصراً فى كل الاوقات وربما سجل فتحى هدفاً او هدفين علي اقل تقدير في مثل هذه المباريات البطولية . غير اننا لم نكن مقتنعين بأن فتحى قد بلغ من اتقان لعب الكرة أي مدى ، فما كان اسهل مرور الكرة من بين قدميه وانبطاحه علي الارض حين تروغه وتفلت منه في يسر وسلام . ولكنه كان « شضلياً » يمسك بتلابيبك ان فعلت به مثل هذه الافاعيل ، فلا تنجينا من مشاكسته وتعديه الا « نهرات » عبد الحميد عباس الذى عرف كيف يروعه بارتفاع العجيرة فوق ما كان يفعل هو نفسه ، ثم بالتلويح فى الهواء بما يشبه البنية او اللكمة او اللطمة . فتتضاءل «هرشات» فتحى ايثاراً للسلامة على المغامرة وتغليباً للحكمة على الطيش وتفويتاً للفرصة على عبد الحميد ان يظهر من البطولات ما يلحق العار بأولاد ود اورو وسمعتهم الطيبة . ولكننا نعلم ان تراجع فتحى لم يكن وليد جبن او خور انما كان من صفاته الملازمة له . فهو سريع الغضب سريع الرضا وتلك الثانية منقبة من مناقبه العديدة . والحق يقال ان فتحى رغم «هرشاته» الموسمية وجنوحه فى بعض الأحايين إلى ركوب الرأس وكفكفة الأكمام إيذاناً بالاستعداد لخوض النزال إلا أنه فى حقيقة طبعه وجبلته تلميذ ودود وافر الوفاء لاصدقائه وزملائه ، قادر على التخلق بالصفاء والوداعة ، يصعد الى قمم الشطط فى لحظة ويهبط راغباً الى سفوح المسالمة والوئام في اللحظة التى تليها دون ان يجبره أحد . يعرف فيه ذلك من خبره عن قرب ومن اطلع

على أمره وحقيقة نواياه عن دنو منه واتصال به وثيق . وذلك بخلاف ما توحي به - الى من لم يألفه ويبتلي خلائقه الفاضلة الحقيقية - عنترياته التي يستحوذ عليه شيطانها في بعض الاحايين ، وتكشيرات وجهه التي تضيف الى وعيدها ثبوراً مضاعفاً أسنان بيض في فكه الأعلى واضحة البروز .

لقد كان فتحي من التلاميذ القلائل الذين لهم شأن حسن وذكر طيب عند الاستاذ غزالي السراج . وهذا دليل على انه كان راضياً عنه بعض الرضا ، وتلك نعمة من نعم الله ، لان رضا الاستاذ غزالي السراج لم يكن بالامر الميسور بحال من الاحوال . فان رضي عنك فاعلم انك عبقري في الرياضيات وان كنت - في حقيقة امرك - لاتحسن استخراج الجزر التربيعي للكسور العشرية ولاتجيد قراءة جدول اللوقريثمات . واذا غضب عليك فاستيقن ان ليس لك من حسابه من محيص وان ليس لك من دفتر عم مبارك من منج غير الله ولا واق . ولن تفلت من الاحصار او الحصر بين هذين القوسين الا ان يتغمدك الله بِحُمّى ربما ترقق قلبه عليك وترفع عنك البلاء حتى حين . ولقد نعم فتحي برضاء الاستاذ غزالي السراج دهراً وان كنا لاندري لذلك الرضا المسعد سبباً مقنعاً وشافياً سوى انه أصاب في مرتين متتابعتين - حيث أخطأ غيره - ففرّق بين محيط الدائرة ومساحتها وبين محيط المربع ومساحة متوازي الاضلاع ! ولقد عزا بعض الناس ذلك التوفيق لجرأته على التصدي للاجابة وتلكؤ الاخرين حتى يؤذن لهم في الكلام . وقال بعضهم ان السبب هو ان فتحي ابراهيم وصفي كان يلقى الاستاذ غزالي كل صباح في طريق « الصور » فيحييه بينما لا يحييه الاخرون حياء منهم وتواضعاً وتجنباً لما حسبوه استطالة وخروجاً على المألوف . وهم قد اخذوا ذلك علي فتحي واتهموه عليه بالجراءة التي لايرون لها مبرراً ، غير عالمين بأن تلك الجراءة على إسداء التحية والمبادرة بها قد وقعت من نفس الاستاذ غزالي موقعاً طيباً . غير ان فتحي وقد نال هذا الرضا ونعم به لم يسلم من نقيضه عند بعض الاساتيذ الاخرين .ومن الاشياء التي كانت تثير حفيظته احتفال الشيخ ابي بكر بعبد الرحمن الدرديري

ذلك الاحتفال الذى فرّق فيه الشيخ بين اولاد الحى الواحد تفريقاً لم يجد له فتحى ما يجعله مستساغاً او يبرره تبريراً كافياً . وذلك لان عبد الرحمن الدرديرى من اولاد حلة فتحى – ود اورو – وهو لا يفضله في الدين والقرآن اذا تكافأت بينهما الفرص لاظهار المقدرات في هذا المجال ، فكيف يميزه عليه الشيخ ابوبكر ؟ وبالرغم من ان فتحى كان يجلس في الصفوف الامامية للفصل وكان بينه وبين عبد الكريم ومرابض الصقور في الربع الخراب بعد المشرقين الا ان الشيخ لم يكن يوليه أى نوع من الاهتمام بل كثيراً ما كان يشيح بوجهه عنه ان هو بادر ورفع اصبعه فى جراءته المعهودة صائحاً : فندى . . . فندى . . . فندى . حتى اذا استيأس فتحى تماماً من عناية الشيخ اقلع عن محاولاته الرامية الى تسميع سور من القرآن وأخلد الي الحيرة ولاذ بالصمت أسيان لا يلوى على شئ . حتى اذا تعاقبت الايام تباعاً ونسى فتحى ما علق بذاكرته من شؤون الدين فاجأه الشيخ فى ذات مرة علي حين غرة منه – تماماً كما كان يفعل بالآخرين – طالباً منه ان يتلو شيئاً من الذكر الحيكم . فانفتح رأس فتحى شطرين – او قل انفلق فرقين – فاذا به خالي الوفاض لايقدر علي الاتيان بشئ . ربما كان ذلك « التبكم » وليد هول المفاجأة التى تبلد الاحساس وتلبد سماء الذاكرة بالغيوم . ولكن فتحياً لم يكتف باعلان عجزه عن التسميع وانما اغرق في الضحك والقهقهة استجابة منه لهمسات خفية ضاحكة كانت تصدر من بعض الخبثاء . ففضحته امام الشيخ اسنانه البارزة وتقدم نحوه الشيخ يدب دبيبه المعهود عندما يود الانقضاض على فريسته . . وصار يردد بنبرته الساخرة الكاوية بعض ما كان فتحى يقول . . وانت قد علمت كيف برع الشيخ في مثل هذه السخرية وهذا الايذاء . . ثم لما دنا منه دنواً ماحقاً سأله بنبره حادة كأنها سكين شحذت لتوّها على حجر صلد احرش الواجهة : انت اسمك منو ؟ فقال فتحى وهو يحاول ان يبعد وجهه عن الصفعات المرتقبة : اسمى فتحى يا فندى . فطفق الشيخ يردد ، وهو يأتى بحركات بهلوانية غريبة : فتحى . . فتحى . . فتحى ؟ لا انت ماك فتحى . . انت قفلى . . لافتح الله عليك . . الى اخر كلمات

قاموسه الهجاء البديع . ثم اذاقه وبال امره صفعات متتابعات ثم انتهى فتحى الى ما انتهينا اليه جميعاً . . وهو الصفرمن اطناشر وقائمة هؤلاء قليلو الادب . . ثم كان ختام ذلك بمزيد من الصفعات « واللبعات » واللعنات وعبارات الاستهزاء والتعريض . ولقد طارت عمامة فتحى وتجهم وجهه وبرز فمه وهو يحاول احتواء أسنانه بشفتيه اليابستين ، وانقلب وجهه فشفاشاً لا تخطئه عين . ومنذ ذلك الحين لم يتوقف هجوم فتحى علي الشايقية قاطبة آخذاً سائر القبيلة المعروفة ذات الامجاد بجريرة ذلك الشيخ الذى أثبت علماء الاجناس من التلاميذ انه رباطابى وليس بشايقي !

مهما قلنا عن فتحى فالحق انه كان يمتاز بمجموعة خلائق حددت معالم شخصيته بوضوح . فعلى الرغم من انطوائه على سريرة طيبة محبة للخير الا ان فيه روحاً من النزوع الي التحدى واثبات الذات ظاهرة جلية تلمسها حتى في المناقشات الهادئة بينه وبين اقرانه التلاميذ ، وعنده إحساس بالتفوق الجسمانى – ولا اقول العرقى – لم نقف له على سبب واحد مقنع سوى حب المغامرة . ولكنه فى كثير من الاحيان يجد فى نفسه وازعاً رادعاً عن الانحشار فى مضائق المغامرات وذلك عندما يدلهم الخطب وتتعالى امام ناظريه وحصافة ادراكه مقدرات غيره ، خصوصاً اذا كانوا جماعة وهو وحيد منفرد . فقد اوتى فتحى مقدرة علي التنازل فى ساعات الحرج بطريقة تحفظ عليه كثيراً من كبريائه وان نالت من صلفه فى اعين الناس . ولقد كان فتحى ايضاً تلميذاً مجتهداً في دروسه وقد اكسبه حسن ادائه الدراسى قدراً كبيراً من احترام زملائه فغضوا الطرف عن بعض تجاوزاته واشتطاطاته تحدوهم قناعة تامة بأن اطلاق محمد العوض عليه نعت « الهراش » لم يكن يجانب الصواب كثيراً . ولقد التقيت فتحي بعد امدرمان الاميرية فى خو طقت الثانوية بعض الوقت ثم فى جامعة الخرطوم طيلة اربع سنوات تخرج بعدها في كلية الاداب وبقيت انا فى السنوات النهائية بكلية الطب ، فتوثقت عرى الصداقة والمودة بيننا امتن توثيق ونحن ما نزال علي ذلك الالف القديم . ومازال فتحى هو فتحي باقٍ علي الوفاء لرفقته من زملاء الحداثه والصبا يذكرهم جميعاً

بالخير ، يضحك ملء أعطافه وجوانحه عند ذكر أي منهم فقد كان كل واحد منهم دنيا من المرح والبهجة وطيب الخلائق ، ويكاد يفطس من الضحك او تتقطع مصارينه ان انت ذكرته بالشيخ ابى بكر . ولقد كان فى فتحى منذ صغره حزم مشوب برقة ولطف فاجتمع له من الخلال ما أهله ليتسنم مراقى مصلحة الضرائب في ما اسند اليه من مسئوليات صرف شؤونها تصريف العارف المقتدر .

الحمرة المفترى عليها :

لقد كان التلاميذ « الحمر » في فصلنا كوكبة لايستهان بها ولا بعددها ، منهم قوم عقلاء يدركون حقائق الاشياء كما هى فلا يتعدون الحدود . ومن هؤلاء عوض حنفى ، وهو من بيت المال ولذلك له صلة قوية - ربما كانت سكنية فقط - بعبد الكريم احمد حميدة . وذلك على الرغم من أن عبد الكريم لم يكن بطبعه ميالاً الي « الحمرة » ولا مفتوناً بها بل ربما استشعر في قرارة نفسه نفوراً وتباعداً عنها وضيقاً وبرماً بها . وهو احياناً يقول . «الحمرة دى اللباها المهدى» ولكني لست مستيقناً من ذلك ، ومبلغ علمي ان الامام المهدى - وهو الذى وحّد هذه القبائل والاعراق المتباينة وجعل منها امة واحدة على طريق العقيدة السليمة ووحدة استقلال تراب الوطن - لم يكن ليأبى «الحمرة» او يفرق ويميز بينها وبين الوان الطيف العرقى واصولها المتنوعة المتباينة . ولذلك فان «الحمرة» بهذا المفهوم لاتنقص من قدر الانسان ولا تزيده من نفسها تماماً كما ان «الزرقة» لاتخفض بذاتها من مكانته ولا ترفع . انما هى اعمال تحصى علي الناس ويحاسب عليها هذا وذاك .

كان عوض حنفي تلميذاً عاقلاً وافر العقل بكل المقاييس ، فهو لا يغامر ولا يمارى ولا يركب سفائن الفتن وبحار التيه ، بل يحاول جهده ان يبتعد عن الشرور وألاّ يدخل فيما لا يعنيه . ولكن شؤون تلك الايام الغابرة كانت تعني الجميع وليس من سبيل إلى تحرى الحيدة والبعد عنها الا فيما ندر . فالاساتذة يطالبون التلاميذ بمستويات عالية . وكل تلميذ تحيط به وتكتنفه ظروف خاصة به هي في كثيرٍ من وجوهها مغايرة

لظروف غيره . ولهذا ، ولاعتبارات اخر شتى - يجئ الاداء متبايناً . فالانجليزى عند الاستاذ فرح تتطلب معرفته والنباهة فيه حفظ الكلمات المفردة جيداً ومعرفة كتابتها كتابة صحيحة ثم نطقها بطريقة سليمة تقارب نطق الخواجات انفسهم . ولقد كان عوض حنفى يجد صعوبة فى ذلك ويشتكى من ازدحام «الكمبانيون» Companion المصاحب لكتاب الريدر « Reader » بالكلمات المستعصية الموغلة في العجمة والانبهام . فاذا كان امتحان « السبلنق » « Spelling » الذى كثيراً مايفاجئنا به الاستاذ فرح تملك عوض حنفى شئ من الرعب والفرق ، فجاء اداؤه مخالفاً لحسبان الاستاذ مقصراً عما يرجوه ويرتضيه مخيباً لاماله . وليس ذلك لان عوض حنفى لم يكن تلميذاً شاطراً فقد كان ، ولكن لان المستويات التى يتطلع اليها الاستاذ فرح وترضيه عن أي تلميذ لم تكن تنقص عن درجة الكمال . فاذا حصلت على تسعة وتسعين من مائة فانك تعاقب علي هذا الواحد الذى قصرت فيه وقعد بك «اهمالك» عن الحصول عليه ! ولقد عانينا نحن جميعاً من نشدان هذا الاستاذ للكمال وتمسكه بهذا المبدأ الصارم في تقييم الاداء . ولكن عوض حنفى تحمل من هذه المعاناة عبئاً ثقيلاً بعض الشئ . ولم يخفف عنه من ذلك الشقاء ان جيرانه مثل عباس صالح موسى ومحمود احمد مهدى وغيرهما كانوا يشاركونه العناء الذى يلقاه والرهق الذى يشقيه ويكدر عليه صفو الحياة . فاذا دخل الاستاذ فرح الفصل وجاء من ورائه عــــم محـــمـــود وعـــم عبد العزيز يدبان فى هون وتؤدة وهما يبسمان في مكر ظاهر يرتجف من فرطه شارباهما الكثّان ، ايقن عوض حنفى بوقوع الواقعة ونفاذ القدر ، فصار - على الرغم مما عرف به من هدوء وسكينة - يرتعد ارتعاداً تكاد تسمع من جرائه أزيزاً في العضلات وفرقعة في العظام . فاذا حمله هذان الماردان وأفضى به الامر الى لسعات سوط الاستاذ طفق يترجاه فى استغاثة هادئه خلت من مثل « زوبعة » محمود وعباس ، الا يعرضه للألم اكثر مما فعل . ورغم ذلك فقد كان عوض حنفى يعد للأمور عدتها ويضع على مؤخرته لبداً يفضح وجودها وقع السوط عليها مما يحدث اصواتاً «طرورية»

معينة تدل دلالة واضحة على بعد نظره واكتمال تحوطه واتخاذه التدابير المناسبة للحدث المناسب فى الوقت المناسب! ولكنه مع ذلك يتلوى «ويفرفر» ويئن ويسترجع ليوهم ان الالم قد بلغ مداه. اما الاستاذ فرح فربما لفتت نظره او بلغت سمعه هذه الفرقعة «الطرورية» كلما اهوى بسوطه على العقب المكتنز بحاميات اللبد، ولكنه كان يتجاهل ذلك ولايحفل به ولايسأل عنه. وقد يكون ذلك رحمة منه او رقة او شفقة وقد لايكون، اذ المهم عنده ان يتلقى التلميذ مافرض عليه من عقاب: ان عشرة جلدات فعشر، لاتنقص وان علا صراخه وتلوى واستغاث باقطاب الارض والاوتاد.... ولاتزيد وان صدر منه فى تلك اللحظة من سوء الادب مايوجب الزيادة. وذلك لان الاستاذ فرح منضبط فى كل شئ اذا توعد «انجز» وعيده واذا سكت عن شئ لم يعد اليه. ولقد سقط حاج حنفى ايضاً من عين الشيخ ابى بكر كما سقط غيره. وكان فى اول امره يغبط احمد الحبيب على تقريب الشيخ له واحلاله تلك المكانة السامية الرفيعة، ويود لو تيسر له مثل هذا التقريب والقرب ولو اتيح له تبوء تلك المكانة من نفس الشيخ. ولكنه ادرك بعد طول تجربة ومراس ان الشيخ لا يؤمن جانبه ولايغنى لينه الذى يبديه فترتاح له النفوس عن ضراوته التى تكمن فى ذات ذلك اللين فيشعل نارها هزل الهازلين من التلاميذ وشغب البراجل والمناقل والمثلثات. وادرك عوض حنفى ببصيرته الصادقة ان الشيخ لابد فاعل به الافاعيل وان تأخر ذلك وابطأ عليه، وانه لن يكون فى منجاة مما صار اليه غيره من محاق. كان حاج حنفى فى اول امره يحب الشيخ كثيراً ويعجب بصوته الرخيم ويستمع الى تلاوته الرائعة باذن صاغية وجوارح خاشعة وقلب منيب. وبالفعل كان الشيخ ابوبكر يمتاز بصوت آسر فى التلاوة يبهج الارواح ويشجى الانفس ويحرك فى وجدان التلاميذ انبل الاحاسيس وارفع المشاعر فكنا نصغى اليه بكل وجداننا وحواسنا، ولو انه كان يكتفى بهذه التلاوة فى تدريسه ويكف عن سخريته اللاذعة وتعابيره الحارقة الماحقة لصار اعظم الاساتذة فائدة لتلاميذه ولكن ذلك لم يكن فى مقدوره ولابعضاً من خلاله وطبائعه، فهو قد جبل

علي السخرية من التلاميذ واشرب حبها في نفسه وتمكنت منه اعظم تمكين ، فاصبح الفصل كله ضحية لهذه السخرية التي لا تقيم وزناً لشئ ولا تفرق بين غافل ويقظان ، ولا بين لاه ومجد ، ولا بين عابث وباخع نفسه علي اثار العلوم والتحصيل . ومن عجب ان التلاميذ بالرغم من ذلك كانوا يحبونه فلا يغيب احد عن حصته ابداً ، بل يشهدها الجميع بلا استثناء ، وهم يمنون انفسهم بوقت طيب - رغم ما يتخلله من اذى يصيبهم ولا يخطئهم - يشحن وجدانهم بذكريات لا تنسى . ولقد كان سقوط احمد الحبيب من شاهق عناية الشيخ الي مكان سحيق امراً مثيراً لعوض حنفي . فهو لا يكاد يصدقه رغم شهوده له ووقوفه علي كل فصوله وحلقات تسلسله المأساوي ، لانه كان يعلم ان احمد الحبيب بالنسبة الي الشيخ كان بمثابة سواد العين من بياضها وبمكانة القلب من الشاة التي عجب قيس كيف يداوونه بها عندما حاول نطس الاعراب ذلك . وفجأة ، وبلا مقدمات تذكر او اسباب يعبأ بها او تصلح ان تكون تكئه او مدخلاً . . . فجأةً تهاوى احمد الحبيب من عليائه التي لبث فيها طويلاً الي القاع واودية النسيان . . «فكأنما خَرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » ! وكان له من الشيخ ابي بكر ما كان . . مما حير حاج حنفي - كما حير الاخرين - وجعله يسترجع ويصفق بيديه ويقلبهما ويهز راسه عجباً واستغراباً للذى حدث قبل حين . ولما انهى جرس عم مبارك تلك الحصة التي حسبناها دهراً وانا لبثنا فيها من عمرنا سنين اذا بعوض حنفي في فسحة الفطور وغيرها يسرد علينا الحكم التي كان يلتقطها من احاديث عجائز الاسرة كما يقول ، وكلها تدور حول ان دوام الحال من المحال ، وان العاقل من اتعظ بغيره ، وان الذي يركن إلى إطراء الاستاذ مغرور مخدوع ، وان السترة والفضيحة متباريات ، وان الدنيا عموما لا امان لها . . . ثم تنتهي مواعظه لنا بما هو اهم معنى وادق تحديداً من ذلك في نظره ، وهو قوله ان من يطمئن الى الرباطاب أو الشايقية لا يجني سوى الخيبة والخسران . فها هو ذا يخصص بعد تعميم ويمس صميم القضية بعد ان حام حولها طويلاً مثل شاعر عربي يبكي على الاطلال ثم ينسب

ويتشبب ويتغنى برونق الطبيعة وحلاوة الأصائل وهدوء الليل وانسكاب ضوء القمر قبل ان يبلغ مايسمونه ببيت القصيد ، وهو لب الامر الذى من اجله انشئت عقود الخريدة وتداعت من أجل بلوغه أمهات المعانى ومنتقيات القوافى . ولقد وجد عوض حنفى في قوله هذا الذى يعرض فيه بالشايقية والرباطاب تاييداً صريحاً من احمد الحبيب بعد تلك الواقعة الشهيرة التى منى فيها بما لم يكن يدور له بخلد ولا حسبان ، وقبيل مغادرته النهائية للمدرسة علي اثر تلك المحنة المقيتة التى هزت كيانه هزاً ، وبددت ثقته فى المدرسة تبديداً وقلبت وجدانه واحاسيسه الرقيقة رأساً علي عقب . ولقد كانت المقولات التى تنال من الشايقيةوالرباطاب عموماً بجريرة الشيخ ابى بكر تقرع اسماعنا قرعاً متواصلاً لا تحجب بعض تعابيرها القارصة المشتطة عنا الاضحكات محمد العوض وعباس صالح والفاضل شريف وكلهم عرف الشيخ وخبر بأسه وتلقى من يديه الحارقتين ما إنّ صفعاته « ودلاديمه » لتنوء بالعصبة اولى القوة . ولكنهم كانوا يستمتعون بسرد هذه الوقائع وينشرونها بين الناس ويستزيدون من امثالها لانها مادة هامة من المواد التى تلهب الخيال وتواكب روح النزوع الى الهزل البرئ واصطناع الدعابات والطرائف والملح . ورغم ان عوض حنفى لم يكن بمنزلة هؤلاء الفتية من حب الهزل والاغراق فيه ، الا انه اخذ يجاريهم الي حدود بعيدة فهو لم يكن أقل موجدة على الشيخ من احمد الحبيب وان اختلف الشأنان وتباين المصيران وان جهل كلاهما قبيلة الشيخ على الحقيقة .

لقد كان عوض او حاج حنفى - والحق يقال - تلميذاً مهذباً قلما يشتجر مع الناس او يبدأ احداً بخصام ، وهو على درجة من النضوج النسبى وقدر مرموق من الحكمة والتباعد عن المواطن التي يمكن أن تفضى الى النزاع . وربما أهّله لذلك نشأته فى بيته او تربيته ، وربما كان ذلك اجتهاداً منه فى الحذر وابتغاء دروب السلامة . ورغم ان بعض الخبثاء كان يتهمه بقلة الاقدام فانى ارجح ان تجنبه للصدامات التى لاتجدى ولاتنفع والتى لم تكن لها أسباب مقنعة لم يكن وليد خوف او نقص فى منقبة الاقدام ،

وانما كـان ناتجـاً من ادراك سليم وربما عن فطرة مـسـالمة اصـلاً ، لا ترى فى المشـاحنات بين التلاميذ وافتـعال المواقف المدوية والبطولات الزائفة الا اضـاعة للوقت وتلطيـخـاً للثيـاب بالطين والتـراب واجـتـلاباً للخـدوش والجـروح بـالطوب والحـصـى ، ثم افسـاداً وتفتيتاً لروح الزمالة الاخوية التى يجب ان تجمع بين الناس وتؤلف بين قلوبهم . واية ذلك ان عوض حنفى كان اذا راى تلميـذين يتشـاجـران اسـرع اليهمـا وهو يقول بصـوته الذى ينم عن الصدق ومحبة الخير والصـفـاء : يا اخوانا عيب ، الكلام دا مـا معقول ، الشكل مافى ليه لزوم ! هذا فى الوقت الذى كان فيه بعض الخبثاء لايكفون عن قولهم : المديدة حرقتنى . . حرب الديك سك الديك . . حتى اذا اشتبك الخصمان وبان جليـاً ان الاذى يقـرع الابواب ويوشك ان يعم فـيـدرك البـعـيـد والقـريب ويلحق بالاجساد هرعوا يستنجدون بالكبار - او الصقور - لفـض النــزاع واعــلاء قيــم « الحـجـازة » ومحاولة احلال الصلح والوصـال بدل الحرب والقطيعة . لقد كان الحاج عوض حنفى رسول سلام بهذه الصفة ونذر الشر لائحة فى الافق ، فيما كان غيره من الخبثـاء يضربون الدفوف ابتـهاجاً بهذه النذر واستدعاءً لها ، حتى اذا احاطت بهم من كل جـانب (تذكـروا فـاذا هم مـبـصـرون) . ولذلك حظى عوض حنفى باكبـار زمـلائه وتثمينهم لطبيعته المفعمة بالوداد ونفسه المشغوفة بالسلم والأمان .

لقـد فارقت عـوض حنفى منذ تلك العـهـود بعد ان تـخرجنا من مدرسـة ام درمـان الأميرية ، وما لقيته بعد ذلك إلاّلماماً ولحظات قصـار ، وكان آخر لقـاء لى به - على ما اذكر - فى اواخر عام ١٩٩٤ فى حى الشهداء بامـدرمـان . وهناك وقـفت مـعـه طويلاً نستـعيد ذكريات الماضى في ربوع تلك المدرسة الحـبيبة . فكان اول مـا ذكره لى عن مدرسة امدرمان الاميرية الوسطى هو الشيخ ابوبكر عبد الله ، فأخذنا نجتر من سيرته المسلية مع التلاميذ ما جعلنـا نضحك وكـأننا في ربوع تلك الديار وقد عدنا اليها عبر تضـاريس الحقب والأزمـان . وقـد سـرنى ان حـاج حنفى كـان على صلة ببـعض اولاد الفصل ، وهالنى وادهشنى انه نسى بعضـهم تماماً وكأن لم يكن لهم فى طيات ذاكرته

وجود . فصرت كلما ذكرت له اسماً من اسمائهم قرأت على وجهه الحيرة وايات النسيان فأجهدت نفسي محاولاً تذكيره به دون جدوى . ولكنه في نهاية الامر تذكر أغلبهم وطفق يسائلني عنهم في شوق واهتمام ، فوافيته بأخبار من علمت اخبارهم منهم وانبأته بما شهدته او تناهى الى من شأنهم .

لقد كان عوض حنفى من التلاميذ العقلاء فى الفصل وكنا نطلق عليه اسم «حاج حنفى» وفى ذلك نوع من الاجلال لايخفى . لقد حملته شدة حذره علي نوع من القدرية فكان إذا اعجزته الحيل قصَّ علينا من حكم اهله ما يؤكد هذه القدرية وهو يتسلى عن الامه التى يتعرض لها بأمثال هذه الحكم . وكان يغضب اذا رددت عليه مثل هذه المقولات او احس منك شيئاً من « المناكفة » حولها فهى عنده قيم راكزة يصوغها فى تعابير مقتضبة كقوله : الدنيا ما بتدوم او كل اول ليهو أخر واشباه ذلك من الحديث . وهو لا يكتفى بظاهر القول وانما يفترض انك تدرك وتنفذ الى ما وراء الكلمات من مكنونات العبر فلا يسرف فى الحديث ، وكأنه ينظر الى ابى العلاء اذ يقول

لا تقيد على لفظى فانى ∴ مثل غيرى تكلمى بالمجاز

فقد كان حاج حنفى يكثر من التكلم بالمجاز وذلك لانه يعتقد ان كثرة الكلام توقع صاحبها في الخطأ والزلل لا محالة . وهو بطبعه لا يطيق الشجارات ولايبدى أى نوع من الاستعداد للدخول فيها وانما ينفر منها نفوراً ويتباعد عنها تباعداً . ولما كان ابراهيم السيد يدين بمثل هذه المفاهيم فقد كان حاج حنفى الصق اولاد فصلنا به وأقربنا منه . ولكنه اقل انفتاحاً على الناس من ابراهيم . فهو كثير الشكوك والريب . شديد الرغبة في المسالمة والموادة ولكنه قليل الثقة فى نوايا التلاميذ لانهم لم يكونوا يأخذون الحكم التى يلقيها على مسامعهم مأخذ الجد ، بل يسخرون منها فى كثير من أحيانهم وربما اتهموه صراحة بمغبة الانكفاء على القديم . ولذلك كان حاج حنفى زاهداً بعض الشئ فى تجمعاتهم لانها مظان المشاحنات فيما بينهم ومنتديات الخوض فى سير المدرسين وهذان أمران يسعى حاج حنفى لتجنبهما ما استطاع . فهو محب للسلامة

نزاع الى ارتياد مشارف الأمن والأمان وهو تلميذ طيب بحق ومثال حى « للحمرة » المفترى عليها .

محمود... وشيخ يوسف ... وحجارة من سجّيل :

أما محمود احمد مهدى فقد اختلف عن الحاج حنفى او عوض حنفى ومن كان من قبيله في كثير من الاوجه ، وان التقى معهم فى بعضها ، فمحمود من التلاميذ الذين جبلوا على الشيطنة والاكثار من الهزل والسخرية من الآخرين . ولست أرتاب فى انه كان ضمن مجموعة مصطفى عابدين التى اجادت فنون وأنماط نثر الحبر على ملابس الشيخ ابى بكر وتجليلها ببقع السواد دون ان يحس الشيخ بذلك . وهى فنون برعت فيها هذه المجموعة أيما براعة واتقنتها أيما اتقان . وان كان لمصطفى عابدين منازع او مدان في اتقان هذا الفن واخفاء الوسائل المستخدمة فيه فهو محمود احمد مهدى . ولكنك اذا واجهت محموداً بمثل هذا الاتهام انكره إنكاراً وتملص منه تملُّصاً ، وأقسم بحياة شيخ حارتهم وشرف عمدة فريقهم أنه برئ من ذلك الاتهام ولا صلة له به على الاطلاق . غير أنى كنت أعرف محموداً تمام المعرفة وأدرك مقدار عشقه للهزل والضحك وجهده الذى يبذله لتوفير أسبابهما واختلاق الظروف والمواقف التى تفضى اليهما وتفشيهما بين الناس ، رغم حذره البالغ وفرقه الشديد وخوفه الذى ليس عليه مزيد من أن يفتضح امره فيلحق به الأذى وتفرى ظهره العقوبة . ولو ان محموداً علم او ظن ان مجاراته لمصطفى عابدين فى هذا الامر الخطير يمكن ان توقعه فى مظان السوء ومواطن الريب لما أقدم علي هذا الأمر ولاشارك فيه . ولكنه كان يعلم ان مصطفى عابدين هو العقل المدبر لكل ذلك العبث الانتقامى البرئ ، وانه قد آلى علي نفسه ان يحسن التربص ويجيد التوقيت ويبدع فى دقة التنفيذ دون ادنى تفريط ، وانه قد أقسم انه – فى حالة انكشاف المستور – سيتولى كبره ولن يسلم احداً ، « وسيموت على دينه » ويبوء بذنبه ولن يدفع بغيره الى المقصلة . تلك كانت ثقة محمود بمصطفى وهو محق فى ذلك لان مصطفى – على ما به من حب للهزل والقفشات بكل انواعها –

عرف بالصدق اذا وعد وفى واذا ائتمن أدى الامانة . ولقد كان محمود معجباً بالشيخ ابى بكر كل الاعجاب . وهو لا يفعل بالشيخ وملابسه مع مجموعة مصطفى عابدين ما يفعل من مواقع الموجدة ومحبة الانتقام ، وانما يفعل ذلك تمشياً مع طبيعته النازعة الى ما يثير الضحك ويرضى دوافع الشيطنة وحب العبث من أجل العبث . وما كان مبعث اعجاب محمود بالشيخ ابي بكر لان الشيخ يتلو القرآن بصوت رخيم مؤثر كأنه مزامير داؤود ، ولا لان الشيخ استاذ ممتاز من اساتذة الدين واللغة العربية ، ولكن لأن الشيخ يتحدث بطريقة خاصة يعجب لها محمود أشد العجب ويضحك لها ملء نفسه وجوانحه . ولان الشيخ كان يأتى بحركات غريبة تثير فى محمود خيالاته التمثيلية التى هى بعض مواهبه . فما ان نفرغ من الحصة ويفضى بنا جرس الفسحة الى فناء المدرسة حتى نتحلق حول محمود وهو يحاكى الشيخ فى مشيته وفى كلامه وفى تقاصره وتطاوله – او قل فى انكماشه ثم تمدده – وفى طريقة انقضاضه على من يود أن ينقض عليه من التلاميذ بعد كل تلك المقدمات الدرامية المشحونة بالوعيد ، التى لا يملك التلاميذ حيالها سوى الترقب والانتظار مع توطين النفس على توقع اسوأ الاحتمالات . فيصدق الحدس ويتحقق الظن ويحل الكرب والبلاء . ولقد كان محمود يجيد محاكاة الشيخ بدقة لا يدانيه فيها الا محمد العوض ، وفى بعض الأحيان عباس صالح . غير أن عباس صالح كثيراً ما يفسد براعة محاكاته للشيخ باسراعه فى الاتيان بالحركات المعنية ومغالاته فى ذلك ، والأصل فيها عند الشيخ أنها تأتى فى تؤدة وسكينة بالغة تتجمع فى طى سكينتها الخادعة رياح النذر وعواصف الهياج قبل مواقيت الانفجار ، لأنها مقدمات للانقضاض تحتوى على إضمار المفاجأة المفاجئة فى ثنايا الهدوء ، وهذا أبلغ وأشد قرباً من الأصل والحقيقة ، وهو عند محمود أصح وأمتع وألذ . واما محمد العوض فقد كان يجيد هذه المحاكاة ولكنه ايضاً يفسدها بميله الى الضحك اثناء الاداء ، والأصل فيها الحزم «وصرة الوش» ، ولذلك تجئ محاكاته ناقصة جلية النقصان ينكرها دعاة الاتقان لأن آثارها الاصلية غضة طرية فى الاذهان ماثلة لعيان الخيال وخيال العيان .

أما محمود فقد اوتى المقدرة على ضبط النفس وحبس العواطف والتغلب على دوافع الضحك ريثما يؤدى الدور كاملاً بكل تفاصيله بلا افراط او تفريط ، ثم اذا فرغ من ذلك وابدع فيه اجتمع اليه كل مافاته من الضحك فأغرق فيه اغراقاً . ولقد كنت أعجب لمحمود احمد مهدى ، فهو يقلد الشيخ ببراعة نادرة المثال ، وذلك دليل قاطع على انه ينطوى على مقدرات هائلة على التمثيل ، ولكنه لم يكن يميل الى الاشتراك فى التمثيليات التى تعرض على مسرح المدرسة الا قليلاً ، ولو انه فعل لنال اعجاب الناس ولتمرس على هذا الفن الرفيع . والغريب ان نفوره من التمثيل على خشبة المسرح امام الملأ لم يكن لحياء غالب يمنعه من اداء الادوار ، لان محموداً لم يكن كذلك ، ولكنه ربما كان خشية من اللحن امام الناس او لسبب من هذا القبيل . قيل للخليفة عبد الملك ابن مروان ذات مرة : عجل عليك الشيب يا امير المؤمنين . فقال : شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . ورغم ان محموداً لم يكن اميراً للمؤمنين ولا أحسبه يتطلع لذلك ، ورغم انه لم يكن قد شاب بعد ، الا انه كان يتبكمّ احياناً وهذا هو ما دفعنى الى القول بأنه ربما كان يخشى ان يخطئ فيثير على نفسه سخرية زملائه ، وفيهم من لايرحم ولا يقيم وزناً لصعوبة مثل هذه المواقف . وعلى كل فقد باعد محمود بين نفسه وبين التمثيل على المسرح لأمر يعلمه هو دون سواه وآثر ان يقلد بعض الاساتاذة – وفى طليعتهم الشيخ ابوبكر – بعيداً عن أى مناخ او تجمع رسمى ، فكان يجيد ذلك التقليد أكمل اجادة ، يجتمع من حوله التلاميذ بعيداً عن رسميات المسرح واشراف الاساتذة وهو فى منأى وسلامة من الحرج – او قل مقارفة الجرم – الذى ربما يتعرض له من يحاول تقليد استاذ على مرأى ومسمع منه . ومحمود لم يكن حيياً ولاخجولاً حينما يكون فى مأمن من عيون الاساتذة ومسامعهم ، وانما يطلق نفسه على سجيتها ويتحكم فى تقاطيع وجهه ودلالات التعابير التى يود ان يبسطها عليه او يودعها فيه ، وفى اداء الحركات المبتغاة والتفوه بالكلمات التى هى مدار المحاكاة المطلوبة . .فيخلص من كل ذلك الى « منلوج » متكامل الفصول حافل بأروع الاشارات والقفشات المضحكة ، او الى دراما

اسرة أخاذة تنقلك من المرح الى الاسى ثم تعيدك بهزلها الي الضحك فى طرفة عين ، او الى اثارة تتملك احاسيسك كلها ثم تحملك الى حيث يريد ، او الى أى لون من المعانى التي تعجب التلاميذ وتسرهم فيضحكون لها ملء أشداقهم ويهنئونه على المهارة والدقة التي يتميز بها اداؤه وتتفرد بها مقدرته علي التمثيل والمحاكاة . بل منهم من يغبطه علي هذه المهارات والمقدرات ويحاول مجاراته فى هذا المضمار فلا تسعفه امكاناته ومواهبه ولا يظفر من ذلك بطائل . وتظهر موهبة محمود بصورة رائعة عندما يقلد شيخ يوسف استاذ الدين الذى كان يلمُّ بفصلنا على فترات متباعدة وهو شيخ ابيض لون البشرة كأنه «خواجة» ، يبدو انه اسنُّ من الشيخ ابى بكر وربما كان ضعف حجمه . يرتدى فرجية رمادية على قفطان أبيض فى أغلب أحيانه ، وعلى رأسه طربوش أحمر صغير «مقرفص» تلتف من حوله عمامة قصيرة بيضاء محكمة الاستدارة متداخلة الطبقات ، تلتحم مع قاعدة الطربوش وجنباته التحاماً وثيقاً يكاد يرقى الى اعاليه ، حيث تنحسر عن ذلك « القنبور » الذى يستحيل الى ضغث من ذؤابات حمراء تهتز فى رفق كلما سرت نسمة او تلفت الشيخ لسبب من الاسباب .

لقد كان الشيخ يوسف الأصولّي رجلاً مديد القامة تليعاً ضخم الجسم عريض الكتفين شثن الكفين عظيم الأهداب كث شعر الحاجبين . ما ان يجلس علي كرسيه يستقبل تلاميذ الفصل استعداداً لالقاء درس الدين حتى يبدأ فى إدخال يمناه في جيوب قفطانه بصعوبة ظاهرة تنبئ عنها تجاعيد تتجمع طبقات على جبينه فيما يشبه البرم والاحتجاج الصامت . حتى اذا جاست اصابعه خلال الديار الجيوبية ملياً أخرجها ظافرة من تلك المخابئ والأضابير وهي تحمل طعاماً غالباً ما يكون خليطاً من الرغيف واللحم او الطعمية والبيض المسلوق او غير ذلك مما يؤكل ويستطاب . فاذ تم له ذلك وظفر ببغيته تهلّل وجهه بالبشر وفارق جبينه التقطيب وانداحت عنه التجاعيد فأشرقت اساريره وتجلت على قسماته آيات الرضا والارتياح . وهو رجل محبوب بين تلامذته اولاً لانه اذا دخل الفصل جلس على مقعده لا يفارق مكانه حتى انتهاء

الحصة . وهذا أمر يريح التلاميذ لانه يطلق لهم كامل الحرية ، وخاصة أولئك الذين يجلسون فى الصفوف الخلفية حيث الموسيقى المنبعثة من تلاحم ادوات الهندسة مع الشفرة التي تقف على احد حديها في شق من شقوق درج عبد الكريم . وثانياً لان الشيخ رجل هادئ ومهذب لا يطلب من احد شيئاً ولا يرغم تلميذاً على الانتباه والاصغاء ، ولا تقلقه ولا تزعجه «الهرجلة» مهما علا الضجيج واختلطت الأصوات والهمسات والضحكات . فهو لا يلقى بالاً لشئ من ذلك ولا يكترث به ولايهتم له ، إنما يمضى في شرحه اثناء الفترات التي يكف خلالها عن تناول ما أخرج من جيوب قفاطينه من طعام ، يوزع وقته بالعدل والتساوى بين طعامه وشروحه ، يساوى بينهما في الاهتمام فلا تميل كفة على اخرى حتى يقرع عم مبارك الجرس ايذاناً بانتهاء الحصة ، وعندها يكون الشيخ قد فرغ من القاء درسه الذى يريد ومن تناول طعامه الذى يشتهى . ولسنا نعلم علي وجه اليقين ان كان في الجيوب بقية ، غير أن المدققين منا كانوا يزعمون دائماً أن جيوب قفاطين الشيخ ما تزال ملأى بالطعام تحتقب الواناً من المأكول . والامر الثالث هو ان الشيخ يوسف اذا سألك عن شئ فهو يقبل منك أي إجابة تأتى بها ، لاينتهرك ولا يزجرك ولا يؤذيك ، وهو يصدع بعد ذلك بالاجابة الصحيحة على سؤاله دون ان يشعرك بأنك جاهل ذو نسب فى الجهالة عريق !

وانى لاذكر جيداً كيف كان الشيخ يوسف يفسر لنا سورة «الفيل» فيقول في بعض تفسيره بعد ان يصف الطير الابابيل وصفاً دقيقاً كأنه رأها بعينى رأسه - يقول ان «حجارة من سجيل » معناها حجارة صغيرة تدخل من الرأس تخرق البويضة ، اهلكهم الله تعالى كل واحد بحجره المكتوب عليه اسمه . هذه هي كلمات الشيخ اذكرها بوضوح وجلاء . ولقد قرأت في تفسير الجلالين بعد عقود من الزمان عن هذا الحجر فجاء فيه : « وهو اكبر من العدسة وأصغر من الحمصة يخرق البيضة والرجل والفيل ويصل الي الارض ، وكان هذا عام مولد النبى (ص) » ففهمت شرح الشيخ بعد ان كدت اركن في تلك الايام الي ان البيضة - وقد صغَّرها الشيخ تصغيراً انما تحمل

معنى غير الذى لاح للمفسرين !

ولقد كان محمود احمد مهدى اسعدنا بحصة الشيخ يوسف الاصولى ، فهو لايكف عن الضحك حتى انتهاء الحصة فلا يحفل الشيخ بذلك وانما يشتغل بالاكل والشرح معاً وبالتساوى . فاذا انتهت الحصة وخرجنا الى سعة « الفسحة » أعاد علينا محمود جميع اقوال الشيخ وافعاله بدقة لا تغادر شيئاً . ولو انك البست محموداً قفاطين الشيخ ووضعت تحت منخرية ذلك الشارب الكث الابيض مثل « الروب » ثم حشوت جيوبه بالبيض والرغيف والطعمية وشرائح اللحم المحمر لظفرت من محمود بخلق آخر هو الشيخ يوسف الاصولى بذاته وصفاته . .فتبارك الله احسن الخالقين .

هذا هو محمود خارج الفصل وفي مناخ الحرية التامة بعيداً عن الرقابة الرسمية . يملأ الدنيا بهجة وقهقات ويدخل على النفوس الواناً من المتع البريئة والمسرات . وهو لايكتفى بمحاكاة الاساتذة ، بل يجيد ايضاً محاكاة زملائه التلاميذ سواء كان ذلك نطقاً لبعض الكلمات الغريبة او «مرصعة» وعويلاً تحت نير السياط ، ولكنه بالطبع يتحرى غياب من يحاكيه منهم فلا يغامر فى مثل هذه الامور ابداً . اما فى داخل الفصل فان محموداً يصبح شخصاً آخر . فهو يصطنع الهدوء وترتسم على وجهه سكينة لا تشبه انطلاقاته العبثية في فناء المدرسة . ورغم ان الكبتل وهو الالفة الآمر الناهى فى الفصل فى غياب الاساتذة لم يكن مولعاً بالناس «الحمر» عموماً - على حد تعبيره - او «الحماريط» على حد تعبير محمد العوض الساخر ، الا انه وجد فى محمود ما اجتذبه وقربه اليه . ويقينى ان ذلك راجع الى حصافة محمود ودهائه . فقد استطاع بافتعاله للهدوء واخفاء شيطنته عن عين الكبتل ان يكسب احترامه ووده وتعاطفه . ومن يدرى ، فلعله كان في بعض احايينه يمكن الكبتل من الاستمتاع بالباسطة بعد الفطور ، او قبل الحصة الاخيرة عندما يكون نصف العيش المدوّر بفوله او طعميته قد ذهب ادارج الجهاز الهضمى مخلفاً وراءه معدة خاوية تنبئ بوادر تقلصاتها عن مطالع سلطان الجوع . فمن الامور التى كانت تلفت النظر بعض الشئ

ان محموداً كان يتلقى معاملة شبه خاصة عند عم محمدين صاحب طبلية الفول والطعمية ، وهو خال الكبتل ، وان الكبتل ومحمود كانا فى بعض الاوقات يختفيان عن الانظار ، نلتمسهما امام طبلية عم محمدين فلا نقف لهما على أثر ، ونسائل عنهما التلاميذ فى صحن المدرسة فلا يسعفنا عن مكانهما خبر ، ولا نلقاهما الا بعد ان يقرع عم مبارك الجرس ايذاناً ببداية الحصة بعد فسحة الفطور . ولقد زعم الفاضل شريف اكثر من مرة انه راى الكبتل بعينى رأسه يتناول الباسطة في سعادة بادية وحبور موفور ، ومحمود يقف الى جانبه ، وذلك فى الناحية الشرقية من فناء المدرسة حيث تباع هذه الحلوى الجنانية ، بعيداً عن طبلية عم محمد ين التي كان موقعها قرب البوابة الغربية . وان شئت الدقة في التحديد فهى في الجانب الجنوبى الغربى من فناء المدرسة ، بينما عالم الباسطة الذى لم يكن يعج بالرواد كما هو الحال مع طبلية عم محمدين لاسباب لاتخفى ، انما يقع على وجه التحديد بالقرب من البوابة الشرقية لفناء المدرسة فى اتجاه الشمال الشرقى . ولكن الفاضل شريف مغرض وهو غير راضٍ عن محمود لانه اخطر منافس له فى صناعة الضحك والهزل ومحاكاة الاساتذة ، بل هو يتفوق عليه كثيراً بشهادة الاجماع الكلامى والسكوتى علي السواء . وماضر الفاضل في هذا المضمار وقعد به عن اللحاق بمحمود ونيل اعجاب التلاميذ الا النكات البايخة التى كان يصر عليها ويغالى فى ترديدها مما زهد فيه الناس وصدهم عنه صدوداً .
وعلى كل اذا صح زعم الفاضل او لم يصح فيما يتعلق بارتياد الكبتل لمعاقل الباسطة في صحبة محمود فان الامر الذى لم يعد مكان شك هو ان الكبتل كان يحمل تقديراً خاصاً لمحمود . واية ذلك ان اسم محمود لم يكن يظهر بين قائمة « المهرجلين فى الفصل » رغم انه كان وراء كل هرجلة تحدث او شغب يعم ولكن عن طريق التحكم القصى (Remote Control) وربما كان الكبتل لايدرى ذلك ، ويقينى انه لو درى وعلم لما هان عليه ان يدرج اسم محمود بين ضحاياه . غير ان ما كان ينجو منه محمود هنا لهذا السبب ، كان يقع فيه هناك لاسباب أخرى . ومجمل القول هو انه كان

ينال نصيبه كاملاً غير منقوص من سوط عم مبارك في نهاية اليوم الدراسى ، بل إن يديه ورجليه قد صافحتا فى مرات عديدة - ودون مقاومة تذكر - ايادى عم عبد العزيز وعم محمود وهما يبطحانه علي الهواء تلقاء سياط مختلف الاساتذة على مرأى ومسمع من بقية اولاد الفصل . ولم يكن محمود عند ذلك باقوى شكيمة او اقل « جرسة » من عباس صالح وهاشم الاطرش ، وان كان اسرع منهما عوداً الي الضحك والفرفشة وتناسى ما حلَّ به من أذى ومكروه .

لقد التقيت محموداً بعد ذلك بسنوات في جامعة الخرطوم فتنامت وترسخت بيننا علائق الود القديم وتمتّنت وتوثقت بيننا اواصر الصداقة التى نبتت فى سنى الحداثة . وقد تبين لى ان مقدرات محمود علي التمثيل والمحاكاة قد تطورت تطوراً هائلاً ونضجت نضوجاً ظاهراً وتنوعت اساليب الاتيان بها والتعبير عنها عنده بشكل ملحوظ . وظل محمود الى ان تخرج في كلية العلوم في الجامعة طاقة هائلة من الضحك والدعابة والحيوية . وكان مبدع اعاجيب متعددة ومتجددة ومسلية فى فنون محاكاة الاساتذة وفى طليعتهم بروفسور «ماكلاى» وبروفسور « استبورى » والاستاذ « سدراك » والاستاذ « القصاص » . ويقينى ان محمود احمد مهدى لا يزال كنزاً من المرح وذخراً للطرائف والملح لاتغيضه الايام ولا تنال من غزارة منابعه وصفاء مناهله عجاف السنين .

عبد الرحيم واللَّبخ . . وحى الدباغة :

كان عبد الرحيم سعيد من اصدقاء محمود احمد مهدى فهو يشبهه بعض الشئ وهو «احمرانى» مثله ، وهو ايضاً من تلك المناحى الامدرمانية التى تقارب موطن محمود . فعبد الرحيم من حى أبى روف ، اوقل بتحديد ادق ، من حى الدباغة او حى الدباغين . ولقد اطلق عليه محمد العوض اسم «القط» ، ولست ادرى لماذا . ولكن الذى اعرفه واستيقن منه هو ان محمد العوض كان ذا عبقرية خاصة فى اطلاق الاسماء والالقاب والكنيات علي الناس . ولما تكاثرت عليه هذه المهام في خور طقت من بعد - كتكاثر الهموم واللُّوَّام على ابى الطيب - لم يسعفه قاموسه الذى فنيت مفرداته وقد

انفقها علي زملائه القاباً وكنيات واسماء يمنة ويسرة، ونضب المعين ، فلم يبق له من بعد ذلك الا ان يفزع الى الارقام للتعبير عن المعنى الواحد بما يشبه المعنيين وهو فى حقيقته جزء من كل او فرع من اصل ، فصار بعضهم عنده نمرة واحد وبعض ثانٍ نمرة اثنين وبعض آخر نمرة ثلاثة . . وهكذا الى نهاية يحددها - اولا يحددها - هو بنفسه دون سواه ، وان كان النوع الذى ميزه محمد العوض بالارقام - وعرف بذلك وسط دوائر واسعة - هو غير نوع عبد الرحيم سعيد ، بل هو نقيضه . فان لم تدرك ما أقول فدع الامر ولاتحفل به لانه بالنسبة الى محمد العوض كان اشبه بما يسمى « كلمة سر » ، والسر لا يجوز افشاؤه ، فانسه وتجاوزه الى ما ينفع . وان كنت تعلمه وتعلم ان محمد العوض كان يضع سره او كلمة السر فى اكثر من صندوق واحد لان طبيعته تناقض الكتمان ، فاحرص على هذا السر الذى استودعك ولاتذع به ولا تطلقه من اسار جنبيك بين الناس ، وكن كضمير القائل :

ولها سرائر فى الضمير طويتها .'. نسى الضمير بأنها في طيه

ولاتعاتب محمد العوض علي تعدد وتنوع صناديق سره ، ولا تتعز بقول القائل :

اذا المرء افشى سره بلسانه .'. فصدر الذى يستودع السر اضيق

وذلك لان محمداً كان امة من البهجة والمسرات ، اوتى من حضور البديهة وشدة العارضة ماقل نظيره وندر شبيهه . ذاك فتى كان كوناً جامعاً دنياواته كثر . ولكن : . فلنخرج من هذا الضيق الى رحاب السعة ، لنقول ان عبد الرحيم سعيد ربما كان يستحق هذا الاسم الذى اطلقه عليه محمد العوض وقد لايكون فالله تعالى وحده عليم بذات الصدور . ولكن بالرغم من وداعته كانت له صولاته في عوالم الفوضى مثل كثير من زملائه ولذلك كان اسمه يظهر بين اسماء « المهرجلين » في الفصل كلما احتوت هذه القائمة اكثر من اربعة اسماء وقليلاً ما كانت دون هذا العدد . وذلك لان الكبتل لم يكن يجد فى نفسه تعاطفاً خاصاً مع عبد الرحيم وان لم يكن يبغضه بحال من الأحوال . ولذلك يمكن القول بأن عبد الرحيم سعيد كان كثير الارتياد لكنبة عم مبارك وهو من أبرع من يحكمون اللبد حول أردافهم لاتقاء سياط ما بعد نهاية اليوم الدراسى . ولقد

كان عبد الرحيم تلميذاً نجيباً ولكنه لم يكن من الخطاطين ولا من الرسامين ، فاذا أخذت عليه ذلك سارع بترديد مقولة كانت سائدة فى تلك الأزمنة تزعم أن « كل خطاط ورسام جهول » ! وهى مقولة ليست من الحق في شئ ، ولست ادرى السر فى شيوعها بين الناس وتداولهم لها وكأنها حكمة لا تحتاج لبرهان . ولو انى لم اسمعها من قبل لظننت ان عبد الرحيم قد ابتدعها ابتداعاً واستجمع كلماتها من بنات خياله والف بينها لكثرة ما كان يرددها . ولكنى سمعتها من غيره قبل ان آلف كلفه بها ، وكأنها من الثوابت التي عليها اجماع الامة . ورغم ان عبد الرحيم كان يكثر من ترديد هذه المقولة التى لم نقف لها على أصل تتكئ عليه او اساس يشهد بصحتها الا ان الحقيقة هي أن قصور مقدراته عن اجادة الخط والرسم كانت من الامور التى تشقيه كثيراً وتجعله يتعزى بهذه الحكمة ويستعجبها بصورة دائمة . وهو يغبط محمد عبد الله الشيخ على تفوقه الواضح فى هذا المجال وموهبته التى لا تجارى في الجمع بين اجادة الرسم والخط على السواء . ويشير بمكر وخبث الى الفارق بين حصيلة محمد فى هذا المضمار وحصيلته في المجالات الآخرى ويوهم ان فى ذلك مصداقاً لنظريته . وقــد فـات على عبد الرحيم ان محمد عبد الله الشيخ فنان بطبعه موهوب ، وليس في ذلك من عجب لان محمداً سليل حى من احياء امدرمان له ارث عريق مجيد في الفنون جميعها ، الطارف منها والتليد . . رسماً وشعراً وغناءً . وهل اسرة البنا الا جامعة لهذه الامجاد طرا ؟ هل تحتاج لان اذكرك بشاعر السودان الخالد الاستاذ عبد الله عمر البنا ؟ ام باستاذ الفن المبدع المعروف الاستاذ ادريس البنا ؟ ام بغيرهما من ناظمى اجمل خرائد الشعر واحلى مواجيد الغناء من افراد هذه الاسرة الكريمة العريقة ؟ غير أنى – وربما لجهلى – لم اسمع بشاعر او فنان فى تلك الازمنة من الحى الذى ينحدر منه عبد الرحيم ، وذلك باستثناء واحد سأعرض له فيما بعد ان شاء الله . ولكن اذا كانت الوداعة هى التى حملت محمد العوض على تفضيل اسم معين لعبد الرحيم فان الكل كانوا يعلمون ان محمد عبد الله الشيخ كان اكثر وداعة من عبد الرحيم ومع ذلك لم يدر

بخلد محمد العوض ان يطلق عليه اسماً كهذا . فالأمر موضع شك . ومن الواضح ان عبد الرحيم لم يكن بهذه الدرجة العالية من الوداعة ليستحق ان يوصف بها دون غيره ويتفرد بها عن كل من عداه . لقد كان ميالاً الي الهدوء في حضرة الاساتذة تكاد اذا رايته في هذه الحالة وهو يطرق منصتاً تحسب انه لا يعرف الكلام ولا يحسن الحركة . ولكنه عندما يقرع الجرس يستحيل فى فناء المدرسة الى شخص آخر غير الذى كان فى الفصل ، ولكن دون ان يبلغ درجة الاشتطاط . فهو لم يكن يركض ركض الفاضل شريف وهاشم مصطفى ، ولم يكن يهدأ هدوء محجوب حسن سعيد واحمد الحبيب . وبين هذين البعدين بون شاسع وآفاق رحاب كان عبد الرحيم يظهر فيها مقدراته ببراعة فائقة وبقدر غير قليل من الاتزان والتوسط في الامور . وعبد الرحيم تلميذ ذكى في دروسه لبق فى تصرفاته مع زملائه ، يتحدث بصوت منخفض لا يعصمه من الايغال في الثرثرة ولا يحرمه دعوى البراءة منها ، لايوقعه فى تهمة اكل لحوم الناس ، ولايجنِّبه من شبهة الدخول فيما لا يعنيه ! وهو اذا تحدث اليك تتتابع كلماته فى تؤدة لا تعرف العجلة ويجئ صوته في نبرة هى اقرب للهمس منها للجهر ، ويتبلّج وجهه بسرور جلى ولايغادر الا وقد انفرجت شفتاه عن بسمة مفعمة بالمكر والدهاء . ينال ما يبتغى بالطرق السلمية ، لايحبذ الشجار ولا يتعلق بأسبابه ، واذا اجبر عليه تحاماه وخالف قوانين الفعل ورد الفعل واصطنع لنفسه مخرجاً مريحاً من مضائق العنت . وانا لست ادرى من هم أجداد عبد الرحيم بالدقة المطلوبة حتى اجزم بوراثته لهذه الخلائق الحكيمة كابراً عن كابر . ولكنى قرأت في بعض الكتب بأخره ان معاوية بن ابى سفيان سأل عمرو بن العاص : يا عمرو مابلغ من عقلك ؟ فقال عمرو : ما دخلت في امر (يعنى شراً) قط الا وخرجت منه كما تخرج الشعرة من العجين . فقال معاوية : اما انا فما دخلت ابداً في امر يراد الخروج منه ! وهذا هو الفرق بين ان تحوم حول الحمى توشك ان تقع فيه وبين ان تبقى بعيداً عنه لائذاً بمواطن العافية . ورغم ان عبد الرحيم لم يكن يسلم تماماً من الاولى الا انه كان اكثر ميلاً الى الثانية واشد تشبثاً بها . وذلك

انه يعلم فى قرارة نفسه انه لم يكن يحسن اتخاذ الحلفاء الدائمين ، فتلك مقدرة انفردت بها مجموعة الموردة الحمائمية خاصة وتفوق عليهم فى فنونها الصقور . وأولاد حى الدباغين لم يكونوا بالكثرة التى تمكنهم من تشكيل قوة ضاربة . وهم اذا ركنوا الى لون جلدتهم واقاموا حلفاً على هذا الاساس ومن هذا القبيل فلربما ألب عليهم ذلك نقائضهم وهم كثر لا يحصيهم العد . ولذلك اختار عبد الرحيم تلك الوسطية التى تميز بها وتأرجح فى حدودها لا يتعدى دائرتها بحال . وهذا من شدة ذكائه وبعد نظره وتقييمه للامور تقييماً واقعياً يأخذ فى الحسبان حقائق موازين القوى بالدقة التى تمليها رجاحة العقل وتفرض تحريها الفطنة والزكانة وحسن الادراك لطبيعة الاشياء .
لقد انتفع عبد الرحيم بهذه الوسطية احسن انتفاع فانى قد رأيت بعضاً من اقرانه واولاد حلته معفرين بالتراب مراراً ، ولكنى لم اره فى مثل هذا الموقف الا مرة واحدة وعلمت فيما بعد ان ما اصابه لم يكن لتخطيه حدود الوسطية التى طبعت سلوكه وميزت تصرفاته وإنما كان من باب «الحجاز ليه عكاز» وهذا باب يمكن ان يلج منه الغاشى والماشى الا ان يكون عديم المروءة خالى الوفاض من أوليات معانى النجدة . والذى يدخل من هذا الباب فى تلك الأزمنة لايسعه إلا أن يعلم أن الخروج بالسلامة أمر بعيد المنال . أما المرة الثانية التى رايت فيها عبد الرحيم فى حال يشبه هذا الموقف فقد كانت فى خور طقت ايام الاضراب الشهير ، وقد اشرت اليها فى «صدى السنين» . وذاك موقف ما كان حذره فيه بمصرخه ولا منجيه .

يمكن القول بأن عبد الرحيم كان متزناً فى تصرفاته على وجه العمرم مما يوحى بأنه كان على قدر من النضوج وتمييز الامور غير قليل . وهو قد أسر إلى بأحاديث أيقنت معها انه كان يكبر كثيراً من اقرانه فى السن ، وذلك لانه كان صديقاً عزيزاً بالنسبة لى يستودعنى من اسراره ما لايستودع غيرى وهو يدرك انى بها على الآخرين ضنين . ولقد استمرت صداقتى بعبد عبد الرحيم حقباً طوالاً لم تكدر صفوها فرقة ولا قطيعة وليس في ذلك من عجب لاننا ظللنا زملاء دراسة طوال ايام امدرمان الاميرية ثم

ايام خور طقت الثانوية ثم ايام الجامعة التى نقضتٌ وكأنا كنا نقطعها وثباً . ورغم انى صرت بعد ذلك لا ألقاه الا لماماً لانه اصبح من صناع الغذاء واصبحت ممن يحاولون صناعة الشفاء الا انى أحمل له فى قلبى الود والاحترام واتطلع الى لقائه واجترار حديث الذكريات معه ان كان فى العمر بقية .

ولقد كان عبد الرحيم من المعجبين بأقاصيص التجانى الطاهر عن فريق حى العرب وله ذخيرة طيبة من اقاصيص حى الدباغة ولكنه في سردها لم يكن يرقى الى سحر روايات التجانى ، بل هى كانت فى نظر التلاميذ الذين يجتمعون للاستماع تقل أهمية حتى عما كنا نرويه نحن عن ابى الدفاع وعبد التام واولاد ود التويم وسلسيون وابو زعانف وشمشون وشياطين المسرح وسائر ما كنا نستمع اليه في امسيات كبرى ود نوباوى وننقل اليهم روائعه وغرائب الوانه . ولكن عبد الرحيم استطاع في آخر الامر ان يعثر على ضالته التى كانت كفيلة بتمكينه من منافسة التجانى واستقطاب الاسماع والافئدة واشراع اجنحة الخيال : فكان يزعم ان اللبخ المشهور انما هو من حى الدباغين وانه شهد كثيراً من بطولاته التى اتى فيها بالمعجزات وخوارق العادات . وهكذا صار عبد الرحيم يطلع علينا كل يوم بجديد حتى اوشكنا ان نحسب بينه وبين اللبخ نسباً وصهراً وقربى وثيقة العرى . . وحتى كدنا ان نسلم له بالسبق والريادة . وحتى بدأنا نلمح علامات الضيق والبرم على وجه التجانى وفى بعض مقاطعاته التشكيكية لحديث عبد الرحيم . غير ان التجانى استجمع جميع قواه الجدالية واستنفر سائر مدخراته البيانية ، وتمكن من الالتفاف من حول عبد الرحيم بما استحدثه علي اسماعنا من جولات «بلة الاحمرانى» ومجموعته في سينما برمبل . وذلك ان الحصول على التذاكر من شباك تلك السينما لدخول فيلم من افلام احمد سالم او انور وجدى أو يوسف وهبى كان يحتاج الى مقدرات خارقة . ونحن نعلم – من قصص عبد الرحيم – ان مسرح بطولات اللبخ لم يكن هو سينما قديس او السينما الوطنية بحال من الأحوال وانما كان فى مجالات أخر . ولما عجزنا نحن ايضاً عن الحاق أبطال كوبرى

ود نوباوي بحسن بلاء «بلة الاحمراني» وزمرته في الحصول على تذاكر السينما عنوة واقتداراً ودون انفاق مليم واحدة فقد سلمنا للتجاني بالريادة في هذا المجال من سحر الاقاصيص طائعين قانعين . ولم يسع عبد الرحيم في نهاية الامر الا ان يسلم ايضاً . ولقد حاول عبد الرحيم ان يجعل من اللبخ اسطورة من اساطير تلك البقعة التي عرفت فيما بعد باسم « سوق الموية » الا انه لم يظفر من تلك المحاولة بطائل ، لان التلاميذ لم يقتنعوا بمزاعمه الجديدة حول اللبخ لعلمهم ان هذه « الساحة » لاتحتمل اكثر من فارس واحد وقد استقر في وجدانهم انه «بلة الاحمراني» . ولذلك اجتمعت كلمتهم على عقد اللواء في هذا المضمار القصصي للتجاني الطاهر دون غيره . والحق يقال ان التجاني كان بارعاً في الرواية ودقيقاً في رسم الفصول والمواقف المحيرة والمذهلة ، وموفقاً في حمل كل من يستمع اليه على تصديقه في كل مايروى في هذا الصدد . وقد ساعدته على ذلك جرأة راكزة ومقدرة فائقة على ربط الاحداث وتحريك الشخوص في خضمها تحريكاً متناسقاً يرضاه العقل وتقبله النفس ويستسيغه الذوق ولا تنفر عنه الاحاسيس التي كانت معدة للقبول . ولعل طبيعة التجاني الجرئية المتمرسة على السخرية العليمة بفنون الاثارة هي التي مكنته من ذلك ، بينما قعدت بعبد الرحيم عن التحليق في رحاب تلك الاجواء البعيدة وبلوغ هاتيك الذرى الشاهقة فطرته المائلة الي الهدوء وطبيعته الوسطية الجانحة الي التحدث بنبرة خافتة وصوت لا يعلو على اصوات الاخرين . ومهما يكن من أمر فقد تحققنا من ان بعض اقاصيص اللبخ التي كان يرويها علي مسامعنا عبد الرحيم سعيد هي حقائق لا سبيل الى دحضها او تكذيبها ، غير ان بعض رواياته – وخاصة عندما تضيق الشقة بينه وبين التجاني في التنافس وكأنهما فرسا رهان – لم تكن الا وليدة خياله المحض ، اوقل وليدة رغبته الجامحة في الاشتئثار دون منافسه بأسماع التلاميذ . ولقد كان عبد الرحيم يكسب مثل هذه الجولات عندما يكون التجاني غائباً عن الرهان لان صوت عبد الرحيم الهادئ له قدرة على استقطاب ثقة مستمعيه ممن هم دون التجاني باعاً في مثل هذه المعارج ولان عبد

الرحيم حينما يقول لك « يمين بالله » فان تعابير وجهه تدعوك لتصديقه . ولكن وجود التجانى يزعزع سكينته التى يعتمد عليها في احداث السحر المطلوب لان التجانى لاتفوت عليه دقائق الامور كما تفوت على غيره وله موهبة فى تسفيه الرأى الذى لا يرضيه او الدعوى التى تتهدد سبقه المشهود له به في هذا المضمار ، فهو عند اولئك الرهط الاحداث المبهورين كالماء وغيره كالصعيد الطاهر ، فاذا حضر الماء بطل التيمم.

ابراهيم السيد أبوسمرة . . والشيخ الضعيف :

كان ابراهيم السيد ابوسمرة من فصيلة عبد الرحيم سعيد ولكنه يختلف عنه كثيراً . فابراهيم هادئ بطبعه وفطرته داخل الفصل وخارجه . انه لايتصنع الهدوء خشية الأذى من الأستاتذة ولا اتقاءً لسخطهم ، ولا يتكلفه امام أقرانه لينجو من التورط فى مثل أفاعليهم ، وانما هى سجيته التى جبل عليها . انه لايتعدى على أحد ، ولا يهرجل في الفصل حباً فى الهرجلة وانسياقاً وراء موجات الفوضى التي يحدثها عفاريت كأنهم من فرط عفرتتهم مقرنين فى الأصفاد ، ولكنه يفعل ذلك احياناً اذا تعرض لمناوشة او مناكفة من بعض زملائه ، فاذا ظن انه قد ثأر لنفسه بمافيه الكفاية اورد الصاع صاعين في غير ما تجاوز للحدود عاد الى هدوئه المعهود واشرق وجهه بابتسامة ملؤها الرضا والثقة بالنفس . وهو تلميذ نظامى منضبط يحسن الاستماع الى ما يلقيه الاستاذ علي مسامع التلاميذ طوال الحصة دون ان تظهر على وجهه علامات الملل او الضجر او الضيق . ولايود ان يعترض سيل افكاره وعمق تتبعه للاستاذ وتفهمه لما يقول معترض . ولقد ندر ظهور اسمه فى قائمة المهرجلين فى الفصل ، وكان الكبتل يحترمه كثيراً ، الا انه فى بعض الاحيان يضطر لتسجيل اسمه ضمن قائمة المهرجلين وذلك حينما يكون هنالك هياج عام يوقن الكبتل انه نابع من المنطقة التى يجلس فيها ابراهيم فى الفصل . فاذا حدث مثل هذا الهياج فان ابراهيم لاينجو من مغبته ولذلك يدرج الكبتل اسمه ضمن المهرجلين وهو مكره ليس له من سبيل . وذلك لان الكبتل كان يعلم مثل غيره ان ابراهيم السيد يمتاز بالمحافظة علي اطيب العلائق مع جميع زملائه

وصون ورعاية هذه العلائق من ان يشوبها ما يكدر صفاءها او يقدح فى متانتها ورسوخها . فكان ابراهيم يتمتع باحترام الصقور لانهم يعتقدون انه على هيئة الصقور وان كان مسلكه عموماً مسلك الحمائم ، وهم يأخذون عليه احياناً مبالغته فى الجنوح الى الهدوء وعدم الميل الى مشاركتهم فى الفوضى التى درجوا على احداثها في الفصل تحت قيادة عبد الكريم . ومن عجب ان ابراهيم كان يتمتع ايضاً - وبصورة ملحوظة - باحترام مجموعة الموردة بشقيها من الصقور والحمائم رغم علمهم انه لم يكن موردابى العقيدة الكروية ، ورغم انه « احمرانى » فاتح لون البشرة . ولعل السر وراء ذلك يكمن في طبيعة ابراهيم المتزنة وفى معاملته لكافة زملائه معاملة رقيقة خلت من أى ميل الى الاستخفاف بهم او السخرية منهم . وساعده على تبوء هذه المكانة من نفوسهم انه يحب كرة القدم ويجيد لعبها . ورغم انه يحب فريق الهلال ويتشيع له ويسعد بانتصاراته الا انه لا يغالى فى ذلك مغالاة الآخرين . . . لا يطير فرحاً اذا انتصر فريق الهلال ولاتذهب نفسه حسرات عليهم ان منوا بالهزيمة . . يقابل كلا الامرين باعتدال ووقار . يبتسم فى جميع احواله ، لا يبالغ في الاحتفال بك ان اقبلت عليه مهنئاً ، ولايصدك او يغلظ عليك ان اتيته شامتاً ، بل يلقاك فى الحالين بوجه متهلل ومزاج سليم معافى ينم عن الترحاب . وقد بلغ من رجاحة عقله انه لم يكن يتحزب او ينحاز الى اولاد حيه الا بالمقدار الذى يمليه العرف العام ومراعاة صلات الجوار ، والا بالقدر المناسب الذى لايزج به فى مواقف الحرج ولايدفع به الى حافة المواجهة والمناطحة . بل هو لم يكن على استعداد للانتصار التلقائى لاولاد ابى سمرة عموماً فى المدرسة ، وهم رهطه الاقربون . وقد كان منهم فى المدرسة بضعة افراد مفرقين بين الفصول يمتُّون اليه بصلة القربى ، ووشائج الرحم . وذلك لان شعاره الذى ارتضاه لنفسه وعمل بمقتضاه هو : « كل شاة معلقة بعصبتها » تمثلاً بأصدق الكلام : (ولاتزر وازرة وزر أخرى) . والعصبة المرادة هنا هى العصبة الخاصة بالشاة ، او ما يسمونه بكعب أخيل وليست لها دلالات على العصبية او القبلية او أى شئ من هذه المعانى .

وهذا من تمام عقل ابراهيم . فلو انه حاول الانتصار لهم فى كل شأنهم لجنى من ذلك متاعب جمة لان بعضهم كان جناً احمر لا يكاد يرى الا وهو متمرغ فى التراب معفر جسمه وهندامه بأديمه وحصبائه ، نتاجاً لما تعودوا على الدخول فيه من نزاعات وشجارات كان ابراهيم يرى ان جلها يفتقر الى ادنى مبرر معقول . ولذلك عصم نفسه عن الدخول فى نزاعاتهم التي يستحدثونها ويذوقون وبال امرهم فيها ، وابتعد عما يكدر صفاءه وينال من هدوئه ، الا ان تجبره الضرورات القصوى وهن نادرات الحدوث . ولكن رغم تمتع ابراهيم بقدر مناسب من المعرفة بالدين والحقوق والواجبات والالتزامات والضرورات الا انه لم يكن بدعاً من تلاميذ الشيخ ابى بكر ولم يكن الشيخ ليكبر فيه سجاياه الطيبة اكباراً يغفر له معه اللمم ناهيك عمّا كان يعتبر فى نظر الشيخ من امهات الكبائر . فقد وقع ابراهيم فى قبضة الشيخ مراراً ، ولم ينفعه فى مرة واحدة منها اتزانه ولاكرم خلقه . فالشيخ كما علمت شديد الريبة ، وانى لأ ظن ان ريبته كانت تزداد وينمو معها سخطه وبرمه كلما ازداد لون بشرة التلميذ بياضاً أو سواداً ... ولعله كان يمقت تطرف السحنات ، فهو لا يطيق سواداً داكناً ولابياضاً ناصعاً ، يثيره كلا الطرفين ويحفظه كلا النقيضين . فاذا كنت من هؤلاء فأنت «حمريطى» فاسق ، وان كنت من اولئك فأنت عبد سوء آبق ! أما تعامل الشيخ مع عبد الكريم فلم يكن يخضع لمقاييس الالوان وانما ابتدع له الشيخ مقاييس أخر وبناه على أسس مختلفة . على ان ابراهيم السيد قد تحمل صولات الشيخ ولعناته بشئ غير قليل من الصبر على المكروه ورباطة الجأش فى مواطن الابتلاء وأبان بذلك عن ادراك سليم للامور . فما الذى ينفع مع الشيخ سوى الصبر على لأوائه وشدة نكيره ؟! وفى ذات مرة كان الشيخ يدرسنا الدين وأتى بحديث شريف فقال له ابراهيم : « يافندى ماقلت لينا مايستنبط من الحديث » . وكلمة يستنبط هذه كانت غريبة بعض الشئ يضحك لها بعض التلاميذ رغم انها عربية فصيحة ومثبتة امام أنظارهم فى كتاب الدين تتكرر بعد نص كل حديث شريف . . فضحك بعض الخبثاء لسؤال ابراهيم ، وأغضب ذلك الشيخ

أبابكر ولكنه لم يقف على مصدر الضحك الذى ماكنت ارتاب أنه محمد العوض دون غيره . ولما لم يجد الشيخ من يفرغ عليه جام غضبه ، ولما كان ما قاله ابراهيم لايستحق عليه عقوبة فان الشيخ اكتفى بالرد عليه قائلاً : « يستنبط ابـوك يا ابن الكلب » ! وبلعها ابراهيم في لحظتها دون ان ينبس بكلمة ، وهو لايكاد يصدق انه نجا بالفعل مما كان يمكن ان يكون امر وادهى . فلا احد يرجى له ان يأمن فِكَر الشيخ ، ولا احد يستطيع ان يتنبأ بما يمكن ان يصدر من الشيخ . فهو قد أذهل الجميع باسقاط الحبيب ومن قبله عكود والدرديرى من حساباته وأهوى بهم جميعاً فى مكان سحيق . فمنذا الذى يطمع في ان يجد مكانة عند الشيخ بعد ذلك ؟ لقد كان ابراهيم السيد من اوائل الذين ادركوا هذه الحقيقة لانه تلميذ فطن مرتب الذهن يعد العدة لكل الاحتمالات ويتحكم فى عواطفه تحكم الخبير بالعواقب فلا يغضب ويكشر ويصر وجهه كما يفعل البعض ، ولايخرجه السرور عن اطواره فيمرح ويفرح (ان الله لايحب الفرحين) . ولكن ترتسم على وجهه ابتسامة مميزة مقتصدة تباعد بينه وبين الإنقباض وتقارب بينه وبين الضحك الصراح ، غير انه تعود ان يبقيها في تلك الحدود لاتتعداها ، سواء عنده السراء والضراء . ولذلك فقد كان ابراهيم هو التلميذ الوحيد الذى يتلقى هياج الشيخ وصفعاته ووعيده بوجه طلق لاتعلوه كآبة ولاتكدر صفوه ظلال من ألم او أسى .

وأعجب ما فى الامر ان الشيخ ابابكر لم يكن يلقى بالاً للكيفية التى يستقبل بها التلاميذ عقابه وتجاوزاته . ورغم انه كان مدرساً للغة العربية فى الفصول المتقدمة الا انه ظل بالنسبة لنا استاذ الدين ، وحتى فى هذا الشأن فهو استاذ القرآن لان الدين - من فقه وسنة وحديث - كان له استاذ آخر هو الذى اطلق عليه محمد العوض اسـم « الشيخ الضعيف » وهو الشيخ محمد الطيب ولم يكن ذلك بقصد الاساءة اليه او التندر عليه وانما كان تمييزاً له عن الشيخ ابى بكر والشيخ يوسف . ولقد كان الشيخ الضعيف على النقيض من الشيخ ابى بكر وهو استاذ فاضل كل الفضل محبوب بين

التلاميذ . وربما كان هذا الشيخ مدركاً لما صار اليه حالنا مع الشيخ ابى بكر لان أغلبنا كان ينال عنده النمرة الكاملة في الدين وهى « اطناشر من اطناشر ». فاذا كان نصيبك عند الشيخ ابى بكر صفراً كما هى العادة ، وصار نصيبك عند الشيخ الضعيف اطناشر فأنت ناجح فى علم الدين (الذى يشتمل على القرآن) ولكن « على الحركرك » لان نسبتك تكون « اطناشر من اربعة وعشرين » . نعم كنا فى اول امرنا نحصل علي الدرجة القصوى وهى اربعة وعشرون من اربعة وعشرين ، ولكن بعد سلسلة النكبات التى حلت بنا على يد الشيخ ابى بكر وتخطفتنا تخطف الطير تباعاً الواحد منا فى أثر الاخر صرنا نسعد بالحصول علي نصف الدرجة القصوى ونحن نحمد للشيخ الضعيف كرمه واريحيته ونعترف له بفضله الذى طوق به الاعناق ، لان من وجد الاحسان قيداً « تقيدا » على حد قول ابى الطيب يرحمه الله . ولكن ابراهيم السيد كان قد ادار ظهره لهذه المادة بعد ان استيأس من كل خير يأتيه من قبالة الشيخ أبى بكر ، وركز جهوده علي المواد الاخري . بل هو ظل ينصحنا بأن نحذو حذوه ونسترشد بقناعاته وننتهج سبيله رغم اننا لم نكن نرى ما يرى ولم نكن ندين بـما يدين . وربما كانت هذه النظرة الخاطئة من ابراهيم السيد هى من قبيل المرات القليلة التى يتنكب فيها الطريق ويجانب معها الصواب . ولطالما نصحه الكبار الذين جربوا الامور وخبروها فبينوا له ان مادة الدين – مهما كان حنق الشيخ أبى بكرأواشتطاطه – هى في الواقع مادة سهلة غير مستعصية على الافهام ، ومما يشجع علي التعامل معها بجدية ان الشيخ الضعيف رجل طيب القلب سهل الطباع لين العريكة يمكنك ان تبلغ عنده مرتبة الدرجة القصوى في مادة الدين بلا عنت ولارهق وفي يسر وسلامة . ولكنك اذا اعتمدت على الحساب مثلاً فانك تراهن على فرس لاتضمن ان يبلغ بك نهاية الشوط سليماً وان طار فى الجو وسبح في الهواء ونقر بحوافره اديم الفضاء ؛ انك تراهن على مجهول هو كحال الدنيا تماماً ، لا تستطيع أن تطمئن له ابداً ، وخاصة مع الاستاذ غزالى السراج ، وبخصوص اشد مع الاستاذ محمود الضرير . فان كان الاول

يقطع عليك طريق الطمع فى تحصيل الدرجات العلى لقناعته الراكزة بأنك مثلاً لاتصلح اصلاً لتلقى حساب المثلثات (التريقو) فان الثاني يعدك ويُمنِّيك بحديثه الهادئ وسكينته الموفورة ، ولكنك تتلقى منه ورقة اجابتك فى الامتحان في اليوم التالى وكأنما ذبح عليها ديك فسال دمه في كل ارجائها . فاذا خرجت من هذا الدم المسفوح بعشرين من اربعين فاحمد السرى واسجد لربك شاكراً لانعمه لعله يجتبيك . واما فى الجغرافيا فان الاستاذ الحاج هاشم قد آلى على نفسه - لامر يستبطنه فى نفسه فلا يعلمه الا الله - الا يحصل اغلب التلاميذ على اكثر من خمسة وثلاثين من سبعين في هذه المادة . وهو امر عجب لم اجد شيئاً يماثله او يقاربه الا فى جامعة الخرطوم حينما كان استاذ البوتنى (Botany) أو علم النبات الاستاذ « ما كلاى » يقول لنا : اذا كانت درجة النجاح (المرور) هى خمس وثلاثون من مائة - وقد كانت عنده كذلك ! - فلماذا تجهد نفسك لتحصل على ست وثلاثين ؟ ان ذلك يعنى انك تنفق وقتك في استذكار مالاينفع ولايجدى . والمدهش ان الاستاذ « ماكلاى » يشبه الاستاذ الحاج هاشم في كثير من الوجوه - فى ضخامة الجسم ، وفى لون البشرة (بالتقريب) وكذلك في صرامته وكلفه بالاستهانة بالتلاميذ والتلويح لهم بأنه يمكن ان يقبض ارواحهم فى لحظة ان اراد ، ثم في اقناعهم بعد التأكيد لهم بكل الوسائل بأنهم أجهل من يمشي على الارض ! وفوق ذلك فقد كان الاستاذ الحاج هاشم - كحكم فى ميادين كرة القدم - يرتدى الشورط والجوارب الطويلة ويغرس بينها وبين لحم ساقيه مجموعة من الاقلام الرصاص ، تماماً كما كان يفعل الاستاذ « ماكلاى » في جامعة الخرطوم . ولقد كاد « ماكلاى » ان يضع بين شفيته صفارة الحكم لتكتمل اوجه الشبه بينهما اكتمالاً ، ولو انه عثر عليها لاستخدمها كوسيلة فعالة من وسائل الانذار المبكر او الوعيد او الامر الحاسم للتلاميذ بالكف عن الهرجلة والضجيج . الفرق الوحيد بينهما هو ان « ماكلاى » كان يحلق بنا بين ازاهير النبات وسوقه واوراقه ، فاذا اكملنا هذه السياحة وظننا اننا قد صرنا نعرف طوب الارض واسرار الخليقة في هذا المضمار طلع علينا

في الامتحان بزهرة لم نسمع بها من قبل ولعله هو نفسه لم يرها ولم يعرفها فى سابق عهده – اسألوا محمود احمد مهدى ان كنتم لاتصدقون حديثى هذا تجدوا عنده النبأ اليقين ! – وان الحاج هاشم كان يطوف بنا ارجاء الارض ولجج البحار ، فاذا فرغنا من ذلك التجوال الدؤوب وحسبنا اننا اطلعنا على فجاج الارض ومستودعات مياهها . . فاجأنا بالسؤال عن بحر لا ساحل له ولاشطآن واستنبأنا عن ارض لم تطأ ثراها قدم مخلوق !

وقد بلغ من انضباط ابراهيم السيد انه كان لايعرف الزوغان من الحصص ، ولايتصنع المرض والاعياء كما كان يفعل بعض التلاميذ حين يصدق عزمهم على تغييب انفسهم عن حصة من حصص الاساتذة الذين يخشون بأسهم . فمنهم من يزوغ عياناً بياناً ثم ياتى ولى امره يصطنع له المعاذير . ومنهم من يرمض او يتعرض لحرارة الشمس الضاحية حتى اذا أحس دفئاً فى جسمه عمد الى دفتر المستشفى يلوذ به آملاً ان يحظى براحة تجنبه مايخاف ويخشى حتى وان كان ثمن هذه الراحة حقن الملاريا التى تقدح الاصلاب قدحاً او محلولها ذا المذاق المر الذى يسلخ اللسان والفم والحلقوم . اما ابراهيم السيد فان الامانة كانت بعض خلائقه . ورغم انه كان يعانى من التهاب الجيوب الانفية المزمن – فانه لم يحاول ابداً استغلال هذه العلة للتغيب عن الحصص ، ولوشاء لفعل ، ولو فعل لما عنف او حوسب علي ذلك ، فالعلة ظاهرة وعلاماتها بينة ولن يبخل عليه الطبيب الذى يفحصه بالراحة ليوم او يومين كلما المت به نوبة حادة من الحساسية او الالتهاب . ولكن ابراهيم كان تلميذاً نموذجياً فيما يتعلق بالدوام . ولذلك اكتسب احترام زملائه وتقديرهم . ولذلك كثرت نصائحهم له لانهم احبوه . ولو انه استمع لها وركز على ارضاء الشيخ الضعيف وهو الشيخ محمد الطيب لنجا من الدائرة الحمراء فى علوم الدين . ومن الناس من تعطبه امانته ويهلكه اخلاصه .الم تسمع الى قول ابى الطيب .

لولا المشقة ساد الناس كلهم .'. الجود يفقر والاقدام قتال ؟

مهما يكن من أمر فان ابراهيم السيد لم يحسن الاستماع الى نصائح الخبراء من رجالات الربع الخراب ، ولم يحفل أو يسترشد بتجاربهم الثرة النافعة ، فكان من أمره ما كان . ولو أنه أصاخ لنصحهم واعتبر بما اعتبروا لصار من اولى الابصار . ولكن ابراهيم امتاز بفضيلتى الصبر والهدوء فأفاد من ذلك كثيراً وجنى منه تقديراً عند الاساتذة رفع من شأنه فى نظرهم وحماه . ونفعه اداؤه الرائع فى ميادين كرة القدم حتى عُدَّ عند الناس قريباًمن مراقى مرزوق وشبيلية وخليل ابى زيد ، واعتبره الاساتذة خليفة مؤهلاً لهذا الرعيل السابق فرفع ذلك ايضاً من مكانته وارضاهم عنه وارضاه . ولم التق بابراهيم بعد ذلك الا لماماً فكان دوماً على وفائه القديم وابتسامته الهادئة ووداده الاصيل ورزانته المعهودة .


الباب الثانى

عبد الر حيم قلِّى ... مابتقدر تخلّى :

ما أصدق المثل السودانى الذى يقول « المكتولة مابتسمع الصايحة » « والصايحة » فى فصلنا لم تكن غير عبد الرحيم قلِّى. و قلِّى هذه تنطق بكسر القاف الدارجة السودانية وتشديد اللام المكسورة مع التركيز عليها فى النطق لدرجة تجعل الياء التى تأتى بعدها مقتضبة أشد الإقتضاب . ولست أدرى أصل هذا الاسم إلا أن يكون من ابتداعات محمد العوض مصطفى التى كنا نجهل السر وراء بعضها جهلاً لايميطه عنا إلا محمد نفسه إن أراد . فعبد الرحيم كان من عصبة المورداب رغم لون بشرته « القمحي » كما يقول أهل السودان . ورغم أنه كان موردابى العقيدة الكروية وموردابى السكن والمزاج إلا أن طبيعته برئت من أى أثر من آثار الشراسة والتشدد ، فهو تلميذ متسامح وسهل الطباع ، وهو مقتدر فى ذات الوقت . ولقد كان عبد الرحيم محدودب الظهر مما جعل البعض يضعه فى مصاف يوسف خضر وأمثاله سناً وتجربة . والحق أنه لم يكن كذلك ، بل كانت ملامحه توحى بأنه ربما كان يصغر « الصبى » قليلاً ، وهو قطعاً يصغر العتاة بوضوح . ولقد أوتى عبد الرحيم قلى – على قلة تجاربه – شيئاً من الحكمة لا يستهان به ، وقدراً من ملكة الرَّوِيَّة والتدبر ليس بالقليل . كان مغرماً بتصيد الأنباء والتقاطها وبث المثير منها بين التلاميذ بطريقة مسرحية أخاذة وهو عادة يختم ما يفشى من الأسرار ببعض النصائح . وأحياناً تصدق نبوءاته بصورة مذهلة . وله اسلوب خاص فى اشاعة الخبر بين الناس يستخدم فيه نبرته الخافتة الهادئة أبرع استخدام ، ويستعين بسائر أعضاء جسمه المرئية على تهويل الخبر وشحنه بالاثارة ومعانى التشويق ، فيأتى بحركات يقوس على أثرها ظهره ويقلب خلالها أصابع يديه ويباعد ويقارب بين رجليه يتقاصر عليهما ويتطاول كأنه « زمبلك » ، ويكثر من التلفت يمنة ويسرة ، و يبدو أمامك وكأنه يتكور علي نفسه «ويتشرنق » وقد غابت رقبته وغطس رأسه – أوكاد – بين كتفيه ، و أومض وجهه بابتسامة ساخرة شحيحة العطاء قلَّ أن تكتمل معالمها وتستبين . فاذا بلغ بك نهاية

النبأ الذى يكاد يسر به إسراراً أنهى تلك الابتسامة الشاحبة الكليلة المبهمة المعالم بضحكتين مقتضبتين أو ثلاث ، ثم يكتسى وجهه بصورة تخلو تماماً عن أى تعبير من التعابير أو معنى من المعانى . ولعلَّ السر فى تقوس ظهره الذى صار ملازماً له هو هذه الحركات التى يأتى بها تباعاً عندما يشرع فى نقل الاخبار وافشائها بين الناس ، وما اكثر ما كان يفعل ذلك . ففى ذلك اليوم المشئوم الذى انتقشت فيه على جدران المدرسة خطوط الفحم الاسود وهى تنهش لحم الناظر محمود بلال رزق نهشاً وتمزق أوصاله تمزيقاً كان عبد الرحيم قلى أول من أبلغنا النبأ . بل كان هو الذى أشار إلى هاشم مصطفى - مستخدماً فى ذلك رادار حاسته السادسة ومهتدياً بضيائه - أن يأخذ حذره فى ذلك اليوم ، وأبان له أن الخير كله - بالنسبة له - فى أن يغيب وجهه عن أعين الناس ان استطاع إلى ذلك سبيلاً . ولست ادرى لذلك سبباً إلا أن يكون قد وقف على شئ وخشى أن يغمس لسانه فيه . وذلك لأنه - فى نفس الوقت - حذرنا من «عموش» أشد التحذير وأبلغه ، واعتبره طابوراً خامساً وقال إن هذا « المعمش » يرى ما لاترون ويسمع ما لا تسمعون وسيكون له في هذا اليوم شان لا ينسى ودور يفصح بالعجب العجاب . قال لنا عبد الرحيم قلى كل هذا قبل طابور الصباح وهو يأتى بحركاته تلك التى عهدناها فيه عندما يحمل بين جوانحه أغرب الأنباء ، ويبرز من تحت رأسه المدفون بين كتفيه إلا قليلاً « سردوياً » لا تخطئه عين ، وتبر ق فى وجهه نصف ابتسامة سرعان ما تعقبها وتمحوها تماماً قهقهات قصار أشبه ما تكون بطقطقة أصابع اليد . وهو عادة لا يفصح عن مصادره ولا يبخل بالتأكيد علي حقيقتها وخلوها من أي شك يقدح فى مصداقيتها ، وانما يتصرف كساحر يدعى معرفة احرف الاحداث بظهر الغيب ويجزم بذلك . وحتى لا نرهق أنفسنا بمحاولة ابتداع التفسيرات المعقدة لهذه الظاهرة التى تميز بها عبد الرحيم قلى بيننا تميزاً جلياً لا ينافسه فيه أحد ولا يدانيه فقد اعتمدنا صحة رواياته ووثقنا بصدق نبوءاته بعد أن جربنا ذلك مراراً وايقنا بمطابقته لما تنكشف عنه الأيام من أحداث مطابقة حقيقية . ولو أن هاشم

مصطفى أحسن الاصغاء إلى نصائحه فى ذلك الصباح وعمل بمقتضاها فلربما طاشت سهام «عموش» ونجا هاشم من هول ذلك اليوم العصيب . ولكن « المكتولة ما بتسمع الصايحة » كما يقول اهلنا الطيبون فبدل أن يعتبر هاشم بتواتر الصدق فى نبوءات عبد الرحيم آثر أن يركب رأسه وأن يبقى كما بقى غيره ، معتمداً فى ذلك على براءته من أي ذنب يذكر ، ومعتبراً مقولات عبد الرحيم قلى هرطقة لا تستحق أن يحفل بها من كان له فضل من عقل وبصيرة . ولعل هاشماً كان يعتبر عبد الرحيم قلى من أولاد المورد ة المتراخين عن رباط العصبية السكنية والعقيدة الكروية ، الجانحين إلى موالاة الخصوم الكرويين ومواددتهم خدمة لا غراضهم الخاصة وطموحاتهم الذاتية . ولذلك فهو لم يلق بالاً لنصائحه ولم يبد اهتماماً لتحذيراته . ولكن هذا الظن الذى كان يظنه هاشم هو ظن فاسد ، لأن عبد الرحيم قلى كان في حقيقة أمره وفياً لعصبية اولاد الموردة ولكنه كان بطبيعته يبغض التقوقع والركون إلى الضيق ، يحب السعة ويميل إلى اجتلاء الأفاق وارتيادها ، بغية التعرف على الجديد واستصحابه ان رآه ملائماً وظن فيه خيراً ، ورغبة فى الانعتاق من القديم والزهد فيه والانفكاك من ربقته وإساره أن أصبح فى نظره راكداً وآسناً لا إثارة فيه ولا غناء . فقد كان عبد الرحيم يحب الحياة ويحب الا ضطراب فى جنباتها ، ولكن بحذر بالغ وتحسس ذكى لمواقع القدمين فهو لم يكن متهوراً ولا مندفعاً ولا تواقاً إلى ركوب صهوات المجهول أو خوض معمعة المغامرات ، انما يقف ويتدبر ويطيل الوقوف والتدبر ، لا يكتفى بما يظهر له من معانى الحدث وانما يجتلى الاسرار والخفايا ويحسن قراءة النتائج التى يمكن أن تترتب على التداعيات وتتمخض عن نسيج الخيوط . ولقد اسعفته هذه المقدرات فى كثير من أحواله ، فكانت له صلات طيبة بجميع تلاميذ المدرسة الذين عرفهم ، وتمكن من اقامة أمتن العلائق مع صقور الفصل وحمائمه على السواء . ومما ساعده على ذلك وزكاه فى نظر الناس تلك الرَّنَّة الحنونة التى كانت تنغِّم نبرات صوته وتميزه وتهيئ له القبول ، وتلك البسمة التى لا تمكنك إبداً من حملها على المكر أو البراءه لأنه يباغتك بها فى

سرعة خاطفة ثم تجلوها عن وجهه ضحكاته القصار الفرقعيات ليعقبها على قسما ت وجهه ذلك التعبير الغامض القصى الذى لا ينقش فى ذهنك اى صورة من الصور تعرفها وتركن اليها ولا ينقل إلى خواطرك ايٍّ معنى من المعانى تتلمسه أو تستجليه وترضى به !

وأنالست أزعم أن عبد الرحيم قلى قد سلم تماماً من نكير الشيخ أبى بكر ، فهو - على الرغم من فطنته وحذره وسائر مواهبه - قد عانى بعض ما عانينا من الشيخ ، ونال أيضاً ما قسمه الله له على أيدى الاساتذة الحاج هاشم وفرح والسبكى ، ولم يفلت من سوط عم مبارك ، وأصاب شيئاً غير قليل من لسعات الاستاذ محمود الضرير الساخرة . ولكنه خرج من كل ذلك وهو أقربنا للعافية والمعافاة ، لأنه قد امتاز بسعة صدر هونت عليه الصعاب ومكنته من اجتياز جميع المضائق بسلامة موفورة ، بما فى ذلك بعض المعارك التى كانت تنشب بين عصبة وعصبة أوبين آحادمن التلاميذ فتعمّ الأخرين . لقد خرج عبد الرحيم قلى من كل هذه « الورطات » كما تخرج الابرة من المخيط تثقبه ثقباً فلا يعلق بها شئ من لحمه أو سداه . وقد لازمته هذه الملكات الوهبية فى مدرسة خور طقت الثانوية من بعد ، ولفتت إليه الأنظار وجذبت اليه اهتمام الناس ولكن عبد الرحيم قلى لم يكن ليفترّ بشئ من ذلك ، فلم يكن حذره ليفارقه . وعندما ثارت « الشكلة » الشهيرة فى منزل العمدة عبدالله عمدة حلة الدونكى كان عبدالرحيم قلى هو الناجى الوحيد من تلك اللّكمات التى اعقبت على الوجوه أوراماً وكدمات ، وكان هو الذى تبنى تبنياً فعلياً وفعالاً ذلك الاقتراح الصائب الذى انتهى بحمل عنقريب من الداخلية المدرسية المقفولة إلى منزل العمدة عبدالله تعويضاً مجزياً له عن عنقريبه الهباب الذى انكسر مرقه إبّان الصخب والشجار . وكان ذلك ثمناً غالياً لصمت العمدة عبدالله الذى حلف بأغلط الأيمان ليبلغن ناظر العمارة بكل شئ إذا لم يعوض على تلف عنقريبه الذى كان يحبه من « آخر قلبه » على حد تعبيره . ولقد تفتقت عبقرية عبد الرحيم عن تفهم ذكى لطبيعة الموقف فهدى إلى تطوير الاقتراح الذى جادت به قريحة

سمير دون ان تحدد معالمه بصورة واضحة ، فنقحه عبد الرحيم قلى وأبان طرائق تنفيذه بالسلامة المرتجاة والسرية المطلوبة . وتم الاخراج حسب الخطة التى رسمها ، واسدل ستار الصمت الأبدى على تلك التجاوزات الطلابية التي قادها الكبتل بنفسه وكان بطل النصف الأول منها دون منازع . ولولا ذكاء سمير وفطنة عبدالرحيم قلى وسرعة استيعابه للفكرة الداعية إلى نقل عنقريب الفداء فى ما يشبه السرية التامة لآل أمر تلك الفئة من التلاميذ إلى هلاك محقق . ولقد كاد عبدالرحيم قلى بعد تلك الواقعة أن يصبح « معبود الجماهير » على إحدى الروايات التى نسبت إلى الكبتل فيما بعد. واذا كانت البصيرة ام حمد – على ذيوع صيتها وتمام شهرتها – قد تسببت فى كسر البرمة وقطع رأس الثور فقد كان لعبد الرحيم قلى من نور البصيرة ما جعله يحول دون ادخال الثور لرأسه فى البرمة أصلاً ، وبذلك نجانا من كارثة محققة .

كان عبد الرحيم قلى تلميذاً ذكياً بحق . وهو لم يوقف ذكاءه وحنكته على الدرس والتحصيل وحدهما وانما خرج بهما إلى تدبير جميع شؤونه الأخري . فبدا على درجة من النضوج المبكر تفوق ما يناسب سنه الصغيرة . ورغم انه كان مولعاً بالتقاط الأخبار المثيرة الا أنه كان يقلب فى ذهنه ما يبلغه من انباء ويصطنع الحذر والدقة فى نشر ما يستوجب النشر وكتمان ما يمكن أن يعود عليه بالعواقب السوء ان هو اذاعه به بين الناس . فلا يحب أن يروى عنه إلا ما لاتضره روايته . ولذلك كان عبد الرحيم قلى لا يروى عن اساتذته وزملائه ما يقدح فى سيرهم أو يمس أشخاصهم بسوء . بل هو لم يكن يغمس لسانه فى مثل هذه الامور الامادحاً إذا ألفى مناخاً مناسباً لذلك ، أو متسائلاً ينتظر الاجابة دون أن يعلق عليها بشئ . وهذا من تمام نضوجه وكمال حذره . ولقد احبَّه احمد فضل المولى في خور طقت محبة صادقة . وكان احمد مولعاً بالسجع كثيراً ما يستخدمه فى حديثه الدارج . ومن فرط محبته لعبد الرحيم كان رحمه الله يقول : قلى ما بتقدر تخلّى !

خالد محمد سعيد .. والغول .. ومنكر ونكير :

كان خالد محمد سعيد من أصدقاء عبد الرحيم قلي اللصيقين به في مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى . ولكنه كان يختلف عنه كثيراً . فخالد أفتح لوناً من عبد الرحيم قلي- ولذلك عرف بلقب « اليماني » - وأطول منه قامة وهو معتدل الظهر ليس فيه حدب ولا « سردوب »ولكنه كان عظيم الأذنين طويل الرقبة إذا ما قيست رقبته برقبة قلي التي لا أحسب أن أحداً قد رآها أبداً . وأما عبد الرحيم قلي فقد كان حذره فضفاضاً بعض الشئ يتسع في أحيان نادرة لولوج أبواب بعض المغامرات ابتغاء الحصول على الأنباء المثيرة والوقوف على أسرار الأخبار المهمة التي تُيسِّر له المادة الحية لا ظهار مواهبه ومقدراته على جذب انتباه الآخرين والنفاذ بسحر الرواية إلى أدق خلجاتهم . ولكن حذر خالد كان مشوباً بشئ من الخوف من المجهول وبكثير من التردد في اتخاذ القرار وان كان الجو صحواً والسماء صافية . فخالد أبعدنا عن الدخول في المغامرات جليلها ودقيقها حتى يكاد يحسب أن التحدث مع جاره في فترة الدقائق الخمس التي تفصل بين حصة وحصة مغامرة قد تجلب السوء من معادنه البعيدة . وحتى في حضوره إلى المدرسة وعودته منها إلى داره لا يسلك خالد إلا طريقاً واحدة ، لا يغيرها ولا يبدلها حتى ولو فرشت له على غيرها البسط ونثرت له على سواها الأزاهير . وقد كفاه الله شر الطرماج والكمساري ومطاردة المفتش التي لا يفلت من مغبتها إلا شيطان مدرب يحسن النزول من هذه المركبة الجنونية وان كانت تمضي في سرعة الأعاصير . فليس حي عبدالله خليل الذي تقرب منه داره ببعيد عن المدرسة ، فهو لذلك يغدو ويروح سيراً على قدميه آمناً على نفسه لا يلوى على شئ . وهو وان كان من « الجماعة الحمر » لوناً فانه لا يحمل أي احساس بعصبية ، وقد برئ حتى من التشيع الظاهر للفرق الرياضية ، فنأى بنفسه عن مغبة المشاحنات التي كثيراً ما كانت تتفجر بين التلاميذ نتيجة لمثل هذه العصبية وهذا التشيع ، وكثيراً ما كانت تنتهي بمعارك مدوية . ولكن الحذر له حدود لا يمكن أن يتعداها مهما امعنت في تضييق نطاق رغائبك ، والحذر يؤتى من مأمنه وان ظن انه ناج بالتمسك بحذره من كل

مكروه . ولذلك لم يمنع هذا الحذر خالداً من سطوة الشيخ ابى بكر وشرورها ، ولم يقه من نكير الاساتذة الآخرين . بل إن خالداً كان كثير الوقوع فى هذه الشباك ، شديد القابلية للانزلاق من مواطن الحيطة إلى مهابط الوحل . وهو يهاب الشيخ أبابكر ويخافه ويخيل اليَّ أنه كان يتحصن فى سره من شروره وذلك بما تعلمه من والدته من أدعية منجية . فانى رأيته يحرك شفتيه كلما دخل علينا الشيخ دون أن ينطق لسانه ، وقرأت على صفحة وجهه أنماطاً من التعابير الدالة على ما يجول بخاطره من معانى القلق والطيرة ، وكدت أسمع بأذنى دقات قلبه الذى يكاد ينصدع من فرط هول وشيك الوقوع . فاذا دب الشيخ تلقاءه بحركاته تلك القططية انخلع قلب خالد وطاش صوابه وتفلتت الآيات القرآنية من صدره تباعاً ولما يبلغ شفتيه منها قدر يسير . ثم تسمر أمام الشيخ لا ينبس بكلمة ، ترتعد فرائصه ويتيبس حلقه من شدة الفرق ، وهو فى كل ذلك معذور ، لأنه لا يتوفر له الأمان ولا الزمان لكى يتملق ذاكرته ويستدعى من أغوار أضابيرها ما أريد منه تسميعه .. ثم يكون ما كتبه الله له وقدره على لسان الشيخ ويديه . وأما فى حصة الاستاذ فرح فقد آلى خالد على نفسه أن يفوض الأمر لله تفويضاً لا منازعة فيه فما فائدة البتبتة والفرفرة إذا حم القضاء ، وما الذي يسعفك وينجيك إذا دخل الاستاذ فرح الفصل ومن ورائه عم عبد العزيز وعم محمود ؟ وما فائدة الأحلام الوردية وقولك أنك « اشتغلت كويس » وأنت تعلم أن امتحان « السبلنق » (Spelling) لن ينجو من شروره أحد إلا أن ينال مائة درجة من مائة ؟ وهل أنت خواجة من بنى السكسون حتى تنال هذا المقام الرفيع فى لغة بنى السكسون ؟ وهبك تحصلت على اكثر من تسعين بالمائة ، فماذا أنت فاعل مع استاذ لا يرضيه إلا الكمال الذي يعلم خالد تماماً أنه ليس فى مقدوره ولا فى مقدور أحد سواه أن يحوم من حوله ناهيك عن بلوغه والتربع علي سدته ؟ لا فائدة ترجى من الامانى التى لا أساس لها ولا مبنى ، ولا يركن إلى خداعها إلا غافل غر ، وماهى إلا بضائع الموتى . أما الأحياء فانهم واقعيون مدركون لحقائق الاشياء كما تظهر أمامهم ، لأن دخول العمين منكر

ونكير من وراء الاستاذ فرح له معنى واحد لا ثاني له ولا ثالث . ولذلك وجب تفويض الأمر لله وانتظار رحمته بانتهاء ذلك اليوم أو تلك الحصة على وجه الخصوص ، ولن تتم الرحمة وتعم إلا اذا ذهب ثلاثتهم وصار مانالنا منهم جزءاً من الماضى السحيق . فليس فى كنانة خالد الكلامية والتبريرية ما يفيد أو يشفع له لدى الاستاذ فرح . وأما العمان عبد العزيز ومحمود فقد ألفا حمل خالد فى مثل هذه الأحايين لسوط العذاب ، وهو يصيح و يتلوى رغم اللبد التى يحتقبها في مؤخرته ، وله فى ذلك اسوة حسنة - وربما راها البعض سيئة لست أدرى - فى جاره وصديقه عباس صالح . وبعد كل هذا قليلاً ما كان ينتهى اليوم الدراسى دون أن يختم بسياط عم مبارك وكأن ذلك كان جزءاً من المنهج الدراسى فصا ر الانتهاء اليه حتماً مقضياً .

ولكن إذا استثنينا هذا الشعور بالفزع الذى كان ملازماً لكثير من التلاميذ والذى كنت تقرؤه بأحرف واضحة جليّة على وجه خالد فى أوقات الروع فانه يمكننا القول بأن خالداً كان تلميذاً مسالماً لأ بعد الحدود ، هين الطباع كريم النفس ، رقيق العواطف مرهف الأحاسيس ، لا يبادر أحداً بشر أبداً. واذا ووجه بمكروه سارع برقته المعهودة إلى محاولة احتواء الموقف قبل أن يستفحل ويصعب التحكم فيه ، واثر أن يصد عن نفسه السوء بالتى هى أحسن ، وحصّن وجهه ومظهره بابتسامة تجمع بين الشك واليقين ، وتمزج بين الخوف والرجاء ، وتخلط علامات الاستنكار الظاهرة بحب خفى - ولكنه صادق وجارف - للسلامة والنجاة ، وتبرز معانى التقية من وراء مظاهر افتعال الثبات . ينبئ عن كل ذلك بريق غامض فى عينيه ولكنه ذو معنى لا تخطئه بديهة ولايفوت على ذى نظر ، وبروز واضح فى أذنيه من تحت العمامة ، وان كان ذلك خلقة لا تعمُّل له فيها ولا اختيار، صوره عليها القادر المتعال (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) . ولقد بلغ من حذر خالد أنه لا يغشى مواطن الفتنة ولا يحوم حولها ولايقترب منها ، فاذا ألمَّ بها على رغمه تحاشاها تحاشياً ، وسلك طريقاً تباعد بينه وبين أهل العراك . وقد فطن زملاؤه لهذه الخصلة فيه ، ولكنهم أبوا على أنفسهم -

كرماً منهم ومروءة ، وتقديراً منهم لمزاياه الكثر العديدة – أن يستغلوها فيه . ولو أنهم أرادوا ذلك وفعلوه لنغّصوا عليه حياته ولدفعوا به إلى ما يكره ويتقى . وربما دار بخلد بعض الخبثاء منهم مثل هذا الشعور وراودتهم النية –من قبيل محبتهم للعبث والعفرتة -- للزج به فى أشباه هذه المتاهات . ولكن الله عصمه منهم وأعلى من قدره فى أعينهم فرجحت محامده بالميزان على ما حسبوه نقائص ، وباءوا له باحترام يذكرون نبله ولين عريكته وأدبه الجم فى المخاطبة والتعامل . وحتى أهل الربع الخراب .. عبد الكريم وبقية الصقور وجيرانهم التابعون من العتاة واصحاب الحل والعقد، وكذلك ناثروا الأحبار على قفاطين الشيخ ابى بكر وفرجياته – مصطفى عابدين وقبيله –كلهم تبينوا براءة خالد وفطرته النافرة عن التهاون بالنظام والانضباط ، وقدروا ذلك فيه حق قدره . وليس فى ذلك من عجب لأنهم لم يصلوا إلى هذه القناعة إلا بعد تفكر وتدبر . فقد حاولوا مراراً أن يستدرجوه إلى أفاعيلهم التى يغيظون بها الاساتيذ ويحنقونهم ، وكادوا فى اكثر من مرة أن يدفعوا به إلى حافة التلبس بها ولكنه استعصم وأبى ، ولم يكن ذلك مكابرة منه أو بغية معاندتهم ومخالفتهم ، ولكنها سجاياه وقدراته . لقد عجز خالد عن مجاراتهم فيما هم فاعلون ، وأعلنت لهم جميع ملامحه وظواهر وكوامن مقدراته وخلجات نفسه أنه بعيد بطبعه عن تلك المرامى لا يحسن منهاشيئاً ، فعلموا أن الخير كل الخير أن يتركوه لشأنه . وهم قد رأوا بأعينهم أنه لا يهب لنصرة أى من « الحماريط » وان ألفاه مخنوقاً تحت قبضة جبار ، ولايشتغل بنجدة جار من جيرانه فى الفصل و لو تكاثرت عليه الأيدى من أولاد الفصول الأخرى ، شعاره فى ذلك مقولة الامام الشافعى (رض) :

ماحك جلدك مثل ظفرك .·. فتولَّ أنت جميع أمرك
واذا قصدت لحـــاجة .·. فاقصد لمعترف بفضلك

ولكن خالداً لم تدفعه حوجة لقصد هذا أو ذاك ، وهو من شدة تواضعه لا يرى له فضلاً على الناس ، وان رأى شيئاًمن ذلك فهو لا يدرى أهم معترفون له بـه أم جاحدون ولذلك فقد أراح نفسه من مطالبة الناس بالوفاء حتى إذا كانت أياديه قد

امتدت إليهم بالاحسان ، فتولى أمر نفسه بنفسه ولم يترك من ذلك شيئاً للآخرين الا أن تهوى اليه أفئدة من الناس بسابق مقدور جرى به قلم الارادة ، وأوقف ظفره على جلده لا يحك به جلد غيره ولو طرحته « الكاروشة » على الأرض مغشياً عليه . وهو فى كل ذلك منطقى مع نفسه ، عملى فى النظر إلى الامور بعين تبصر واقع الاشياء على ما هو عليه وعقل يتدبره تدبر استيعاب واحاطة ، لأنه يعلم تماماً أنه عندما يصبح هدفاً لغضب الشيخ أبى بكر أو صفعات الاستاذ احمد عبدالله سامى ، أو أهوال انفجارات الاستاذ الحاج هاشم – وما اكثر ما كان يصبح – فانه يعدم النصير ، ولا يجد بداً من أن يواجه المشقة والضنى وحيداً ينظر اليه الآخرون ولا يحركون لغوثه ساكناً ، ولربما يشمتون . فكيف يطلبون منه أن يخف إلى نجدتهم فى ساعات ضيقهم وعسرهم وقد انخذلوا عنه جميعاً وهو فى أمس الحوجة إلى نصرتهم ؟ أليس من الحكمة أن يدعهم « يجولون » ببلاياهم ومصائبهم بعيداً عنه وهم قد تركوه من قبل وحيداً يلعق الصاب ويجرع العلقم ؟ ألا تكفيه شقاواته الكثر حتى يتصدى لشقاوات الآخرين ؟ لا بد أن تكون مثل هذه الهواجس قد دارت بخلده فأثمرت فى وجدانه وقرارة نفسه قناعات راكزة كلها تدور حول هذه المفاهيم . ولذلك لم يكن خالد حريصاً على الأعمال الجماعية التى تؤلف بين ثلل من التلاميذ وقد تنجم عنها أخطار تعم ولا تخص ولا تستثنى أحداً . وانما كان غالباً ما ينفرد بنفسه بعيداً عن الثلل والأحزاب والعصائب .. وحتى في وقت الفطور وهو لحظات التحلق الصاخب حول طبلية عم محمدين ، الذى ينتشر تلاميذ المدرسة أثناءه على هيئة مجموعات وفرق تتشارك فيما بينها وجبة الفطو ر ، فان خالداً كان يفضل أن يظل وحيداً بصحنه الفول ونصف رغيفه المدوَّر . وربما كان يمضى وحيداً أيضاً في بعض الأحايين إلى ركن الباسطة القصى . غير انى لا أذكر أنى رأيته هناك مرة واحدة . وليس ذلك بمستغرب ، فهناك على وجه التحديد تحدث المعارك التى آلى خالد على نفسه الاَّ يتعرض لأ سبابها ما أمكنه ذلك وما وسعته الحيلة . وهى معارك تبدأ عادة بكلمة : « أدينى معاك » وهذه كلمة تقابل عادة بالرفض الصريح

خصوصاً إذا كان المطلوب هو الباسطة . والرفض فى مثل هذه الأمور مدعاة إلى العراك ، ولكن بعد افتعال أنسب الأسباب والحيل وأبعدها عن مظنة الاتهام بالاعتداء الصارخ ومحاولة التغول على حقوق الآخرين . ولست أحسب أن ابتعاد خالد عن مركز الباسطة تصرف منشؤه البخل أو الشح أو الأنانية ، لأن خالداً لم يكن كذلك وانما شهد له الناس بالكرم والسماحة والتواضع وحب الخير للأقران . ولكنى أحسب أن الدافع هو مجانبة طرائق الفتنة والشجار ، وهو ايثار السلامة والنجاة من شرور الآخرين ، وقفل جميع أبواب الاحتمالات التى قد تقود إلى ما لاتحمد عقباه ، وقد يكون من بعض نتائجها التعفر بالتراب « والتسلخ » بالبلاط والطوب والحصي .

ومع انضباطه الذى هو بعض خلائقه التى فطر عليها كان خالد ايضاً تلميذاً مجتهداً ينظم كراساته على أحسن صورة يسعه بلوغها ، ويحاول « تسميع » بعض النصوص « على نفسه » قبل دخول الحصة اذ يقف منفرداً تتحرك شفتاه وهو ينظر فى المدى البعيد . ولكنه كغيره كان يشكو من « تبخُّر» النص الذى ردده فى سريرته ، فاذا به يلقى العنت حينما يجابه بسؤال ، فتتغشاه الرعدة ويتملكه الفزع ويساعد ذلك الحال على « طيران » ما تبقى فى الذاكرة . ولقد أبان خالد عن عزيمة ماضية صادقة لأنه يعاود الكرة مراراً ويجتلى آفاق المعارف لا يكل ولايني . غير انه كان يهاب اساتذة بعينهم من بينهم الاستاذ حسين الغول الذى كان يدرسنا اللغة الانجليزية ، فهو فى نظر خالد غول حقيقى يوشك ان عجزت عن اجابة اسئلته أن يبتلعك ابتلاعاً . فكان خالد « يعمل » له الف حساب . ولكن المخ ليس بدفتر كما يقولون ، والكلمات الانجليزية تتشابه ويختلط أمرها على الانسان فلا يأتى بها كما يريد الاستاذ وعند ذاك ينزل العقاب فلا تجدى معه الأعذار والوعود . ولم يكن خالد بأقل حيرة من زين العابدين الشفيع ازاء طلاسم الاعراب ، ولكنه لا يشتكى إلا لخالقه ، يقطع المـرارات « فى حشاه » ، غير انه كان يحـفظ الأناشيد والاشعار التى يطلب منا حفظـها ويـردلا ساتذتها بضاعتهم مزجاة أو غير مزجاة - وحتى عندما تخونه الذاكرة فى بعض

الأحيان فانه لا يلقى عنتاً يذكر ، وهو عموماً يتأمل مصائب غيره فتهون عليه مصائبه .

لقد كان خالد محمد سعيد تلميذاً رقيقاً مهذباً وقد عصمه أدبه الجم من أن يجعل لبعض « الخبثاء » من أولاد الفصل مدخلاً إلى نفسه الكريمة ، فظفر بمحبة الجميع وتوقيرهم رغم تعليقات التجاني الطاهر ومحمد العوض التى كانت تتناول فيما تتناول اذنيه البارزتين فكان خالد يتجاهلها ولا يعبأ بها ، ولو أنه فعل لصار مضغة فى الأفواه ولأضاف أعباءً جديدة إلي أعبائه المدرسية الكثر . وما كان ذلك الا دليلاً على فطنته وكرم خلقه .

عاكف ياسين ... والدبابة ... والديمقراطية المركزية :

يذكرنى حذر خالد بعاكف ياسين خاطر . فقد كان عاكف أيضاً على درجة من الحذر يعرفها من خالطه عن قرب . ولكنه كان يختلف عن خالد من عدة أوجه ، ولذلك اصطبغ حذره بألوان مغايرة لما كان عليه حال خالد . فعاكف من أولاد بيت المال وهم عصبة قوية ، انعقد لواء زعامتها لعبد الكريم أحمد حميدة . وعبد الكريم زعيم وابن زعيم ، وهو يريد أن تسير الامور على هواه وتتداعى الأحداث ونتائجها حسب مبتغاه فهو يؤمن بمنطق القوة لأنه وجد آن هذا المنطق يخدم قضيته على أحسن الوجوه ، ويعطيه لذاته أكبر قدر من الحرية وأرحب مساحة للتحرك الآمن . فاعجب لمنطق يبدأ صاحبه الذى هو صاحبه من إحكام القبضة فيثمر ذلك حرية واسعة الأطراف والأكناف له وحده دون سواه ! ونحن نعلم أن عاكف ياسين لم يكن من المؤمنين بمنطق القوة وان كان قد انتهى فى آخر أمره إلى رتبة « فريق » فى القوات المسلحة السودانية وذلك فى حياته اللاحقة . أما فى تلك الأيام التى نجتر ذكراها ونستعيد شيئاً من سيرتها على هذه الطروس فقد كان على عاكف أن يجمع بين تطلعه إلى التمتع بحريته الشخصية وحقه المقدس فى التصرف المستقل وبين الانصياع لتعاليم الديمقراطية المركزية التى تخضع لها مجموعة اولاد بيت المال ويقف فى طليعة قيادتها وقيادتهم عبد الكريم احمد حميده فيجنى جميع ثمارها السلطوية منفرداً دون أن يدع لبقية رهط ما يسمى

بالقيادة الجماعية شيئاً غير حرية التغنى بأمجاده ومحامده ! ولقد كان الخروج على تلك القبضة الحديدية أمراً صعب المنال . ولكن عاكف ياسين كان تلميذاً ذكياً لماحاً يُحْسِنُ الانفلات من ربقة ذلك الاسار فى كثير من احيانه إذا أراد ، فيقيم أوثق الصلات وأمتن العلائق بأولاد الأحياء الأخرى ، يحتال على أعين الرقابة الصارمة بأنه انما يستذكر بعض دروسه مع معارفه « الجدد » . وهو تلميذ لبق حلو الحديث ، ينطوى على مقدرات هائلة على الاقناع . ولكنه إذا وجد بعضاً من هؤلاء المعارف « الجدد » فى محنة من محن العراك التى لا تكاد تخلو منها ساحة المدرسة فى يوم من الأيام ، فانه لا يندفع بعواطفه ولا يحرص على التمتع بحريته في مثل هذه المواقف ، وانما يغلب عليه حذره الذكى المرن ، فيغض الطرف ويسلك غير سبيل المتعاركين ، أو « يعمل مجنون »، أو يتباعد عن مواطن « الدوشة » بحصافة ولباقة وحسن تدبير ، مدعياً الاشتغال بما هو أهم ، مؤكداً أنه لو وسعه الوقت لما تأخر عن شد الوثاق والإثخان وضرب كل بنان . وما كان ذلك لخور فى نفسه أو جنوح متقاعس نحو المسالمة واجتناب الكرائه ، فهو من الأولاد « الشياطين » دون ريب ، ولكنه يفعل ذلك مخافة أن يتهم فى دوائر « القيادة الجماعية » المستهدية بالديمقراطية المركزية بممالأة الأخرين والقعود عن نصرة اولاد حى بيت المال الميامين ، فكان هذا التصرف الموزون والمنحى الحكيم عاصماً له من العيب والملام إذا هو تراخى عن الانتصار لأولاد الحى وقعد عن نصرتهم ظالمين أو مظلومين . فالغالب هو أن يعتبر تصر فه المحايد فى مثل هذه الأحوال طبعاً من بعض طباعه ، ويعزى إلى كلفه بالمسالمة ومحبته للانصاف وشدة ايمانه بأن الأوفق هو أن تترك الامور تجرى على ماهى عليه دون تدخل سافر أو خفى قد يفسد طبيعة الأشياء ، وقد يزيد النيران اشتعالاً ويعقد المسائل تعقيداً ويفاقم من آثارها ، ويقود إلى التنازع والاحتراب الصريح وإلى غوائل تعرك الناس عرك الرحى بثفالها .

وما الحرب الا ما علمتم وذقتمُ .٠. وما هو عنها بالحديث المرجَّم

ولقد أفلح عاكف بتخلقه بهذا النوع من الحذر الواعى الرشيد فى اقناع عبد الكريم ورهط القيادة الجماعية لحزب حى بيت المال – وقد تركهم عبد الكريم جميعاً بلا

سلطان حقيقى يذكر - بأنه تلميذ معتدل ، وهو على أسوأ الفروض محايد لا يلحق بالمجموعة شراً وان كان خيره قليلاً لا يعتد به ولا يعتمد عليه . وانتفع عاكف من هذا الانطباع الذى خلفه فى ذهن عبد الكريم ، فهو لا يشق عليه فى أمر من الامور ولا يكلفه ما لا تحتمله طاقته وجبلته . فكان من ثمار ذلك أن استفاد عاكف ياسين حرية نسبية وظفها توظيفاً بصيراً وسع من صلاته ببقية اولاد الفصل وغيرهم من اولاد الفصول الأخرى، على اختلاف عصبياتهم وانتماءاتهم تحت سمع عبد الكريم وبصره . ولكن ، رغم كل ذلك لم يسلم عاكف تماماً . فقد كان ولاؤه لحيه السكنى وحرصه على تفادى غضب عبد الكريم ، ثم محبته للشيطنة وولعه بالحركة والعبث ، كلها تدعوه بالحاح لمؤازرة الموسيقى البرجلية الشفرية مؤازرة سخر لها جميع ما أوتى من معدات وما كان يحدث من حركات وأصوات برع فيها أيَّما براعة . وهى التى جعلت الشيخ أبابكر يظن ظناً أشبه باليقين أن عاكف ياسين كان ولا يزال وراء كل ضجة تحدث فى الفصل . فان لم يكن هو صاحب المبادرة فيها فلا ريب عند الشيخ أنه صاحب القدح المعلى فى انتشارها وشيوعها وتعاظم وقعها واستفحالها .ولكن المدهش أن عاكف ياسين لا يتملص من تبعات هذا الاتهام ولا يخشى نتائجه ، وهى معروفة سلفاً لدى كل تلميذ من تلاميذ الفصل يكاد يجزم بطريقة تتابعها وشمولها المذنب والبرئ . فبدلاً من أن يستولى الفرق والندم على مشاعر عاكف ، وبدلاً من أن يسمر الخوف أعطافه وجوانحه وسائر اعضائه ، كان - على النقيض من ذلك - يستقبل انسياب الشيخ التتدافعى نحوه بكثير من البرود وعدم المبالاة ، بل كان أحياناً يضحك بصوت مسموع إذا أبصر الشيخ وهو يتجمع فى داخل قفاطينه ويتكور فى أحشائها ثم يتقدم داباً تلقاءه دبيباً مفعماً بالوعيد ، حتى اذ بلغه انتفض من اغشيته وانتشر فى وجهه وغطاه بصفعات لها رنين وايقاع وصدى . فاذا نال من خده الأيمن بغيته مما أراد الله أدار له عاكف خده الأيسر تلقائياً بغير ما شعور أو ارادة ، ودون تذكر واضح لتعاليم المسيح عليه السلام .

وامتاز عاكف أيضاً بشئ اخر وهو كلفه الشديد بالطرفة والملحة والفكاهة . وقد وجد فى محمود أحمد مهدى والفاضل شريف خير معين له على ذلك ، فكان يسترق الاجتماع بهما بعيداً عن رقابة عبد الكريم الصارمة فيسعد بذلك الاجتماع وينعم بذلك اللقاء . ولقد أجمع زملاء عاكف على وصفه بالظرف واللباقة وهما خصلتان حببتا زملاءه فيه . ورغم أنه لم يكن مولعاً بعلم الحساب ولم يكن من فرسان حلبة الرياضيات إلا أنه كان يلقى معاملة كريمة من الاستاذ غزالى السراج والاستاذ محمود الضرير على السواء ولست أدرى لذلك سبباً شافياً إلا أن يكون ذلك البريق الذى يشع من عينيه الضاحتكين موحياً بذكاء واعد ومبشراً بانفلاق وهبى قريب . لقد كان وجه عاكف ينبئ عن مثل هذا الذكاء وكانت ملامحه تنطق بمعانى الرقة واللطف ونقاء السريرة . وربما كان هذا هو السر فى انجذاب محمد عبدالله الشيخ اليه وقربه منه ، وربما كانت شفافية محمد ورقة طبعه هى التى اجتذبت عاكفاً إليه . ومهما يكن من أمر فقد امتدت بينهما أواصر الود وعلائق الوئام ، حتى اذا أبصرتهما فى فناء المدرسة يتناجيان بمعزل عن الاخرين لا تملك –إذا اخضوضرت فى وجدانك أوراق الخيال الغضّة الندية، ولامست شغاف قلبك انفاس من روائع الشعر– إلا أن تتغنى مع ابن زيدون :

سرَّانِ فى خاطر الظلماء يكتمنا .·. حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

غير أن عاكف ياسين كان أبصر بأمور الشيطنة والعفرته من محمد عبدالله الشيخ ، ولكنه ربما كان يستقى من ملائكية محمد ليخفف من غلواء شيطنته ليكسوها بحلل الاعتدال وينأى بها عن مزالق الافراط . ولعله كان معجباً بملكة محمد الفنية فى مجال الرسم والخط شديد الشغف بهذه المواهب يأمل فى اصابة حظ منها ونصيب . فقد بدا فى كل أحواله حريصاً على مودة محمد والالتقاء به كلما سنحت لذلك فرصة ، ولو خير لا ختار أن يكون جاراً له فى الفصل لصيقا به . وكان محمد يكبر فى عاكف هذا الشعور الودى ويبادله وفاءً بوفاء . ولما كان محمد مسالماً بطبعه لا يحدث فتنة ولا يقترب – ما أمكنه ذلك – من أى شر فان عاكف ياسين وجد فى صحبته وملازمته قدراً

عظيماً من الأمان ، ولقى فى مصادقته ومصافاته رَوْحاً هانئاً من الطمأنينة ، فسلم حتى من لسان محمد العوض الذى لم يسلم من حدته إلا قليل حتى كأن محمد العوض هو القائل :

لسانى طويل فاحترس من شذاته .·. عليك وسيفى من لسانى أطول

وهل شذاة اللسان الاحدته ، وهل سيف محمد العوض إلا رهطه المورداب ؟ ولذلك كانت صلة عاكف بمحمد عبدالله الشيخ أهم مقومات الاحتراس من شرور محمد العوض اللسانية لأن محمد العوض يجل ذلك الفتى الفنان الموهوب أعظم إجلال . ولقد عرف الجميع أن محمد عبدالله الشيخ لا يضمر سوءاً لأحد ولا يغضب أحداً ولا يتصور منه ايذاء لأحد . وأدرك عاكف ياسين ذلك منذ وقت مبكر فمال إليه ميلاً واضحاً وترك لخيالات زملائه حرية البحث وتخمين الأسباب .

ولقد كان عاكف ياسين تلميذاً شديد الحيوية يذرع فناء المدرسة فى نشاط دؤوب ولكنه لا يتعرض للفتن والمنازعات ، ولا يتوقف عند مجالس المنازعات الكروية ، لأنها غالباً ما تفضى إلى شغب ولا يسلم مرتادوها من « الكندكة » وأحياناً « سف » التراب . ورغم انه لا يناصر هذا ولا يخاصم ذاك إلا أنه يجد عند زملائه القبول والترحاب ، لأنه مسالم وبسام ضحوك . واذا جلس يستمع إلى قصص التجانى عن حــى الـعرب « ويلة الأحمرانى » أو إلى حكايات ابناء الموردة عن « كبس الجبة » أو روايات محمد مصطفى بلال وعبد الرحيم سعيد عن « اللبخ » فانه يستمع باهتمام بالغ ولا يغالط فى شئ كما يفعل الآخرون فيجلبون على انفسهم أذى من ألسنة حداد . ولكنه يبدى انبهاره واعجابه بما يسمع فى غير ما حديث ثم يلهمه ذكاؤه الفاحص أن كثيراً مما يروى انما هو من نسج الخيال . ولذلك فأنت تراه مطمئناً متماسكاً لا تبدو عليه علامات الجزع ولاسمات الفزع التى كانت تبدو على بعض من يستمعون إلى هذه الاقاصيص ويصدقون كل كلمة ترد فيها .

وبالرغم من المسكنه التى تعتريه فى بعض الأحيان ، والمسالمة التى تشكل جزءاً

اصيلاً من خلائقه الا أنه فيما يبدو يتمتع بقدر من الشيطنة لا يستهان به . فهو يركب الطرماج ويزوغ من الكمسارى ولكنه لا ينزل « عكس » أبداً . وهو معجب بالشفوت والقنادف ولكنه لا يرد مواردهم ولا ينحو منحاهم . وهو يحب ركوب العجلات ولكنه يكره العجلاتية ، لأنك إذا تجاوزت مدة الايجار فرضوا عليك غرامة . واذا أعدت البسكليت قبل انتهاء المدة فانهم لا يردون اليك ما تستحق ، بل يحاولون العثور على عيب فى البسكليت ينسبون سببه اليك حتى اذا تركوك وشأنك فرحت وكأنك الغانم الظافر . ولم يكن من طبائع عاكف الاقبال على الزحام خاصة عند ما يكون ذلك فى دار الرياضة او جامع الخليفة . فهو لا يحب « المدافسة » ولا يتحمل « الفنجطة » التى تعترى بعض المشاهدين فيعانى منها من يقف قريباً منهم . وذلك أن عاكف ياسين تلميذ انيق « نظك » الهندام ، مهتم بمظهره اعظم اهتمام . ولذلك كان عاكف ايضا من أصدقاء عز الدين عباس المقربين ، ومن أصفيائه الخالصين . والفرق الوحيد بينهما هو أن عاكف ياسين كان فيه نزوع إلى الشيطنة ، على أنها لم تكن تزعج عزالدين إلا إذا زادت فى نظره عن الحد المطلوب ، وقليلاً ما كان ذلك يحدث .

ولقد كانت هذه الشيطنة تحمل عاكفاً أحياناً إلى بعض الهرجلة فى الفصل ، فاذا سلم من القائمة التى تقود إلى كنبة عم مبارك فانه فى بعض الاحايين لايسلم من اعين الاساتيذ الفاحصة وآذانهم اللاقطة . فكان الاستاذ ثابت احمد ثابت يزجره فى بعض الأوقات وذلك بتعبيره الذى تعارفنا عليه وألفناه : « عامــل لى إنّ إنّ زى الضبانّ » ، فهو ينطق العبارة بتشديد على هذه النونات المتعاقبة وليس ذلك ابتغاء الفصاحة فى التعبير بقدر ما هو اسلوبه فى الكلام وطريقته فى اخراج الحروف . فهو استاذ طويل القامة أقرب للنحافة من امتلاء الجسم ، أشبه ما يكون بضابط او جندى تلقى ارفع تدريب فى فنون كمال الاجسام . ولكن الاستاذ ثابت كان استاذاً محبوباً بين التلاميذ لأنه لا يعاقب أحداً إلا نادراً وإلا اذا كان الجرم فادحاً . ولاشئ يضايقه اكثر من التشويش عليه اثناء القائه للدرس ، ولكنه لا يصفعك بيده إن فعلت ذلك وانما يكفيه

تجريحاً لك وعقوبة على سوء أدبك أن يشبه « شغبك » الذى تحدثه بطنين الذباب ! فشتان ما بين لسانه ولسان الشيخ ابى بكر ، وشتان ما بين يد هذا المغلولة عن الأذى ويد ذاك المبسوطة بألوان « الكفوف » !

وانى عندما اذكر عا كف ياسين لأعجب كيف انتهي به الامر إلى الجيش . فذلك تلميذ كان أقرب إلى الفن والموسيقى والشعر منه إلى حمل السلاح وركوب الأهوال وهو إلى الدعة والمسالمة اقرب منه إلى مواطن القتال والحروب . ولكن عاكفاً كان فيه شئ من الانضباط منذ ذلك الوقت المبكر . وأغلب ظنى أن هذه الملكة قد تنامت فيه وتكاملت حتى هيأته وأعدته إلى ما صار اليه فى مقتبل أيامه . ومهما كان التقييم فانه يدور حول صفات عامة ربما انبنت عليها شخصيته خلال سنوات النضوج وبواكير الشباب . وهى صفات من بينها الذكاء والمرونة والصبر والحيوية . وكلها كانت بادية على عاكف منذ صباه الباكر على أيام ام درمان الاميرية . واما الشيطنة المقتصدة التى كان يمتاز بها عاكف فى تلك الأزمنه فانها لم تخرج عن حدود المألوف ولم تحمله أبداً إلى اندفاع أو شطط فى تعامله مع الناس . ورغم أن عاكفاً كان يركب الطرماج والعجلة إلا أنه كان يفعل ذلك فى اقتصاد لا إكثار فيه ولا مبالغة . وكان مثل عز الدين عباس تماماً يكره الغبار والعفار والمعافسة ويتحاشى سوق الزلعة وزحمة دار الرياضة و المولد ، ويؤذيه أن يلحق بهندامه النظيف الانيق ذرة من تراب . فالذى يحيرنى هو كيف يتحول من هو بهذه الصفة فى صغره إلى شخص آخر بعد سنوات قلائل ربما اقتضى واجبه أن « يندفس » فى خندق يكتنفه من جوانبه التراب والحصى ، أو يركب دبابة يحصد منها أرواح البشر . لقد عجبت لعاكف ، ولو قدر لعز الدين عباس أن يصير إلى مثل ما صار اليه عاكف لما بقى لى شئ فى هذه الدنيا أتعجب منه !

عوض اكريم عبد الجليل المثابر ... وحصة الدين :

من التلاميذ الذين تجمعهم مع عاكف أوجه شبه لبعض الحدود التلميذ عوض الكريم عبد الجليل . وهو أيضاً من أولاد بيت المال . ومن الناحية النظرية فهو بهذه « التبعية »

الجغرافية تحت القبضة العبد الكريمية فى المكان الاول ، وسلطان المركزية الديقراطية فى المكان الثانى . ولكن عوض الكريم كان تلميذاً وقاد الذهن شديد الذكاء ، أسعفته قدراته الذهنية الهائلة وأعانته على تجاوز كثير من الصعاب التى كانت تعتقل اخرين وترتهن قواهم وحريتهم عن مواصلة المسير . فهو قد كسب احترام اساتذته ونال رضاهم لتوقد ذهنه الذى كان غالباً ما يلهمه الإجابات الصحيحة على كثير من اسئلتهم الصعبة المعقدة ، ولهدوئه وحسن استماعه لما يلقون على التلاميذ من دروس وشروح ومواعظ ، لا يشارك فى الصخب والضجيج إلا لضرورة ، ولا يكون ذلك الا فى احايين قليلة وفى الفترة القصيرة التى تفصل بين حصة وأخرى ، بين مغادرة استاذ ودخول استاذ آخر . ولقد احترم فيه الكبتل هذا الخلق الرفيع وتلك القدرات العلمية الموفورة . فكان يمحو إسمه من السبورة التى يثبت عليها قائمة باسماء المهرجلين . ولكن ذلك الاجراء كان يكلفه شططاً لكثرة الاصوات التى ترتفع بالاحتجاج والاستنكار والصيحات التى تعبر عن السخط الصريح فتتجاوب معها أركان الفصل بأسره : ليه يعنى ؟ فى زول أحسن من زول ؟ ليه تمسح اسم عوض الكريم وتخلى اسمى ؟ يعنى نحن ما نتكلم وعوض الكريم يتكلم زى ما عاوز ؟ الحكاية فيها خيار وفقوس ولا شنو ؟ إلى غير ذلك من الاعتراضات التى يبدو بعضها عادلاً ومنطقياً ، ولكن سلطة الالفة مطلقة ، وما بقية اولاد الفصل سوى مجلس بلاسلطان ولا قدرة على التنفيذ أو الحل أو العقد . ويضمر بعضهم المكر لعوض الكريم ويسرون إليه بالمودة . ومن عجب أنهم يحملونه وزر مالم يجترح وينطوون على نية الثأر منه والانتقام . فعوض الكريم - وان لم يكن معصوماً من الهرجلة فى بعض الأحايين مدفوعاً إليها دفعاً - لايمسك «البشاورة» بيده ليمحو بها اسمه من قائمة المهرجلين وانما يفعل ذلك الكبتل ، فهو الذى يثبت اسمه ثم يمحوه ، ويفعل بالسبورة ما يريد خلال الدقائق الخمس التى تفصل بين الحصة والتى تليها . ولكنه لا يلام على ذلك ولا يعنف بالوضوح الكافى ، ولاتبلغ اذنيه إلا هذه الاحتجاجات التى تختلط بها أصوات التلاميذ ولا يتولى كبرها

أحـد . ومن ذا الذى يسـتطيع أن يعنف الكبـتل ويغلظ عليـه فى القـول ، ومن ورائه الصقور جميعاً بلا استثناء ، بقبضاتهم الحديدية القادرة على تسديد « البنية » التى قد تدخل الأنف فى جوف الرأس ، وأرجلهم الصلبة المقتدرة على تصويب « الشلاليت » التى تفرى الظهور والأصلاب وقد تبقر البطون ؟ ولكن عوض الكريم شئ آخر بالنسبة لهم غير الكبتل . وقد بلغ الحنق على عوض الكريم ببعضهم ذات يوم مبلغاً عظيماً حتى تآمروا على أمانه وسلامته وكادوا أن يمزقوه امام البوابة الشرقية للمدرسة لولا أن الله لطف به وفضح أمرهم ورد عنه كيدهم . فقد خف إلى « مسرح العمليات » كل من عبد الكريم ومحجوب والكبتل نفسه ، فتفرق المعتدون أيدى سبأ ، ولم نقف لهم على أثر . وكنت قد أبصرت أحدهم يتلوى من الألم وهو هارب فى أحد الأزقة الشرقية التى تتخلل الحى الواقع بين المستشفى والمدرسة ، وظننت انه محمد العوض « الخالق الناظر » دون سواه . ولكن محمداً أقسم لى فى اليوم التالى أنه برئ من هذا الظن بعيد عن هذه التهمة ، لأنه يحمل أعظم تقدير واحترام لعوض الكريم وما كان له أن يعتدى عليه أو يتآمر عليه أو يحمل نحوه أي نوع من الضغينة أو الحقد . وشككت أول الأمر فى صحة تبرُّئه ممارميته به من اتهام كبر عليه أن يخطر على بالى ولكن عوض الكريم برأه وأكد لى أنه لم يكن من بين المعتدين ، وأن كثرتهم الغالبة كانت من خارج الفصل ، إلا أنه أشار إلى الفاضل شريف ورجَّح أنه كان وراء كل الذى حدث . وقد اسفت لذلك أشد الاسف وكدت اترك الامور تأخذ مجراها دون تدخل . ولكن غلبنى شعور بالعطف على الفاضل شريف مبعثه أن الفاضل من اولاد حارتنا فى ود نوباوى ، وهو جليس مرموق فى مجلسنا بكوبرى ود نوباوى خاصة فى الليالى المقمرة الحالية الاعطاف والأكناف والنسائم ، وعز على نفسى أن يصبح عرضة لنهش مخالب الصقور . ولما كنت على صلات حميمة طيبة مع عبد الكريم فقد سعيت بينه وبين الفاضل بالخير وذلك بعد أن أقنعت عوض الكريم بجدوي مسعاى وأهميته فى احلال السلام بين الفرقاء . وتمكنت بعد جهد مضنٍ من اقناع عبد الكريم وبقية الصقور بأن الفاضل شريف تلميذ هازل

يحب العبث من أجل العبث لاشر فى دخيلة نفسه ولا ضغائن ولا أحقاد . وأرضاهم ذلك عنه فأكرموه من أجلى ولم ينالوه بأذي ، ووعى هو الدرس وكف عن الكيد لعوض الكريم . وقد تأكد فيما بعد بشكل قاطع أن الفاضل شريف لم يكن ابداً من بين المعتدين .

ولقد تميز عوض الكريم بخصلتين هما عندى فى غاية الأهمية : الأولى أنه كان لا يستنكف عن تقريع الاساتذة ولا تثنيه عن مراده حتى ملاحظاتهم القاسية وتلويحهم له بسوط العقاب ، بل يجمع همته على أن يفى بما يريدون منه من تحصيل وتجويد وبلوغ صواب ، وكثيراً ما كان ينجح فى ذلك باجتهاده وحسن بلائه ، فينال رضاهم ويظفر باهتمامهم وتشجيعهم ويجد عندهم أحسن القبول . والثانية أنه كان لا يستحيى أن يسأل عن جلية ما حزب عليه من أمر وطبيعة ما استعصى عليه من مسألة . ثم هولا يبالى بما ينتجه سؤاله عند الاستاذ أحياناً من استهزاء به أو تندر عليه ، ولكنه يلح على أن يتلقى الاجابة الصحيحة على سؤاله ، فاذا ظفر بها بقيت فى ذاكرته مصونة لا تغيب عنه ولا تنسى . وكان فوق ذلك يعتنى بمظهره عناية فائقة – وان كان ذلك شأن أغلب التلاميذ – فيظفر من ذلك بالرضا والقبول عند اساتذته ، ماعدا أولئك الذين يصعب عندهم القبول بل يستحيل أحياناً ، ولا يرضيهم « ولا يعجبهم العجب ولا الصيام فى رجب » ، وفى طليعتهم الشيخ ابوبكر . فكان عوض الكريم يجلس بهدوئه المأثور عنه واستعداده المتطلع للتلقى والاستيعاب فى جميع الحصص ما عدا حصة الشيخ فقد كان يبدو عليه القلق على امتدادها ويحسبها – وهو محق من زاوية فهمه للمعقول وغير المعقول – أماداً طوالاً من المشقة والعذاب . وذلك أن الشيخ قد درج على مفاجأة أى تلميذ فى اى لحظة بأيِّ سؤال تستك منه المسامع ولا تعرف له اجابة ترضيه وهو قد يباغتك بملاحظة لا تتعلق بالدرس أبداً وانما تكون ذات صلة بجلابيتك أو عمامتك أو أنفك أو أسنانك أو لون بشرتك أو درجك أو البلاط الذى تحت قدميك . فأنك ان استظهرت كتاب الله عن ظهر قلب و أوغلت في بحار التفسير ولجج المعانى ،

وفرقت بين الناسخ والمنسوخ وبين المكى والمدنى من السور والآيات وتلوت من ذاكرتك ما تيسر من كلام الله دون خطأ أو نسيان ، فاعلم أن هذا لا يكفيك ان أحس الشيخ منك جنوحاً إلى الهرجلة ، ولن تفلت منه أبداً إذا رمقك وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الهازئة الساخرة التى تكاد تنطق بما أطلعه الله عليه من دواعى عبثك التى لا تخفى عليه وان كنت أنت فى ركن قصى من أركان الفصل . فانه دقيق الملاحظة مرهف السمع حديد البصر . فاذا ارتاب فى أمرك فانك لن تسلم من سوء ظنه واعتباره أنك ربما تكون رأس الهوس أو أحد الأصابع التى تعبث بالشفرة والمنقلة والبرجل والمثلث لتحدث تلك الأنغام التى لا تطربه ولا تشجيه وانما تحنقه عليك وتشقيه . فيصمت لحظات يستجمع خلالها من قاموس مفرداته كلمات ينتقيها انتقاء ، وتعابير ينسجها نسيجاً حتى اذا ظفر بما يريد ويبتغى شرع يخطر نحوك بخطوه الوئيد وهو لا يزال فى صمته الناطق بالوعيد . فاذا بلغك انحنى عليك بعض انحناءة ، وحقب يديه على ظهره يستمهلهما ريثما يفريك أو « يهريك » بالكلام ، وهو ما قد علمت . فان آنس منك الرضا بما يقول أمسك اليد وأطلق اللسان ، وان طالع على وجهك ما يشبه الضيق والبرم فيده تنبئك بما بقى من نوع الحديث . وقد يضحك جارك وأنت تحت القبضة . فاذا فعل ذلك ضمَّه الشيخ إليك وأطلق عبارته المألوفة : « إتلمّ المدعوس على خايب الرجا » وهو لا يبين من منكما هو « المدعوس » و من منكما هو « خايب الرجا » . فمن العدل أن يترك لكما حرية الاختيار واقتسام النعتين . ونحن لم نكن نعرف معني الكلمة الأولى وأصل اشتقاقها ، ولكن عبارة « خايب الرجا » . تجلو ما علق بها من غموض . على أنى وقفت على معنى الكلمة من المعجم بأخرة – فجاء فيه أن المدعوس من الطرق أو الدعس منها هو الذى داسته القوائم وذللته واكثرت فيه الآثار ! ولست اعلم ان كان الشيخ قد أراد هذا المعنى بعينه ولكن براعته فى انتقاء الالفاظ لا تخفى . وهو عندما يفعل ذلك فإنه لا يفرق بين تلميذ شاطر وآخر غير شاطر . ولقد كان عوض الكريم أحد ضحايا ظنون الشيخ على الرغم من شطارته التى

شهد له بها الناس واستقامته التى عرف بها بين ظهرانيهم . فقد بلغت سمعيه من الشيخ اشباه هذه الكلمات المنتقاة والعبارات الدقيقة الجامعة وبلغت شدقيه وصفحتى وجهه وكتفيه كف الشيخ تلهبها بما يشبه السياط . وكان ذلك مدعاة لتعاطف زملائه - صقورهم وحمائمهم - معه . فهم يعلمون - وان كان بعضهم لا يرضيه ذلك - أن عوض الكريم لم يكن من أنصار الفوضى والهرجلة والتسيب والتعريض بالاساتيذ من وراء ظهورهم ، وانما كان تلميذاً مثابراً مهذباً عف اللسان ، مهتماً بدروسه أعظم اهتمام ، لا يشغله عن ذلك شاغل ولايلهيه عن جده لهو إلا أن يغتنم لحظات قلائل يُروّح فيها عن نفسه بهزل مقتصد برئ يطرد عنها السأم ويطرح عنها العناء . وعلى الرغم من أن الشيخ أبابكر كان محط اعجاب التلاميذ فى ذات الوقت الذى كان فيه هدفاً لعبثهم و شقاواتهم وافتئات بعضهم عليه فان منهم من وصف حملته على عوض الكريم بالظلم الصريح ومنهم من اعتبر ذلك تجاوزاًمسلياً باعثاً على الضحك اكثر مما هو باعث على الحنق والغيظ . ومنهم من اعتبره درساً نافعاً لعوض الكريم يذكره بأن الجد ليس بعاصم من الزلل ، ودعوة ملحة له ليرتاد معهم مواطن الهزل والشقاوة . فانك ان فعلت ذلك وتعرضت على أثره لمثل ما تعرض له عوض الكريم من عقوبة فلن يعتريك احساس بوقع الظلم عليك وانما تبوء باثمك راضياً مرتاح البال . فالشيخ ليس بدعاً من الناس .

والظلم من شيم النفوس فان تجد .'. ذا عفة فلعلة لايظلم

كان هذا المعنى هو القناعة التى سرت بين أولاد الفصل وان جهلوا هذا الشعر وقائله . ولم يكن ذلك الانتيجة لقاءات ومجالس عقدوها مراراً فى اوقات فراغهم يتدارسون خلالها الأسباب والدواعى الحقيقية التى كانت تفضى بالشيخ فى بعض الأحيان إلى إساءة الظن بالأبرياء وإلى أخذ التلميذ بما اقترفه جاره من سوء . ونحن لم نكن نرتاب فى أن الشيخ كان عفيفاً فى خلائقه صادقاً فى تدينه وعبادته لربه بعيداً عما يقدح فى اخلاصه لعمله . ولكنا كنا فى حيرة من أمره ، نجد صعوبة فى تفسير بعض تصرفاته وتمنعنا قيم ذلك الزمان من أن نتجاسر عليه أو نتعدى حدود الأدب

معه . ولقد ظللنا دهراً نحسب انه انما يفعل ذلك ويغالى فيه أحياناً مع أولاد فصلنا دون سواهم . فلما علمنا شيئاً من سيرته مع الآخرين وتبين لنا من أمره ما كان خافياً علينا استيقنا أن تلك كانت طريقته فى التعامل مع جميع التلاميذ على اختلاف مراحلهم الدراسية وفصولهم ، وأن ذلك هو دأبه وطبعه الذى هو عليه . ولما كانت الطباع ملازمة للانسان على امتداد حياته إلا أن يلهمه الله ما هو خير منها وأجدى ، أو يوفقه ربه فى كبح بعض جماحها، فقد ألفنا الشيخ ولم نعد ندهش لما يصدر منه من قول أو فعل . بل نحن أحببناه ، ومن عجب أن الذى حببنا فيه هو عين ما كان بعضنا يصفه بأنه ظلم أو تجاوزات . فالشيخ يستطيع أن يستبيك بحديث ناعم وأن يدغدغ أحاسيسك باطراء جميل وأنت لا تعلم لذلك سبباً كافياً أو استحقاقاً وافياً . ويمكنه فى لحظة صاعقة ودون مقدمات تذكر أن يهيل عليك او على غيرك التراب وأن ينعت من صار هدفاً له في تلك اللحظة بما يوشك أن يحل دمه ويوجب قتله صبراً ، رغم انه قد يكون بريئاً تماماً حتى من ايذاء ذبابة أو قطع الطريق على نملة تدب على الأرض أو التجنى على جناح بعوضة تطن فى الآذان . فالشيخ صاحب أمزجة متنوعة ومتباينة لن يفلح أحد فى التنبؤ بما يمكن أن تصير اليه بعد حين . فمثل هذه الأمزجة المتقلبة يصعب على صاحبها التحكم فيها فهو يعجز عن رياضتها والسيطرة عليها فى كثير من الأحيان . ولذلك فهو معذور ، علماً بأنه محق فى تصديه لعبث التلاميذ الذى غالباً ما يفوت الحد « ويعكنن » المزاج . والخير كل الخير هو فى التغافل عن هذه التقلبات وعدم التفكر فيها . وأحسن من ذلك حملها على غير محملها الذى توحى به وتبدو عليه ، وتفسيرها بغير المعنى الذى قد يتبادر إلى الذهن بصورة تلقائية ، وتحسين الظن بمقاصد صاحبها « واعطائه فائدة الشك » كما يقول أهل القانون ترجمة عن رطانة الانجليز . ولعلَّ ذلك هو السبب الذى جعل التلاميذ يغفرون للشيخ لم إساءاته لهم وكبائرها ويتغاضون عن كلماته التى يجيد انتقاءها فلا يتجاوبون معها بأى نوع من الاستنكار أو التعبير عنه بصورة ايجابية ، بل يتقبلونها بنفوس راضية رغم أن النفوس

لا تقر الظلم ولا ترضى عنه وان كان صا دراً من أحب الناس وأقربهم . وآية ذلك أنهم تعاطفوا مع عبد الرحمن كنتباى أشد التعاطف حينما اطلق الاستاذ السبكى عليه اسم « احسان عبد القدوس » وشرعوا فى تدبير الوسائل للأخذ بالثأر حتى سادت فيما بينهم حكمة الصقور وارتفعت رايات الحذر فى وجه بنود الانسياق وراء العواطف . ولكنهم لم يفكروا أبداً فى « مشروع » كهذا تجاه الشيخ . فهو عندهم محبوب أثير وان سامهم الخسف وخرق السفينة (فغشيهم من اليمّ ما غشيهم) . فهم قد ألفوا جميع تجاوزاته على اختلاف درجاتها وتباين اوقات انفجاراتها ، وكل ما يترتب عليها من رفع لادوام له أو خفض لاقيام بعده ، أو ترغيب بالمدح والاطـــراء ، أو ترهيب بالزجر والوعيد ، أو « تلطيش » بالكفين اليمنى واليسرى فى تعاقب وايقاع ورتابة ، أو طرد من رحمة الله لوالد وما ولد « بالمفتشر » والقول الصريح . واذا كانوا قد تعاطفوا مع عوض الكريم فى المحنة التى حلت به وهو فى نظرهم برئ فان ذلك التعاطف انما كان وليد محبتهم لعوض الكريم ، وهو تعاطف مشروع من هذه الزواية ولكنه لم يتعد حدود المواساة الأخوية ولم يسفر عما أسفر عنه تعاطفهم مع عبد الرحمن كنتباى من نوايا أجهضتها فى مهدها فطنة الصقور . وذلك لأن الشيخ له خصوصية عندهم ، ولذلك فهم قد ألفوه وألفو ا طرائقه فى الحديث وغيره من ادوات المحاسبة . وصاروا يبصرون ما كان غائباً عنهم فى حسنات تمحو السيئات وما كان مكتناً فى تعابير الشيخ من كنوز موقرة بأسباب الترفيه ودواعى اجتثاث الضجر والرتابة والملل . فكانوا يرون في تصرفات الشيخ ونوادره وحركاته المسرحية المرسلة دون اصطناع أو عناء معيناً لا ينضب من الطرائف المسلية والغرائب المضحكة التى تصنع المرح وتبدع السرور . ويجدون فى مقولاته الموقرة بفنون السخرية العذبة والتندر الظريف مادة ثرة متنوعة الضروب والألوان . ويقفون عند مفرداتها الغريبة على أفانين من العجائب تملأ رؤوسهم بما هو مستطرف من كل فن مستظرف ، وتشحذ فيهم ملكات الخيال . فيتبادلون حديثها فى مجالسهم الخاصة ، ويضيفون إليها مالم يكن منها مما تلهمهم بأشباهه

فيبتدعونها ابتداعاً وينسبونها للشيخ وهو منها براء . فينطقونه بما لم يقل ويلصقون به ماليس منه ويتجاسرون عليه من وراء ظهره تجاسر محاكاة وتقليد لا تجاسر ايذاء وتجريح ، فيرددون ما كان يلقيه على مسامعهم وينعتهم به من نعوت ، يتراشقون به فيما بينهم وهم يضحكون مرحين فرحين مستأنسين بعيداً عن « آذان الحيطان » وأعين الرقباء . يشبعون بذلك غريزة العبث الطفولى البرئ ، ويتزودون لامسيات الأحياء السكنية بأمثال هذه الأقاصيص المسلية التى يتعجب منها رفقاء مجالسهم من فتية الأحياء أشد العجب ويعتبرونها تجديداً رائعاً فى أدب « الونسة » ورواية الطرائف والأعاجيب .

وانا لست ادرى ان كان عوض الكريم يروى على فتية حيه طرفاً من نوادر الشيخ لأنى رأيته لا يجارى تلاميذ المدرسة فيما كان يحسبه محاولة للثأر من الشيخ والانتقام من وراء ظهره بما يخلعون عليه من أوصاف ونعوت ، وما هو فى حقيقته مـن ذلك بشئ . فقد كان عوض الكريم حريصاً على الاَّ يُنال اساتذته من وراء ظهورهم بمكروه غير أنه كان يصغى إلى حديث زملائه حول الشيخ باهتمام ويرقب محاكاتهم لحركاته المتفردة الغريبة وهو يبسم راضياً قرير العين دون أن يضيف إلى مايأتون به شيئاً من عنده . وهم يعلمون أن ابتسامته الصامتة توحى بالموافقة والمباركة وربما بمعانى الاستزادة واطالة تمثيل الدور واتقانه حتى تبلغ التسلية مداها وحتى تعم الضحكات المرحة أرجاء المكان . ولكنه لا يشارك فيما يجرى امامه بحركة تؤخذ عليه أو تعليق ربما فشا وأذاع به الناس ، فلا يغمس لسانه فيما كانوا يخوضون فيه من شأن الشيخ أو غيره من الاساتذة حتى يخوضوا فى حديث غيره . وهذا دليل على عفة منطقة التى هى بعض خلائقه السمحة الملازمة . ولكن على الرغم من ذلك فان بعض الخبثاء قد لاحظوا أنه كان فى بعض الأحيان - ربما عن غير وعى منه ولا ارادة - يشير برأسه اشارات واضحة تدل على أنه يؤمن على ما يقال تأميناً ويستملح ما يرى امام عينيه استملاحاً . ولكنه لا يحمل فى قلبه ضغينه على الشيخ و يعف أن يذكره أو يذكر غيره

من الناس بسوء . لا يزكى نفسه ولا ينتقص الآخرين . قال بعضهم :

وان أخسَّ النقص أن ينفى الفتى .·. قذى النقص عنه بانتقاص الافاضل
وما عبر الانسان عن فضل نفسه .·. بمثل اعتقاد الفضل فى كـــل فاضل

الحوذى والهورس .. وجهان لشئ واحد

من أصدقاء عوض الكريم الحاج عبد الرحيم . وهو من أبناء الشايقية الذين استقروا فى مدينة ام درمان . ولقد اطلق عليه محمد العوض اسم « الهورس » ، وهى كلمة انجليزية تعنى الحصان أو الفرس . وكان أحياناً يسميه « الحوذى » . ولست ادرى لماذا أطلق عليه محمد العوض هذا الاسم أو ذاك . وربما كان القصد من وراء اطلاق الاسمين أن يترك للحاج الحرية فى اختيار واحد منهما . أو ربما أراد محمد العوض أن يدع مجالاً لزملاء الحاج لكى ينادوه بالاسم الذى يناسب الظروف ويوافق واقع الحال المعين . لقد كان محمد العوض بارعاً فى تصميم الأسماء وابتداع الألقاب والكنيات . واسم « الهورس » يلائم الحاج عبد الرحيم ملاءمة تامة . فمن عبقرية محمد العوض أنه أطلق على أحد التلاميذ من غير فصلنا اسم بنكل (Pinkle) . وأخذ بعض التلاميذ يتهامسون من وراء ظهر هذا التلميذ باسمه الجديد حتى التصق به هذا الاسم التصاقاً وأصبح بالنسبة له واقعاً معاشاً ، وصار ذلك التلميذ يتأذى منه كثيراً ويود لو يدخل « البشاورة » فى دماغ كل واحد من زملائه ليمسح من سبورة مخه هذا الاسم الكريه الذى أشقاه طويلا . وكانت حجة محمد العوض أن ذلك التلميذ سرق منه قطعة من الطعمية ، ودافع التلميذ المسكين عن نفسه قائلاً إنه لم يسرقها وانما أخذها من أمام محمد العوض وتحت نظره وقد كان أمام محمد العوض وفى صحنه سبعة أو ثمانية قطع أخرى على حد قوله . ثم اعترف المسكين أنه بالفعل لم يستاذن محمداً وكان عليه أن يفعل . وقد لعب الحاج عبد الرحيم دوراً بارزاً فى محاولة الالتفاف من حول هذه الأزمة وتهدئة الخواطر . وترجى محمد العوض كثيراً لكى ينزع عن التلميذ المسكين هذا الاسم القبيح . فكان لمحمد العوض شرطان على الموافقة . أولهما ان

يعوضه التلميذ على فقده . وأحسب أن المسكين تضوّر جوعاً فى ذات يوم ليبتاع بقرش الفطور قطعة من الباسطة لمحمد العوض تعويضاً مجزياً له وبديلاً عن مافقد . ولكن ذلك لم يجد فتيلاً ، وانما أصرَّ محمد العوض على شرطه الثانى ، وهو أن يحفظ التلميذ المسكين مقطوعة بنكل (Pinkle) ويطوف رحاب المدرسة وهو ينشدها على اسماع الناس بالصوت العالى . وهى انشودة طويلة فى الريدر (Reader) أذكر منها :

Pinkle is a good- for- nothing man
Pinkle steels every thing he can .
Flowers from the garden ,
Apples from the trees,
Food from the cook house
Pinkle steals everything he can .

الى اخر المقطوعة أو الأنشودة المخزية . وقد أصاخ المسكين لهذا الشرط وقبل به رجاء أن يخلص نفسه « وكرامته » من ربقة هذا الاسم المذل . وقد سارت من خلف المسكين زفة من العفاريت يرددون من ورائه ما يقول ، ومحمد العوض يضحك فى سرور بالغ وقد شفى غيظه واعتاض عن قطعة الطعمية السليبة أشتاتاً من المسرات . أما الحاج عبد الرحيم فقد كان رحيماً بحق وحقيق ، وذلك أنه ظل يهرول فى اعقاب التلا ميذ الذين تشكلت منهم « زفة » بنكل (Pinkle) طالباً منهم أن يغضوا من أصواتهم ويقللوا من الضحكات المؤذية والسخرية المؤلمة ، فى محاولة منه جادة وصادقة لوضع حد لهذا التشهير الذى ربما فات على التلميذ المسكين أنه هو نفسه كان أبرز الضالعين فيه وامام المتولين كبره وأنه جالب بنفسه على نفسه مرارة مغبته وسوء المنقلب . واخيراً أفلح الحاج بعد أن ترجى محمد العوض طويلاً وحصل على موافقته على انهاء تلك المسرحية ووضع حد لفصول تلك المهزلة العبثية الملو درامية . وربما كان ذلك المشهد هو الذى أوحى لمحمد العوض باسم « الهورس » الذى أطلقه فيما بعد على

الحاج عبد الرحيم وربما كان الدافع غير ذلك ، وهو ما نرجحه . وعلى كل فقد دفع الحاج عبد الرحيم ثمن رحمته بذلك التلميذ المسكين وعطفه عليه اسماً لصق به هو نفسه وظل معروفاً به إلى أن تقضت عنا تلك الأيام الضاحكة المراحة فى ام درمان الاميرية الوسطي .

لقد أجادت عبقرية محمد العوض بابتداعها هذا الاسم واطلاقه علــى الحــاج عبد الرحيم . وعندى أن محمداً لم يقصد من وراء ذلك أى نوع من الكيد للحاج ولم يرم إلى أي نوع من الزراية به أو الاستهزاء ، وانما كان يمدحه به . وآية ذلك أن الحاج عبد الرحيم تلميذ اسمر اللون سمرته اقرب للبياض منها لأى شئ آخر ، وهو لون بشرة جميل حقاً ، وهو ما تعارف عليه الناس بوصف « اللون الخمرى » تزكية له وتمييزاً له عن غيره بهذا الوصف الشاعرى . وكان شعر رأسه يبدو – عندما تنحسر عنه العمامة – ناعماً سبيبياً فاحم السواد ، وهو دائماً حليق ما فوق الاذنين متناسق الأطراف مسبل فى نظام ورونق . وله عنق عسجدية اللون كأنها ابريق ذهب . وهى كاملة الاتساق مع الرأس والكتفين . وله عينان فيهما نجابة وبراءة وان لم تخلوا من كلف بالمكر دون مقدرة على بلوغ أقاصيه . فهو تلميذ حسن هيئة الجسم متناسق الأعضاء ، ليس به طول ولا قصر وهو أقرب إلى النحافة منه إلى الامتلاء والبدانة . وبكلمة واحدة ، إذا كان لابد للحاج عبد الرحيم أن يكون « هورساً » أو فرساً بارادة محمد العوض فهو من نجائب الأفراس خلقة وخلقاً . ومن عجب أن الحاج لم يبد أى نوع من الاعتراض على هذا الاسم الذى أطلقه عليه محمد العوض ولم يتأذ منه ولم ير فيه منقصة ولا عيباً يؤخذ عليه . وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من أن محمد العوض انما اطلق عليه هذا الاسم من باب المدح دون غيره . فسارت به الركبان وعلم بأمره الاساتيذ . ورغم أن الاسماء التى كان يبدعها محمد العوض ويلحقها بالتلاميذ تثير الضحك عليهم ويقابلونها بالمقت والانكار ولا يملكون لها رداً ولايجدون لها دفعاً ، إلا أن الأمر كان يختلف اختلافاً كبيراً فى حالة الحاج عبد الرحيم . لم يكن التلاميذ

يتندرون عليه بهذا الاسم وانما صار فى حقه مدحاً وتقريظاً ، لانهم حملوه على معانى التعبير عن كرم خلقه وحسن سمته وخلقته .

غير أن الحاج عبد الرحيم - رغم ملائكيته التى تبدو عليه ورغم هدوئه الذى اكسبه محبة الكثيرين وتبجيلهم - لم يكن فى حقيقته مسكيناً ، وإنما كــان عفريتاً نشطاً لا تقل مواهبه وطاقاته ومقدراته فى هذا المجال عن أواسط العفاريت على أقل تقدير . فهو مهرجل فى الفصل من الطراز الأول ، إلا أن اسمه لم يكن يظهر فى قائمة المهرجلين كثيراً ، وليس لذلك من سبب سوى تعاطف الكبتل الألفة معه لاشتراكهــما فى اســم « الحاج » . فقد رأينا الكبتل يحترمه كثيراً ويعامله برفق ومودة ، ويتدخل أحياناً لصالحه فى بعض الشجارات التى يحدثها أو تشتمل عليه . ولكن اختفاء اسم الحاج من قائمة المهرجلين فى الفصل لم يكن فى حد ذاته عاصماً له من سوط عم مبارك ولا من « طوطحانية » عم محمود وعم عبد العزيز . وذلك أن الحاج ما كان يأبه كثيراً بحفظ الكلمات الانجليزية ولا بالا تيان بها كتابة ونطقاً على وجه الكمال الذى يرضى عنه الاساتيذ فكان ذلك سبباً من أسباب شقائه على يدي « منكر ونكير » - وقد علمت من هما - وعلى يدعم مبارك . ولكن الحاج كان يحتمل الأذى بثبات فلا ينفجر صارخاً كما يفعل البعض ، لأنه يعلم جيداً أن العويل لا يجدى وأن ماكتب عليك من السياط فأنت ملاقيه لا محالة سواء أجزعت أم صبرت ، وأن ما نقص من « رزقك » هنا فتمامه عند عم مبارك ان كنت من الموقنين . وقد كان للحاج - كما كان لغيره - قناعات كروية ولكنه لم يكن مشتطاً فيها ولم يكن مكابراً فيها بل هو يلزم فى التعبير عنها والاحتفال بها حدود الروية ويصطنع في التلبس بها مناقب المرونة وحكمة التغافل .. وقد نفعه هذا التروى وهذا الاتزان فى تعامله مع الجميع ، وبخاصة فى علاقاته مع الصقور . فهو لا يهتف بمشاعره الهلالابية هتاف الغر الأخرق وانما يضمرها إضماراً هو أقرب للبوح والاظهار الهادئ ، ويعلن عن تعاطفه مع الMورداب اعلاناً هو أشبه بالهمس منه بالجهر الجهير ، ويوثر الاّ يخوض فى أمر المريخ بذم ولا تقريظ . وتلك فلسفة أفاءها عليه

ذكاؤه المميز اللماح وحسه الامنى الواعى . وذلك أنه محاذر فطن بصير بالعواقب ، وتقع داره فى حى يظلله نفوذ الهلالاب والمورداب على السواء . ولكن ذلك الأمر لا يعنيه كثيراً من زاوية المعنى الجغرافي وتداعيات تبعاته ، إنما الذى يعنيه ويرقى عنده إلى مرتبة الأهمية هو أن يتعايش فى المدرسة مع صقور الشيعتين بميزان دقيق . فان ضمن السلامة وأفلت من بين هذين الفكين معافى دون أن يطبق عليه آى منهما فقد فاز وربحت تجارته ، فهو لا يعبأ كثيراً بمجموعة الفاضل شريف وعز الدين عباس وعلى محمود طه ومن لف لفهم . وربما كان ذلك التحسب والتحرز من نعمى ذكاء الشايقية عموماً ، ولكن الحاج عبد الرحيم أبان عن ذكاء فطرى أصيل خاص به لمواجهة مثل هذه المواقف الحرجة والخروج من منعطفاتها ومضائقها المعقدة بسلام وأمن وطمأنينة . ولعله آلى على نفسه أن يوظف ذكاءه الفطرى توظيفاً كاملاً مرناً للتعامل مع هذه الامور الصعبة واختيار أقرب السبل وأمهدها وأيسرها إلى النجاة من عقابيل تعقيداتها ، ثم ترك لنفسه حرية التعامل بما تراه مناسباً فى اللحظة المعينة مع الدروس والأساتيذ . فكان يصيب حيناً فى هذا المضمار و تنبوبه هذه الحرية أحياناً . وفى هذا المنهج شئ من الحكمة لا يخفى . لأن الجلد على الأخطاء فى الدروس أو خرق تعاليم النظام السائد - سواء كان ذلك على « طوطحانية » عم محمود وعم عبد العزيز وعم جادين أو على يدعم مبارك - انما هو عقاب نظامى محتمل ، ويمكن درء مخاطر آلامه بنبوءة صادقة لا يتعذر أمرها على الحاج ، وينجم عنها اتخاذ اللبد الواقية التى لايلحظها الاستاذ ولا قارع الأجراس ، وهى تنبئ عن حقيقتها بتلك « الفرطقة » أو الفرقعة أو سمها ماشئت التى تترتب على إنزال السوط على العقب ، وقد تعودت عليها الآذان حتى حسب البعض من منفذى العقاب أن الأصل فى تلميذ ذلك الفصل وتلك الحقب هو لبس سراويل من « الطرور » ! وعلى كل فالأمر محتمل ويزول أثره بزوال الأسباب ، وليست له نتائج جسدية متأخرة . أما « البنية » « والشلوت » « وام دلدوم » التى يمكن أن تصاب منها بشئ كثير فى أى شجار مبعثه المنازعات العقائدية

الكروية فانها تباريح قد تمتد أثارها إلى وقت طويل ، وربما أحدثت خدوشاً وأوراماً وكسوراً يشقى بها الانسان طويلاً ولا يبرأ من عقابيلها تماماً إلا بمشقة وعناء « وكشف حال » . ولقد رأى الحاج عبد الر حيم بعيني رأسه كيف تلقى أحد تلاميذ فصل من الفصول الأخرى سلسلة من « اللبعات » « والشلاليت » على أثر شجار تافه الأسباب ، فانتهى به الأمر إلى المستشفى وقد كسرت ترقوته اليسرى . وقد كنا نحسبُ أن كسر الترقوة هو أقرب شئ للاعدام شنقاً حتى الموت ، وذلك لقرب الترقوة من الرقبة ويوشك كسر الأولى أن يفضى الى كسر الثانية ! ولكن الكبتل - فى تحليله لمضاعفات مأساة ذلك التلميذ - أفتى بسفه هذا الزعم الذى صرنا إليه ، وأكدلنا أن الترقوة اليسرى أقرب للقلب من الرقبة ، وأن من انكسرت ترقوته اليسرى - وفى رواية اليمنى أيضاً - ربما توقف قلبه أو عطب عطباً لن يزال به حتى يهلكه ! فزاد ذلك من ثقة الحاج عبد الرحيم بفلسفته التى أوحاها اليه ذكاؤه الفطرى ، فركن اليها تماماً وتشبث بها - لا يغادرها - هادياً ومرشداً . فكان يرى فى كل « شكلة » من « الشكلات » التى تنشب بين التلاميذ نذيراً بكسر الترقوة ومن ثم بعطب القلب إن لم يكن بتوقفه فى الحال ومفارقة صاحبه للحياة . فهل يلا م الحاج بعد ذلك على تمسكه بأنجى الخيارات وأمن السبل ؟ إن لم تصدقونى فليقل لى من يحسن التذكر ماذا كان مذهب الحاج الكروى حقيقة ؟ أما أنا فانى أذكر أنه كان متمذهباً بالمذاهب الكروية الثلاث كلها فى وقت واحد . فهو هلالابى سراً وعلناً ، وموردابى علناً وسراً ومريخابى فوق السر ودون العلن .. من قناعاته الراكزة التسليم بديالكتيك الأشياء وبأن التغير والتبدل سمة الحياة وأن لكل مقام حال . وللسر والعلن عند الحاج مواصفات خاصة وهى درجات ، وقد يتقدم السر على العلن فى بعض الأوقات وقد يتأخر عنه فى بعضها الاخر ، وتختلف درجة كل منهما باختلاف الظروف وطبيعة جمهور المستمعين ، وقد يغيب كلاهما تماماً ان دعا داعى الحيطة ، فيصعب التصنيف ويتعذر فهم حقيقة الانتساب والهوية ! وتلك مقدرة أوتيها الحاج عبد الرحيم ولم يؤتها غيره ، فقد كانت ثمرة لذكائه الفطرى المتفرد

وأما صديقه الذى أعجب بفلسفتة الرابحة هذه فهو عوض الكريم عبد الجليل . وقد حام عوض الكريم حول هذه الفلسفة الصائبة كثيراً ، ولكنه - رغم نبوغه فى ميدان الدروس والتحصيل - لم يأت بها ولا بمثلها ، والله أعلم .

لقد عرف الحاج بالهورس لأنه وسيم رائع المظهر بسّام نشط ملئ بالحيوية وقد سار عليه هذا الاسم اكثر من سواه وناسبه واتصل به اتصالاً . وسمى بالحوذى لأنه ذكى خبير برياضه العصيات من الامور . وهو التلميذ الوحيد الذى حير محمد العوض فاختار له اسمين أو لقبين حتى صار هذان الاسمان وجهين « لشئ » واحد . وهذا من دقة محمد العوض اذ قد اتى بأحدهما وهو لفظ أعجمى معرفاً بالالف واللام ، وأرسل الثانى - وهو لفظ عربى فصيح - دون تحوير أو تبديل . ولو أنه عرَّب الأول ، لما خفى عليك هذا التناقض بين معنى الكلمتين فان فى هذا الخفاء جمالاً يدعو الى التأمل واستشفاف المقاصد الكامنة فيه . وقد كان فى الحاج عبد الرحيم جمال متنوع الأسباب والسمات .

دَمْشَقْ نمرة اتنين :

كان على محمود طه محمد طه من التلاميذ القلائل الذين لحقوا بنا فى فصل التوانى بأخرة . وكانت داره قريبة من المدرسة ، فهى فى « الحي الامامي ، جوار الاسبثالية ».

وهو تلميذ انيق المظهر يميل إلى الطول والنحافة . يأتى إلى المدرسة سيراً على قدميه فى كل صباح ويعود إلى أهله بعد انتهاء اليوم الدراسى مشياً على القدمين أيضاً . وما كان ذلك لتعسر الأسباب وانما لقرب داره من المدرسة . وهو يختلف كثيراً عن شقيقه الأكبر « دمشق » - بفتح حرف الدال وسكون حرف الميم وفتح حرف الشين ثم سكون حرف القاف . وهى الطريقة التى كان ينطق بها شقيقه الأكبر اسم العاصمة السورية . ولعله لم يسمع بها من قبل وانما قرأها فلحن وصحف ، فأسماه زملاؤه بهذا الاسم جزاء وفاقاً له على هذا اللحن المشين ، وقد كان هو فى فصل متقدم علينا . وذاع هذا الاسم بين الناس ذيوعاً ، وانتشر خبره انتشاراً ، وكان أول من حمل إلينا نبأه وأفشاه

بين أولاد فصلنا هو محمد العوض مصطفى دون غيره . ثم هو أطلقه على على محمود طه وميزه باضافة « نمرة اثنين » ، هو يعلم أن علياً كان بريئاً من هذا التحريف أو التصحيف الذى أحدثه أخوه الأكبر على اسم العاصمة السورية . ولكن محمد العوض كان مولعاً بالهزل وابتكار الاسماء أو تحوير ما ابتكره غيره منها حتى يلائم به مسماه ، وهو يضحك حتى على نفسه ان لم يجد أحداً يضحك عليه . ولما ضاق علىّ ذرعاً بهذا الاسم الذى الحق به « لا ايدو ولا كراعو » كما كان يقول عز الدين عباس من فرط عطفه عليه ، سألنى عن لقب محمد العوض ان كان له لقب حتى يعرفه ويردعه به . فقلت له – بعد أن اقسم لى أنه لن يخبر محمداً بأمرى أو بالمصدر – إن لقب محمد العوض هو « أبو العبيد » . فصار يدعوه به علناً بين الناس ، يريد بذلك أن يرد الصاع صاعين . ولكن خاب فأله لأن محمد العوض استقبل ذلك اللقب أو الاسم أو الكنية ضاحكاً « مقرقراً » وكأنه نودى بالسيادة على الناس ، وقابله بكل علامات ومعانى الرضا والسماحة . وبهذه المناسبة فان « القرقرة » هنا هى مرحلة من مراحل الضحك ، ولاصلة لها بأصل كلمة « قرقور» التى تم ابتداعها فى عصور تلت عصورنا تلك بأزمان . ومهما يكن من أمر فان محمد العوض عمرابى معروف الأرومة ، ولون بشرته هو الذى يطلق عليه أهل السودان كلمة « الزرقة » وهم يزعمون أن العرب كانوا يطلقونها على الفحول من أبنائهم ، وهى توحى لهم بطائفة من القيم والخصال المحمودة . ولعل محمد العوض كان يدرك ذلك ويفقه أسراره وأصوله ، ولعله كان بطبعه لا يستجيب لأى نوع من الاستفزاز « والمطاعنة » ، وآية ذلك أنه لم يرتدع وإنما تمادى وأوغل فى الضحك كلما دعاه على بهذا اللقب . ومجمل القول ان علياً لم يفلح فى استثارة غضب محمد العوض ، بل إن محمداً كان إذا أراد أن يوهمه بأنه قد أقلع عن مكايدته ابتدره سائلاً : « يا على ياخى وين أخونا دَمْشَقْ نمرة واحد» ؟ وهو يعنى بالطبع أن هناك « دمْشَقاً » « نمرة اثنين » ، ولن يكون هذا غير علىّ نفسه ! ولما رأيت أن علياً قد شقى كثيراً بمكايدات محمد العوض وهزئه الذى لا ينقطع ولا يفتر ،

واسيته أطيب مواساة ثم نصحته بأن يصبر ويحتسب ، وأن الخير فى أن يرضى بما قسمه الله له من شرور لسان محمد ، وأن « أبا العبيد » قادر على تبديد المخاطر عن نفسه بموهبته البصيرة باصطناع الهزل ومقدرته الفائقة على اشاعة هذا الهزل والضحك بين الناس . فذلك ينسيهم أن له اسماً غير اسمه الذى سماه به أبواه وعرف به بين الملأ ، وانه صاحب قدرات خارقة على الصاق اى اسم أو نعت أو كنية أو لقب بأى واحدمنا . وكلما تصاعد استنكارنا لهذه التسمية المبتدعة كلما أوغل محمد فى غيه وكلما ازداد الاسم الجديد رسوخاً فى أذهان التلاميذ ، فنسوا أو تناسوا . عن عمد أو غير عمد - اسمك الحقيقى الذى خلعه عليك والداك يوم أن قدمت إلى هذه الحياة من وراء ظلمات ثلاث . ولما أصاخ على لنصحى « وسدَّ هذه بطينة وهذه بعجينة » فى وجه هذا البلاء « الدِّمْشَقى » ، تراخى اصرار التلا ميذ على مفامزته بهذا لاسم الذى طالما أكربه التصاقه به ، وتراخى حتى محمد العوض نفسه عن مناداته به والتعكير به عليه ، وان كان قد اكتفى بترقيمه دون زيادات ، فصار يصيح ضاحكاً فى وجهه كلما لقيه : « أهلاً يانمرة اثنين » ! وحتى هذه عندما صبر عليها على محمود طه وادعى الاستهانة بأمرها ادعاءاً وأظهر عدم المبالاة بها تجملاً واصطباراً فانها أخذت تتباعد عنه وقل من يراشقه بها ، حتى نسيناها وكدنا ننسى معها أن له أخا يسبقنا فى أعوام العمر والدراسة يبلغ حجم جسمه ضعف حجم علىّ ويزيد لا يحسن ينطق اسم العاصمة السورية وانما يحرفه تحريفاً ويبدله تبديلاً .

ولقد فات على على محمود طه - وما كنت لأ ذكره وان كنت متذكراً وذلك خشية على نفسى من مغبة مثل هذا التذكير - أن مثل هذا التحريف أو التصحيف فى نطق أسماء البلدان والعواصم والأقطار لم يكن وقفاً على شقيقه الاكبر ، وإنما اشتهر به فى فصلنا من قبل محجوب حسن سعيد الذى جعل لمصر اسماً باللغة الانجليزية لم يسمع به أو يقف عليه إبن بطوطة ، ولن تجد له شبيهاً يقاربه فى معجم البلدان حتى ولو قرأت المسعودى والبلاذرى والمقريزى وابن خلدون . ولكن من منا يستطيع الاقتراب من عرين

الاسد إلاّ أن يقول له : ياسيد الغابة ما أعظم سلطانك وما أصحٌ نطقك وبيانك ! وما أذكى جنانك وأفصح لسانك ! ولعل هذه هى قاعدة السلوك المرتضاة عند البشر منذ بدء الخليقة ، الامن عصم الله واجتبى ، وقليل ماهم . فعامة الناس ينصاعون للقوة وشدة البأس وان لم يكنوا لها احتراماً فى اعماقهم . وتستهويهم وتشوقهم وتأسرهم مواقع الغنى واليسار ورغد العيش ، وان انكروا فى دخائلهم مصادرها ومقتوا فى سرائرهم أصولها ومنابعها واستقبحوا واسترذلوا فى قرارة أنفسهم نذالة الطرائق والوسائل التى ربما اتخذت لبلوغها والتعلق بأسبابها وأهدافها . فهم يحرصون على التقرب من هذه المواقع وان لم يصبهم من نعيمها قطرة ويتدافعون الى التمسح بهذه الأعتاب وآن تنلهم من أى دهقان بها نظرة . فهم يبغون مالا ينالون ويؤملون مالا يدركون ، ويزهقون فى سبيل ذلك أعز ما يملكون . هذه هى طبائع البشر ، وهى بالقطع وليدة الجهل ، وأن بلغ المتطبع بهال أقصى غايات التعليم النظامى . ألم تسمع قول الله تعالى و هو أصدق القائلين : (ولكن اكثر الناس لايعلمون) ؟ وكيف أن هذا القول يتكرر لفظاً ومعنى فى القرآن الكريم فى شتى المواضع والآى ؟

ولكن مالنا ولكل هذا ؟ فلا ندعه يحرفنا عما نحن فيه . محجوب حسن سعيد تلميذ مسكين وطيب القلب . ولكن قبضته الفولاذية « وبنيته » التى لا تخطئ الفك وان سلمت منها العينان والأنف والبطن ، أبعدت عنه كثيراً من الشرور التى حاقت بغيره ممن لم يرزقهم الله مثل هذه البسطة . ومن هؤلاء علي محمود طه . غير أن الله لا يظلم الناس (ولكن الناس انفسهم يظلمون) فان كان على لم يؤت بسطة فى الجسم فقد أوتى سعة فى البال ، وربما فى المال . فكان تلميذاً رضياً دائم الابتسام ، كريماً جواداً لا يعرف الشُحّ ولا يألف الخصام ، ولذلك أحبه زملاؤه وأعزوه ووقروه . ولعلّ ذلك هو السر فى تغاضى محمد العوض عن محاولات علىّ للثأر لنفسه ، وفى تراخيه عن التشدد فى « الدمشقة » التى ألحقها به ظلماً وعدواناً ، وان كان محمد العوض من الحصافة والفطنة بحيث احتفظ له بلقبه الترقيمى « نمرة اثنين » لفترة ليست بالقصيرة

لاحباً في اي نوع من أنواع الابتزاز - ولكن ابقاء له تحت سلطان الاسار الفضفاض الذي يتيسر معه احكام القبضه في اي وقت إن دعا الداعي أو أحدث علي «فرنبة» يخشي منها محمد علي وقوع اضطراب في ميزان الامور ! وذلك لأن ميزان الامور في نظر محمد دقيق وحساس لأن لسان محمد لم يدع أحداً الا ونال منه ، وهو لا يأمن أن ينقلب عليه ضحاياه في يوم من الأيام وعندها ربما يعدم النصير ويصبح عرضة لسهام الانتقام . وهو قد انتهج هذه التحوطات مع جميع الذين مسهم بميسمه الساخر «وشال حسهم» بين الملأ ، فهو عراف المدرسة ونجم ابتداع الاسماء والالقاب والكنيات ، ولكنه عليم بأسرار المرونة وصحائح الامور فيما يتعلق باستخدام هذه المرونة في الأويقات التي تصبح فيها سلاحا ماضيا موفورالمضاء . ولقد عجز علي محمود طه محمد طه عن استثارته واخراجه عن مكين لباقته التي هو مستعصم بها لا تفارقه كما عجز عن الافلات من قبضته التي كان يحسن احكامها عندما يريد ويراخي منها هونا ان هي اشتدت وأحدثت ما لا يريد ولكنه لا يدعك تنجو منها ابداً فيصبح حالك مثل حال ابي الطيب اذ يقول عن نفسه :

فأمسك لايطال له فيرعي ** ولا هو في العليق ولا اللجام

ولكن عليا استسلم في النهاية لما لا منجاة منه ورضي بلقب «نمرة اتنين» وان قل لجوء محمد لمناداته به . وذلك لأنه صاحب روح سمحة ، وهو قد حزن لما لحق بشقيقه الأكبر ولعله نصحه بالتغاضي عن تعليقات التلاميذ وتناسيها.غير ان دمشق نمرة واحد لم يكن في حوجة لهذه النصائح فله من بسطة جسمه خير رادع لكل من تسول له نفسه الافراط في مغامزته واستدراجه لأن يكون اضحوكة بين الناس . ولما كان علي يفتقر الي بسطة الجسم التي يتمتع بها شقيقه ، فأن الله الذي لا يضيع احداً من خلقه قد حباه بسطة في رقة المشاعر ودواعي القبول عند الناس فهو صديق عزيز لكل من عزالدين عباس وعاكف ياسين لصيق بهما . وهو مثلهما انيق الملبس والمظهر والحديث ولكنه أشد منهما مراحاً وأكثر منهما جرأة واوسع صلات بالناس .

ورغم أن الصقور عموماً وصقور فصلنا على وجه الخصوص قد انتبهوا بأخرة إلى بأس شقيقه الأكبر وأيقنوا بقدراته الجسمانية الهائلة . إلا أنهم من قبل ذلك لم يجدوا فى علىّ ما يصدهم عنه ولا مايزهدهم فيه بل اعجبهم فيه جميع حاله ولذلك فهو عندهم من المقبولين لأكثر من سبب ، وعند بعضهم من الاصفياء لمجموعة اعتبارات . فبجانب الاسباب السالفة الذكر فان علياً هلالابى وهو اكثر تشيعاً لفريق الهلال من عز الدين وربما كان أشد ولعاً بالهلال من عاكف ياسين ومن هُم أشد عاطفة فى هذا المضمار . وهو كذلك جار لمحجوب حسن سعيد لا تبعد داره عن دار محجوب فى حى الاسبتالية إلا خطوات قليلة . ومن كان جاراً لمحجوب فهو آمن . ومن كان آمناً عند محجوب فهو آمن عند كافة الصقور على نطاق المؤسسة التعليمية بأسرها ، وقد كان الصقور من قبل أن تتوفر لهم هذه المعلومات الهامة عن علىّ فى حيرة من أمرهم تجاهه . منهم من يشك فى حقيقة تشيعه لفريق الهلال وصدق ذلك ، ومنهم من يرى أنه ضعيف البنية لايؤبه بأمره ، ومنهم من يرى أنه يغالي فى أناقة المظهر وأن مثله لا يحسن الضرّاب ، ومنهم من ظن فيه تحفظاً تجاه الموسيقى البرجلية ، وأن من كانت هذه شيمته فلن يؤمن جانبه ، إلى غير ذلك من الظنون التى لم تكن تنبنى على اساس متين يمكن من اتخاذ الموقف المناسب . لكن حيرتهم لم تطل كثيراً ، فقد تبين لهم أن علياً صاحب مزايا عديدة ، ولذلك تغيرت نظرتهم إليه تغيراً جذرياً وصار عبد الكريم يهتم بأمره ابلغ اهتمام ، الأمر الذى ربما كان من آثاره الواضحة تلك « الصحبة » التى نمت بين دمشق نمرة واحد شقيق على والطيب الزعيم شقيق عبد الكريم الذين كانا فى دفعة واحدة . فانظر كيف يتداعى اسباب الإلفة والرضا بين الناس وكيف تمتد آثارها بين ظهرا نيهم ! .

لقد كان على محمود تلميذاً يمتاز بالظرف والشفافية وكان فيه تواضع آسر ، ونجدة ومروءة . لم أسمعه مرة واحدة يباهى بأى بطولات طرماجية . وهو لم يدّع لحيه اىّ قندف من القنادف رغم استماعه الدؤوب لقصص « بلة الأحمرانى » وكبس الجبة »

« واللبخ » و« شمشون » وكافة أبطال البنية والشلاليت والروسية التى تهمد ضحاياها فى لحظات وجيزة . ولعله اكتفى من امثال هذه القندفة واشباه هذه البطولات بشقيقه الاكبر دمشق نمرة واحد وجاره المشهود له بشدة الباس محجوب حسن سعيد . فهما لبخان وكبسان وشمشونان في طو ر التكوين . ولعل ظرف على محمود وشفافية روحه وتواضعه الأصيل هى التى حببت فيه زملاءه واكسبته احترامهم وهى الصفات التى كان يغليها فيه عز الدين عباس وعاكف ياسين ومحمد عبدالله الشيخ بشكل خاص . وأما نجدته ومروءته وشهامته فقد كانت صفات كامنة فيه قلّ أن يطلع على حقيقتها إلا من كان لصيقاً به . وقد رأيت فيه مايدل على هذه المزايا اكثر من مرة ولم اجد لها اصداء واسعة بين الناس . ولكنى بعد اعوام طوال تحققت يقيناً مما كان يلوح لي من هذه السجايا فى تعامله مع الناس . فقد حدث أن تعطلت سيارتى - كما كانت تفعل دائماً - وأنا رئيس لاقسام الجراحة فى مستشفى ام درمان التعليمى . فخف إلى نجدتى بعض المارة حتى عادت الى سيارتى الحياة بعد « دفرة » حاسمة من أيدى بعض ذوى المروءات . وعندما نزلت عنها لأشكرهم على كرمهم ونجدتهم كان آخر من مددت يدى له شاكراً منهم هو على محمود بعينه ، فصافحنى وهو يبتسم فى تواضعه الذى عرفته فيه منذ أزمان طوال . ولم اجد صعوبة فى التعرف عليه ولم يجد هو صعوبة فى التعرف علىّ . وطال بيننا العناق والحديث واللبث فى احداث الماضى السعيد البعيد ، كلانا مشوق ينشد فى دخيلته :

أبنى أبينا نحن أهل منازل .·. أبداً غراب البين فيها ينعق

نبكى على الدنيا وما من معشر .·. جمعتهم الدنيا ولم يتفرقوا

ابراهيم الأمين وزبر الحديد :

كان ابراهيم الامين تلميذاً ربعة متميزاً بقو ة جسم ظاهرة ينبئ عنها ساعدان مفتولان ورجلان ممتلئتان بأسهما شديد . ولكنه لم يكن فى طول قامته بحيث يمكن أن ينسب إلى فصيل العمالقة ، وان كان يبدو أن بعضاً من طوله جسمه قد ذهب واستنفد في صياغة وبناء عرضه ، فاتسع وقارب الطول . وبدا ابراهيم للناظر اليه وهو أقرب

إلى الاستدارة منه إلى ما سواها . ولم تكن تقاطيع وجه ابراهيم توحى بمثل جبروت العمالقة ، ولكنها كانت توحى ببعض صرامة هونت من أمرها علينا وداعة طبعه ودماثة خلقه ورقة مزاجه السمح المسالم . فهو لم يكن مولعاً باحداث الشجارات وايقاد نيرانها ، ولكنه كان قليل النكوص عنها إن هى داهمته على حين غرة منه أو باغتته وهو لاه عنها ومعرض . فاذا كان ذلك فانه يتصدى لها بجنان ثابت وساعدين مدربين مقتدرين وقدمين قصيرتين ولكنهما ما حقتان إن صوبتا أصابت كل منها مقتلاً لا تخطئ ولاتنبو . لقد اثبتت قوة جسمه جدواها فى مثل هذه الظروف إثباتاً شهد له به الناس فآثروا التعامل معه بالأحاسيس والعواطف ، بعيداً عن هذه الجوارح التى خبروا معنى التعامل معها من مواقع الخصام . فان جنحوا للسلم جنح لها ابراهيم راضياً سعيداً بها لأن ربه الذى وهبه امضى أدوات الردع ووسائله متمثلة فى زندين واريين وقبضتين هاصرتين ورأسا مصفحاً ورجلين من زبر الحديد ، هو الذى وهبه أيضاً قلباً حانياً وروحاً مسالمة ونفساً مترعة بأرق العواطف و أنبل الأحاسيس . عرف زملاؤه فيه كل هذه المواهب الخلقية والخلقية ، فهدتهم الحكمة وقادهم الفكر الراشد إلى اختيار التعامل مع أيسرها وأقربها إلى مواطن السلامة والعافية . ولذلك كان لجوء ابراهيم إلى استثمار مواهبه الخلقية البدنية نادراً لأن تجاوز الخطوط الحمراء فى التعامل معه من قبل التلاميذ كان أمراً نادر الحدوث . وعندما تآمر المتآمرون فى ذات مرة على الايقاع بالاستاذ السبكى لاطلاقه اسم احسان عبد القدوس على عبد الرحمن كنتباى ، كان تعويلهم الاساسى الذى بنوا عليه نجاح خطتهم على قوات الردع الجسدية المتميزة التى وضعت كلاً من ابراهيم الأمين ومحجوب حسن سعيد فى مقدمة من أنيط بهم تنفيذ هذه المهمة على أكمل الوجوه وأسرعها وأشفاها للغيظ والموجدة. ولم يبد ابراهيم ساعتها ما يلحق به تهمة الخروج على الاجماع . ولكن عندما أبان الصقور حقيقة المخاطر واوردوا الحجج المقنعة وانتهى الأمر بصرف النظر عن هذه المغامرة الواعدة بأوخم العواقب أرضى ذلك ابراهيم كل الرضا وأثلج صدره ورفع عن

كاهله الهموم ، لأنه كان تلميذاً وديعاً مسالماً فى الأصل وان أوتى فى جسده مقدرات ذى القرنين حتى إذا دفع للشر دفعاً لم يتهيبه وانما استعد له استعداداً وأتبع سبباً ثم أتبع سبباً .

ولعلَّ بلاء ابراهيم الأكبر فيما يتعلق باستخدام المواهب الجسدية كان مع كمسارى الطرماج وخاصة عندما يكون مع الكمسارى مفتش يحصى على الناس انفاسهم ويلح على ابراز التذاكر لا يستثنى من ذلك أحداً من الركاب . ففى مثل هذه الحالات تسعف ابراهيم قواه العضلية ، لا على مواجهة الكمسارى والمفتش والاقتتال معهما فذلك أمر لا يفكر فيه عاقل ، ولكن على إتقان فنون الزوغان والافلات من سطوة القبضة الطرماجية ، التى قد تعنى مصيراً بالغ الخطورة . لقد كان ابراهيم يأتى إلى المدرسة مع عبد الرحمن اللدر – الذى كان يتقدمنا بسنة دراسية – من جهات « علايل اب روف والمزالق » ، أو بتعبير أدق من ود اللدر . ولقد علمنا من قصص إبراهيم الذى كان يسرده علينا أن مغازيه فى الطرماج كانت أفانين وضروباً وأن بطولاته فى الزوغان من الكمسارى ومن مطاردة مفتش التذاكر من مركبة إلى مركبة إنما كان الفضل فيها يرجع إلى قوة ساعديه وصلابة رجليه ومتانة قدميه وشدتهما ومقدرتهما على التحرك السريع الذي يجعل دائماً بينه وبين المطاردين بوناً شاسعاً من الأمان ، فهو ينتقل من موقع إلى موقع بسرعة القردة وثبات النمور ! فان ضاق عليه مجال التحرك وأوشك الكمسارى او المفتش ، أو أى شخص آخر من « متلقين الحجج » أن يمسك بطرف جلبابه قفز ابراهيم إلى الأرض كباز يضم جناحيه ليهبط سليماً من شواهق الأجواء إلى قمة صخرة أو سفح جبل أو مجاهل وادٍ سحيق . وذلك أن الكمسارى وخاصة إذا كان من ورائه مفتش التذاكر – إذا طاردك من مركبة إلى مركبة أخرى من مراكب الطرماج ثم ضيق عليك الخناق فان امامك خيارين لاثالث لهما ، لأن مجال الحركة محدود ، ولأن جسمك كتلميذ صغير لا يواتيك بالمقدرات المطلوبة ولا يسعفك بالثبات على هذه الحركات البهلوانية الاكروباتيه ومتابعتها طويلاً .فخيارك الأول هو أن تدفع

ثمن التذكرة ، وربما حرمك هذا الاجراء من فطور عم محمدين أو على الأقل من تناول الباسطة . ولما كان الكمسارى والمفتش لا يطلعان كثيراً علي الصحاح وامهات كتب الفقة والحديث فانهما لا يعرفان فضل الظهر ، ولا يدينان بفضيلة حمل من لايجدون ما ينفقون على ظهر هذه الدابة المعلونة التى ابتدعوا لركوبها تذاكر تجبى بها دريهمات الناس وقروشهم ، ويطارد من يعجز عن الوفاء بحقوق هذه الجباية حتى لا يجد مخرجاً ولا يسعه إلا أن « يتلب » والمركبة المجنونة تعوى كالريح العاصفة تطحن القضبان طحناً . ولذلك فان الخيار الثانى هو أن تهبط إلى الأرض ليس لك غيره من محيص . وغالباً ما يضطرك الكمسارى أو المفتش - أوهما معاً - لهذه المخاطرة ، وقد يحرصان على دفعك اليها والطرماج يلهب من فرط سرعته قضبان الحديد وتقدح « بكارتاه » الحمم من أسلاك الكهرباء الممتدة بين اعمدة تطل اعاليها على سقوف المنازل . وتلك سرعة يعنى الهبوط الى الأرض خلالها ارتطاما مؤلماً « بالحصحاص »أو شارع الظلط وقد يقود - فى أحسن الحالات وأسلمها وأنجاها - إلى « سف التراب » واحتشاد المنخرين باديمه وحصاه . وربما صار الأمر إلى « بهدلة » أدناها تناثر محتويات الشنطة من كتب وكراسات وأقلام ، وأوسطها كدمات وخربشات وظلطات وجراحات تورث الألم وتفرخ الأنين ، والى اتساخ الملابس وتعفر الجبهة والوجه والأيدى بالتراب والأوضار والأوشاب . ثم إذا أنت جئت إلى طابور الصباح فى المدرسة على تلك الهيئة المزرية فان أقل ما ينتهى إليه امرك هو تصفية الحساب مع عم مبارك فى نهاية اليوم الدراسى . هذا هو الشأن عموماً فيما يختص بالتلاميذ العاديين واواسط الناس . أما ابراهيم الأمين فانه كان - فيما يروى لنا من هذا القصص الطرماجى - حصيفاً كامل الحصافة فى كل أمره . فهو قادر على تمكين قدميه من الثبات المؤقت فى أى موضع حتى ولوكان ذلك الموضع هو حافة السلم أو مؤخرة ظهر الطرماج ! ثم إذا احيط به من كل جانب وضاقت عليه المركبات والسلالم والمؤخرة التى تشبه « باكم » القطار ، فانه قد تدرب على الهبوط الى الأرض سالماً كما يهبط رجال المظلات . ولقد وجد ابراهيم

منا تصديقاً لهذه المزاعم لأننا كنا على علم بأنه من القلائل الذين يجيدون النزول عكس حتى في « كشة الكلية » والكلية هذه لم تكن سوى مدرستنا ذاتها - ام درمان الاميرية الوسطى - مضافاً اليها مدرسة التجارة وهى مدرسة ثانوية صغرى .

وأنا لست أدرى ان كان عبد الرحمن اللدر - وهو رفيق درب ابراهيم الامين وأخوه الأكبر - يحسن مثل هذا النزول العكس من الطرماج أثناء هذه « الكشات » التى تصيب رأس الانسان بالدوار وتمضه بالغثيان والصمم . ولكنى أرجح أنه لم يكن يحسن ذلك ، لأنه لم يؤت متانة جسم ابراهيم وافتتال ساعديه وصلابة قدميه ، وان تشابها فى الوداعة وحسن الخلق . ورغم بلاء ابراهيم الامين المظفر فى العوالم الطرماجية وتأكيده لنا أنه من القلة الذين لايشق لهم غبار فى أشباه هذه الملاحم والمطاردات الا أننا لم نقف على أثر لهذه المواهب حينما يتعلق الأمر بمجالدة الكروب التى تأتينا أحياناً من قبل المدرسين . فهو لم ينج ولم تغن عنه مواهبه الكثر التى « فلق » رؤوسنا بها روايات وحكايا من نكير بعض الاساتذة ، وفى مقدمتهم الشيخ ابو بكر عبدالله بالطبع . فلقد عانى منه ابراهيم الأمرين . ولو علم الشيخ صلة ابراهيم الامين بعبد الرحمن اللدر لَرَقَّ له قلبه ورحمه ، لأن الشيخ كما علمنا كان معجباً بعبد الرحمن اللدر حتى أنه كان يسمى الدرجة القصوى التى يجود بها على النابغين من تلامذته « نمرة لدرية » امتداحاً لها وتمييزاً لها عما سواها . ولست أدرى إن كان قد حل باللدر ما حل بأمثاله من الفطاحل على يد الشيخ التى كانت تعطى باصبعين وتسلب وتسترد ما تعطى بالأصابع الثلاث المتبقية ، أو على لسانه « الفلغة » الذى يقطع بما هو أمضى من حد السكين السنينة ، ولا يتأذى أن يساقط عليك من جمرات الكلم ما يحرق الحشا قبل الجلود ! ولكنه كما قلنا وبينا من قبل حريق مستطاب ، أو هكذا خيل الينا ونفث فى روعنا . فمن عجب أن الشيخ كان - رغم « سلاطة » لسانه « الفلغة » وبشاعة يده الكرباج - استاذاً محبوباً بين تلامذته . وربما كان ذلك لادراكهم أنه يرى فى ما كان يحملهم عليه من الشدة حسن تربية لهم وتقويم . وربما كان ذلك

لطرافة ما كان يأتى به من حركات ولغرابة ما كان ينثر فى وجوههم من تعابير وكلمات . وليس أدلّ على ذلك من أننا ظللنا إلى هذا اليوم - كلما التقت منا طائفة من تلاميذ تلك الأزمنة الغابرة السحيقة - نجتر ذكريات وحكايات ام درمان الاميرية الوسطى فى تلك الايام الزاهية وفى مقدمتها الأقاصيص التى تدور حول الشيخ ابى بكر وحركاته وكلماته التى انتقشت فى ذاكرة كل احد منا انتقاشاً لا تمحوه ولا تزيله الاماد . ومن المؤسف أنه قد فاتنا أنبل واكرم ما كان فى الشيخ وهو روعة تلاوته وترتيله للقرآن الكريم بذلك الصوت الرخيم الصافى الذى كان يهز منا أوتار القلوب وينفذ بطلاوته وسحره ونغمه الاسر الأخاذ إلى ادق خلجات النفس وأرق مواطن القبول . ولكنه - ويالتعسنا - كان منشغلاً عن الاكثار من تلك التلاوة المحببة لأنه كان يتأذى من حركات عبد الكريم ومجموعته أشد التأذى فاذا به ينفق جل وقته فى محاولة تأديبنا . وما أراه كان محقاً فى ذلك لأن شيطنة التلاميذ وتجاوزاتهم - أو ما خيل اليه أنها تجاوزات - فى مسار عبثهم الطفولى ، لم تكن تستدعى كل ذلك الاهتمام والتوفر على استئصال شأفتها . ولو أنه ترك الامور تجرى على طبيعتها وتوفر على تلاوة القرآن على مسامعنا كما كان يتلوه بصوته الرخيم المؤثر وأكثر من ذلك لأصاب مثوبة لنفسه عند الله ولأصبنا منه نحن خيراً عميماً وهداية كانت وحدها كفيلة بتحجيم ما حسبه الشيخ تجاوزات لحدود الأدب ، وما هو فى حقيقته إلا بعض ملامح الشيطنة والعفرتة التى عادة ما تنتظم اغلب التلاميذ فى تلك الأعمار ، فلا ينجو من الخوض فيها والتلبس بها إلا قليل.وربما صح القول بأن هذه الشيطنة العابثة - على الرغم من براعتها وقصر لبثها - قد أوغرت صدر الشيخ وضاق بها ذرعاً ، فوضع سيــفه حيث كان يكفيه لسانه ، وأطلق لسانه الذى هو لسانه حيث كانت تكفيه التلاوة وتربى ، وخانته فطنتة فاختار للتأديب والترشيد الفاظاً وتعابير كان خيراً منها وأربى كلمات الله التى لونزلت (على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) . ولذلك كان ابراهيم الامين واحداً من اهداف الشيخ فنال من سخريته اللاذعة وكفه الصافعة ما شاء له الله . كان

ابراهيم يتأذى مما يصيبه من عقاب فى حينه ، ولكنه سرعان ما ينسى تباريحه فيغرق فى الضحك بعد انجلاء العاصفة ، ولا يحمل فى نفسه حقداً على الشيخ ولا على غيره . و لوأراد أبو خليل أن يثأر لنفسه لواتته مقدراته العديدة - هكذا زعم محمد العوض وهو يعدد هذه المقدرات ويضحك فى تحريض ظاهر - ولكن ابراهيم الامين كان تلميذاً وافر الحياء والادب والانضباط . ورغم أنا قد تفرقت بنا سبل الحياة فانى ألقى ابراهيم الصديق القديم من حين لآخر فتنمحى عنا ومن بيننا مسافات الازمان الطوال ونعود القهقرى الى تلك الحقب الهانئة ويطول بيننا الحديث والضحك وكأننا نعيش تلك اللحظات الخالدة من جديد .

عز الدين .. وأناقة المظهر والمحتوى :

أما عز الدين عباس حلفاوى فقد كان تلميذاً رقيقاً أنيقاً متميزاً بهذه الرقة وهذه الأناقة تميزاً ملفتاً للأنظار . واذا كانت الرقة شأناً معروفاً بين من رزقهم الله ذوقاً رفيعاً فلربما سأل سائل كيف جاز لنا أن نصف مظهره بالاناقة فى حين أن كل التلاميذ يرتدون زياً واحداً هو الجلابية والعمامة ؟ ولكن جلابية عز الدين وعمامته كانتا دوماً ناصعتي البياض ، على درجة عالية من النظافة والنقاء . وأنت لا تملك إلا أن تحس بعنايته الفائقة بمظهره فى كل دقيقة وجليلة ، وهو أمر محمود دون ريب . ولكنه رغم ذلك لم يسلم من الفاضل شريف الذى تعود أن يمد لسانه لكل أحد ولكل شئ ، وهو غالباً ما يفعل ذلك اذا أدرت له ظهرك وظفر بقفاك وبمسافة بينك وبينه تشعره بأمان البعد من رد الفعل ويجد فيها حرية القرب ليؤكد بها الهدف من مد لسانه . فهو يخشى أن تراه أنت وهو متلبس بهذه الفعلة يعنيك بها دون غيرك ، ويود أن يراه غيرك ويدرك مراده وهو يشير اليك وأنت لا تدرى . فهذا يفرحه ويسره ويشعره بالنصر والظفر خاصة إذا كان المقصود شخصاً ينكر عليه نكاته ولايتردد فى أن ينعتها أمامه بالبياخة والقدم ، فكان اكثر ما يؤذيه أن تقول له « قديمة » ، فاذا قلت له ذلك امطرك بوابل من أمثالها حتي ينفذ صبرك وتهم بصفعة تنزلها على قفاه فيركض من امامك

وهو يضحك كالطفل الغرير . ومد اللسان كان يعتبر فى تلك الأزمنة أوضح تعبير عن السخرية والزراية وقد كان عز الدين يعلم ذلك جيداً ويعلم أن الفاضل شريف يشير اليه من وراء ظهره بذلك اللسان الذى ربما كان فى نظره – وقد روى عنه ذلك رواية لم تثبت صحتها – أشبه بلسان « السحلية » . ولكنه لم يكن يعاتبه على ذلك . ولم يكن يعاتب غيره من القلائل الذين يحذون حذوه ويتمذهبون بمذهبه ، وانما يصمت إزاء مثل هذه الحركات فى وقار وشمم . واذا قيل له فى ذلك أجاب : « ياخى المابتلحقو جدعو » . فيرسم بذلك على خارطة فهم من يخاطب ابعاد البون الشاسع الذى يفصل بينه وبين غيره فى مضمار الأناقة . على أن أناقة عز الدين عباس لم تكن تعلن عن نفسها فى ملبسه فحسب ، وانما كانت طبيعة ملازمة له فى كل شأنه ، لأنه كان أنيقاً أيضاً فى تصرفاته وفى تعامله مع زملائه واساتذته وفى اقباله على دروسه واعتنائه بها واحتفاله بكل ما يتعلق بها . ونحن نسمى كل ذلك أناقة لأنه ينقل إلى ناظريك وإلى أحاسيسك صوراً من الجمال . ويمكن القول إن عز الدين كان أنيقاً حتى فى حديثه واختياره للكلمات التى يخاطبك بها والطريقة التى يستقبل بها ملاحظات الاساتذة سواء كانت هذه الملاحظات مدحاً فى حقه أو قدحاً . فهو لا يخوض فيما لا يعنيه أبداً وكثيراً ما يتسامى عن الخوض فى بعض ما يعنيه إذا أحس من فرط رقته أن فى ذلك ما قد يؤذى أحداً من الناس ، وهو فى حقيقة الأمر لا يعرف كيف يؤذى حتى وان قدر له أن يريد . والتلاميذ عندما يصيبهم بعض عقاب من استاذ أوينالهم منه تجريح أو شئ من السخرية على مرأى ومسمع من زملائهم تتوقد فى صدورهم نيران الغيظ ويجنحون إلى الانتقام لانفسهم بذكر طائفة من المساوئ ينسبونها للاستاذ فى ناديهم خارج أروقة الدراسة ، فيتناجون فى حقه بالاثم والعدوان . ومنهم من يروى غرائب القصص عن الاستاذ وهى فى حقيقتها من صنع الخيال المحض . فان قرأ فى أوجه مستمعيه تكذيباً لها سارع إلى دعمها بأسانيد يؤلف بينها تأليفاً وإلى « عنعنات » يرتبها ترتيباً فيه اضطراب ظاهر فتصعب على السامع متابعتها وترجيح صدقها ، وان لم يسهل

عليه تكذيبها من أول وهلة . أما عز الدين عباس فلم يكن من شيمه اللجوء إلى مثل هذا الاسلوب أبداً ، وإنما يتحمل ما يحيق به من ظلم أو أذى من قبل الاستاذ فى صمت وقور وصبر جميل ويمسك لسانه بين فكيه لا يطلقه فى الناس كما يفعل الاخرون . وما كان ذلك لعِيٍّ فى لسانه ولا خشية أن يبلغ عنه أحد أو يسعى بينه وبين الاستاذ بنميمة ، ولكنه ترفع فى طبعه عن مظان الزلل واغتياب الناس ، وايثار للسلامة بحكمة قوامها الصمت حينما يكون الكلام لغواً لا ينفع وقد يؤذى ، ودرء لمخاطر فضول الكلام حينما يكون الدافع للحديث هو الانتقام بحق وبغير حق . ورغم كل ذلك ورغم ضيق الصبية بصمته فى مثل هذه المواقف ، فقد ظل عز الدين عباس محبوباً بين أقرانه الذين عرفوا فيه هذه الرزانة وهذه العفة وأيقنوا أنها بعض من طبعه الذى فطره الله عليه . بل ان عز الدين حظى باحترام اساتذته وتوقيرهم له ، رغم أنه لم يبلغ عند الشيخ ابى بكر ما بلغه الدرديرى وعكود والحبيب من مكانة سامية ، ولم يكن أحد يدرى لذلك سبباً . فقد اعيتنا محاولاتنا لفهم ما يريده منا الشيخ وأعجزت عقولنا حالات مزاجه التي لا تكاد تستقر على قرار . فهى قد تكون فى أحايين هادئة هدوءاً طلقاً رخاء صافى الاديم ، حتى إذا فتنت بها واغتررت بوداعتها وصحوها وكدت تركن اليها شيئاً قليلاً تجمعت رياحها عليك من كل صوب وبلا مقدمات تذكر واستحالت إلى عواصف ورعود تقتلع السكينة من جذورها وتمطر أشباه الحمم . ولقد أفاد عز الدين من عدم بلوغه درجة الاصطفاء عند الشيخ ، فلو أنه بلغ من نفس الشيخ ما بلغه هؤلاء الفتيه المصطفين الثلاثة لسقط معهم من شاهق عندما تتابع سقوط ثلاثتهم من نظر الشيخ ، الواحد تلو الاخر ، فى نوبات عاصفة ارتجت لها أركان فصلنا ارتجاجاً . فأبدلوا نقمة بعد نعمة ، وبعداً بعد قرب ، ومقتاً بعد مقة ، وجفاءً بعد وصل ، وعذاباً بعد رحمة ! وهذا هو الفرق بين السقوط من قمة الجبل إلى قيعان الأودية فانه أليم شديد ، وبين التدحرج من مرتفع ناتئ إلى سهل منبسط ، فانه أقرب للعافية والسلامة . ولذلك ظل عز الدين عباس راكزاً فى مقامه ، لا هو قريب من الشيخ فينفذ إلى دائرة

الثلاثة الذين اجتباهم ، ولا هو بعيد فيحسب من رهط « كُرُمْ » الذى « يدق الرمبة » بنفسه ثم يرقص على انغامها فيثير حفيظة الشيخ . وكان هذا من ذكاء عز الدين ومن أصالة خلقه أيضاً . فاذا كان هؤلاء الثلاثة مقربين للشيخ فى وقت من الأوقات ينعمون بهذا القرب فلا يطلب منهم « تسميع » السور لأنهم « مرايا البيت » فمنذا الذى يأمن مِقَةَ الشيخ الا أن يكون من السذاجة بحيث لا يرى فى الحديث الانعومة ملمسه ؟! قالوا إن الفأر سقط من تعريشة على وجه الأرض وظل راقداً على قفاه . وقبل أن يعتدل ليجرى فوجئ بالقط يقف حياله ويقول له فى رقة مفتعلة وعذوبة صوت مصطنعة : قل بسم الله واستعذ من الشيطان الرجيم . فما كان من الفأر إلا أن قال له وهو يرتعد من الفرق : إذا تركتنى أنت لحالى فلست ابالى بما يمكن أن يفعله بى الشيطان الرجيم ! كان عز الدين يحب أن يترك لحاله ، فهو قد ترك الناس لحالهم ولذلك لم يقع فى شراك المحبة ، وأنجاه حذره من الوقوع فى مصائد القلى . أما عكود والدرديرى والحبيب فقد انتهى بهم الأمر جميعاً إلى حال أشبه بحال « الثلاثة الذين خُلِّفوا » فضاقت بهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ... وعز الدين بعيد من كل ذلك آمن على نفسه ، لا يغنى للشر ولا يقترب من مواقعه ، ولا يدع الشر يقترب منه إلا بمقدار ما يمكنه من تحاشيه .

ولم يكن عز الدين يكثر من التردد على جامع الخليفة فى « العصريات » ، فهو لم يكن كلفاً بلعب كرة القدم ولا مفتوناً بنجومها المدرسية ، وان كان متشيعاً لفريق الهلال فى قصد واعتدال . لأنه كان يعلم أن بعض المباريات التى تجرى فى ساحة جامع الخليفة بين فرق التلاميذ المختلفة هى فى حقيقتها آكد مظان النزاعات والاشتباكات التى من أخف نتائجها التمرغ بالتراب والاحتكاك بحبات الحصى . وليس من طبائع عز الدين التعرض لمثل هذه المواقف ولا من شيمه الانحشار فى ما يقود إلى أشباهها من أسباب . فهو حريص على أناقته وعلى كمالها فى جميع الحالات ، وهو ضنين بها على كل ما يتهدد تمامها فى كافة المناسبات واللحظات . وذلك أيضاً من تمام عقله .

ولست أذكر أنى رأيت عز الدين فى « سوق الزلعة » مرة واحدة . فتلك مجاهل يختلط فيها الحابل بالنابل وهى عالم يعج بأقوام ليس من بينهم أحد من شاكلة عز الدين ، وتتميز بزحام خانق لا تطيق نفسه اللبث والبقاء فيه دقيقة واحدة ، وتفوح فى اجوائه وأرجائه روائح متباينة تزكم أنفه وتقطع أنفاسه تقطيعاً . وتمتد أطياف المعروضات فى ساحته وألوان وطعوم هذه المعروضات من الفسيخ إلى الشربات . وفيما بين هذه الأبعاد النائية الأطراف تتلاقى وتختلط وتمتزج أفانين الروائح والنكهات المتنافرة منبعثة من « صاجات » الطعمية التى يغلى النيئ منها فى ثبج الزيت يصرُّ صريراً ويتكدس الناضج منها فى « طشت » أو « طشتين » ، ومن « حلل » الكمونية فاغرة الأفواه وقدور الفول المصرى المحكمة القفل إلا من ثقب تبرز منه مقبضة « الكمشة » ومن « طوات » شرائح اللحم وطباق « ام فتفت » ، وقصاع الأسماك ورؤوس « النيفة » ، ومن « ريكات » التسالى « الجرم » ، وشيئ من رزم حلاوة المولد وعرائسه يطوف بها بعض الصبية استكمالاً لقائمة المتناقضات . فهل يمكنك أن تتصور عز الدين عباس منغمساً فى مثل هذا الوسط الذى يوشك أن يوحى بفساد الذوق ويودى بكل مظاهر الأناقة والوقار ؟

ولقد حمل عز الدين عباس وقاره معه إلى مدرسة خور طقت الثانوية ، ولم يتخل عنه لحظة واحدة . وحمل معه أيضاً أناقته ورقته وأخلاقه الكريمة . فكانت تلك هى عدده فى مجابهة ذلك المجتمع الجديد . ورغم أنه لم يكن مولعاً بلعب كرة القدم ولا لعب « الباسكتبول » ولا الكرة الطائرة ، إلا أنه كان مولعاً برياضة المشى والركض فأصاب منهما خيراً كثيراً . واستطاع بنبله وانضباطه وسلامة حديثه وعفته أن يكتسب صداقات واسعة وأن يحظى باحترام زملائه وتقديرهم . وقد لقى فى رحاب تلك الديار الحانية بعض زملاء كرام يشاركونه التمسك بقيم الأناقة ومظاهرها البهية ويبادلونه رقة الأحاسيس وصفاء الوجدان ، ويماثلونه فى رفعة الذوق ولين الجانب ولطف الطبع وطيب الاحدوثة . فنعم بمعرفة عبد الوهاب تميم الذى لم تخنه رقته وسلامة ذوقه أبداً حتى

عندما يتصدى لكبح جماح الممترين وايقافهم عند حدهم لا يطيق المماراة ولا يحتمل اللجاجة ولا يعجبه الخروج عن حدود الأدب واللياقة ، فيردع بضغث لا يؤذى ، ويمنع الافتئات بكلمات حاسمة غير أنها لا تجرح ولا تحرق . وذلك لأن عبد الوهاب تميم رقيق بطبعه ولكنه لا يحب « المسخرة » « وقلة القيمة » ، ولذلك أحبه عز الدين . ونعم بمعرفة الوليد شبيكة ، الذى كان يحرص على « أدبيات » الاناقة فى الملبس والمظهر والسلوك أشد من حرصه حتى على الدروس ومتابعة شروح معمياتها وغرائبها ، وكان يتميز برفعة الذو ق فى اصدار أحكامه على كل ما يطلب منه الافتاء فيه . وقد أوتى ملكة ردع بيانية فائقة ولكنها لم تخرج به أبداً من حصون قيمه التى ارتضاها لنفسه واندغمت فى جبلته اندغاماً . ومن عجب أن الوليد آثر أن ينتمى إلى اولاد « الكديت » فتدرب على يدى الصول عم يوسف أحسن تدريب ، وأعجب من ذلك أنه التحق من بعد ذلك بكلية البوليس . ولعل هذه الواقعة مما كان يحير عز الدين وعبد الوهاب تميم على السواء . فكيف يمكن لتلك النفس السمحة الرقيقة أن تألف لبس الكاكى والقبعة « والقلشين » ويطلب منها مطاردة عتاة المجرمين وأرباب السوابق ؟ وكيف يمكن لصاحب هذه النفس المسالمة أن يمشى بين الناس وقد شد على وسطه حزاماً بالغ الخشونة يتدلى منه على كل من جنبيه « جفير » غليظ يحتقب « طبنجة » موقرة بالرصاص ؟ فهذا أمر محير وهو لايشبه الوليد الرقيق فى شئ . ونعم عز الدين أيضاً بمعرفة فاروق معنى الذى كانت الأناقة بعضاً من خلائقه العذبة وفيضاً من محاسنه الموشاة بالألق والظرف والبهاء . يحمل بين أضلاعه قلباً حانياً نقى الأعطاف لا يضمر سوءاً ولايعرف الضغينة . سريرته مثل علانيته ، وقلبه من وراء لسانه . مسالم هين رشيق الكلمة والعبارة والخطى ، إلا فى ميدان الباسكبتول فانه يستحيل إلى مقاتل ، وتزدان أناقته بمظاهر القوة ، وتتحول خطاه الهادئة الناعمة إلى قفزات هادفة منغمة الايقاع ، لأنه لا يرضى دون الظفر الحاسم بديلاً لفريقه . ولذلك أحبه زملاؤه وعزروه ووقروه .. وحق لعز الدين عباس أن يفخر بصداقته وحق لعبد الوهاب تميم أن يباهى به ويجتبيه . ذلك

ثالوت علّمنا أن الذوق العالى بعض بضاعة أهل الود وأن الخلق السامى زين أناقة كل أحد ، فانظر كيف وفق عزّ الدين .

وأنا لست أحسب أن عز الدين عباس كان يكتب شعراً ، ولم أسمعه يتغنى أو يترنم به كثيراً . ولكنك إذا أبصرته يتأمل الخضرة فى ربوع تلك البقاع الكردفانية الحبيبة ، واسترقت إليه النظر – على غير انتباه منه – وهو يقف امام برك المياه الصافية خارج أسوار « العمارة » يتصفحها كما يقلب الانسان صفحات سفر من اسفار الأدب أو ديوان من دواوين الشعر ، لأيقنت أنك أمام فنان موهوب يختزن ريشته فى أعماقه ويبدع خطوطه وظلاله فى طروس وجدانه ولتغشاك شعور صادق بأنه يكتب الشعر فى دفاتر أحاسيسه بأقلام رقاق يغرسها فى مداد تلك الرمال الرطبة الناعمة غداة الطل والوبل والندى ، فتشرب الشعر وتنداح بقوافيه ، وتنهل الحسن وتنثر معانيه . ولم يكن عز الدين يألف سوى الهدوء فهو لايسرع فى شئ ، ولا يبطئ إلا بقدر ما يسمح له به وقته.إذا صلصل جرس « الصفرة » فهو لا يهرع اليها كما يفعل البعض وانما يمشى فى تؤدة ووقار . واذا الفى تجمعاً عند مدخلها فانه لا يعرف « المدافرة » ولا المعافسة ولا المكابسة ، وانما يأبى الزحام فيستأنى . واذا دخلها فان مقعده واحد لا يفارقه ولا يبدله . كذلك مقعده فى الفصل ، وسريره فى الداخلية ، وموقعه امام المسرح وحتى في قهوة عم عبد الجليل « ديك الجن » – مكانه واحد لا يبدله . إذا وجده مشغولا عاد من حيث أتى ونفسه راضية ، لأنه لا يعرف الشجار ولا يتحين أسبابه . ومع ذلك فقد سلم من مغبة الصغار « والحقارة » وظفر بقدر من الوقار عصمه من أن يجهل أو يجهل عليه . ومن عجب أنه سلم حتى من لسان محمد العوض مصطفى طيلة أعوام مدرسة امدرمان الاميرية الوسطى وأعوام خور طقت الثانوية . وذلك مغنم أيما مغنم . فما رأيت أحداً سلم من ذلك اللسان السليط سواه . ولقد كان عز الدين من السكينة والوقار والبهاء على أيام ام درمان الاميرية بحيث لم يظهر اسمه أبداً – على ما أذكر – ضمن قائمة « المهرجلين فى الفصل » التى كا ن الكبتل فى بعض الأحيان يحشدها

حشداً بين الحصص . ورغم أن عز الدين تعرض كغيره لبعض عقوبات الاساتذة ونال نصيبه الذى كتبه الله عليه من سوط عم مبارك إلا أنه كان يقابل كل ذلك بقناعة ورضا ولا يلعن ولا يسب أحداً كما كان يفعل غيره من شياطين التلاميذ .

ولقد كان من أقرب الناس وأحبهم اليه فى خور طقت عثمان زروق لأن عز الدين كان دقيقاً فى اصطفاء خلانه حريصاً على التناسق بين نظراتهم للامور ونظراته لها . فعثمان زروق تلميذ رقيق شديد الرقة مفرط الحساسية وهو فى ذات الوقت نظامى موفور الانضباط ، على خديه الشلوخ التى يسمونها الشلوخ السلم ولعلها نتاج حسن الفأل بأن من وسم بها يصعد ان شاء الله على سلم المراقى فى كافة شؤون حياته الدراسية والدينية والاجتماعية . وبعض السودانيين يسمون هذه الشلوخ « سلم الشيخ الطيب » تيمنا بهذا الشيخ العارف بالله وهو تيمن شائع بين أهالى منطقة الجزيرة المروية ولعله ذو أصول اعرق عند أهل الباوقة التى هى موطن عثمان زروق . ومهما يكن من أمر فقد وفق عز الدين أحسن توفيق فى اصطفائه لعثمان زروق واختصاصه اياه بهذا الاجتباء لأن عثمان مثل عز الدين يعشق النظام والنظافة والأناقة.والأناقة عنده – مثل ما هى عند عز الدين – تشمل جميع أوجه الحياة ولا تقتصر على حسن الهيئة والهندام . فهى أيضاً لباقة فى الحديث وطهر فى القول ونقاء فى السريرة والمقاصد واحترام للأقران وتبجيل للأساتيذ . وهى مع ذلك تواضع لا يرضى بالمذلة والهوان وعزة نفس لا تشتمل على الكبر والتعالى . وهذا هو جوهر خلائق عز الدين وجوهر خلائق صديقه الوفى عثمان زروق . وعثمان شاعر مثل عز الدين ، ولكنه مثله أيضاً لا يكتب الشعر وانما يسيل الشعر فى أعطافه وتتغنى به جوانحه وتعبق أزاهيره بالشذى فى تعامله مع الناس . ولطالما شهدت لهما ربوع خور طقت سياحات هادئة هانئة يتأملان خلالها جمال طبيعة تلك الامكنة وقد اكتست رمالها الوادعة ندى وخضرة وبهاء وامتلأت قيعان أوديتها المتناثرة فى أويقات الخريف ماءً ثجاجاً من سماء معطاءة حبلى بالغيوم وأسباب الرخاء . فاذا أبصرتهما امام احدى هذه البرك يتأملانها كدت

تجزم أنهما يتطارحان الشعر وتضج أحاسيسهما بالقوافى وأيقنت أنهما أمام ذات المشهد الذى أغرى أبا الطيب بأن يقول فيه :

لولاك لم اترك البحيرة والـ	غـورُ دفـيئٌ ومـاؤها شَـبِمُ
والموج مثل الفحول مزبدة	تهدر فيها ومابها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها	فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضر بها	جيشا وغى : هازم ومنهزم
كأنها فى نهارها قمر	حَفَّ به من جنانها ظُلَمُ
ناعمة الجسم لا عظام لها	لها بنات ومالَها رحم
يُبقر عنهنَّ بطنها أبداً	وما تشكَّى ومايسيل دم
تغنت الطير في جوانبها	وجادت الروضَ حولها الديم
فهى كماوِيَّةٍ مطوَّقةٍ	جُرِّد عنها غشاؤها الأدم

وقد يطول مكثهما أمام هذه المشاهد الاسرة وقد يقصر فيتحولان منه إلى مواقع آخر ويأنسان من بعده إلى ما يخالفه مرأى ويشاكله معنى ويشبهه بهاء منظر ولطافة ايحاء وعمق تأثير .فاذا قضيا من هذا التأمل الشاعرى فى سحر الطبيعة وطراً عادا ادراجهما سعيدين كل إلى عنبره فى الداخلية ، وطفق كل منهما يعد العدة لاستئناف القيام بواجبات الدرس والتحصيل . لقد وجد عز الدين فى عثمان زروق شاعراً مثله لا يكتب الشعر وانما تنطق به جميع أحاسيسه ، ولقى فيه نظامياً مثله محباً للأناقة تتسع معانيها فى افاقه اتساعاً حتى تشمل الكلمة تخرج من فمه وقد أحسن انتقاءها وأيقن بحسن وقعها على المسامع فليس فى حديثه جفاء وليس فى تعابيره نبوٌ أو غلظة أو فظاظة أو خروج عن الادب الرفيع والذوق السليم . وقد سرنى أن اعلم أن عز الدين وعثمان زروق لا يزالان حتى هذا اليوم على صلة متينة من الوداد والوفاء المتبادل على الرغم من مرور ما يقارب نصف القرن على تعارفهما وعلى الرغم مما يفصل بين داريهما من الفراسخ والأميال . ذلك هو مضمون الصلات الحميمة التى نشأت بين تلاميذ تلك الحقب القصية سواء كان ذلك فى امدرمان الامير ية الوسطى أو فى خور طقت الثانوية . فهى صلات نشأت لتبقى وتخلد وهى مودات ربطت بين فتية تلك الازمان

لتورق وتثمر مزيداً من المحبة والوفاء ولتصبح لمن يتأملها أو يسمع عنها ويجتليها مضرباً للامثال . لقد انتهى كل من فتية تلك الأزمنة الخوالد إلى ما يسره له الله وقضاه بمحكم تدبيره .منهم من صار طبيباً ومنهم من صار مهندساً ومنهم من راقته الجنديه أو العسكرية فأبلى فى الذود عن ثغور الوطن . ومنهم من تأثر بعطاء اساتذته الثر الامين فتقلّد شرف مهنة التدريس وتربت على يديه أجيال فقهت فى العلم وبصرت بطرائق المعارف والحياة . منهم من مضى إلى لقاء ربه مأسوفاً على فقده محمود السيرة مبكياً عليه بدموع الأسى والحرقة والعرفان . ومنهم من بقى يعطى بلاده بلا منّة ولاكدر ، يقابل عطاؤه المخلص العميم فى هذه الأزمنة الكالحة المجحفة بالانكار والجحود ، فلا يلاقى العنت والنكران إلاّ بمزيد من البذل والتضحيات وفاء للوطن وتعبيراً صادقاً عن المحبة والاخلاص لهذا التراب الطاهر وأهله الطيبين البسطاء .

لقد صار عز الدين عباس مهندساً ولكن مهنته لم تشغله عن وداد رفقة الصبا واخوة الحداثة إلا ريثما يتقنها اتقاناً ويبلى في مضمارها أحسن بلاء . فهو عز الدين عباس الذى عرفته منذ نعومة الأظفار - اذا التقيته فى حى الشهداء بام درمان – وهذا أمر يحدث فى بعض الأحايين – – سقطت من بيننا جدران السنين ، واشتمل علينا عناق ومصافحة وحديث طويل ، فطوفنا على تلك الربوع الزاهية التى جمعت بيننا فى وئام بقيت اواصره خالدة لا تزول ، وذكرنا كل من كان يألفنا فى تلك المواطن من رفقاء الصبا ، من مات منهم ومن بقى وفى خاطر كلينا قول شوقى يرحمه الله :

نعيش ونمضى فى عذاب كلذة .·. من العيش ، أو كلذة فى عذاب
ذهبنا من الأحلام كل مذهب .·. فلما انتهينا فُسِّرت بذهاب
وكل أخى عيش وان طال عيشه .·. تراب لعمرُ الموت وابنُ تراب

. وكلما التقيت عز الدين الفتيه في تواضعه المألوف ، فى البنطلون البسيط والقميص الأبيض ذى الأكمام ، والرأس المرفوعة تيها على جور الحياة وظلم ذوى القربى. والهندسة جوهرها النظام والنسق والأناقة والدقة والانضباط فلا عجب فى أن صار عز الدين مهندساً ، بل العجب أن يمشى مثله فقيراً بين الناس وهو الذى أعطى بلاده

عطاء المكثرين من البذل والإيثار :

متجنب الخيـــلاء إلا عـــزة .·. فى العز حسنٌ ليس فى الخيلاء
عف السرائر والملاحظ والخطى .·. نزه الخـــلائق طاهر الأهـــواء
متدرع صبر الكرام على الأذى .·. ان الكـرام مشاغـــل السفهاء

توتى ... وجزائر الأشراف :

كان ميرغنى على المحسى يختلف كثيراً عن عز الدين عباس وربما كان ميرغنى أكبر منه سناً بقليل . ولكنه كان عفريتاً لا يجارى بل « جنا » احمر قانى الحمرة . وإذا كان لا يفصل بين توتى التى هى موطن ميرغنى وبيت المال التى هى موطن عز الدين إلا النيل الخالد ثم عشرات من الخطى ، فان الذى كان يفصل بين عز الدين وميرغنى على بون شاسع ومحيط هائل من المفارقات . وذلك أن ميرغنى كـان تلـميذاً مشاغباً لا يهدأ له بال سواء ذلك فى داخل الفصل أو فى خارجه . وهو ان لم يكن « هراشاً» فانه « حراش » على اقل تقدير . ولو أنا استمعنا إلى نصائح ميرغنى التى كاد أن يقنعنا بجدواها فى وقت من الأوقات لو لا أن صبرنا عليها لبطشنا بالشيخ ابى بكر بطشاً ، ولطرحنا الاستاذ السبكى الجزولى أرضاً ، ولقذقنا الاستاذ محمود الضرير من النافذة ، ولحصبنا الاستاذ الحاج هاشم بالحجارة حصباً ولرجمناه بها رجماً ، ولأحزنا استاذنا « فرحا» حزنا ، ولا وقدنا فى وجه الاستاذ غزالى السراج سرجاً من نار عذاب . ولكننا قلبنا الامور واعملنا الفكر واستعصمنا بالحيطة ، بعد أن كدنا نركن إلى منطقة الذى يغلفه بحجج يطغى عليها غشاء الحماس والتهور . فميرغنى محب للهرجلة والصخب ، مجاهر بالتمرد وعصيان الأوامر ، كلف بخوض لجج المجهول دو ن تروٍّ وأناة ، مستخف بالعواقب والنتائج ، مستهين بما يمكن أن يجره عليه بعض سلوكه من متاعب . ورغم أنه كان محبوباً جداً بين زملائه إلا أنهم كانوا يخشون من توابع جرأته الزائدة ، ويتحاشون الانسياق وراء عناده وولعه بالمغامرة . وليس فى كل هذا من مأخذ عليه ولا تثريب ، فتلك كانت بعض سمات نفر غير قليل من تلاميذ ذلك الزمـــان ، غيــر أن ميرغنى كان يرتاد ما يرتاد من مداخل المحن ويلج ما يلج من دروب المأزق

وحيداً منفرداً دون حليف مأمون يستند عليه . ولو أنه تدبر أمره جيداً لهدى إلى معرفة حلفائه الطبيعيين ولخصّهم دون غيرهم بمحاولاتِ « التحريش » واتقان منطق الاقناع - عبد الكريم ومحجوب والكبتل ، وربما مكي برعي أيضا . ولكنه آثر الاَّ يعبأبهم كثيراً دون سواهم . وله في ذلك منطقه الذي ارتضاه وقناعته التي أخلد اليها ، وهو مخطئ في ذلك دون ريب إذ لم يأخذ في حسبانه حقائق الأمور وثوابت الواقع المعاش . وربما لم يهن عليه أن يدخل في حلف مع هؤلاء الأربعة الصناديد لأن ثلاثة منهم من أولاد ام درمان ورابعهم من قرية أبي عشر . وهم بهذا الوصف بعيدون عن تفهم أرائه وأفكاره ، عاجزون عن استيعاب روائع مخططاته ، لا يصلح أيٌ منهم حليفاً يرتجى إذا قضى المقدر وظهر أمر الله وهم كارهون . ففي نظر ميرغني أنك إن لم تكن من توتي فانك لا تأخذ بالحكمة ولا تؤتى ! وذلك أن ميرغني كان عظيم الفخر والاعتداد بجزيرته التي صمدت في وجه كل من أراد أن يجلي عنها أهلها ، وبقيت راكزة بين أذرع النيل الحانية تدفع عن نفسها جميع أسباب ما يسمى بالحضارة والتطوير ، وذلك لأنها - في نظر اهلها على اقل تقدير - جنة من جنان الأرض لايبغون عنها حولا. وقد صدحت بمعاني حسنها قيثارة التجاني الخالد إذ يقول :

يادرة حفها النيـ ل واحتواها البر
صحى الدجى وتغشا ك في الاسرة فجر
وصاح بين الربى الغـ ر عبقرى أغر
وطاف حولك ركب من الكراكي أغر
وراح ينفض عينيه من بني الأيك حر
فماج بالأيك عش وقام في العش دير
كم ذا تمازج فن على يديك وسحر
يخور ثور وتثغو شاة وتنهق حمر
والبهم تمرح والزر ع مونق مخضر
تجاوب اللحن والطحـ ن والثغاء المسر
وفي الضفاف أوز دكن الجوانح كثر

ولكن ربما فات على ميرغني أن من أراد أن يذهب مذهبه في الشيطنة والكيد العبثي البرئ للاستاتيذ ، وأحياناً للزملاء التلاميذ أيضاً ، فعليه أن يتخذ الدروع الواقية وأن يستند إلى ركن شديد . وماكان في فصلنا ذاك من ركن بشرى أشد من اهل الربع الخراب – عبد الكريم وجماعته . وهم رهط كبار النفوس رقاق الحواشي ، ثقال الخطى ... متئدون لا يسارعون ولا يتدافعون . لا يخطبون ودكء إن لم تبادرهم بالوداد ، غير أنهم لا يكرهونك على أمر من الامور ان لم يجد له في نفسك قبولاً ، ولا ينالونك بمكروه إن نأيت عنهم وكففت عنهم أذاك . واذا أحسوا منك تجاهلاً ظاهراً لثقلهم المؤثر فانهم لا يحفلون بأمرك أبداً ، ولايهبون بدافع مروءتهم القادرة لنجدتك ان ألمت بك مصائب الدنيا وداهمتك صروف الزمان ، وانما يقفون على البعد ، يرمقونك بنظرات تنطق بالرأفة والحنان وتكن قدراً من السخرية وعدم المبالاة . ولقد أشبعهم ميرغني بصلفه وكبريائه من ذلك وآثار في احاسيسهم شعوراً يقارب « الشماتة » ولا يكاد يبلغها ، فلطالما حمله عم عبد العزيز وعم محمود وأصلت عقبه سياط الاستاذ فرح والاستاذ الحاج هاشم نيراناً حارقة . فاذا صرخ لم ينفعه صراخه بشئ ، وانما أضاف لهم مادة جديدة للسخرية منه والأسى لحاله . واذا تلوى من الألم لم يشفع له تلوّيه عند الاستاذ ، فالجلدات العشر ستكون عشراً وان لم يبق منه رمق ، وانما انتقص ذلك في نظرهم من مصداقية تشدقه « بفرسنة » « التواتة » وثبات جنانهم في وجه المكروه . وعندما تنتهي أمثال هذه النوبة العقابية ويخرج التلاميذ لفسحة الفطور ، فاننا نتجمع حول ميرغني ونستمع اليه وهو يتوعد بسيل جارف من العبارات المزمجرة، ويلوح بقبضته في الهواء وكأنه ينازل « تنّيناً » اسطوري القدرات ! ويقف ركائز الربع الخراب بقضهم وقضيضهم على مقربة هي أدنى للبعد ، يرقبون ما يقول ومايأتي من حركات ، فيتبسمون في رضا ظاهر ويتغامزون في مكر خفي .. فهم يعلمون يقيناً أن ميرغني إنما يقدم الوعيد والثبور ويؤخر الانهزام والنكول ، يعلن الاقدام ويضمر التراجع ، يقول ولا يفعل . والفرق بينه وبينهم هو أنهم لايقولون ، وعندما يفعلون فانهم

يأتون بالممكن ويذرون ما يستحيل ويعجز ، ويحاذرون من المغالاة ، ولكنهم لايفرطون في شئ انما يبتغون بين ذلك سبيلاً . فلكل شئ عندهم حدود ، وعندهم أن «المجالس بالأمانات» ، ولكل حال مقال .. وهو لايقال حتى تستوفى شروط الأمان ، والا فى حضرة من يحفظ السر ولايبوح به فيفضح الأمر ، أو يشى به فيجلب عليهم سوء المآل . تلك هى حكمتهم الخالدة ، والتى أرادوا لميرغنى أن يتعلمها ويستمسك بها، ولكنه تنكب طريقها وفاتت عليه فأحزنهم ذلك . ولعل ميرغنى على كان من القلائل في فصلنا الذين تعرضوا لبطش الاستاذ محمود بلال رزق . فتلك « البشمة » التى كانت فى نظرنا مدرعة كاملة أو دبابة مجنزرة لم يكن أحد منا – بما فى ذلك الصقور – يملك الجرأة على المخاطرة بالوقوع تحت سلطانها القاهر . فاذا قال الاستاذ محمود بلال رزق : « هات البشمة » فاعلم أن الأمر قد بلغ أعلى درجات الخطورة وأن مايتلو ذلك القول سيكون ارهاباً مفزعاً وبلاء محيطاً لا قبل لأمثالنا به وإن اجتمعت لنصرتنا جزائر الدنيا بأجمعها وفى طليعتها جزيرة توتى ! وما أوقع ميرغنى تحت سوط العذاب ونيِّر البشمة » الا استهانته المفرطة بجسيمات الامور واستخفافه بنظرية الصقور الداعية إلى التدبر والأناة ، وجسارته الغالية التى غيبت عنه بغلوها حقائق الحياة وملامح الواقع فى كثير من الأحايين .

على أن ميرغنى على المحسى كان – رغم ذلك – تلميذاً محبوباً وفتى مرموقاً بين زملائه لأنه كان حاضر البديهة سريع النكتة وعلي قدر كبير من الاريحية والكرم . ورغم أن جسارته الزائدة التى هو مطبوع عليها قد جرت عليه كثيراً من المتاعب ، الا أنها كانت عند كثير منا موضع اعجاب واكبار ، لأن فيها ارضاء لغريزة حب الانتقام خاصة عندما يتعرض بعض التلاميذ لشئ من « البهدلة » على يد استاذ ولايرون لهذه « البهدلة » سبباً كافياً أو مبرراً شافياً . ولقد تركت حكايات اللَّبخ الزاخرة بالبطولات وقصص « كبس الجبة » الموقرة بأصناف المعجزات وغيرها من مغامرات ومغازى فتوات الأحياء والدساكر آثاراً بعيدة المدى فى وجدان التلاميذ ومخيلاتهم ، وولدت فى

نفوسهم اعجاباً بمعانى الصمود واظهار العناد ، وبخاصة عندما تكون هذه المواقف بغرض مواجهة مايحسبونه ظلماً لهم وهضماً جائراً لحقوقهم . وقد أضافت بعض أفلام السينما التى كنا نرتادها فى بعض الأحايين وبعض التمثيليات التى كان يقدمها بعض التلاميذ على خشبة مسرح المدرسة ذخيرة وافرة من المعارف والمعانى الجديدة التى تبصّر بطرائق مقارعة العدوان ! فمن منا لا يذكر فيلم عنتر وعبلة والتمثيليات المسرحية فى المدرسة ويكاد يحفظ عن ظهر قلب كل ما جادت به قريحة هذا البطل المغوار وهو يطلب النزال ولا يرضى بالهوان وينشد على رؤوس الأشهاد:

انا ابن سوداء الجبين كأنها	ذئب ترعرع فى نواحى المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة	والشعرمنها مثل حب الفلفل
لاتسقنى ماء الحياة بذلـــة	بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجـــهنم	وجـــهنم بالعـــز أطيب منزل

كلنا نذكر ذلك . نذكر بعضاً منه وقد عرض على شاشة السينما ، وبعضاً آخر وقد جرى على مسرح المدرسة ، وطائفة أخرى وقد احتوت عليها بعض دواوين الشعر . واذا كان القيام بدو ر عنترة يحتاج إلى بعض مؤهلات من قوة البنية ومظاهر شدة الباس فلا أقلّ من أن يعجب الانسان على البعد بهذه المواهب العنترية الأخاذة أوعلى الأقل بخفة روح « شيبوب » الذى كان رسول خير يحمل رسائل البطل إلى محبوبته ويعود اليه بطائفة من أخبارها تسعده أو تشقيه ، أو بالاخلاص وتفانى زياد الذى كان رسول قيس إلى أمه غداة تغنيه بأيادى الأمير . ولقد شهد مسرح مدرستنا الاميرية فى تلك السنوات الهانئة صولات لنا وجولات ونحن نحاول أن نضفى على اصواتنا الواناً من التغيير تقترب بها من نبرات الرجولة الراشدة وذلك حينما يحتدم الجدال بين البطل وغريمه وبين المحب المتيّم والعاذلين .

ورغم أن ميرغنى على المحسى لم يكن من بين من تصدوا لتمثيل تلك الادوار على مسرح المدرسة إلا أنه كان متشرباً بتلك المعانى حتى حد الرّى ، يتمثلها فى بعض علاقاته بالتلاميذ والاساتذة حتى ينسى نفسه وحقائق ما حوله فيغالى ويشتط فيجر

عليه هذا من الوبال ما هو فى غنى عنه . ولقد دعانى مرة لاصطحابه إلى توتى فلبيت الدعوة شاكراً وذهبت معه إلى هناك ، وبقيت فى ضيافته الكريمة وبين ظهرانى أهله الأفاضل ساعات طوالاً . فكان ترحابهم بحضورى وما ابدوه لى من مشاعر الوداد والاحتفاء أموراً لا تزال وضاءة فى ذاكرتى لا تنسى . ولقد أبدى لى ميرغنى فى تلك الهنيهات من الاعتزاز بجزيرته الصغيرة وبطولات أهلها ما أهاج فى نفسى كثيراً من الخيالات والمعانى والصور الرائعة لماض ما تزال آثاره وأصداؤه ماثلة للعيان والأسماع.

وقلت فى نفسى : إذا كان ميرغنى ابن جزيرة واحدة وهو ينسب اليها كل اقاصيص البطولات ونماذج التضحية والفداء ، فمن مبلغه أني انا ابن جزيرتين هما مهد لأرفع البطولات ؟ أولاهما جزيرة لبب (وماجاورها من جزائر الأشراف الأخرى) – وهى التى شهدت مولد الامام المهدى واخوته . والثانية هى الجزيرة أبا التى شهدت مولد الدعوة واندلاع الثورة التى غيرت وجه السودان وصنعت له اهم مفاخره وارفع أمجاده.

. وإلى الاولى اشارات كلمات التجانى الخالد :

في دجى مطبق ويوم دجوجى .·. وليل مقفقف مقـــرور
ولدت ثورة البلاد على أحضـا .·. ن كوخ وفى ذراعى فقيـر
عوذوا طفلها وصونوا فتاها .·. بجديد من الـرقى أو أثير!
واقرأوا حوله المعوذة الكبرى .·. وذروا عليه بعض الـذرور!
واعقدوا واكتبوا من الكلم العـ .·. ليا حفاظاً على النبى الصغير
وى هلم انظروا سياجاً من النو .·. ر على مهده الـوطئ الوثير !
وى هلم اسمعوا الملائك يعـز .·. فن بميلاده نشيد السـرور
باركوا الطفل فى القلوب وصلـ .·. وا فى المحاريب للعلى الكبير
ومشى فى الصبا قسيم المحيا .·. هيئت نفسه لكبرى الأمـور
واغتدى زاهد الشباب وصوفى .·. بنى قومـه ومصباح نـور
أيهذا « النبي » مرحى بمغـدا .·. ك إلينا أهلاً بلقيا البشـير
اصبح الغار تاج ملك وأضحت .·. مفرعات الفراء عـرش أمير
والنبى الصغير من بعد مازال .·. نبياً معظماً فى الصـدور

وصرت أتيه فى دخيلتى على ميرغنى ولا أرى فيما هو به مفتون إلا قطرة واحدة من محيط أمجاد هائل أنا غارق فى لجته تجرى فى عروقى بماؤه الدافئة الهادئة الصافية النقية . ولقد هممت بأن أبوح لصديقى ميرغنى بهذه الخواطر وما كان ينتابنى من أحاسيس فى هذه الصدد وأنا مُصغ إليه وهو يفاخر بجزيرته . ولكن كرم أهله واحتفاءهم بى واهتمامهم بأمرى - كل ذلك أخجلنى وعقد لسانى ، فقعد بى الحياء عن التصدى للمناكفة والمقارعة والمبارزة ، وتلك مداخلات وأنماط سلوك كانت سائدة بيننا فى تلك الأزمان . على أنى أسررت فى نفسى الاَّ أترك هذا الأمر يمر دون ايضاح ، وصممت على تأجيل المواجهة حتى أنهض بها فى ظروف أكثر مواتاة بالنسبة لى . وقد تم لى ذلك فيما بعد ، ومن حولى الصديقان الوفيان عبد الرحمن كنتباى والنفراوى . فما كان من ميرغنى إلا أن سلم لنا بالريادة فى هذه الآفاق على كره منه ومضض . والحق إن ميرغنى كان شديد الحرص على صداقة من يثق بهم من زملائه ، وقد كنت واحداً من قلائلهم . ولعله أحسَّ أن عبد الر حمن كنتباى والنفراوى يخفان لنصرتى عليه إن هو أضمر أو أعلن شراً . أو لعله قنع بأن « حواء والدة » وان هناك دنيا وعوالم أخر غير « توتى »، وأن هذه العوالم تحوى أيضا رصيداً حقيقياً من الأمجاد . أو لعله أثر السلامة ورضى من الغنيمة بالبر ، فابتعد عن المماراة وتخلى عن المكابرة وأعطى ذوى الحقوق حقوقهم، فدام فيما بيننا وبينه الصفاء والوداد . ولست أدرى إن كان ميرغنى قد أصاب من منهل « الأفكار الجديدة » فى أواخر ايام ام درمان الاميرية الوسطى ، ولكنى أذكر أنه كان من المعجبين بالتلميذ عبدالله عبيد ، بل كان هو معه في مقدمة مواكب التلامذة وهما يهتفان معاً ونحن نردد من ورائهما : « نحن نطالب بالرحلة »

فى تلك التظاهرة الشهيرة التى انتهت بجلد جميع الذين اشتركوا فيها وانذار أولياء أمورهم باحتمال فصلهم من المدرسة ان هم أقدموا على مثل هذه الاعمال الفوضوية التخريبية ! أما ميرغنى فقد لقى أضعاف مالقينا من عقاب . وانى لأظن ظناً راجحاً على غيره ان تلك الأويقات هى التى تلقى فيها ميرغنى اوليات الفكر الجديد ، وهى التى

بدأت تتخلق فى ذهنه خلالها بنيات أفكار رسمت طريق مسيرته الشبابية وحددت منهاجها فيما تلا تلك العهود من أزمان .

ذلك هو ميرغني على المحسى ابن جزيرة توتى الوفى الذى كان من أعز الأصدقاء ، معتد بنفسه فخور بأصوله ومنابته إذا لقيته بعد فراق تمعَّن فيك ملياً بعينين فاحصتين احداهما أصغر من الاخرى ، وقطب جبينه هنيهة ولم ينبس بكلمة . حتى اذا اجتمعت له بشاشته من كل أطرافها وأفاق هو نا مما عده مفاجاة له هش فى وجهك وتهللت أسايره ثم احتو شك بذراعيه وعانقك طويلاً فى حرارة ظاهرة وترحاب بليغ . فهو تلميذ وفى لصحابه دافئ الانفاس . ورغم ان بعض اقرانه كانوا يرمونه بالاندفا ع احياناً وبالحدة احياناً اخرى الا انه كان رجاعاً الى الحق ان هو تنكب طريقه اثر سورة غضب عارض ، وكان لا يستكنف ان يعتذر اذا بدر منه في حق احد ما يستوجب الاعتذار . وتلك شجاعة ربما خفيت حقيقتها على الناس في تلك الازمنة . وهى من مآثر ميرغنى التى اذكرها جلياً . ولقد التقيت ميرغنى بعد سنوات طوال وهو يعمل موظفاً فاذا به يذكر تلك الايام الزاهية ويحن اليها ، ويذكر اولاد الفصل ويسأل عنهم وعن أنبائهم في حرارة وصدق اشتياق . نعم كان ميرغنى على المحسى تلميذاً شقياً مثل كثير من زملائه ولكنه كان حقانياً اذا حصحص الحق وبانت له طرائقه ، وكان – حتى في تلك السنوات المبكرة – تلميذاً يمكن او يوصف بأنه عقلانى . ولقد حددت هذه العقلانية مسيرته فيما بعد كما علمت ، وانى لامل ان يكون قد اطلع علي وصف ابى العلاء للعقل بالعجز اذ يقول :

متى عُرض الحجا لله ضاقت مذاهبه عليه وان عرضنه

محمد المصطفي بلال ... وا لخيار الصعب :

الإلف من صفات البشر الطيبة وهو سجية يمتاز بها الطيبون . ومن هؤلاء محمد المصطفي بلال . فهو تلميذ طيب وألوف . ولطالما سرنا معاً في الطريق الي المدرسة وعدنا سوياً نخترق مجاهل « الصور » نحث الخطي فننتهبها انتهاباً، فان « الصور »

ما قد علمت وما استقر في الانفس والخواطر في تلك الازمان فهو مسكون وان لم يلقك فيه اثناء سيرك الحثيث بعاتي او شيطان رجيم .. فاذا اجتزنا قفاره هدأت خطانا وداخلنا شئ من الامان ، وتراخى سيرنا الذي كان حثيثا حتي نبلغ حي وداورو الآمن لنفترق بعده بقليل . فاذا جاوزنا شارع ابي روف الذي يمتد بين شاطئ النيل والسوق وصارت ساحة الشهداء عن يسارنا وحي الخنادقة عن اليمين افترقنا هناك ، ليعطف محمد يميناً تلقاء داره . ورغم ان محمدا كان أميل الي الصمت منه الي الثرثرة التي كانت بضاعة التلاميذ الرائجة الا أنه امتاز بروح فنان محب للجمال كلف بالابداع . فقد كان محمد يجيد الرسم ويحسن التعبير به عن ملكاته الفطرية الخفية . فهو فنان مطبوع وان لم يبلغ في ذلك - حسب تقييم بعض العارفين - شأو محمد عبد الله الشيخ ومراقيه . وكان يترنَّم ببعض الاغاني التي لم اكن أتبيَّنُها علي وجه التحديد ، ولكني كنت اعجب لرخامة صوته ويطربني اداؤه وتشجيني ألحانه العذاب . ولقد ادهشني ذلك حقا عندما استمعت اليه اول مرة وهو يؤاخي بين موجات صوته المرتفعة والمنخفضة في نسق موزون النبرات مرنان التوقيع . وذلك لان تقاطيع وجهه لا توحي لك بالرقة من اول وهلة . ولكنك اذا تعرفت عليه عن قرب ألفيت فتي رقيق الطباع دمث الخلائق مرهف الاحاسيس . وكم من مرة قلت في سريرتي إزاء هذا التباين البادي: « يضع سره في اضعف خلقه » او شيئاً من هذا القبيل . ولكن محمدا لم يكن يركن الي هذه الرقة وهذه الوداعة كثيراً ، وذلك لانه كان يدرك وسائل التفوق الاجتماعي بين التلاميذ في تلك الحقب والازمان الغابرة . فهو علي بصيرة من أمره ، يعلم ان هذه الوسائل علي اختلافها وتباينها وفي كثير من منعطفات الحياة المدرسية انما كانت تنبني في المكان الاول علي اظهار التفوق الجسماني وتأكيد شدة المراس وقوة البأس ، خصوصاً عند المنازعات حول الانتماء الكروي او التفاخر بامجاد الحي السكني او العرق ومنابت الاصول في بعض الاحايين القليلة . فانه يتعين عليك ان تجتهد في ابراز بطولات الفتوات في حيك السكني ابرازاً تدعمه الاسانيد التي تحدث الاثر المطلوب

وتعود عليك برفعة الشأن بين اقران لا يري اي واحد منهم ان ابطال حيه يقلون درجة عن ابي زيد الهلالي او عنتر بن شداد العبسي ! واهم من ذلك يتوجب عليك – ان كنت راغباً حقاً في الفوز بالاعجاب وعلو القدر بين الناس – ان تؤكد صلتك الوثيقة بهؤلاء الابطال والفتوات حتي يهابك الناس او يكفوا عنك شرورهم علي اقل تقدير . كان محمد المصطفي يدرك هذه الامور ، ولذلك لم يركن ابداً الي رقته المطبوعة ولا الي مقدراته الفنية العالية في مجال الرسم والغناء ، وانما تجاوز ذلك وآثر ان يتحدث بلغة العصر . ولما كان ذلك كذلك فقد زعم محمد مرة انه يعرف اللبخ معرفة شخصية ، وان اللبخ صديق حميم لاحد اقاربه ، فهو يستقي معلوماته عن هذا البطل الذي طبقت سمعته الافاق إما منه مباشرةً وكفاحاً واما من قريبه هذا الذي كان لا يفارق اللبخ في غدو ولا في رواح . ولقد ابان لنا محمد – بعد ان قدم هذه الاسانيد التي لاتحتاج لمزيد من الاستدلال علي صحتها – أن اللبخ يستطيع دخول اي بيت وفي اي لحظة بالقوة ، ويستطيع إجبار اهل ذلك البيت علي اعطائه ما يريد ، وأنه لايحمل في يده او جيوبه اي نوع من السلاح . يكفي انه اللبخ . فاذا زارك اللبخ فعين الحكمة ان تسلم دون اي محاولة للمقاومة فانك ان لم تفعل فلا سلامة لك ترجي ، ولن يحرك انسان ساكناً لنجدتك حتي وان كان عسكرياً يحمل مسدساً او بندقية وهو في زيه الرسمي ! وذلك لان اللبخ لا يأبه بأي قوة ولو كانت هي قوة السلاح ، فقد اوتي يداً مثل الكوريق وهي اقوي من « البلطة والعتلة » وأوتي ارتفاع قامة مثل الصهريج ، ورأساً أقوي وأعتي من صخرة سيزيف ، ورجلين هما أثبت في الارض من أعمدة الكهرباء ، لا قبل لأحد أو مجموعة ببأسهما الشديد . وحتي تكتمل الصورة في أذهاننا كما أراد لها محمد أن تكتمل وحتي نعلم مدي قربه من اللبخ ووثيق صلته به ، فقد زعم محمد أن البيت الوحيد الذي ظل آمناً في حيهم من صولات اللبخ هو بيتهم . ولك أن تتصور أي مدي بلغ أثر هذا الذي كان يرويه محمد في أذهان التلاميذ . غير أن محمد العوض مصطفي لا يدع مثل هذه الروايات المفزعة أن تلهيه عن هزله ومرحه الذي يتعشقه ويهرع اليه حتي في

أحرج الأوقات ، ولا تخونه بديهته الحاضرة ولا تفارقه روحه السمحة الهازلة الساخرة حتي وان كاد يصدق – من فرط تواتر الروايات وتنميقها بشتى صنوف الشواهد – أن اللبخ نفسه يوشك ان يطبق عليه ليخلع لسانه من بين فكيه . فقد همس في اذني – ونحن نستمع لقصص محمد المصطفي اللبخية مأخوذين اساري لقوة بيانه – قائلاً وهو يكاد ينفجر بالضحك لولا بقية حياء ومجاملة : ياخي هو داعاوز ليه لبخ ؟ يمكن يكون هو ذاتو اللبخ ! ولكنني حمدت الله ان محمد المصطفي لم يسمع ذلك الهمس ولم يتبين كلماته ، وان محمد العوض عاد من بعده الي الاطراق وقد تبددت في داخل فيه وحلقومه تلك الضحكة التي كانت تنذر بالانفجار وتوشك ان تتفرقع به لولا انه تحكم فيها بحكمته التي تحسن خلاصه من مثل هذه الورطات ، فلم يبق من اثارها علي وجهه إلا بسمة شاحبة سرعان ما أطبق عليها شفتيه وكأنه ابتلعها ابتلاعاً . وقد بلغني أن محمد المصطفي بلال كان أحياناً – وفي غيابي – يستعير أبا الدفاع وينسبه الي حيه ثم يروي عنه الاعاجيب ، ليزيد من أمجاد ذلك الحي الذي يقطنه ويباهي به الناس . فبعد أن يروي له من البطولات والمآثر ما تجود به مخيلته العامرة بشتي الصور واللوحات البديعة ، فانه يؤكد لمستمعيه أن أبا الدفاع لم يكن صاحب بسطة في الجسم وسطوة وقوة فحسب ، ولكنه الي جانب ذلك كان عالماً دراكاً واسع الاطلاع . وآية ذلك انه يجيد اللغة الانجليزية ويتحدثها بطلاقة الانجليز ويتفوق علي كثير منهم في ذلك ! وكان محمد ينطق كلمات انجليزية ينسبها الي ابي الدفاع ، فيضحك بعض الخبثاء بعيداً عن سمعه ونظره ويشيرون في مكر ودهاء الي خطأ في النطق او خطل في نسق العبارة ، بما توفر لهم من معرفة ربما فاتت علي محمد او نسيها وهو يروي ما يروي وقد اخذ منه الحماس والإنفعال كل مأخذ .

ومثل جل أولاد ام درمان كان محمد المصطفي بلال يجيد « الشعبطة » في الطرماج ، ويبرع في فنون الزوغان من الكمساري والمفتش علي السواء . وقد ظل يفاخر بهذه القدرات والمواهب الي أن كان ذلك الصباح الذي حاول فيه أن « ينزل

عكس » من الطرماج ، فزلت قدمه وانبطح علي قفاه ، وتبهدل حاله وانعركت جلابيته وعمامته في التراب ، واصيب في ركبته اليمنى « بظلطة » أدمتها حتي ظهرت آثار ذلك علي جلابيته بقعاً من الدم ، ولولا انه استجمع ذخيرة مراسه وخبراته السابقة ، فواتته يقظته ومعارفه بهذه الطرائق فسحب رجليه ويديه وكورهما علي جسده في سرعة فائقة لما استطاع ان ينجو بجسده كاملاً معافيً من عجلات الطرماج المجنون الذي كاد ان « يدهس » بعضاً من اطرافه علي القضيب . فقام –أو لعله أقيم – من وهدته وهو يحمد ربه علي السلامة فرحاً بالاذي « السلاخي » الذي اصاب ركبته . ورغم انه اتي الي المدرسة في تلك الهيئة المزرية إلا انه نجا ايضاً من تفتيش الطابور باعجوبة ، ولعله قرأ الاخلاص في سره مراراً ودعا بأدعية منجية فوافته الاجابة التي لا تخيب ولا تتخلف عن مستحقها عند الله . ولكنه لم يكن لينجو من عيون التلاميذ وفضولهم الذي يقود عادة في لحظة واحدة الي تأليف قصة كاملة متناسقة المراحل والفصول عما حدث بالضبط وعلي وجه الدقة في ذلك اليوم ، وهي كلها من نسيج الخيال . وهم يعلمون تماماً ان من اصعب الامور علي محمد المصطفي ان يعترف بالهزيمة في مغامراته الطرماجية ، لانه كان من قبل ذلك قد « فلق رؤوسهم » وصمَّ اذانهم « وشطب » ادمغتهم بما كان يرويه عليهم من فنون « الحرفنة » التي كان يدعيها والتي قل ان تجد لها مثيلا في مأثورات « الادب الطرماجي » المتناقلة بين التلاميذ . فلم يبق لمحمد بد من أن يأتيهم بمبرر معقول لهيئته الرثة التي أتى بها صباح ذلك اليوم الي المدرسة . ولم يبق هنالك معني لما كانت توحي به تلك الحالة المبهدلة المزرية التي كان عليها في ذلك الصباح إلا ان يكون قد اشتبك مع غريم له في معركة ضارية وخرج منها جريحاً معفر الثياب كسير الفؤاد . اما ان يكون السبب هو الطرماج واما ان يكون هو معركة لم يكتب له فيها النصر ، فماذا هو فاعل ياتري ؟ ولما كان هذان الخياران امرين احلاهما مر ، ولما كان الانهزام في معركة او شكلة يعد عيباً كبيراً ومنقصة ونكوصاً لا يغتفر ، وهو لا شك يقلل من شأن محمد بين اقرانه وربما دفعهم الي الاستهانة به ونسف – في

نظرهم – جميع الأمجاد التي حققها بأقاصيصه عن اللبخ ومعرفته الشخصية له عن قرب لا يمكن ان يحلم بمثله غيره من التلاميذ ، فقد آثر محمد ان يعترف بحقيقة الذي حدث بالفعل . نعم كان في هذا الاعتراف الذي أجبرته عليه الظروف حيث صعب الخيار وتعذر منقصة واضحة لانه كان كغيره من التلاميذ العفاريت كثيراً ما يروي عن مغامراته فى ركوب الطرماج بدون تذكرة والخروج منها جميعاً سالماً معافي ، رغم وجود المفتش والكمساري ورغم تعدد المحطات وطول مدة السفر . وكانت هذه السقطة دليلاً ساطعاً علي ان مقدراته الطرماجية لم تكن بالمستوي الرفيع الذي كان يفاخر به ويشيعه بين الناس . وهذا يعني ان مصطفي عابدين والفاضل شريف والتجاني الطاهر وابراهيم الامين ولفيف اخر من زملائه كانوا اشد مراساً منه واصلب عوداً في هذا الفن ، وانهم كانوا اثبت منه قدماً واعلي موهبة في هذا المضمار . ولكنه ادرك ان التنازل عن قمم الريادة في هذه الحلبة أهون بكثير من ان يسود القوم انطباع بأن محمداً قد لقي علقة واصاب عاراً من مجهول ، وانه انهزم امام هذا المجهول ، وهو امر بالطبع لم يحدث . ولكنه اذا ذهب الي انكار مثل هذا الحدث واصر علي رسوخ القدم في موهبة قدرات الركوب والزوغان والنزول الطرماجية فلابد له ان يقابل فضولهم وتساؤلهم عما حدث بإبداء سبب مقنع آخر لهذه البهدلة التي لقي بها زملاءه في ذلك الصباح النكد . وليس هنا لك من سبب آخر مقنع سوي معركة تكون قد انتهت بهزيمته هزيمة منكرة وربما بفراره من الميدان . ولذلك رأي محمد ان الحكمة تقتضي الاعتراف بما حدث حقيقة ، رغم ان مثل هذا الاعتراف الصريح يعني بالنسبة له التخلي النهائي عن اي دعاوي مستقبلية فيما يختص بالتفوق في مضمار البطولات الطرماجية . وذلك بالطبع خسران عليه مبين ، ولكن بعض الشر اهون من بعض .

لقد اسفت لهذه الورطة التي وقع فيها محمد وتمنيت لو كان في مقدوري ان اجد له مخرجاً يحفظ عليه دعواه في هذه المجالات التي لم يكن غرضه من الخوض فيها إلا مجاراة غيره حتي لا يتخلف عن مواقع الصدارة وحتي لا يتهم بالقصور عن التحدث

بلغة العصر واجادة مفرداتها . وذلك ان محمداً لم يكن في حقيقة أمره يحب الشيطنة والشفتنة بل كان مدفوعاً لهما او لمحاولة الاتصاف بهما تمشياً مع مفاهيم التلاميذ في تلك الايام . ولكن الامر الذي كان يميز محمداً ويطبع شخصيته ويبين عن حقيقتها التي هي عليها انما هو رقته وشفافيته ولين عريكته ، رغم ما كان يضطر لكي يباهي به من سطوة وجبروت وقندفة تماشياً مع منطق التفاضل السائد في اوساط تلاميذ تلك الازمنة . فهو في جوهره مطبوع علي الرقة والمسالمة ، وروحه روح فنان اصيل . ولو انه لم يسلك الطرائق المفضية الي التوظيف في اي حقل من حقول المعارف والتأهيل المهني ، لربما صار بلبلاً صيدحاً يشدو مع البلابل التي تطرب الاسماع وتبهج النفوس والقلوب . ولقد التقيته قبل فترة لا تتعدي العام الواحد وقد ارسل لحيته واطلق لها العنان ، فقلت في نفسي : لعل محمداً المهندس العالم وجد لصوته الرخيم رياضاً آمنة في تلاوة القرآن المجيد .

احمد بدر ... وتعاليم كبس الجبة :

اما القول بان احمد بدر كان تلميذاً مشاغباً اصلاً فهو حكم غير دقيق علي اقل تقدير ، وفيه من التجني عليه مالايرضاه الفهم السليم لدوافع التطبع بالشيم السائدة في مجتمع مدرسي يمور موراً ولا يكاد يستقر علي قرار . ولكن يمكن القول بأن احمد بدر كان يتبع بفطرته الحكمة القائلة : اذا كنت في روما فافعل ما يفعله اهل روما . فماذا كان بوسع احمد بدر ان يفعل غير التجاوب مع ما يفرضه عليه مجتمعه المدرسي ويغريه به ؟ إنه يجلس حيناً في الصف الامامي وحيناً آخر في الصف الذي يليه ، وهو في كلا الحالين – ولم يكن له من خيار ثالث – محاط بمجموعة متمرسة من العفاريت الحقيقيين – محمد العوض وهاشم مصطفي القرد والفاضل شريف الراعي . وهذا ثالوث ان سلطه الله عليك صار كالمعقبات من خلفك ، وهو ثالوث انفق الكبتل علي كتابة اسماء افراده علي السبورة اكواماً من الطباشير حتي تآكلت « البشاورة » من تعاقب المحو والاثبات واصبحت خرقة بالية . وكاد سوط عم مبارك ان ينطق معلناً برمه

بهم لكثرة ما تعرضوا للسعاته دون ان ينال ذلك من تعاظم شقاوتهم فتيلا . وكاد عم محمود وعم عبد العزيز وعم جادين ان يعطوا تقييماً دقيقاً لاوزان اجسادهم الي درجة جزيئات الوقية من كثرة ماحملوهم وبطحوهم علي الهواء تلقاء كرابيج الاستاذ الحاج هاشم المنتظمة . فكيف يمكن لاحمد بدر ان ينجو من تأثير هذا الثالوث الذي يحيط به بين جدران الفصل ولا يتركه لشأنه حتي خارج هذه الجدران ؟ والحق ان احمد بدر كان بطبعه تلميذا وديعاً موادعاً حسن المظهر صبيح الوجه مشرق المحيا . ولقد حاول في اول امره ان يحافظ علي هذه الوداعة ، وان يجتنب كل ما يكدر عليه صفوها او يسمها بما لا يلائمها ولا يتسق معها من انماط سلوك والوان تطبع . وظل يقاوم نوازع الشر يدفعها عن نفسه دفعاً بكل ما أوتي من مقدرات علي الصمود وتصميم علي البقاء بعيداً عن مؤثرات هذا الثالوث التي طفقت تحاصره حصاراً وتغريه بالركون اليها اغراء . وهو بالفعل قد ادار اليهم ظهره في غير مامرة ، وكاد انه يفلح في الافلات من قبضتهم العبثية الماكرة ، واتي عليه حين من الدهر وهو يظن انه قد نجا تماماً بوداعته من هذه الشراك المنصوبة . ولكنهم لم يتركوه وشأنه أبداً ، بل ما زالوا به يلا طفونه ويغرونه بفلسفتهم العبثية واحابيلهم الفوضوية الهرجلية حتي راضوه ابرع رياضة ، وانقاد لهم اسلس انقياد وقرر في نهاية المطاف ان يصير بعضاً من ملتهم بعد ان حسبنا ان الله قد نجاه منها . وبعد ان لانت لهم قنانته توثقت عرى صلاتهم به«

واخلد هو نفسه في نهاية الامر – لا بفطرته هذه المرة ولكن تحولا مع الحال المعاش – الي حكمة اخري تقول :« إذا لم تستطع ان تهزمهم فلتنضم اليهم » . هكذا فعل احمد بدر ، وهو في حقيقة الامر مغلوب علي امره حيران لا يدري بصورة قاطعة ماهو الصواب الحقيقي في هذا المنعطف . فلما صار الي ما صار إليه وأصبح ظله رابعاً لظل ذي ثلاث شعب (لا ظليل ولا يغني من اللهب) بدأ اسمه يظهر علي السبورة في عداد المهرجلين في الفصل وأحياناً في طليعتهم ، فينال ما شاء الله له من عقاب . ولقد ادرك احمد بأخرة – وكان ذلك غائباً عنه في اوائل عهده « بالمسخة » و« الطمسة »

التي سيق اليها سوقاً ودفع اليها دفعاً – ان دهاقنة الفوضي واساطين الهرجلة كانوا يلبسون لكل حال لبوسها ، ويعدون لكل امر عدته فيتمنطقون باللبد الواقية من الم السياط . وادرك ايضاً انه – بعد ان صار اسمه كثير الظهور علي السبورة – قد وجب عليه ان يتمنطق بمثل ما به يتمنطقون وان « يتلبد » بمثل ما به « يتلبدون » . واعجبه ذلك وسره حتي كاد ان يظن انه اصبح فتوة ، وانه يستطيع ان يتعرض لاي « بطان » فـــي اي « سيرة » في حي الهاشماب لولا ان ذكره احد العقلاء من هذا الثالوث الغاوي بأن وقع السوط علي عقب ملبد غير وقع السوط علي ظهر عار تماماً ، وان المغالاة في اظهار الشجاعة دون تدبر للامور وادراك لدقائق الاشياء لا تعقب الاخسراناً وبيلا وفضيحة تتناقلها الافواه خاصة اذا كان مسرح الاحداث « سباتة » والملأ المحيط نساء وفتيات ، وفي يد العريس سوط ذو لسانين . فاستمع احمد لنصيحته وارتدع وكف عن التعلق بأماني الشهرة وذيوع الصيت علي نطاق الحلة ، واكتفي باعلان صموده في وجه سياط المدرسة وهو يعلم انها انما تقع علي بعد واق من لحم العقب . ولذلك كان بعض الاساتذة يندهشون لكثرة تعرضه للعقاب ولرباطة جاشه – رغم ذلك – تحت لسع السياط . ولما ادركوا السر الحقيقي وراء ذلك تغاضوا عن الامر كله تماماً كما كانوا يفعلون مع غيره من التلاميذ .

لقد كان احمد بدر في اول امره تلميذاً يمكن ان يطلق عليه صفة المسكنة ، لا بمعني الفلس فما كان ابعده من ذلك ! ولكن بمعني الطيبة او قل بمعني السذاجة الفطرية . تلك كانت هي طبيعته ، وتلك كانت هي سمته التي جذبت اليه بعض الطيبين من امثال محمد عبد الله الشيخ واحمد الحبيب حسين وأغرت به بعض الخبثاء ومن بينهم ذلك الثالوث الماكر الذي سلفت الاشارة اليه . وكانت هي عين السمة التي جعلت اهل الربع الخراب وبعض الصناديد الآخرين يعجبون لحاله عجباً هو اقرب الي العطف عليه منه الي الزراية به والسخرية منه . غير ان احمد بدر كان تلميذاً ذكياً علي الرغم من مظاهر المسكنة التي لاحظها عليه الناس في اول عهده بالمدرسة . فسرعان ما ادرك

ان الذى يود ان يعاشر الصقور ويتعامل معهم بفعالية يقترب بها من الندية وما يشبه المساواة لا بد له من ان يمتلك او ينمي مخالباً غلاظاً حداداً شداداً ، وان يصطنع او يستصحب اجنحة ضخاماً مشرعات (ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن) . وان من يود ان يتعايش مع الذين وقعوا من السماء مائة مرة لابد له من ان يصعد الى السماء ويقع منها عشرات المرات ، بشرط ان ينهض من كل وقعة من هذه الوقعات سالماً موفور الحيوية . وذلك لأن الصقور لا تعبأ ببغاث الطير ، وقد تغرس فى لحمها مخالبها او تغطى عنها الفضاء وتمنع عنها الهواء بريش اجنحتها المترامية العظام . وان الذين وقعوا من السماء الى الارض مائة مرة ثم قاموا فى كل مرة من هذه المرات وانقلبوا لم يمسسهم سوء هم الذين يعرفون دروب السماء والارض . لقد ادرك احمد بدر كل هذه الحقائق بذكائه وفطنته ، وقرر امتثالاً للضروة وتمشياً مع الظروف المحيطة ان يتحول من ملاك مسالم وديع الى (شيطان) مشاكس مشاغب نشط . كيف وهو من العباسية ، او قل حي الهاشماب ، غير بعيد من الموردة ، تدوى فى مسامعه وفى الافاق وتجرى امام بصره واعين الناس انباء ومشاهد بطولات « كبس الجبة » وخوارقه، وبسالات فتية الخور الذى يربض ساكناً وهم «منبطحون» على ترابه قرب نادى الموردة ؟ وربما رافقه فى دربه الى المدرسة والعودة منها على ذات الطريق كل من محمد العوض مصطفى ومحمد الحسن الشايقى وهاشم مصطفى القرد . وكل من هؤلاء الثلاثة اذا حدثك عن « كبس الجبة » وفتية الخور استمعت منه للاعاجيب وابلغك مما يرويه عليك أشباه الاساطير . وهو يستطيع ان يقنعك فى بساطة وسهولة وبالشواهد والاسانيد المقنعة ان «كبس» لا يعجزه ان يفلق باب السنط ببنية واحدة الى نصفين ، وان «بنيته» اذا صحت القبضة وتمكنت من الباب يمكنها ان تفتته الى شظايا متناثرة بضربة واحدة ، وانه يستطيع ان يتلقى الف طوبة من الطوب الاحمر الصلب برأسه الاصلب ، الواحدة تلو الأخرى ، فتنشطر كل واحدة الى شطرين وتنفلق الى نصفين وقد تتناثر الى قطع صغيرة ، دون ان يصاب درأسه بأذى ودون أن

يعتريه الم ، ودون ان يلقي من ذلك ادني رهق. وهم الذين وصفوا له بدقة شاهد العيان كيف ان كبس الجبة يستطيع وحده دون عون احد ان « يفرتق اللعبات » وان يحيل سامر الاعراس الي ثلل صغيرة متفرقة والي ملأ شتيت الشمل من النسوة الفرقات والصبية والرجال المفزوعين . ولقد كانت هذه « الفرتقة » التي تفرد بها « كبس الجبة » تعد من البطولات النادرة . ولكن شتان ما بينها وبين « الفرتقة » التي اشتهر بها « بقة عقود السم » ! فتلك قد خلدتها شاعرة القوم اذا تقول عنها وعن « مقنع بنات جعل العزاز من جم » :

الخيل عركسن ما قال عدادن كم

فرتاق حافلن ملاي سروجـن دم

ولو علم احمد بدر او الم بهذه المعاني لامتدت امام ناظريه آفاق مضيئة رحاب وتغيرت نظرته للامور . وهو قد استمع طويلا الي اقاصيص الفاضل شريف عن حوش الجمال في ود نوباوي وعن « المسرّح » معقل الشياطين والمردة والبعاعيت ، وعن طرائف ومغامرات موسي ود نفاش ، ودارت رأسه كثيرا مع حكايات اللبخ وابي الدفاع وشمشون وبلة الاحمراني وغيرهم من المردة الادميين وغير الادميين ، فاختار لنفسه ان ينضو عن نفسه آثار المسكنة ويغادر طائعاً مختاراً عالم السذاجة والطيبة ، ليرتاد افاق الشفتنة والقندفة حتي يحتل من نفوس زملائه مكانة مرموقة ترفع من قدره في انظارهم وتعلي من شأنه بين ظهرانيهم . ويمكن القول بأن احمد بدر قد نجح في ذلك نجاحاًمرموقاً وأبلى بلاءً مشهوداً ، وان كان الثمن الذي دفعه من اجل ذلك غالياً بعض الشئ . وذلك ان مغالاته في التخلق بأمثال هذه الخلائق والتحقق بأشباه هذه الملكات قد جرته وجرفته في احايين كثيرة الي شجارات عنيفة ، وكاد بعض صقور فصل الاوائل ان يفقأوا إحدي عينيه لولا ان تداركته العناية الالهية فأرسلت الي نجدته كاتب هذه السطور والامير عبد الرحمن كنتباي وعبد الحميد عباس . فكان ما كان من عراك وثار ماثار من نقع قوامه الحصي والتراب ، وتبودل ما تبودل من صياح وسباب ووعيد

فخرج احمد من تلك الواقعة الحامية سليماً معافي لم يزد الأذي الذى أصابه عن « كندكة » وجهه الوسيم بالتراب ، وتعفير عمامته الناصعة البياض بأوشاب الارض وطين الجدول ، واستحالة جلابيته النظيفة المكوية الي خرقة هي اقرب الي «المعراكة » من اي شئ آخر .. ثم اصابته « بظلطة » او قل خدشة طفيفة فوق حاجب عينه اليمني.
وكان كل هذا الذي حدث ثمناً زهيداً للسلامة التي آب بها احمد من ذلك المعترك الخطير . ولقد حفظ لنا احمد ذلك الجميل الذي أوليناه اياه ، واكبر فينا تلك المروءة التي حدت بنا الي الاسراع لنجدته دون تهاون او ابطاء من قبل ان يصبح « ملطشة » امام المعتدين تتقاذفه الايدي او « تيوة » هملاً تحت ارجل العتاة تتعاوره وتتراكله وتتشاوته الاقدام .

ومنذ تلك الواقعة الي تعرض لها احمد بدر ونتيجة لوقوفنا الي جانبه بكل ما اوتينا من قوة ، واستنقاذنا له من براثن الاعداء ، توثقت فيما بيننا وبينه عري المودة واسباب الصفاء . واذا كان احمد قد خرح من تلك المعمعة بما لايؤبه به من الاذي الذي ذكرنا ، فان كل واحد منا نحن الثلاثة قد باء بعد انجلاء العراك بما هو اشد وادهي . ولكننا تحملنا ما اصابنا في جلد وكبرياء ، وكان عزاؤنا ان الناس شهدوا لنا بفضل المروءة وحيازة الظفر والانتصار . ولو كان صقور فصلنا حضوراً لا نحسمت نتيجة المعركة التي طال علينا مداها في لحظات . ومهما يكن من امر فان احمد بدر صار بعد تلك الواقعة من اخلص الخلصاء بالنسبة لثلاثتنا . واستمع بوعي وادراك الي نصائح عبد الرحمن كنتباي الذي امده بالاركان الاساسية لفلسفته الخاصة التي ارتضاها لنفسه . وهي في حقيقتها استراتيجية واقعية متكاملة تدعو الي الاقدام واقتحام الاهوال واطِّراح التهاون عندما تكون مؤخرتك موفورة الحماية ، وتنهي عن النكوص والتقاعس اذا كان الخصم المناوئ وحيداً ، وتوحي بارتياد دروب السلامة اذا كان اساتذة بعينهم يرقبون علي البعد ما يجري بينك وبين غيرك من مقدمات العراك . ولقد افاد احمد بدر كثيراً من هذه الفلسفة التي كان يبشر بها عبد الرحمن كنتباي في ملأ محدود من

اصـفيـائه ، ولكن احـمـد كان احـيـاناً يخلط الامـور وتشـتـبه عليـه البنود وتنبـهم عليـه التفاصيل ، فيقدم حينما يكون الاقدام تهلكة صريحة ، ويدبر حينما يكون الادبار عاراً ومثلبة تلوكها بعض الالسن الخبيثة . ورغم ان نصيحة عبد الرحمن كنتباي كان مجالها التـعـامل مع التـلامـيذ إلا ان احـمـد بدر قد ظن أنهـا فلسـفـة تصلح في كل الاحـوال وتناسب جميع الظروف . ولعله نسي نفسه حين حاول استخدامها مع الشيخ ابي بكر والاستاذ الحاج هاشم ، فذاق وبال امره .

هكذا تحـول احـمـد بدر الوديع الهـادئ الي عفـريت يعمل له الناس الف حسـاب . ولكنه كان في حقيقة أمره تلميذاً فطناً اصل خلقه الوداعة ، يعرف ذلك فيه من تعامل معه عن قرب . بل هو كان في بادئ أمره لا يخـاشن حتي من خاشنه من زملائه . فلما كثرت عليه المخاشنات واراد ان يعيش في ذلك الوسط مرفوع الرأس أبياً للضيم ، خلع عن نفسـه مظاهر الهدوء ونضا عنها ثياب المسالمة ، واعتمد جدوي حكمة الهجوم من اجل الدفـاع . ولكن حسناً فـعل في النهـاية باسـتيـعابه لجـوهر فلسـفـة عـبد الرحـمن كنتبـاي ، فنجا من شرور ووقع في آخر ، وهذا هو حال الدنيا مـهما كانت درجة يقظتك ورجاحة عقلك . ولو انه استمع الي نصائح عبد الحميد التي كانت تحث علي الاستهانة بكل احد وارتفاع العجيرة في كل منعطف لتكاثرت عليه الهزائم ولتوالت عليه النكبات . وذلك لان عبد الحميد كان يعرف ويتقن التوقيت المطلوب في الظروف الملائمة لما يدعو له ويحث عليه ، بينما كان احمد يتعلم ذلك ويستجلي اسرار مراحله واغوارها ، وشتان ما بين عالم ومتعلم ، وما بين بصير ومستبصر وخبير ومستخبر .

أبو السباع ... والصداع والمغص :

علي نـقيض الكثـيرين من اولاد فـصلنا في الانفـتـاح علي بعـضـهم البـعض وعلي المجتمع المدرسي الصـاخب عموماً كان اسماعيل عبد الصادق ابو السباع . وليس ذلك لأنه كان منغلقاً علي نفسه هائماً بها بعيداً عن غيره مستغنياً بعالمه عن عالم الناس ، ولكن لأنه كان صاحب اولويات مرتبة ومنتظمة ، يأتي في مقدمتها الاقبال علي الدروس

ثم الاهتمام بالدروس ، ثم اعادة الاهتمام بها .. ويأتي ما سوي ذلك في مؤخرة القائمة . وذلك أن أبا السباع لايولي اي قدر من الاهتمام يذكر لما يمكن ان يلهيه عن منادمة الكتب و« مصاقرة » الكراسات ومحاولة تجرع جميع محتوياتها وان غص بذلك او شرق او عاني من سوء الهضم المعارفي او تقلصات الذاكرة المتخمة . كنت القاه احياناً فى الصباح الباكر علي درب « الصور » ونحن نولي وجوهنا شطر المدرسة مسرعين اذا اقترب ميعاد جرس الطابور او متئدين اذا كان في الوقت متسع . ولكن حاله كانت واحدة لا تتغير ، فهو دوماً مسرع مهموم قلق يبدو وكأنه يحمل اثقالا علي اثقال . ولم يكن في ذلك من عجب . فالذي يعرف اسماعيل لا يشك لحظة في انه يكاد يكون التلميذ الوحيد الذي آلي علي نفسه ان يهب وقته كله للدروس والتحصيل . ولقد حاول كثير من زملائه ان يصرفوه عن هذه الرهبنة بعض الشئ ولكن دون جدوي . فهو يعرف رسالته كتلميذ معرفة جيدة ويود ان يؤديها علي اتم الوجوه وأكملها . ومن كان هذا شأنه وتلك قناعته فليس من بين بنود اجندة يومه ما يسمي اي مواضيع أخري . فالموضوع عنده واحد ، لا ثاني له ولا ثالث ، وهو لايتبدل ولايتغير ولو تبدلت الارض غير الارض وتغيرت السماء غير السماء . فهو لا يهتم اي اهتمام ظاهر بأخبار الفرق الرياضية ، ويصعب عليك ان انت انصفت ان تصنفه بين مؤيدى هذا الفريق او ذلك . واذا كان ابو السباع يخافت احياناً – وقد يجاهر فيما ندر – بعواطف هلالابية فان ذلك يعزي الي استشعاره شيئاً من الحرج في بعض الاوقات ، والي محاولة تاكيد ما يشبه الحضور في إطار الغيبة الحقيقية ، والتعلق بحسنة الالمام من كل فن بطرف وان كان الطرف الذي اشتهر هو بالتعلق به واحداً لا ثاني له ، والي التحلي بمكارم المجاملة والتوشي بدثارات محاسن العصر . فمن محاسن ذلك العصر ومن تمامها التشيع للفرق الرياضية ومعرفة اسماء نجوم الكرة ولاعبي فرق الدرجة الثانية وربما معرفة انسابهم وتفاصيل حياتهم اليومية . وقد كان ابو السباع في شغل شاغل عن كل ذلك ، واذا كان لا بد له من معايشة الناس والاحداث حتي لا يوغل في مجاهل الغربة ويتهم بالخروج

علي الجماعة ، فلا اقل من ان يتمسك بالعموميات ويفصح ولو علي فترات متباعدة بملاحظات تكسبه بعض ملامح العصر وتجعله علي مقربة من قضاياه الملحّة بالنسبة للتلاميذ . ولكن مادته في هذا المجال لم تكن كافية وليس له من سبيل الي مثل هذه الكفاية لأن الكتب والكراسات لا تشتمل عليها ، ولأن الحصول عليها يتطلب ارتياد الاندية الرياضية والتعرف علي اسماء اللاعبين ، والاختلاف إلى دار الرياضة بصورة شبه منتظمة ، الامر الذي يحتاج الي انفاق الوقت والمال . والوقت عند اسماعيل عبد الصادق كالسيف ان لم تقطعه في الدروس دون غيرها قطعك ، والمال امره افدح واشق . وهذا الاقرار الاخير لاينطبق علي اسماعيل وحده وانما يشمل جميع التلاميذ . ولكنهم - ولتعلقهم بالمعارف الكروية العصرية - احسنوا اصطناع البدائل واتقنوا الالتفاف من حول هذه العقبة (الكأداء) . فزيارة اندية الفرق الرياضية لا تحتاج الي اكثر من انفاق الوقت ، والوقت عند كثير منهم ليس سيفاً ولا هو من ذهب . ودخول دار الرياضة ممكن وان لم يكن في جيب جلابيتك « ابو النوم » وذلك لان ابواب دار الرياضة تفتح علي مصاريعها قبل انتهاء المباراة بخمس او سبع دقائق ، فينهمر الي داخلها اشباه سيل العرم من الموجات البشرية . غير ان بعض « الشفوت » لا يسعهم الانتظار حتي تحين هذه اللحظات وانما « يتشعبطون » ويتسلقون جدران دار الرياضة العالية كما تتسلق القرود سوامق الاشجار لا يعبأون « بالسوارة » الذين يحملون الكرابيج وهم علي صهوات الخيول . لقد كان ابو السباع بعيداً عن كل هذا بعد الشمس ان يؤتي بها من المغرب . ولكنه يريد ان يكون في الصورة ليس خارجاً من اطارها ، ولذلك فهو يعبر احياناً عن عواطف هلالابية . غير اني لا استبعد ان ينكرها ويتملص منها اذا وجد نفسه بين ظهراني وسط مريخابي . ولست ارتاب في انه سينقلب عليها تماماً ويتنصلّ منها ويتبرأ إن تجمع من حوله او احاط به من يوقن انهم مورداب !

فعند اسماعيل حاسة سادسة قادرة علي التقاط ادق الاشارات من اجواف الاثير

تنبئه بالخطر قبل وقوعه ، وعنده كشافة خفية تسير أمام قدميه كأنها رادار متحرك تنبهه خلال وقت كاف الي وجود اي حفرة توشك قدمـــه ان تـزل به ليسقط فيها ... فيتحاشاها ويتجنبها في اللحظة المناسبة . وليس معني هذا ان اسماعيل عبد الصادق لم يسقط ابداً في حفرة من الحفر ، بل هو كثيراً ما فعل ، وذلك عندما تتكاثر عليه الحفر وتلتوي عليه طرائق السير وتزدحم حاسته السادسة بجيوش المخاطر وفيالق الشكوك والاوهام ، وينعطب جهازه الراداري من شدة احتشاده بالاشارات المتناقضة المتتابعة . فعند ذلك تصبح النجاة من إحدي الحفر هي عين العدول الي سواها والوقوع في غيرها . إلا أن رحمة الله واسعة وفضله علي عباده جزيل ونعمه تعالي لاتحصي . فقد يكون الوقوع في حفرة نجاة بالمقارنة لما يمكن ان يكون ، وسلامة من الوقوع في غيابة الجب او غياهب ما هو اعمق منه واشد تنكيلا . لقد قلنا ان اسماعيل كان دائماً يبدو مهموماً رغم انه يستذكر دروسه باجتهاد ومثابرة وعزيمة قل ان تجد لها مثيلاً بين اقرانه . ولست ادري ان كان محقاً في حمل اثقال هذه الهموم علي الدوام . ولكنه كان يحملها في قلبه وكنا نقرأ اثارها علي وجهه . فاذا ذكرت له الاستاذ غزالي السراج امتقع لون وجهه وارتعدت فرائصه وانحبس عنه النطق والكلام . واذاحدثته عن الاستاذ فرح غامت في وجهه الابتسامة وعلا محياه الكدر . واذا القيت علي مسامعه اسم الاستاذ الحاج هاشم اوشك ان يرتد عائداً وان يولي علي ادباره نفوراً . فهو لا يتوقع من اي منهم خيراً و لا يرتجي من احد منهم جزءاً من قطمير . ولكنك اذا حدثته عن الشيخ ابي بكر فانك ملاق عجباً وظافر بغريبة . وذلك ان الحديث عن الشيخ ابي بكر لا يستثير في نفسه المخاوف ولا يبلغ به حافة الفزع . بل هو لايزيد على ان يتبسم في شئ من الرضا وتلوح علي وجهه علامات القبول . وذلك ان النكال الموعود المرتبط باسم الشيخ والذي لا مهرب منه ولا منجاة انما هو امر مجرب كثير الحدوث ، تقلل من آلامه وتباريحه خفة دم الشيخ وغرائب حركاته البهلوانية التي تجلب الضحك من معادنه، وتدافع الفاظه المنتقاة التي تفرد بها قاموسه ، حتي صار هذا الخليط المتباين

من الاقوال والافعال يشكل مادة حية وغزيرة لمجالس انس التلاميذ وتعليقاتهم واستنباطاتهم في اوقات الفراغ . تلك كانت هي الحلبة التي كان ابو السباع لا يستنكف ان يجود ببعض وقته للمشاركة فيها ، وقد حمد له زملاؤه هذا الجود وأكبروه فيه .

ولا يظنَّن أحد ان اسماعيل عبد الصادق يقل فطنة وذكاء عن الاخرين . فهو تلميذ ذكي دون ريب . ولكنه – ولسبب لانعلمه ولم نجرؤ علي استنبائه عن حقيقته – قد اقنع نفسه وحملها علي الاعتقاد بأن ميدان ممارسة الذكاء هو خارج جدران الفصل . اما في داخل هذه الجدران فان المطلوب هو رد البضاعة الي اهلها كاملة غير منقوصة ، ولذلك فليكن الاعتماد علي الذاكرة بمعني الحفظ دون سواه . ومعلوم ان مثل هذا الحفظ قد ينفع في بعض الامور وبعض النصوص والدروس ، ولكنه قد يخذلك في غيرها خذلاناً مبيناً ، وقد يبين عن رخاوة في الاستمساك بلب المواضيع وجوهر القضايا وعن قصور وعجز عن الاستيعاب الوافي . فلا بد من الجمع بين الامرين سواء كان ذلك داخل جدران الفصل او خارجها لانك لا تستطيع ان توقظ بعض مراكز الدماغ وتنيم او تعطل بعضها الآخر ، وان عمدت الي ذلك عمداً وقصدت اليه قصداً وابتغيت إليه أكثر من سبيل . فهذه أمور تصعب السيطرة عليها بالارادة الواعية لأن مراكز الدماغ علي اختلاف وظائفها انما تشكل في مجموعها وحدة متماسكة متناسقة . ولأن تجتهد ما وسعك الاجتهاد ثم تبقى على مقدمة دماغك فى حالة يقظة مستمرة خير لك من ان تسلبها هذه الملكة عن قصد ، واجدي لك من ان توقد مصابيح المعرفة في مراكز الحفظ علي حسابها ، وتتركها في ظلام دامس بهيم . ولكن ، من الذي يستطيع ان يقنع ابا السباع بخطل نظريته ، ويرشده الي حقيقة ان الدماغ في وحدة اجزائه – وخاصة خلاياه ومادته الرمادية – انما هو كالجسد في وحدة اعضائه اذا اشتكي عضو منه تداعي له سائره بالسهر والحمي ؟ ومن الذي يستطيع ان يقنعه بأن الساعة لن تقوم حتي تستوفي كل نفس رزقها الذى كتبه الله وقدره لها ؟ وأنها لن

تفارق هذه الدنيا حتي تتقاضى جميع ما سطر لها ؟ وان ذلك يشمل فيما يشمل العلوم والمعارف ايضاً ؟ وانا لست في التذكير بهذا الذي اقول بعاتب علي الصديق العزيز اسماعيل ولا بلائم له ، فما عرفت هذه الحقيقة عن فهم إلا بأخرة ، وما انا الان بأعلم بها منه . ولكن ربما كان يبدو لنا مغالياً في تلك الايام ، متعجلا في امره ، مبالغاً في ابتغاء الاسباب وجد السعي لاستيفاء رزقه من العلوم ، غير متمهل ولا مجمل في الطلب . ولامشاحة في ان المغالاة نهج غير محمود في كافة الاحوال .

ولكن الحق يقال ان ابا السباع – بجانب ذكائه وفطنته ، ورغم تطرفه في استذكار دروسه الي درجة ماعرف في تلك الازمنة باسم « الكب » – كان تلميذاً كريم الخلائق طيب النفس ، لا يبدأ احداً بعداوة ، ولا يماري ولا يجادل فيكثر الجدال ، فهو مشغول البال بهموم الدروس ، شديد الانكباب عليها . ويقيني ان حصيلته الان من العلوم والمعارف لا تداني ولا تجاري ، وليته يكتب وينشر ، إذاً لقرأنا عجباً . ولكنه كان منذ تلك الأزمنة ميالا للتواضع ونكران الذات . وكانت بعض اقواله وتصرفاته – وحتي بعض صمته وإطراقه وتأملاته – توحي اليك باعتقاد راسخ في نفسه مؤداه انه مستهدف من قبل الاقدار . يعرف ذلك من رافقه في ام درمان الاميرية وفي خور طقت.

ولذلك هو قد ادار ظهره منذ وقت مبكر للطرماج ، فأراح نفسه من مطاردة الكمساري « وزرة » مفتش التذاكر ومغبة النزول الاضطراري « العديل » من هذه المركبة المجنونة ، ناهيك عن مخاطر « النزول العكس » الذي يتباهي به بعض السذج المغامرين ويدعون اتقانه في جميع « الكشات » ولايري ابو السباع إلا انه جن صريح او « لحسة » مذهبة للعقل تماماً علي اقل تقدير . ليس ذلك فحسب بل هو ايضاً أدار ظهره لهذه الدابة الجديدة التي يسمونها البسكليت ، وذلك لعدة اسباب . اولها ان الوقوع منها قد يكسر الرقبة او الاضلاع او الرجلين . وثانيها ان العجلاتي يصر علي ان تدفع له قرشين كايجار للعجلة عن كل ساعة . وثالثها انك اذا استأجرتها وأمنت من الوقوع منها فانك لن تنعم بها طويلا لان كل واحد من معارفك يريد منك ان تعطيه

« سحبة » والخير كل الخير في ان توصد هذا الباب تماماً ، ولذلك فقد كره ابو السباع العجلات والعجلاتية علي السواء وسد هذا الباب الذي تأتي منه الريح فاستراح . ولكنه مع ذلك لم يسلم من نوائب الدهر بل هو قد وطن النفس علي الاستعداد لها وتلقيها . فلما انكسرت جريدته في احدي نوبات المصائب التي كان شديدة القابلية لها ، وظلت ذراعه ويده علي خرقة من الدمورية تتدلي من عنقه لتحمل عنه ثقل الجبص الباريسي ، لم يقابل ذلك الحدث إلا بجنان ثابت ويقين راسخ ان ما كان ليصيبك فلن يخطئك ، وما كان ليخطئك فلن يصيبك ، وبدا وكأنه كان يتوقع ذلك المكروه ويعد نفسه للصبر عليه . وليته توسع في فهم دلالات هذه المقولة الشريفة واحتكم الي سعة شمولها ورحابة آفاقها في جميع شؤونه المدرسية علي الاقل ! ولكن ، بالطبع لما انتقل ابو السباع من عالم الاميرية الي عالم ارحب منه هو خور طقت – ولم يكن ذلك الانتقال إلأثمرة دانية حلوة القطاف لاقباله علي دروسه وانشغاله بها – أحسَّ احساساً صادقاً ومريحاً بأنه قد تحول من عالم مثقل بالمخاوف ونكير الاساتذة الي افاق جديدة هي (خير مقاماً واحسن ندياً) ، وانه قد تراخي وانفك عنه عقال الهموم والاحزان فولج عالم الحرية الجديد من اوسع ابوابه . نعم كانت ام درمان الاميرية حلماً زاهياً قد تقضي ، أكثره المحاسن وحشود اطياف من الذكريات الحبيبة ، واقله بعض غلالات من التعاسة الناتجة عن « بشمة » الاستاذ محمود بلال رزق وسوط عم مبارك ومرأي العمين محمود وعبد العزيز وكل منهما يخطر بالبردلوبة الكاكي احياناً والتيل الابيض احياناً اخري ، وعلي راس كل منهما عمامة تناسب في لونها بقية الهندام . ولكن خور طقت كانت شيئاً آخر . كانت جنة في ربوع كردفان الزاهية الخضراء – الغرة ام خيراً بره . كانت حلماً ابلج رائعاً .. ندي الاعطاف وارف الظلال . ولذلك فان ابا السباع كاد ان يشدو جهرة برقائق الغناء ، وكادت احاسيسه ان تتبجس بروائع الشعر وتجأر بحانيات القوافي ، فهو قد ذاق طعم الحرية ونعم بحلاوة الانعتاق . ولكن ، بالرغم من هذا الفتح الجديد في حياته فان ابا السباع كان علي قناعة تامة – وهو محق في ذلك – ان شيئاً

من سوء الطالع يلازمه وانه مستهدف للأقدار . وآية ذلك انه كان من بين طائفة من فتية اصيبوا بداء الملاريا في اول عهدهم في خور طقت . فظل معهم في « شفخانة » المدرسة « يهضرب » اياما حتي شفاه الله وشفاهم. فنسي الناس كل ذلك إلا « هضربة » ابي السباع التي روج لها محمد العوض مصطفي ترويجاً وزعم انها كانت في جملتها تسميعاً صريحاً للنصوص تمييزاً لها عن « هضربة » رفقائه الاخرين فحرمه حتي من نعمة ان المصائب يجمعن المصابينا . وعندما تهشم زجاج نافذة الفصل علي يد ابي السباع سال دمه القاني – لا اقول الازرق لان اسماعيل لم يكن يحفل بهذه الدعاوي – من رسغ يده اليمني اذ تمزقت الاوردة ولكن عناية الله ابقت علي الشرايين . وبعد ان اسعف في الشفخانة ظلت يده أسيرة الضمادات و« العلاقة » أياماً طوالاً ، وظل ابو السباع موضوعاً حياً لتندر محمد العوض وطرائفه التي لا تنتهي . وفي ذات مرة حاول أبو السباع ان يجد مسوغاً مقنعاً للتغيب عن بعض الحصص فذهب بدفتر المرضي الي الشفخانة ، ولكن عاد وقد كتب المساعد الطبي قبالة اسمه نوع المرض وملاحظاته الطبية ، فكان ان قرأها محمد العوض علي مسامعنا وهو يكاد « يموت » من الضحك . فقد كانت مختصرة وحاسمة لا تتعدي كلمات قصاراً : صداع ، مغص ، يستمر في عمله ! فلم يجد ابو السباع بداً من حضور جميع الحصص التي حاول الهرب منها ، وصار مضغة في فم محمد العوض. الذي كان كلما لقيه في ملأ من الناس صاح في وجهه ضاحكاً : صداع ، مغص ، يستمر في عمله : وهو ينطق كلمة مغص بقاف السودانية الدارجة وكأنه يقص بذلك رقبة ابي السباع .

الكبتل وأبو العلاء المعري ... في سوق الزلعة :

لقد ورد ذكر الكبتل كثيراً فيما تقدم . وهو الحاج محمد عثمان ابراهيم الذي اتي من قرية ابي عشر يحمل سمات اهل الجزيرة المروية كرماً وسخاء ونجدة وبساطة مرسلة لا تعرف التمحك ولا الالتواء . ولن يشك احد في انه يكبر أغلب زملاء دراسته

بسنوات ، فقد كاد شاربه الغض ان يسفر نابتاً ، وكادت شعيراته الوليدة ان تنبئ بالخبر الصحيح . والكبتل تلميذ فارع الطول ، نحيل الجسم ، علي كل من خديه نقرابي محفور بنظام يؤكد قروية المنشأ والانتماء ويضفي علي وجهه المستطيل مسحة حسن تعصمه من سمات الجلافة وتؤهله لارتياد افاق المدينة . وقد اطلق عليه محمد العوض اسم الكبتل بكسر الباء ثم انتهي بهذه الباء الي سكون دائم بدل الكسر . وهذا تصحيف في النطق غير مستغرب لان ميل الناس الي التبسيط امر معروف ، وهو يقود احياناً الي تبديل الكلمة تبديلاً يباعد بينها وبين الأصل الذي هو اصلها . والكلمة المقصودة هنا هي الكلمة الانجليزية التي تعني حرف الهجاء الذي يكتب كبيراً في اول الكلام . ومن معانيها ايضاً الحاضرة او العاصمة او المركز . ولقد جمعت عبقرية محمد العوض كل هذه المعاني في ابتداعه لهذا الاسم او اللقب وإلصاقه بالحاج . ولك ان تفهم من هذا الاسم ان الحاج هو كبير القوم او حاضرتهم أو الألفة أو مركز الثقل ومناط الاهتمام ! او انه بين زملائه مثل مظهر الحرف الكبير الذي يبدأ به كتابة الكلام بالانجليزية مقارناً بالحروف الصغيرة الاخري ، او اي شئ من هذا القبيل . فقد كان محمد العوض دقيقاً في اختيار الالقاب التي يطلقها علي الناس ، وليس أدل علي ذلك من هذا الاسم الذي خص به الحاج محمد عثمان ابراهيم فصار ملازماً له علي الدوام.

واذا كنت قد تعرضت من قبل لبعض شأن الكبتل وسيرته فما كان ذلك الا لميزاته العديدة . فهو قد صار ألفة فصلنا منذ اللحظة الاولي ، ودان له الجميع بهذه الريادة والموقع المتقدم ، لاستثني من ذلك احداً حتي صقور الربع الخراب الذين كانوا يناهزونه ارتفاع قامة ، ومنهم من يفوقه بسطة في الجسم والمال . فانعقدت له البيعة القسرية علي الالفوية دون ادني « نقنقة » او اعتراض . والكبتل تلميذ نجيب حصيف حاضر الذهن نبض الفؤاد ناضج المشاعر موفور الفطنة . فقد اتخذ من هؤلاء الصقور حلفاء دائمين لا تظهر اسماؤهم ابداً ضمن قائمة المهرجلين في الفصل ، وهم في

الحقيقة أساس الهرجلة ومنابع الفوضي . ولكن الكبتل انتهج معهم سياسة التقية فأتقن ممارستها وأجاد . وآية ذلك انه لم يحدث اي نوع من العراك او التهارش بينه وبين اي احد منهم طيلة سنوات ام درمان الاميرية . فجلهم اولاد ام درمان – عبد الكريم ومحجوب ومكي . وهم ينحدرون من احياء ام درمانية مختلفة – بيت المال وحي الاسبتالية ومكي ود عروسة . ولو انه دخل في عراك مع احد منهم لتضافرت عليه ايدي فتوات هذه الاحياء ، وهو الغريب المغمور في حي السوق ، لا يهب لنجدته احد من ذلك الحي ولو استغاث والح في الاستغاثة لأنه يعتقد ان اهل هذا الحي – وهو وعم محمدين من بينهم – « لحم راس » ، فمتي تجتمع هذه الاشتات وعلي اي امر تتفق ؟ ولذلك فقد ادرك الكبتل منذ الوهلة الاولي انه ليس نداً لهؤلاء الصناديد ان اجتمعوا عليه ، ولا قبل له باستعدائهم والتعرض لآثار خصومتهم ، وان الخير كل الخير في ان يتودد اليهم ويتخذهم اخداناً وحلفاء إن استطاع ، ويتغاضي – بوصفه الألفة – عن الهرجلة والفوضي التي يحدثونها في الفصل بين الحصص . وليدفع ثمن هذا المعاهدة السلمية او معاهدة عدم الاعتداء فيما بينه وبينهم نفر آخر لا يشكلون عليه خطراً يذكر . فكانت اسماء محمد العوض وقاسم أبوعكر والفاضل شريف وغيرهم من المستضعفين من الولدان تتصدر قائمة المهرجلين في الفصل وقد خلت منها اسماء الصقور اولي البأس . ولقد ظهر اسم كاتب هذه السطور مراراً في هذه القائمة ونال ما ناله غيره مما كتبه الله من جزاء وعقاب تحت سياط عم مبارك . وظهر اسم عبد الرحمن كنتباي والنفراوي أيضاً في اول الأمر فنالا ما نلنا . ولكنهما لم يرضيا بهذه المهانة ولم يستسلما ولم يسعهما السكوت علي هذا الضيم فأسرا لي بما بيتا عليه النية من اخذ الثأر والرد علي هذا التعدي . وكان ذلك هو احد اسلحتي التي انتضيتها في محادثتي مع الكبتل واحتجاجي عليه . فما زلت به ألوح في وجهه باغصان الترغيب وقبضات الترهيب حتي لانت لي قناته واستوعب مضمون حديثي استيعاباً . فما كان منه الا ان اسف علي ما كان وفات وأبدي صفحة حسن لم تظهر بعدها اسماؤنا الثلاثة علي

السبورة إلا فيما ندر وكان له مبرر قطعي جازم يصعب التحلل منه ورده عليه . ولعله استعاض عن اسمائنا باسماء المصباح الصادق وعباس صالح ومحمود احمد مهدي وغيرهم ممن عرفوا بالهرجلة ولم يعرفوا بشدة البأس . فانظر كيف يمكن ان يدفع المستضعفون ثمن اخطاء ذوي الشوكة والضراوة ، وبعض زلات اهل الحظوة والقرب واولاد « المصارين البيض » .

وهذه « التقية » من حكم الكبتل الخالدة وعقائده الراشدة ، وهذا الحذر الوقور من شيمه المميزة ومرتكزات منهاجه الثابتة ، وهو مقتدر علي التلبس بهذه الخلائق والشيم في ذات الوقت الذي يحافظ فيه علي وقاره ان يخف وعلي كبريائه ان يمس ، من دون ان يتهمه احد بالفرق او الجزع او النكوص . ولقد نمت وتأصلت بيني وبينه صداقة حميمة امتدت الي سنوات خور طقت وما بعدها الي ان فرقت بيننا دروب الحياة . وعلي ايام ام درمان الاميرية كان الكبتل يستمع فيما يستمع اليه من قصص الي ما كنا نروي عن ود نوباوي وفتواته وغرابيبه السود ، يعير احاديثنا اذنين صاغيتين متابعتين وانتباها عميقاً مستغرقاً لا تفوت عليه ادق التفاصيل والخفايا مما كنا نضيف من رتوش ونبرع في سردها لنثري بذلك مادة الاقاصيص ونزينها بأطياف متباينة من الالوان ونحليها بأفانين شهية من الطعوم ، فيطرب لذلك كله ويستملحه ويلذ له ويطبيه . ولكنه لا يبدي استغراباً ابداً وكأنه معتاد علي كل تلك المشاهد المرعبة وتلك المرائي المفزعة وما تعج به ساحاتها من الخلائق الاسطورية ، بل كأنه معايش لها في جميع اوقاته . فاذا افرغنا مافي كناناتنا من القصص والحكايات وظننا أننا قد انبأناه بعجائب الدنيا وغرائب مافي بطن الارض من جميع الدقائق والخفايا والاسرار التي لاتخطر علي بال ، اذا به ينبري فيقص علينا من الانباء ماهو اعجب ويتلو علينا من سير « شفوت » ابي عشر ومردتها من انس وجن مايفوق جميع التصورات المكنة . فلم نكن نرتاب – ونحن قد خبرنا اشباه هذه الاشارات والصواعق التي كان محمد العوض مصطفي يسميها « دراب الكبتل » – ان اغلب الشخوص الذين يروي علينا

الحاج اقاصيصهم انما كانوا من بنات خياله المحض ولا صلة لهم بحقيقة الحياة في ابي عشر ولاغيرها من مدن وقري هذا الكوكب الارضي الذي نعيش فيه . ولقد كنت دعوت الكبتل مراراً ليذهب معي الي ود نوباوي . ورغم انه كان يعد في كل مرة بتلبية الدعوة مظهراً كل الفرح والترحيب بها ، إلا انه لم يف بوعده ابداً وانما كان يصطنع لنفسه اعذاراً لبقة - وان كانت تظهر لي واهية - مؤكداً انه مشغول بمساعدة عم محمدين . ورغم اني ذهبت معه مراراً الي داره التي هي دار عم محمدين في حي السوق ولم اقف علي هذه المشغوليات التي كان يتخذ منها الاعذار ، إلا اني ايقنت في نهاية الامر انه انما كان يتحاشي تلبية دعواتي له بالذهاب معي الي ود نوباوي تحاشياً ظاهراً ، يخفيه وراء لباقته وظرفه وكياسته ، ولكن دون ان يؤيسني من هذه الزيارة الموعودة . وما ذلك إلا لحسه الذي ربما كان صادقاً انه ان فعل ولبي دعوتي فلربما عرض سلامته لما لا تحمد عقباه . فلقد كان ود نوباوي بالنسبة له عالم خارج حدود الكرة الارضية ، والعاقل في نظره من اجتنب ارتياد مثل هذه العوالم التي تموج بالمخاطر والغرائب . واني لاشهد ان الكبتل كان تلميذاً متماسك القناعات في امور السلامة لم تخذله مقدراته الفائقة علي التقية والحذر إلا في تلك المرة التي دعانا فيها للذهاب للموردة لكي « ندق المورداب » والتي انتهت بذلك الانكسار المزري وذلك الفرار المشين من الزحف ! ولولا ان بعض جنود فيلقنا الغازي استطاعوا ان « ينزغموا » في وسط حلقات الطار وصفوف الذكار علي انغام النوبة ، واستطعنا نحن ان نحتمي بخيمة الانصار في تلك الامسية ، لمزقت اجسادنا سياط المورداب ولربما كسرت سيقاننا عصيهم الغلاظ «وفرطقت» رؤسنا قذائفهم الطوبية التي لم يحكموا تسديدها ولم يحسنوا تصويبها ، فطاشت عن الهدف والمرمي لتصيب ابرياء في ذلك الزحام ليس لهم من الامر شئ . وعندما بلغ الكبتل خيمة الانصار ورأي كم هو آمن في ذلك السرب ادرك اننا - عبد الرحمن كنتباي والنفراوي وكاتب هذه السطور - إنما نأوي الي ركن شديد . فلطالما كان ينازع في ذلك حتي تبين له الحق واشرقت في سماء شكوكه

السالفة شمس الحقيقة . ولعل ذلك الحدث وتلك الحماية التي أظلته في لحظة كان هو في اشد الحوجة لها هي التي ساهمت في تغييب اسمائنا عن قائمة المهرجلين في الفصل لفترة طويلة ، رغم اننا نحن الثلاثة لم نكن علي وجه العموم اقل هرجلة من ضحاياه الاخرين ، ان لم نكن في كثير من الاحوال اشد بلاء واطول باعاً فيها ! علي ان الكبتل كان في بعض احايينه يطلق لنفسه العنان ويتحرر بعض الشئ من ربقة حذره خصوصاً اذا أحس بأن الامر يستدعي بعض هذا التراخي . فكنا نذهب احياناً الي سوق الزلعة الذي يكتظ بالناس في تلك الساحة الضيقة الواقعة بين مستشفي ام درمان وظهر السور الشمالي لجامع الخليفة . فاذا توسطنا ذلك الملأ داخله السرور واشرق وجه بالبهجة . ورغم اني كنت اتضايق من ذلك الزحام والضجيج والغبار الذي يسد الافق إلا اني كنت اسر لسرور الحاج الكبتل واتحمل ما اتحمل لمجاملته وارضائه لانه كان صديقاً عزيزاً بالنسبة لي . ولقد كنت اعجب له كيف يطيق البقاء طويلا في مثل هذه الامكنة ، واذكر صديقي عز الدين عباس واجد له في سريرتي كل المبررات التي تؤكد لي صواب عزوفه عنها وصدفه عن مجرد التحدث عن جوها الخانق «وبوخها» الذي يقطع الانفاس . فأنت بمجرد ان تضع قدمك في تلك الساحة التي احسن عزالدين باطلاقه عليها اسم «ساحة المداعسة والمدافسة» فان جميع حواسك تأخذ في الارتجاج . يباغتك من اول وهلة خليط عجيب من روائح البصل والطرشي والدوم والساردين واللقيمات والجنزبيل والبن والهبهان والقرنفل ، والفول المدمس ، والترمس والتسالي – وهم يسمونه الجرم . وهذا الاسم يذكرني الان بأبيات ابي العلاء المعري التي يعبر فيها عن عجز العقل عن فهم الحوادث – وسوق الزلعة من الحوادث التي يصعب على العقل تجميعها – ويعبث فيها بالألفاظ عبثاً فيه من الظرف ما فيه إذ يقول :

تشابهت الخلائق والبرايا .:. وان مازتهم صور ركسنه
وجرم في الحقيقة مثل جمر .:. ولكن الحروف به عكسنه
غني زيد يكون لفقر عمرو .:. واحكام الحوادث لا يقسنه

ولست اعلم ان كان ابو العلاء قد دخل سوق الزلعة في زمانه ، ولكن ابياته هذه تصور بعض ما فيه . ثم اذا ما امتلأ صدرك ورئتاك من هذه الاشياء وغيرها بما يفوح من التوم والبهارات وحقاق الصعوط العماري وغير العماري ولفائف التبغ البحاري والقولد فليكس والقمشة والدقة والدكوة وقراصة النبق والسمك المقلي وسلال البيض المسلوق والطعمية والادخنة المنبعثة من الكوانين ، فانك ذائق بانفك وربما بحلقومك طعم عرق الادميين وصناح انماط من بني البشر . ويكتنفك من وراء ذلك غبار يحشو الانوف والاذان وخليط شمار وشطة تدمع الاعين وتبلغ اقاصي جيوب الرؤوس ، فيتكاثر العطس ويتناثر الرذاذ ، وتسمع الحمد الله تتردد هنا وهناك ، ولكنك لا تسمع احداً يشمت أحداً . ومن عجب ان الكبتل كان يسعد بالتجوال في ذلك الوسط ولكن حاسته السادسة كانت تنبئه في الوقت المناسب إذا ما رأي او احس نذير سوء ان يأذن بالتراجع والانسحاب . فكنت اتبعه دون ادني منازعة ، وذلك لاني كنت اود الخروج من ذلك الضيق الي رحاب السعة ، واهم من ذلك أني كنت اعلم ان الذي يوحي الي الكبتل بمفارقه سوق الزلعة ويدفعه لمغادرته لا يمكن إلا ان يكون امراً جللاً او خطراً وشيك الوقوع . ولذلك كنت اتجاوب مع اوامره بالانسحاب فوراً دون ابطاء او استفسار عن السبب لأن ذلك الانسحاب يوافق اصلاً زهدي في البقاء في ذلك المجتمع الرهيب ، ويوافق دواعي السلامة التي لم ار مثل الكبتل في الحرص عليها واجادة التوقيت الدقيق الذي يراعيها ويضمنها .

لقد كان الكبتل تلميذاً شديد الذكاء لماحاً ذا بصر وبصيرة . وآية ذلك انه تبوء المركز الاول في الفصل اكثر من مرة ، وعن جدارة تامة . وليس من الانصاف القول بأن تقدمه في السن هو الذي ساعده علي ذلك ، وان كان هذا العامل مهماً لأنه يضع صاحبه في درجة متقدمة من درجات سلم الوعي والنضوج . وذلك انه قد تفوق في دروسه وبدرجة ملحوظة علي اقوام ربما يماثلونه في السن وبالتالي في درجة سلم النضوج والوعي . بل من هؤلاء الرهط من كان «يمسك الدفة» عندما كان الكبتل يأتي

في المقدمة ولست بهذا القول اعيب احداً ، إذ ليس مقياس الذكاء عندي هو الترتيب في الفصل ، وليس معيار غير الذكاء هو الامساك بالدفة فمهما كان الفصل ومهما كان التلاميذ فلا بد لهم من حائز على «الأولية» ولابد لهم من «ماسك للدفة» ، لابد لهم من أول ولابد لهم من «طيش» . وكم من تلميذ كان الطيش في فصله واتهمه بعض اساتذته بالغباء ، ثم لما اكتمل نضوجه واقبل علي الحياة العامة برزت مقدراته الذهنية بروزاً جعله موسراً او حاكماً او زعيماً يشار اليه بالبنان . وكم من اول في فصله شهد له اساتذته بالنبوغ ، ثم انتهي به الامر الي حياة مغمورة وفقر مدقع وموقع نبه في المجتمع جعل منه نسياً منسياً . وليس أدل علي بعض ذلك من سيرة الكبتل نفسه . فقد كان تلميذاً ذكياً نابغة دون ريب ، ولست ارتاب في انه ما يزال كذلك ، وكان في اول امره يتقدم زملاءه في الفصل ويفوقهم حسن بلاء في الامتحان . ولكنه اخذ في التراخي عن مواطن الريادة بمجرد بلوغه مدرسة خور طقت ، واغلب ظني انه زهد في المنافسة من حيث هي ، وزهد في الانكباب علي الدروس ، واختار راضياً وعن طيب خاطر ان يستسلم لشعور الاحساس بضرورة الاسراع بالتخرج والالتحاق بالوظيفة لمساعدة الاسرة والاخذ بيدها ، وهو شعور كان سائداً بين الكثيرين . وإلا فهو صاحب مقدرات ذهنية هائلة ما كان يمكن ان تخذله ابداً ان هو احسن شحذها كما كان دأبه من قبل ، واستقام عليها وصبر علي تحديات الحياة التي كانت تشغل بال الكثيرين . ولتراخي الكبتل قصة اخري ربما اشرنا اليها في نهاية هذه الذكريات . ولكن الحاج محمد عثمان ابراهيم الكبتل ظل على العهد صديقاً ودوداً وأخاً وفياً ذا مروءة وشهامة وشخصاً كريماً متخلقاً بروح عبقة وضمير نقي وأدب جم . ولقد اخفي علينا اسم عائلته في ابي عشر الي ان جهر لنا به الاستاذ الطيب شبيكة حينما كان يناديه «جلد البقر» ! ولست ارتاب في ان هذا هو اسم الشهرة لاسرته الكريمة وان هذا الاسم له في قاموس قيم القرية دلالات ومعان رفيعة . ولما كان محمد العوض يحب الكبتل حقاً ويعجب به فقد كان كثيراً ما يغنيه : «كبتولة ياكبتولة» .. "كبتولة يا اب ناتولة" .. ولست

ازعم ان محمد العوض كان صاحب صوت رخيم ، ولكننا كنا نطرب له لأن عناصر الطرب تأتينا من روحه الحلوة ، ولأن الكبتل كان يبسم في وجه هذا التصغير والتكبير وهو راضٍ قرير العين والبال ، رغم اننا لم ندرك معني هذه «الناتولة» علي وجه التحديد . لقد فارقنا الكبتل بعد خور طقت ولم نجتمع في فصل دراسي بعد ذلك ، ولكننا ظللنا نلقاه في فترات متباعدة فاذا بوفائه مطبوع علي كل ارجائه واذا بلسان حاله يخاطبنا في كل حال :

واذا اضاعتني الخطوب فلن اري # لوداد اخوان الصفاء مضيعا

خالت توديع الاصادق للنوي # فمتي اودع خلي التوديعا

عبد الرحمن الدرديري ... بقرنين وذنب :

إذا كان من بين اولاد فصلنا من يستحق ان يوصف بالوداعة والبراءة دون تحفظ فهو عبد الرحمن الدرديري . والعجيب ان عبد الرحمن الدرديري ولد وتربي وترعرع في حي وداورو وهو نفس الحى الذي انبت فتحي ابراهيم وصفي وحجازي ولطفي اخاه الاكبر ، فسبحان من خلق الانس والجن ليعبدوه ! فلقد جاء عبد الرحمن الدريري الي مدرسة ام درمان الاميرية وكأنه آت من عالم ملائكي . وذلك انه كان في أول عهده تلميذاً سمح النفس وسيم الخلقة والسمت نقي السر والعلانية بساماً رضياً كأنه لم يعرف الآدميين من قبل وانما هبط اليهم لتوه من السماء . ولكنه سرعان ما ادرك بثاقب نظره ونور بصيرته ان من اراد من الملائكة ان يعيش مع الجن فلا بد له من استحداث قرون واذناب كحد ادني للتأهيل لهذا المجتمع الجديد . ولست أرتاب في ان هدوءه وبراءته وحسن سمته كانت بعض امور جعلت الشيخ ابابكر يعجب به في اوائل امره أيما اعجاب . فصار هو وقاسم عبد القادر ابو عكر واحمد الحبيب حسين محل احترام الشيخ وتنويهه الدائم ومحبته وإيثاره . فكان الشيخ اذا دخل الفصل بدأ بالثناء عليهم ، لا ينسي أحداً منهم . واذا شتم عبد الكريم او أياً ممن كرههم دون سبب مقنع ، ختم حديثه بالثناء العاطر علي هؤلاء الثلاثة ايضاً ، لا يغادر منهم احداً. وما

زال الشيخ على هذا المنوال وثلاثتهم في مأمن من تغيره وانقلاب مزاجه حتى دارت عليهم الايام بما عودت الناس عليه من دورات ، فكان سقوط ثلاثتهم من نظر الشيخ اشبه ما يكون بنكبة البرامكة ، فانتهوا جميعاً الي مثل ما انتهي اليه بقية اولاد الفصل وانعركت انوفهم في ذات التراب الذي انعركت فيه انوف غيرهم ، والشيخ جذلان يبسم في مكره ويمطر من بركان فيه عليهم امثال الحمم . (وتلك الايام نداولها بين الناس).

ولكن الحق يقال ان عبد الحمن الدرديري كان قد حظي بمكانة رفيعة بين زملائه اهلته لها سجاياه الآسرة الكثر وفضائله التي ميزته في اعين الناس . فهو تلميذ مرتب الحال في مظهره ومخبره وسائر شأنه . وهو مجامل وكريم يعرف واجباته اتم المعرفة وينهض بها علي احسن الوجوه ، ويعرف لذوي الفضل فضلهم ويرعي حقوق غيره اكمل رعاية . لايحمل غلا ولا ضغناً لاحد ولو بادره بما لا يسر ، ولا يرد علي كيد بمثله وان انس في نفسه المقدرة علي ذلك . بل يعفو ويصفح دون مزايدة ولا عتاب ولا إرجاف بفضول حديث . ولعله هو التلميذ الوحيد الذي نجا من شرور الفاضل شريف وهذره وسخريته الحارقة وعبثه الذي لا يكاد يكف عنه لحظة من اللحظات . وذلك لان عبد الرحمن كان يجامل الفاضل كثيراً ويضحك لنكاته البايخة باخلاص وروح سمحة مرحة صادقة المرح والسماحة ، ولا يذكره ابداً ببياخة هذه النكتات التي «ورم » بها رؤوسنا «وحرق» بها روحنا ولايزجره عليها ، بل يرخى له العنان ويسلس له القياد ويوطئ له الاكناف حتي اوشك الفاضل ان يظن ، بل ان يستيقن ، انه قد حصل علي اعتراف هام بالبراعة والاقتدار في دنيا الملح والطرائف ونال علي ذلك البراءة والرتبة الرفيعة . ولقد كان هذا التقارب بين عبد الرحمن الدرديري والفاضل شريف امراً محيراً لكثير من اولاد الفصل . فهم يعلمون ان الفاضل عفريت وعكروت لا يمكن الركون اليه . فانك ان ركنت اليه اتخذك هزواً «وقدَّ دماغك» بفزوراته التي كان يكررها حتي حفظها الناس عن ظهر قلب ، ومد لسانه لك من وراء ظهرك وكأنه هو نفسه يضحك من سذاجتك التي

جعلتك تركن اليه . ولكن عبد الرحمن الدرديري أبان بعد قليل انه لم يكن يجهل شيئاً من ذلك ، وانما كان يتحسس طريقه في تؤدة ويتدبر امره في هدوء . فهو يعلم ان الفاضل شريف تلميذ متعب فليصبر عليه ، وليتحمل ما شق علي الاخرين منه ، وليتأمل مواقع خطوه حتي لا يعثر في اول الطريق . فاذا كانت صداقة الفاضل شريف جالبة له بعض المتاعب فانها أهون من المتاعب التي يمكن ان تجرها عليك معاداته او البعد عنه او مجرد نعت نكاته بالبياخة والسماجة علي مسمع منه وامام الناس . ولذلك حرص عبد الرحمن علي إكرامه وشجعه علي عيثه حتي يأمن جانبه ريثما ينبت لنفسه الريش الذي به يطير والقرون والاذناب التي يتعايش بها مع بقية العفاريت واشباه الجن . فهو يعلم تماماً ان الفاضل شريف وحده لن يغني عنه من مكر الآخرين شيئاً إن أرادوا به سوءًا . بل هو يعلم ايضاً ان تحالفه مع الفاضل شريف تحالفاً دائماً ربما زج به في مضائق لا يسهل الخروج منها وربما اوقعه في شراك لايمكن الافلات من قبضتها واطباقها عليه . وذلك ان الفاضل كان فضولياً يدخل أنفه في كل شيء فيثير حفيظة الاخرين . ولقد خشي عبد الرحمن علي نفسه من مغبة ذلك وصرح بتخوفه هذا من وراء ظهر الفاضل فلم يبلغه به احد . وظن عبد الرحمن – وهو محق تماماً – ان الايدي والالسنة التي كانت كثيراً ما تمتد الي الفاضل لتزجره وتضع حداً لسيل نكلته المفجعة ربما امتدت اليه هو ايضاً . ولذلك اخذ عبد الرحمن في الابتعاد عنه شيئاً فشيئاً حتي ان الفاضل نفسه أحسَّ بذلك النفور وطفق يظن بعبد الرحمن الظنون . ولما ايقن بهذا الصدود وبلغته بعض شظايا شماتة الشامتين ما كان منه إلا ان اشاع بين الهلالاب من التلاميذ – وهم الكثرة الغالبة – ان عبد الرحمن الدرديري يضمر في دخيلته مشاعر مريخية وانما يتظاهر بالهلالابية تظاهراً . والا فكيف صار صديقاً حميماً لعثمان حسن المريخابي المعروف في المدرسة ، وكيف صار لصيقا بأحد المريخاب من خارج المدرسة وهو سري ؟ وسري هذا هو شقيق لاعب المريخ قرعم الذي اشتهر فيها بعد ، وقد صار سري نفسه بعد سنوات من التدريب احد نجوم فريق

المريخ المعروفين . ولكن عبد الرحمن الدرديري فطن لهذا المكر في وقته حتي كاد صديقه عثمان حسن ان ينشد في حقه :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا .

ثم ان عبد الرحمن وثق من علاقته بفتحي ابراهيم وصفي بصورة ملحوظة ، وليس ذلك لان فتحي رفيق الحي فحسب ولكن لانه هلالابي صادق . فصار عبد الرحمن بفضل التفافه من حول مكر الراعي – وهو الفاضل – بهذه الطريقة آمنا في سربه الي حدود بعيدة وخاصة اذا تذكرنا ان فتحي هو ابن عمة التجاني الطاهر . فاجتمع لعبد الرحمن الدرديري بأس لا بأس به قوامه رهط اولاد ود اورو وفي طليعتهم فتحي ، ونفر مغوار من حي العرب – نسمع عنهم ولا نراهم – وفي مقدمتهم التجاني . فمنذا الذي لا يعمل حساباً للتجاني الذي يقف من ورائه بلة الاحمراني بقضه وقضيضه ؟ ولقد كانت صداقتي بعبد الرحمن الدرديري وطيدة ، وهي التي ساقت اليه وأورثته وعداً قاطعاً بمعونة اولاد ود نوباوي وحي الخنادقة عموماً ، ومحبة عبد الرحمن كنتباي والنفراوي والكبتل نفسه وتعاطفهم معه . وما كان هذا النصر الدبلوماسي الذي احرزه عبد الرحمن إلا نتاجاً لحسن سياسته للامور وتدبره لمواقع الخطي . ولو انه ظل علي مسكنته التي بدأ بها لما احتفل به احد ولماهب لسنده نصير . ورغم ان عبد الرحمن الدرديري قد اجتمع مع قاسم «ابوعكر» واحمد الحبيب حسين في تبوء تلك المكانة الرفيعة من نفس الشيخ ابي بكر إلا انه كان يختلف عنهما في بعض امور . فوداعة عبد الرحمن لم تكن مصطنعة وانما هي بعض خلائقه التي عليها جبل وبعض طباعه التي عليها فطر فهي وداعة صادقة . اما الذي كان يبدو علي قاسم ابوعكر من هدوء فلم يكن حقيقياً وانما هو تخلق مؤقت بالرزانة ودعوة عريضة بالوداعة وذلك لان قاسماً من الموردة موطن سكن ومبادئ عقيدة كروية ، ومن بعض خلائق المورداب العكر وهو نقيض الهدوء . واما احمد الحبيب حسين فقد ابان عندما حلت به غضبة الشيخ ابي بكر عن قدرات هائلة علي الفوران والهياج ، وظهر لنا جليا انه كان يكتم في أعماقه

عواصف هوجاء تجمعت أطرافها في تلك اللحظات من كل ركن من اركانه فأحدثت رعوداً واومضت ببروق ، ثم أمطرت سيلاً جارفاً من التعابير القادحة في الشيخ لم نكن نحسب ان احمد الحبيب قادر علي تصورها ناهيك عن الاتيان بها تباعاً دون ان تشق عليه كلمة او تعوزه عبارة . والامر الثاني هو ان بعض الشيطنة والفهلوة التي اضطر عبد الرحمن الدرديري لارتداء قميصها انما هي خلاق املته عليه الضرورة فهي ليست من عناصر تكوينه في شئ . وذلك بخلاف قاسم ابوعكر الذي تشكل الشيطنة بالنسبة لنشئه وانتمائه ركناً هاماً لقاعدة البقاء للأصلح التي تختلف من حي الي حي باختلاف اسباب المنافسة وتباين معاني هذا الصلاح . وقد علم احمد الحبيب وهو الملم بتقاليد اولاد بيت المال عموماً وفي مقدمتهم عبد الكريم ، انه لابد للعاقل من الاقتدار علي حد ادني من الشيطنة «وحمرة العين» علي اقل تقدير - سواء اضمر ذلك او اعلنه علي الملأ - لمواجهة التحديات التي قد تأخذك علي حين غرة ولسد مداخل الذرائع التي يمكن ان تنفذ اليك منها الدواهي والسهام . وثالث الامور ان عبد الرحمن الدرديري كانت فيه بساطة هي اقرب للسذاجة من اي شئ اخر ، فهو يصدق كل ما يقال . في الوقت الذي كان فيه كل من قاسم ابوعكر واحمد الحبيب يحسنان الاستماع فيدخل اكثر ما يقال لهما بأذن ليخرج من الاخري ، لاينفعلان بسهولة وانما يصبران ويمحصان ، سكوتها تقييم صامت للامور بفطنة وزكانة ، وثلثاه تغافل .

هكذا اختلف عبد الرحمن الدرديري عن رصيفيه وشريكيه في مودة الشخ ابي ابكر التي لاتدوم . ولكنه اكتسب بمرور الايام واحكام الضرورة والواقع وطبيعة الاشياء بعض صفات الجسارة التي كان لابد لكل تلميذ من التحلي بالحد الادني منها علي اقل تقدير حتي يستطيع العيش في ذلك الجو الرازم المرعد العاصف الذي لايمكن الركون الي السلامة فيه وان طال امدها . فاذا كان عبد الرحمن - بحكم بساطته ووداعته التي نشأعليها - لا يستطيع ان يقول للأعور يا أعور فلا اقل من ان يجد الشجاعة الكافية ليقول له : سلامة عيونك ! ، وذلك اما م الملأ علي عينك يا تاجر .

ولذلك تطورت مقدارات عبد الرحمن حتي استطاع ان يقهر حياءه ويتجافي عن الفاضل شريف ، ولو علم لتلا حكمة الشاعر :

ألم تران المرء تدوي يمينه .·. فيقطعها عمداً ليسلم سائره

ورغم هذا الانتصار فان القول بان عبد الرحمن قد تحرر نهائيا من البساطة والسذاجة هو قول ينفيه الواقع وتدحضه التجربة المعاشة . فعلي الرغم من ان صداقتي له قد توطدت تماماً وبالرغم من محاولاتى العديدة لتغيير صورة ود نوباوي التي انطبعت في ذهنه فقد ظل عبد الرحمن الدرديري يثق ثقة راكزة في ان جميع شياطين الدنيا وبعاعيتها وعفاريتها إنما تنبعث من ود نوباوي دون غيره . واما «قطيفة» التي كنا نحكي عنها نقلاً عن قصص خالد الشفيع في كوبرى ود نو باوي فقد كانت هاجساً من هواجس عبد الرحمن التي لا تفارقه ، ولطالما نازعته نفسه في السؤال عنها لمزيد من الاستيضاح الا انه اثر الا يفعل حتي لا يفجع بما هو انكي وافزع مما سمع عنها . ولقد اعتذر عن اصطحابى لود نوباوي في لباقة اكثرها خوف ظاهر وصرت كلما دعوته ألفيته كارهاً يكاد يجعل اصابعه في اذنيه ويوشك ان يستغشى الثياب . ولكني عذرته ولم اعجب كثيراً لما كان يبديه من فرق ظاهر وفزع مبين . فاذا كان الكبتل نفسه قد نكل عن هذه الزيارة وتهرب منها وهو القوي ذو الايد والبأس ، الذي زعم انه رأي البعاعيت بعينيه في ابي عشر وتمعن في انوفهم الفطس وسمع نخنختهم باذنيه فكيف بعبد الرحمن الدرديري الذي لم ير بعاتياً واحداً في حياته ولم يسمع صوتاً يقارب النخنخة سوي صوت هاشم الاطرش وقد كاد من شدة خوفه ان يترك له المدرسة نهائياً لولا اننا اكدنا له ان هاشم الاطرش لم يمت بعد علي اقل تقدير وان البعاتي لا يولد بعاتياً وانما يتحول الي هذه الهيئة بعد ان يموت ان كان هو من هذه الاصول التي «تقوم» . ومن الاشياء التي كانت تدهش عبد الرحمن ان محمد احمد قاسم وهو من اولاد ابي روف او سوق الشجرة قد لبي دعوتى لزيارة ود نوباوي . بل انه هو وصديقه ود اليماني صارا بمرور الايام من جوغتنا الدائمة في الدافوري في حوش الجمال

وأمام مسجد الهجرة . ولقد كان محمد أحمد قاسم لا يستطيع نطق حرف الراء وانما يجئ به ويخرجه من فمه اخراجاً يجعل له جرساً قواماً بين الغين والياء . وكان هو وود اليماني شديدي الولع بكرة القدم واخبارها وما اكثر ما ذهبنا سوياً «وتشعبطنا» وتسلقنا حيطة دار الرياضة من الواجهة الشمالية وسياط السواري وخيولهم تفرق الجموع المحتشدة التي تترقب فتح الابواب في الدقائق الاخيرة لتتعالى صيحات الجماهير علي انغام التصفيق الحاد المدوى : الباب فتحوه والهلال او المريخ رشُّوه ! وعندما نقص كل هذا علي عبد الرحمن كان يبدى من الدهشة والاستغراب مالامزيد عليه . وقد ذكرنى عبد الرحمن – وكنت غافلا عن ذلك – ان ود اليمانى نفسه ألجن مثل محمد احمد قاسم تماماً . وهو قول حق . ولكن عبد الرحمن الذي لم يجد تفسيراً واحداً مقنعاً لجرأة هذا الثنائي الألجن علي الذهاب لود نوباوي أيقن أن السر كله يمكن في هذه «اللجنة» ، وانها بنت عم النخنخة ، وربما كانت بهذا الوصف واقية من شرور البعاعيت وأصناف الجن والعفاريت . ولكنه كان يعلم ان محمد احمد قاسم تلميذ مهذب ذو خلق رفيع ، وهو مسالم هادئ الطبع فكيف توفرت له هذه المقدرات ؟ ثم عاد فعزا ذلك الي تأثير ود اليماني الذي كان «قندفاً» وصخاباً . ولو علم عبد الرحمن شيئاً من اخبار هشام بن عبد الملك لهدأ من روعه وصف الاعرابي لأخوال الخليفة حينما سأله عنهم بقوله : ماذا اقول يا امير المؤمنين في قوم هم بين حائك برد ودابغ جلد وسائس قرد ملكتهم امرأة ، ودل عليهم هدهد وغرقتهم فأرة ؟! ولكن من الذي يمكن ان يذكر ذلك لود اليماني ؟ ومهما يكن من امر فان جسارة عبد الرحمن الدرديري وتطور مقدراته لم تكن تدفعه الي اقتحام المجهول وارتياد المخاطر كما كان يفعل كل من محمد احمد قاسم وود اليماني . ويكفي انه انتضي لمواجهة بعض تحديات المدرسة أشباه القرون والاذناب ، فهل يطلب منه ان ينتضي اظلافاً وحوافر ومخالب ومنقاراً وريشاً لمواجهة السحرة والقشاعم والاهوال الاخري في ديار ليست هي دياره وبين اقوام لا يستطيع ان يعرف تماماً ان كانوا قد ماتوا قبل ذلك ثم قاموا ؟ علي ان شيئاً

واحداً كان يعكر صفو عبد الرحمن في المدرسة ويقلل من شأنه في نظر بعض الخبثاء وهو صلة القربى التي تجمعه بالاستاذ محمود علي الياس . فهو خاله كما قيل والويل لك من التلاميذ ان كان احد الاساتذة من قرابتك ، فانهم يظنون بك الظنون . وخاصة اذا تميزت عنهم او عن بعضهم في المادة التي يقوم هذا الاستاذ بتدريسها . ولعلها طبيعة نفوس البشر وان كانوا صغاراً دون الحلم . فالانسان هو الانسان ، ايا كانت مراحل عمره ، مجبول علي الحسد وسوء الظن بالآخرين وحب الذات وتزكية النفس ، وان كان عالماً بجميع عيوبه ، لا يستثني من ذلك إلا من عصم الله . ولذلك زهد ابو العلاء في الناس وود ان يتركوه لشأنه حتي قال :

خذي رأيي وحسب ذاك مني # علي ما في من عوج وأمت

وماذا يبتغي الجلساء عندي # ارادوا منطقي وأردت صمتي

ويوجد بيننا أمد قصي # فأموا سمتهم وأممت سمتي

وقال ايضاً :

الم ترني حميت بنات صدري # فما زوجتهن وقد عنسنه

ولا أبرزتهن الي انيس # إذا نور الوحوش به انسنه

والحق ان عبد الرحمن الدرديري لم يكن محتاجاً لعون الاستاذ محمود وماظنه بعض الخبثاء من ذلك لم يكن حقيقة أبداً ، ولم يكن الاستاذ محمود ليفضله علي احد من اقرانه ان هو لم يبرهن علي تفوق مستحق ، وما كان الذين يقولون بغير ذلك الا مازحين او ظانين ظناً وماهم بمستيقنين . فتلك أيام كان النبوغ فيها حراً مفتحة له الابواب ، وكان الغنم فيها علي قدر الجهد ، والعرق فيها لا يذهب جفاءً بل يخلف الملح الذي يذيق طعم الفوز ثمرة لهذا العرق . الا نضّر الله تلك الايام وابقي اطيافها راكزة في النفوس ، ونضر الله ذكرى أساتذتها الكرام وتلامذتها الميامين . وليت الذين تلوهم علي ايامنا هذه تأسُّوا بهم واشربوا في نفوسهم شيئاً من قيم تلك العهود وصدق مثلها التي تحيى موات القلوب وتهدي الي طريق مستقيم .

بابكر النور .. واللايظمان .. وتسلل محمد بلة :

ولقد انضم الينا في مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي في مرحلة من المراحل التلميذ بابكر النور عثمان . وكان بابكر في اول امره غريباً علي المجموعة ولكنه سرعان ما احتل مكانه بين ظهرانيها . وذلك انه كان علي قدر من النضوج النسبي ولم يجد مشقة في التعرف علي زملائه ومصادقتهم . وقد ساعده علي ذلك قلب مفتوح وذهن حاضر ونفس صافية ونزوع طبيعي الي الهدوء والمهادنة ومقدرة فريدة علي الابتسام المطمئن حتي في اصعب الاوقات واحرجها . ورغم ان بابكر من فريق حي الخنادقة بالقرب من ود اورو ، وهو حي ام درماني عريق إلا انه لم يشتهر بشيطنة اولاد ام درمان ومراوغاتهم ، ولم يشاطرهم افانين الشقاوة التي كانوا يتميزون بها ، بل كان مسلكه موسوماً بالهدوء والسكينه ومرقوماً بلين العريكة وسهولة الطبع والنفور والتباعد بقدر المستطا ع عن كل اصناف الفتن والمكايدات . ولذلك أمنه زملاؤه فأحبوه وتقبلوه في صفوفهم احسن قبول . وعندما كنا نجلس في بعض الاحايين ونستمع الي احاديث وروايات البطولات في الاحياء ، لم يكن بابكر يستجيب للاثارة التي تدعو اليها مثل هذه الاحاديث وانما كان يستمع بانتباه ويتابع في حضور ولايزيد علي الابتسامة القسط الوقورة . وهو لم يدع في يوم من الايام ان اللبخ مثلا زار حي الخنادقة او انه تعرف عليه من قريب او بعيد . ولو انه قال بشئ من ذلك لما تعجب احد ولا رأينا في ذلك غرابة . فاذا كان اللبخ صديقاً لمحمد مصطفي بلال واسرته فما الذي يمنعه من ان يقيم مثل هذه الصلة مع بابكر النور ، والشقة لا تبعد عليه لأن الديار متجاورة ؟ ولكن بابكر لم ينبس بأي زعم من هذا القبيل . بل هو لم يكن يروي لنا شيئاً عن ابي الدفاع او عبد التام او شمشون علي الرغم من ان حي الشفايعة وكبري ود نوباوي علي مقربة من موطنه الذي فيه داره واهله . ولاشك ان اقاصيص هؤلاء الابطال الثلاثة وغيرهم قد بلغته بحذافيرها ، او ربما سمعهم بأذنيه وهم يقصون الاعاجيب ويروون الخوارق والمعجزات . وذلك ان بابكر كان علي قدر من الاتزان وضبط النفس والتحكم في

العواطف قل ان تجد له مثيلاً في ذلك الوسط الهائج المائج المفتون بكل ماهو مثير او مرعب او غريب . ولست أذكر لبابكر اي معركة من المعارك التي كثيراً ما كان التلاميذ يشعلونها فيما بينهم ويضرمون اوارها ويصلون سعيرها بشتي الدوافع التي من بينها - وربما في مقدمتها - إثبات الذات وتأكيد المقدرات الجسدية وملكات البأس والفتوة . وما كان ابتعاد بابكر عن هذه المعارك وليد التزام باستراتيجية معينة او خطط تكتيكية مؤقتة او ادعاء لبق للفطنة والرزانة ، ولكنه كان سجية من خلائقه وطبعاً لصيقاً به . فهو لايعرف التعدي علي الناس ، ولايسف في القول حتي وان دفع الي ذلك دفعاً ، ولايورد نفسه مواطن الريبة . ورغم ان اكثر التلاميذ كانوا يقصون علينا ماتيسر سرده من احداث يومهم السالف إلا ان بابكر كان يؤثر الصمت في مثل هذه المجالس ، ويبتسم في وجوه زملائه وهم يتبارون في هذا المضمار ابتسامة فيها كثير من الرضا والتشجيع . فيمضون في رواياتهم غير عابئين بصمته وعدم مشاركته لهم في ماهم فيه . ومن الغريب اننا لم نسمعه ابداً يروي علينا اي شئ عن المغامرات الطرماجية التي كانت تروي طائفة منها كل صباح تقريباً واحياناً كل «عصرية» ، وهي عادة تكون حافلة بالمبالغات التي ينكرها العقل السليم لانها غير منطقية ، ويتقبلها الخيال وتلذ له لانها «عنكوليب» الحديث . وعندما نتوافد في العصريات زرافات ووحداناً علي جامع الخليفة لنقيم المباريات الكروية بين فرقنا الرياضية ما كان بابكر يتخلف عنا . ورغم انه لم يكن ذا كلف بممارسة لعبة كرة القدم بنفسه إلا انه كان من عشاقها المدنفين . ولقد ألفيته مستهاماً بفريق الهلال فعزز ذلك من صلتي به وقوي من صلته هو بالهلالاب في المدرسة . وقد شاء الله لبابكر في ماتلا تلك الحقبة من عهود ان يصهر الي بيت كريم بعض اهله جار بالجنب لدار الرياضة بام درمان . فكنا وقد بلغنا سني الشباب المبكر نغدو عليه ونبقي اضيافاً عنده حتي اذا اقترب موعد المباراة المعينة دلفنا من دارهم العامرة تلك الي دار الرياضة في يسر وسهولة ودون معاناة . والحق ان بابكر النور كان متزناً حتي في تشيعه لفريق الهلال ، فلم يصدر عنه ما يجرح مشاعر الاخرين ،

هذه هي الكلمة التي استبدلت فيما بعد بكلمة متسلل فالسرقة والتسلل رديفان ، وانما تطورت السرقة لغة ومعني لتصبح تسللاً . والامر فيه نظر . فمما لاشك فيه ان كلمة تسلل ارقي والطف جرساً وارق واسلس وادق تعبيراً ، لأن الذي يتسلل من خلفك يفعل ذلك بلطف وعلي حين غرة منك . اما السرقة فقد تعقب التسلل ويمكن اعتبار التسلل شروعاً فيها ، وهي قد تحدث من غيره والله أعلم فكأن المراد ان شخصاً ما قد تسلل من وراء ظهرك دون وعي منك (او عن وعي منك في بعض الحالات) واراد بذلك ان يسرق منك هدفاً او نصراً او فوزاً او متاعاً او شيئاً من هذا القبيل . ولكن بابكر لم يكن مفتوناً بمفردات اللغة العربية ولم يكن مغالياً في تبيان دقة الكلمات والمماحكة في تشقيق معانيها واجتلاء الفروق بين المترادفات منها والنقائض والأضداد ، ولذلك ابقي في قاموسه علي كلمة سارق وشجب هذه الفعلة الذميمة وادانها ودل بذلك علي استمساك ثابت بقيم الامانة وصدق المقاصد . ولكنه كان يختار لهذا الصدق مايلائمه من ظروف . فلو انه قال ذلك جهرة وصراحة علي مسمع من المتطرفين من الهلالاب لماجني من هذه الامانة وهذا الصدق خيراً ولا نعيماً ، ولربما تدافعت نحوه الأيدى «والشلاليت» من كل مهتاج يكاد يختنق بحبل الغضب ثم هو لايدري هل (يذهبن كيده ما يغيظ) . ولكن بابكر كان تلميذاً فطناً موفور الزكانة يتخير كلماته وتعابيره تخيراً ، ويستجلي جمهوره استجلاء ، ويدرك تباين أمزجة مستمعيه بحصافة ، ثم يعرف كيف يحسن مخاطبتهم بما يمكن ان يعوه ويتقبلوه منه دون اثارة تجلب عليه الشرور .

ولقد أبدى بابكر عزوفاً عن الطرماج مثيراً لاستغراب زملائه عموماً إلا القليل منهم . ومن هؤلاء القليل مصباح الصادق ، الذي رأي في هذا العزوف حكمة ورجاحة عقل . فهو قد وجد اخيراً في بابكر النور واحداً من اولاد ام درمان الذين يسكنون داراً قريبة من محطة الطرماج ولايكلفون به . وهذا في نظر مصباح هو عين العقل والرشاد . فلاغرابة اذاً في ان يقترب مصباح من بابكر ويصبح واحداً من اخلص اصدقائه . ولكننا لم نقف ابداً علي السر الكامن من وراء نفور بابكر عن الطرماج . قال بعضنا

ولم تخرجه انتصارات الهلال عن تواضعه الجم وأدبه المطبوع ليسهم في المعارك التي كانت تنشب بين التلاميذ اثر هذه الانتصارات ومايتبعها عادة من صنوف الاستفزاز وردود الفعل ، ولم تدفعه الهزائم التي مني بها فريق الهلال الي الموجدة والاشتطاط في اختلاق المعاذير واتهام الحكم ورجلي الخط بالتواطؤ وعدم الامانة كما كان يفعل غيره من التلاميذ . فمنهم من يزعم ان الشاهد (وهو الاسم السائد الذي كان يطلق علي حكم المباراة) منحاز لأنه «قابض» . ومنهم من يرمي واحداً من رجلي الخط او كليهما بما هو انكر من ذلك . ورجل الخط هو اللاينزمان ولكن هذه الكلمة الانجليزية استعربت علي ألسنتنا واستبحنا نطقها كما نريد ، فأكلنا حرف النون وحولنا حرف الزاي الي ظاء حتي صارت الكلمة المتداولة «لايظمان» . فانظر الي هذا الاعتداء علي لغة بني السكسون اي درجة من «التعفيص» قد بلغ ! ومثله كثير ، وقد تلبسنا به طويلاً : الباك هندس الكورة وذلك يعني ان الظهير مسها بيده . فاذا فعل ذلك صارت الكورة بلنت وليست هذه إلا الكلمة الانجليزية بنالتي (Penalty) . وكذلك فركريك التي هى تحوير لكلمتي فري كك (Free kick) الانجليزيتين . وحسناً فعل بنا التطور الذي علمنا ان نقول ضربة جزاء وضربة حرة وظهير ودفاع وجناح وغير ذلك من مستجدات التعريب التي حفظت للغة العرب كرامتها ووضعت حداً للاعتداءات المتكررة علي سلامة الكلمات الانجليزية . ولكن مالنا وكل ذلك ؟ لقد قلنا ان المعارك كانت تنشب بين التلاميذ إثر نتائج مباريات الفرق الرياضية . بل ان بعض هذه المعارك قد تنشأ وتحتدم بين الفرقاء لأتفه الاسباب . وتلك هي المواقف التي يظهر فيها اتزان بابكر ظهوراً جلياً . فاذا قال قائل ان محمد بلة كان « سارقاً » حينما سجل ذلك الهـــدف الذي كاد «يقد الشبكة» تسارعت الايدي قبل الالسنة لتسكت ذلك القائل او تجبره علي ان «يلحس» كلامه ، ولم يكن من بينها يد بابكر بأي حال من الاحوال . بل ان بابكر ربما اختار انسب الاوقات والمواقف ليفتي بأن محمد بلة كان « سارقاً » بالفعل وان الهدف الذي ارتجت له قلوب الناس والشباك واركان دار الرياضة غير صحيح . وكلمة سارق

او كان يردد في شي من الحزن والاسي مقولة ابي الطيب :

وقد يتزيا بالهوي غير اهله # ويستصحب الانسان من لا يلائمه

ولكن العجب ان هذا الحنق الذي ملأ نفس بابكر حتي كادت ان تضيق به فينفجر عنها انفجاراً ، وهذا الاسي الذي رنَّح اعطافه حتي كاد ان يعتزل الناس لم يدم اي منهما طويلاً وإنما تجاوزهما بابكر بسرعة مذهلة ونسيهما تماماً حتي ان محمد العوض اصبح من خيرة اصدقائه في فترة وجيزة . واما محمد العوض فقد ران علي سمته انقباض طارئ سرعان ما تقضي وزال ، فعاودته روحه العابثة بكل افاقها المترامية الاطراف ، ولاشك انه دعا الله في سريرته أن يغفر له افتآته علي بابكر ، ولو كان يعلم لأنشد في دعابة ابن هائي وانسه وعبثه وظرفه الموفور :

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة # حفظت شيئاً وغابت عنك اشياء

لاتحظر العفو ان كنت امرءاً فطنا # فان حظركه بالدين إزراء

اما الصقور فقد اعجبوا بهدوء بابكر وترفعه عن اغتيابهم او اغتياب غيرهم ، واتخذوه خليلاً ولكن على شئ من البعد ! وذلك لان نفوسهم لم تكن راضية تماماً عن تحفظه في التشيع لفريق الهلال . وربما كان بعض سخطهم عليه – او عدم رضائهم عنه – ناتجاً من مشاعر الاعجاب التي كان بابكر يبديها – في شئ من الحيطة والحذر – للاعبي الموردة ترنة « ودرار» « والصافي » «والجاك» «والشاويش جمعة» . واية حذره وتحوطه انه انما كان يبوح بذلك الاعجاب الدقيق ويظهره للناس عندما يتألق هؤلاء «اللعيبة» في مباراة بين فريقي المورة والمريخ . وهذا هو ما يقلل من سخط الصقور عليه ، بل هو ربما ارضاهم وسرهم واراح بالهم لأن الغريم الاول لفريق الهلال في نظرهم هو فريق المريخ . الذى كانت له مقدرة عجيبة علي الانهزام امام فتية الموردة القراقير الاشاوس ! ومهما كانت الملابسات والموافقات والمفارقات ، ومهما كانت درجة الرضا ومظنة القبول فان الكمال لله وحده . وقد رضي الصقور من بابكر مواقفه عموماً ، وخاصة بعده عن المنازعات التي تجر الي المعارك . فهو لم يكلفهم شططاً

انه ربما ابتعد عن ركوب الطرماج نتيجة لتجربة او تجارب مرة قاسية ، فليس طبيعياً الا يتحدث مثله عن هذه المركبة المجنونة إلا ان يكون قد عانى من «زرة» المفتش او ملاحقة الكمساري . او لعله حاول النزول قبل ان يبلغ الطرماج المحطة التالية فأصاب «بهدلة وملطشة» أبي له دهاؤه وكبرياؤه إلا أن يحتفظ بحقيقتها لنفسه وان يخفيها عن الناس . ولعل الحظ واتاه في تلك اللحظات الحرجة فلم يكن معه من التلاميذ من ينشر ذلك النبأ بين الناس ، فحمد الله علي انها «جات مستورة» وآثر - من فرط حكمته وكياسته - ألا يعيد الكرة حتي لايعطي فرصة - اذا فعل ذلك - لافتضاح امر ستر الله عليه . وقد كان هذا هو تصور محمد العوض مصطفي للأمر . فهو الذي قال لبعض الخبثاء مرة وهم يتجادلون فيما بينهم باحثين عن حل مقبول لهذا اللغز : « ياخي هو في واحد بيتهم جنب الطرماج ويجي المدرسة كداري » ؟ « مشي الكرعين دا ماهين . لازم في الامر شئ » ! ثم طفق محمد العوض يقهقه ساخراً متندراً وكأنه قد كشف الغطاء لكل ذي بصر حديد وخيال مستبصر ، حتي إذا رأى بابكر النور وهو يتهادى تلقاءنا همس في آذاننا : « هس ياولاد الكلب آهو القندف جايي » . ثم كان هو اول من تلقي بابكر بالأحضان وصار يتحدث معه في كل الامور إلا الطرماج . ولم يكن مكر محمد العوض بغائب عن فطنة بابكر وذهنه اللماح ، وهو قد ادرك محمد العوض وما تزال البسمة الساخرة ترتسم علي وجهه وهو قد سمع قهقهته لامحالة ، وألم به والمكر لا يزال يشع من عينيه الضاحكتين ، وترحابه المغالي يشى بأن بابكر النور دون سواه قد كان مضغة في فمه منذ هنيهة . ولكن اذا كان محمد العوض بهذا المستوي من المكر والخبث فان بابكر يحسن قراءة الوجوه ويمتاز بأنه « ذو بطن غريقة » . فهو قد سخط علي محمد العوض لا محالة ولكنه اسرها في نفسه ولم يبدها له ، واثر الا يبث حزنه وشكواه لاحد من البشر ، وفضل ان يدعي البله او « يعمل نايم » او « يعمل مجنون » او « يعمل اطرش » او ان يقول لنفسه : الايام بيننا ، ويتمثل قول القائل :

إذا انت لم تشرب مراراً علي القذي # ظمئت ، واي الناس تصفو مشاربه .

لحمايته والانتصار له لانه لا يغشي مواطن الشر ، وهو بعد هلالابي مدنف بحب الهلال دون ريب ، ولايشي بهم ، ولا يعترض علي تجاوزاتهم ، بل يبسم فى ارتياح ظاهر لايخفي علي التلاميذ ، ولاتدرك معانيه عيون الاساتذة . وربما اسر بابكر لبعض أقرانه - عندما يأمن اعين واذان الرقباء - عن إعجابه بأنشطة الصقور الهرجلية ، وعن احساسه بالاسي لتخلفه عن مجاراتهم . ولقد سمعت محجوب حسن سعيد مرة يقول لعبد الكريم ، ومحجوب كما قد علمت تلميذ قليل الكلام : ياخي بابكر تخين لكن خواف . ولكن عبد الكريم دافع عن بابكر وعزا ما حسبه محجوب خوفاً الي شدة حياء بابكر . وضحك محجوب ولم يزد علي ان قال : «إمكن» وهو يهز رأسه في استغراب . وان من خلائق محجوب ألا يسهب في الحديث ، وفي اعتقاده ان الدفاع عن حكمه الاول بجملة اخري هو إسهاب في الحديث ومدعاة الي اللجاجة ، ولذلك اكتفي بكلمة «إمكن» وحدها ، ولكن - كما يقولون « اللي في القلب في القلب » . اما عبد الكريم فقد كان « حبوباً » وهو حريص علي رضا صديقه محجوب وحريص ايضاً علي إنصاف بابكر ، ولذلك اضاف عبد الكريم واصفا بابكر ومستدركاً بذلك : «لكن بطنو غريقة»! فتقبل محجوب هذا القول ورضي به وسكت دون ان يقطب او يبتسم .

اما في الفصل فقد تعددت اماكن جلوس بابكر ، يبتغي من وراء ذلك الابتعاد عن مواطن الزلل والتجافي عن مواقع الهرجلة ومرامي سهام الاساتذة . ولكن من كان في فصل محمد العوض وعبد الكريم ومصطفي وامثالهم فلن تكتب له النجاة ، ولو ابتغي لذلك نفقاً في الارض او سلماً في السماء . نعم ، كان الكبتل يحترم بابكر ولايتصيد هرجلته ليثبت اسمه في القائمة المعلومة إلا نادراً ، وبعد ان يتصايح الخبثاء محتجين علي براءته «المزعومة» ، وبعد ان يغمز عبد الكريم للكبتل حتي لاتخرج الامور من اليد . ولكن عندما يكون الشأن شأن الاساتذة والدروس فان بابكر كان يعلم ان النجاة من غضب الاستاذ الحاج هاشم ومكر الشيخ ابي بكر انما هي العنقاء بعينها ، فكان يمتثل للامر امتثالاً ويتجمل تجملاً لما يسوقه اليه من نكد وشقاء . فليس الكبتل في مثل

هذه المواقف بمصرخه ، وليس عبد الكريم بمنجيه من سياط العذاب .

لقد توثقت صلتى ببابكر منذ نلك العهود السالفات ونمت وتكاملت في مدرسة خور طقت وما بعدها ، حتى اصبحنا صديقين حميمين . وقد تعرفت علي اخوته جميعاً وهم قوم كرام بحق . ولست انسي ابداً صديقي واخي العزيز عثمان النور عليه رحمة الله ، فقد كان ملاكاً يمشي علي الارض . وعرفت في بابكر شهامة ومروءة وطيب خلق نادر ، وألفت فيه رقة وعذوبة ونعومة مشاعر عجبت معها كثيراً كيف اختار بابكر ان يمتهن العسكرية ، وهو الذي قضي جميع اوقاته بين زملائه مسالماً وقوراً ينشد السكينة ويتزيا بالهدوء . وربما صح مازعمه عبد الكريم منذ تلك الآماد ان بابكر تلميذ شديد الحياء ولكن «بطنو غريقة» . فقد بان لأصدقائه بعد حين صحة ماذهب اليه عبد الكريم صاحب الفراسة التي لاتخطيء . غير ان هذه الصفة ليست مذمة علي الاطلاق ، بل هي ربما كانت في اكثر احيانها محمدة وصفة غالية . ولولا ذلك لهلك اقوام من اثرها ، ولولاها لنجا بابكر من موارد الحتف ، ولكن « لكل اجل كتاب » .

مصباح ... ولغز الطرماج والبسكليت :

أراني قد تركت صديقى مصباح الصادق الي أخر القائمة ، وليس ذلك من قبيل ختام المسك فحسب ، ولكن لأني اثرت ان يكون معي وانا آتى علي آخر أنباء فصلنا في « التواني » . وذلك ان المصباح صديق عزيز لم تنقطع صلتي به طوال هذه الدهور ، وان من زملاء مدرسة ام درمان الاميرية الميامين من ظلت صلتي بهم قائمة دون انقطاع يذكر ، غير ان مصباح قد يكون اكثرهم اجتراراً لهذه الذكريات . وقد برهن - بخطابه الذي ارسله إلي يستحثني علي الكتابة عنها - انه اشدهم حرصاً علي تسجيلها واشاعة فصولها بين الناس . والانسان الذي يكتب من الذاكرة عن احداث بدأت منذ خمسين عاما لايمكن ان ينتظر منه رصد كل جزئياتها بالدقة المطلوبة ، وانما هي طائفة من صور وحكايا وواقعات عشناها معاً وانتقش منها علي صفحات دفتر الذاكرة ما عجزت هذه «السنين» الطوال عن محوه وازالته .

جاءنا مصباح – وكنا نسميه المصباح – من السروراب ، وهي قرية لاتبعد كثيراً عن تخوم مدينة ام درمان الشمالية . وحق لمصباح ان يفخر بأنه اغترف مبادئ العلوم من منهل هذه المدرسة العريقة تماماً كما فعل والده من قبله بأزمان . ومنذ ان عرفت مصباحاً عرفت فيه تخلقه بقيم القرية السمحة السوية ، وان كان هو لايعترف بهذه الهوية القروية وربما اصر علي ادعاء التحضر والمدنية منذ القدم . واني لأذكر كيف التقيته في اول امرنا في المدرسة التي تقع حاليا قرب كبري شمبات ، حيث بدأ فصلنا اولي « ب» او « التواني » هناك . وكان مصباح – كبقية التلاميذ – يرتدي الجلابية البيضاء ذات الياقة ، ويلف علي رأسه عمامته – وكانت كبيرة او طويلة نسبياً – علي طريقة « محمود قيل » ، وهي طريقة عرفت بشكل خاص في القري السوانية عموماً ، والعمامة التي تلف علي هذه الطريقة تنتظم في هيئة دوائر مترادفة تبلغ طبقاتها اربعاً او خمساً لاتزيد ولا تنقص ، وهي فضفاضة بعض الشئ ، مائلة الي الامام ، منحسرة عن الاذنين ، مشتملة علي مؤخرة الرأس إلا قليلاً ، مطلة علي الحاجبين في قرب منهما تكاد من فرطه ان تلامسهما وتوشك أحياناً أن تنسدل عليهما . قد استدارت طياتها هوناً على غير ما شد وثاق ، حتى إذا هبت عليها نسمة هواء نشطة او اهتز صاحبها ضاحكاً تداعت حلقاتها العليا وانسدل طرفها علي الكتف او الوجه او القفا ، إلا أن يسارع صاحبها باعادة لفها وتمكينها من رأسه لتستدير عليه من جديد . اما اذا تغاضى عنها واكثر من حراك رأسه فانها تترامي علي كتفيه او قفاه لتنجلي عن طاقية هي الاخري بيضاء – وربما تكون حمراء احياناً – ذات شرائط متساوية تفصل بعضها عن بعض شبكة رقيقة من الزركشة مثقبة متناسقة الاجزاء متقنة النسيج ، تنتهي في قمتها الي قرص مستدير منمق كأنه خرز موضون . ورغم ان مصباح قد جاء من السروراب التي هي علي مقربة من مدينة ام درمان فقد ظللنا نقرأ آيات الحيرة والدهشة علي وجهه لفترة طويلة قبل ان تطمئن نفسه ويألف طبعه حياة الحضارة الجديدة التي دفع به اليها دفعاً وقذف به في ارجائها الصخابة قذفاً وقبل ان تركن

مشاعره القروية النافرة الي التعامل بطريقة ودية مع قيم المدينة الجديدة . ولست ادري ان كان في سابق عهده يذهب الي مدرسته الاولي علي ظهر حمار او سيراً علي قدميه، ولكنه بالقطع كان يري الترام لأول مرة في حياته ، فيتعجب من هذه الدابة الحديدية التي تجري علي القضبان وقد الصقت قرنيها بأسلاك شاهقة العلو وطفقت تحدث ازيزاً ونشيجاً لم يألفه طفل تعودت اذناه علي ثغاء الشياه وخوار البقر ونهيق الحمير ونقيق الدجاج « ولبلبة » التيوس ، واندغمت في احاسيسه اصداء نغمات هادئة خافتة منبعثة من جوف «زمبارة» الراعي وصرير الرياح وانين السواقي . لقد كانت هذه المصيبة ذات العجلات الحديدية التي تنزلق علي دروب من حديد املس هي اعجوبة في نظر مصباح.

ولكن اعجوبة الاعاجيب بالنسبة له كانت هي هذا الرهط من الناس المغامرين المستهترين بالحياة والسلامة ، الذين يجلسون داخل عرباتها الخضراء غير هيابين ولاوجلين وكأن الامر لا يعنيهم ، وكأنهم لايعرفون الانعام التي خلقها الله لهم فيها دفء ومنافع ، (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل اثقالكم الي بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس) . لو علم مصباح لتلا عليهم : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) . ولو تأمل اصدق القول (ويخلق مالا تعلمون) لعلم ان كلمة «ما» هذه تشتمل علي كل ما يمكن ان يخطر علي البال او لايخطر . ولكن مصباحاً كان تلميذاً صغيراً ، ولذلك كانت دهشته من حماقات اهل المدينة دهشة بالغة لاتحدها حدود.

ماذا لو عجز السائق عن ايقاف هذه الدابة المخلوقة من حديد ؟ ماذا لو« حدف » من يده « الدركسون » ؟ وماذا لو ارتطمت هذه المصيبة بأحد البيوت التي تصطف من حولها وهي تسابق الريح ؟ ماذا لو خرجت عجلاتها عن هذه القضبان وانكفأت بمن فيها وانغرست قرونها في الارض ؟ اترجي من ذلك سلامة ؟ ايمكن لعاقل ان يركب هذه المخاطرة وان يدفع من حر ماله ليبتاع من هذا الكمساري الاحمق الذي يرتدي بردلوبة الكاكي تذكرة هي في حقيقتها جواز سفره الاكيد الي الدار الاخرة ؟ وهبك احسنت الزوغان من الكمساري واتقنت فنون الاختباء عن عيني المفتش الفاحصتين

فأي فائدة ترتجي ان عثرت بك هذه المركبة المرعبة (والقت ما فيها وتخلت) وقذفت بمن علي ظهرها وفي بطنها الي الهلاك المحتوم ؟ ان اهل ام درمان مجانين دون ريب ، ولن يسمح مصباح لهذه الغواية المبتدعة ان تأسر لبه وتأخذ بتلابيب فكره . وخير له الف مرة ان يسير علي قدميه بعيداً عن هذه المخاطر ، او ان يطلب من أهله ان يمدوه بحمار او «دحش» ينقله الي المدرسة ويعيده الي اهله سالماً مطمئناً ، وهو لايبالي حتي اذا كان هذا الناقل أتاناً بلاسرج ولافروة وعلي ظهره امثال الريال ابو عشرين من الدبر والقرح والجراح ، او كان حماراً «دبلاوياً» كما يحلو لأهل القري ان يعيروا بعض الحمير بشدة الحران . إلا ان مصباحاً لن يلقي بنفسه او بيده الي التهلكة ، ولن يستمع الي نصائح هؤلاء المعتوهين من اولاد ام درمان . واذا كان ركوب الطرماج في حد ذاته خبلاً وجنوناً بالنسبة لمصباح فان النزول منه الي الارض وهو يندفع كالعاصفة إنما هو قمة الجنون . اما النزول «عكس» الذي يبشر به ويمارسه بعض «القنادف» من زملائه فانه لايجد في قاموسه كلمة واحدة يمكن ان يصفه بها . ولو علم مصباح لتأسي بحكمة الشاعر المجذوب اذ يقول في معرض نفوره من المدينة وحنينه الي القرية :

إني من الدامر السمحاء دوخني # هذا الترام حماراً غير مأمون

فيه ارتدفنا وقوفاً ثم جمدنا # ذاك التأله من سواقه الدون

وكم أروح إلى الطباخ يخدعني # صياحه بطبيخ غير مسمون

من لي « بكسرة » خالاتي ومايبست # فيها القواديس في احجار طاحون

كنزي قلادة تمر عدها مائة # معسولة كعيون الخرد العين

وقرعة حلبوا فيها وأعجبها # رغو يفور علي زهو يناديني

ابغضت حذلقة الخرطوم سوف تري # يوماً يجيء بجزار وسكين

تلك هي بعض إيحاءات الحنين الذي كان يداعب نفوس التلاميذ الصغار الذين قدموا من مواطن الدعة والامان ويسر الحياة في القرية الي صخب المدينة ومتاعب الحياة فيها ، وفي طليعتهم كاتب هذا السطور .

ومهما يكن من امر فقد كانت قناعات مصباح وتصميمه ان يبقى حياً سليماً كيفما تآمرت عليه اغراءات المدينة الزائفة وكيفما حاول اغواءه هؤلاء التلاميذ المردة . فهو لايعرفهم جيداً وان عرفهم فهو لا يثق بهم ولايأمن مكرهم . ولعله قد حمل معه في حنايا صدره من وصايا الاسرة بالمحافظة علي نفسه وعافيته ما صار له ذخيرة مأمونه يلجأ الي بركاتها دون انقطاع . وليت اهله عرفوا الطرماج وأبانوا له افضل الوسائل للتعامل معه ، او قل لاجتنابه بل ولاجتناب الطرق والمنعطفات التي يسلكها ! غير ان قيمة الوصايا تكمن في عموميتها ، وفلاح الانسان في استصحابها استصحاباً رشيداً مرناً يفرض عليه ان يأخذ في الحسبان كل جديد لم تشتمل هي علي التحذير من مخاطره . فاذا خلت الوصايا الاسرية من النصوص القاطعة بشأن بعض المستجدات التي لم تكن تخطر علي بال فليكن اللجوء الي القياس مع الابقاء على الحذر وحضور الذهن واستصحاب المرونة وبعد النظر . وقد افلح مصباح في ذلك كله في اول امره ، فابتعد عن كل مامن شأنه ان يزج به في مغامرة لايرجي منها مخرج بسلام . وبالطبع كان التخلق بالمكارم من صميم وصايا الاسرة ، شأنها في ذلك شأن كل اسرة سودانية صميمة . ومن منا لايذكر وصية امه ودعاءها له بالخير وحثها له علي التمسك بأكرم الاخلاق ؟ «إنت يابابا تبقي لي غابة والناس حطابة» . انظر بربك الي هذا الدعاء وهذه الامنية . إنها تستوفي جميع معاني الكرم والبذل ومآثر العطاء . «إن شاء الله يا ولدي نارك وقادة وضيوفك ورادة» . وهذه قمة اخري من قمم الشهامة والنخوة .« إنت يا ولدي ماك جمل الشيل وضو الليل» . دعوة صريحة الي استيفاء المروءة وتحمل اثقال التضحيات من اجل الغير وتبديد الظلمات وانارة الطريق للناس . «الله يعليك علي المابيك» . اطروحة اخري في شجب الحسد ودعوة صادقة الي العمل وبذل الجهد من اجل التفوق. وغير ذلك كثير . تلك هي بعض امهات المعاني التي كان تلميذ تلك الايام يملأ رئتيه من هوائها النقي ، وتجري بها دماؤه في عروقه . جاء مصباح – كما جاء غيره – يحمل بين جنبيه هذه المعاني الكبار الزواهي ، وهي ذات المعاني التي تخلقت

من رحمها امال ذلك الجيل وشدت قوائم عزماته . فلا جرم عاد الي صفائها من اختلست بعض صفائها منه تقلبات الحياة واضطراب الناس فيها اثر غفلة عارضة ، فعرفها من جديد واشتاق الي ظلها وأمانها وفرح بها واستقر واستقام عليها ولزم .

بعد ان تم قبولنا في مدرسة ود نوباوي - التي صارت الاوائل الي حين فيما بعد - بدأنا الدراسة في فصل « التواني » ببيت المال ، وذلك لفترة قصيرة . وهناك تعرفت علي مصباح الصادق ، ووقر في نفسي هذا الانطباع الذي سلف سرده . ولست انسي ان فصلنا كان في الجهة الشرقية من المدرسة ونحن نجلس لأدراجنا واوجهنا متجهة الي الجنوب . واما باب الفصل فقد كان يفتح الي الجهة الغربية قريباً من الركن الجنوبي الغربي للفصل . واول استاذ دخل فصلنا كان هو الشيخ ابوبكر عبد الله ، فكان منه ماروريناه سالفاً عن محمد علي مقبل وكيف صار في نظره مدبراً منذ تلك الوهلة الاولي . وكان ثاني الاساتذة الذين دخلوا فصلنا هو الاستاذ احمد زين العابدين . ولا بد انه اشتغل بالتدريس هنيهة قبل ان يسافر الي القاهرة ليتخرج في كلية الحقوق بعد سنوات . لقد كان الاستاذ احمد يدرسنا اللغة العربية . واني لأذكر جيداً انه في يومه الاول كتب لنا علي السبورة نشيد : احب الماء والشجرا # احب النيل والقمرا . فكان مصباح في مقدمة التلاميذ الذين استظهروا ذلك النشيد وحفظوه عن ظهر قلب بسرعة فائقة . ولم اتعجب لذلك اذ ان مصباحاً عربي من السروراب . وماذا في السروراب غير الماء والشجر والنيل والقمر ؟ ولو كان في النشيد اي ذكر لطرماج السمع او عجلاته وبكاراته ، او اي ذكر للقطار وقمراته وقضبانه الحديدية ، او اي ذكر لأى امر من أمور المستحدثات الحضارية المعقدة التي يعمر بها قاموس المدينة لاستعصي ذلك علي مصباح ولصعب عليه استيعاب طرق النطق لتلك المفردات العجمية ناهيك عن استلهام معانيها واستقرارها في الفهم استقراراً تطمئن النفس اليه وتأنس به . ولو ان الاستاذ احمد عرف جلية الامر واراد ان يبهج مصباح الصادق حقاً لكتب لنا ايضاً قصيدة الشاعر الشيخ عبد الله البنا التي جاء فيها :

فلو سكنت معنا البطانة # لما رأيت مثلها مكانة

يكفيك من دنياك كلب صيد # يكون للغزلان مثل القيد

تمتع النفس من الأرانب # ومن حليب لبن ورايب

انا اذا امطرت السماء # فأرضنا جميعها خضراء

إبلنا من حولنا عظام # كأنهن رتعاً نعام

وبقر الحى لها دوي # كأنما قرونها العصي

والضأن والمعزي تبيت حولنا # نحبها كحبنا أطفالنا

إذا ثغين مغرباً في الساحة # فكالنساء صحن في نياحة

والناس عندنا جميعاً اخوة # وهم لذي المرعي الجميل اسوة

نحن ألفنا سكن البرية # لحسن ما فيها من الحرية

فذ لك هو العيش الرغد الهنيئ يافتي ! او تعجب بعد كل هذه «البانوراما» الرائعة ان قلت لك انها كانت ستسعد مصباحاً اذاالم بها ؟ واين هذه الحرية وهذه الطلاقة من ضيق المدينة وانقباض رتابة الحياة فيها ؟ الا تري ان مصباحاً محق اذا استبته هذه الصور والمعاني وهام بها واهتاجه الي منابعها الشوق والحنين ؟ .

كان ضحك مصباح علي محمد علي مقبل مقدمة لبدء صداقتي به . وذلك ان مقبلا كما ذكرت حنق علي اشد الحنق ، فقد خرج هو من حصة الشيخ ابي بكر مدبراً وخرجت انا شريفاً (فأى الفريقين احق بالأمن ان كنتم تعلمون) و(أي الفريقين خير مقاماً واحسن نديا) . هل يستويان مثلاً ؟ شتان مابينها .

فشتان ما بين اليزيدين في الندي # يزيد سليم والأغر ابن حاتم .

ولذلك كان العراك بيني وبين مقبل . ولذلك ايضاً عرفت من هم حلفائي الحقيقيون وكما كان يقول الاستاذ محمود علي الياس - وهو يحاول ان يشرح لنا بعض فنون الرياضيات «إن ناقص ناقص تساوي زائد» لأن عدو عدوك صديقك - فمن ضحك علي مقبل في تلك الواقعة واستخف به فقد عاداه ، ومن عاداه فهو لي صديق إذ ان مقبلا

قد اختار طوعاً معاداتي . ولكنه العداء المحبب ، عداء الطفولة العابث الذي سرعان ما ينقلب الي اخاء وصفاء ووداد . ورغم ان الود قد اتصل بيننا جميعاً فيما بعد برغم المهارشات والصراعات العابرة التي لاتدوم ولاتبقي في الانفس منها مرارات ، إلا ان صلتي بمصباح ، ومنذ تلك اللحظة وحتي كتابة هذه السطور ظلت وداداً متصلا لم تكدر صفوه آثارة من سوء . فلله تلك الايام الغر النواضر ولله اولئك الصبية الصغار البررة ، ولله تلك المعاني السامية الوضاح التي غمرتنا بطهرها وعافيتها ردحاً من الزمان ، ولله اولئك النفر الكرام من الاساتذة الذين غرسوا في نفوسنا محبة العلم والوطن والتخلق بمكارم الاخلاق !

كنا نعجب من الاستاذ احمد زين العابدين وكيف يذهب لشأنه في داخل حدود المدرسة وهو علي ظهر دراجته ! لقد كنا نضحك لذلك كثيراً ، ويرمي بعض الخبثاء منا الاستاذ بالكسل وربما وصفه بعضهم «بالقرضمة» وقد يصفه فريق ثالث بحب الاستعراض ، وهو برئ من كل هذا وذاك . ولكن الشيء المثير بالنسبة لمصباح لم يكن هذه الصفات والنعوت التي انقسمت حولها الاراء ، وانما كان هذه العجلة ، هذه الدراجة ، هذا البسكليت ، هذه المصيبة المصنوعة من الحديد وهي تسعي في الارض علي عجلتين ، ولها فانوس وأيدي وبدالان وجنزير . ياإلهي ، ما هذا ؟ هل جن اهل هذه المدينة المسحورة ؟ كيف تجري مركبة علي عجلتين ؟ وقصاري ثقافة مصباح في هذا المضمار لم تتعد رؤية اللورى الفورد أو البدفورد أو الأوستن ، وهم ينطقونها «هوستن» بهاء من ابداعاتهم عندما تستعرب علي السنتهم لغة الاعاجم . ولكن الهوستن علي اي حال مركبة ذات عجلات اربعة تجري علي اليبس ، فكيف استطاع اهل ام درمان ابتداع هذا البسكليت الذي يمشى علي عجلتين ؟ والادهي من ذلك ، والذي كان يحير مصباحاً تمام الحيرة هو كيف يتسنى لانسان – ان لم يكن به مس من الجنون – أن يعتلي سرج هذه الدابة ويمسك بمقودها ثم لا تخطئ قدماه في الدوران مع بداليها وجنزيرها حيث تدور ؟ وكيف يستطيع الانسان ان يحافظ علي

:تزانه وهو علي ظهر هذه الدابة الحديدية ذات العجلتين دون ان يسقط علي الارض ويمتلئ فمه بالتراب ؟ إن مصباحاً لن يدخل نفسه في مثل هذه المآزق والورطات فهو يعلم من تجارب اهل الريف ان الانسان اذا سقط من ظهر الحمار فانه في اكثر الحالات ينهض سليماً . وفي الاحيان القليلة التي يتأذي فيها يذهب به الي بصير القرية وقصاري ما يحتاج اليه من علاج لايتعدي مرواداً أو مروادين احمرين كالجمر لوناً وحراً يكوى بهما موضع الالم فيبل ويشفي في لحظة ، «الكمدة بالرمدة» . ولكنه لم تقع عيناه بعد علي احد سقط من ظهر هذه المصائب المبتدعة ، وانه ليوقن في قرارة نفسه ان السقوط منها لايكون معه قيام ابداً ولن ينفع معه مرواد البصير ولو حمي في نار جهنم ! ولذلك وضع مصباح البسكليت ضمن قائمة المحرمات التي يحتفظ بها في سريرته في طي الكتمان لا يعلن من امرها شيئاً علي الملأ ولا يسر به الي احد مهما كانت الظروف .

ولما كان اكثر التلاميذ ينتعلون احذية الباتا في ذلك الزمان فقد كان مرأي عز الدين عباس حلفاوي وهو «يقدل» في حذاء جلدي ذي رباط مثيراً للدهشة . ولقد رأي بعض الخبثاء كيف كان مصباح يحملق في حذاء عز الدين ، ولم يكن احد يدري هل كان يغبطه عليه ام انه كان يتعجب منه مجرد العجب . فروي هذا الخبيث فيما بعد قصة مضمونها ان احد مواطني السروراب ابتاع حذاء لامعاً من سوق ام درمان ، وعندما ذهب به الي اهله سأله اهل القرية في دهشة واستغراب : ماهذا الحذاء الذي يلمع ويشع ببريق خاطف ومستمر في ذات الوقت ؟ فقال لهم : هذه جزمة قزاز . قالوا : ومن اين جئت بها ؟ قال : من ام درمان . فاسترجع العقلاء منهم وهزوا رؤوسهم في حيرة وارتباك دهش ، ومسح كل منهم كفاً بكف ، ثم تنفس اعلمهم بالامور نفساً طويلاً وقال معبراً عن مشاعرهم جميعاً دون استثناء : الله قادر . والله ناس ام درمان ديل بعد دا فاضلة ليهم الروح بس يسووها ! وهذا يذكرني بطرائف اخر كانت تروي عن بعض ابناء القري من طلاب جامعة الخرطوم علي ايامنا فيها . فان تأملت هذه

الطرائف ايقنت ان مصباحاً لم يكن بدعاً من اهل القري . فمما كان يروي عن احدهم انه رأى ذلك الاعلان الشهير في المحطة الوسطي في قلب سوق الخرطوم وهو يتلألأ بالنور الخاطف ويظلم في تتابع سريع لايمهله حتي يميز حروف الكلمات التي كانت تقرأ بالانجليزية ذات الاحرف الكبيرة ! « DON'T BE VAGUE ,ASK FOR HAIG » ولكن هذا الشاب القروي لم يهتم بمضمون الاعلان قدر اهتمامه بهذه الظاهرة التي تبرق وتنطفئ لتبرق من جديد ثم تنطفئ ثم تبرق الي مالانهاية . فما كان منه إلا ان ظل «مصنقعاً» يتابع هذه الدورات السريعة المتلاحقة وهو يردد : امك ولع ، امك طفي ، امك ولع ، امك طفي ... حتي اشفق عليه بعض المارة فقال له : ياهذا اذا تابعت هذه المصيبة فان رقبتك ستنكسر قبل ان تصل الي نهاية امرها وربما انقطعت انفاسك قبل انكسار الرقبة ! واما القروي الاخر فقد كان طالباً عجوزاً « يهاتي» بالزواج . وذات مرة سأل احد اصدقائه عن تكلفة الزواج في ام درمان . فرد عليه قائلا : ان تكلفة الزواج من بنات ام درمان لاتقل عن اربعمائه جنيه بالتمام والكمال . فطفق صديقنا القروي يمسح كفا بكف ويهز رأسه عجباً وهو يقول : الكتلل ، والله في اهلنا مرة الجنيهين الحمار ما يشيلها ! وساعتها علمنا لأول مرة كم من المال كان صاحبنا يدخر لزواجه المزمع وماهي المقاييس التي يريد ان يزن بها المرأة التي يتعشقها ويتخيرها شريكة لحياته ! وهكذا نري ان مصباحاً كان علي اقل تقدير تلميذاً متحضراً بالقياس لهذين الصديقين إذ من الواضح انهما لوتعرضا لنفس تجربة مصباح وهما في سنه لوليا علي ادبارهما نفوراً . فلا اقل من ان نحمد لمصباح صموده اما هذه التجارب المرعبة المحيرة واجتيازه لها بسلام دون فرار او نكول .

بعد اشهر معدودات تحولنا من مدرسة بيت المال الي الكلية القديمة التي اصبحت تعرف باسم مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي ، وان كانت مدرسة التجارة الثانوية الصغري تشاركنا المكان وتحتل الطابق الاعلي منها . وهناك كان الفصلات «الأوائل» و «الثوانى» وهناك نمت وترعرعت بيننا وشائج المودات التي اثمرت محبة باقية ووفاءً اصيلاً ، رغم ما كان يعتري سير الحياة من مشاحنات عارضة

سرعان تنجلي عن وفاق وتفضي الي روابط أوثق وعلائق أتم وابقي بين اولئك الفتية الصغار . وهناك تعرفنا علي رصفائنا من فصل الاوائل : دفع الله الحاج يوسف ، والهادي محمد عباس ومحمود زروق وعوض الله (او عبد اللطيف) زروق ، ومحمود قرشلي وعوض الكريم محمد علي بكار وكمال شكاك وامين علي حسني وعبد المنعم عبد العزيز ابو سمرة ومصطفي احمد عيسي ومصطفي خوجلي وعبد الله عبيد ، وصلاح الزبير والطيب عوض دياب وابا صالح وغيرهم . كما تعرفنا علي طائفة من تلاميذ الاوائل والثواني من مختلف المراحل : من اولاد رابعة حسين سليمان ابو صالح وصلاح مازري وعمر محمد سعيد وساحر كرة القدم مرزوق والطاهر الفاضل محمود وغيرهم ، ومن اولاد ثالثة مأمون يحي وعبد الوهاب سنادة وشبيلية وخليل ابو زيد والفاتح عبد الله حامد وعبد الجليل محمد والطيب وحسان وعبد الرحمن محمد نور ومحمد عبد العزيز أبو سمره وعوض خلف الله وغيرهم ، ومن اولاد ثانية عبد الرحمن اللدر والطيب احمد حميدة والسر دوليب وغيرهم ، ثم تعرفنا بعد ذلك علي اولاد الفصول التي تلينا تباعاً : محمد احمد قاسم وعبد المحمود ابو شامة وفيصل تاج الدين وعبد الله عبيد حسن ، وعبد الحليم عباس ، وملأ لايحصي من التلاميذ . وشيئاً فشيئاً اخذ مصباح يألف جو المدينة ويتأقلم على منغصاتها ويحاول ان يستوعب المستجدات . وقد اعانه علي ذلك مرونة في طبعه كانت مستكنة في اعماقه . فلما استلهمها واستجار بها لمواجهة غرائب الدنيا واتته سائلة عذبة متجاوبة مع تفكره في الامور وتدبره لخفاياها . وساعده ايضاً علي ذلك تعاطف صديقه وصديقي عبد الرحمن كنتباي الذي بدأ تماماً كما بدأ مصباح ، وبدأ كلاهما كعلي بن الجهم . وانهما وان لم يبصرا عيون المها بين الرصافة والجسر – اذ لم تكن هناك رصافة ولم يكن ثمة جسر – وان لم يبلغا من العمر – والله اعلم – ما يؤهلهما لادراك معاني الهوي تجلبها عيون المها «من حيث ادري ولا ادري » إلا انهما قد فطنا الي انهما يقفان علي اعتاب فتح جديد مفض لامحالة الي عوالم المدنية والحضارة . فتقحما هذه العوالم عنوة فيمن تقحم ولما تغب عن ذاكرة وعيون الأسماع

بعد اخلاط اصوات هي مزيج من نباح الكلاب تحفظ الود وتحمي الحمي ، وشكول من لبلبات التيوس وهي تتناطح تنمي قدراتها علي قراع الخطوب ، وأهازيج من ثغاء الشياه وهي تروح صوادر في الامسيات في صحبة الراعي الامين . كما ان ذاكرة الشم عند القوم حديثة عهد ببقايا روائح مألوفة منبعثة من معاطن الابل ومرابط الدواب والبربندي وشايات الحمير ، ثم نفس الدعاش ، وفي خيالهم صور متباينة لطبيعة فيها من الخيرات الاخضران الزرع والضرع ، وفيها من مظاهر القدرة العطاء والمنع ، (ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك) . (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود) . ولقد تمتن الرباط والحلف بين اربعتنا تمتيناً : مصباح وكنتباي والنفراوي وشخصي . وكان مصباح اكثرنا ضحكاً واقربنا الي الهزل وابعدنا عن الجد ، اوقل عن التمسك به في كل الاحيان والمغالاة فيه . ولذلك احبه محمد العوض وعباس صالح وهاشم الاطرش ومصطفي عابدين ، كما احبه الصقور جميعاً . وصرح عبد الكريم في غير مرة ان مصباح الصادق طيب جداً . وهذه شهادة بالغة الاهمية لأنها تمثل رضا القوة الضاربة في الفصل . وهي اذا جاءت من عبد الكريم فمعني ذلك انها اتية ايضاً من الكبتل ومحجوب ومكي . ولعل قرب مصباح من عبد الرحمن كنتباي كان من العوامل الهامة التي جعلت عبد الكريم يثني عليه هذا الثناء العاطر ويزكيه هذه التزكية الغالية الصريحة ، لأن عبد الكريم لم يكن ليزكي احداً بهذه السرعة وبهذه الصورة القاطعة . ولقد ادرك مصباح قيمة هذه التزكية وحافظ عليها وصار بفضلها في مأمن حقيقي . وهذه هي ثمرة النظر الي الامور بمنظار العقل المستبصر الذي يتفهم واقع الحال تفهم دراية ورشد ولا يظل حالماً غافلاً يتجاوز مقدراته ويتمني علي الله الاماني .

واذا كنت قد « نبطت » علي صديقي الغالي مصباح بعض « تنبيط » بمثل هذه المداعبات الغليظة او هذا « الهظار الدراش » فما كان ذلك إلا من فرط المحبة التي اكنها له في نفسي وهو بصدقها عليم ، لأنها محبة قديمة ولدت منذ ذلك الفجر الذي التقينا تحت ضوء شمسه في تلك الايام النواضر الخالدة . وهي محبة لاتزال علي صفائها

وروائها ونضارتها ، لم تنل منها عاديات السنين ، ماغيض ماؤها ولاجفت مناهلها ، وماغالها يبس الفرقة والافتراق ولا جدب الحاضر المريع وقحط ايامه السود العوابس ، ولم يبدلها ويغيرها اختلاف المصائر وتباين الاحوال . وذلك لأنها نشأت منذ يومها الاول صادقة ومتينة ، وانبنت وقامت علي ركائز الوفاء والاخلاص واتفاق الكلمة والعطف المتبادل . اما الركائز الثلاثة الاولي فقد كانت خلائق تلك العصور وشيمها ولباب قيمها السائدة . واما العطف فهو الحنان والحنو الذي يسبق المحبة ويفضي إليها . ولقد أشارت حكمة برنارد شو الي بعض ذلك إذ يقول :

« If pity is akin to love gratitude is akin to the other thing »

والمعني – عموماً ودون ترجمة حرفية للالفاظ – هو انك اذا حنوت علي انسان احببته ، وان احسست انك مدين له كرهته . وهو معني قد لايستسيغ بعض الناس نصفه الثاني ، ولكن فيه عمقاً فلسفياً اذا حدقت فيه وتأملته ملياً اطلعك علي اسرار في طبائع البشر وارشدك الي ما يصدقها في حياة الناس ولا يكذبها . وصاحب هذه المقولة هو عين الشخص الذي قال ايضاً « Familiarity is a sort of impertinence » اي ان رفع الكلفة انما هو ضرب من ضروب الجسارة أو الصفاقة أو سوء الأدب . وهو قول لا يعدو الحقيقة ان انت احسنت التفكر فيه . لقد كان العطف والتعاطف فيما بيني وبين مصباح شعوراً ذا تفرد وخصوصية ، وهو الذي اثمر هذا الود الباقي الذي عجزت الفرقة ان توهيه واخفقت سنوات البعاد وفتراته المتطاولة ان تمسه بسوء او وهن

وهو الذي اغراني بالجسارة ورفع الكلفة التي لم تكن اصلاً موجودة بيننا في يوم من الايام . وآية ذلك ان مصباحا – دون غيره من رفقة الحداثة والصبا – هو الذي اوحي إلي بخطابه الرقيق ان اقبل علي تسطير هذه الصفحات ، وهو الذي الح علي بوفائه الاصيل ان اتصدي لرصد هذه الاشتات المتباينة في رواية لأحداث قد تسلي او لاتسلي ، ولكنها تذكر بأيام خوالد من ايام ذلك الجيل القديم ، والذكري تنفع المؤمنين . وانا لست ارتاب في ان مصباحاً يحمل في أعماق نفسه امثال هذه الانطباعات وغيرها مما لم تهدني ذاكرتي اليه . ولو اراد ووجد متسعاً من الوقت في هذه الأزمنة

الشداد الجدباء لأوفي الامر ما عجزت عن إيفائه ، ولأورد من الطرائف واللطائف والملح ما قعد بي دونه سلطان النسيان . ولكني تصديت لهذا الامر نيابة عنه وباذنه ، ونيابة عن الاحباب الاخرين دون اذن مكتوب . ولو خيرت لأخترت الا افعل حتي يفعل غيرى .
ولقد طال الامد واقترب الوعد الحق ، فرأيت ان أجمع هذه الاشتات واستجلي هذه الاطياف عساها توقظ همماً هي اقدر مني علي الايضاح والتبيين والرسم بالكلمات . فتلك أيام تستحق أن يقف حيال صورها من شهدها. ومن لم يشهدها لأنها ومضات حوافل بحياة ذلك الجيل بأسره .

وما العطف والتعاطف الذي جمع بيني وبين مصباح إلا ذلك الرباط الوجداني الوثيق الذي يصل بين صديقين حميمين جمعهما رواق واحد يستظلان بظله الوارف ويتلقيان في رحابه بواكير انوار التبصرة والمعارف علي مدي سنوات قصار في حساب الزمن اللاهث الحثيث ، طوال في حساب التذكار الذي لا ينقطع والذكري التي لا تنمحي . فولد ذلك الرباط المودة وسمت وارتقت هذه المودة حتي بلغت درجة المحبة . وعلي خصوصية مابين وبين مصباح فان الكل كانوا أحباباً ولا يزالون . ليس بين التلامذة الصغار مشاعر عرفان بهذا المعني الذي قد يلوح لك ويتراء ى من ظاهر مقولة برناردشو ، لأنهم متماثلون وانت بينهم كما تدين تدان إذ لم يكن من بينهم من هو احوج الي غيره من هذا الغير إليه . فتلك ندية حقيقية ، ورؤوس مرفوعة ، وجبله شامخة ، ووجوه لاتعنو إلا للحي القيوم ، وان عرفت كيف تتأدب مع اساتذتها ومن هم في مرتبتهم من الكبار . فالحنو والتعاطف والعطف بينهم مشاعر صدق وحقائق صفاء، ليس فيها مماراة ولا عوج ولا التواء . وذلك انهم لم يعرفوا المين ولا التمثيل ولا الخداع ، فمن وراء ذلك غلبة البراءة عليهم وأثر التنشئة فيهم وصدق المشاعر التي يبدونها ويتبادلونها فيما بينهم ، وبساطة حياة كانت تزخر بالفضائل . فاذا كان مصباح – كما « نبطنا» عليه – قروياً من السروراب فان كاتب هذا السطور اشد قروية منه ، لأنه ولد في الكوة وتربي فيها وفي الجزيرة ابا ، وهما بقعتان تفصل بينهما وبين عاصمة البلاد مئات الفراسخ ، بينما قرية السروراب – وهي « ضهرة » من ضهاري المدينة – علي مرمي حجر من ام درمان ، وتوشك هذه المدينة التي تترامي اطرافها

تراميا حثيثاً في كل حين ان تبتلعها اليوم ابتلاعاً وان تجعل منها حياً من احيائها التي لاتحصي . غير ان مصباحاً ينبغي الا يسر بهذا الاعتراف لأن كاتب هذه السطور قد سبقه الي ام درمان يوم كان بعض ذرية في ظهور الاباء الذين عمروها ونفخوا فيها الروح ، وساواه يوم ان اتاها وهو دون العاشرة بقليل تلميذاً في الأميرية الوسطي . ولكن اولاد ام درمان لا يعترفون لك يامصباح بحق المواطنة في مدينتهم الا ان تكون قد ولدت في ام درمان . وقد يولد فها من لاصلة له بها غير المولد ، وقد ينكر فيها ويذاد عنها من لاسبيل لانكار جذوره فيها . وهي حالة من حالات الدنيا ، فلا يحبطن ولاعك مكر الماكرين . فلو لم تكن السروراب وام مرح والكوة والجزيرة أبا لما كانت ام درمان ، ولن يجهل ذلك اولادها . وعندي ان اروع مافي الامر هو ان مدينة ام درمان هي بالفعل ام السودان الذي نعرفه وقد ولدته مرتين . المرة الاولي عندما اسسها الامام المهدي وصحبه الابرار ورفعوا فوق سمائها عالية خفاقة راية الوطن الواحد المستقل . والمرة الثانية عندما سقط علي سفوح جبالها ووديانها وسهولها الشمالية وبين حواريها وبيوتها المتواضعة عشرات الالوف من شهداء الوطن الذين تحدورا من شتي المنابت والبقاع علي امتداد رقعة البلاد بأسرها . فتلك الدماء التي سالت وامتزجت بتراب البقعة هي التي اعطت حق المواطنة في مدينة ام درمان لكل سوداني حيث ما وجد وأين ما كان . فلا تكن مثل ذلك الخبيث الذي حاجّه اولاد ام درمان فرد عليهم متعجباً من ان اقامة خمس سنوات في انجلترا كانت كافية في وقت من الاوقات لحصولك علي الجنسية البريطانية بينما الاقامة في مدينة ام درمان لعشرات السنين المتتابعات ليست بعاصمة لك من ان تظل في نظر اولادها وافداً من جملة الوافدين ! ولكنهم لم يرقوا لحاله بل جعلوا من المثل الذي ضربه حجة داحضة . فلما استيأس من ان يجد منهم اذناً صاغية راح يزعم ان ام درمان كانت موطناً لاشتات السودانيين الذين توافدوا عليها ولم تكن شيئاً حتي عمرت بهم وتأهلت . وعندما اقتحمتها جيوش الغزاة المستعمرين في اواخر القرن الماضي ذهب كل ذي اهل واصل من سكانها الي اهله

واصله ، وبقي فيها من لم يعرف الي اين يذهب !

وعلي ذات طريق رفع الكلفة مع اخي وصديقي مصباح فاني استغل هذا السياق لاعرف قارئ هذه الصفحات الذي لايعرفني بنفسي ضمن هذا الحيز الذي هو حيز الحديث عن مصباح . وهذا امر يأتي مصادفة وبتلقائية اذ الاصل في مثل هذا التعريف ان يأتي في المقدمة . ولكني لا أتكلف شيئاً فيما اكتب ، وربما كانت هذه الخصوصية التي اشرت لها في علاقتي بمصباح هي التي حشرت هذا التعريف بين الاسطر التي تتحدث عنه . فقد قلت لك اني ولدت في مدينة الكوة وكان ذلك في عام ١٩٣٦ . والكوة هي التي شهدت اول برقية للحكمدار رؤوف باشا في الخرطوم يعلن فيها الامام المهدي عن مهديته . وقد نشأت فيها وتلقيت تعليمي الاولي في كتابها وكتاب الجزيرة ابا . فالكوة موطن امي السيدة فاطمة بنت الحاج المهدي سيد احمد عليهما رحمة الله . ابوها بديري دهمشي ، وامها من احفاد السيد فحل جد الامام المهدي المباشر من ناحية ابيه . وقد كانت رحمها الله تقول انها بديرية دهمشية وخناقية ودفارية (بتشديد الفاء وفتحها وضم الدال حتي نفرق بين الاصول القديمة والمواصلات الحديثة) وانها سليلة الاشراف . والجزيرة ابا هي موطن ابي وهي – كما علمت – موطن الثورة وموئل الدعوة ، ومهد الغار الذي تضوع طويلاً بالذكر والمناجاة وقيام الليالي والاستغفار بالأسحار ، وهي ارض ام المعارك الاولي التي تخلق في رحمها ثم ولد سيداً عزيزاً سودان اليوم . وأبي هو السيد عبد الله (ولقبه الهاشمي) ابن السيد حامد شقيق الامام المهدي الذي استشهد في اوائل ملاحم الثورة . وينطق اسم عبد الله بضم حرف الدال وكسر الهاء في اسم الجلالة ، فذلك هو اسمه الذي عرف به وهو اسم جده لأبيه . ولقد دعاني لهذا التوضيح ما توهمه كثير من الاصدقاء والاحباب من انني شقيق كل من اللواء احمد عبد الله حامد والعقيد ابوبكر عبد الله حامد عليهما رحمة الله لهذا التطابق في الاسماء . ولو كان ذلك كذلك لشرفني واسعدني لأنهم أهل المكرمات والسؤدد والعز . ولكن الحقيقة هي ان اباهما هو طيب الذكر المرحوم الشيخ الزاهد التقي عبد الله ود حامد الذي هو من قبيلة الجعليين وذو

قرابة حميمة بالسادة الاعلام آل علي طه المعروفين في العمارة (اربجي) وعلي نطاق البلاد بأسرها . وقد كان العم عبد الله رحمه الله شيخاً وقوراً جليلاً ورجلاً صالحاً ذاكراً مخبتاً ركّاعاً سجّاداً قواماً يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً ، وكريماً محسناً مضيافاً يطعم في داره عشرات الفقراء المساكين صباح كل جمعة الي ان فارق الدنيا . فقامت من بعده ابنته الوفية السيدة فاطمة ام البدوي - رغم عجاف السنين - تقفو اثره وتترسم خطاه وتطعم الناس براً بوالدها وصدقة جارية لروحه الطاهرة . واما امهما - اعني احمد وابابكر - فهي السيدة ام الحسن بنت الخليفة شريف عليها رحمة الله . ابوها قريبى من ناحية امي ومن ناحية ابي ، وامها عمتي شقيقة ابي . فأنا خالهما بهذه النسبة ، واحدي شقيقاتهما الفضليات زوج شقيقي المهندس الفاتح وام اولاده .لذا - كما يقول اهل الصحف - لزم التنويه .

وهكذا تراني قد حشرت هذا التعريف بنفسي حشراً في صحائف مصباح دون تخطيط سابق . فهذه قرابات عززتها صلات الود ، سقتها لك مبيناً حتي لا تلتبس عليك الامور فجاءت علي غير قصد مني في هذا السياق دون سواه ، وهذا شـأن من يكتب « علي كيفه » ولايحفل برتابة ما تعارف عليه الناس من ترتيب المواضيع التي يطرقونها . فمصباح اهل لأن تشمل الصحائف التي افردتها لسيرته - وانا هازل طوراً وجاد طوراً آخر - هذا الايضاح الخصوصي . وذلك انني قد قلت لك ان صلتي به ، وهي قد نيفت علي الخمسين عاماً دون ان تنقطع ، هي صلة ذات خصوصية . واذا كانت القرابة تحتاج الي مودة لكي تتوثق العري فان المودة لا تحتاج الي قرابة لكي تدوم . تلك محتاجة الي السقيا ، واما هذه فريانة لا تظمأ . فلست اذكر ام درمان الاميرية وخور طقت - وهي مراتع اليفاعة والحداثة والصبا التي لا تنسي - الا ومصباح في طليعة اضياف الذاكرة ، بفصد قديم علي الخد ، او عمامة هي « محمود قيل » دون ريب او هرولة في فناء المدرسة دون هدف يذكر ، او ضحكة اكاد اسمعها الآن من وراء السنين ، او تجوال طليق علي تلك الرمـــال التي تبتلع الخطي وتشرب الصدي . واني لأذكر كيف كان

مصباح ينطط فرحاً معافى فى ربوع خور طقت الناعمة الموشاة بالخضرة والجمال حتى اطلق عليه الكبتل اسم « حمل الخريف » . فكم ياترى ابقت ذئاب الأيام العوادى من حملان الخريف الوديعة ؟ ! وهل بقى من دعاش ذلك الخريف الا بعض صور غائمات لا تكاد تبين ؟ ويقينى ان صديقى المصباح يذكر كل ذلك واكثر منه بوجدان يكاد من فرط حنينه ان ينتحب انتحاباً . ولو انه استقبل من عشقه القديم للشعر ما استدبر لأنشد مع امير الشعراء وفى خاطره ذكرى اطياف ربوع آهلة ومراتع زمان بهيج :

يامكتبي قبل الشباب وملعبي	#	ومـــقيل ايام الشباب النـوك
ومـــراح لذاتي ومغداها عـلي	#	افـــق كجنات النعيم ضحـوك
وسماء وحي الشعر من متدفق	#	سلس علي نول السماء محـوك
لما احتملت لك الصنيعة لم اجد	#	غير القوافي مابه أجـــزيك
إن لـم يقوك بكل نـفس حـــرة	#	فـالله جَلَّ جلالـه واقيــــك

وآخرون منهم لما يلحقوا بهم :

وهكذا ترانى أتيت على مايسره لى الله من تذكر شئ من سيرة كل فرد من أفراد فصلنا «التوانى» فى ام درمان الاميرية الوسطى . وهى بالطبع آراء خاصة وانطباعات شخصية متباينة ، ربما صدقت او لم تصدق ، ربما عبرت عن حقائق الأشياء كما كانت عليه او لم تعبر . فهى قراءة من الذاكرة ، واجتلاء للمرائى والشخوص من وراء الحقب الطوال ، ومحاولة لتصوير جوانب من حياة مضى على بدايتها نصف قرن من الزمان ، وهى بأحداثها وأناسها ومراحلها التى نجتر ذكراها ونقص عليك من أنبائها ، نائية بعيدة المنال . وما غاب عن الذاكرة منها أكثر مما تجلى لها . ولست أرتاب فى حسن ظن من أتت هذه الصفحات على ذكرهم ولا أشك فى حسن تفهمهم لمقاصدى ، لانهم أحباب ، سواءً كانوا تلامذة او أساتذة او غير ذلك . فانى اذكرهم جميعاً بالمحبة والوداد ، وأحملهم جميعاً فى مكانة عالية من نفسى ، وأخصهم جميعاً بأحلى وأغلى

وأعلى معاني الوفاء . لا أدعي أنني قد أبرزت شيئاً من محاسنهم فهي كثر لاتحصى ويضيق هذا المجال عن سرد بهائها وصفائها ونقائها . وليس الغرض من قصّ هذه الذكريات هو تبيان هذه المحاسن الوضيئة . ولكن الذى اشتملت عليه هذه الأسطر من آحادها قد أتى عرضاً دون اقتناص ، وفرض نفسه فرضاً دون جهد مني يذكر ، وسال صافياً دون عناء او مشقة . ولم أعمد كذلك للتحدث عن نقائص او مثالب ، فذلك نفر برئ منها فى نظرى ، وانما أتى بعض ما يشبه هذه وتلك فى معرض ايراد بعض الأحداث المسلية التى ما تزال عالقة بالذاكرة ، وفى سياق المحاولة الرامية الى تسليط الضوء على بعض الصفات والمميزات التى تنبئ عن عبث الطفولة البرئ ولاتتعداه . وما قيل عن التلاميذ في هذه الصفحات وما سيقال عنهم عبر الصفحات التى تليها إنما هو انطباع عفوى انتقش في الذاكرة ووقر بين طياتها مُذ تلك العهود السحيقة ، فلا يؤخذ مأخذ الجد والاحاطة الا بقدر ما تجد وتحيط ادمغة هاتيك الأزمنة ، ولا يؤبه به الا فى اطار هذه العفوية وذلك التأثير الوقتى الذى هو رهين بميقاته ووسائله . ومثل ذلك ما قيل ويقال عن الاساتذة وغيرهم ، فهو ايضاً انطباع وليد وقته ، جانب الخير فيه حقيقة لا مرية فيها ولا شقاق ، وما سوى ذلك مما فيه لايتعدى ان يكون بعض «تنبيط» وتوسع فى مجال الرؤية والتدقيق . فجميع الذين اشتملت عليهم هذه الصفحات كانوا أخياراً بررة فى نظرى ، وجميعهم خلّفوا في ذاكرتى آثاراً طيبة لا تزول ولا تشيخ ولا تكتهل ، فهى غضة طرية ريانة بأنداء الطفولة ومشاعر الحداثة . وجميعهم علمونى مما أخذت منه ، وربحت منهم ما عجزت عن تعلُّمه بمفردى . وكلهم أثرى وجدانى بما قال او فعل او أوحى او خاض او اجتنب ، أعجبنى ذلك في وقته أو لم يعجبنى ، سرنى ذلك او أغضبنى ، أفزعنى ذلك أو تألفنى وطمأننى . ولولاهم لما كانت هذه الكلمات ، ولولا حيويتهم الدافقة ووداهم الحنون وتباينهم الملهم لما كان لهذه الذكريات شأن يؤبه به . فلمن سره منهم أو من ذويهم وصحابهم هذا الذى أسرد أكيد وفائى وحبى . ولمن لم يرقه منهم أو من ذويهم وأصدقائهم سردى هذا صادق العتبى حتى يرضوا

ويصفحوا . فما رميت لظلم أحد ، وما أمسكت قلمي للافتراء على فرد أو جماعة ، ولا قدحت ذاكرتي للتقليل من شأن من هم في نظرى برءاء من الشين والشنآن . ولكنى أرخيت لها العنان ومهدت لها السبل واستنطقتها بصدق وأمانة ، فاذا بالذى بين طياتها وفى غضونها هو هذا الذى سال به المداد .

كأن زمان الوصل يوم مُعَرِّس .٠. ألا إن أيام السرور قصار

وانى لأسأل اله ربى أن يجعل ما صح من حديثى عنهم حسناتٍ في موازينهم يوم يضع الله الموازين القسط ، وأن يجعل ما جانب الحقيقة ان وجد كفارةً لهم ، وأن يغفر لى ماظننت أنه خير وهو ليس بذلك ، وماحسبته هيناً وهو عندالله عظيم . فالله سبحانه يعلم وهو علام الغيوب أننى ما قصدت إلا كل خير وما نويت إلا كل طيب ، وانما لكل امرئ مانوى والله من وراء القصد . فاذا قرأت هذه الكلمات وضحكت ملء شدقيك وأصبت شيئاً من التسلية ثم رميت بها بعيداً ونفضت عنها يديك ولم يعلق منها شئ بذاكرتك إلا ما كان عندك محبباً فقد أدت هذه الكلمات ما أريد منها أن تؤديه ، وانى لراضٍ عنها سعيد . ولن يكون غير ذلك إن أنت أنصفت . فهى ليست بحثاً فى علم من العلوم ، وليست رسماً لقسمات وجوه دون نفاذ للوجدان ، وليست ترتيباً لدقائق مسرح تعرض بين جوانبه أحداث روايات واساطير . إنما هى شتات انطباعات قديمة ، قد تسلى وقد لا تسلى ، ولكنها أمينة وصادقة بالقدر الذى جادت به مقدرات ذاكراتى المعنَّاة المحدودة . فلك أن تحاول قراءة هذه الخواطر ، فانها ان لم تسلّك فلن تؤذيك . فأنت تعلم أننا نعيش فى عصر «الورم» «والغباين» التى « لاتنفش » . فلم يبق فى زماننا هذا من التسلية إلا التسالى ، وهو نوع بئيس من «الجرم» ، محروق ومثقل بملح أجاج قد اجتمع له - كما اجتمع لهذا الزمان الكالح المغبر - معايب ثلاث : غلاء الثمن وتفاهة المحتوى ، ورداءة الطعم . ولذلك فهو يسبب «العشراقة» ، وضيق النفس ، ووجع القلب ، وقيل الاورام ، ومن بينهاتضخم الكبد والطوحال والدماغ ، تضخماً يورث العطب ثم يعصف بالحياة . وهو بعد كل هذا سمى «التسالى» مجازاً لانه فى حقيقة

الامر لا يسلى ، ولايكتفى بأنه لايسلى ، وانما « ينعل الخاش »و« يورم الفشفاش » ، ولات بعض رياش ولا غرفة انعاش ، فهو عين «الطفاش» وهو الموت الزؤام المعُاش . ولذلك أنصحك بترك التسالى ، وادعوك للنظر فى هاتيك المجالى ، لتسمع أنباء العصر الخوالى . لك أسوة حسنة فى الفورد الشاحن الطالع العالى ، القاطم بستم ومار طوالى . فانى لا أرتاب فى أنك «قاطم بستم» مثل غيرك من عامة الخلق ، ولكن العبرة فى مار طوالى هذه ، فهى الصمود بعينه .

من أغرب ما رأيت كان ذلك اليوم الذى اعلنت فيه نتائج امتحاننا لدخول المدرسة الوسطى . وكان ذلك في المدرسة الوسطى الام بود نوباوى قبالة ذلك الخور (الذى كان فى العهود السالفة مصرفاً لمياه الأمطار فصار اليوم مقبرة للقمامة متبرجة ليس لها حياء) وهو المجرى الذى يشق الواجهة الجنوبية لحى ود نوباوى بدءاً من تخوم حى المسالمة وحتى مشارف الهجرة فيشطر المنطقة الى شطرين غير متساويين . ففى ذلك الصباح كان النداء بالاسماء ، يهرول كل من يسمع اسمه وهو فرح مسرور الى حيث الاصطفاف فى مكان آخر داخل أسوار المدرسة . حتى إذا انتهى ذلك « الفاصل» المثير وكف المنادى عن النداء وظن من نودى عليهم انهم هم المنصورون وانهم هم الفائزون ، وحسب الفريق الآخر انه قد احيط بهم ، وظنوا بالله الظنون ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم ، نادى منادٍ على من نودوا من قبل ان تفضلوا فالباب مفتوح على مصراعيه وهو يقود الى الشارع العريض ! وكاد أن يصيح بهذه الفئة التعسة : « ورونا عرض أكتافكم » . فانقلبت الفرحة فى لحظة واحدة الى حزن عميق . واما أولئك الذين ظلوا واقفين مكانهم ولم تعلن أسماؤهم بعد فقد بدل الله حزنهم سروراً غامراً فى لحظة واحدة ايضاً ، فهم المقبولون وهم الفائزون حقاً . وقد سرنى أنى كنت من بينهم . وبعد أن اخرجت الفئة التى لم تحظ بالقبول أو صد الباب ، ثم بدأ النداء من جديد . فتسمر كل تلميذ في مكانه لا يود أن يغادره ، حتى طمأنهم الناظر في الوقت المناسب واكد لهم ان الامر يختلف هذه المرة . ثم نادى على اربعين من بيننا وسماهم المقبولين لمدرسة حى العرب الوسطى وكان من بينهم شقيقى عبد الملك

وكم تمنيت وتمنى غيرى ان نكون ضمن هؤلاء الاربعين لان سمعة مدرسة حي العرب الطيبة كانت قد طبقت الافاق في ذلك الزمان . وكان ناظرها الاستاذ عفان علماً بارزاً من اعلام الوطنية والتعليم ، وهو رجل مشهود له بالكفاءة والاخلاص والتفانى فى العمل . اما بقية التلاميذ فقد تم قبولهم فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى . وقد بقى فصل «الاوائل» فى ود نوباوى ، وذهب فصل «التوانى» - وهو فصلنا - الى بيت المال ، وبعد أشهر قلائل اجتمع الفصلان ، كل على حدة ، فى رحاب ام درمان الاميرية الوسطى التى من اسمائها التاريخية الكلية ومدرسة التجارة ، ومن علاماتها المميزة ساعة الحائط الكبيرة التي كانت - وما تزال - تزين وجه المدرسة من الناحية الغربية . وهى الآن تشير الى الساعة التاسعة الا قيلاً ، وقد توقفت عقاربها عند ذاك الميقات منذ أزمان ، وكأنها تأسى على أيام عامرة حافلة مضت ولن تعود ، لم تبق منها الا اطياف ذكريات مهوِّمات عالقات بذلك الموطن القديم . فاذا تأملها أحد فتية تلك العهود سالت فى خاطره كلمات ابن زريق البغدادى :

بالله يا منزل العيش الذى درستْ آثاره وعفتْ مذ بنتُ أربعهُ
هل الزمان معيد فيك لذتنا ام الليالى التى أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله وجاد غيث على مغناك يُمرعه
من عنده عهد لى لا يضيعه كما له عهد صدق لا أضيعه .
ومن يصدّع قلبى ذكره.. واذا جرى على قلبه ذكرى يصدّعه
لاصبرن لدهر لا يمتعنى ولابى فى حال يمتعه
علماً بأن اصطبارى معقب فرجاً فأضيق الأمر ان فكرت او سعه
عسى الليالى التى أضنت بفرقتنا جسمى ، ستجمعنى يوماً وتجمعه

فالانسان تنثره الخطوب والرزايا مزقاً وأشتاتاً وتجمعه الإرادة والتصميم ان صح منه العزم ويسر الله الامور . واما الديار فانها تبقى وإن عفت وتستنهض وان درست . عندما هدمت قوات الاحتلال قبة الامام المهدى قال خليفة المهدى مواسياً مواطنيه : « القبة ما طينابة نحن بنيناها وتانى بتتبنى » . وقد تم ذلك . هناك فى تلك الديار

الحبيبة اكتملت معرفتى ببقية التلاميذ ، وفى تلك الرحاب العامرة سرنا خطواتنا المبكرة فى مجال التحصيل ، وكان ما كان من كل ما قد رويت او نسيت او آثرت الا اخوض فيه لا لشئ الا مخافة الاطالة والملل . وقد خلف كل ذلك الذى كان ذكريات عزيزة على النفس ولست ارتاب فى ان هذه الذكريات العطرة مازالت تومض جلية فى خاطر كل من بقى من تلاميذ واساتذة تلك العهود المفعمة بالوداد والصفاء

إذ جانب العيش طلق من تآلفنا ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا

عبد المنعم وعوض . . ورجب والقيثارة الحانية :

اذا كنت قد أتيت على شئ مقتضب من بعض سير اولاد فصلنا وآمل الا اكون قد آذيت او أسرفت او تجاوزت حدود اللياقة والادب - فليس بضار ان تشمل هذه الذكريات احاداً من اولاد الفصول الاخرى وبعض الاساتذة . فقد كان ذلك المجتمع الحبيب مجتمعاً متكاملاً وكانت تلك الحياة «الاميرية» حياة نابضة عامرة حافلة بأقوام كثر وأمزجة شتى وطباع ضروب . عرفت من اولاد دفعتنا فى فصل «الاوائل» كثيرين اذكر طائفة منهم على وجه التحديد وذلك انني كنت لصيق الصلة ببعضهم ودامت علاقتى بهم طويلاً . كان اول من تعرفت عليه منهم هو عبد المنعم عبد العزيز لبو سمرة . وهو تلميذ صغير قصير القامة نوعاً ضئيل الحجم . ولكنه وسيم الخلقة رقيق المشاعر شفاف الروح سهل هين الطباع . تقدم نحوى ذات صباح فى فسحة الفطور وعلى وجهه ابتسامة مشرقة صافية فعرفنى بنفسه ودعانى الى طبلية عم محمدين ، ومنذ اللحظة الاولى أعجبت برقته وسماحة روحه . ودعانى من بعد ذلك الى بيتهم فى حى سوق الشجرة ، فصحبته الى هناك مرات أتعرف اليه والى ذويه عن قرب .

فلقيت من أهلى جحاجح اكرموا ٠٠ نزلى وأولونى الجميل مكررا

تعرفت على امه واخوته محمد وفؤاد ومن بعد ذلك سمير . وقد طوقونى بمحبتهم وترحابهم وفتحوا لى قلوبهم ورحاب دارهم البسيطة . وكان محمد يسبقنا فى ام

درمان الاميرية الوسطى بدفعتين وهو من نوابغ التلاميذ . وقد ادركته فى كلية الطب بجامعة الخرطوم وظل يسبقنى فيها حتى تخرج وتخرجت من بعده بعامين ، ومازالت تربطنى به مودة عريقة نقية لاتزول . اما عبد المنعم فقد كان شأنه شأناً آخر بالنسبة لى . كان كثيراً مايذهب معى الى ود نوباوى وكثيراً ما كنت اذهب معه الى سوق الشجرة . ومن عجب ان الذى وثق الصلة بيننا لم يكن هو استذكار الدروس ، وما كان هو الدافورى بكرة الشراب ، ولم يكن هو التحزب لفريق الهلال ولا هو العقيدة الأنصارية ولاغيرها من العقائد . انما هو شئ آخر جذبنى الى عبد المنعم جذباً لم أجد له مقاومة فى نفسى ، وحببنى فيه محبة لاأزال وفياً لها كل الوفاء ، رغم أنى لم ألتقه منذ حقب طوال . كان ذلك الشئ السحرى الذى جمع بيننا هو « الصفارة» او المزمار . . . الصفارة ذات الثقوب الست التى منها مايصنع من الصفيح ومنها مايصنع من الابنوس الخالص . وبما أنى لست فناناً ولا موسيقاراً ولم أوت فى هذا المجال معرفة او فهماً او موهبة فانى لا اجد كلمة اخرى اسمى بها هذه الالة الموسيقية الساحرة التى كان عبد المنعم يجيد العزف عليها بأنامل راقصات مرنات رقاق ، فتشجينى انغامه وتملك علىّ جميع أقطار وجدانى . عشقتها منذ الوهلة الاولى وصممت على ان اتعلم العزف عليها . وبعد قليل تمكنت من شراء «صفارة» جديدة ، فطفقنا نذهب معاً فى أوقات فراغنا الى شاطئ النيل الخالد نتبتل فى محرابه الآمن بما يتيسر لنا من أنغام . وشيئاً فشيئاً تمكنت من اداء بعض «المقطوعات» وعبد المنعم يشجعنى ويبدى اعجابه بسرعة تقدمى في هذا المضمار ، وهو قد برهن على صبر وقوة احتمال لأنى كنت فى اول الامر «أجوط» كل الالحان التى اراد ان يعلمنى . فوجدت فى سعة صدره وتجاوزه السمح عن زلاتي الموسيقية المرعبة مجالاً خصباً للتعلق بهذه العوالم الشجية المسعدة . وتدرج بى عبد المنعم حتى لان من أصابعى كل بنان ، وتمكنت من عزف مطالع بعينها : «مالو ماجا» ، ولو انت نسيت ،والليلة يا سمير ماجيت . . . حجبوك ولا نسيت . . وعبد المنعم يترنم مع الانغام التى أحدثها بمشقة

منى ، «برائه» البهية التى تجئ مزجاً لطيفاً بين صوت حرف الغين وصوت حرف الياء . . ولانزال كذلك حتى نبلغ «شباكم الاخدر» . . او « خشم بابكم الاخدر » فى بعض الروايات ! ثم نفترق على ان نعود مرة اخرى فى أصيل اليوم التالى . لقد دهشت حقاً لرحابة صدر عبد المنعم واهتمامه بأمرى فى هذا الشأن . ولم أعجب من بعد ان عبد المنعم الصبور الرقيق ذا الاحساس المرهف قد صار معلماً ، وانما غبطت تلاميذه على فوزهم بمثل هذا الاستاذ المتميز الذى أوتى وجداناً عامراً وقلباً يسع الوجود . ثم ان عبد المنعم هو الذى اعثرنى على كنز غالٍ ربما تأخر وقوفى عليه أزماناً لولاه . فهو الذى عرفنى على عوض الكريم محمد على بكار زميله فى فصل الاوائل . ومنذ ان عرفت عوض بكار فى تلك الايام الناضرة الزواهى وحتى فراقه المأساوى للدنيا صرت لصيقاً به وصار أخاً حبيباً الى نفسى لا افارقه الا لنلتقى ثانية . كان عوض بكار يجيد العزف على «الصفارة» اجادة تامة . وقد تدربت من بعد ذلك على يديه حتى اتقنت الاداء ، وصرت اتيه على صديقى مصباح الصادق بشكل خاص . وذلك ان خيال مصباح – رغم إفاقته من آثار الصدمة الحضارية التى تعرض لها فى اول امره – لم يكن ليتسع لأكثر من «زمبارة» الراعى التى تتخذ من القصب وتحتقن من النفخ عليها الاشداق والحلاقيم . ثم هى لا تخاطب بألحانها المنبعثة من تجاويفها الا احاسيس الشياه والأغنام ! ولو ان مصباحاً كان قد انعتق نهائياً من المحاذير التى استعصم بدواعيها تلقاء كل ما تدفع به المدينة فى وجهه من جديد لم يقف عليه من قبل لتسنى له ان يتعامل مع هذه الاداة الموسيقية «الحديثة» بشئ من «المهلة» رجاء الاستيعاب . ولكنه اخلد الى قرويته وسوء ظنه بمحدثات المدينة فانغلق عن هذه الآفاق الرحاب وظلّ رهين محبسه التشككى المحاذر حتى نور الله بصيرته يوم ان وطئت قدماه رمال خور طقت الهينة الندية البشوشة . اما عوض بكار فقد كانت داره فى حى الدباغة بام درمان ملتقى جلساتنا فى الاصائل والامسيات . لطالما دعانى الى داره وغمرنى بكرمه وحسن ضيافته . ولست أنسى كيف كنا نجلس فى داره على بلاط

النافذة الشرقية من ذلك الصالون الأنيق العالى الذرى نرقب النيل « الفاض وامتلا » وهو يحيط بخاصرة البيت كما تحيط الام بذراعيها الحنونين فلذة من افلاذ كبدها . كنا نتربع هناك طويلاً نتبادل العزف على هذه القيثارة الساحرة تتراقص الامواج من تحتنا طرباً وهياماً كما تتراقص النجب من تحت انغام الحداء . وكان عوض بكار يعلمنى فى كل مرة لحناً او نشيداً لا اجد مشقة في استظهاره والاتيان به موقعاً هادئاً ينساب من بين الاصابع التى يتعاقب بنانها على ثقوب ذلك المزمار السحرى البليغ . ولقد أوتى عوض بكار صوتاً كروانياً رخيماً عذب النبرات اذا شدا به أطرب واسعد واشجى . وكان عبد المنعم ابو سمرة يرافقنا فى تلك الجلسات الطيبة الهادئة فى بعض الاحايين . ذلك انه كان تلميذاً مجداً عزيز عليه ان ينصرف جل وقته الى ما نحن فيه من تحليق طليق فى عوالم الألحان ، ولقد كاد ان يعترينى شئ من الغرور – او قل بعض العجب – من فرط ما امتدح كل منهما «مقدراتى» الموسيقية فى مجاملة ظاهرة وتشجيع كريم واضح . ذلك أنى وان كنت مدركاً لعظم الفارق بين مقدراتهما من ناحية ومحاولاتى اليائسة للحاق بهما من الناحية الاخرى ، الا انى كنت امنى نفسى بأن ابلغ بعض شأوهما فى فترة وجيزة على أحسن الفروض . ولم يغادر هذا الحلم مخليتى تماماً الا بعد ان ولجنا ابواب خور طقت الثانوية ، وعثرنا هناك على «رجب» الذى فاقت موهبته في العزف على «الصفارة» كل تصور كان يخالج خيالى وتطلعاتى . لقد افترق عنا عبد المنعم وذهب الى وادى سيدنا الثانوية ، وقد هالنى ان عوض بكار نفسه – وهو استاذى – سلم بالريادة فى هذا المضمار للصديق «رجب» طائعاً مختاراً مقراً ، فلم أزد من بعد ذلك على ان كنت أحد الذين يستمعون فى انبهار الى الانغام التى يبدعها «رجب» في امسيات الخور الحالمة بوجدان مشبوب واعجاب طرح عن خيالى كل أمل فى الاتيان بشئ يقارب ذلك الاداء الرائع وذاك السلسال النغمى الصافى وهاتيك المقاطع الساحرة المبدعة التى تأخذ بشغاف القلوب . حقاً لقد كان «رجب» الضحوك الحنون أمة وحده فى هذا المجال !

لم يكن عوض بكار استاذاً في هذا المضمار فحسب ولكنه كان استاذاً في سائر الفضائل . كان مؤمناً تقياً مصلياً ذاكراً لربه في السر والعلانية ، وكريماً معطاءً يضع اللقمة في يدك ويتخير لك اطيب ماهو امامه من طعام . يجود في وقت يسره وعسره على السواء لا فرق عنده بين ان يفتقر او يريش ويوسر . يهتز للعطاء ويطرب كأنه يزداد بما ينقص ويمتار بما يهب . وكان شجاعاً مقداماً لا يعرف الخور ولا التكول ، وهو مع هذا رجا ع الى الحق ان أخطأ درويه لايجد في نفسه ادنى قدر من العجب او الكبر يمنعه عن الاعتذار الصريح وطلب المسامحة . . في وقت كان الفتية من أمثاله يركبون رؤوسهم ويعتلون هوادج العناد . يستعتب من يري له العتبى بتلقائية أصيلة وسماحة أخاذة ولطف آسر وابتسامة صادقة المعاني . ومع ذكائه الذى هو مطبوع عليه كان عوض بكار تلميذاً جاداً ذا عزيمة تحرك الجبال . وليس ادل على ذلك من انه بعد ان هجر علم الرياضيات طويلاً لانشغاله بعلوم الأدب واللغات وتفوقه فيها عاد اليه يجتلى غوامضه من بداياتها بمثابرة لم ار مثل صدقها وشدة مراسها ابداً حتى راض عصى علوم الرياضيات ودانت له داخرة فأبلى فيها وفي غيرها بلاءً صعد به الى رحاب احدى اعرق كليات الطب وتخرج فيها طبيباً . ثم تابع جهوده التى لاتنى ولا تعرف الكلال حتى تخرج في انجلترا اخصائياً . مرموقاً في مجال الطب الباطنى وطب وصحة الاطفال والصحة العامة . ثم كان من امره ما كان . . بذلاً اميناً وعطاءً سخياً لبلاده وأهلها في شتى المواقع .

ولست انسى ابداً تلك الليلة التى صحبنى فيها عوض لتلبية دعوة للعشاء عند الصديق العزيز ابو القاسم هاشم كان قد اقامها تكريماً لبعض الاصدقاء الاوفياء من ابناء خور طقت وعلى رأسهم الاخ العزيز صالح شبور . كان عوض متردداً في الذهاب معى رغم شوقه لملاقاة رفاق صباه وذلك لانه كان يتابع حالة طفل مريض من عيادته ربما اتصل به اهله هاتفياً من ام درمان في أي لحظة . وامام إلحاحى عليه وقولى اننا سنتصل من هناك لنترك رقم هاتف الاخ الشيخ هاشم مع أم اولاده السيدة الفضلى

سعاد احتياطاً لما يمكن أن يحدث خرج معى عوض وهو نصف مقتنع . وهنا وقعت لنا مصادفة جديرة بالتسجيل لأنها تنبئ عن رقة عوض بكار المفرطة وتنهض دليلاً ناصعاً فى نظرى على أن ما حدث من مأساة مريعة في الليلة التالية كان امراً يستحيل على من عرف عوض بكار ان يتصوره قريباً منه او على أى نوع من الصلة به . وذلك اننا قبل ان نأخذ سيارتى ابصرنا ازدحاماً وسمعنا هرجاً امام قسم الحوادث بمستشفى الخرطوم قبالة دار عوض ، وتبينا ان ذلك كان نتيجة لشجار وقع بين شيخ فقير مسن كان يرقد على الرصيف بجانب المدخل وبين سائق احدى سيارات المستشفى . فتدخل عوض لصالح الشيخ المسن ثم أصر على استضافته في بيته ، وقال لى بالحرف الواحد تقريباً - وانا امنعه من تلك الاستضافة - وهو يلح : « هذا شيخ كبير مسن حرم حتى من النوم على الارض لان السائق اراد ان يجعل سيارته فى تلك البقعة دون سواها ، فهل من المروءة ان نتركه يفترش التراب ؟ هل في ذلك من خلاق ؟» وتدخل آخرون وساندونى فى القول بأنه على كل حال شخص غريب فلا يصح ان يدخله فى بيته الذى لم يكن فيه سوى زوجته واطفاله الصغار ، والخير ان نجد له مكاناً فى ذلك الرصيف مناسباً ، والله من بعد يتولى عباده وهو خير لهم منا جميعاً . وفى حقيقة الامر لم يكن عوض ليجهل انه انما يدخل شخصاً غريباً في بيته لا يعرفه لان الدنيا - كما يقال كثيراً - كانت بخيرها آنذاك ، ولم يولد بعد من رحم الغيب هذا الزمان المغبر الذى نعيش فيه ، والذى اصبح الغريب فيه لا يحتاج الى دعوة كريمة لدخول دار غريبة عليه ، انما هو يقتحمها اقتحاماً ويروع اهلها ترويعاً ، ويستحوذ فيها ومنها على كل ما يريد عنوة واقتداراً ، ثم يفلت آمناً قرير العين والفؤاد . لو كان هذا الزمان الكالح البئيس قد ولد لتعرف عليه عوض ولتحفظ فى حسن ظنه بكل الناس . وعلى كل فقد قبل عوض حجج المعترضين على مضض ودون اقتناع كامل ، ودس في يد الشيخ شيئاً من المال ، ثم مضينا معاً الى منزل الصديق الشيخ هاشم . ولكن لم يطل بقاؤنا هناك ، فقد كان عوض قلقاً طوال الفترة القصيرة التى قضيناها معهم لانه - كما اخبرنى - كان

منشغل البال بحالة الطفل المريض الذى ربما عاد به اهله اليه فى أى لحظة بعد ان رفضوا نصيحته لهم بادخاله المستشفى للمتابعة الدقيقة . فاضطررنا للاستئذان وفارقنا الاخوة الاحباب على كره منا لهذا الفراق . ثم ابلغته داره ومضيت الى دارى فى ام درمان . ولم ار عوض فى الامسية التالية ولم اسمع منه . ومن عجب ذلك لاننا ان لم نلتق فلا اقل من ان نتحادث عبر الهاتف ، وذلك ان التحدث عن طريق الهاتف كان متعة فى تلك الازمنة وكان امراً فى مقدور اواسط الناس ، ولم يكن مدعاة الى الافلاس وخراب البيوت كما هو الحال اليوم . لم يتصل عوض . وكانت تلك الامسية التى لم أره فيها هى امسية الخامس والعشرين من ديسمبر . وفى صباح اليوم التالى ذهبت الى المستشفى كعادتى ، وفى تمام الساعة السابعة صباحاً أبلغت بالنبأ المشئوم . ثم كان ما كان مما قدره الله وجرى به قلم الارادة . وكم أسيت وتألمت للارواح البريئة التى زهقت ولعوض بكار النبيل الاصيل ذى العواطف الرؤوفة الحنونة الدفاقة . وعجبت كيف دفعت الأقدار لهذا الموقف الذى لا يشبه عوض فى شئ وهو غريب عن طباعه كل الغرابة . وهو الذى أبدى من العطف والتكرم على رجل مسكين لا يعرفه ولايعبأ به احد فى الامسية الماضية ما لم يبده غيره ، وهو الذى انشغل باله بطفل مريض لا تربطه به ادنى صلة سوى شفقة الطبيب الحانى على مريضه الملتاع حتى ضاق عليه مجلسه مع أخلص وأحب أصدقائه فاعتزلهم وآثر ان يبقى فى داره لعله يتلقى محادثة تنبئه عن حال ذلك الطفل الصغير او تدعوه لمتابعته بمزيد من العناية والدواء ! ولقد ادهشنى حقاً قول من قال ان عوض كان غنياً وهو يملك ويملك . وذلك لانى كنت الصق اصدقائه به وأعلم انه كان قد انفق جميع ما آل اليه من ورثة ابيه على شتى انواع الخير ولم يبق له فى هذه الدنيا الفانية سوى ذلك البيت المشئوم ، وان ديناً تافهاً على عاتقه من أحد البنوك كان يقض مضاجعه حتى لبى نداء ربه اثر ذلك الحدث المأساوى الحزين ، فقامت زوجته من بعده بسداد ذلك الدين بمشقة وعناء . الا رحم الله عوض بكار رحمة واسعة . ورحم اولئك الفتية الطيبين الذين راحوا ضحية نفاذ

قدر لم يملك له احد دفعاً ولا رداً ولا اجتناباً . ان الله يفعل ما يريد .

كان عوض بكار صديقاً حبيباً ودوداً وفياً بالغ الرقة والنبل والسماحة . وكان ذكياً متقد الذهن عبق الروح نبض الفؤاد ، عالماً واسع الاطلاع رحب المدارك والآفاق . وكان جواداً كريماً ندىّ الراح شفيف الروح والمشاعر ، مؤمناً ذاكراً ملماً اوفى المام بالقرآن والتفسير . وكان طبيباً مقتدراً محيطاً سامى الخلق عالى المثل شديد الرأفة والعناية بمرضاه ، متواضعاً بشوشاً سباقاً الى الخيرات متخلقاً بأرفع القيم . كان عوض بكار كنزاً للمعارف والعلوم فى شتى مناحيها ومظانها ، شديد الكلف بعلوم الدين واللغات والادب والشعر وسائر فنون المعرفة . . رحمه الله رحمة واسعة .

عندما ذهبنا الى خور طقت في ذلك الشتاء الذى لاينسى أصيب عوض بكار وطائفة من التلاميذ بحمى الملاريا وادخلوا مستشفى المدرسة الصغير الذى كان يشرف عليه مساعد طبى مقتدر . فانحبس عوض هناك (ودخل معه السجن فتيان) – بجانب أخرين – هما اسماعيل عبد الصادق ومحمد العوض مصطفى . لم يقل احدهما (انى ارانى اعصر خمراً) . ولم يقل الآخر (انى ارانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه) . ولكن كلاً منهما رأى مرائى فسرناها على انها «هضربة» او «هلوسة» . وفسرها عوض بكار بأنها حمى « طلعت فى الراس ». فقال له محمد العوض – بعد ان تماثلوا جميعاً للشفاء – وهو يباشر سخريته المعهودة : يعنى انت راسك جبل الاحقاف بتاع التجانى الحمى ما بتطلعو ؟ ثم اشاع محمد العوض ان هضربة عوض بكار كانت فريدة في نوعها لانها كانت باللغة الانجليزية الصرفة وقد تخللتها بعض آيات قرآنية هى فى مجملها دعاء بالعافية واستغفار جامع ملح . اما اسماعيل عبد الصادق فقد زعم محمد العوض ان هضربته كانت تسميعاً حرفياً خالصاً لبعض النصوص والدروس . ولما سألنا محمد العوض عن هضربته هو نفسه وهلاويسه ضحك ملياً وقال : ياخى هو الما بجيب الهلوسة والهضاريب شنو اذا كان على يمينك ابو الحسوس وعلى شمالك عبد السلام فضل الله ، وعلى ابراهيم وميكادو كوكو وميرغنى الدتش على بعد خطوات

منك ؟ ما الحمد لله الواحد ماجن جن عديل ؟ تلك كانت أياماً لاتنسى لانها كانت فى بدايات عهدنا بخور طقت . ثم تعافى الصبية جميعاً وخرجوا سالمين بفضل الله وجهود المساعد الطبى . فلقد كانت تلك «الشفخانة» الصغيرة تحوى من المعدات والعقاقير والاستعدادات لمجابهة أشباه تلك الحالات وغيرها مالا تستطيع ان تقدمه اكبر مستشفيات بلادنا في هذه الازمان التربة المغبرة . وكانت العناية الطبية والصحية بتلاميذ تلك الازمان وغيرهم من اهل البلاد حقوقاً واجبة تراعى وتسدى الى اصحابها من غير من ولا كدر ، وهى ذات الحقوق التى صارت في ازماننا الكالحة هذى أمانى تشرى بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ثم هى لا توفى لاصحابها الا وهى منقوصة معيبة فى أحسن الحالات !

لقد كان عوض بكار تلميذاً قوى العزيمة ابى النفس صادق الود عاطفياً واسع الصلات بالناس ، الوفاً كثير المعارف ، رقيقاً سيال المشاعر بالمروءات والندى . يجل اساتذته ويعجب بهم ويتمثل خلالهم الطيبة فى حياته اليومية . وكان فؤاده عامراً بحب الناس ، يحنو على فقرائهم ويتخير اخوانه وأخلاءه من اواسطهم ولا يبادل المتكبرين منهم الا تكبراً وتيهاً وكبر نفس وعفة خلال . يتغنى بحب بلاده ويتطلع لخدمتها واعلاء شأنها ، ويوذيه ان يرى بين أقرانه من لايعير مثل هذه الامور ماهى خليقة به من جهد واهتمام . وقد امتاز مع ذلك بخفة روح وحسن معاشرة قل ان تجد لها مثيلاً . يحب الطرفة والدعابة ولا يسرف فيها ، ويميل الى الجد والصرامة ولا يوغل فيهما . يحب من الامور اواسطها ومن خلائق النفوس أحاسنها ، ومن أسباب العيش ماكفى وستر ولم يميز أهله عن الآخرين . ولو عاش عوض بكار لأودع معارفه الكثر بطون أسفار يجنى منها الناس نوادر الفوائد والعلوم ولكن الاقدار تجرى بما سطر في اجواف الغيوب . وما اصدق ما قال شوقي رحمة الله :

ولم أر كالأحداث سهماً اذا جرت .•. ولا كالليالى رامياً يبعد المرمى
ولــم أر حكماً كــالمقادير نافذاً .•. ولا كلقاء الموت من بينها حتما

دفع الله . . وليالى القبعة . . وكبتليات اخرى :

من بين اولاد دفعتنا فى فصل الاوائل الصديق القديم دفع الله الحاج يوسف . وقد كان تلميذاً طويل القامة يضع على رأسه عمامة لا تشبه فى تراص طبقاتها عمائم أهل المدينة ، وانما فيها بداوة طلية بريئة من الجفاء ، آخذة بأطراف النعومة حافلة بأسباب الوقار . ولو انك رسمت دائرة وجعلت قطرها يمر من أبى حراز وينتهى فى الجبلاب لاكتشفت ان مركز هذه الدائرة هو مدينة ام درمان الخالدة . اذاً فدفع الله من ام درمان مركزاً ومهاجر اسرة ، وهو من طرفى الدائرة المذكورين أصلاً ومنبت أعراق . وهذا أمر فى غاية الأهمية بالنسبة لتكوين الانسان ونشوئه واتساع دائرة معارفه وانفساح آفاق تأملاته . لقد اجتمع لدفع الله من طرفى منبته فضلان : تراث التقوى والصلاح ، وإرث البطولات والفداء . ثم اندغمت هذه الفضائل فى عز مدينة ام درمان وأمجادها ، فخرج دفع الله من هذا المركزالجامع لامهات المآثر والمكرمات موسوماً بها ومعبراً عنها . فهو الأديب الأريب الفطن وهو القارئ النهم المولع بالشعر وسائر فنون الابداع البيانى .

فى عصر يوم من ايام ام درمان الاميرية – وكنا حين ذاك فى السنة الثالثة – جرت انتخابات حرة وسط التلاميذ لاختيار قادة الجمعيات المدرسية المختلفة . ولم يكن كاتب هذه السطور موجوداً فى ذلك الوقت بين زملائه رغم علمه بهذا الحدث الذى اجتمع له الناس . وما كان ذلك الا لانشغالى بما لم اجد فى نفسى قدرة على مقاومة اغرائه ، وهو شهود مباراة فى كرة القدم بين فريقين رياضيين بدار الرياضة بام درمان ! لقد كان شهود هذه المباراة امراً بالغ الأهمية بالنسبة لى وكان التوفيق بين الامرين مستحيلاً لان وقت الحدثين واحد ولن يتسنى لك ان تحظى بكليهما الا ان تكون أنت «حسن ودحسونه» . ولما لم تكن لي دعاوى من هذا القبيل ، ولم اكن ابالى كثيراً بما يمكن ان يترتب على غيابى من صيرورة حتمية الى دفتر عم مبارك ، ولقناعتى عند التعرض لمثل هذه الخيارات بأن بعض الشر أهون من بعض ، فقد توكلت على الحى

الذى لايموت وقررت ان امتع ناظرى بمشاهدة تلك المباراة وليكن بعد ذلك ما يقدره المولى سبحانه . وربما كانت لى فى ذلك اسوة حسنة خفية المعانى في فيلسوف الكوة البليغ مصطفى حامد كروم الذى كان يقول : «والله على الطلاق موتة فى القيقر ولا عرسة في حلة الكروماب » ! فاذا عرفت ان القيقر هى حى من احياء الكوة اشتهرت حسناواته بالجمال الفريد وأن حلة الكروما ب هى أيضاً حى من أحياء الكوة يقطنه هذا الفيلسوف الذرب تبين لك ما اريد وعلمت ان الخيارات قد تنحصر فى امرين أحلاهما مُرّ وانك لابد ان تختار واحداً منهما ، وانت تدرى انك قد تندم على اختيارك احد الأمرين دون الآخر . اما اذا كانت قناعتك كاملة مثل قناعة مصطفى كروم ، راكزة لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها ، فانك لن تستشعر الندم مهما كانت تبعات اختيارك .

كذلك انا لم اندم لاختيارى وتفضيلى لمشاهدة مباراة كرة القدم على حضور ما كان يجرى عند ذاك الاصيل فى ربوع ام درمان الاميرية ، وان كان قد فاتنى مشهد من اروع المشاهد لممارسة التلاميذ - بحرية تامة - لواحد من أغلى حقوق الانسان . فقد أنبئت فى صباح اليوم التالى ان انتخابات حرة لقادة الجمعيات المدرسية قد أجريت بين ذلك الجمع الذى غيبتنى عنه - وربما غيبت غيرى - دواعى الهيام الكروى ، وانه قد تم انتخابى في غيابى رئيساً لجمعية الثقافة ، وتم انتخاب دفع الله الحاج يوسف سكرتيراً لها . ويومها تلقيت التهانى من زملائي الكثر ومن أساتذتى بهـــذه الثقة الغالية ، كما تلقى مثل هذه التهانى منهم دفع الله الحاج يوسف والاخوة الاخرون الذين جرى اختيارهم لقيادة الجمعيات المدرسية الاخرى . ولقد قرب هذا التكليف بينى وبين دفع الله قرباً وثق فيما بيننا اواصر الوداد التى ماتزال تزداد متانة على مر الايام. وانى عندما اذكر تلك الاحايين الهنيئة التى مضت سراعاً ولن تعود انما اتعجب كثيراً لتغير الحال وانقضاء بواكير الآمال ! فلقد عرفنا ونحن تلاميذ صغار فضيلة حرية الاختيار والتعبير وهو ماعلمنا من بعد انه يسمى «الديمقراطية» فأنسنا به منذ

تلك العهود وخالطنا منه طعم حلو المذاق . كان دفع الله يُغليه ويبدو وهو اسعدنا طراً به ، وما كان ذاك الا لعمق ادراك تميز به منذ الحداثة وسعة افق بكرت عليه وهو طفل عامر الوجدان ريان المشاعر ، ثم رافقته في اطوار حياته اللاحقة وهي تزداد انفساحاً وتصيب انماط الرشاد . والفضل في ذلك بالطبع عائد الى أساتذتنا الاجلاء والى ادارة المدرسة المقتدرة ، التى كانت تبصر مالا نبصر وتستبين مالانستبين . اولئك اقوام عرفوا منذ تلك الاويقات المبكرة ملامح القيم التربوية الرفيعة التى تكمن فى اطلاق مثل هذه الحريات للتلاميذ حتى يتمكنوا من التعبير عن مشاعرهم الحقيقية ويمارسوا بأنفسهم قيادة وتنظيم جمعياتهم المدرسية المختلفة واختيار من يثقون بهم من زملائهم لتصدرها وتولى ادارتها. واعجب من ذلك ان يجرى انتخاب تلميذ وهو غائب عن ذلك الجمع في ذلك اليوم المشهود لرئاسة جمعية هى اهم جمعيات التلاميذ علي الاطلاق ، دون ان يعترض على ذلك تلميذ او استاذ ، ودون ان يسقط الغياب للغائب حقاً من الحقوق ! هل يا ترى يمكن ان يتصور حدوث شئ من هذا القبيل في زماننا هذا ؟ هذا زمان يغمط الحاضر حقه غمطاً فكيف بالغائب يرجّى ان ترعى له حقوق ؟ وهكذا كنا قبل ما يقارب الخمسين عاماً نجلّ بعضنا بعضاً فى الغيبة والشهود ، فهل ترانا اليوم يفضل حالنا ما كنا عليه من حال ؟ كان حق التلميذ يحفظ له وهو غائب ، فماظنك بالحاضرين الشاهدين اليوم تنتهب حقوقهم المشروعة وهم بعد ليسوا تلامذة اغراراً وانما هم رجال مؤهلون ومؤثرون لهم سابقة ومآثر في خدمة الوطن يراها الناس بأعينهم ويشهدون لهم بأشباهها من العطاء فى شتى الساحات والمناحى ؟ لقد كان بمقدور أساتذتنا في تلك الحقب الخالية ان يعينوا رؤساء الجمعيات المدرسية وينصبوا قادتها بفرمان من ناظر المدرسة او ضابطها او أى جسم من سلطانها الفوقى ان هم ارادوا . ولو فعلوا ذلك لما رددناه عليهم ولاسرت بيننا موجة احتجاج او تذمر ، ولحسبنا الامر عادياً لايدفع الى الدهشة والاستنكار . ولكنهم كانوا مبادرين الى غراس القيم الرفيعة ، يسعدهم ان يربوا تلاميذهم اكمل تربية فى مناخ

الحرية المعافى ، وينموا فيهم ملكة تحمل المسئولية فى تلك السن المبكرة ، ويمهدوا لهم الطريق هوناً حتى تتسامى وتتكامل وتنضج مواهبهم ومقدراتهم الذهنية ، وحتى تشحذ الممارسة فيهم غافيات الهمم وبواكير الخيال المبدع الخلاق . فتلك حسنة من فيض حسناتهم التى لاتنسى ، ومنقبة من بعض مناقبهم التى لاتحصى . ولست ارتاب انها أثمرت فيما بعد رجالاً وهبوا هذه البلاد اعز ما يملكون من فكر راشد وجهد واصب وعطاء مهنى غزير . ولو ان بلادنا سارت على هذا النهج العدل القويم ودأبت على استصحاب هذه المعانى والتوجهات التى ترعى وتغلى حرية الرأى والتعبير والاختيار وتعمل على توفيرها حتى بين التلاميذ الصغار مع المراعاة المرنة للضوابط التى تعصم من الفوضى والفراطة - لما رثّ حالنا اليوم ، ولما بكينا على أمسنا الوضئ ، ولصار لنا فى يومنا هذا شأن آخر بين الامم. ولقد برهن حتى اولئك التلامذة الصغار الذين نتحدث عن بعض شأنهم في هذه الصفحات انهم أهل لحسن ظن اساتذتهم وانه بمقدورهم ان يحافظوا علي هذه الحرية وعلي هذه المكاسب ، وأن يحيلوها الي نشاط دؤوب وخلاق ومفيد ، ميز مجتمعاتهم تلك بالحيوية الدافقة والتقيد بأسس النظام والقيم الرفيعة والانضباط .

مهما يكن من امر فقد كانت جمعية الثقافة فاتحة لوثوق معرفتى بدفع الله الحاج يوسف الذي اعتبره اليوم واحداً من اعز واغلى اصدقائي واخواني الذين اكن لهم ابلغ آيات المودة والوفاء . كنا في تلك الازمنة نعقد اجتماعات الجمعية الادبية - التي هي اهم عناصر جمعية الثقافة - مرتين في الاسبوع ، واحياناً مرة واحدة هي عصر يوم الاربعاء . ولست انسى كيف كنا نجلس علي كرسيين متجاورين وامامنا منضدة ، والتلاميذ امامنا يجلسون حشوداً علي المقاعد وبعضهم علي الارض . وكنت كرئيس للجمعية اقف لاخاطب الاجتماع فلا تكاد قامتي تربو في ارتفاعها علي قامة دفع الله السكرتير وهو جالس بجانبي علي كرسيه ! وانا اعلم ان دفع الله ربما قطب جبينه استنكاراً لهذا القول وهو يتلو هذه الاسطر ، ولكنها هي الحقيقة ، ولاعلاقة لها بانهيار

بيارة السوكي الاولي ولاصلة لها بانهيار البيارة الثانية ! ومن عجب ان التلاميذ كانوا يحرصون كل الحرص علي ارتياد لقاءات الجمعية الادبية ويقضون بين رحابها امتع اللحظات ، وهم يتناشدون الاشعار ويستمعون الي حديث دفع الله والي حديثي واحاديث الاخرين ممن يحلو لهم ان يشاركوا في هذه المنتديات ، باسماع واعية وانتباه حاذق مبهور . وفي مثل هذه اللقاءات كانت تنعقد ليالى القبعة حيث تكتب رؤوس الموضوعات المختلفة في قصاصات من الورق صغيرة ، ثم يأخذ كل تلميذ ممن يقع عليهم الاختيار قصاصة يقرأ محتوياتها ثم يحدثنا عن موضوعه ونحن سكوت نتابع في شغف ما يقول . وكان ذلك احياناً باللغة العربية الفصحي واحياناً اخري بالانجليزية الاعجمية الفصحي ايضاً . وفي كل من الحالين يكون معنا استاذ من استاذة اللغة التي يتم اختيارها وسيلة للحديث واداة لتشقيق المعاني التى يراد بسطها وابلاغها الي فهوم السامعين . فلا جرم خرج تلاميذ تلك العهود بذخيرة طيبة من المعرفة والدراية بأسرار الكلام في هاتين اللغتين . ولقد شكلت هذه المعرفة اساساً متيناً لما صاروا اليه من مراكز ومهن ومسئوليات فى ايامهم التي تلت تلك العهود . لقد علمنا اساتذة اجلاء – حتى في تلك الازمان السحيقة ورغم حداثة السن وضمور التجربة – كيف نجهد انفسنا لنتحدث بفصاحة وطلاقة . بل وكيف ننظم الاشعار ونتخير القوافي ونراعي نسق الروي والاوزان .

لقد كانت الجمعية الادبية بالنسبة لنا مدرسة من مدارس البيان . ولست انسى صولات دفع الله الحاج يوسف الادبية التي كانت تلاقي من مستمعيه القبول والاستحسان . فكان اذا تحدث نثراً او شعراً اجاد وامتع ، وحاز على رضاء التلامذة والاساتيذ . لقد كانت تلك بدايات دفع الله التى اثمرت معارفة اللغوية والشعرية الحالية دون ريب . ولو أنك استمعت إليه اليوم وهو يتلو عليك بعض روائعه الشعرية لعجبت كيف يختزن دفع الله كل هذه الخرائد الغالية ويضنّ بها علي الناس ، ولأيقنت أنك امام شاعر فحل قلّ ان تجد له مثيلاً في هذا الزمان . وانا لست اقول هذا الذى اقول من

باب الاطراء علي صديق اثير وحبيب ، ولكني اقوله عن صدق تجربة ومعرفة ، ويحزنني انه يخفي ولاينشر هذه الدرر الغالية التي يبدعها ولا يفشيها بين الناس ، وانما يضن بها ضناً وتحتبس عنده احتباساً ، فتغيب عنا بلا واصف والشعر تهذى طماطمه ! وحتي يبين المعني لمن يريد – والمستشهد به عجز بيت لابي الطيب – فاني اقول ان طماطم هي جمع طمطم ولاعلاقة لها في هذا السياق بالبنضورة التي نعرفها . يقال رجل طمطم اذا كان في لسانه عجمة لايفصح . قال عنترة يمدح عظيماً :

تأوى له قلصُ النعام كما أوت ٭ حزق يمانية لأعجم طمطم

فهذا التمكين البياني الذى صار اليه دفع الله انما هو بعض ثمار ذلك الغراس الذى نتحدث عنه ونقص عليك من انبائه بعض اطراف . وهو وليد تلك العهود الطيبة وافيائها الظليلة وسقياها الهانئة المرية . . . (كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى علي سوقه يعجب الزراع) . واذا اردت ان تقطع الشك باليقين فانظر معي الي روعة هذا الشعر الصادق العذب الذى صاغه دفع الله الحاج يوسف في رثاء حبيبنا الغالي محمد العوض مصطفي اذ يقول فيه :

احاول فيك الصبر والصبر اخلق ... ولكن قلبي مـــذ رحلت ممزقُ
فيا بعض روحى كيف غيبك الثرى ... ويابعضها الباقى إخالك تزهق
اكفكف دمع العين فيك تصبراً ... فيجرى نجيعاً من فؤادي يدفق
اجادل نفسى ان تثوب وترعوى ... فتأبي وتأبي . . ثم يعجز منطق
وتأبى خلال الخير تأبى مودتى ... وحزن علي آفاق روحي مطبق

****

مشاهد من عهد الطفولة والصبا ... عليها جلال لا يحول ورونق
تعـذبنى والليل مـدٌ رواقه ... يشـاركني بلواي نجم مـؤرق
ابا حاتم أشكو اكتئاباً ووحشة ... وكنت اذا اشكو ترق وتشـفق
وأنت قسيمى كل نعماء عشتها ... وانت قسيمى كل بأساء تقلق
فمن ذا يعاطينى المودة بعده ... ويجلو شجوني وجهه المتألق

واين الذى مـاكنت يومـاً اخـالـه سيمضي ويضنيني الاسى والتفرق
بكاك اخـلاء عـهـودك عندهم تصان فـلاتنسي وحـبك مـوثق
طواك الردى عنهم ومـازلت بينهم لتبـقي علي رغم الحـمـام اذا بقـوا
ومن بعـدهم ذكـراك ريا زكـيـة تعطر ارجـاء الزمـان فـيـعـبق
فلله سـر فى مماتك مـعـجـز وسـر تبـدي في حـيـاتك مـشـرق
أحـبك كل الناس في كل مـوطن واحـببـتـهم والحب بالحب يسـمق
وقد شاقـهم منك التواضع والتقى واسـعـدهم منك الندي المتـدفق
بشـوش بشـاشـات الربيع قـدومـه ينضـر آفـاق الحـيـاة فـتـعـشق
سـخي سـخـاء النيل في كل لحظة يُرجى فـيـوفي بل يزيد فـيـغـدق
وفـيّ ولوكـان السـمـوءل مـاثلاً لاقـبل من اخـلاقـه يتـخلق
تـقـيّ لـه فـى هـدأة الـلـيـل لحـظـة مع الله يُربى في الدعـاء ويصـدق
ويدعـو الى الحسنى سجية عارف حـصـيف فـلا يهـفـو ولايتـفـيـهق
وينـفق في سـر وان يسـاره لتـجـهل مـا يعطى اليـمين وينفق
سـلام على ايامك الغـر لم تزل تتـوق لهـا الارواح والقلب يخـفق
طوت كل نعـمـاء الحياة وسعدها واقـبـالهـا والعيش أخـضـر مـونق
وحـبـاً لهـذى الارض حـبـاً لاهلها ومـازال ينمـو الحب فـيـهـا ويورق
تغـربت مـثل التـبـر يزداد قـدره غـريباً وأصل التبر في العز مـورق
وعـدت اليـهـا مـثل مـا عـاد صـارم الي غـمـده والـغـمـد بالسيف ارفق
فنم هـادئاً قد طبت في الناس سيرة وربك في الاخـري أحن وأرفق
اليس الذى رحـمـاته من عـذابه تبـارك رحـمـاناً الي الناس اسـبق
شـفـيـعك خـيـر الخلق ترتاد حوضـه فـتـسـقـي ويرويك الشـراب المعـتق

فـانظر الي هذا الشـعـر الرصين القـوى المتـمـاسك ، والى هذه العـذوبة السـائلة والسلاسـة الحالية ، والى هذه الرقة الوارفة وهذا الروئ المؤثر وهذه القافية الوضيئة المشرقة وخفة جرس الكلمات ووداعة ملامستها للأسماع . فهذه بعض مؤشرات من ابداع دفع الله الشعرى ، افلا ترى انى محق فيما ذهبت اليه ؟ هى بعض آثار نقوش خلفتها في خواطر دفع الله ايام ام درمان الاميرية واساتذة ام درمان الاميرية ومناخ

الحياة المعافاة فيها التي كانت تعبق بالعطر والعبير فيها نسائم جمعية الثقافة الطلقة ورياح الجمعية الادبية الرخاء .

بلى ، لقد كانت الجمعية الادبية أسمي وأرفع منتدياتنا المعارفية آنذاك ، وكان دفع الله «قسها» الذي لايداني في رقة العبارة وجزالة الكلمة وسلاسة الحديث ورفعة المعاني . وكنت أقرأ علي مستمعي ما اسميه شعراً امتدح به فريق الهلال واعدد انتصاراته الباهرة وانا في مأمن من القراقير والمريخاب علي السواء ، وذلك لان عبد الكريم والكبتل ومحجوب ومكي وبعض صقور الاوائل من الهلالاب كانوا دوماً حاضرين . وكانت « اشعارى » تجد عندهم القبول والاستحسان . فاذا فرغنا من امسيتنا وقضينا من مراتع الشعر والادب وطراً سرنا ثللاً وزرافات ، كل عقد نظيم بما شهدوا وسمعوا وقالوا فرحون . ومن عجب ان المريخاب والمورداب لايضيقون ذرعاً بما كنا نتناشد من محامد الهلال ، وذلك انهم – كغيرهم – يجلون منابر الادب والشعر التى تنعقد في رواق الجمعية الادبية ،ويتلقون مايسمعون في اطار عشقهم للشعر والادب ، فيفرقون بين ماهو ادب وشعر وان كان موضوعه الثناء على فريق الهلال غريمهم اللدو د ، وبين ما هو غير ذلك وان لم يكن فيه ثناء صريح على فريق الهلال . يتخلقون لكل حال بخلائقه ، ولاينالون خصماً بأذى ولايزيلون ستراً عن بوائقه . وفي هذا ما فيه من السمو والتقيد بالمثل الرفيعة . ولو اني انشدت قصيدة في الثناء علي فريق الهلال في غير هذا الندي الادبي لقرضتنى الالسن بالمقاريض ولانهالت علىّ الايدى والشلاليت الا ان يكون الصقور على مقربة من مسرح الاحداث ، فأولئك قوم بأسهم شديد ، والعاقل من اتعظ بغيره وعمل لهم ألف حساب لانهم حماة الحق كما كان عبد الكريم يقول ! ولقد امتدت دائرة عناية الصقور فشملت دفع الله فيمن شملت رغم انه ليس من فصل «التوانى» ، ولكنه سكرتير جمعية الثقافة والجمعية الادبية . وهو منتخب من قبل التلاميذ انتخاباً حراً مباشراً . ولما كان كاتب هذه السطور رئيساً لجمعية الثقافة والجمعية الأدبية منتخباً انتخاباً حراً مباشراً ايضاً وهو من صميم

فصل «التواني» فان اهتمام عبد الكريم خاصة والصقور عامة بأمر هاتين الجمعيتين كان اهتماماً عظيماً . وهم يتذوقون الشعر والادب ويجتلون مشارف البيان وان لم يكونوا يعبأون كثيراً بالانكباب على هذه الفنون . ولقد سحرهم دفع الله باسلوبه السلس العذب المنقاد وتعابيره الادبية الجزلة الرفيعة فغفروا له ما كانوا يحسبونه استخفافاً منه بشأن فريق الهلال . وذلك في اطار تعاملهم تعاملاً راشداً مع الأولويات التى تفرضها بعض الظروف المتغيرة . فقد كانوا فى بادئ أمرهم يعتبرونه صقراً من صقور « الأوائل » ، وامتداداً أميناً ومشروعاً لتوجهاتهم البرجلية الهرجلية ، وسفيراً لهم ناشراً لالوية فلسفتهم القائمة على ركائز المرح والعبث الطفولي البرئ . وربما فات عليهم انه اشتغل برقة عواطفه وعمق تأملاته وغلبة فيوضه الادبية عن فلسفة الحيوية التي كانوا يؤصلونها تأصيلاً بأدواتهم التي احسنوا اختيارها ، وينشرونها نشراً بين الناس ، ويدفعون ثمن شيوعها وتمكنها « انبطاحات » متتالية على كنبة عم مبارك و «سياحات» مشهودة فى الهواء بين ايدى عم عبد العزيز صاحب الكدوس وعم محمود الذي لم يكن يجيد الضحك او الابتسام ! فما اكثر ما كانوا يدفعون هذا الثمن وهم راضون موقنون ! ويقيني ان صداقتى مع دفع الله قد نفعته كثيراً في هذا الشأن وربما من حيث لا يدرى . فقد بلغت من أنفس الصقور مرتبة الوداد ، وذلك توفيق من الله . وكان عبد الكريم يقول لي احياناً وهو يشير الى دفع الله : «صاحبك الطويل دا طلع مسكين» . وهذه مسكنة لها وقع خاص فى نفس عبد الكريم ، ولها ايضاً معنى خاص تستشفه من النبرة التى يطلق بها التعبير . وذلك لان الطول في نظر عبد الكريم مؤهل هام لتسنم المراقى التي كان يجلس هو علي ذراها . وهو سلاح ماضٍ في اعتقاده لفرض الهيمنة المعنوية الفعلية علي الاخرين . وهذه الهيمنة تشكل ضماناً مأموناً لانتشار الفلسفة الهرجلية التي يبشرون بها . واذا لم يحملك طول القامة علي الانخراط في هذا الكومبارس العابث المرح فأنت فى نظرهم مسكين . والمسكنة عندهم «خشم بيوت » . وقد سرني ان مسكنة دفع الله التي خلعوها عليه لم تكن من ذلك النوع

الذى يزهدهم فيه ، فقد ارضتهم عنه كرائم سجاياه وموهباته الاخر . وعموماً – ولهذه الاسباب مجتمعة – فقد لقي دفع الله معاملة كريمة من صقور فصلنا ، وان لم يعجبهم ولم يرقهم ابتعاده عن فلسفتهم ، ولم يرضهم قلة جنوحه الي احداث ما كانوا يحدثون ، رغم اني كنت اقتنص الدلائل والبراهين التى تؤكد لهم ان دفع الله كادر سرى من الكوادر التى يمكن ائتمانها علي تعاليمهم ، مؤهل تمام التأهيل علي استيعابها والاحاطة بفنونها وقواعدها واساليب بثها واشاعتها بين الناس ، ولكنه نابه فطن يتحين لذلك الاحايين المناسبة .

ولقد كان دفع الله بالفعل واحداً من الشياطين المرموقين في فصل الاوائل . وقد شهد له بذلك على الشريف واحمد حسين الرفاعى، ومن شهد له هذان فقد أوتى « جنا » كثيرا . وذلك أنهما اشتهرا بشتى ضروب الهرجلة حتى ضاق عنهما صدر الاستاذ منصور حسن أمين وهو صبور ، ولم يشفع لهما إلا أن على الشريف كان مع عبثه ومشاغباته فتى ذا مرة وظرف فى آن واحد ، وأن الرفاعى كان هلالأبياً متطرفاً وهو في ذات الوقت لاعب كرة ممتاز . واما دفع الله فقد اختلف شأنه عنهما بعض اختلاف ولم يبد عليه انه وقع من السماء الف مرة مثلهما . فهو قد افاد من تجارب غيره ورأى بعين بصيرته ان الدعاوى العريضة امور مهلكة وان مالا ينال كله الا بالتعرض للمخاطر فالخير فى ان ينال بعضه عبر دروب السلامة . ورغم ولعه الدفين باحداث الفوضي وافشاء الحيوية والضحك بين الناس فقد كان حصيفاً فى تحسس الطرائق المؤدية الى هذه الغايات . فهى في نظره فروض ولكنها فروض كفاية ، يقوم بها البعض فتسقط عن الآخرين – هكذا يخيل اليك . ولكن الواقع غير ذلك . فهو من الاساطين الذين يمسكون بأزمة الامور في الفصل ، من وراء ستار الفطنة والدهاء . فهو المحرك ، وغيره المحركون ، وهو احد صناع الفوضي الحقيقيين ، وغيره المنفذون . وهم يبوءون باثم الهرجلة وقد احيط بهم وهم غافلون فى اغلب احيانهم ، وهو ينجو ويظفر بالسلامة فى اكثر هذه الاحيان رغم انه وراء كل الذى به يؤخذون ويساقون الى كنبة عم مبارك وهم يوزعون.

هذا هو فن التحكم القصى (RemoteControl) الذى أشرنا اليه من قبل فى فصل «التوانى» والذى يعتبر تجديداً فى قواعد وفنون الهرجلة وتطويراً هائلاً لبعض أساليبها التى عفا عليها الزمن عندما اكتشف بعض الاساتيذ لعبتها وصاروا يتصيدون الجناة بيسر وسهولة . لقد فرض هذا التجديد والتطوير نفسه فرضاً وافرزت الممارسات المتطورة قيادات جديدة اكثر تأهيلاً وابلغ تأثيراً واقدر على اخفاء الوسائل وابرع فى إحداث ماهو مطلوب !

كان دفع الله من هؤلاء النفر الميامين ، وقليل ما هم . يحدث في الفصل ما يريد من عبث وضحك وفوضى ، بمقدرات خفية تدفع الاخرين دفعاً الى انجاز هذه المهام المبتغاة ، وفطنة ودهاء يدفعان عنه الريب والشكوك . ولقد وجدت بعض العناء في تبيان هذه الامور لصقور فصلنا حتى يبلغ عندهم دفع الله تمام الرضا . وسقت لهم من اجل ذلك الامثال والأقيسة حتى شارفت بهم مواطن الاقتناع بما اقول . فهم يعلمون ان دفع الله لم يكن يدعى – مثل بعض المدعين – انه يرتاد مجالس « اللّبخ » . ولم يقل لنا ابداً انه يعرف كبس الجبة او بلة الاحمرانى او شمشون كبري ود نوباوى . ولم يزعم فى يوم من الايام انه لعب الملوص وخرت الجماعة ، او دخل سينما برمبل بدون تذكرة ، او تشعبط في حيطة دار الرياضة ليشهد مباراة الهلال والمريخ مع ثلة من القنادف على عينك يا تاجر والسوارة على ظهور خيولهم ينظرون اليه عاجزين ، او نطّ فى طرماج السمع وهو يعدو بسرعة الضوء . ولم يقل ابداً انه خرت كل بلى اولاد الحلة بما فى ذلك ضراريهم وهو عدم تسبقه عادة عبارة الرجاء المألوفة : ياخى ارمى لىْ عليه ! بل هو لم يقل لنا ابداً انه يستأجر العجلات مثلما كان يفعل قاسم ابوعكر ومحمد على مقبل وعوض بكار وغيرهم ولم يزعم أنه يحسن ركوب العجلة ، وهو يعلم ان مجرد هذه السيرة كانت تثير اشمئزاز مصباح الصادق والنفراوى وعبد الرحمن كنتباى رغم انه لم يقف على الاسباب الحقيقية لذلك الاشمئزاز . وعندما أعلن بعض العقلاء عن كراهيتهم للعجلاتية عموماً لم يعجبه هذا التجنى على «المهن الحرة » وكاد ان يجهر

بالاعتراض ، ولكنه آثر الا يخوض فيما لايعنيه وحبب الى نفسه اجتناب اللجاجة والمغالطات ونأى بلسانه عن الخوض في هذه المضائق وحبسه بين فكيه ، فمن يدرى ؟ ربما كان هؤلاء العقلاء على حق . ومهما يكن فهو بعيد ايضاً عن البسكليت . ولكنه كان يرتاد مجالس التلاميد الذين كانت لهم مزاعم تشمل جميع هذه الاوجه ، فيستمع اليهم ويزن الامور بميزان دقيق ، لانه يعلم مدى قدراته ولايريد ان يتعداها . ورغم انه لايتبجح بشئ الا ان الصقور فى فصلنا قد قيموا امره تقييماً سليماً ، واعجبهم تواضعه الذى برأه في نظرهم من الغلو والشطط ، بل اعجبهم فيه انه لم يكن ينسب لنفسه من امثال هذه المفاخر اقلها شأناً ، وهو ما يأتيه اواسط التلاميذ ، رغم علمهم اليقينى انه كان ملماً من كل هذه الفنون بطرف ، وهو ما تؤكده انجازاته الهرجلية الخفية في الفصل التى تحدث الاثر المراد دون ان توقع بالمريد ! وقد بلغهم يقيناً ان دفع الله الذى لم يدع اياً من هذه البطولات والخوارق كان فى حقيقة آمره صاحب صولات طرماجية داوية ، وقد اعجز في كثير من هذه الصولات كلاً من الكمسارى والمفتش علي السواء . وهو يصل الي المدرسة في الصباح وقرش الفطور في جيبه فى حرز امين لم تخترم نصفه تذكرة الطرماج ، رغم انه لم يكن يسلم في بعض احايينه من «كندكة» ظاهرة تنبئ عن نزول اضطرارى يصعب القول ان كان نزولاً«عكساً» أو نزولاً «عديلاً » ، ويستحيل الحكم بأنه كان نتيجة لآثار «زرة» الكمسارى او ملاحقة المفتش . وهو يسلمك الى مثل هذه الحيرة لانه لايتحدث عن بطولات طرماجية ولاغيرها . ولك ان تسمى هذه فطنة او تواضعاً او دهاء او ماشئت من مسميات .

واذا دار بخلدك انى لا اصدقك فى حديثى عن شيطنة دفع الله ، وخاصة عن صولاته الطرماجية التى كثيراً ما دار حولها الهمس ولم نقف على حقيقتها ، استيقنها بعضنا وجحد بها آخرون فاقرأ معى هذا الشعر الرائع الذى اختزن دفع الله مادته ومعانيه طوال الحقب والاماد حتى فاضت بها مشاعره وهو يخاطب رفيق دربه الراحل

الغالى محمد العوض مصطفى مداعباً فيقول :

فيا صديقى لقد ولى الصبا ومضى	وصرت جداً فيا مرحى ويشرانا
نظل نذكر في ام درمان نشأتنا	ونحن نمرح في الساحات صبيانا
نغدو الى الدرس فى خوف وفى رهب	تظننا فى فصول الدرس رهبانا
وان ترانا بعيد الدرس تحسبنا	جنا تمرد لا يخشى سليمانا
يشكو الترام عرابيداً قد ابتدعوا	من التشعبط اشكالاً والوانا
واغتاظ قيمه من فتية هربوا	من بعد ان ركبوا الطرماج مجانا

فهل بعد هذا من دليل يراد ليقوم برهاناً ساطعاً على ما ذهبت اليه ؟ فانظر الى هذا الجن الذى لم يكفه انه جن حتى تمرد لايخشي (سليمانا) . وانظر الى هؤلاء العرابيد كيف لم يقتصروا على التشعبط المعروف حتى صار عندهم اشكالاً والواناً . وانظر الى هذا القيم - وهو وصف عبقرى لأى من كمسارى الطرماج او مفتشه - وكيف اعجزوه فى الارض هرباً وركبوا الطرماج مجاناً حتى كاد يموت بغيظه ! ولم تسعفه الا امثال هذه الشتائم التي كان يضحك منها الفتية العفاريت ويهزأون . ومع هذا فأنت ترى أن دفع الله - فى هذا الشعر الصادق الذى يموج بصور الصبا واهازيجه - قد خلا تماماً من أى مزاعم لبخية او اساطير كبسية او دعاوى سلطويّة تشير الى صلات - ولو من بعيد - مع شمشون وبلة الاحمرانى . وذلك هو التواضع الذى امتاز به دفع الله وجعله أثيراً حميد السيرة بين أقرانه .

لقد توثقت الروابط بينى وبين دفع الله في جمعية الثقافة والجمعية الادبية . فكنا نذهب سوياً الى السوق لنبتاع الورق «الفولسكاب» من المكتبة الوطنية التى كانت على مقربة من محلات يوسف الفكي الذائعة الصيت ، وهى على بعد خطوات من المدرسة الاميرية ذاتها . واني لأذكر بجلاء ان سعر الرزمة من الورق «الفولسكاب» ستون قرشاً، وهى أحمال ثقال من الورق الابيض الناصع المسطر تكفى لكتابة عدة رسائل علمية

يبتغى من ورائها نيل درجة الدكتوراه فى أى مشرب من العلوم . لقد كنا نبتاع هذا الورق من احد بنود ميزانية جمعية الثقافة التي كان مرشدها الاستاذ منصور حسن امين تم تلاه الشيخ الاستاذ يوسف الخليفة . ومن هذا الورق الفولسكاب كنا نصدر ثلاثة جرائد حائطية في كل اسبوع . ولقد اطلقنا علي اولاها اسم «العروبة» ، واطلقنا علي الثانية اسم «القبس» . وظللنا نبحث عن اسم مناسب لصحيفتنا الحائطية الثالثة حتى دلنا عليه عثمان سلمان غندور زميل دفع الله فى فصل «الاوائل» . لقد برهن عثمان على ذوق ادبى رفيع ، اوقل على حس شاعرى أصيل فاقترح علينا اسم «الراووق» فلقى عندنا قبولاً وارتضيناه . ولعله كان يظن الخمر معنى لهذا الاسم الجميل او لعلّ ذلك خيل اليّ ، فقد كان سعيداً سكر الروح بهذا التوفيق الذي قادته اليه فطرته العبقرية وكان ينطق الكلمة وكأنه يشربها ويلتذ بها وينتشى . ورغم ان بعض الخبثاء تعمدوا السخرية من عثمان لابتداعه هذا الاسم الساحر الرشيق ، الا نه لم يحفل بهم ولا بهزئهم ، وانما سره مالقيه منا من ثناء عاطر فكان يخطر بينهم جذلان راضياً عن نفسه ولسان حاله قائل لهم : (إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) . والراووق ليس هو الخمر بالطبع وانما هو المصفاة ، وهو الباطية وهو الكأس . ولكن بصرف النظر عن المعنى فالكلمة جميلة رشيقة عذبة ، وهى قد اعجبتْ دفع الله واعجبتنى كثيراً ، وصارت اسماً معتمداً لجريدتنا الحائطية الثالثة . لقد كان عثمان سلمان غندور تلميذاً نابهاً مجداً . ورغم انه كان «احمرانى» لون البشرة الا ان هذا لم يثر عليه حفيظة الصقور ، وانى لاحسب ان الذى استنقذه من هذه المهالك انما هو كلفه بالأدب وعمق تذوقه للشعر واشتراكه النشط فى ليالى القبعة وطبيعته السمحة المسالمة . وكان عبد الكريم اذا أراد ان يطاعن التجانى الطاهر او يغامزه يقول على مسمع منه وهو يشير الى عثمان : « والله غايتو فى حلب كويسين » !

كان عثمان يشارك بهمة في تحرير هذه الصحف الثلاث ، ويعتبر «الراووق» نبتاً

اصـيـلاً مـن نبـات بنات أفكاره ، وهـو فى ذلك مـحق لانه هـو الذي ابتـدع هـذا الاسم الشـاعرى الخمرى الرقـيق الذى لقى منا احسن قبـول وترحـاب . اما خـطاط الصـحافة الحائطية فقـد كان هو كـمال شكاك زمـيل دفع الله في فـصل الاوائل . وكـمال تلمـيذ صغير الجسم بسام مشرق المحيا لايقل شيطنة عن امثاله من العفاريت الدقاق . لكنه تلميذ مجتـهد مشـهود له بالذكاء وحسن البلاء فى الدروس . ورغم ضـآلة حـجمه ودقـة عوده فقد اوتى جرأة لم يؤت مـثلهـا مـحمـد عبد الله الشـيخ «خطاط» فصل «التوانى» الموهوب . ولذلك صار كمال هو خطاط صـحائفنا الاثير . ومن بين التلاميذ الذين كانوا يكتبون لنا وننشر مـا تجود به قرائحـهم في هـذه الصـحف الحـاج محمـد عثمان ابراهيم (الكبتل) ومـصطفى احـمد عيسى . امـا الكبتل فـهو من قد علمت . وامـا مصطفى احـمد عيسى فـهو «الفة» فـصل الاوائل وهـو بازى صـقورهـم وهـو اول الفصل . ولقـد أكسـبتـه هذه الخلال الثلاث – وهـى ميزات متسـاوية فى الاهمية في نظر التلاميذ (الألفة ، والاول وقـائد الصـقور) – احـترام زمـلائه قاطبـة الا من لا يعـجبـهم العجب . ورضـى عنه عبد الكريم وجماعته ايما رضـا . وكان مـحمـد العوض صـاحب اللسـان السـاخر الذرب يقول كلما التقى الكبتل ومـصطفى فى مناظرة فى احدى ليالى القبعة : هلّ هلّ ، حديد لاقى حديد . وهـو يضـحك ملء شـدقيه يود لو يجرؤ غـيره ليقـول لهـمـا : المديدة حرقـتنى . فلطالما كان مـحمـد العوض يحدثنـا عن عراك الديوك وخاصـة حينما ينفـجر شجار بين مـحـمود احـمد مـهدى وحـاج حنفى . وهـو يمـنى النفس بأن يرى مـثل هذا العـراك بين الكبتل ومصطفى . ولكن تمنيـاته هذه ربما كانت في احسن حالاتها افتراضـات لا تخلو من بـعض السـذاجـة وقلة الإلمام بخـفـايا الامـور . وذلك انه لم يفطن الى ان السـلام النسبى الذى كـان يسـود اجواء المدرسـة انما يقـوم على اسس مـدروسـة ومنتقـاة ، وان مبـعثـه الحـقيقـى هـو جـهـود مبـذولة فـى الخفـاء وفى العلن للمـحافظة على مـيزان القـوى بحيث لايتعدى الغرماء حـافة الهاوية ، يراعى ذلك بدقـة وانضباط كل من صـقور الاوائل

وصقور التوانى ، وهو ما عبرعنه فصحاء الانجليز بكلمة BRINKMANSHIP وهى كلمة معبرة ابلغ تعبير عن حقيقة مثل هذه المواقف . وذلك أمر لايفهمه على وجه الدقة الا من كان صقراً او على صلة من الوداد مع الصقور وثيقة العرى . ولو ان كفة ميزان القوى مالت لصالح أى من المجموعتين «المتحامرتين» لانفرط العقد ولما تمكنت وسائل الادارة المدرسية بأجمعها من احلال السلام الدائم مرة اخرى وتلك محمدة من محامد الصقور فى كل من فصلى «الاوائل» «والتوانى» .

ومن عجب ان الكبتل ومصطفى - وقد كانا متفوقين بشكل ملحوظ في ام درمان الاميرية - لم يكن بلاؤهما في خورطقت بالصورة التي ألفها الناس من قبل ، ولم يعد يوافيهما ذيوع الصيت الذى كان ملازماً لهما على صعيد التحصيل والتفوق فى الدروس. بل يمكن القول بأن قبضتهما على أزمة امور العلوم والريادة فيها قد تراخت الى حد بعيد حتى لم يعد لهما شأن خطير في هذين المجالين ، وان ظل كل منهما يتمتع بذكاء فطرى اصيل ومرموق . وربما كان السبب في ذلك هو ولوجهما لعالم جديد ومجتمع مغاير وانشغالهما بمستحدثات طرأت او نشأت فى تلك الربوع . ولقد كنا نعجب من ذلك كل العجب ولم نجد له تفسيراً مقنعاً ترتاح له النفس ويقبله المنطق السليم . غير ان محمد العوض - دون غيره - أسر لنا فى ذات مرة ان الكبتّل ومصطفى قد بلغا قمة مقدراتهما ، وهو مايسمى في اللغة العسكرية - واحياناً كثيرة فى لغة المال والمصارف - بالسقف(ceiling) وقد تستخدم فى معناه لغات اخرى واشارات متباينة . واكد لنا محمد العوض ان من يبلغ قمة مقدراته يصعب عليه البقاء في هاتيك الذري ، لان هناك منحدراً قد يهبط بك سريعاً إن لم تكتنفك العناية الالهية ، ولان من يقف علي بداية المنحدر فلابد ان يهوى الي القاع . وهذا التحليل الذى لايخلو - ان تأملته ملياً - من المنطق والسلامة ، انما هو من خبث محمد العوض وبعض آيات مكره وتندره ، لان محمد العوض كان يعنى به تقدم السن ! ومهما يكن

من أمر فان الريادة الاجتماعيه التى كان يتمتع بها هذان الصقران فى ام درمان الاميرية لم تعد مواتية لهما ، ولم يكن لينعقد لهما لواؤها فى مجتمع كثرت فيه البوازى والجوارح والعقبان . فأين بأسهما من بأس اولى البأس الشديد : الفاتح بشارة ، والتاج حمد ، وابراهيم زعوط ، والتجانى الصاموتى ، وكمر ، وحسن الاسطى وابراهيم بلل ، وعبد السلام فضل الله ، وعلى سالم على التوم ، وحسن الفكى ، والزعيم الطيب باك القيامة ، وحمدنا الله طه طويل ، وعلى محبوب ، والبدين ابو ضفيره ، واحمد وادى حسن ، ومحمد على تشرشل (أوحلة) ، وعصائب اخرى لاتحصى من عواجيز الفتية الصغار ؟ واما فيما يختص بالريادة فى دنيا العلوم والمعرفة والتفوق في هذه المناحى والمجالات ، فان «حواء والدة » ، لانها هى التى ولدت عوض السيد مصطفى وعلى كمبال وعوض عمر وعيسى ابكر وغيرهم من ذوى البصائر الرائقة والابصار الرامقة .

وعلى كل حال فقد اثبت لنا محمد العوض - فى معرض سخريته التى يحسن استدعاءها وتأتيه مواتية منقادة - ان العبرة بالخواتيم ، وان لكل اول آخر ولكل بداية نهاية ، وقد يأتيك بالانباء من لم تزود . غير انه من الانصاف ان نقول ان الكبتل ومصطفى - وان تراخت قبضتاهما عن هذه الريادة وتلك - قد ظلا ، ولم يكن ذلك مّن غير جهد مثابر منهما ، ملء العيون والاسماع . وقد حفظ لهما زملاؤهما مكانة عالية فى الانفس لما جبلا عليه من كرم خلق وصفاء ذهن . ولو صحت منهما العزائم كما كانت تصح على ايام ام درمان الاميرية لما «بلغ الميس » قبلهما احد . وتلك سنة الله فى البرايا . فحيناً على قدر ما تكد تجد ، وحيناً تقصر بالمجد الحيل . وقد صدق ابو الطيب اذ يقول :

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت .'. على عينه حتى يرى صدقها كذبا

اما مصطفى فقد تواضع ورضى بتبديل الحال ، وسخر مقدراته الذهنية وجهوده

الاطلاعية حتى صار علماً في مجال معارف اللغة الانجليزية . واما الكبتل فقد زهد في هذه الامور وان بقيت محبته للغة العربية والتاريخ عاصماً له من التردى السحيق ودافعاً له للبقاء على السفوح يوم عزّ واستعصى بلوغ القنن . ومن العسير عليك ان تأخذ عليه هذا او تنحى عليه باللائمة لان للمشاعر سلطاناً على النفس شديد السطوة . فقد كان جسده في العمارة وقلبه فى حلة الدونكى . وقد بلغ من رقة العواطف وشفافية الروح والاحساس ما جعل لسان حاله ينشد على من يحسن الاستماع :

اذا سمعت اسم ليلى ثبت من خبلى .'. وثـاب ما صرت منى العناقيـد

كسا النـداء اسمها حسناً فحببه .'. حتى كأن اسمها البشرى أوالعيد

وما ليلى وزينب وما الى ذلك الا واجهات شتى لشئ واحد . وقد يتزيا بالهوى غير اهله وانما الصرعى هم الصادقون ، فليس وراء الفناء من دليل على صدق الاحاسيس . واذا كان للعناقيد صرعى فان «القناديل» لها صرعى كذلك . ومادام الموت واحداً فليس بمصرخ لك بأيهما تموت . ولقد تجاوز توفيق صالح جبريل رحمه الله هذه التفاصيل الى تعميم مبين فى خمرياته فأجاد وأفصح أذ يقول :

ظلت الغيد والقوارير صرعى .'. والأباريق بتن فى اطراق .

ولقد كان الكبتل فتى ذا احساس مرهف ومشاعر دفاقة برقائق المعانى . وكان الشيخ عبد الله عمدة حلة الدونكى رجلاً كريماً ليناً بشوشاً مضيافاً يحب الأنس والطرب ويدعو فتية العمارة الى داره فى الليالى المقمرة يوطئ لهم الاكناف ويسرد عليهم من الاقاصيص واشباه الاحاجى مايبدد عن نفوسهم ملال استذكار الدروس ويملأ أقطار خيالاتهم بشتى الصور والمرائى العجيبة البديعة ويغالى فى اكرامهم بما يتسير له من مأكل ومشرب على ما به منْ بساطة مظهر وخصاصة عيش ظاهرة . فلا عجب اذا تغنى من قدر له ان يتغنى بعد دهور وهو اسير حنين مثل حنين ابى الطيب :

درّ درّ الصبا أأيام تجر .'. ير ذيولى بدار أثلة عودى

وعندما ما يكون الكبتل في ضيافة العمدة وبعض منا ضمن وفد الكبتل فاننا جميعاً ننعم بأريحيته السمحة واكرامه البالغ . وهو يجل في الكبتل مروءاته المبكرة ووفاءه الأصيل ، ولم يعكر ذلك الصفو الذى دام ردحاً من الزمان الاحدث كادت ان ترتج له ارجاء المدرسة وتسير به الركبان . ففى ذات يوم تكاثر بعض التلاميذ على احد عناقريب العمدة عبد الله حتى انكسر «مرقه» ، فتغير العمدة عبد الله تماماً وصار شخصاً آخر ، وأقسم ليحملن هذا الأمر الى ناظر العمارة لان عنقريبه الذى انكسر كان اعز «عناقريبه» عليه . ولقد اسقط فى يد الكبتل تماماً وايقن انه هالك لا محالة فمن اين له ثمن العنقريب فيفتدى به نفسه وهو القائد المتبوع الذى لولاه لما حلّ هؤلاء الفتية المشاغبون فى كنف العمدة عبد الله وضيافته ؟ ولم يكن غريباً قوله وهو يلتفت قبالة مصطفى ود الشوال وصلاح فرج «وابو الحسوس» : يا اخوانا ماتشوفوا لينا حل من الورطة دى ! ولما كانت العجائب لاتنتهى ، ومنها انه تعالى يضع سره في اضعف خلقه فقد جاءت الفكرة المنجية من اضعف الفتية بنية واقلهم جرماً . وذلك ان سمير - وهو الطيب تاج الدين - بشلوخه السلم ومكره الحصاحيصى المفعم بطيبة اهل الجزيرة وذكائهم - همس فى اذن عبد الرحيم قلى شيئاً اشرق على اثره محياه وتهللت اساريره . ثم تفكر عبد الرحيم هنيهة وهمس بشئ لكل من يونس الحضرى «وأبو الحسوس» . وعندما أسرَّ هذان بذلك الشيء للكبتل تبدل حزنه فرحة فى لحظة واحدة وانجابت عن وجهه دياجير الظلمة والفرق . وبدا ركنا شاربه الغض الاخذ فى الانتشار كطرفى مؤشر ميزان الضغط الجوى (باروميتر) يبشران بطقس معتدل . وهكذا لم يطل بقاء الكبتل فى الحبس والارتهان الا قليلاً . فقد خف الفتية بقيادة ود الشوال والحضرى الى داخلية «ودتكتوك» . وهناك التقوا عم على ابو شلوخ - هكذا كانوا يسمونه - وهو فراش الداخلية القائم على امرها . وحملوا له «هدية» فرح بها كما يفرح الطفل ، ثم افضوا اليه بما عقدوا عليه العزم . ورغم ان عم على تهيب

الدخول في مثل هذه المغامرة في اول الامر ، الا ان تطلعه لمزيد من مثل هذه الهدايا وادراكه العميق لعظم «الورطة» التى وقع فيها الكبتل ورفاقه من الفتية الصغار ، جعلته لايمانع ، ولكنه اشترط الايرد اسمه ولايشار اليه من قريب او بعيد اذا افتضح الامر وانكشفت الخبايا . فأقسم له ود الشوال ويونس بأن هذا السر سيدفن فى تلك الرمال الامينة علي الودائع ولن يطلع عليه احد . وبعد قليل خرج الفتية خروج الغزاة الظافرين وهم يحملون عنقريباً جديداً من اجمل عناقريب الدنيا لم يستلق عليه من قبل إنس ولاجان . وما ان تباعدوا عن العمارة قليلاً حتى صار ود الشوال ينشد والفتية من ورائه يرددون: يا الله الحلة . . لى عم عبد الله . . نخارج الكبتل . . من قيد الذلة الخ . . . والحلة بالطبع هي حلة الدونكى وعم عبد الله هو «العمدة» الذى هو صاحب الشأن ، والكبتل من وراء ذلك فى الاسر يكاد ينشد بلسان ابى فراس :

بلى أنا مشتاق وعندى لوعة .'. ولكن مثلى لايذاع له سر
اذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى .'. وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر
تكاد تضئ النار بين جوانحى .'. اذا هى أذكتها الصبابة والفكر
أسرت وما صحبى بعزل لدى الوغى .'. ولا فرسى مهر ولا ربه غمر
ولكن اذا حم القضاء على امرئ .'. فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال اصيحابى : الفرار او الردى؟ .'. فقلت هما امران احلاهما مر

وما ان وصل العنقريب محمولاً على أكتاف الفتية حتى عم السرور وتعالت صيحات الفرح وخرج الكبتل ظافراً وقد تحرر من الاسر ونجا من الوعيد ، ومن «القيد والذلة» . ولما بلغنا العمارة فى تلك الامسية التى لاتنسى كان الدينمو قد كف عن الازيز وبانت «العمارة» كمدينة حالمة تبترد فى ضوء القمر ، فتسلل كل منا الى عنبره فى الداخلية ، وانسدل الستارعلى هذه الملهاة المضنية ، وصارت من الذكريات التى تضحك بعد ان كادت تغدو من التجاوزات التى تبكى وتنذر بأوخم العواقب .

على أن دفع الله الحاج يوسف لم يكن بعيداً عن ساحة الاحداث ، وان لم يكن قد شهد تلك الواقعة . فقد بلغت انباؤها مسامعه بعد قليل دون ريب . وعندما تدبر فصولها ومنعرجات سيرها أشاد بحكمة سمير التى ولدت الفكرة ويعبقرية عبد الرحيم قلى التى طورتها تطويراً جعلها سهلة التنفيذ ، وكاد ان يؤلف قصيدة فى الثناء عليهما لولا انه خشى ان يجر مثل هذا الاندفاع الى ما لايحمد من العواقب . ورأى ان يدخر ملكاته الشعرية لما لا يحتمل ان يستنكر الجهر به من محامد زملائه واقدامهم وقدراتهم المواتية على الخروج من مواضع الحرج الى آفاق النجاة بأيسر وسائل استخدام العقل . ولو علم دفع الله ما سيؤول اليه امره بعد حين لخلد تلك الواقعة بأبلغ القوافى واعذب انماط الروى ، غير هياب ولا وجل . فالفصل من المدرسة هو الفصل منها سواء كان ذلك على أثر التغنى برجاحة عقول من افتدوا الكبتل من اسره وهلاكه المحقق ، او كان ذلك على أثر الاشتراك فى الاضراب . لقد فارقنا دفع الله ضمن «مرافيت» الاضراب بعد قليل ، ثم التقينا في الجامعة مرة اخرى لتتصل بيننا مودات لم تكن لتنقطع اصلاً . ولست ادرى ان كان دفع الله قد غير من موقفه ازاء تلك الحادثة بعد ان اشرب علوم القانون الشرعى والمدنى وتضلع فى فقه مادتيهما حتى الرى . فهى حادثة ربما تستملحها عواطف الحداثة المشاغبة ، وتطربها روح التلمذة الجماعية العابثة ، وتحفل بأمثالها شيطنة الصبا وخيالات اليفاعة ، وقد يستنكرها سلطان المعرفة ، خاصة اذا كانت معرفة بالقانون واصوله . وكم وددت ان اسأل دفع الله عن حكم من حملوا «العنقريب» من داخلية «ودتكتوك» في تلك الليلة السكرى بضوء القمر ، وطفقوا يخوضون به عباب الرمال الهينة تلقاء حلة الدونكى لافتداء عزيز لهم بات فى الاسر تظن به الظنون . . . ايقام على مثلهم الحد رغم ان العنقريب الود تكتوكى كان مالاً عاماً ورغم ان من بين «الحملة» من الفتية من لم يكن بالغ الحلم ؟

الهادى . . والداندرمة . . والشعر والغناء :

واما الهادى محمد عباس فقد كان من الاصدقاء الاخيار الذين جاد علينا بهم فصل «الاوائل» فى ام درمان الاميرية . وكم من مرة صحبته ونحن في طريق عودتنا بعد انتهاء اليوم الدراسى مشياً علي الاقدام . فقد كان الهادى من اولاد حى مكى ود عروسة ، او قل حى الركابية ، فهذان حيان من احياء ام درمان لا تفصل بينهما مسافات تذكر وهما يكادان يمتزجان امتزاجاً ويختلط الناس فيهما وعلى امتدادهما اختلاطاً . وربما كان اهل هذين الحيين من اعلم الناس ببوائق الطرماج ومآسيه التى احدثها . ولذلك كان الهادى يفضل «المشى الكدارى» على امتطاء تلك المركبة المجنونة التى احتار فى امرها مصباح الصادق وعبد الرحمن كنتباى ولفيف من اولاد «الضهارى» (حتى كاد يزيغ قلوب فريق منهم). ولولا أن ثبتنى الله لقد كدت أركن إليهم شيئاً قليلاً . فكنت في بعض الاحايين اصطحب الهادى فى طريق العودة ، فنمضى سوياً ننظر فى لافتات بعض المحال التجارية ونقرأ المكتوب جهراً كأننا نمارس نوعاً من المران . . محلات هريدى ، ديران جمو شيان . المحطة الوسطى . . حتى نشرف على بداية شارع ابى روف ، فاذا بمحلات الداندرمة على يسارنا وبرعى المصرى صاحب المحل في طربوشه الاحمر وفرجيته التى يربطها على وسطه النحيل «قيطان» ابيض منعقد دقيق النسيج . فاذ يسر الله وبقيت فى الوفاض تعريفة ابتاع كل منا كأساً من هذه «الداندرمة» - ولم يكن اسم الايس كريم معروفاً لدينا في تلك الازمنة - ورحنا ننعم بها ونحن نمشى في تؤده وانشراح . وان كانت الاخرى لعن كل منا فى سريرته «الفلس» وراح يغبط هذا «المصرى» صاحب الطربوش الأحمر والفرجية البيضاء على نعمة الداندرمة التى خصه بها الله من دون عباده الآخرين، واعانه بها على «حندكة» امثالنا ممن لايملكون شروى نقير . فاذا بلغنا دار الهادى فى حى السادة الركابية قريباً من حى السيد المكى افترقنا هناك ، ودلفت انا الى حى القلعة

عند مدخله من شجرة «اللالوب» التى ماتزال حتى يومنا هذا ماثلة للعيان ، ثم سرت من هناك الى ودنوباوى خلال دروب وازقة تتعرج وتتلوى بين البيوت المتواضعة المصطفة على جانبى الطريق ، كما تتعرج وتتلوى امزجة الناس وامانيهم في هذا الزمان البائس الكئيب .

لقد عرفت في الهادي رقة نادرة المثال . فهو يتحدث اليك بأدب جم وتواضع أصيل وعلي وجهه ابتسامة آسرة وجبين متهلل صبوح . لايمارى ولا يكابر اذا اختلفت الاراء وانما يسلم امر مالا يعلمه اليك تسليماً . وهو الى الصمت اقرب منه ميلاً الى الكلام مع انه متماسك الحجة موفور الذكاء . لايذكر احداً بسوء ، ولا يفصح عن مواهبه الكثر الا ان تطلع انت عليها اطلاعاً من وراء تواضعه الشفيف ، ومن وراء حجب صمته الذى يزدان بالسكينة والوقار . ومع ذلك يخيل اليك ان دخيلة نفسه تضطرم فيها أمور كبار وتختلج فيها بواكير رؤى جسام ، وهو لايفصح عنها ولايجلى غوامضها الا لماماً وبمقدار . يحب الشعر والادب وحسان القوافى ، ويتغنى بالروائع منها فى بعض الاحايين فاذا استشعر منك اقبالاً وشيئاً من الفضول عفّ عن ان يطلق لنفسه العنان ، فتبسم في حياء وعاد الي صمته الرزين . وتسحره لغة بنى السكون ، يستظهر منها مقاطع وتعابير يجود عليك ببعضها احياناً اذا انطلق مع سجيته الالوفة وانعتق مْن اسار سكوته المحسوب . فاذا بادلته مثل هذه المقولات الرقاق اشرق وجهه بالبشر وصفا ، وانتقشت عليه علامات الرضا ، وانبعثت فى نفسه وسائر اعضائه حيوية دافقة ، ووافته ذاكراته المواتية بما يبهج ويسر من رقائق البيان وحلاوات الكلم . . . تماماً كما الارض الخصيبة المعطاءة . . تشرب من ضوء الشمس الوهاج خلال شقوقها اويقات الظهيرة والضحى ، وتبترد عند الاصائل فى فيض نورها العسجدى . (فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج) . كان الهادى فناناً مطبوعاً تجرى فى عروقه اعذب الالحان وتتبجس روحه بأرفع المعانى ، وتلوح على وجهه

البشوش ومضات من الفرح تغنيك عن الحديث . وذلك بالرغم من انه لم يكن مثلى يدعى الوقوف على اسرار فنون «الصفارة» او المزمار ، ولم يكن مثل غيرى من زملائه يزعم الاحاطة بعوالم القصيد والغناء . ولطالما اشعرنى ذلك التواضع الذى هو طبعه الملازم بالحرج ، فهو من القلائل الذين لايمشون على الارض مرحاً ولايتطاولون على الناس وان أوتوا مايغرى بمثل هذا المشى وهذا التطاول . ولطالما تعلمت منه كيف يكون الانسان لصيقاً بالتراب من فرط نكران الذات ، ثم هو من بعد ذلك وعلى الرغم منه رقيق الجوانح عبق الروح مشبوب الاحاسيس معافى المقاصد والنوايا .

لم يكن الهادي يخوض كثيراً في عبث العابثين في المدرسة . فهو تلميذ نظامي مرتب الفكر متزن التصرفات . مارايته في عراك مع احد ابداً ، وما سمعته ينتصر لثلة من اقرانه دون سواها . ورغم انه كان هلالابي النزعة الا انه لم يكن يغالي في امر من الامور ، ولم يكن يغمط الناس اشياءهم ، بل كان قصداً قسطاً في كل شأنه ، قواماً بين الطرفين . ولقد كنت علي يقين بان الهادي ينطوى فى دخيلته علي «أسرار» يختزنها اختزاناً ، ولايبوح لك مما يختلج في نفسه الا بالقليل . ولست اسمى ذلك مكراً منه ولا دهاءً ، فقد كان خلقه بعيداً عن المكر والدهاء . وربما كان ذلك حذراً منه ، ومجانبة لما ظن انه افراط او حسب أنه تفريط . ومهما يكن من امر فقد احسست نحوه ميّلاً شديداً واعجبتنى فيه رقته الاصيلة ووداعته المطبوعة ، وحلاوة طبعه الآسرة . وكم وددت ان ارى فيه شيطنة اقرانه المحببة ، وحاولت ان احمله على شئ منها ، ولكنه استعصم وابى الا ان يظل وفياً لخلائقه التى جبل عليها ، ولاسمه الذى يحمله منذ ان قدم الى هذه الدنيا ، فكان هادئاً لا تحركه دواعى العبث ولاتستهويه «مجانات» تلك العهود ، وكان هادياً – اذا انت اقتديت به – الى طرائق الجدّ المستبصر والنضوج الباكر الحثيث . وقلت فى نفسى ان الهادى يضمر من وراء هذا السكون الغالب على طبعه امراً جللاً . وذهبت في ذلك مذاهب شتى كان اقربها لقناعتى ان له اصفياء غيرى

يبوح لهم بما يمسك عنى ، ويتبادل معهم من الحديث مالايطلعنى على أسراره . ولقد صدق حدسى بعض الشئ مع مرور الايام . فما ان غادرنا ام درمان الاميرية حتى التقيته مرة اخرى فى خورطقت العامرة الحبيبة . وهناك ادهشنى ابتعاد الهادى عنى في اول الامر واقترابه من آخرين لم يكونوا فى سابق عهدهم أوثق صلة به منى . لقد كبر الهادى شيئاً قليلاً وتوسعت مداركه تبعاً لذلك وبذات المقاييس - ولعله انس ببعض «الافكار الجديدة» او لعلها استأسرته وراقت له وروت ظماً فى نفسه الى حياض الجد ومناهل النضوج . . فهام بها بعيداً عنى وانا اظن به الظنون . غير ان الصداقة التي كانت تربطنى به منذ ايام ام درمان الاميرية لم تفتر ، وانما تراخت عراها لحينٍ موقوت . وعندما الح عليّ داعى الوفاء عمدت اليه اعاتبه هوناً واسائله متلطفاً علنى اقف على حقيقة امره . فكان يبسم راضياً دون ان تضيق نفسه بما أقول وربما اعتذر ضاحكاً فى صدق وصفاء، ولكنه لم يكن ليفصح عن كل ما يدور فى خاطره . وماكنت لائماً له على مالا اعلم له سبباً ، ولا ظاناً به غير الوفاء لرفقة الحداثة والصبا . فقد اكد لى من بعد ذلك مراراً انه ربما انشغل بدروسه عن اصدقائه ، وحسبت ذلك القول عذراً كافياً فتلقيته فى يسر وبساطة وحسن قبول . ولربما منعه حياؤه الجم وانضباطه الاصيل من البوح لى بما كان يعتمل في صدره وما نفذ اليه فكره من آفاق جديدة . غير انى آليْت ألا أشق عليه في شئ وأبقيت على صلة الوداد التي تجمعني به دون ان افسد روحها بمزيد من التسآل . فالتقينا علي الوداد من جديد واستقامت بيننا علائق الصفو الوطيدة حتى اذا شارفنا نهاية السنة الثانية عقدنا العزم سوياً علي الجلوس لامتحان شهادة اكسفورد من السنة الثالثة . ولقد دفعنا هذا الميثاق الجديد الى مزيد من القرب حتى صرنا نستذكر ونستظهر اشعار تنيسون وشكسبير ونتناشد مقاطعها في اويقات هانئة من الجد والصفاء لاتزال ظلالها واصداء انفاسها عالقة بذاكرتى لاتريم . غير ان تلك الامانى لم تدم طويلاً وان كنا قد جنينا بفضلها علوماً ومعارف لاتحصى اذ كنا

بجانب هذه الاشعار الخالدة نستقصى النقائض من الكلمات الانجليزية العديدة لانها كانت تشكل جزءاً هاماً من كمال التحضير لامتحان اللغة الانجليزية عندما يحين الجلوس لشهادة اكسفورد . فقد ذهب الهادى من بين رهط كرام فصلوا من المدرسة اثر المظاهرات الطلابية فأكمل دراسته فى المدرسة الاهلية الثانوية بام درمان ونال شهادة كمبردج بامتياز ، فالتقينا مرة اخرى في رحاب كلية الطب بجامعةالخرطوم . فكان الهادى محمد عباس هو ذلك الفتى الذي عرفته منذ ازمان ، بوجهه المتهلل وتواضعه الآسر وطبعه السمح الالوف . غير انه اصاب نضوجاً واضحاً ، وميلاً للمرح اكثر جلاءً مما كان عليه ، موسوماً في ذات الوقت برزانة موفورة تباعد بينه وبين العبث واللجاجة والجدال . وعلى الرغم من حيائه الذى لم يكن ليفارقه وابتسامته التى كانت تضوّءُ وجهه بالبشر والترحاب فى كل حين فانك ان احسنت اجتلاء المعانى وراء الحديث فلن تخطئ ملامسة السخرية الهادئة المرسلة العذبة التى كانت تتفلت في بعض تعليقاته فلا يطيق لها حبساً . ولن تخفى على مسامع قلبك وعيون احاسيسك رنة حزن وأسى كانت شجوناً ينطق بها فى بعض الاحايين صمته المدوىّ وسكوته المفعم بالكلام . لقد ولج الهادى فى وقت مبكر الى رحاب قضايا فكرية معقدة ، ولست ارتاب فى انه اصيب بخيبة امل ظلت ترتسم على عينيه الساهمتين ونبرات صوته الهادئة حينا مَن الزمان . وعاد الهادى الي سكينته المعهودة بعد أن طوف فى الافاق حتى رضى من الغنيمة بالاياب . وهو ليس بدعاً من التلاميذ والطلاب في هذا ولا في ذاك . ولكنه امتاز بعقل راجح وطوية نقية وادراك عميق لطبائع الناس ومعانى الاشياء . ورغم ان الهادى لايزال اليوم في طواف من نوع آخر فانه قد اصبح واحداً من قلائل الاطباء السودانيين الذين تعتد بهم بلادنا وتفاخر . ورغم انى لم القه منذ سنوات عديدة الا ان للهادى فى نفسى مكانة عالية وليس من ريب عندى أنه يبادل اصدقاء صباه العديدين وفاءً بوفاء .

كنت فى مدرسة خور طقت احاول كتابة الشعر ، تماماً كما كان يفعل غيرى من

التلاميذ. وقد كان فى طليعة شعرائنا آنذاك حمزة حسين العبادى ومحمد بخيت سليمان.

وفي ذات ليلة مقمرة كنت اجلس مع الهادى محمد عباس علي رمال الميدان الاول غربى سور المدرسة . وهو الميدان الذى كان مستر بروكس يسميه Pitch Number one تمييزاً له عن ميادين كرة القدم العديدة الاخرى . وفي تلك الليلة الحالمة كانت رمال الميدان الاول تسبح فى ضوء القمر اللجينى وكنا نحن نسبح في بحور الشعر ونركض في رياض القريض تتغشانا نسيمات لطاف رقائق حانيات ، كأنها تقرأ علينا السلام من منابع الصفاء والامان والسلام . كان كل شئ من حولنا يكتب شعراً ويقرأ شعراً ويتنفس شعراً ويستحيل الى سلسال من الشعر صاف شديد الصفاء . ولما كان ذلك كذلك فقد قرأت علي الهادى بعض ابيات من قصيدة كنت قد كتبتها منذ ليالٍ مضت . فصار يستزيدنى من ابياتها حتى أكملتها فاذا هى تعجبه واذا به يعود لبعض أبياتها يستقرئُنى من كلماتها ما عن له ان يستعاد ويستوضح . وكان ينشدنى بعض ابياتٍ منها كلما التقينا بعد ذلك . وفيها كنت اقول :

يا ليل مـــالك قــد عــراك جـــمــود	أجــفـــاك صبٌ ام رمـــاك صـــدود
يا ليل عـــهــدى بالنســيم اذا ســرى	ســرّى عليك فــضج فــيك نشــيــد
مــــــالى اراك وقد سكنت وربمـــــا	سكن المشــوق وقلبــه مــعــمــود ؟

إلى أن قــلت :

يـا لـيـل إنـى راحـل ومـــــــــودع	قـد شـفّنى ذا الصـمت والتـسـهـيد
يا ليل ويحك لا تجــيــب خـــواطرى	تهـــفـــو إليك ، وبالوداع تجـــود
فـــالى لقـــاء لست أعلم حـــينه	إنى ذهـبت ، ولست لست أعـــود

وانت ترى انه شعر سخيف وليس بشئ اذا ما قورن بما كانت تبدعه ملكات محمد بخيت سلمان وحمزه حسين . ولكنها احاسيس الحداثة واليفوعة كانت تجد وسائلها للتعبير عن نفسها فتقابل بالرضا والقبول من الصبية الذين كانوا يعيشون عين التجربة ويتقاسمون ذات المشاعر والخطرات . ولذلك وجدت هذه الابيات – على سذاجتها

وبعدها عن الجودة – مكانة حسنة فى نفس الهادى . وقد سرنى ذلك وأفرحنى دون ريب ، وربما اشعرنى بأننى سأكتب شعراً جيداً فى يوم من الأيام ، ولكن ذلك لم يكن الا احلاماً واماني لا تتحقق ، فهانذا بعد كل هذه الحقب الطوال اجد قدراً غير قليل من العناء فى تفهم معانى اشعار الفحول ناهيك عن محاولة الاتيان بشعر يستساغ وتتقبله الاذواق السليمة . والهادى لم يكن يكتب شعراً فيما اظن – الا ان يكون قد اخفاه عنى – ولكنه كان صاحب ذوق رفيع واحساس مرهف وشفافية بالغة . ولو ان الهادى استمع الى خرائد محمد بخيت وروائع حمزة حسين لوجد عندهما ضالته ولأروى ظمأه الى رقائق البيان وبدائع القوافى . فهما شاعران مطبوعان ، خلص أحدهما الى الخدمة العسكرية ثم انجاه الله منها ، وخاض الثانى غمار التعليم والثقافة فأثمر ذلك – فيما أثمر – ديوانه « ميسون والمطر » . وحمزة حسين مولع بالشعر مشغوف به . فبينما الفتية ينشغلون فى حصتى المساء (Prep) باستذكار الدروس كانت الرسائل بينى وبين حمزة تتوالى تباعاً ... يبدؤنى بقصيدة وارد عليه باخرى فى مثل قافيتها رغم أنها دون قصيدته فى الجودة بكثير ، فلا يغضبه ذلك ولايزهده فى مزيد من التقصيد وهو بذلك انما يشجعنى ويدفعنى دفعاً الى التحليق معه فى عوالم هو اطول باعاً منى فى التعرف على حقائقها . لقد كانت قصائد حمزه شعراً ناضجاً بحق ولم تكن «قصائدى» حيالها بشئ . ولكن سماحته التى امتاز بها جعلته يتغاضى عن الغث منها والفطير . ولو انه طارح محمد بخيت بدلاً عنى لاثرى نتاجهما معاً اجواء تلك العهود الحبيبة الحانية . ولقد اجتمع عندى كثير من هذه الرسائل الشعرية المتبادلة وضاع اكثرها ، وانى لاذكر ان حمزة قرأ علي ذات مره قصيدة جاء فيها هذا البيت :

عار عليّ انا الجمال عبدته   أأذل معبودى على اجلاله

و ذلك بعد ان قص على الدوافع التى اوحت له بها وبكتابتها. وكنت اظن وانا استمع اليه ان قافيتها لامية ولم اتبين الهاء فى الروى . فأعجبنى النظم واعجبتنى المعانى

والقيم الرفيعة المستكنة فى كلماتها فكتبت ابياتاً بعثت بها اليه جاء فى بعضها :

افـــدى بنفسى شاعراً نفثاته	ســالت مشـاعر عذبة التسـيال
يكـــسو الجمـال بحلة قد سبية	مـــن طـهـر قـول زانه بفـعــال
«عـــار عـلى انا الجمـال عبدته	أأذل معبودى علـــى اجلالـــى؟»
يا شاعراً عبد الجمال شعوره	عش انت رمـزاً للشـعـور العـالى

فكان الهادى يلم احياناً باطراف من هذه المساجلات ويستعذبها ويستجلى اغوارها وربما استبان لها من المعانى مالم يخطر على بال مؤلفيها كما يفعل بعض الشراح وهم يتمعنون اشعار غيرهم ، وما كان ذلك الا دليلاً ساطعاً على سعة آفاق فكره وخصوبة خياله وعمق تأملاته في النص وما قد توحى به الكلمات والتعابير من معانٍ متباينة .

كان الهادي حيياًّ موفور الحياء ولكنه كان في ذات الوقت شديد الذكاء جياش العواطف اذا استمع الى شئ من قصائد التشبيب اصطفقت جوانحه طرباً واهتز لوقعها سائره ، وبدا وكأن رقائق الكلمات تخاطب وجدانه دون سواه . تلك ايام لمعت فيها في سماء الفن والغناء اقمار ونجوم خوالد . فاذا تغنى عثمان الشفيع بروائع ود القرشى ، وصدح عثمان حسين برقائق بازرعة وغرد التاج مصطفى وهو يناجى نسائم الضحى والاصائل ذاب الهادي واستحال كيانه الى رقراق من المشاعر مستطاب . وهو كثيراً ما يترنم ببعض الاغنيات الرقيقة حتي اذا بلغ بك : «يانسيم ارجوك روح لها وحبيها . . . بالغرام البى والشجون احكيها» لم يترك في نفسك ريبة في انك تستمع الي التاج مصطفى بعينه من وراء ستر رقيق ، وسالت عواطفه المشبوبة حتي تجمعت فى مقلتيه مدامعاً توحى بالمعاني ويمنعها من البوح الصريح الحياء .

ذلك هو الهادى محمد عباس الذى عرفته في ام درمان الاميرية وصحبته فى خورطقت ، ثم فى جامعة الخرطوم ، وصار ولا يزال واحداً من احب اصدقاء الطفولة

والصبا والشباب . وذلك هو الهادى محمد عباس الذي كان شديد النفور من الدخول فيما لايعنيه من الامور ، يفزع الى صمته الوقور اذا احتدمت بين الناس الخلافات وتشعبت بهم طرائق النقاش وانفلتت من عقالها بعض تعابير غير موفقة . ويضع على وجهه ابتسامته المضيئة التى تبشر بالمودة وتنأى بالسامر عن مقتضيات اللجاجة والثرثرة التي لاتجدى . لايغمس لسانه فى مايظن انه قد يؤذى الاخرين ، ولايعرض عفة منطقه لما يمكن ان يظن من ورائه السوء . يقاتل الضجيج والهرج بالصمت والابتسام حينما تتفكك اوصال المنطق السليم بين الناس وتوشك الايدى أن تنوب عن الألسنة فى الحديث ، ويقارع بالحسنى ولين الكلام إذا أبصر مخرجاً من ظلمات الحديث المرجّم وقبساً يهدى إلى مواطن الوفاق بالحجة الرصينة لايعرف الكبر ولا العجب ولا الرياء ولا الخيلاء ، ولايرفع راسه الى السماء ولايمشى في الارض مرحاً ، لانه يعلم مغبة كل ذلك . فهو يمشى هوناً ويغض بصره حياءً من قبل ان يقرأ ويعرف (وقل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم) لانه فطر على ذلك الحياء وخلّقه به ربه منذ ازمان الطفولة واليفاعة ، وكأنه يمتثل لنصيحة ابى العلاء المعرى اذ يقول :

فيا غضاً من الفتيان خيرٌ .'. من اللحظات ابصار غضضنه

ولست اعلم له عدواً بين الناس الا ان يكون امرأ لم اقف عليه . وذلك انني منْذ عرفته في ام درمان الاميرية لم اره يتدخل في شئون غيره الا بخير او اصلاح ، ولايكون ذلك الا اذا ايقن انه يدرك مايبغى ويرتجى من اصلاح بين الناس . فكيفَ يكون لمثله اعداء ؟ وهو الذي ابان مسلكه في جميع المراحل التى عرفته فيها وكنت لصيقاً به عن عفة ظاهرة في اليد واللسان . وكأنما خاطبه المعرى من وراء التخصيص بالتعميم إذ يقول فى فلسفته التى احتار فيها الناس وربما لم يحسنوا فهمها :

فلا تأخذ ودائع ذات ريش .'. فمالك ايها الانسان بضنه

وبعد كل هذا ، فما كان الهادى الا احد فتية تلك الازمنة الغوابر ممن يحملون في

حنايا صدورهم كنوزاً من الفضائل ويجسدون بمختلف طرائقهم ووسائلهم أنصع معانى القيم والمثل الرفيعة فكلهم احباب وكلهم اهل محامد ، وان تفاوتت درجات الافصاح عما يستكن من خير في اعماق النفوس .

مصطفى . . والزروقان . . وقائمة الاشراف :

اما مصطفى خوجلى فلم اعرفه في ام درمان الاميرية معرفة وثيقة . وكان في نفسى شئ من بكوية جده هذه ، ولعلّ هذا الشئ كان ايضاً في نفس عبد الرحمن كنتباى والنفراوى وغيرهما . ولست ادرى ان كان مصطفى من صقور فصل «الاوائل» او من حمائمه وان كنت ارجح انه من الحمائم . فنحن لم نجتمع في ميادين كرة القدم الا قليلاً . ولكنى علمت يقيناً انه هلالابى ، وهذا امر بالغ الاهمية . ولكنه كان كثير الضحك . وكثرة الضحك كانت احياناً تستثير الصقور في فصلنا «التوانى» ، الا ان يكونوا هم مبعث هذا الضحك او من وراء اسبابه . وذلك انهم قد يفسرونه في بعض الاحايين بانه نوع من السخرية منهم . ومن الذي يستطيع ان يسخر من الصقور جهرة وصراحة الا ان يكون قليل الالمام بحقيقة موازين القوي السائدة ، او ان يكون ملقياً بنفسه ويديه الي التهلكة ، غافلاً عن ان مثل هذا الالقاء امر منهى عنه فى محكم التنزيل . ولولا اني تدخلت - ومعي رهط من اصدقاء الصقور - فأفضينا الي عبد الكريم بأن مصطفى خوجلى هلالابى «قاطع» علي اقل تقدير ، لما شفع له عندهم شئ . وذلك بالرغم من ان مصطفى من حى البوستة وهو حى قريب من حى السوق الذى يقطنه عم محمدين خال الكبتل . ولو كان مصطفى مريخابياً لما نفعته هذه الجيرة التى ربما انكرها الكبتل وقاس المسافة التى تفصل بين دار خاله ودار مصطفى بالفراسخ والاميال ، وجاراه بقية الصقور فى هذا الزعم نفياً لمثل هذه الجيرة «المزعومة» واخراجاً لمصطفى من نطاق حماية الصقور التي كان هو وامثاله من الحمائم في امس الحوجة اليها خاصة عندما تتلبد السماء بالغيوم . ولكن الذي حمى ظهر مصطفى وادخله فى

رواق السلامة كان هو هذه «الهلالابية» التى تأتى عند الصقور في المكان الاول ، وجميع ما عداها يأتى في المحل الثانى على احسن الفروض .

لقد كان مصطفى من الاولاد «الشطار» فى فصل الاوائل ، ولكن الشطارة وحدها لم تكن كافية لك لكى تحتل مكاناً مرموقاً من انفس التلاميذ . فلابد من قدر من «الشيطنة» يزكيك فى نظرهم ، ولابد من القدرة على رواية اقاصيص درامية او بطولية على مسامع التلاميذ تكون من وحى الاحداث اليومية التى تطرأ علي حياة الناس فى الحى الذى تعيش انت فيه . ولما كان حى مصطفى قريباً من المدرسة بحيث يغدو اليها ويروح منها سيراً عل قدميه ، فهو لم يشتهر بمادة طرماجية «يفلق» بها الرؤوس ويفرقع بها الاذان كما يفعل آخرون . ونحن لم نسمعه يروى شيئاً عن قنادف الحى رغم ان سينما برمبل كانت على مرمى حجر من داره وهي مسرح القنادف ومقيل العفاريت وقبلة القصاد من انماط الجن الاحمر وغير الاحمر . ولو ان مصطفى استقدح خياله واضفى علي بعض احداث حيه الصغيرة شيئاً من فيوض هذا الخيال ، لطلع علينا بحكايا تقارب الاعاجيب ولتبوأ من نفوس الصقور مراتب عالية . ولو ادرك غزارة المادة التى يتيحها له قرب داره من معادن الخوارق الاصلية - وهى سينما برمبل ، وقهوة الملوص والمكرفون الذى كان يلعلع قريباً من تلك الامكنة من اذاعة هنا ام درمان - لاستغل كل ذلك ابرع استغلال ، ولروى علينا من الاساطير ما ان «مغاليقه» لتنوء بالعصبة اولى القوة من الصقور . فاذا كان التجانى الطاهر لايكتفى براوية المعجزات التى يبدعها «بلة الاحمرانى» ورفاقه في حى العرب بل هو يصطحبهم - فيما يروى علينا - الي شباك تذاكر السينما ومائدة «الملوص» دون ان تطرف له عين او يفتر له حماس ، فقد كان الاحرى بمصطفى ، وهو القريب من هذه المواقع التى تنبت الاساطير وتحلو الرواية عن أحداثها الصحيحة والمختلقة ، ان يحسن الاستفادة من هذه الامكانات الهائلة التى حبته بها الاقدار وطرحتها امام ناظريه لاتكلفه الا ان

يجيد الملاحظة ويعمل الخيال الخلاق لينسج مما يرى وما يزعم انه قد رأى ما شاء من اساطير الاولين . ولو كان مصطفى من الشيطنة المقتدرة بمكان لما آده ان يأتينا في كل صباح بعجيب من القصص والروايات ، ولما اعجزه ان يتحايل على اقناعنا باختلاق بعض الطرائف وإحكام تشقيق المعانى الكامنة فى بعض المفارقات . ولكنه كان أيضاً تلميذاً فطناً ، فهو لا يحوم حول هذه المشارف والتخوم لانه يعلم ان الفتية العفاريت كثيراً مايطرحون على اهل الحكايا اسئلة محيرة وقد تقود اجاباتك عليها - ان لم تكن من دهاقنة هذا النوع من الحديث مثل التجانى - الى مطبات يصعب عليك الخروج منها ، فترمى رواياتك واحاديثك بالغثاثة والفسولة ، ثم لايعبأ بك كراوية يعتد به في امثال هذه المجالس . وعندى ان الذي دفع مصطفى الى الامساك عن الخوض في مثل هذه الوحول لم يكن هو قلة شيطنته أو عدم إلمامه بأسباب ارتفاع المكانة فى أعين التلاميذ ، وانما هو أمران : اولهما ان اولاد حى البوسته المطلعين علي الامور في تلك المناحى كثر يقف فى طليعتهم محمود قرشلي والزروقان . ولو ان مصطفى روى علينا من الاحداث الجسام مالم يتفق معهم على روايته لربما كذبته اعينهم والسنتهم ولصار بفضل ذلك اضحوكة بين الناس . وثانيهما ان مصطفى كان تلميذاً كثير الضحك حتى في المواقف الحازمة التى تحتاج لشئ من «صرة الوش» وتغيير نبرات الصوت بما يتماشى وروح الحدث الذى يرجى ان تحدث روايته الاثر المطلوب في نفوس المستمعين . والضحك في مثل هذه المواقف يفسد روعة الرواية ويوحى لسامعك بأنك لاتجد ولاتتحرى الصدق فيما تقول وتفصل . وهكذا قصرت هاتان الخصلتان بمصطفى ، فهو لايستطيع ان يوغل فى اختراع الوقائع والاحداث كما يشاء لان عليه من عيون اولاد حى البوسته الاخرين والسنتهم الحداد رقباء يخشى مكرهم وتخشى عاقبة الانفراد بالرواية دونهم ، وهو ليس بمقدوره - حتى وان خلا من هؤلاء المجلس - ان يسيطر على احاسيس مستمعيه بتأثير ما يروى عليهم لانه يغرق في الضحك قبل ان يصل بك

الى نهاية الاسطورة او المعجزة . وذلك امر مخل يجافى الاصول التى عودنا عليها الأساطين اصحاب الشأن في هذه الفنون . وهي الاصول التي تسم الروايات بالصدق ويقبلها الصقور ويجلون رواتها . وان كان لمصطفى دعوي في الشيطنة فلربما كان مجالها ركوب البسكليت فقد كان حي البوسته قريباً من دكاكين العجلاتية ، وكان اولاده من اكثر التلاميذ ركوباً للعجلات ، واكثرهم انساً بصرير البدال تحركه القدمان في الاتجاه العكسى والبسكليت راكز علي الارض واليدان قابضتان علي الميزان في اعلان واضح عن قدرات هائلة علي الطيران من وجه الارض علي سرج هذه الدابة الحديدية المرعبة . وهذه هى بعينها الامور التي كانت تثير سخط مصباح الصادق وتقزز عبد الرحمن كنتباى حتى كادت كراهيتهما للعجلات والعجلاتية أن تشمل أولاد حي البوسته أنفسهم .

وكما صرت مع ثلة من التلاميذ الي خور طقت فقد صار مصطفى خوجلى الى وادى سيدنا والتقيته بعد ذلك زميل فصل واحد وداخلية واحدة في كلية الطب بجامعة الخرطوم . ولهذه الزمالة قصة اخري ربما تعرضنا لها اذا قدر لنا ان نبقي وان نسجل بعض لوافت من ذكريات الجامعة .

واما محمود زروق فقد كان ايضاً من اولاد فصل الاوائل في ام درمان الاميرية وهو هلالابى واضح الهوية ، لاينقص من هلالابيته الا انه كان ميالاً الى الاناقة «والنظاكة» التى لا تعجب الصقور عموماً ، وهم يعتبرون المغالاة فيها ضرباً من ضروب «الفياقة» وربما الابتذال . ولكن ربما فات عليهم ان محموداً لم يكن محباً للاناقة فحسب بل كان مطبوعاً عليها فهى احدى سجاياه التي هي ملازمة له . وقد ساعده علي ذلك قوام حسن ممشوق وجسم متناسق الاعضاء غير مكتنز ، لا هو بالنحافة التي تدنيه من الخفة «الفلكابية» ولا هو بالسمنة التي تقارب بينه وبين «الزنفخة» . وهو تلميذ فيه رقة هى اشبه برقة الفنان الصيدخ منها برقة الشاعر او الاديب او الرسام . فما بين

الامرين بون شاسع وفرق جلي ان انت امعنت النظر واستصحبت الخيال ، واستنطقت الايحاءات التي ترد عليك وانت ترقب ما تري بالعين الفاحصة . فالشاعر او الاديب او الرسام يغني بالضرورة . وما الشعر ورقائق البيان والرسم إلاّغناء صريح يطرب له من تنفتح عنده عيون الاسماع وتتشحذ عنده حاسة إدراك لطائف المعانى وترقي به سلامة الذوق الي اجتلاء تلك المشارف الرحاب . واما المغنى فقد يكون بلبلاً شجيً الصوت عذب النبرات ولكنه قد يعجز عن ان يبدع او يخلق او يستوحى . ومن الناس من تجمتع له كلا الموهبتين ، فذلك هو الفنان المطبوع . ولقد كاد محمود زروق ان يجمع بين هاتين الخصلتين لولا ان شدة حرصه علي الاناقة والقيافة باعدت بينه وبين الفرشاة وسائر ادوات الابداع التى قد تلحق بيدك او ثيابك من البقع والاوشاب مالا يحتمل مثله محمود!

وعلي الرغم من انه كان هلالابياً ملك عليه حب فريق الهلال جميع اقطار نفسه الا قليلاً – وهو قد ابقى هذا القليل ليتسع لبقية وجدانياته وعشقياته الصرفة التي بلغت ذروتها علي ايام الجامعة – الا انه لم يكن كلفاً بالدافورى واللعب بكرة الشراب . وليس في ذلك من عجب ، لان الدافوري وكرة الشراب ومباريات كرة القدم في جامع الخليفة وما يصاحب هذه «المعمعات» عادة من مدافرة ومعافسة وشنكلة وسائر انماط العنفّ ، كلها مظنة التعفر بالتراب والاحتكاك بالحصى واتساخ الجسد والثياب . ومحمود لايطيق مثل هذا «العفار» لانه ينال من اناقته وقد يعرضه للأذى الجسدى الذى يصيب دعائم الاناقة والقيافة في مقتل ، لانها تقوم علي سلامة الجسم وخلوه من أى اثر للبهدلة والخدوش والكدمات والاورام . ولهذه المحاذير لست اذكر ابداً ان محموداً «تلب» معنا «حيطة» دار الرياضة او حاول تسلق ذلك الجدار التاريخى ذى الحجارة البارزة التى تعين المتسورين وتيسر مهمتهم احسن تيسير . غير ان الذين يفعلون ذلك لايبالون – عادة – باتساخ ملابسهم ولا بالعثرات والزلات والانزلاقات التي قد تنجم

عنهـا «ظلطات» دامـيـة في الركبـتين او السـاقين او مـا هو اشـد من ذلك اذي . ولكن مـحـمـوداً لايعـرض نفسـه لمثل هذه «البـهـدلة» . وهو علـي اي حـال لايطيق دخـول دار الرياضـة «شـعب» حتي ولو كـان ذلك بالطريق المشـروع خلال البـاب الجـانبي الذي يلج منه الي داخل دار الرياضـة فرسان الطابور الشـعبي الطويل المألوف . ولن يبلغ هؤلاء الفتية الذين يتسلقون هذا الحـائط الشـاهـق - وفى احسن حـالات نجاحـهم بعد جـهد جـهيد - الا هذه «المصـاطب» الشعبية التي هو راغب عنها وزاهد فيـها . فلماذا يزج بنفسه في مـثل هذه « الشـعبطات» المحفوفة بالمخـاطر التي لاتنتـهى به - علي احـسن الفروض - الا الى هـذه الامـاكن الشـعـبيـة التى تعج بالناس والتى تنفـر منها طبيـعته وتأباها ابسط قواعد الاسـتمسـاك بالاناقة وكمال حسن المظهر ؟ ان الاحتمـالات المتعلقة بنتائج الشعبطة على حيطة دار الرياضـة كثيرة ، وليس من بينهـا الوصول الى الهـدف المرجو بالسـلامة التامـة ، ولن يكون من بينها المحـافظة علي مظهر القيافة كما يجب ان تكون . فـأنت لا تـأمن منذ البداية ان ينهـال علي ظهرك سـوط السـوارى ليلهب قفـاك او مؤخـرتك حتي قبل ان تشـرع او تفلح فى تثبيت قدمك علي اول حـجر بارز فى قـاعدة الحـائط . واذا سلمت من ذلك بـاعـجـوبة او فلتـة حظ لان سـيـاط السـوارة منشـغلة عنك بآخـرين من امـثـالك فـانك مـاتزال كـالمبـتـغى سلمـاً للسـمـاء لان ارتفـا ع الحـائط بـألـغ «علاعيل» الفضـاء ولن تبلغ قمتـه الا بمشقـة وصبر ومثابرة وشـدة مراس . فـاذا تمكنت من الصـعـود قليـلاً وافلت مـن مدى سـيـاط السـوارة فـانك لن تـأمن ان تزل قدمك عند (صـفوان عليه تراب فـأصـابه وابل) فتتخـبط ركبتك او «ينملـخ» كتفك او ينسلخ بعض جلدك او تهوى الـى الارض فتتناوشك السـيـاط من جديد . امـا اذا وافـتك المنة الالهيـة فبلغت قمـة الحـائط باعجوبة من الاعاجيب فـالخير لك ان تبقـى هنـاك على هـاتيك الذرى لتـتـمكن من الاحـاطة بالملعب ومـشـاهـدة المباراة على الاصـول من عل . غـير أنه ليس بمستبعد - وانت «مقنطر» بهذه الصـورة - ان يحصبك بالحجارة او ماتيسر من وسـائل

المناوشة وتهديد الامن الشخصى بعض الصبية الذين لم ينالوا مانلت حسداً من عند انفسهم وعملاً بقاعدة «يا فيها يا اطفيها» . وذلك لان هؤلاء العفاريت لايهون عليهم – وقد عجزوا او اعجزوا عن اللحاق بك – ان يدعوك تنعم بثمار مهارتك التى بلغتك المقصود ، بل ان أرأف ما يمكن ان يتبعوه معك هو سياسة «سهر الجداد ولانومو» . ولذلك فأنت لست فى مأمن ولن تنعم بمشاهدة المباراة فى اغلب منعطفاتها لانك لا تملك الا ان تتلفت يمنة ويسرة وقد تدير ظهرك لما شقيت من اجل مشاهدته حتى ترى بعينيك وتتقى بيديك او باخفاء وجهك ما تتراشقك به هذه العفاريت الادمية الصغيرة من الحصباء والحجارة والحصى . وانت مضطر للبقاء على هذه الحالة اذا اردت ان تتمتع من وقت لاخر بأقصى درجات الرؤية . وذلك لانك اذا «تلبت» من قمة هذا السور التاريخى الى الداخل لكى تنجو من هذا «الطقيع» الذى لابد ان يكون قد نغص عليك حياتك فقد تهبط علي كتف شخص غافل منهمك فى متابعة المباراة ، فاذا افاق من «الخلعة» وهول المفاجأة لم يتردد في ان يفرى ظهرك ووجهك بأقسى انواع «ام دلدوم» واشد انماط الكفوف واقذع انواع الشتائم . اما اذا سلمت من ذلك وسقطت علي الارض الصلبة فربما اصبت بفكك عند مفصل «عضم الشيطان» او كسر في «عضم القنقوس» او أى اذى من هذا القبيل . اما اذا انجاك الله من كل هذه المخاطر التي قل ان ينجو منها احد ، فاستقمت بعد سقطتك واقفاً على قدميك فانك ستجد ان اغلب «الفراجة» من الجمهور هم ابلغ منك طولاً ويحجبون عنك الرؤية ، وان الذين هم في طول قامتك – سواء كانوا «بعيوات» او صبية صغاراً مثلك – يتدافعونك من جهة الى جهة حتى لاتحول دونهم ودون مشاهدة المباراة التى دفع كل منهم ثلاثة قروش لكى يدخلها دخولاً مشروعاً ليس هو مثل دخولك . فاذا حاولت ان تقترب – بعد مدافرة شديدة من جهة «القون» او تتعدى السلك الشائك الذى يفصل بين حرم الميدان ومصاطب المشاهدين فان عين البوليس بالمرصاد ، ولن تنجو من كفين او ثلاثة ، او

لبعات متتاليات اقل ما يتخللها : يا ابن الكلب اطلع من هنا ، انعل ابو اهلك . واذا عدت القهقرى وانحشرت مرة اخرى وسط ذلك الزحام الشعبى ، ثم حاولت ان «تتشابى» وتتطاول على امشاط قدميك لترى شيئاً من المباراة فان الايدى والالسنة لابد ان تتقاذفك دون ادنى ريب : يا ود ما تزح كدة ولاكدة . . انعل ابو خاشك . . ياخى عاوز تجننا مالك ؟ ومثل هذه اللعنات الاخيرة اكثر رحمة من غيرها ، لانها على كل حال اقل درجة فى الايذاء من نسبتك الى الكلب او الحرام ، او النيل من امك وابيك وجميع من هم على ظهر الارض او بباطنها من قراباتك .

فمال محمود زروق بكل هذا العنت والعذاب ، وهو الذى اذا علقت بجلابيته اثارة من غبار اشقاه ذلك اشد الشقاء حتى يتاح له ارتداء اخرى نظيفة تنضو عن كاهله هذه الاوساخ والأدران ! لذلك فليس غريباً ان يدير محمود ظهره لامثال هذه المغامرات التى كان اترابه مولعين بها وهو بها برم ضائق الصدرلايمنعه من الجهر برايه الصريح فيها الا ان يعاب عليه او تظن به الظنون . فهو لايمكن ان يعرض نفسه لهذه التعاسات ابداً ولن يفكر مجرد تفكير فى «التشعبط» على سور دار الرياضة . وحتى اذا كان لابد له من دخول دار الرياضة فانه لن يدخلها «شعب» ابداً ، وأنا لست ادرى ان كان محمود يدخل السينما شعب ، ولكنى ارجح انه لايفعل ذلك لانه امر محفوف بشتى انواع المضايقات ايضاً . فانك ان وجدت مكاناً مناسباً فى أى كنبة من كنبات الشعب الخشبية ذوات المسامير الناتئة التي تقد الثياب وربما تصل الى لحم الجسم وعصبه ، فانك لست فى مأمن من قشر التسالى الذى يساقطه عليك جيرانك من خلف او على جنبيك . واذا اوشك بطل الفيلم – والفيلم عادة كاوبوى امريكانى – ان يسقط من شاهق ، او اذا كاد «الخائن» ان يودى بحياته على حين غفلة منه ، فانك لا تأمن ان ينفعل من خلفك «ويتف» «السفة» على ظهرك او رقبتك او راسك او وجهك – اذا حانت

منك التفاتة في الوقت المناسب – او يدك ، او ان يصفعك بيده او يركلك بقدمه في محاولة ومروءة كريمة منه للتدخل الفعال لصالح البطل وحمايته من غدر الأقدار ومؤامرات الخونة الأشرار . فما قيمة الفيلم إذا سقط البطل بالفعل ومات او تعرض للاغتيال على يد الخائن الجبان الذى تتضاءل برنيطته المصنوعة من القش امام كسكتة البطل التى تستقر على راسه كتاج الملك ، ويبدو حصانه السمين المترهل امام فرس البطل المنجرد الوثاب كبغلة عجوز هدها الزمن واعياها المسير ، ولاسبيل الى المقارنة بين بندقيته الخربة المهترئة التى تهتز وترتجف فى يديه وبين مسدس البطل ذى الطلقات السريعة التى تحصد ارواح اعدائه حصداً في لحظات قليلة دون ان تخطئ الهدف ولو في مرة واحدة ؟ ما الفائدة اذا مات هذا البطل المغوار او قتل ؟ هل دفع هذا المسكين المنفعل – المحق فى انفعاله – ثلاثة قروش بالتمام والكمال ثمناً لتذكرة السينما ليجد ان البطل واحد «فشوش» ؟ وكيف يستطيع الخائن ان يقتل البطل ؟ وهل يكون البطل «هاملاً» لهذه الدرجة بحيث يوشك ان يموت ولما يمض على بداية الفيلم الا زمن يسير ؟ واين صاحب البطل الذى يأتى عادة فى اللحظة المناسبة لينذره ويوقظ انتباهه للخطر المحدق ، فاذا بالبطل يفعل الاعاجيب سواء كان ذلك بالبنية المجردة المميتة او بالمسدس الذى لاتنبو نيرانه المتدافعة القاتلة عن الهدف ابداً بحال من الاحوال ؟ فالمسكين له حق اذا بصق عليك او «جلبطك» بالتمباك او رفسك فى بطنك دون قصد ظاهر ، او لكزك او لطمك او صفعك ، لانه ينافح عن الحق او عن الذى يجب ان يكون ، ولانه لم يدفع هذه القروش الثلاث ليشهد مصرع البطل وانتكاس راية الشرعية الكاوبويية .

وانت ربما ساعدك الحظ فجلست علي كنبة في «الشعب» بعيداً عن مثل هذا المنفعل الهائج ولكن قريباً من معجب بالبطل متزن لايصفع جاره ولا « يلبع » من هو امامه فى مثل هذه المواقف الحرجة التى يتعرض لها البطل ، ولايبصق التمباك ولاغيره في رقاب الناس ووجوههم . ولكنه على أى حال لايرضى ابداً بهزيمة البطل ، ويؤذيه ان يصاب

البطل بأى نوع من انواع «المرمطة» امام الناس . ولست انسى اننا دخلنا مرة السينما الوطنية (الخرطوم) «شعب» – ولم يكن من بيننا محمود زروق بالطبع لما علمته من امره ونحن طلبة فى كلية الطب بجامعة الخرطوم لنشهد احد افلام الكاوبويات الشهيرة آنذاك . ورغم انى لا اذكر الان اسم الفيلم ولااذكر ان كان بطله هو همفرى بوقاردت او روبرت ميتشام او جارى كوبر ، الا اننى اذكر جيداً ان كنبات الشعب كانت تغص بالرواد وان صيحات الاعجاب بالبطل كانت تتعالى من كل فج من فجاج ذلك الوسط الشعبى ، حتى بلغنا موضعاً من الفيلم حوصر فيه البطل حصاراً مطبقاً وهو على سطح عمارة شاهقة العلا . وحمل عليه «الخائن» واصحاب الخائن حتى وقف على حافة السطح بقدم واحدة والاخرى فى الهواء ، وبات سقوطه من تلك الاعالى امراً محققاً ليس وراءه الا الهلاك المحتوم . وفى تلك اللحظة التى بلغت فيها قلوب المشاهدين الحناجر وانشدت اعصابهم وانتصب كثير منهم قياماً فى احتجاج صامت وشيك الانفجار – في تلك اللحظة المرعبة القاسية ، اذا بشاشة السينما تظلم فجأة ، ربما لانقطاع التيار الكهربائى ، رغم أن انقطاع الكهرباء كان أمراً نادر الحدوث فى تلك الأزمنة السحيقة بل لعله لم يحدث إطلاقاً ، على نقيض ماصرنا إليه فى هذه الأزمنة الماحقة التى كادت «القطوعات» المميتة فيها أن تشمل نفس الانسان وتيار الحياة فيه ..

ورغم أن إظلام الشاشة لم يدم إلا دقائق معدودة ثم عادت إليها الحياة ، إلا أننا استمعنا فى خلال هذه الدقائق المعدودة إلى خطبة بليغة ومؤثرة من أحد رواد كنبات الشعب . وقف هذا الرجل الغيور يصلح من وضع عمامته بيده اليسرى ويشير الى جماهير المشاهدين بيمناه فى شئ من العصبية رغم ان وجهه كان يبدو فى ضوء القمر هادئاً بعض هدوء ، فالقى على مسامعنا هذه الخطبة المطمئنة التى جاء فيما جاء فيها قوله : يا جماعة ماتخافوا . على الطلاق البطل منصور ، لابقع ولا حاجة . حرم انا الفيلم دا شايفو فى كوستى . البطل منصور والله حيجيه صاحبو وحيكتلو الجماعة ديل

كلهم مايخلو فيهم طافى النار . ابشروا بالخير ، البطل مابقع . . . الى غير ذلك من الانباء السارة التى لا اشك فى انها بلغت مواضع الرضا من انفس المشاهدين فى كنبات «الشعب» ونزلت على عواطفهم المشبوبة برداً وسلاماً . وقد صدق الرجل ايما صدق . فماهى الا لحظات حتى استانفنا مشاهدة الفليم فاذا بصاحب البطل يبرز من وراء استار الغيب واذا بالبطل يلتف من حول اعدائه الكثر بحركة ليست فى مقدور البشر واذا به يبعث باعدائه الواحد تلو الاخر من ذلك العلو الشاهق الى الهلاك المحقق فى مكان سحيق . ولست ادرى ان كان محمود زروق فى تلك اللحظات فى «اللوج» او الدرجة الاولى من مقاعد السينما ، ولكنى اجزم بانه لم يخرج كما خرجنا نحن ننفض عن ملابسنا قشر التسالى واغشية الفول المدمس وبقايا الطرشى ، وقد علقت بها وبالايدى والاعناق بقع لايخطئ احد ان يشم فيها رائحة الصعوط . ولو ان محموداً اصاب شيئاً من ذلك لمات في حينه من هول وقع المصاب . افلا ترى معى انه محق في كل ما كان يذهب اليه ؟

لقد التقيت بمحمود زروق من بعد ام درمان الاميرية فى خور طقت . فكان - وهو لا يزال - من اعز اصدقائى . وقد باعد بينى وبينه فى اول احياننا فى خور طقت شأنان : اولهما هذه الاناقة التى اعيتنى مجاراتها ففررت من وجهها الى بساطة احمد وادى حسن وعلى محبوب ونعيم الله البشارى وبخارى محمود وغيرهم . وثانيهما كلف محمود زروق بالزعامة وحبه وتصديه للقيادة فى امور الطلاب . لقد كانت نفسى تنفر من الدعاوى الكبيرة والصغيرة علي السواء ، وترى في التواضع والترابية الحقيقية معنى من ارفع المعانى وقيمة من انبل القيم . ولكن ذلك لم يحل بينى وبين ود محمود وصداقته ، وان كانت بعض تصرفاته توحى اليك بانه يضمر نوعاً من التعالى واحساساً بالتفوق على اقرانه لم اجد له مبرراً مقنعاً في يوم من الايام . على ان محموداً كان - والحق يقال - من اوائل المبشرين بالافكار الجديدة فى خور طقت .

وربما ظن البعض انه «عامل خالقه» فكان ذلك هو مبعث ما دعاهم لوصف مسلكه بالتعالي والعجب والكبر ، وفى ذلك ظلم على محمود . غير انه لم يجفل به كثيراً بل سدر فيما تراءى له انه هدى وان رأى غيره انه غى ، فأتبع سبباً ، ثم اتبع سبباً . او قل سار مع ما جلته له بصيرته وظنه من صحائح الامور ، ومع ما راقه من التماس كبريات القضايا والتصدى لقيادتها ، وان كان ذلك من وراء حجاب . فقد اوتى محمود من الذكاء ما عصمه من مقارفة المخاطر دون روية ، وحبب اليه من اسباب الدعة وخفض العيش ما راض من جموح الخيال الذى كثيراً ما يعترى الفتية في تلك الاعمار الحالمة بشتى انواع الاحلام الوردية . فصار يقدم رجلاً ويؤخر اخرى حتى انتهى به الامر – رغم اليقظة والحذر – الى الفصل من خور طقت . فالتقينا من بعد ذلك فى كلية الطب بجامعة الخرطوم . ولعل الذى تجدر اليه الاشارة هنا هو ان الفصل من المدرسة لم يكن بقدر الجرم بحال من الاحوال . وما الجرم هنا الا ما كان يسمى بمخالفة القوانين المدرسية . وما هذه التسمية سوى اطار فضفاض ليس له حدود معلومة ولا خطوط صفراء يعتد بها . فالشقى من وقع فى الاحبولة بلا يد او كراع ، وقليل ما هم . والسعيد من قارف الجرم ثم نجا من مغبة شروره ، وكثير ما هم . ولو كان الفصل يجرى بمقياس دقيق لمخالفة قوانين المدرسة او الخروج عليها ، لما تمكّن كاتب هذه السطور من الجلوس لامتحانات شهادة كمبردج في تلك الربوع النائية الحانية والنجاح فيها مثل عشرات آخرين ، ولما ظل ابو الحسوس والكبتل وبشرى عمر احمد وغيرهم تلامذة فيها حتي النهاية . فلقد اجتث سيف الفصل اقواماً كانوا اشد براءة من ذئب يوسف المفترى عليه ، وبقى في المدرسة حتى نهاية الشوط الدراسى ارتال من العفاريت الاشقياء كانوا اكثر استهانة بقوانين المدرسة من استهانة اخوة يوسف بوعدهم لأبيهم النبى . ولايظنن احد انى اندد بادارة المدرسة في تلك العهود . ولكن اذا حدثت تجاوزات فلابد لها من متجاوزين ، ولابد من انزال العقوبة بهم . واذا

كان السؤال من هم ؟ فالجواب عليه هو ان «الحريف» لايرى ، وغيره ممن لايصطحب الحذر قد تلتقطه اعين الرادارات البشرية في موطن الحدث علي غفلة منه - وربما وهو برىء تماماً . فيشقى هذا دون جرم حقيقى منه ، ويسعد غيره على حساب شقائه . وما كان ليصيبك فلن يخطئك بريئاً كنت ام مخالطاً لخطيئة . وقد يكون خيرك ونفعك فيما لا تريد ، وشرك وضررك فيما تحرص عليه ، (والله يعلم وانتم لاتعلمون) .

ورغم ان عبداللطيف زروق (او عوض الله وهو اسمه ايضاً) هو ابن عم محمود واحد اترابه واقرانه الا انه يختلف عن محمود من عدة اوجه ويمكن القول بان عبد اللطيف زروق كان تلميذاً شعبياً في الوقت الذى كان فيه محمود زروق تلميذاً صفوياً . واذا كان محمود قد وصف من بعض زملائه «بالقرضمة » - على غير دقة منهم وعلى غير فهم صحيح لحالته - فان عبد اللطيف قد وصف بالشعبية والبساطة . وليس صحيحاً انه لم يكن يحب القيافة والاناقة مثل محمود ، بل من الواضح انه كان يجتهد في هذين الامرين ما وسعه الاجتهاد ، ولكن مشاغله الاخرى كانت تلهيه فى اغلب الاحيان عن ان يبلغ باجتهاده شاواً عالياً في هذين المجالين . وقد تقعد به هذه المشاغل عن بلوغ درجة الوسطية التى كان يحوم حولها - دون ان يتعداها - اغلب التلاميذ. فهو كثير الكلام مع كل زملائه الذين يلقاهم و هو شديد الحركة موفور الحيوية ، يفضل الحديث في اغلب احيانه عن «الكورة» ويتمثل فى مخيلته أساطينها ورموزها المشهود لهم بحسن البلاء فى مضمارها ، بل هو يكثر من محاولات تقليدهم ويكاد يزعم احياناً انه يجيد ذلك . وقد تبلغ محاولاته للاتيان ببعض اعاجيبهم الكروية ذروتها اثناء احدى المباريات التى كنا نجريها فى تلك الميادين الرابضة غربى سور العمارة ، ولكنه كثيراً مايخفق في تحقيق مراده ويقصر عن إحداث الاثر الذى يرمى الى تثبيته في اذهان التلاميذ . فاذا حاول ان يلعب الكرة «باكورد» بتلك القفزة التى تبدأ بالقدم اليسرى فى الهواء ثم تردف باليمنى وقد لامست الكرة واصابتها وحولت

مسارها دون ان تخطئ فانه قليلاً ما يحسن التوقيت ، وكثيراً «مايجلى الكورة» وربما «هندسها » او ارتطمت براسه او مرت من بين قدميه دون ان تمس ايا منها بخير او بسوء ، فيسقط عوض الله علي الارض وهو يلعق مرارة اخفاقه . واذا اراد ان يقلد باصات الدهاقنة من «اللعيبة » – وهو دأبه ليثبت «حرفنته» – فقلما تبلغ الكرة المدى الذى يريد ، فتراه يمسح على راسه بيده اليسرى بحركة عصبية تجمع بين الحسرة والاحتجاج . اما اذا انفرد بحارس المرمى وغض «الشاهد» الطرف عن تسلله الظاهر واراد ان يصوب او يسدد فان الكرة لا يخلو مصيرها من احد امرين : اما ان تستقر في يدى الحارس صيداً سهل الاقتناص ، وإما ان تعلو عارضة المرمى بما لايقل عن اربعة امتار لتستقر من خلفه بين احضان الرمال . فيتعالى خليط من الاصوات التى تجمع بين السخرية والغضب والضحك والاسى علي ضياع اصابة محققة اهدرتها قدم عوض الله لانه – فى نظر البعض – يحاول ان يحاكى غيره من المهرة بقدمين ليستاهما من المهارة في شئ . ولقد ابان بعض الخبراء والعارفين ببواطن الامور ان الذى يقعد بعوض الله عن تحقيق بغياته الكروية فى الميدان ويجعل الاخفاق ملازماً له فى اغلب احيانه انما هو «دقشة» من الاسباب . أولها انه ضعيف الجسم والاتيان بمثل هذه المهارات يحتاج لقوة واقدام وسواعد مفتولة . وثانيها ان عوض الله لم يتدرب علي اللعب على ارض رملية موحلة ، فهو يقتلع قدميه منها اقتلاعاً ولاينجو من «فرناغة» حتى تغوص قدمه فى اخرى . وثالثها انه مولع «بالمحاورة» وهى ما أطلق عليه بعض الخبثاء اسم «الاستعراض» الذى من نتائجه المؤكدة تضييع الفرص السانحة واهدارها دون طائل .

ولكن عوض الله – على الرغم من كل ذلك – كان تلميذاً محبوباً كثير الاصدقاء ، وربما كان السبب الغالب في هذه المحبوبية هو «شعبيته» التى تميز بها واستطاع بفضلها ان يخالط الناس دون ادنى تحفظ . فهو لايعرف «القرضمة» الا فى ميدان

الكرة عندما يحاول ان يأتى بما كان يظن ان غيره عاجز عنه . ولعله – وبعد تجاربه المريرة – قد ادرك ان «القرضمة» حيثما كان مجالها فهى لا تجلب لصاحبها الا الخسران ولا تقابل ممن تمارس عليه او فى حضرته الا بالهزء والسخرية والازدراء . ولا عجب في ذلك ، فقد كانت من الاغنيات الشعبية السائدة في تلك الازمنة : «تزدرينى . . . انا بزدريك» ! ولقد ادرك عوض الله على كل حال ان القرضمة بضاعة مزجاة ، وهى نعت بغيض حاول البعض الصاقه باولاد البحر عموماً وان كانوا يقصدون به اولاد ام درمان علي وجه الخصوص ، فظهر لهم جلياً من مسلك عوض الله ورفاقه ان ذلك الاتهام لم يكن الا رجماً بالغيب وتبدى لهم ان بعض الظن اثم فاجتنبوه لعلهم يفلحون . ولقد زاد من محبتهم لعوض الله انه طيب لا يضمر سوءاً وهو يرسل نفسه على سجيتها ويجهر بما يعن له من حديث وان كان اكثر ذلك فى عوالم الكرة وبطولاتها والثناء على نجومها اللامعة وبعض مآخذ على الحكم ورجلى الخط لايخلو منها وصفه لاى مباراة شهدها في دار الرياضة بام درمان وبخصوص اشد ان كانت تلك المباراة بين فريقى الهلال والمريخ . وعندما يتحدث اليك عوض الله فى مثل هذه الشؤون تكتسب احاديثه حرارة وحماسة مشبوبة وتتوالى كلماته سراعاً حتى ليصعب عليك تبين بعضها في كثير من الاحيان . ولم يكن ذلك لشدة اندفاعه فى الحديث فحسب وانما لطريقته التى تميز بها في التعامل مع مخارج الحروف حتى ليخيل اليك ان بعضها يندغم في بعض اندغاماً يغيب عنك فى متنه المعنى المراد . ولن تخطئ وانت تستمع اليه تلك «اللجنة» الخفية التى تضفى على نطقه نكهة مستطرفة . فهى «لجنة» لا تخلو من طلاوة ولطف . وهى وان كانت مضحكة بعض الشئ الا انها محببة مرضى عنها لانها ليست مصطنعة وانما هى طبيعية وسائلة بعفوية ورقة . وغيرها مما قد يصطنع ويتكلف لايغدو الا مدعاة للسخرية ومجلبة للاستنكار والامتعاض . إذاً كانت «لجنة» عوض الله مألوفة ومستساغة ولذلك وقعت من أنفس زملائه موقع الرضا والقبول . وقد اعانته على

طلاوة الحديث وتشقيق معانية تلك المادة الغزيرة التى يختزنها فى ذاكرته وهى نابعة من تشيعه لفريق الهلال تشيعاً يعلنه دوماً ولايخفيه، وكثيراً ما يفاخر به وهو مستهام دفاق المشاعر مشبوب الوجدان. وقد بلغ من فطنته وعذوبة روحه ورقته انه -حتى عندما يكون فى اعالى درجات حماسته - لا يتعرض الى المعسكرات الكروية الاخرى بسوء ، وانما يعبر عن احاسيسه ومشاعره وحبه لفريق الهلال بصدق وعفوية وتلقائيه بسيطة لا تثير الخصوم ، وان تركت فى حلو قهم غصة ، ولا تدعو انصار فريق الهلال من زملائه الى عراك مفتعل مع غيرهم ، وان اعجبتهم وروت ظمأ نفوسهم إلى الاستزادة من سرد مآثر الهلال وترديدها على اذان السامعين أياً كان ولاؤهم ومتعلق هيامهم الكروى .

لقد ظل عوض الله زروق على عشقه الأصيل لفريق الهلال طوال الفترة القصيرة التى قضاها معنا بخور طقت . ولم تفارقه شعبيته هناك ابداً رغم علم الجميع انه من اولاد ام درمان ومن اشد احيائها موراً بالحياة واصطخاباً بالنشاط ، واكثرها قرباً من مواقع «الحضارة» والزحام . وآية ذلك أن صقور داخلية ودتكتوك جميعهم قد أحبوه واتخذوه خليلاً ، وفى طليعتهم الشريف الصادق محمد الصادق والشريف احمد حسب الرسول الكوقلى (زعيم الاشراف بلا منازع) وعبد الوهاب ريس وجعفر عطا المنان الاشعث وامين ميرغنى . وحتى الزعيم الطيب احمد حميدة - وهو باك القيامة وقائد فريق الخوارج وصقر داخلية ود زايد المبايع - كان يجد في قلبه متسعاً لعوض الله زروق ، رغم ازدحام ذلك القلب الرحب الارجاء بقضايا فريق الخوارج والوان الوجبات فى الصفرة وهى غرفة الطعام ، والمكانة «الوهيطة» العالية التى يحتلها منه «هجو» رئيس الطها ة ، وخاصة ابان مناسبات السبشل ميل {Special Meal}.

ولقد كان من آثار محبة اولئك الصقور لعوض الله زروق ان القوا عليه بردة الشرف وضموه الى قائمة الاشراف فى وضح النهار ، بتزكية خاصة من الشريف الكوقلى والشريف الصادق ، فى الوقت الذى لم تشمل فيه هذه القائمة كاتب هذه السطور فى

نظرهم ، رغم انه كان يقطن معهم في عنبر واحد في داخلية ود تكتوك . ولقد بقى كاتب هذه السطور في قائمة الانتظار امـاداً طويلة حتى تحرى كل من الشريف الكوقلى والشريف الصادق الرؤية في شجرة الانساب ، وحصل على تزكية كريمة من امين ميرغنى ، فالحقوا اسمه بذيول القائمة الاصلية المجازة فى عهود تلت تلك الايام الغر الضواحك بأزمان .

وانا لست ادرى ان كان عوض الله زروق شريفاً سليل اشراف بحق ، ام ان ادخاله في تلك الزمرة المعدودة المنتقاة قد كان من تجاوزات الهوى ومفارقات الاستلطاف . ولكن منذا الذى يمكنه ان يعترض على قرار شريفين سلّم لهما الناس بحق الفتوى في مثل هذه الامور دون الرجوع الى وثائق ثبوتية او شجرة نسب لا يأتيها الباطل من بين افرعها وسوقها واوراقها ؟ ولو ان هذه القائمة احتوت على اسماء ابو الحسوس وميكادو كوكو وعلى ابراهيم وغيرهم من الذين لايحفلون بمثل هذه الدعاوى ، لما اثار ذلك ادنى احتجاج لان الشريفين المذكورين هما صاحبا الامر وهما اللذان يصدران هذه الصكوك الشرفية بعد المشاورات التى يجريانها عادة مع اعضاء مجلسهما الاخرين ، فاذا اصدر القرار فهو ملزم واجب الاتباع . وكيف لى انا مثلاً ان اعترض على غياب اسمى من القائمة وامامى يوسف محمد الصادق شقيق الشريف الصادقّ ، الذى لم يلج اسمه الى القائمة الشريفة الا باخرة ، وبعد لأى وتكرار التماس «ومناكفة» «وخراج روح» ؟ نعم لقد فارقنا الشريف الصادق بعد قليل وكذلك الشريف الكوقلى ولكن التعاليم بقيت ثابتة ، ومن لم يجزه هذان الشريفان فلا سبيل له الى القائمة ، ومن لم يحصل على موافقتهما وترشيحهما له لهذا المقام العالى فهو ليس بشريف فى نظر ذلك المجتمع المدرسى وان اتى بوثائق تؤكد نسبته الى الحسن العسكرى او السبطين القمرين النيرين . ولقد عجبنا كيف خلت قائمة الشرف لفترة طويلة من اسم يوسف محمد الصادق ، وكيف ابطأت عليه بردة الشرف وهو الشقيق الأصغر لثانى اثنين ليس

فوقهما من سلطة تدير هذه الشؤون . وبدا يوسف الصادق لامد طويل وهو ينتظر الفرج فى احتجاج صامت وكل ضحكاته وتقاطيع وجهه ناطقة ابلغ النطق بجملة المعانى التى اشتملت عليها دخيلة نفس ابى الطيب وهى تنشد :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى	وبنفسى فخرت لا بجدودى
وبهم فخر كل من نطق الضاد	وعوذ الجانى وغوث الطريد
ان اكن معجباً فعجب عجيب	لم يجد فوق نفسه من مزيد
انا ترب الندى ورب القوافى	وسمام العدا وغيظ الحسود
انا فى امة تداركها الله	غريب كصالح فى ثمود

ولم يكن يوسف محمد الصادق بمبدع للقوافى ، ولم يكن نبياً او مدعى نبوة ، وما كان رهطه من ثمود ، ولكنه الاحساس بالظلم ، يجئ رد الفعل عليه اكثر من مضاعف ، وهو الحرمان من الحقوق المشروعة اذا ابتلى به الانسان توهمت نفسه له حقوقاً لم يكن ليتطلع اليها لولا غبن النكران والاستلاب !

ومهما يكن من امر فقد استحق عوض الله زروق هذا الدخول المبكر فى قائمة الاشراف لانه كان يتمتع بخلال كريمة من بينها ذلك التواضع الحكيم الذى اهله لان يكون «حواراً» مخلصاً ووفياً لمجموعة الاشراف . وقد يكون شريفاً بالسلالة ، وقد لا يكون ، فهذه امور يعرفها العارفون . ومن لم يعجبه ذلك فلا أقل من ان يتمثل قول القائل :

ملك الملوك اذا وهب لا تسألن عن السبب

فاذا اراد الله لك الخير حببك الى انفس هؤلاء الاشراف ، فصرت شريفاً بين الناس . ولايظنن احد ان الشريف الكوقلى والشريف الصادق مغرضان او انهما يقللان من شأن احد بتغييب اسمه عن هذه القائمة التى لا اعلم ان احداً قد اطلع عليها بالفعل فهما من اطيب من التقيت من الخلائق وقد اضفيا علي حياتنا بهذه الامور والمفارقات

بهجة وانماطاً من الطرائف والسرور ولم تكن احاديثهما حول هذه الشؤون فى حقيقتها الا رسائل مرح محض ترقرق الندى على اوراق تلك الحياة الزاهية التى مضت ولن تعود :

رسائل من عفو الكــــلام كأنها   حواشى عيون فى الطروس عذاب

هى المحض لايشقى به ابن تميمة   غذاءً ، ولايشقى به ابن خضــاب

محمود قرشلى وبخيت مكى وثلة من الآخرين :

لعلّ من الممكن القول بأن محمود محمد حسن قرشلى كان من صقور فصل «الاوائل» ، على الرغم من انه كان يبدو حمائمى النزعة والمظهر على ايام ام درمان الاميرية . والذى يرجح الزعم القائل بأنه كان من الصقور هو ما صار اليه امره في خور طقت ، ولم يكن الفارق الزمنى كبيراً . فقد برز في خور طقت بروزاً لاريب فيه واكتسب اجنحة ضخاماً ومخالب حداداً ومنقاراً لا يشبه الحمائم فى شئ . وانت حتى لوكنت من المؤمنين بنظرية النشوء والتطور الداروينية قد يصعب عليك ان تستسيغ امكانية تحول الحمامة الوديعة في بضع سنين الى فصيلة البوازى دون مرور بمراحل متوسطة . ولذلك صار الترجيح الذى ذهبنا اليه . ومحمود ايضاً من اولاد حى البوسيتة فى ام درمان ، ولكنه لم يكن صاحب دعوى عريضة كما كان غيره من أولاد ذلك الحى . فاحتار فى امره الكثيرون ، منهم من نسبه الى الصقور ومنهم من نسبه الى الحمائم . وحقيقة الامر انه كان يجمع ويظهر من صفات القبيلين ما يدعك فى حيرة تصبح معها نسبتك له لاى من الفصيلين او النوعين . وهذا من دهاء محمود واكتمال مقدراته الماكرة منذ اويقات مبكرة .

وبالرغم من «حمرته» الظاهرة - والحمرة هنا اشارة الي ميل لون البشرة للبياض- فانه لم يكن «حلبياً» فى نظر محمد العوض ولا غيره من علماء التصنيف البشرى الذين برعوا فى هذا الفن واجادوا ظواهره وخفاياه اجادة الخبير العليم بترتيب الناس

وتقسيمهم وتمييزهم حسب السحنات . وهذا سر قد حيرني كثيراً لان قرشلي – معنى ومظهراً – كان من السهل الميسور تصنيفه – ان انت اتبعت القاعدة المعروفة المألوفة السائدة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . وقد روى بعض الخبثاء – ولست اذكر من الذى تولى كبر هذه الرواية منهم على وجه التحديد – ان جماعة قرشلي كانت لهم راية فى المهدية بقيادة امير من بينهم ، وان بعض الانصار من قبائل العرب في غرب السودان كانوا يدعونهم «عيال غرنجال» . وغرنجال هذه بالطبع تصحيف لفظي لكلمة قرشلي التى اجهل اصلها تماماً ولا يعلمه فى رايي الا بارئ النسم . ولعل هذا التصحيف مقصود في نفسه ، وهو ينم عن شئ غير قليل من الاستهانة ان صح فهمى لبعض تعابير اهلنا فى الغرب الحبيب . وربما لم يكن مقصوداً ، وانما هو مبلغ العلم بصحة الاسم او مايقاربها . فنحن في السودان عموماً تقريبيون فى تعابيرنا وتصوراتنا ، ولا نميل كثيراً إلى الدقة ولا نتحراها كل التحرى لأن التدقيق فى الامور ليس فرض عين عندنا وإنما هو – على أحسن الاحتمالات – فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين . وهو فى كثير من الاحيان ليس فرضاً علي الاطلاق ، بل هو فى بعض الاحيان منكر ومكروه . وليس ادل علي ذلك من ما تسمعه احياناً في معرض التعليق الاستنكارى : يعنى خلاص الود خواجة ما بلعب في المواعيد . . . او ياخى تعال بعد شوية ، مع ان القائل بذلك يدرى تماماً ان معنى «شوية» هذه ومداها لا يعلمه الا علام الغيوب . . او تعال بعد يومين تلاته . . او ما شابه ذلك . وهو مجافاة ظاهرة للتدقيق ، واحتماء بين فى متاهات سراديب التقريب والتباعد عن الالتزام الدقيق الذى ربما استعصى الوفاء به . ولقد فسر بعض المتفائلين هذه الظاهرة بأنها دليل على حب اهلنا الطيبين للحرية واجتلاء الرحاب الواسعة للحركة والاضطراب في الحياة . والله اعلم بالصواب . غير انى – بعد هذا الاستطراد المخل الذى هو ايضاً من بعض طباعنا – اميل الى القول بأن عبارة «عيال غرنجال» انما صممت عن قصد لتوحى الى

السامع بأن هذه المجموعة – وان كانت تقف مع المصممين فى خندق واحد – تختلف عنهم بعض اختلاف لايمكن تجاهله ، خاصة اذا اخذنا في الاعتبار غرابة الاسم الصحيح الاصلى وما تلقيه هذه الغرابة فى خلد السامع من ان هؤلاء الاقوام انما جاءوا من كوكب آخر غير هذا الكوكب الذى نعيش على ظهره . وهم بهذا الوصف يشكلون بالنسبة للبقارى الذى قدم الى البقعة من اطراف كردفان النائية او دارفور البعيدة فئة من الناس ينبغى التعامل معها بشئ من الحذر . ولذلك قال بعض الخبثاء ان البقارى تمنى جهرة على مسامع الناس وامام اعينهم ان لوكان فى مقدوره ان يستأذن قائده في السماح لهم بتشحيذ الاسنة والصوارم فى «عيال غرنجال» ريثما يلتحمون بجيوش العدو القادم اليهم من الشمال ، وذلك حتى تكون تلك الحراب والسيوف اشد مضاءً واقدر على الحاق الهزيمة بالخواجات الحقيقيين ! واضاف هؤلاء القوم الخبثاء أن أحد المجاهدين من البقارة عثر على واحد من «عيال غرنجال» وهو يختبئ خلف شجيرة صغيرة فقال له ما معناه : او تنكل عن القتال ؟ وفوجئ المجاهد «الفرنجالى» وكاد ان يسقط في يده ، ولكنه الهم ان يقول للرجل : الم تسمع قول الله تعالى : (واقعدوا لهم كل مرصد) ؟ وهو محق في اختبائه ومصيب في استشهاده لانه كان متربصاً يحمل «شلكايته» ويتحين الوقت المناسب للانقضاض على الاعداء . غيّر ان المجاهد البقارى كان حاضر البديهة حاد الذكاء ، فأجابه على الفور بهذا السؤال المفحم : من كلام الله الحلو دا كله مالقيت إلا آية اللّبّيد ؟ أى : ألم تجد فى كل هذا القرآن الحلو الا هذه الاية التى فهمت منها انها تسمح بالنكول وتحض علي الاختباء عن اعين العدو ؟ ثم امره بأن يبرز للقتال بعد أن أفحمه بهذه البساطة التى لم يحر لها «ول غر نجال » جواباً ولم يجد لسرعتها المباغتة – وربما سلامة منطقها – دفعاً .

ومهما يكن من امر فان مثل هذه «القفشات» انما تروى في سياق الملح والطرائف التى تصاغ بلهجة اهلنا البقارة فتسرى عن النفس وتثير في الخيال بعض الغرائب

المحببة . واغلب ظني ان هذه الواقعة منحولة وانها من صنع الخيال المحض . ولست ارتاب في ان جماعة قرشلي – او عيال غرنجال كما يحلو لهذه الرواية ان تسميهم – كانوا في طليعة المجاهدين الذائدين عن حرية الوطن ونقاء العقيدة ، وقد سقط منهم خلق كثير يعدون بالألوف في حومة الوغى وهم يحملون راية الفداء عالية خفاقة ويهلكون دونها في ثبات ويقين . وليس يخالجني ادنى ريب في ان اخوانهم من القبائل الاخرى كانوا يبادولونهم الاكبار والتبجيل وينظرون اليهم كاخوان صفاء ورفاق مبدأ واحد لا يميزهم عنهم إلا لون البشرة الذي هو من صنع القادر الذي احسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين .

وعلى كل فان محمود قرشلي تلميذ يستحق ان نقف امامه هنيهة . معرفتي به لم تكن وثيقة علي ايام ام درمان الاميرية لانه كان في الفصل الاخر ، وهو فصل الاوائل . وكنت القاه كما القى الاخرين . وقد لفت نظري انه تلميذ كثير الابتسام ، اذا ضحك اهتز كله واطال الضحك في هدوء وادار راسه يمنة ويسرة كأنه يستعين بذلك على اعلان سروره بين الناس وحثهم على مشاركته المرح والحبور . وهو قليل الكلام ميال الى الهدوء بعيد عن المعارك والشجارات التى كانت تدور بين التلاميذ ولاتسفر عن عداوات تبقى او تدوم . ورغم انى سمعت انه ماكر بطبعه وانه في حقيقة الامر يكوّن من وراء اغلب الشجارات التي تحتدم بين الفرقاء ثم لايجد اليه القائمون على الامر سبيلا ، الا انى استبعدت ان يكون ذلك كذلك ، وحسبت انه من كيد الكائدين له والظانين به ظن السوء ، لانى لم ألقه الا مسالماً ضاحكاً نزر الكلام ، حسن المظهر طيب النفس والسمت والوجه ، منتظماً مرتب الحال ، لايجنح كثيراً الى الفوضى والشغب اللذين كانا من السمات الملازمة لكثير من التلاميذ ، خاصة فى اوقات الفراغ وخارج حجرات الدراسة،ولم التق به امام سينما برمبل حيث لاتخطئ عيناك ثلة من بعض «الشفوت» وهم يتطلعون الي الحصول علي تذاكر الشعب وقد حملها فتية

يتصحايحون مرددين . تلاتة ونص تخش كتلوج . . وذلك يعني ان ثمن التذكرة ثلاثة قروش ونصف قرش ، وانك اذا ما ابتعت هذه التذكرة وصرفت في سبيل اقتنائها هذه الاموال فانك سوف تجد مقعداً طيباً مريحاً في داخل بهو السينما . وكلمة كتلوج هي تصحيف لكلمة لوج وهو المركز الممتاز من مقاعد المتفرجين . ولكن هؤلاء الشفوت - ومن بينهم بعض اولاد فصلنا وبعض اولاد حي ودنوباوي - ينتظرون الى ان تقترب بداية عرض الفيلم وهم قد ضحوا بالمناظر ، لان سعر التذكرة يأخذ في الانخفاض بعد ذلك ، ويمكنك اذا تذرعت بالصبر واحسنت التحلي بمظهر العزوف وعدم الاهتمام ان تحصل في نهاية الامر على تذكرة بقرشين او قرشين ونصف فتوفر قرشاً كاملاً يكفيك نصفه لشراء رغيفة مدورة ساخنة من طابونة وداورو «تقرضها» هانئاً وانت راكب على قدميك في طريق العودة . ولن يفوتك ان تدرك جل محتويات الفيلم المعروض فتنعم بمشاهدة الخوارق والمعجزات على الشاشة . وربما وجدت من يتطوع ويروى لك كل ما فاتك من المناظر او بداية الفيلم . لم أكن أجد قرشلي هناك ، وماكنت اعتقد أنه من الموسرين الذين يدخلون دار السينما مبكراً وفي هدوء ، بعيداً عن «المجابدات» والمفاصلات والمساومات في أسعار تذاكر الشعب . فاستقر في خلدي أنه لم يكن يحفل بهذه الأمور ولم يكن من فرسان هذه المغازي . ومادامت مشاهداته لافلام الكاوبويات نزرة متباعدة في بعض الاقوال فلا جرم سلوكه في المدرسة هادئ مهذب . ورغم انه كان يرتاد حلقات الاقاصيص التي يعقدها التلاميذ في فناء المدرسة ، ويستمع باعجاب الى مختلف انواع الكيسيات واللبخيات ، ويحاول احياناً تجريب قبضته في الهواء بعيداً عن اعين الناس ، فانه لم يكن ميالاً الى استصحاب هذه المفاهيم في حياته ، وكان له من نفسه وازع يحميه من الخوض في اوحال المنازعات التي تستدعي اللجوء الى تعطيل العقل والمنطق واطلاق الالسنة واستخدام القوة البدنية الكامنة في الايدي والارجل والرؤوس !

ولكنى عرفت محمود قرشلى فيما بعد . وذلك عندما انتقلنا سوياً الى مدرسة خور طقت الثانوية . فهناك عرفت محموداً آخر تماماً ، وان ظل محتفظاً بكثير من مزاياه الآسرة التى كان عليها ايام ام درمان الاميرية الوسطى . وانى لاذكر اننى كنت في ذات اصيل مع الصديق العزيز يوسف حسين (ود البطرى) نتجول خارج اسوار المدرسة هانئين نملأ صدرينا من ذلك الهواء «الدعاشى» العبق النقى جنوبى العمارة ، تتهتك هوناً تحت اقدامنا الصغيرة بسط الرمال الهشة الندية وتنغرس فى بطونها على اثر الوطء قضيبات العشب الخضر المخضلة ، فتتندّى وتروى وتغفو هنيهة ريثما تشرئب من جديد . وقد كان الصديق يوسف حسين زميلى في داخلية ودتكتوك ونشأت بينى وبينه صداقة حميمة منذ ايامنا الاولى . وبينما نحن فى ذلك التجوال الطليق نستكشف مكنونات الطبيعة الساحرة ونجتلى اسرار تلك الاكوان الغامضة اذ لحق بنا ثلاثة فرسان هم محمود قرشلى وعوض بكار وبخيت مكى . ولقد كان ثلاثتهم من فصل الاوائل فى ام درمان الاميرية .ولذلك كنت أعرفهم تماماً ، وانما كان يوسف حسين غريباً عليهم إذْ لم تكن لهم به معرفة سابقة . اما عوض بكار ومحمود قرشلى فهما كما قد علمت . واما بخيت مكى فقد كان من حمائم فصل الاوائل وكان تلميذاً هادئاً مشهوداً له بالمثابرة والاهتمام بالدروس . وهو من اولاد حى العمدة حسب ما علمتَ ، ولم يكن فى حى العمدة لبخ او كبس او شمشون او بلة الاحمرانى او ابو الدفاع . ولذلك كان بخيت مكى براءً من المزاعم البطولية وتقمص روح القندفة والشفتنة . ومهما كانت درجة دعاويه الطرماجية فانها لم تكن تخلو من بعض اضافات يجود بها الخيال وتسعفه بها الرغبة فى مسايرة سنن العصر ومجابهة ضغوط التحديات ، ولكنها لم تخرج عن التفاخر بمواهب الزوغان من الكمسارى والهبوط الى الارض اذا اوشك المفتش ان يمسك منك بالتلابيب . وهو لم ينسب الى نفسه ملكة القدرة علي النزول «عكس» وفى أى كشة من الكشات ، ولو فعل ذلك لما وجد من يصدقه . وذلك لان بخيت مكى كان

تلميذاً مسكيناً فى نظر الصقور ، والمسكين فى نظرهم لا قبل له بصنع المعجزات او التعرض لمثل هذه المخاطر . وفوق ذلك فان بخيت مكى يسكن حياً لايشقه الطرماج ولا يمر قريباً منه ، الامر الذى يؤكد ضمور تجربته في هذه الفنون ويبرهن على ضآلتها اذا ما قورنت بتجارب اولاد الموردة وأبى روف وبيت المال وغيرهم ممن ينامون ويستيقظون علي أزيز مركبات الترام وصرير «بكارته» وهى تحتك بأسلاك الكهرباء . ومن دلائلهم على مسكنة بخيت انه كان ينطق حرف الكاف من اسم ابيه بطريقة غريبة عندما يسأله الأساتيذ عن اسمه فيخرج هذا الحرف من فمه وهو اقرب الى خليط بين حرفي الجيم والشين ، منه الى حرف الكاف المعروف ! واذا لم يكن هذا دليلاً على مسكنته فليس يصح في الافهام شئ عند الصقور . فها هو ذا مكى برعى اذا سئل عن اسمه اتى بحرف الكاف واضحاً مشدداً حتى لتكاد لهاته تخرج من فمه حين ينطق به ، فلا رنة ولا رائحة لجيم او شين او اى اثر من حرف اخر . وليس هنالك من ريب في ان بينه وبين المسكنة ما بين السماء والارض . غير ان بخيت مكى كان تلميذاً مهذباً وذكياً ومسالماً . ولذلك احبه الصقور ايضاً ولقد اوضحت لك من قبل ان المسكنة في نظرهم «خشم بيوت» . ومن حسن طالع بخيت ان مسكنته كانت من النوع الذى رضى عنه الصقور ، وزاد من رضائهم عليه انه لم يكن صاحب مزاعم وبطولات ، وان بعض تجاوزاته فى الاقاصيص التي تروى في حلقات «الونسة» لم تكن من النوع الذى يصم الآذان «ويستغرب المخ» كما يقول بعض أهلنا الحلفاويين ، ولم تكن من الطراز الذى يدل اصحابه بان في مقدورهم مجالسة الجن ومصادقة البعاعيت والاتيان ببيض العنقاء ولبن الطير وشعيرات من شارب الاسد . ولكنها كانت تجاوزات متواضعة يستسيغها الخيال ولاينكرها الذوق ، فهى لاتتطاول علي مزاعم الاخرين وقد لا تبلغها ، وتتراوح بين ماهو عادى وبين ما هو اكبر من ذلك ، مما يمكن ان يصدقه الخيال وتكذبه مقدراته الحقيقية.فانت اذا لم ترو شيئاً من أعاجيب الحى الذى تسكنه او تقص على

مسامع الآخرين طرفاً من بطولات شهدتها بنفسك و شاركت فيهاأو سمعتها من مصدر يثق سامعوك فى عدالته أو شهرته فأنك موسوم بذلك النوع من المسكنة الذى يعتبر نقصا معيباً ويراه الصقور على وجه الخصوص مدعاة لهوانك فى نظرهم وباعثاً على السخرية منك والتندر عليك والابطاء عن عونك اذا ألم بك مكروه . ولذلك صارت كل احياء ام درمان تقريباً معاقل أعاجيب وساحات بطولات ومنابت خوارق ، وصارت بعض القرى النائية مسرحا لفحولات «الربابيط» وبعض من لوافت قيمهم الرفيعة ، ومغارات تربض فى أجوافها شراذم البعاعيت والعفاريت وأنماط الجن والشياطين ، يتداول التلاميذ أنباءها وهم بين مصدق يتوق الى رؤية ما يروى عليه بعينى رأسه ، ومكذب لا يحمله على التكذيب إلا جزعه من أن يجابه فريداً فى يوم من الأيام ما قص عليه فنفر منه وارتعدت منه فرائصه .

وعندما الم بنا هذا الثالوث ونحن نتجول فى تلك الربوع الكردفانية الزاهية لم أفاجأ بهم وانما كان ذلك مفاجأة ليوسف حسين ولعل حاسته السادسة أوحت اليه بأن هؤلاء الفتية قد ارادوا بنا شراً . ورغم معرفتى بهم ومعرفتهم بى فهم لم يبدأونا بالسلام عندما صاروا على مقربة منا . ولقد هممت بأن أرحب بهم رغم ذلك ، ولكنى لم آنس فى وجوههم ذلك البشر الذى كنت اعرفه وحق لى أن اتوقعه ، وانما الفيتها خالية من معانى الالف والمودة ، أو هكذا خيل الى ، وقرأت على قسماتها بعض أحرف الجفاء ، واستجليت من وراء غيوبها مكرا مضمراً يوشك ان يسفر عن حقيقته بجلاء .. ولذلك أمسكت عن البوح بالترحاب وعزيت نفسى بأن ذلك خير تحية لمن لم يبدأك بالتحية . ولسبب ما ـ لست أدريه ـ جرت محاولة للتحرش بنا ، وقد كنت أحمل فى يمناى عصا قصيرة ، فأمكنت يدى منها وهيأت نفسى للعراك . وقد أدهشنى أن البادىء بالحديث كان بخيت مكى ، الذى قال لنا ـ دون ان يستهل حديثه بتحية أو سلام : لماذا أنتما هنا ؟ فقلت له : نتجول فى هذه الرمال الهينة الندية وبين هذه الأعشاب المخضرة

الخضلة ، ونستنشق هذا الهواء الطلق العليل.ثم ، لماذا هذا السؤال ، ومن أنتم حتى نجيبكم ؟ ودهشت للروح العدائية التى ظهرت منهم فى أول الأمر رغم انى اعرف ثلاثتهم من أم درمان الاميرية وبينى وبين ثلاثتهم مودات متفاوتة الدرجات . وأيقنت أن المقصود بالتحرش هو صديقى يوسف حسين دون أن أعرف لذلك سببا وجيهاً و مبرراً مقنعاً . وقد بدت على وجهه آثار الفرق ، ولكنى صممت على أن أحميه بكل ما أوتيت من قوة . ولقد كاد أن ينشب بيننا شجار بالفعل لولا أن عوض بكار قال فيما يشبه الاعتذار وهو يعلم مكانته من نفسى : « ياخى نحن خايفين عليكم » ، ولولا أن محمود قرشلى استطاع بحكمته - وربما بدهائه أيضاً - أن ينقذ الموقف عندما انفجر ضاحكاً وأكد أنهم يمزحون ولا يضمرون شراً أو سوءاً ولا يتطلعون الى عراك . واذا ضحك محمود قرشلى فإنهيضحك بكل كيانه ، ويغرق فى الضحك ويطيل فاذا بالذين من حوله جميعاً يضحكون . ولذلك ضحك الجميع ، وتفرقعت ضحكات عوض بكار الودودة تعلن فى فصاحة وبلاغة لا تحتاج الى حروف وكلمات لتنبىء عن مسالمة حقيقية ووداد أصيل. وحتي بخيت مكي الذي بدأنا بذلك السؤال الذي انكرناه عليه ، لميتمالك نفسه ، فغلبت عليه ضحكاته المتقطعة التى ربما كان يعوق استرسالها انه يعانى من التهاب الجيوب الأنفية المزمن . ولكن اساريِر وجهه كانت تكمل ما ينقطع من ضحكه وتؤكد بقاء أواصر ذلك الود القديم . وسرعان ما غاب عنا كدر قصير العمر واحتوانا ذلك الصفو الرخاء.

ثم سرنا معاً عائدين ادراجنا حتى بلغنا رحاب «العمارة» فى أول المساء . وفى أثناء مسيرتنا الهادئة ونحن نتجاذب أطراف الحديث فى شتى الشؤون ، همس محمود قرشلى فى أذنى متسائلا : «ياخى دا مش يوسف حسين الفنان بتاع ود تكتوك» ؟ فقلت : بلى . وأردفت بأنه فنان المدرسة كلها وليس داخلية ود تكتوك وحدها ! فقال لى محمود قرشلى :« طيب ياخى ما تخلى يغنى لينا».فقلت له ضاحكا:« قبل شوية كنتو عاوزين تدوقو

وحسبه عاوزينو يغنى ليكم ؟ فاقسم قرشلى انهم انما كانوا يمزحون وانهم لايمكن ان يعتدوا علي صديق لصديق واخ لهم قديم . وحملتنى مشاعر ام درمان الأميرية على تصديقه وان بقى فى نفسى شئ من روح الجفاء والتحرش التى بادرنا بها بخيت مكى الي ان جلى ذلك الاحساس ومحاه عن خاطرى وداد بخيت الذى ابان عن اصالة جوهره ونقاء معدنه . ومنذ تلك الاحايين دام الصفاء والوفاء بين الفرسان الثلاثة ويوسف حسين ولقد اسعدنى ذلك وسرنى لان يوسف حسين كان اهلاً للمودة والوفاء.

لقد كان يوسف حسين فناناً بحق . لم اقرأ له شعراً من تاليفه ولكنى لم اكن ارتاب في ان الشعر طوع بنانه ان هو اراد . فقد كان فتى رقيق المشاعر روى الوجدان . أوتى صوتاً كنارىّ الرنين موقع النبرات متّسق النغم فى علوه وانخفاضه . يحفظ جميع ما تناهى الينا من أغانى ذلك الزمان ويؤديها بكفاءة محيطة وعاطفة مشبوبة جياشة وحنو رقيق آسر ، وصوت وهبى ساحر يبلغ القلوب قبل الأسماع . وهو بسام مرح صادق الود نبيل السجايا ، فيه ميل ظاهر إلى الضحك والعبث البرىء وحرص غامض على التوفيق بين حمل النفس على مكابدة الدروس واطلاق العنان لها لتهوم فى آفاق الطرب والمراح . وربما احتدم الصراع فى دخيلته بين هذين الخيارين ، وربما عز عليه أن ينتصر لأحدهما عنوة دون الآخر ، ولكنى رأيته يؤثر الانفلات من ربقة القيوّد وينزع إلى أرسال روحه الشاعرة الشفافة على سجيتها ويترك الخيار للمشاعر الصادقة وهى مشغوفة مدنفة بالالحان والأهازيج . ولقد كشف لى أداء يوسف حسين الرائع فى مجال الغناء عن رقة مشاعر الكثيرين ممن كان يحسبهم البعض – ظناً مجحفاً ورجماً بالغيب – صخوراً لاتحركها الاغاريد . ولقد رأيت بعينى رأسى حسين عبد الله وهو أبو الحسوس المعروف يكاد يستحيل إلى شظايا عندما تستعر جوانحه بدفء ذلك الصوت الحنون . ورأيت أن محمود قرشلى الذى امتاز وعرف برزانة وقورة واعتدال قسط مشوب بالحياء لم يكن يسعه أن يتمالك مشاعره ويبقى على وقاره اذا

صدح يوسف حسين مغرداً يغنى بصوته البلورى الصافى احدى روائع الفنان عثمان حسين وفى طليعتها أغنية «كيف لا أعشق جمالك» التى كان يوسف كلفاً بها أيما كلف معجباً بها أيما اعجاب . فكان قرشلى إذا سمعها منه اهتز طرباً وغنت جميع ملامحه الصامتة بصوت يتغشى روحك وأحاسيسك من قبل المسامع ، وكاد - من فرط خفة روحه التى كان يستشعرها - آن يسبح فى الهواء أو يحلق فى الآفاق ، وأوشك فى بعض الأحايين التى يتموج فيها صوت يوسف مع المقاطع والمعانى اتساعاً وارتقاء أن يصعق أو يغشى عليه أو تفارق روحه الجسد .

وفى حقيقة الامر يمكننى القول بأنى قد تعرفت على يوسف حسين منذ أول يوم لى فى خور طقت ، ونما بيننا الوداد وازدهر ، وضربت جذوره وأعراقه فى اعماق الوجدان وهو لايزال الى هذا اليوم من أعز أصدقائى . وأنى لاتعجب - للمرة الثانية فى هذه الصفحات - كيف صار يوسف حسين الى العسكرية .ولايظنن أحد أنى بهذا القول إنما أرمى الإخوة العسكريين بجدب المشاعر أو تباب الاحاسيس ، فأنا أعلم أن فيهم الشاعر والفنان والمطرب والمبدع والرسام ، وأن بينهم من لو قسمت رقة عواطفهم على أهل البلاد لغدا كل فرد من افرادها رقيقاً شفيف النفس والفؤاد والجوانح . ولكن يوسف حسين كان فناناً فطر على اللحن والفن والغناء . ولو أنه وجد من يعنى بأمرّه ويهتم بهذه الشؤون ، ولو أنه سار على هذه الدروب غير عابىء بما يرمى به بعض سالكيها ظلماً وبهتاناً لبلغ القمة مع من بلغوها ولاثرى هذا المجال الذى ينبىء بصدق وامانة عن رقى المشاعر وغزارة الثقافة وصفاء النفس ، ويفتح آفاقاً رحاباً لاكتساب الاصدقاء من شتى الامم والنحل والاعراق لأن الفن يبوح بأسرار لغة يفهمها ويلتذ لنغمها ويدرك رونقها وشمول رسالتها جميع الناس . غير أن يوسف حسين اثر أن يمضى فى طريق آخر مغاير لفطرته التى جبل عليها ، ولقد أصاب نجاحاً فى مسيرته وذلك الفضل من الله . لم أكن أعرفه قبل ان نلتقى فى خور طقت ، ولكننا صرنا - منذ

أن التقينا هناك - صديقين حميمين لانكاد نفترق . وقد زرته في داره في ود مدني أكثر من مرة بعد ذلك ، وافلحت في توثيق حبال المودة والإخاء بينه وبين كوكبة مضيئة من رفقاء الحداثة في أم درمان الاميرية ، وفي مقدمتهم محمود قرشلي وعوض بكار وبخيت مكي والكبتل ومحمد العوض ومصباح الصادق والهادي محمد عباس وعثمان محمد الحسن العربي أو الرجل كما كنا نسميه في غابر الازمان . غير أن عثمان محمد الحسن كان في بعض الاحيان يظهر نوعاً من الضيق والبرم بمجالسنا ، فيتصدى محمود قرشلي لتطييب خاطره بضحكه المتواصل الذي يهتز له جميع كيانه فيسري بين الناس سريان العطر العبق النموم . ولعل محمود قرشلي لم يدرك من اول وهلة اسباب الضيق والضجر والحنق الذي كان ينتاب عثمان ويؤرقه ويمضه . ولو عاد بذاكرته الي ايام ام درمان الاميرية حين كان عثمان منبع الطرب الذي نتحلق من حوله وتشرب عواطفنا من مناهله لتذكر انه كان امير الدوبيت من بيننا دون منازع او شبيه ولأيقن ان مجتمعنا الجديد في خور طقت قد جرد عثمان من الريادة في تلك المجالي ودفع في وجهه بمنافس مقتدر جليد ، فلم يترك له الغناء الذي برع فيه يوسف حسين مجالاً ليظهر فيه مواهبه . ولذلك لم تفلح محاولات محمود قرشلي في تنقية خواطر عثمان مما كان يلم بها ويستحوذ عليها من سحائب الكدر والانقباض وعكر المزاج . وفوق ذلك فأن سطوع نجم يوسف حسين كان بمثابة المفاجأة لعثمان لدرجة انه كان يبدو جريح الكبرياء . وذلك ان عثمان كان شديد الاعتداد بنفسه كما قد علمت . وقد تفاقمت على اذاننا بدائع قصصه عن غرائب شندي وما جاورها من قرى ، وبطولاته الشخصية التي كانت تشكل بعض اللحم والسدى لذلك النسيج القصصي البديع . فاذا وجد سانحة أمطرنا بوابل من جوامع تلك الأقاصيص لا يغادر اسماً من اسماء ابطالها الا اكد لنا صلته الوثيقة به وإلا بلغ به جده الرابع او الخامس حتى لا يترك مجالاً لريب في معرفته به معرفة كاملة تامة . ثم لايفوت عليه ابداً - رغم طول هذه النسب وكثرة حديثه

حول القرابات المتشابكة بين اهلها - ان يضع نفسه في قلب الاحداث التي تشتمل عليها هذه الاقاصيص وتشكل مادتها الرئيسية . واذا اطمأن الى احداث الاثر المطلوب في نفوسنا من هذا السرد المطول ، وبان له جلياً انه قد نال اعجاب مستمعيه وشوقهم الي المزيد والهب منهم مواقد الخيال . . . وقف وقفته المشهودة رافعاً راسه فى ما يشبه التحدى والدعوة الي النزال ، وفى عجب ينبئ عن الاستهانة بالغير ، وكبر لايخلو من مسحة قروية هى خليط عجيب من الجفاء والبراءة ، مقوساً يديه على خاصرتيه في مظهر تعارف الناس على تسميته «غز الكيعان» وسماه محمود قرشلى «الهنظبة» ، معتداً معجباً ناظراً نظر الصقر في اعطافه . فاذا فاض هذا الشعور بالعجب والخيلاء على اركانه وأدفأ روحه ومشاعره وشحذ منه الهمم العوالى ، صاح عثمان مترنماً بصوت ينم عن عمره الحقيقى على الرغم من رخامته وحسن رنين نبراته : واحد واربعين بتاللبيب عبد الله . . او واحد واربعين بت اللبيب عتمان . . الى اخر تلك الاهازيج الدوبيتية التى الفناها طويلاً فى ام درمان الاميرية الوسطى . ولما كان يوسف حسين فناناً مطبوعاً يتمتع بذاكرة نقية وقادة لكل نغم موقع وكل كلام مموسق مقفى فقد استظهر ذلك الدوبيت في زمن وجيز وصار ينشدنا من رائعاته الاعاجيب يكسوها نضارة وبهاء ورواءً من سحر صوته العذب الحنون . فأعجز بذلك عثمان ، ولّم يترك له مجالاً ليصعد بنا الاعالى كما كان يفعل فى سوالف الايام و وانما اربى عليه وشغل الناس عنه لانه جمع بين روعة اداء الاغانى وحسن الترنم بالدوبيت ، وامتاز على غريمه عثمان بصوت شجيّ نديً يتبجًس رقة وعذوبة ويسيل في خلايا روحك كما تتغشى جسدك نسيمات الدعاش . ولم يكن بمقدور عثمان الرجل (او العربى كما كان يسميه مصباح) ان يوقف و يعتقل هذا الانداح الاثيرى الذى ظفرت به رقة يوسف حسين الحانية بين فتية ذلك الزمان . ولم يعد بمقدور محمود قرشلى الذى حرص على مجاملة عثمان ورفع روحه المعنوية ان يستنقذه من تلك الهزيمة الفنية الماحقة التى منى

بها امام مواهب يوسف حسين . ولو ان عثمان ابدى صفحة سوء اولج فى العناد والمكابرة لتكاثرت عليه الايدى حماية لهذا البلبل الصيدح الغريد ، ولوهب لنصرته محمود قرشلى وغيره وكان بعضهم لبعض ظهيراً. فاثر عثمان بحكمته السلامة ، وبايع يوسف حسين اميراً للغناء والدوبيت علي السواء . وكان ذلك منه عين العقل . فالعاقل اللبيب الفطن هو من عرف حدوده فلزمها وزهد في ما ليس من ورائه طائل ، وعرف حقوق الاخرين فاداها اليهم ولم يبخسهم اشياءهم . والاحمق من اغتر بمقدراته وظن ان لن يقدر عليه احد . وما اصدق ما قال ابو العلاء المعرى :

واماِل النفوس معللات ∴ ولكن الحوداث يعترضنه

واذا كان الامر كذلك فالحكمة تقتضى الرضا بما ليس منه بد . وقد بان جلياً لعثمان انه لن يظفر بمغنم اذا انساقت نفسه وراء العناد وادرك ان الاعجاب الذى كان ينعم به وسط رفاقه في ام درمان الاميرية حينما يجأر بالدوبيت لم يعد يجدى بعد سطوع نجم يوسف حسين ، وان محمود قرشلى الذي كان مولعاً بسماعه قد تراخت حماسته لادائه بعد ان افتتن بمواهب يوسف حسين التى جمعت بين روعة الاداء فى الأغانى والقدرة علي التجديد فى متون الدوبيت ومعانيه . ولذلك شهد عثمان ليوسف بالامارة في الحقلين ، وان بقيت في نفسه آثار مرارة لا يخطئها من يقرأ بدقة مًا يرتسم على وجهه من تعابير في بعض الاحايين التى تجمع الناس حلقاً حول يوسف حسين وهو ينفث من صوته الشقشقى رسائل الشوق واللطافة . . تدور القمر ، وتغطى الحقول بالزهر . ولقد كان محمود قرشلى وعوض بكار سعيدين بهذا المسلك التواضعى المرن الذى انتهجه عثمان في وجه هذه المستجدات التي عرضت له من حيث لم يحتسب ، واعلنا انهما يكبران فيه هذا «التطامن» الواقعى التلقائى الذي صار اليه عثمان بعد ان غفل طويلاً عن الحقائق التى يمكن ان تحبل بها ارحام الغيوب ، وبعد ان كادت راسه ان ترتطم بالسماء من فرط اعتداده بنفسه وشدة ثقته فى مقدراته في هذه

العوالم الطربية العاطفية . وربما كان إكبارهما المعلن لهذا «التقاصر» الذى فزع اليه عثمان ورضى به ناتجاً عن حكمة قصد من ورائها ان يظل ذلك الجو الودى الوفاقى المعافى الذى يستذرى بظلاله الصبية سليماً صحواً لاتكدر صفوه غيوم . فجاءت اشادتهما بما اسمياه «تواضع» عثمان اشادة حافلة تنسب اليه شتى المآثر والمفاخر تطييباً لخاطره ، لانهما كانا يعلمان ان عثمان ربما استطاع – اذا استشعر اى نوع من «قلة القيمة» في نظر معجبيه في سوالف العهود – ان يجهز قوة ضاربة قد يكون قوامها الكبتل وابو الحسوس وربما متطوعين اخرين ممن كانوا يهتزون طرباً لأقاصيصه «الشندية» و«انجازاته» فى ام درمان الأميرية التى كان يرويها على مسامعهم فى غيابنا . لقد احسن عثمان صنعاً بجنوحه للسلم وتسليمه الامر لاهله ، واحسن كل من محمود قرشلى وعوض بكار صنعاً بامتداحهما له على هذه الروح المسالمة الطيبة . ولولا ذلك لما ساد السلام ورفرفت على اجواء تلك الحياة الجديدة بنوده

وفى حقيقة الامر كانت جل اوقاتنا في خور طقت ازمان صفاء ووداد ومرح – وما كان مايتخللها من سويعات نادرة يمكن وصفها بالكدر الا تغييراً طارئاً اورث احداثها مزيداً من الخصوبة والثراء ، وسرعان ما انقشعت سحائب الصيف مخلفة من ورائها سماءً صافية مثل مرآة صقيلة مجلوة . وقد كان فى طليعة تلك الاحداث المدوية مّا اسميناه بحرب البسوس التى كانت شجاراً عبثياً دام بين حسن «ابو العايلة» من جهة وبين مجموعة من الفتية من الجهة الاخرى هم سر الختم وداعة الله وحسن عبد الحفيظ وابراهيم حاج حسن . ورغم ان محمود قرشلى لم يظهر لنا منه دور بارز في ذلك الصراع ، الا اننا علمنا انه كان يجهد من وراء ستار ليقضى على الفتنة ويرتق ما انفتق بين الفتية من صلات ليبلغ بهم مشارف الصلح واحلال السلام والصفاء مكان القطيعة والخصام . ولقد ظلت هذه الحرب سجالاً تستعر من حين الى حين فى الفناء الواقع قرب غرفة الطعام . ولم يكن فيها في نهاية الامر منتصر ولامهزوم . فانتهت

بصفاء قرب ما بين الفرقاء واكسبهم فيما بينهم وداداً واخاءً ومحبة كانت من بعد ذلك مضرب الامثال . ومن عجب ان مثل هذه المصادمات التى تنشأ لشتى الاسباب كانت دوماً تنتهى بوداد شديد بين الخصوم المتنازعين ، وخاصة بعد ان ذاب تماماً ذلك الجليد الذى كان يفصل في اول الامر بين المجموعات المختلفة التى جاءت من مختلف المدارس الوسطى ومن شتى بقاع البلاد . حتى حسن الفكى الذى كان يحمل سوطه جهاراً نهاراً بين ربوع العمارة ويفزع اليه فى شجاراته مع اولاد البحر حيث كان يكفيه لسانه ، صار بعد قليل من اصدق اصدقاء اولاد البحر واخلصهم وفاءً لهم . بل ان على سالم على التوم الذى كان لايثق الا باولاد الكبابيش ، صار بعد فترة قصيرة من التأمل واجتلاء حقائق الامور والمعرفة بنفوس زملائه القادمين من اواسط البلاد وشمالها واحداً منهم لايميزه عنهم الا ذلك النفور من الحصص والدروس الذى لم نجد له مبرراً شافياً . وذلك رغم ذكائه الذى عرف به وعظم استعداده الذهنى الفطرى لتلقى عصيات المسائل وتفهمها على احسن الوجوه . وانى لاذكر كيف كان يرتدى «الردى الكاكى» ويسبل علي اعاليه القميص الابيض غير عابئ بما كنا نؤمر به من ادخال اسفل القميص وهو ما كان يطلق عليه عبارة «التشنط» وهى عبارة معروفة فى ذلك الزمان سيقت لتسجل وصفاً يزخر بالاحتجاج والسخرية اللاذعة . ومع هذا المظهر الذى لايعجب الاساتذة كان على سالم «يشنق» الطاقية – وهى ليست من الزى المدرسى في شئ وانما هى من اضافاته الفوضوية – وذلك في الفصل اثناء الدرس وامام عينى الاستاذ ، امعاناً منه في تحدى القوانين المدرسية ! وليته كان يكتفى بذلك ويترك الناس فى سلام ، ولكنه كان ايضاً يلبس السكين فى ذراعه اليسرى ويبدو امامنا في تلك الهيئة وكأنه ناشغ مع اهله الكبابيش في قطعان من الابل العوارى وذوات الهوادج يشيمون من وراء لمعان البروق مواقع انهمال السحاب الثقال ويحثون الخطى صوب تخوم ديار الميدوب البعيدة طلباً للكلأ والمرعى واسباب الحياة .

ولعلك تعجب كيف احتشدت هذه الاسماء كلها في هذا المجال الذى نتحدث فيه عن محمود قرشلى وتتساءل عن صلة كل ذلك به . فاعلم ان هذا ان دل على شئ فانما يدل على ما سبق ان بينته لك من اننى عرفت في خور طقت محموداً اخر غير الذي عرفته في ام درمان الاميرية . فقد ظهرت شخصيته الحقيقية وتكاملت عناصرها ومميزاتها بوضوح . وبدا للجميع انه كان يخفى وراء صمته ورزانته المعهودة ملكات هائلة . فهو يصلح بين الفرقاء ويتابع مساعيه مثل حكيم القبيلة حتى ياتى على اسباب الخصومة والفرقة والشتات . فاذا اصاب نجاحاً وتوفيقاً فى مسعاه الوفاقى لم يتبجّح بما بذل من جهود وانما انكر ذاته وتواضع حتى لكأنه يتأسى بابى العلاء المعرى حين شفع لقومه عند رجل اسمه صالح فلما نجحت شفاعته عاد فأنشد في تواضع بين ونكران ذات حقيقى :

نجّى المعاشر من براثن صالح رب يفرج كل امر معضل
ما كان لى فيها جناح بعوضة الله البسهم جناح تفضل

فاذا كان البعض يظنون من قديم ان محمود قرشلى كان وراء كثير من المنازعات بين التلاميذ في ام درمان الاميرية فانه قد صار في خور طقت وراء كثير من اسباب الصلح والوفاق التى انهت الخلافات واخمدت ضرام المعارك . واذا كان ذلك من بعض ثمار النضوج النسبى الذى أصابه محمود فهو دون ريب روح من خلاله السمحة التى كانت كامنة فيه لم يجلّها لوقتها الا مرور الايام واتساع مدى التجربة واكتساب هذا النضوج المبكر . ولقد برز محمود قرشلى كلاعب لكرة السلة (الباسكتبول) موهوب عظيم ، وعلى قدر هائل من الحصافة والذكاء والدراية . وساعدته طبيعته الهادئة الوقورة التى لم تكن تخلو من مكر خفى ودهاء مبين ، فاستخدم هاتين الخصلتين الموافيتين فى هذا المجال الرياضى اروع استخدام وحاز على اعجاب زملائه عن جدارة واستحقاق . فهو من دهاقنة كرة السلة المعدودين في المدرسة وقد عرف له زملاؤه

واساتذته هذه المقدرات العالية التى كانت في كثير من الاحايين سبباً رائداً ومباشراً لفوز فريق كرة السلة المدرسى في خور طقت على فرق كرة السلة من مدرستى حنتوب ووداى سيدنا في اغلب اللقاءات التى كانت تجرى في مختلف المواطن والميادين .

ولقد بينت لك من قبل ان محمود قرشلى كان صاحب وقائد فرقة كلفة ببعض الاشعار تتناشد اطرافاً من خمريات ابن هانىء (ابى نواس) فيهرع اليهم التلاميذ من كل صوب يرددون معهم الالحان والاشعار الرقيقة والأهازيج فيضمخون اجواء تلك الأزمنة بعبير الطرب والحبور والمرح البرئ . فان كانت تلك التجمعات الاناشيدية نوعاً من الفوضى التى يتعشقها محمود قرشلى ورفاقه فهى فوضى محببة الي النفوس تغمرها بالحيوية الدافقة وتجلو عنها صدأ الرتابة والملل . ولست اعلم احداً رأى محمود قرشلى غاضباً ابداً او عاتباً على احد ، فهو الضاحك المتبسم علي الدوام ، مع جد واهتمام بالدروس ليس ادل عليه من تخرجه في الجامعة رغم ظروف صعبة كان يعيشها فيما تلا تلك الازمنة من سنوات . وانه ليصح ان يقال فيه ما قال شوقى وكأنه يعنيه :

القريب العتب من معنى الرضا	والقريب الجدّ من معنى اللعبْ
والاخ الصادق فى الود اذا	ظهر الاخوان بالود الكذب
خاشع في درسه محتشم	فكه فى مجلس اللهو طرب .



الباب الثالث

أسرة التدريس :

لقد كانت مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى مجتمعاً حافلاً بكل مايسر ويبهج وهى قد جمعت فتية تلك الأزمنة وهم تلامذة صغار بطائفة من الاساتذة الأجلاء قدم رهط منهم إليها وبقى فيها سنوات ، وتعاقب عليها اخرون تفاوتت فترات اقامتهم بها وكلهم خلف فى أذهان التلاميذ اثاراً من الذكرى الطيبة باقية لا تنمحى ، وان تباين عمق كل أثر من هذه الاثار واختلف باختلاف طول الفترة التى لبثها بين ظهر انينا الاستاذ . هنالك اساتذة لم يقدر لهم أن يبقوا بيننا طويلاً ولكننا نذكرهم جيداً ونذكر لمحات من سيرهم ومن أوصافهم ومناهجهم وطرائق تعاملهم مع زملائهم وتلامذتهم . وبعضهم لم نحظ بشرف الوقوف على شأنهم وذلك لأنهم لم يقوموا بتدريسنا فى الفصول التى كنا فيها أو أنهم فعلوا ذلك بعض حصص قليلة ، والبعض الاخر اختلفوا الى فصول أخرى دون فصلنا فلم نقف من سيرهم إلا على ما كان يرويه علينا الأقران . غير اننا نستطيع أن نشير بكلمة أو كلمتين إلى كل واحد منهم تقريباً لأننا علمنا من أمرهم شيئاً وفاتت علينا منه أشياء . وما هذه الاشارات التى نعنى والكلمات التى تتداعى إلا ما وقر فى الذاكرة وانطبع عن هؤلاء القوم الكرام . فيها صور جلية حية دافئة الأنفاس كما انتقش الأصيل العسجدى قبيل الغروب سبائك حسن على جبين الأفق . ومن بينها صور أخرى غائمات موغلات فى الخفاء غير أنها تدرك إذ تجتلى من وراء غيوم المدى وسدف السنين الخوالى - « بدا حاجب منها وضنت بحاجب » . ولعله من العجب أن كثرة الصور والمرائى والمشاهد والأحداث لا ترهق الذاكرة ولا تضنيها ولا تضجرها ولا تشقيها . بل هى على النقيض من ذلك توقد فيها المصابيح وتجلو عنها الظلمة وتطرد من عيونها سنة الغفلة والنسيان ، فاذا ارادت وصح منها العزم استرجعت كل شئ وأبصرت جميع دقائق تلك العوالم من جديد وتعلقت بها لا تبغى عنها حولاً.

.وعلى الرغم من أنه ليس من أغراض هذه الصفحات أن ترسم لوحة دقيقة المعالم عن كل شئ كان فى تلك العصر الغرالا أنها قد تصيب وقفات تقارب التدقيق عندما تتدافع

إلى الذاكرة أحداث بعينها وتلوح امامها صور تلك الأحداث تباعاً وأوجه اناس لا تنسى . فمن الاساتذة والتلاميذ من عرفنا عن قرب لصيق ولذلك تداعت أنباؤهم متتابعات يسوق بعضها بعضاً . ومنهم من أدركناه ولم نصحبه طويلاً ولذلك جاء ذكره بعض لوافت مسرعات لا توغل فى التفصيل الذى ربما توفر عليه غيرنا ممن كان أدرى منا بهذا الرهط الكريم وأكثر قرباً منه والتصاقاً به . فالأمر لا يعدو أن يكون تصاوير أو انطباعات كماقلنا أو مايشبه التأمل الذى يذكر بتلك الومضات التى عبر عنها التجاني يوسف بشير أرقوأروع تعبير وهو يقدم لديوانه «اشراقة» ببعض كلمات أحسن اختيارها وتنميق العبارة المشتملة عليها إذ يقول :

قطرات من التأمل حيرى .·. مطرقات على الدجى مبراقة

يترسلن فى جوانب آفاقى .·. حنيناً اسميته « اشراقة »

فلو أنك أبدلت كلمة « حيرى » فى البيت الأول بكلمة « عجلى » مثلاً فلربما اقتربت من الوصف الصحيح لهذه السطور التى بين يديك ، ولا تسق البيت الثانى مع هذا المعنى أروع اتساق ، ولعلمت أن كلمة « حنيناً » هذه هى ام المعنى بأسره وهى مدار الحديث ولب المضمو ن . والذى يرسل نفسه على سجيتها لتلتقط هذه الاشتات من مختلف صفحات دفتر الذاكرة يسعده أن يتأملها جميعاً بذات القدر من التدقيق لأنها عزيزة عليه كلها . غير أنه قد يقف امام بعضها وقفات أطول ويلقى على البعض الاخر نظرات خاطفات مسرعات . ويفعل ذلك مع الاشخاص أيضاً لانه ربما تتلمذ على بعضهم طويلاً ، وتعرف على بعضهم خلال حصة واحدة أو حصتين لا تزيد ، ولم يعرف عن فريق منهم إلا أنه كان استاذاً فى الاميرية الوسطي أو فى مدرسة التجارة أو ناظراً يضطلع بمهمام الادارة دون التدريس . ولذلك فان اسماء بعض الاساتذة قد ترد دون محاولة لاطالة الوقوف حيالها ولكن من باب محاولة الاحاطة واستكمال حبات العقد النظيم . ولعل الله يعين غيرى على التصدى لتكملة ما عجزت عن تكملته ، وخصوصاً فيما يتعلق بأساتذتنا الاجلاء .

جيل من العمالقة :

كانت اسرة ذلك المجتمع الكريم تضم أقماراً من الاساتذة بعضهم يعمل في مدرسة التجارة الثانوية الصغرى ، والبعض الاخر - وهو الشق الأكثر نفراً - يعمل في المدرسة الاميرية الوسطى ، فكانت هذه العائلة من الاساتيذ بشقيها هذين دوماً في تناسق ووئام . يذهب منهم من يذهب ويأتي اليهم من يأتي فلا يخل ذلك بالتناسق ولا ينال ذلك من الوئام ، فتلك عشيرة وثيقة العرى كأنما عناها ابو الطحان إذ يقول :

نجـــــوم سماء كلما غاب كوكب .'. بدا كوكب تأوى اليه كواكـــــبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم .'. دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

فاذا انت ذكرت الاستاذ الهادى فلابد أنك ذاكر أباه الاستاذ أحمد محمد صالح بصورة أوضح وأجلى وذلك أن الاستاذ الهادى لم يكن يدرس فصلنا انما كنا نراه فى المدرسة ونسمع من سيرته الحميدة من اولاد الفصول الأخرى ما يسر النفس ويدفعنا إلى التطلع لمعرفته عن قرب . غير أن ذلك لم يكن متاحاً لنا فاكتفينا بما علمناه من أمره على البعد وهو خير كله . وربما كان ذلك من حسن طالعه اذ أن من اولاد فصلنا من لوعرفه عن قرب لما ترك له جانباً يستريح عليه . وما أن بلغت مسامعنا مقدراته الشعرية والخطابية حتى اهتممنا بأمره غاية الاهتمام وصار فى دفاترنا من الاساتذة الذين بلغوا من نفوس تلامذتهم مرتبة الرضا والتوقير . وقد ذاع أمره فيما بعد وعرفه الناس جميعاً شاعراً غنائياً ومذيعاً وخطيباً مفلقاً رائع الأداء . وليس فى ذلك من عجب لأن « ابن الوزعوام » كما يقولون . أماابوه الاستاذ احمد محمد صالح فلم يكن يدرسنا أيضاً ولكن قل من لم يكن يعرف هذا الاستاذ الجليل الذى كان يشرف على مدرسة التجارة الثانوية الصغرى فى تلك الأزمان . وهو استاذ كنا تراه دائماً متهندماً بالبدلة الكاملة وأكثر ما كان يستهويه من الوان ملبسه « البيج » - أو ما كنا نسميه « السمنى » - والأسود أو الرمادى . وهى مصنوعة من أقمشة لم تكن نرتاب فى أنها انجليزية الصنع وان كنا فى تلك الأوقات قليلى الالمام بأنواع هذه الأقمشة واسمائها .

ورغم ذلك فقد دبت إلى اسماعنا كلمات تطلق على هذه الأقمشة والأصواف الانجليزية من بينها « البومبتش » وربما « الموهير » والفراك » . وكان الاستاذ احمد محمد صالح اذ يخطر فى هيئته الملبسية الفاخرة يحملك حملاً على تذكر فينوسه الغانية الفرعاء التى أبدعها « حسناء تخطر فى ثياب اللازورد » . ولقد رويت لك فى غير هذا السياق أنه زارنا فى فصلنا واستمع منى لقصيدته « فينوس» أو بعض أبيات منها فسره ذلك ابلغ سرور ، فأجازنى على جهدى وعلمت منه مالم اكن اعلم . والاستاذ احمد من شعراء السودان الخالدين وقد أودع بعضاً من شعره فى ديوانه « مع الأحرار» الذى يحوى من نفائس القصيد ألواناً متباينة . فهو يمدح السيد عبد الرحمن المهدى عند رجوعه من بعثة الوفد السودانى إلى لندن عام ١٩١٩م بقصيدة يبدؤها بهذا المطلع التشبيبى التقليدى :

لزينب ربع ما يجيبك محول .٠. عفا بعد ما قد كان بالغيد يأهل

وأقفر من بيض حسان نواعم .٠. أوانس من أخلاقهن التدلل

إلى أن يقول فى ممدوحه :

إمام الهدى قرت بمرآك أعين *** وطابت نفوس حين عدت وأعْقُلُ

ومازال هذا القطر يزدان بهجة *** ويختال فى برد السرور ويرفل

نمتك إلى الخيرات أعراق هاشم *** فأنت لهذا الدين ركن وموئل

واقسم ماقاسوك بالبدر ميسماً *** وشمس الضحى إلا ووجهك أجمل

ولا قرنوا كفيك بالبحر نائلاً *** ولا بالحيا إلاّ وجدواك أجزل

فكم فرجت كفاك فى المحل كربة *** وكنت لكل النائبات تُؤَمَّل

تهش إذا جاء الفقير ميمماً *** وتبدؤه بالنيل من قبل يسأل

أبوك أقام الدين والفسق ضارب *** بأطنابه والناس للحق تجهل

به عاد دين الله أبلج واضحاً *** مقيماً فلا يبلى ولا يتحول

ألا أفخر فبالمهدى يفخر نسله *** ويفتخر السودان والدين يجمل

وقال فى قصيدة عنوانها « الامام عبد الرحمن والبعثة المصرية عام ١٩٣٥م » :

قل للامـــام الذى يمناه من شـــرف *.* كـالليث والغـيث فى بأس وفى كـرم
ان كنت قصـرت فى سـعيى لكم زمناً *.* ولم أزر كـعـبـة القـصـاد من أمم
مـا كـان ذلك زهداً فى وصـالكمُ *.* فـأنتم خـيـر من تسـعى له قـدمى
بينى وبينك عـهـد لا انفـصـام له *.* ومـثله حـبل ود غـيـر منفـصم
مـضى الزمـان على صـفـو الوداد بنا *.* ولست فـيـك على ود بمتـهـم
الجـود عندك مـضـروب سـرداقـه *.* والدين حـرمـتـه مـرعـيـة الذمم
والفـضل فى بيـتكم طابت منابتـه *.* فـأنتم زينة الدنيـا من القـدم
أباؤك الغـر أحـيـاء بذكـرهـم *.* ان كـان أباء بعض الناس فى الرمم
مـا كـان منهم لدى البـأساء غيرفتى *.* كـالويل فى المحل أو كـالبدر فى الظلم
لما أتتك وفـود القـوم زائرة *.* إلى الجـزيرة ذات المنهل الشـبم
شـامـوا بروق الندى حـتى اذا وصلوا *.* سـالت يمينك سـيل الوابل العـرم
مـازلت تغـمـرهم بالجـود مـتـصـلاً *.* والعـرق منسكبـاً فى اطيب النعم
حـتى انثنوا وكـان القـوم من فـرح *.* فى نشـوة الراح أو فى غـمـرة الحلم

إلى أن قال فيما قال عن والد ممدوحه :

قـد كـان للدين فى أيامـه خـبـر *.* وللفـضـيلة ركن غـيـر منهـدم.
جلى أبوك وجـئت اليـوم تتـبـعـه *.* فى حلبـة الرأى والعليـاء والكرم
ورثت عنه خـلال الخيـر أجـمـعـهـا يامـفـرداً علمـاً من مـفـرد علم

وقال يرثى الاستاذ على الجارم عام ١٩٤٩م

سـرى من مـصـر يخـتـرق التـلالا نَعِيٌّ كنت أحـسـبـه مـحـالا
وقـالوا شـاعـر الفـصـحى تولى فـقلت رويدكم مـهـلاً ألالا
نعـيـتم خـيـر من نظم القـوافى وراض عِـصـيّـهـا الحـقب الطوالا
ومـن هـز المنابـر إذ عـلاهـا وجـال بكل قـافـيـة وصـالا

فهذا هو الاستاذ أحمد محمد صالح الذى جال هونفسه « بكل قافية وصالا » . فهو

وإن لم يكن على أيامنا تلك مدرساً فى ام درمان الأميرية إلا أنه كان ملء الأسماع والأبصار وكان ذا تأثير هائل على مجرى الأحداث والمعارف الثقافية فى وسط ذلك المجتمع الجامع الفريد . وكانت درايته باللغة الانجليزية مضرب الأمثال .

ولقد كان من اساتذة مدرسة التجارة فى تلك الأزمان الاستاذ الخالد هاشم ضيف الله الذى عرفه من بعد تلامذة مدرسة حنتوب الثانوية وغيرها . وهو استاذ مولع بالرياضة عظيم الشأن فى دنيا كرة القدم شهدت ملاعبها أداءه المتميز وبعض تعليقاته اللاذعة . وهو الذى كان يدرب نجم الكرة السودانية الخالد صديق منزول على تسديد ضربة الجزاء بالاتقان المبتغى فى ميادين جامع الخليفة على ايامنا تلك الغر الناضرات . فكان الفتية وغيرهم من المشاهدين يتحلقون من حول الميدان ينعمون بشهود ذلك المران الذى أثمر خبيراً فى تسديد ضربات الجزاء خصوصاً واتقان فنون لعب كرة القدم عموماً فأسهم فى اعلاء شأن السودان بين الامم اعظم اسهام . ورغم أن الاستاذ هاشم ضيف الله لم يكن من مدرسى فصلنا إلا أنه كان علماً فى رأسه نار . فهو لاعب فريق الهلال المميز الذى كانت له نظرية خاصة فى التصرف فى الكرة عندما تكون هى بين قدميك وأنت فى خط « تمنطاشر » ، وهى نظرية اشتهرت عنه وذاعت بين الناس فان كنت لا تذكرها أو تعلم أمرها فاسأل مصباح الصادق تجد عنده الخبر اليقين ' لقد برهنت الايام على صحتها ولكن بشرط واحد وهو أن يكون اللاعب الذى يود أن يطبقها لاعباً مقتدراً مثل الاستاذ هاشم ضيف الله وقليل ماهم مثله . ولو كان هذا التطبيق أمراً متاحاً ومضمون النتائج المبتغاة لكل من هب ودب لما صح قول الشاعر :

إذا ما أراد الله اهـــــلاك نملة سمت بجناحيها إلى الجو تصعد

فقد هلك أقوام ما كان لريش اجنحتهم أن يقوى على مثل هذا الطيران ! واذا كان الاستاذ ابوضيف محبوباً بين التلاميذ لأنه نجم متألق فى سماء كرة القدم ولأنه قمر منير بين فتية فريق الهلال ، فهو محبوب بينهم فى المكان الأول لأنه كان شمساً من شموس المعارف . فهو الخبير بلغة بنى السكسون وهو عراف علم الجغرافيا وملا ح

سفائنها وربانها المقتدرالعليم بأسرار بحارها وبراريها وفضاءاتها الكثر الزاخرات بالعجائب .

ومن اساتذة مدرسة التجارة الاستاذ ابراهيم على ، وهو شقيق الاستاذ عثمان على الذى حدثتك عنه فى غير هذا السياق . وهو استاذ حسن السيرة كريم الخلق ، وآية ذلك أنه لقى بين تلامذته من المحبة والتوقير مثل مالقيه الاستاذ عثمان على بيننا ، وليس ذلك بمستغرب لأن الأصل واحد والمحتد معلوم . وإن لأهل جزيرة توتى لباعاً فى الوطنية لا يغيب عن اذهان الناس ولمجداً مؤتلقاً فى سماء العلوم والتربية وتنشئة الاجيال لا يفتر الناس عن ذكره بالتقدير والعرفان .ولقد تميز الاستاذ ابراهيم علي بالهدوء والسكينة والوقار وكنا نراه دائماً وهو يرتدى البدلة الكاملة فى أبهى مظهر وأجل مخبر ونشهد من تواضعه ما كان يغرينا بأن نتمنى أن لو كان واحداً من الاساتذة الذين نتلقى عليهم بعض الدروس . فهو يبدو لنا دائماً – وان كان ذلك على البعد – رجلاً بسيطاً متضعاً يبتسم فى غير ما تصنع ويختال فى غيرما كبر أو جبروت . خبرنا في شقيقه عثمان كل صفات الخير وخلال الا خلاص والصفاء فبتنا على قناعة تامة أنه لابد أن يكون وجهاً مليحاً آخر لذات هذه الصفات والخلال ، و صورة طبق الأصل كما يقول أهل المكاتب !

وأما الاستاذ محمد عثمان ميرغنى شكاك فقد كنا نراه على البعد أيضاً ونسمع طرفاً من سيرته العطرة بين الناس ولا أزال اذكر مرآه وهو فى بدلته الدمور التى كنا نعجب منها أيما عجب . وهو ربما كان فى اواخر الأربعينات من العمر أو مطلع الخمسينات ولكنه كان مليئاً بالحيوية دائم الابتسام ، على كل من خديه آثار شلوخ أو فصود رقيقة ثلاث تضفى على وجهه المستدير ذى البشرة القمحية نوراً وبهاء وجمالاً ، كأنما ابدعتها على خديه أنامل فنان يعنى باستقامة خطوطه ودقة قياس المسافات التى تفصل بينها . ولقد أكلت بواكير الكهولة أو بعض الهموم شيئاً من مقدمة شعر رأسه ووخطت بالشيب الباكر ماسلم من غوائلها وبقى فوق الصدغين ، فافضى به كل ذلك

إلى رأس أجلح حسن الخلقة وجبين واسع وضيىء أبلج ، ووجه مشرق ضاحك القسمات طلق يأتلق بالبشاشة ويلمع بالترحاب . وعلى الرغم من أننا لم نكن نعرفه ولم يكن هو يعرفنا الا أنه كان يجذب اهتمامنا بصورة واضحة وذلك لعدة أسباب . أولها مرآه الباهر ووجهه المشرق الوضاح الذى ينطق بالحسن والبهاء وينبئ عن كرم المحتد ، وسمته المتواضع الذى يزيل الحواجز فيما بينك وبينه ويغريك بالقرب منه إذا كنت واحداً من تلامذته ، وقد أحزننا انا لم نكن منهم . وثانيها أنه كان مداوماً على ارتداء بدلة الدمور الوطنى ، فكانت هي على جسمه خلعة من خلع الوقار والوطنية وكان جسمه عليها خلعةً من خلع الحسن والبهاء وكان مجمل المظهر كله روعة واتساقاً ومجتلىً لامهات المعانى وعوالى الهمم . وأى معنى آثر للانسان من كبريائه وكرامته ؟ وأى همة أعلى من همة حب الوطن وسوم أيام العمر فى سوق همومه وابتياع عزته وحريته ومجده بها وان ضن بذلك الغير وبخلوا به ؟ ومن يذكر الاستاذ محمد عثمان ميرغنى فى بدلة الدمور الوطنى فانه يذكر أيضاً الامير عبدالله عبد الرحمن نقدالله فهما اللذان ابتدعا وتبنيا وطبقا شعار « نلبس مما نصنع » منذ تلك العهود البعيدة دون كلمات أو ضجيج وتلبس به كل منهما صادقاً ومخلصاً حتى فارق الدنيا وما فى يده من حطامها الفانى شئ . لقد كان مرأى الاستاذ محمد عثمان ميرغنى فى بدلته المصنوعة من الدمور الوطنى مرأى رائعاً بحق وملفتاً للنظر فى ذلك المجتمع المدرسى النابض بالحياة . ورغم أننا تلامذة صغار إلا أننا كنا نستشعر دفء انفاس الحركة الوطنية ونتذوق حلاوة كثير من الأناشيد والتعابير والكلمات التى تنطق بحب الوطن وتطرح قضايا امال الناس فى التحرر واسترداد السيادة والكرامة والعزة . وكانت دار حزب الامة قريبة من المدرسة فكنا نرتادها فى بعض الامسيات ونستمع إلى خطب وأحاديث تدور حول مطلب الاستقلال الوطنى وإلى أشعار تستحث الناس وتملأ أنفسهم حماساً فيتعالى الهتاف بحياة السودان الحر المستقل . وكنا فى بعض الأحيان نذهب إلى نادى الخريجين فنستمع كذلك إلى القصائد والأناشيد الوطنية والأحاديث التى

تتغنى بالكفاح المشترك بين الشعبين السوداني والمصرى فترتاح نفوسنا لما يعجبنا من كل ذلك ونكل أمر ما استعصى علينا فهمه أو استساغته لعلم علام الغيوب آملين أن ندرك فى غد ما فاتنا ادراكه فى ذلك الحين . غير أن هذا التباين فيما يلقى على مسامعنا فى كل من الدارين أو الناديين لم يكن يثير بيننا أى نوع من الخلافات أو المشاحنات إلا ما كان ينعكس على مجتمعنا المدرسى فى بعض الأحايين من خلاف حول الا نتماء الاسرى لأى من كيانى الأنصار والختمية . وحتى هذا الخلاف ما كنا ننظر اليه - فى اغلب أحياننا - إلا كخلاف طبيعى يولد به الناس ويتعايشون فى إطاره فى وئام . ولكن مظهر الاستاذ محمد عثمان ميرغنى وارتداءه الدائم للبدلة الدمور كان مثار اعجاب التلاميذ دون ريب وهو قد ساعد على ترسيخ فكرة الاستقلال ومعنى المطالبة به فى أذهان التلاميذ وحبب اليهم دعوة الاستقلال وشعار السودان للسودانيين لأن كلاً من هذه الدعوة وهذا الشعار بسيط فى التعبير والمحتوى قريب من الوجدان يباشره ويخاطبه دون التواء . ولما علمنا يقيناً أن الاستاذ محمد عثمان ميرغنى من دعاة الاستقلال ازداد شعار الاستقلال قرباً من فهمنا ومن عواطفنا لأن الاستاذ كان يشكل فى نظرنا قدوة لعالمنا الصغير المحدود . ولو أنه أراد أن يجاهر بأرائه السياسية ويبشر بيننا بشعار الاستقلال لوجد من سند التلاميذ ما يقارب الاجما ع ، ولكن اساتذة تلك العهود عموماً كانوا أهل عفة وأمانة ورصانة ، لا يستغلون عواطف تلامذتهم ولا يسترقون سذاجتهم ولايحملونهم ما لا طاقة لهم به . ولذلك فان ذلك المجتمع المدرسى قد برئ تماماً من أي نوع من أنوا ع الصراعات السياسية ، ولست اذكر شيئاً كدر صفاءه أو نال من هدوئه بعض نيل سوى تلك التظاهرة التى انطلق فيها التلاميذ يهتفون « نحن نطالب بالرحلة ». وهى رحلة مدرسية كانت قد ارجئت أو الغيت ، ولم تكن المطالبة بها بتلك الصورة بريئة من التأثير السياسى . وفيما عدا ذلك فان اصابع السياسة كانت بعيدة عن ملامسة صفاء ذلك المجتمع ، إلا ما كان يقال همساً أو يشتم أو يستذاق من بعض اشارات تصدر عن

طائفة من شباب الاساتذة ، وهى اشارات تذكر بالوطنية عموماً وتحبب فى الوطن وقضاياه العادلة فلا تذهب إلى أقصى من ذلك ولا تدعو اليه . ولقد ظل الاستاذ محمد عثمان ميرغنى على انحيازه لدعوة الاستقلال وتمسكه « بسودنة » الزى الافرنجى حتى علمنا فيما بعد أنه كان من المقربين للامام عبد الرحمن المهدى الذى ربما زكاه لتقلد منصب رئيس الوزراء اذا ما قدر لدعوة الاستقلال أن تنتصر ولحزب الاستقلال أن يحرز الاغلبية فى الانتخابات النيابية فتوكل اليه مهمة تأليف الحكومة . ولم نكن نحن لنستغرب هذا لأن الامام عبد الرحمن كان راعى الحركة الاستقلالية ونحن نعلم ذلك ، ولأن الاستاذ محمد عثمان كان فى نظرناأهلاً لذلك . وقد بلغنى - والعهدة على الرواى - أنه كان أول من أدخل على اقتصاديات ذلك الزمان ما يسمى « حساب الدوبية » وهو نوع متطور من فنون المحاسبة ومسك الدفاتر . ومهما يكن من أمر فقد ترك ذلك الاستاذ فى أذهاننا أثراً باقياً رغم أنى لا أذكر أنه دخل فصلنا فى يوم من الأيام . وهو قد ذهب فيما علمت إلى نيجيريا وقضى بها سنوات ، ثم عاجلته منيته وهو لا يزال قوياً موفور العزائم مستمسكاً بالفضائل ، ويقينى أنه لوعاش لكان له شأن جسيم وخبر عظيم . وما أصدق ما قال شوقى يرحمه الله :

هو الدهر : ميلاد ، فشغل ، فمأتم　　　فذكر كما أبقى الصدى ذاهب الصوت

واما شقيقه احمد ميرغنى شكاك فقد كان فى فترة من أزماننا تلك ناظراً لام درمان الاميرية . وهو استاذ قصير القامة أو ربعة جسمه بين الامتلاء والنحافة لون بشرته أقرب للسمرة من بياض بشر ة أخيه . وهو ناظر حازم فى اغلب احيانه قليل الابتسام ، ولكنه ربما كان يلبس قسمات وجهه هذا الحزم الغالب لأن « النظارة » تقتضى مثل هذا المظهر الذى ساد اعتقاد بين الناس بضرورة الظهور به ابقاء على هيبة الإدارة أن تمس او توحى بالتهاون والتراخى فينفرط العقد وتعم الفوضى . وهو اعتقاد كان فى نظرنا بئيساً وسيظل كذلك لانه يجعل من المسافات التى تفصل بين التلميذ واستاذه آماداً زمانية ومكانية بعيدة ويوشك أن يبنى بينهما حائطاً أصم

سميكاً من البعد والنفور والقطيعة ، وذلك أن الحزم ليس فى صرة الوجه وليست هى
من وسائله التى تنفذ مقاصده أحسن انفاذ ، انما الشأن فى طلاقة الوجه التى تدعو
الى القرب فتهيئ نفس التلميذ لقبول ما يلقى عليه ويسند اليه ويؤمر به عن طواعية
ورضا . ولكننا نظلم الاستاذ احمد وهو المربى الخبيران قلنا إنه لم يحفل بذلك ، فلعل
من طبائعه التى جبل عليها أنه لا يكثر من الابتسام ، أو لعل من سوء طالعه وطالعنا
على السواء أنه فى المرات القليلة التى قابلناه فيها - فهو لم يكن يقوم بتدريس فصلنا
- كان قليل الابتسام فانطبعت فى أذهاننا عنه تلك الصورة التى لا تعبر عن حقيقته .
ومهما يكن من أمر فقد كنانخشاه وقد أطلق عله بعضنا اسم « الرجل القصير »
(Short Man) ولم يكن ذلك هجواً له بقدر ما كان تعبيراً يقيس بعد المساحة التى
تفصل بينه وبين وجدان من أطلقوا عليه هذا الاسم . فهو تعبير عن شعور يمكن وصفه
بأنه محايد بين المدح والذم ولكنه لا يعبر عن الرضا الكامل ولايخلو من معنى خفى من
معانى الاستياء القسط الذى هو من طبائع البشر والتلاميذ الصغار منهم على وجه
الخصوص . وما اكثر ما كنا نخطئ فى تقييم بعض الناس والامور وفى تفسير بعض
الظواهر والأحداث ! ولعله من الملاحظ أن التلميذ فى تلك السن الباكرة غالباً مايكون
مفرط الحساسية ، تلتقط مشاعره أخفى الاشارات فى سرعة خاطفة وتتأثر بها سلباً
أو ايجاباً حسب درجة القرب أو البعد من مصدر الاشارة وهى قد تكون فى ذلك
مخطئة أو مصيبة ولكنها تركن إلى التفسير الذى تمليه عليها مجموعة عوامل يقف فى
طليعتها هذا المؤثر الفعال الذى أطلقنا عليه صفة « القرب الوجدانى » . وقد يعود
استخدام هذا المعيار التقييمى بالظلم على بعض الاساتذة اذ أن طبيعة المهام التى
يضطلعون بها لا تهيئ لهم أسباب هذا القرب الذى نتحدث عنه . فالادارى الذى
يستغرق جهده ووقته فى تصريف الشؤون الادارية ولا يدرس التلاميذ ولا يخالطهم
يكون بعيداً عنهم وقد يرون فى بعض طرائقه التى يباشر بها عمله وواجباته غلظة
وفظاظة تنفر منها نفوسهم ، بينما هو فى حقيقة أمره انسان رقيق عذب الروح

والسجايا، ولكن مظاهر الحزم الادارى هى التى تغيب عن تلامذته هذه الرقة والعذوبة ولقد غاب عنهم أيضاً أنه لولا ذلك الحزم والانضباط لا نفرط عقد ذلك المجتمع المدرسى المعافى الذي أرخى عليهم من غضارة نعماه الآمنة أورف الظلال . ولقد قدر لى أن أقف على حقيقة الاستاذ احمد ميرغنى شكاك اثر حدثين ليس لأى منهما أهمية تذكر ولكنى لست أنساهما أبداً . أولهما أننا كنا فى ذات صباح نركض فى فناء المدرسة أثناء الفسحة ودلفنا دون شعور منا أو قصد إلى الردهة الواقعة قبالة مكتبه . فخرج غاضباً ونادى علينا فجئت اليه وقد تفرق عنى الآخرون. فاقتادنى إلى داخل مكتبه وأمر عم مبارك بجلدى ست جلدات . ولكنه سألنى قبل انزال العقوبة عمن كانوا معى من التلاميذ يتراكضون فأنكرتهم جميعاً وانا بهم عليم . فقال لى: اذا لم تخبرنى بأسمائهم فانك ستنال عشر جلدات بدل الست . ولكن الله ثبتنى بالقول الثابت فى ذلك الحين فلم أسلمهم ابداً وانما بقيت على قولى إنى كنت وحدى واستلقيت على الكنبة مفوضاً أمرى لله متستراً على من كان معى متحملاً الأذى لوحدى . ولقد كانت دهشتى عظيمة عندما أمرنى بأن أقوم واقفاً وصرف عنى عم مبارك وهو يتلمظ من وراء ابتسامة حسرى وسوطه فى يده خزيان ينظر . وتعاظمت دهشتى مراراً عندما قال لى بعد حوار طويل وفى رقة سائلة عجزت كل مظاهر الحزم البادية عليه أن تخفيها عني: أنت ولد شجاع . اذهب فقد عفوت عنك هذه المرة . ثم ضحك ضحكة عابرة أنارت وجهه بمعنى لم أطلع عليه من قبل فانصرفت راضياً موفوراً . ولما رويت ماشهدت على من كانوا يركضون معى عبر تلك الردهة لم يفقهوا قولى من شدة تكذيبهم لما رويت فما كان منهم من يصدق أن أحداً يمكن أن ينجو من العقاب خصوصاً إذا كان الجرم واضحاً وكان الحكم هو الاستاذ احمد ميرغنى شكاك . وأما ثانى الحدثين فقد وقع لى بعد نهاية الحصة الأخيرة ونحن تلاميذ فى السنة الرابعة . ففى ذلك اليوم وبعد أن صلصل جرس عم مبارك الأخير وخرج من فصلنا الاستاذ تعالى بيننا الصخب والضجيج ونحن نعد للخروج من الفصل . وكنت قد فتحت درجى بحركة سريعة

وأنا فى آخر الصف الاول ، ثم أعدت غطاءه عليه أيضاً بحركة سريعة . ولعل هذا الصخب والضجيج هو الذى دفع الناظر للحضور فى تلك اللحظة فأبصرته عند باب الفصل وأنا اغلق درجى وقد تطاير الحبر من المحبرة فرش ظهر الدرج وسقطت منه بقع على البلاط . فرأى هو ذلك بعينيه ونادانى إلى مكتبه ، وحكم علىَّ بست جلدات تلقيتها صامداً دون حراك ، ولكنى بكيت بكاءً مراً لأنه اتهمنى بالهرجلة وأنا منها برئ

واعترفت باندلاق الحبر من محبرتى ولكن دون قصد منى . واذكر انى قلت له وفى نفسى حرقة ، وكان ذلك بعد أن تلقيت العقاب « يافندى وحات المهدى أنـا مـا هرجلت » . فرأيت انه دهش لقسمى هذا أيما دهشة ولعله أيقن أن بكائى انما كان وليد الحرقة والاحساس بالظلم فعاد علىَّ بتلك الرقة العجيبة التى خبرتها فيه من قبل وطيب خاطرى حتى غادرته وأنا راضٍ طيب النفس . وكان أن قصصت هذا الحدث على أبى يرحمه الله فأخذنى معه فى زيارة للاستاذ احمد فى داره فى العباسية . وهناك استقبلنا الاستاذ اعظم استقبال واكرم وفادة أبى عليه أبلغ اكرام ونعمت ساعة بالتعرف فيه على شخص غير الذى يعرفه أولاد ام درمان الاميرية . فهو رجل بسيط يضحك ويتهلل وجهه بالسرور ، ويروى القصص ويقرى الأضياف ويتحدث عن أمجاد المهدية حديث المعجب الخبير .

ذلك هو الاستاذ احمد ميرغنى شكاك ناظر ام درمان الاميرية الذى حجبت عنا حقيقته السمحة مهامُه الادارية وخفيت عنا خلائقه الداعية إلى القرب من وراء حزمه الذى يغرى بالنفور . ولقد علمنا من بعد أنه كان من الاساتذة القلائل الذين شهدلهم حقل التعليم والمعارف وادارة المؤسسات التدريبية التنويرية بحسن البلاء . أعطى كثيراً وعاش حياة البسطاء المستورين وترك من ورائه ذكرى عطرة .

غدير أترع الأوطان خيراً #*# وان لـــم تمتلئ مـــنه دَوِيّـــا

وقد تأتى الجداول فى خشوع #*# بما قد يُعجـز السيل الأتِيّـا

حياة معلم طفئت وكـــانت #*# سراجاً يعجب السارى وضيا

وكان الاستاذ على حسنى عميداً لمدرسة التجارة الثانوية الصغرى . ولعله كان أيضا مشرفاً على المدرسة الاميرية الوسطى التى تحتل الطابق الأرضى من المبنى . وهو رجل رزق بسطة فى الجسم وارتفاعاً فى القامة يسمان مظهره الكلى بالهيبة والوقار . ومع ذلك فقد أوتى من خفة الروح وملكة الدعابة الساخرة الموجهة ما حبب فيه زملاءه وتلامذته على السواء . فكانت تعليقاته الذكية المرحة التى يطلقها من حين لآخر تتناقل سريعاً بين الناس وتشيع فى الأنفس الواناً من أفانين الحيوية والمراح . وعلى الرغم من بياض لون بشرته الظاهر فقد كان الاستاذ على حسنى سودانياً خالصاً فى كل شأنه حتى النخاع ورجلاً متواضعاً فى المظهر والمخبر ، يجمع إلى صرامة القبضة الادارية المستبصرة تلقائية مرسلة ، وكلفاً قسطاً متزناً بالطرفة والملحة والدعابة يقربه من وجدان تلامذته ورفاقه الاساتذة ، ويوشك أن يطوى ما تبسطه فيما بينه وبينهم مواقع الوظيفة وتباين درجات الواجب والمسئولية من مسافات.لقد اشتهر الاستاذ على حسنى بابتداع الطرائف المحكمة والنوادر البديعة . ولعل اكثرنا لم يطلع على كثير منها فى تلك الأزمنة ، فما كان لعقولنا الصغيرة أن تقف على أسرر الكلام الذكى يتبجّس من لسان ذرب ومنطق حكيم وعقل موفور يحسن انتقاء الكلمات والتعابير . وإنما شاعت بعض تعليقاته اللبقة الساخرة بين الناس بعد أزمان من تلك الأيام ، وهى مقولات فيها من الفطنة وعمق المعانى شئ كثير ، وفيها من نفاذ نور البصيرة وحسن الادراك لعواقب الامور ماشهدته وتناقلت أنباءه ثلل متباينة الرؤى والمشارب من المثقفين الذين كانت تنعقد منتدياتهم ومجالس انسهم ونقاشهم فى مقهى السليمانى الشهير فى الخرطوم « نمرة اتنين » فى مطلع السبعينات .

ولعلك تعلم أن الاستاذ على حسنى من أصول مصرية . فقد كان والده السيد حسن حسنى مصرى الجنسية أصلاً . وكان فى زمنه موظفاً للتلغراف ذا إلمام جيد باللغة الانجليزية . وهو الذى صحب دونالد ستيوارت مساعد غردون على الباخرة عباس مترجماً . فتحركت بهم الباخرة فى العاشر من سبتمبر عام ١٨٨٤ وهى محملة بحقائب

تحوى أوراقاً مهمة . ولكن الباخرة اصطدمت بصخرة فى النيل عطلت مسيرتها صوب الشمال ، وكان ذلك فى يوم الخميس الثامن عشر من سبتمبر بالقرب من قرية الهبة (ام دويمة فيما بعد). وعندما طلب الكولونيل ستيورات من السيد حسن حسنى النزول مع بعض رسله للاستطلاع أبدى نوعاً من العزوف عن اطاعة الأوامر . ولكن الكولونيل – فيما يقال – هدده بالقتل . فاستقل مع آخرين زورقاً إلى الشاطئ . ثم كان من أمر الباخرة عباس وطاقمها وركابها على ايدى المناصير ماروته كتب التاريخ . تقول بعض المصادر أن السيد حسن حسنى قد لعب دوراً هاماً لصالح الثورة المهدية فى هذه الواقعه وأنه تصرف بذكاء أرضى عنه الثوار . ولعل هذا الذكاء البصير بعواقب الامور هو بعض ماورثه الاستاذ على حسنى من مكارم أبيه . ولعل هذا التصرف – إذا صحت الرواية – يشير إلى حقيقة المشاعر التى كانت تربط بين شعبى وادى النيل فى تلك العهود السالفة . ومهما يكن من أمر فقد كان الاستاذ على حسنى مواطناً سودانياً صميماً عبق السجايا ، انفق العمر في خدمة هذه البلاد وتنشئة بنيها على أقوم الأسس وأجدى المعارف واطيب الخلال ، ونثر من درر مقولاته الطريفة الهادفة ما استقر فى معجم النوادر السياسية السودانية طرائف تروى على مر الأيام .

وكان من بين زملائنا فى ام درمان الاميرية ابناه أمين ومحمود . أما أمين فقد كان فى فصل الأوائل من أبناء دفعتنا وقد ربطت بيني وبينه صداقة لا أزال وفياً لها رغم أنى لم أره منذ سنوات عديدة . ولقد ورث أمين عن أبيه خصلتى الاستقامة والجدية ، وأفضت به مسيرته اللاحقة إلى القوات المسلحة ضابطاً متميزاً بحسن الأداء وحلاوة المعشر . وأما محمود فقد كان وراءنا فى المدرسة الاميرية بدفعتين . وقد ورث عن أبيه البسطة فى الجسم والخفة فى الروح والقدرة على الدعابة الساخرة الهادفة . ورغم انى لم ألتق به منذ أن فارقت ام درمان الاميرية الوسطى إلا أنى لا ازال اذكر جلابيته وهى معفرة بالتراب على أثر « شكلات » كانت تجرها عليه بعض مقولاته الهازئه فيتكاثر عليه ممن يصيبهم رشاشها خلق كثير . فلا يهرع إلى نجدته شقيقه

القوى الامين ، وهو صقر من صقور الأوائل دون ريب ، لأنه كان يعلم أن الأمر لم يكن ليتعدى حدود الهزل البرئ . ولو علم بغير ذلك لما وقف امام قبضته القوية الا آحاد من الصقور تربط بينه وبينهم اتفاقية عدم اعتداء غير مكتوبة . ولا بد أن الاستاذ على حسني كان على علم بكل ذلك ، ولكنه كان لا يزيد علي أن يتغافل عنه ويضحك لأن الكل أبناؤه .

ونحن لم ندرك الاستاذ بابكر على أبُّو فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي ولكننا أدركنا من ورائه لوافت من سمعة طيبة يتحدث بها الناس . فقد كان الاستاذ بابكر ضابط المدرسة فيما يروي علينا . ورغم أنه عرف بالصرامة وشدة الانضباط - وهما أمران يضيق بهما التلاميذ أشد الضيق - إلا أنه عرف قبل ذلك بالاستقامة والأمانة والتفانى فى أداء الواجب وجليل الاهتمام بأمر تلامذته وكل شأن يرفع من قدر المدرسة . وليس فى ذلك من غرابة . فالاستاذ بابكر على من خيار أهل الكوة المعطاءة التى وهبت هذه البلاد كوكبة مضيئة من الرجال البررة الأكفاء والنساء الفضليات المرابطات ممن حفلت بهم شتى ميادين المعارف والعطاء عبر السنين والأجيال . وهو من اسرة عريقة مشهود لها بالأصالة والدين وحسن البلاء . وهو واحد من طيور كثر صوادح انتجتها رحم الكوة الولود فطارت ثم حلقت فى افاق البلاد وجابت أرجاءها دون ملل أو نكوص ، تتغنى بحب الوطن وتبشر بالصبح الجديد . فكان منهم المعلم المتفانى والقانونى الضليع والطبيب الحانى والديبلوماسى الفطن والسياسى الامين والعالم المخبت والجندى المقدام والمهندس المقتدر والشاعر المفلق والفنان الموهوب والباحث المدقق والتاجر الأمين والصانع الماهر والمرأة الفارسة المؤمنة . فمن بين اولئك وهؤلاء نجم الاستاذ بابكر على كما نجم غيره من أهل مهنته فزينوها بميسم الصدق والأمانة ورفعة الأداء .وكلهم خلف فى مضابطها سيرة عطرة لا تبلى ولا تزول .

ولقد جاء إلى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى فيمن جاء من شباب الاساتذة فى تلك الأزمنة شقيقى الاستاذ الصادق عبدالله حامد ، الذى قدم لفترة قصيرة من

التدريب ولعله كان أصغر الاساتذة سناً . ورغم أنى كنت فرحاً فى سريرتى بمقدمه وانضمامه لهيئه التدريس إلا أنى كنت مشفقاً من أمرين : أولهما أن يجد فيه شياطين التلاميذ مأخذاً يأخذونه عليه فيحيلون حياتى بينهم بألسنتهم السليطة إلى جحيم لا يطاق . فهم يبحثون عن كل دقيق وجليل يتعلق بشأن الاستاذ وخاصة اذا كان ذلك الاستاذ حديث عهد بهم . غير أن الصادق كان مثالاً طيباً للشاب السودانى المستمسك بمحاسن الأخلاق وسائر امهات الفضائل ، وهو لا يزال كما كان ، أمة من المكارم وسعة الصدر والافق وعمق المعرفة وكمال الدين . ولو أنهم وجدوا فيه ما يغريهم به لما أقام عبثهم الطفولى وزناً لشئ « ولكن لم يروا فيه مطمعا » . فشهد له من أنصف بالكفاءة والنبل والمروءة ، و صمت عنه من كان يبحث عن منقصة ، فغادرهم ولسان حاله قائل لهم :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجـــزكـــم ** ويكره الله مـا تأتون والكـرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى ** أنا الثريا وذان الشيب والهرم

وثانى الأمرين أنى قد ألمحت لك فيما قد مضى من هذه الصفحات أن الشقى من بين التلاميذ هو من كان قريب له استاذاً فى المدرسة . وذلك أن اولئك المردة الصغار انما يبتغون إلى العبث والسخرية والهزء كافة الأسباب والسبل . ومن بينها أن احرازك لنتائج طيبة فى دروسك وامتحاناتك إنما يعزى إلى استنادك فى قريبك الاستاذ إلى ركن شديد . ولقد انجانى الله بفضله من مثل هذا الاتهام وبوائقه وتبعاته ، وذلك أيضاً بأمرين . أولهما أن شقيقى الصادق لم يقم بمهمة التدريس في فصلنا الامرة أو مرتين لم يكن فيهما امتحان ولا هو توجه إلى خلالهما بسؤال . وثانيهما أنه عرف بين تلاميذ الفصول الأخرى التى كان يختلف اليها بالنزاهة والتواضع واتقان العمل والاهتمام الحانى بشأن التلاميذ . وعلى كل فهو لم يلبث بين ظهرانينا إلا يسيراً فقد فارقنا إلى معهد تدريب المعلمين فى مبروكة ثم طاف اصقاع البلاد جميعها ظاعناً ومقيماً مع زملاء له كرام ، ينشر معهم انوار المعرفة ويعلى قيم الرشاد . أولئك أقوام ميامين ، من حقهم علينا أن نذكرهم بالخير ، فقد انفقوا زهرة العمر فى تهيئة أجيال

أفادت منهم البلاد خيراً كثيراً .

ولست أنسى ابداً الاستا ذ سعيد ضرار (أو درار ، أيهما أصح) الذى كان قمراً من أقمار تعليم اللغة الانجليزية . فقد جاء الينا من مدرسة وادى سيدنا الثانوية حيث اشتهر بالنبوغ والتقدم على سائر زملائه . وهو من اسرة عريقة موطنها جزائر الأشراف فى شمال السودان . ولم اكن اعلم حينها أنه من أهلى وعشيرتى . ولقد كان الاستاذ سعيد شاباً وسيماً مكتمل الوسامة تلوح على خديه شلوخ عمودية متوازنة ، ويعلو رأسه شعر سبيبى جثل دجوجى ، وهو دوماً يرتدى بدلة كحلية أو سوداء وربطة عنق غاية فى الأناقة والظرف ، ويتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة وفصاحة لا تعرف اللحن ولا الغموض . وهو ذات الرجل الذى ان لقيته اليوم فلن تعرفه ، فقد صار سعيد أواخر الاربعينات الأنيق المهندم بلباس الافرنج فقيراً سائحاً فى رحاب الله منذ أمد بعيد . فهو اليوم يرتدى المرقعة ويرسل اللحية ويحمل راية المهدية حيثما سار ، صدره موقر بالقرآن والحديث ولسانه رطب بالذكر والتوحيد ، قدماه مغبرتان بتراب الأرض وفكره معلق بملكوت السماء . كان سعيد فى طليعة المرشحين لدخول الجامعه وبلوغ مراتب التفوق فيها . وكان وقد اكتفى بما هو دون ذلك من القلائل الذين يرتجى لهم مستقبل رغد وضيئ فى حلبة التعليم وسلم الوظيفة . ولكنه آثر الدين على الدنيا ورغب فى الآخرة عن الاولى . زهد فى ما لايدوم ولا يبقى وأقبل على ما لا ينفد ولا يفنى . فهو اليوم يعيش بين الناس بعيون تبصر ما يبصرون وبصيرة تطلع على ما لايدركون .. بحر لجى فى علوم الدين واللغات ، بليغ الموعظة قليل الجدال . يحسبه البعض جاهلاً أو درويشاً فلا يعبأون به ، وهو عالم محيط . يخاطبهم لسان حاله لويسمعون ويعلمون :

عليٌّ ثياب لو يباع جميعها ** بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو يقاس ببعضها ** نفوس الورى كانت أجل واكبرا
وماضرٌ نصلَ السيف إخلاقُ غمده ** اذا كان عضباً أينما وجَّهْتَهُ فرى

وتولى الاستاذ يوسف زمراوى أيضاً نظارة المدرسة وكان رجلاً محبوباً بين التلاميذ

طلق الوجهه كثير الابتسام شديد العناية بأمر تلامذة المدرسة . وقد عرف بأنه أنصارى العقيدة وأنه كان سكرتيراً للجنة التعليم بدائرة المهدي وهى لجنة الفها الامام عبد الرحمن المهدى ورصد لها مبالغ طائلة من ماله الخاص لا عانة الطلاب السودانيين فى المعاهد التعليمية داخل السودان وخارجه . وهى بعض الأيادى الحانية الكثر التى غمر بها الامام ناشئةبنى وطنه فى كرم ومروءة وصدق وطنية لم تعرف لها البلاد مثيلاً . ورغم أن الاستاذ زمراوى لم يضطلع بمهمة تدريس فصلنا إلا أننا كنا نراه كثيراً . فهو رجل دؤوب دائم الحركة تعلو وجهه علائم البشر على الدوام . ولم نره يعاقب تلميذاً أو يغلظ عليه فى القول . وعلى الرغم من أنه كان ناظر المدرسة والسلطة العليا فيها إلا أنه كان ميالاً إلى البساطة فى ملبسه وممشاه وفى حديثه وتعامله مع الناس . وهو طويل القامة فى غيرما افراط ، ممتلئ الجسم امتلاء يناسب ارتفاع قامته ، يعصمه من النحافة والهزال ، ولا يدفع به إلى تضوم السمنة والترهل . ولعله كان فى مطلع أو منتصف الخمسينات من العمر ، يدل علي ذلك انحسار فى شعر مقدمة رأسه وشيب يغطى ما تبقى من شعر الفودين ، وجلحتان ملساءان من وراء جبين لا يخلو من بواكير غضون وتجاعيد ولكنه طلق متهلل . وهو أحياناً يغطى رأسه بالكسكتة أو البرنيطة إلا أن ذلك كان يحدث فيما ندر .

ولقد كان الكثيرون ممن سبقونا فى فصول الدراسة يشبهون الاستاذ زمراوى بالاستاذ عبد القادر شريف . فهما – كما قيل لنا – يتماثلان فى العمر وبساطة المظهر والقرب من قلوب التلاميذ والاساتذة على السواء . ولقد كان التلاميذ كثيراً ما يتساءلون عن « العقائد » الكروية لاساتذتهم ، فهم اكثر اهتماماً بها من أى عقائد أخرى . وكان الاستاذ زمراوى والاستاذ عبد القادر شريف كثيراً مايشاهدان فى دار الرياضة بين رواد المسطبة الوسطى . ويبدو أن الهلالاب كانوا أغلبية بين التلاميذ ، أو أن أصوات الهلالاب بينهم كانت أقوى وأعلى مما سواها . ولقد أكد لنا الخبراء من التلاميذ الذين يجيدون فن التشعبط على حيطة دار الرياضة أن الاستاذ يوسف

زمراوى لم يكن هلالابياً وانما كان مريخابياً حتى النخاع . واتخذ عبد الكريم من هذا التصنيف الذى ارتضاه وأطمان اليه متكأً يسند نظريته التى روج لها بين الناس وزعم أنها علمية تقوم على القاعدة الحسابية الرياضية القائلة بأن نفى النفى اثبات أو مايمكن أن نعبر عنه بصورة أقرب إلي طلاسم لغة الحساب اذا قلنا إن « ناقص ناقص تساوى زائداً » . يقول عبد الكريم إن الاستاذ يوسف زمراوى يسكن حي ود نوباوى وهو دائم الارتياد لدار الرياضة فلابد أن يكون مريخابياً . ولو أن عبد الكريم استعان بنظرية « البرهان بالاقصاء » (Proof By Exhaustion) لكان أقرب إلى منطق الحساب والرياضيات عموماً . ولكنه غير ملام فى ذلك لأننا لم نكن بعد قد وقفنا على هذه النظرية . وهى فى حقيقتها نظرية بسيطة تفترض بضعة احتمالات للشئ الصحيح وأن الصحيح واحد فى كل الأحوال لا ثانى له وانما يتوصل إليه بالترجيح . فاذا استطعت أن تبرهن أن احتمالين من ثلاث ليسا صحيحين فالثالث هو الصحيح . فالاستاذ يوسف زمراوى ليس موردابياً بالقطع أيضاً لأن البراهين على هذا متوفرة . فلم يبق الا أن يكون مريخابياً دون ريب . ومعلوم أنه لا يحمل عواطف نحو النيل أو الأهلى أو الكوكب أو استاك لأنه ليس من سكان الخرطوم ولا من سكان الخرطوم بحرى.ورغم أنه أمدرمانى أصيل إلا أنه لا يتصور من مثله أن يكون متعلق الوجدان بفريق الوطن أو الشاطئ أو « ابو عنجة » ولا حتى بفريق الاخلاص أو ود نوباوى إلا أن يكون ذلك بالنسبة للفريقين الأخيرين من باب العطف الذى يمليه واجب الجوار ولا يرقى إلى درجة العقيدة . ولكن بالرغم من التباين الواضح بين النظرية التى يستر شد بها عبد الكريم والنتائج التى يزعم أنه يصل اليها عن طريقها فانه موفق فيما يخلص اليه من حكم نهائى وفتوي لا تقبل النقض . فقد اكد لنا التلاميذ الذين هم اكثر احاطة منا بمثل هذه « التصانيف » أن الاستاذ يوسف زمراوى مريخابى بالفعل ، بل ان الاستاذ عبد القادر شريف نفسه أيضاً مريخابى وهو عين الاستنتاج الذى وصل إليه عبد الركريم مستخدماً فى الوصول اليه ذات هذه النظرية الحسابية السحرية . وعندما

أجرى المهتمون بهذه الشؤون مزيداً من البحث والتنقيب فانهم وصفوا مريخابية الاستاذ يوسف زمراوى بالاعتدال ونعتوا مريخابية الاستاذ عبد القادر شريف بالغلو والاسراف العاطفى . وساقوا دليلاً على ذلك طرائف من بينها أن الاستاذ عبد القادر شريف كان يبدو على درجة عالية من القلق والاضطراب والعصبية فى كل المباريات التى تنعقد بين فريقى الهلال والمريخ ، وخاصة عندما يكون « سنترفرود » الهلال هو عبد الخير صالح ، بينما يكون الاستاذ يوسف زمراوى على درجة طيبة من الهدوء والتماسك . فقد زعموا أن الكرة إذا وصلت إلى قدمى عبد الخير وهو على بعد مناسب للتهديف فى مرمى المريخ فان الاستاذ عبد القادر شريف يصاب بما يشبه حالة الذعر ولا يطيق رؤية نهاية مطاف الكرة لأنه يوقن أن شباك المريخ ستهتزباصابة مدوية . ولذلك فهو يخفى وجهه بين يديه لا يود أن تبصر عيناه ما أيقن أنه سيحدث لا محالة ، وانما يسأل جاره فى اسى بالغ : « اسمع يافلان ...الزول داشات ولا لسع ماشات ؟ ويظل يكرر هذا السؤال فى لوعة لا تخلو من أمل فى أن « يكضب الله الشينة » ، وحتى يصل الأمر إلى نهايته المحتومة وهى غالباً ما تكون اصابة مجلجلة . وذلك أن عبد الخير اذا استلم الكرة فى خط « تمنطاشر » فقل على قون المريخ السلام . ونحن قد شهدنا هذا اللاعب الفذ فى أواخر مجده الكروى بالسودان وسمعنا بأمجاده الكروية فى مصر من بعد ذلك حتى تقاعد . واذا كنا نسمع من بعض القنادف الملمين ببواطن الامور – ولكننا لا نرى رؤية عين – أن حمدتو مكتوب على رجله اليسرى « خطر » وكذلك طلعت فريد ، فان صدر عبد الخير اذ يتلقى الكرة أشد خطراً من جميع الأرجل والأقدام الأخرى . واذا انحدرت الكرة من صدره إلى أىّ من قدميه فاعلم أن شباك المرمى توشك أن تهتز باصابة لن يملك الحارس لها دفعاً ولا عدلاً ولا صرفاً وان كان معتصماً بسد ذى القرنين ! وما سؤال الاستاذ عبد القادر شريف « الزول داشات ولا لسع » إلا تحصيل حاصل ، لأنه اذا استلم الكرة فلسوف « يشوت » ، وربما راوغ قبل أن يفعل ذلك . واذا شات فالنتيجة معروفة لأن سهام عبد الخير لا تطيش أبداً وان كان

بعيداً عما يسمى بمنطقة الخطورة بالنسبة للمرمى . ورغم أن البون شاسع بين سهم وسهم وبين اصابة واصابه وبين الكرة والصبابة وبين المرمى والفؤاد إلا أن دقة التصويب وبراعة الاستلاب قد تذكر رغم المفارقات بقول الشريف يعتب متشبباً فى رقة وظرف :

سهم أصاب وراميه بذى سلم ** من بالعراق ... لقد أبعدت مرماك

هذا بعض مارواه لنا الخبراء المطلعون على الأسرار وبواطن الامور ، وهو يعنى أن كلاً من الاستاذين الناظرين مريخابى لا تفوته مبارة بين الهلال والمريخ أبداً . والفرق أن احدهما يرى كل شئ والاخر لا يطيق ان يرى كل شئ لأنه حسب منظور هذه الرواية لم يشاهد بعينيه أبداً كيف يسجل عبد الخير أهداف الفوز فى مرمى المريخ . فاذا صح هذا - والعهدة على الرواة - فانه من عجائب فنون الانتماء الكروى « العقائدى » وتباين درجات الثبات العاطفى ، وهو ينبئ عن سماحة أحاسيس أحد الاستاذين الناظرين وعن رقة مشاعر الناظر الاخر وشفافية روحه على هذا الصعيد ، ولكم فى دنيا الكرة من أعاجيب !

وهؤلاء نذكرهم بعرفان ومحبة :

كما أن هناك نفراً كريماً من اساتذتنا فى ام درمان الاميرية نذكر منهم الاساتذة احمد اسماعيل النضيف وتوفيق احمد سليمان وعوض طلحة وابراهيم الياس وعبد الوهاب الشيخ وخليفة خوجلى ومحمد عبد الماجد وحسن رابح وحسن محمد الامين ومحجوب على والشيخ الخاتم ومدنى ومالك محمد مالك ومحمود على الياس وعمر مصطفى واخرين ربما ورد أو سيرد ذكر طرف من أنباء بعضهم على هذه الصفحات . فالاستاذ النضيف من شباب الأساتذة الذين لاحت لنا من قسمات وجوههم المضيئة ومن بعض اشاراتهم العابرة بوادر المعانى الدالة على صدق الاحساس الوطنى والتطلع المشروع إلى تحقيق امانى التحرر واسترداد السيادة القومية . وكذلك الاستاذ ابراهيم الياس والاستاذ خليفة خوجلى الذين صدق حدس التلامذة الصغار بشأنهما اذا أنهما

صارا نجمين فيما تلا تلك الايام من عهود ، كل فى مجال يناسب ثقافته وقدراته ومواهبه ، لصيق الصلة بقضايا الوطن وهمومه الكبرى . وكان الاستاذ محمد عبد الماجد احمد – وهو استاذ شديد العناية بمظهره وملبسه – مثالاً حياً للمعلم الذى يتجاوز عن هفوات تلامذته وهرجهم ويشيح باذنيه عن فضول الكلام فيتقاضى ما يستحقه من إكبار وتوقير . فهو إذْ يجلس على كرسيه عند منضدة الاستاذ انما يلقى درسه فى هدوء تام ، ولا يعير انتباهاً لما تحدثه شيطنة العفاريت من التلاميذ . وعلى الرغم من بياض لون بشرته الملفت للنظر فان هدوءه الوافى وتسامحه الأصيل قد شفعا له عند غلاة المصنفين وعلماء الأجناس من تلامذته فسلم من أن تشتغل به مجالسهم إلا فيما هو خير وطيب أحدوثة . وهى عادة مجالس لا تغادر شأناً من شؤون الاساتذة – بما فى ذلك قبائلهم وأعراقهم وأصولهم – الا وهو بعض مادة حديثها ومداولاتها . فهم الذين فرقوا بين الاستاذ مدنى وشقيقه الاستاذ مالك ، فوصفوا الأول بالشعبية والبساطة وأثنوا على تواضعه ، بينما نعتوا الثانى – وهو شاب وسيم دقيق الجرم صغير حجم البنية الجسدية – بأنه غامض بعض الشئ .. وما كان ذلك إلا لأنه يصر على ارتداء البدلة الكاملة فى كل أحيانه ، ويجنح إلى الصمت فلا يكثر من الكلام . وهم قد أبدوا عطفاً نحو الاستاذ عوض طلحة لا أعلم حقيقة السر من ورائه ولكنى أرجح بناء على بعض فتاوى تطوع بها عبد الرحيم قلى – أن هرجلة التلاميذ كانت تبلغ ذروتها فى حصته فلا يبدى لهم صفحة سوء . وبدل أن يصفوه بالطيبة فانى رأيتهم يصفونه بالمسكنة وهى من نوع المسكنة التى قد تستدر العطف . ثم هو بعد ذلك لم يتميز فى نظرهم مثل شباب الاساتذة بلون عقائدى خاص ، سواء كان ذلك اللون كروياً أو غير ذلك . وهذا عندهم أيضاً من علامات المسكنة . ولكنه كان – على كل حال – استاذاً فى المدرسة وكان بمقدوره أن يريهم « العين الحمرة » ان هو أراد . ولكنه قليلاً ما كان يفعل ذلك ، حتى غلب عليه التغافل عن فورات نزقهم العبثى الدائب .

ولقد الف التلاميذ نمطاً من الشدة والتشديد فى كل من الاستاذ عبد الوهاب الشيخ

والاستاذ محجوب على والاستاذ فرح محمد فرح والاستاذ ثابت أحمد ثابت حتى أطلقوا على الاخير لقب « الرجل الحديدى » ليجمعوا فى تعبير واحد بين نعته بالشدة والتذكير بأنه مفتول السواعد قوى البنية الجسدية كأنه طرزان بذاته وصفاته ولكن شدة هؤلاء الاساتذة لم تكن من النوع الذى يقطع الأنفاس ويزهق الأرواح وانما كانت شدة سائغة بفضل المرونة التى تخالطها ، فهى غير بالغة بهم متون الغلو والشطط ، وان كانت مستقيمة بهم على الجادة دوماً لا تطمعهم أبداً فى التراخى الذى قد يورث الفساد ويفضى الى الاستهانة بامور الدرس والتحصيل . ومن الطرائف الدالة على هذه المرونة أن أحد هؤلاء الاساتذة كان مولعاً بعقد امتحانات الاختبار التحريرية لتلامذته بين الفينة والأخرى ، وهو نمط تعليمى تربوى أثبتت الأيام جدواه وصحته وصار فى هذه الأزمنة الحالية من مستحدثات التطور والتقدم فى هذا الحقل وأصبح تقليداً راكزاً ومتبعاً فى بعض الجامعات التى تطلق عليه عبارة « التقييم المستمر » Continuous (assessment) . وكان هذا الاستاذ الذى سبق عصره يرمى من وراء عقد هذه الاختبارات المتتابعة الى إعلاء قيم الاحساس بالمسئولية حتى لا يغفل تلامذته عن فضيلة استذكار دروسهم لحظة واحدة . وفى ذات صباح طلع علينا باختبار فى علم الجغرافيا كان قد حدد موعده قبل ذلك بيومين . وكان أحد التلاميذ يعتبر نفسه « مجلياً » أو « مسطحاً » فى هذه المادة ويرهب اختباراتها ويخشاها ، على الرغم من أنه كان من تلاميذ المقدمة بين اولاد الفصل . ولما شكا سوء إلمامه بعلم الجغرافيا لأحد العفاريت أشار عليه هذا « المسلط » بأن يحمل معه « بخرة » إلى داخل الفصل وشرح له معنى « البخرة » عموماً وأكد له أنها اجراء مشروع وأوهمه بالأتثريب عليه ان فعل . فأخذ هذا الغر المسكين ورقة كبيرة كتب عليها بعض المعلومات ثم وضعها أمامه على ظهر درجه غداة الامتحان « على عينك ياتاجر » ! ولما سأله الاستاذ عن تلك الورقة أجاب فى سذاجة بالغة وبراءة لا يتطرق إلى حقيقتها الشك : « دى بخرة يافندى » ! ويمكنك أن تتصور مدى دهشة الاستاذ وعجبه مما سمع ، ومدى الحرج الذى حشر فيه

هذا التلميذ نفسه لما تبين له فداحة ما ارتكب من جرم . ولكن مرونة الاستاذ واتته فى وقت مناسب . فهو قد اكتشف « البخرة » قبل أن يكتب أسئلة الاختبار على السبورة . فأخذ الورقة ومزقها وأعلم التلميذ بأن ما أتي به يعتبر سرقة فى وضح النهار . ولكنه رأى أن التلميذ لم يخف « بخرته » وانما طرحها أمامه فى سذاجة وبراءة وحسن نية ، فدل بذلك على أنه يجهل ما ينطوى عليه تصرفه من معنى . ولذلك أمسك الاستاذ عن المضى بالأمر إلى اكثر مما يحتمل ، وان كان قد عنفه على فعلته أشد تعنيف ثم تركه نهباً للحسرة والندامة والأسى دون أن يضاعف من معاناته النفسية بأى عقاب بدنى أو بأى جزاء معنوى آخر . ولقد كاد أن ينشب عراك مشهود بين هذا التلميذ وناصحه الذى أغواه وأوحى له باحتقاب « البخرة » لولا أن تداركهما تدخل الصقور الحاسم فى الفسحة فباعدوا بينهما ثم جدوا فى السعى حتى أصلحوا ذات بينهما فى أيام معدودات . وكانت كلمة « البخرة » بهذا المفهوم شيئاً جديداً لم نقف عليه من قبل ، رغم علمنا التام بأن « البخرة » التى يعرفها الناس انما هى واحدة من طرائق الرقى التى تمارس على نطاق واسع لدرء شر العين وابطال السحرواستجلاب العافية والشفاء من المرض باستنفار آيات الله البينات . أما استعمالها بهذا المعنى الذى تقدم فلم يدر بخلد أحد سوى ذلك العفريت الغاوى الذى أكد لنا هو الآخر أنه لم يكن يرى فيه ما يخل بالأمانة والصدق ، ولم نسمع به بعد ذلك إلا فيما كان يروى على أسماعنا من أقاصيص وحكايات تبتدع ابتداعاً لتضفى على مسلك بعض الطلاب ما يجعل شيطنتهم ودهاءهم مضرب الأمثال ، فتثرى وتتنوع بذلك مادة «الونسة» ، ويتناقل الناس سير أصحاب هذه الأفاعيل المنحولة المختلقة وهم بين معجب ضاحك مسرور وساخر مشمئز مستنكر ومتعجب متحير يتحفظ فى حكمه وان كان يصدق كل الذى يقال ويروى فلا يرتاب فى صحة حدوثه .

ومن الاساتذة الذين يذكرهم تلامذة تلك الحقب بوضوح الاستاذ حسن محمد الأمين والاستاذ توفيق احمد سليمان والاستاذ محمود على الياس . أما الاستاذ حسن محمد

الامين فقد كان مثل باستير رهين محبس معمله فى اكثر أحيانه . فهو استاذ العلوم الذى تلقينا على يديه مبادىء التعرف على أسرار الكون التى رفع الله عنها الحجب ويسر لعباده شيئاً من التفقه فيها . وهو استاذ أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، ليس بالشديد الصرعة ولا هو باللين الضاوى . فيه حزم وسمت آمر وعلى وجهه طلاقة ووداعة صامتة . يرتدى جاكتة تغاير فى لونها لون البنطلون ولكنها تشكل معه وحدة الانسجام فى التنوع . لبق حلو الحديث إلا حينما نجتمع عليه فى المعمل فانه حينذاك يتعامل معنا بلغة العلوم الصرفة حيث لا متسع لحلاوة الحديث بين مفردات تدور حول أرجل بعض الحشرات واجنحتها ، وتعقد - أو تفض - الزيجات المشروعة بين ذكور الغازات واناثها ، وتفتت الشئ الواحد إلى شظايا متفرقات ثم تعيده - إن شاء الله و شاءت - إلى وحدة متماسكة الأجزاء من جديد . واذا خلا إلى نفسه فى معمله أو مكتبه رأيته صامتاً مطرقاً متأملاً يحدّق فى الافق البعيد وكأنه يناجى سراديب المدى ويجتلى أسرار الغيوب ، فاذا دنوت منه وهو مستغرق يطوف مغارات ذلك العالم الاثيرى النائى فانه لا يكاد يشعر بك حتى تحدث همهمة أو جلبة يستفيق على أثرها فيطالعك بوجه ترتسم عليه ابتسامة شاحبة توشك آن تنضو عنه ظلال الحيرة وتجلو عنه غيوم التفكر والتنقل بين أقبية المجهول . كان كل شئ من حوله يوحى اليك بأنه غواص فى بحار المعرفة يتصيد أصداف العلوم . ولو أنه عاش فى عصر توفرت فيه الأسباب لسطع نجمه فى سماء العلوم . ولقد أوتى الاستاذ حسن لطفاً فى الخلائق والروح اجتذب اليه الناس ومهارة فى استلهام الاجابات المقنعة على اسئلة السائلين ، ودقة فى انتقاء أجزل وأرق العبارات يدفع بها فى وجه محدثه فتستبيه . تلك صفات ومواهب شكلت فى نظرى - بواكير معارفه ومؤهلاته الدبلوماسية التى هيأته فيما بعد للاضطلاع بتمثيل السودان سفيراً له فى شتى عواصم الدنيا فكان مفخرة من مفاخر جيله وبلاده على السواء .

وأما الاستاذ توفيق احمد سليمان فقد كان ديدنه الهدوء التام والنظام والانضباط

الذى فاق كل وصف وأربى على كل تصور . وهو لم يكن يدرس اولاد فصلنا فى ام درمان الاميرية ولكنه كان من الشهرة وعلو القدر بمكان فى نفوس التلاميذ بحيث لا يتصور أن يجهله أحد . ولكنه على الرغم من وفائه لرسالته وتمسكه الصارم بقواعد النظام وتصريفه لمهامه التعليمية والتربوية بكفاءة شهد له بها الناس قد كان شديد العطف على تلامذته يأخذهم باللين ويروض عفاريتهم بالملاطفة . ورغم أننا لم نقف على حقيقة انتمائه الكروى ولا انتماء الاستاذ حسن الكروى إلا أن ذلك لم يقلل من اهميتهما فى نظرنا . وقد طرحت علينا فى هذا الشأن نظريات عديدة ولكنها لم تجل هذا الأمر جلاء كافياً . واستخدم عبد الكريم نظريته الخالدة ليبرهن لنا أن الاستاذ حسن هلالابى واستند فى ذلك - فيما استند - على أن هذا الاستاذ من حى سوق الشجرة وهو توأم حى بيت المال . ولجهله بأعراق الاستاذ توفيق وحيه السكنى ، ولعدم توفر المعطيات التى يمكن أن تصلح لتطبيق نظريته فقد أعلن عبد الكريم عجزه عن تحديدمذهبه الكروى بالدقة المطلوبة . واذا عجز عبد الكريم عن الاتيان بالحق اليقين فى مثل هذه الامور فغيره أعجز وأجهل . ومن عجب أن الاستاذ توفيق الذى لم نشهده يعاقب تلميذاً فى ام درمان الاميرية كان هو عين الاستاذ الذى هدد كاتب هذه السطور بالجلد عقاباً له فيما بعد . وكان ذلك فى أوائل عهدنا بمدرسة خور طقت حين كان الاستاذ توفيق مراقب داخليتنا « ود تكتوك » . فبينما كنا نلعب الكرة فى « برندة » الداخلية اذا بها تنطلقُ من قدمى قوية لتهشم المصباح الكهربائى الذى كان مثبتاً بالحائط قبالتى . وقد أحدث ذلك دوياً وفرقعة خف الينا على أثرها الاستاذ توفيق من غرفته . وعندما تبين له ما حدث من « مخالفة » سأل عن مرتكبها فقدمت له نفسى مقراً بها . ورغم أننا كنا مجموعة من الفتية نلعب الكرة فانى لم أوثر الصمت وانما صدقته القول . فطلب منى أن احضر فى الغداة لمكتبه اتلقى عشر جلدات عقاباً لى على ما اقترفته من جرم . وكانت دهشته بالغة عندما قلت له ان تلميذ المدرسة الثانوية لا يعاقب بالجلد وعجب لقولى اشد العجب . ولكنه بعد حوار طويل ظللت خلاله متمسكاً بهذه القناعة

ضحك ضحكة طويلة لم نشهد مثلها عنده من قبل حتى اهتز رأسه وسائر جسده ثم غلبت عليه سماحته فتركني وشأني. وقد كانت تلك هى بعض تعاليم الحاج تبيدى التى تلقيناها فى أيامنا الأولى بخور طقت ، وهو يزعم أنها تقاليد مرعية وسارية فى كل من حنتوب ووادى سيدنا حيث قضى هو ورفاقه سنتهم الاولى من المرحلة الثانوية . ولو أنى ذكرت للاستاذ توفيق أن من بعض تعاليم الحاج تبيدى « دك الحصص» أيضاً بوصفه أحد حقوق الطالب الثانوى المكتسبة لما نجوت من العقاب ولربما جر ذلك على تبيدى من المتاعب ما هو فى غنى عنه . ولقد ظل الاستاذ توفيق طيلة بقائه معنا يضحك كلما لقينى ويعجب كيف تأتى لاطفال ام درمان الاميرية أن يتحولوا من سلاسة الانقياد إلى المجاهرة بالعصيان خلال هذه الفترة الوجيزة . ولو قدر له أن يلم بأطراف من التعاليم التبيدية التى انتظمت ذلك المجتمع الجديد فى سرعة ونفاذ لزال منه العجب ، ولأدرك أن الانتقال من حال الى حال هو غير الانتقال من موطن الى موطن .

أما الاستاذ محمود على الياس فقد كان أحد عشاق علم الرياضيات الذى يقوم بتدريسه ، وان لم يبلغ به هذا العشق مرتبة الهيام التى كان عليها الاستاذ غزالى السراج . فاذا كان الاستاذ غزالى يطلق لعاطفته العنان حتى تكاد أنفاسه أن تنقطع وهو يلح علينا في أن الأصفار على شمال الواحد لا تساوى شيئاً وان زادت على المائة ، فان الاستاذ محمود كان اكثر هدوءاً فى شروحه لا يسلم نفسه للانفعال أبداً وإن انس فى تلامذته جهلاً بجدول الضرب . وهو - بخلاف الاستاذ غزالى - لايؤاخذك على نسيان المقابل والمجاور وظل الزاوية فى غمرة حزنك على وفاة والدك المفاجئة بل هو من المرونة بحيث يسمح لك أن تبكى عزيزك الذى فارق الحياة دون مقدمات وأن تلطم خديك أسى وحزناً عليه ولكن يتوجب عليك - بعد أن تقضى من البكاء « وطراً » - ان تذكر فى سريرتك بوضوح أن المقابل على المجاور يساوى ظل الزواية لأن هذه المعادلة فى نظر أهل العشق الحسابى الرياضى حقيقة ثابته مثل الموت تماماً لا تتبدل ولا تتغير طوال العهود والدهور . ومن الخيرلك أن تدرك ذلك وتتمثله فى جميع أحوالك فانك ان لم تفعل ذلك فلابد أن تختضب ورقة امتحانك بما يشبه دم الديك المذبوح

وعندها تكون بين شقى الرحى اللذين هما عم مبارك وولى امرك ، ولن ينجيك من طحن هذه « المرحاكة » أنك ولد شاطر نبابه الحظ أو غلب عليه الحزن فأنساه ما ليس من حقه أ ن ينساه . فالاستاذ محمود على الياس لايغلو فى شئ ولكنه لايساوم فى «الثوابت» ولايقبل التهاون بالمرتكزات الاساسية . وهو الذى أتاح لنا بشروحه الدقيقة وامثلته السهلة الواضحة أن نقف على اساسيات مادة علم الرياضيات بما يشبه اليقين ويشارف الاقتناع . وكانت الأمثلة التى يضربها والمقارنات التى يعقدها لتقريب ألغاز هذه المادة المستعصية على الفهوم من أذهان تلامذته هى التى حببت فيه عبد الكريم ورفاقه ، وهى التى استقى منها عبد الكريم نظريته وصار يحاول تطبيقها فى كل شأن من الشؤون ، وهى عين النظرية القائلة بأن نفى النفى اثبات ، وأساسها فى لغة المعادلات الحسابية هو أن « ناقص ناقص تساوى زائداً » . وقد كان الاستاذ محمود على الياس يجد بعض الصعوبة فى اقناع أقوام بأنها قاعدة صحيحة ، ولذلك فقد استعان لتقريبها من فهومهم بمثاله الذى كان يردده على الدوام وهو أن « عدو عدوك صديقك » وقد أعجب عبد الكريم ورفقته بهذا المثال كل الاعجاب لأنه مثال واقعى فى نظرهم وله من الدلائل الواسعة الانتشار فى ذلك الوسط المدرسى الصاخب ما يؤكد على صحته ويبرهن برهاناً ساطعاً على سلامته . وكان الاستاذ محمود نفسه ينفعل بهذا المثال اذ يردده على مسامعنا دون أن يمل ، يشير الينا باصبعه الأوسط من أصابع يده وهو اصبع يظل ممدوداً على الدوام حتى حينما يجمع الاستاذ بقية اصابعه على كفه ، وهذا من الغرائب التى كانت تثير اهتمام التلاميذ وتدعو انتباههم لما يقول . ولم يدر بخلد أحد منهم أن تلك الاستقامة « الاصبعية » ربما كانت نتيجة علة قديمة في المفصل أو وتر العضل الذى يتصل بالعظام ولكنها كانت فى نظرهم أحد ضروب السحر التى امتازت بها شروح استاذهم ويبرع هو فى الاستحواذ بها على انتباههم ومتابعتهم الدقيقة لكل مايسوق اليهم من شرح وتبيين . و هو عندما يردد هذا المثال مشيراً بهذه الاصبع السحرية فانه يتحدث وقد أمال فمه إلى جهة اليسار إمالة ظاهرة لا تخطئها

عين لأنهاجاذبة للانتباه أيضاً ، ولكنه ما أن يفرغ من تثبيت الامثله التى يريد فى أذهان التلاميذ حتى يعود فمه إلى اعتداله الطبيعى ويكتسى وجهه بقسامته المعهودة وتسطع مشرقة منه تلك البسمة الراضية التى تنبئ عن ثقة مطمئنة بالنفس واحتفال ظاهر بالمقدرات الذاتية وسعادة غامرة بأنه قد بلغ ما انيط به من رسالة إلى تلامذته الصغار وأنهم قد تلقوا هذه الرسالة بأذهان مفتوحة وادركوا معانيها خير ادراك . ذلك هو الاستاذ محمود على الياس الذى أشقى نفسه ليسعدنا . وقد بلغنا من بعد أنه ارتقى إلى وظيفة كبرى فى مشروع الجزيرة . ولو علمنا حينها – ونحن نحمل له عظيم الاجلال والتقدير والعرفان – لتصرفنا فى أبيات شوقى وأنشدناه :

ياعــــزيزاً لنا « نجلٌ » علمنا .·. أنه بالرضا « الحكومىِّ» فائـز

سرّنــــا أنك ارتقيت وترقــى .·. فكـــأنما نحوز ما أنت حـائز

رتبة ألسُـــنُ العـــلا أرَّختها .·. أنت محمود فى العلا المتمايز

اما الشيخ الخاتم فقد كان أستاذاً ذا شأن مرموق بين الناس . فهو شيخ ربما كان فى منتصف الخمسينات من عمره آنذاك طويل القامة ممتلئ الجسم امتلاءً معتدلاً يناسب ارتفاع قامته فيكسوه هيبة وجلال هيئة وحسن منظر . يرتدى ملابس الشيوخ التقليدية التى تشتمل على القفطان والفرجية وغطاء الرأس الذى يتكون من العمامة البيضاء الزاهية والقلنسوة الطربوشية الحمراء . ولكنه يمتاز بذوق رفيع فى تخير الوان ملبسه ونوعيتها . فهى فاخرة على الدوام متناسقة الأطياف فاقعة الوانها تسر الناظرين . بعضها من الحرير الخالص دون ريب ، وبعضها مما يقارب الحرير نعومة ويريو عليه بهاء منظر . فاذا رأيت الشيخ يخطر في هذه الثياب البهية أيقنت أنك أمام رجل ذى شأن خطير . وهو رجل بسام مضئ الوجه وضاح المحياضاحك العينين كحيلهما موفور الوقار . فى عينيه ذكاء وقاد لا ينفك يشع بالمكر والدهاء ويومض بالزهو والرضا عن النفس وبما يشبه الصلف والكبرياء . وعلى الرغم من أن الشيخ الخاتم لم يكن متكبراً ولا متعالياً على الناس بل كان متواضعاً سمح الروح فانك لن

تخطئ أن تحس وتبصر – وأنت تنظر اليه – هذه الرفعة التى تجذبك اليه وتباعد بينك وبينه فى ذات الوقت ، وذلك أنه استاذ حسن الصورة وسيم الخلقة رفيع الذوق فى انتقاء أبهى الحلل وأعز الثياب ثم هو بعد ذلك مهيب الطلعة قشيب السمت بعيد ما بينه وبين بساطة أواسط الناس . أن شئت نسبته الى الارستقراطية ونعته بها دون ان تتجاوز الحقيقة لأن مجمل هيأته ومرآه ناطق بها ولكنها ليست من الكبر والأشر والبطر والتعالى فى شئ لأنه شيخ متضع ودود ، وان شئت نسبته إلى البساطة المترفة المحسوبة ، ولكنها ليست من التصنع والتعمل والاختلاق فى شئ لأنها شيمة من شيمه وخلق صادق ملازم له من أصل جبلته وخلائقه . فهي مثل بساطة « ابن العز » الذى تربى فى النعيم ورزقه الله سمو الروح ورفعة الذوق ورقة المشاعر .

ولقد علمنا فيما بعد أ ن الشيخ الخاتم كان وثيق الصلة بالاستاذ مبارك زروق وهو أمر هام فى حد ذاته لأنه يلقى بعض الضوء على ما يمكن أن يكون عليه النسق الفكرى واللون السياسى للشيخ الاستاذ . فالتطابق بينهما يتعدى مجرد الكلف والعناية بحسن المظهر إلى التماثل العقائدى والتوافق الفكرى والالتقاء الوجدانى حول أمان وطنية مشتركة . ورغم أن الشيخ لم يكن يعبر عن آرائه السياسية امامنا بدرجة كافية من الوضوح إلا أنه ربما لم يكن غائباًعلي من كان منا يعى بعض تلك الامور على الاقل أنه غارق فى لجج العمل السياسى وان كان ذلك من وراء حجاب . وما كان بمقدورنا أن نجزم بهذا أو بغيره إلا أن نظن ظناً وما نحن بمستيقنين . فالشيخ لم يقم بالتدريس فى فصلنا إلا حصتين أو ثلاث لم تكن كافية لايقافنا على ما كان يمور فى نفسه ويختلج فى ذهنه من قضايا واراء ومشاعر وامنيات . وما كان يبلغنا عنه من اولاد الفصول الأخرى التى يتولى أمر تدريسها بانتظام لم يتعد الحديث حول أناقة الشيخ وقسامته ووسامته ولو افت دالة على ولعه بالشعر وطول باعه فى حلبة الادب العربى ، ولقد ظهر لنا من اللحظات القليلة التى ألمَّ خلالها بفصلنا أنه استاذ متمكن من مادته أحسن تمكن وأنه شيخ خفيف الظل عذب الروح طلىّ الدعابة . وانى لأذكر بوضوح

كيف كان يردد مراراً هذا البيت من الشعر ·

تقول العاذلات علاك شيب أهذا الشيب يمنعني مراحى ؟

فاذا قرأ هذا البيت أتم عجزه وهو يمسك بطرف لحيته البيضاء القصيرة الحليقة ويبسم فى ارتياح ظاهر والمكر فى عينيه وادع مقيم .

وأما الاستاذ عمر مصطفى والاستاذ حسن رابح فقد كانا أيضاً من شباب الاساتذة . فالاستاذ عمر مصطفى يدرسنا علم التاريخ وكانت كثيراً ما تنشب بيننا وبينه المنازعات أو ان شئت قلت المغالطات.وانى لا ذكر كيف كنت اختلف معه حول رؤيته لبعض أحداث الثورة المهدية وتعليله وتفسيره لبعض الوقائع التى رويت واختلق كثير منها اختلاقاً خلال فترة ولاية خليفة المهدى . وكان عبد الرحمن كنتباى ايضاً ينازعه فى كثير من مثل هذه الامور . ولكن الاستاذ عمر كان ينظر إلى أحداث ذلك التاريخ بمنظار يومه الذى هو فيه ، أو هكذا خيل إلىَّ . وأحسب أنه لو علم أو تذكر لأنشدنى بيت الطائى الذى يقول

فقد بث عبدالله خـــوفَ انتقامه .·. على الليل حتى مـــا تدبُّ عقاربه

ولو علمت حينها لأنشدته قول القائل :

ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم .·. وللسيف حد حين يسطـــو وونق •

ثم لأردفت من بعد ذلك ·

وعلى عدوك يا ابن عـــم محمد .·. رصدَان : ضوء الصبح والاظلامُ

فـــاذا تنبه رعـــته واذا غـــفا .·. سلًّـــت عليه سيوفك الأحــــلام

ولكن الاستاذ عمر كان رجلاً متسامحاً وذكياً ، ما أن تكاثرت عليه اسئلتى واستفسارات غيرى حتى أوضح لنا فى روح اقرب للحياد أن بعض أحداث التاريخ قد تروى بطرق شتى وأن تفسير الحدث التاريخى الواحد قد تتباين صوره وتختلف دقة رصده من مصدر إلى مصدر ، فنجا بفطنة ولباقة من شر منازعاتنا التى كادت أن تعرقل عليه مسيرته بنا فى دروب تاريخ الوطن . واذا كان الاستاذ عمر معروفاً بين

اولاد فصلنا لهذا القرب فان الاستاذ حسن رابح لم يكن قربه منا قرب تدريس ، فهو لم يكن من اساتذة فصلنا . ولكن رغم ذلك كان من اقرب الاساتذة إلي التلاميذ عموماً . وذلك لأنه كان من اعلام نادى الهلال ، ولأن أخاه الأكبر عبد الله رابح كان سكرتيراً لنادى الهلال . وكنا نراه كثيراً مع عم عوض سالم . فاذا كان بعض تلامذته الذين يتلقون عليه دروساً يحبونه ويكبرونه فان غيرهم كانوا يجلونه أيضاً وذلك لمواهبه الرياضية الكروية ولهذا الموقع الخطير الذى كان يحتله من النفوس وذلك أنه نجم من نجوم نادى الهلال . فمثل هذا الانتماء الايجابى الفاعل يعطيك شعبية واسعة النطاق وسط التلاميذ ان أنت اشتهرت به ويجعلك فى نظرهم من الخطورة بمكان .

فهذه بعض صور قلمية سريعة عن نفر من اساتذتنا الكرام فى ام درمان الاميرية . فان هى لم تستوف الحقوق كاملة لمن شملتهم بالذكر فليوطئ لى العذر عند قارئ هذه الصفحات أنى - كما ذكرت من قبل - انما اسجل طوائف انطباعات . وقد يكون عند غيرى عن من أقترت فى ذكرهم ماليس عندى ، وانى لآمل - ان صح ذلك - أن نقف على خبره فى يوم من الايام . غير انى سأتناول فى شئ من الاسهاب بعض اساتذة بعينهم وذلك لأن ما وقر عنهم فى غضون ذاكرتى يلح علىّ أن آتى به كما هو مصور مطبوع . فان وفقت فى ذلك فهذا من فضل ربى ، وان نبت بى مقدراتى أو خانتنى الذاكرة فانى استغفر ربى على كل ما اردت به الخير والحقيقة وجاء بغير ذلك .

الضابط الذى علمنا الشعر :

كان الاستاذ عز الدين الحافظ من الاساتذة المرموقين فى المدرسة ، الذين يخشاهم التلاميذ كثيراً ولايودون الاقتراب منهم . وهو يرتدى فى كثير من احيانه البنطلون والقميص ولكنه كثيراً ما كان يرتدى البدلة الكاملة أيضاً الامر الذى ربما كان عاملاً فى ابتعاد التلا ميذ عنه وفرارهم من وجهه . وذلك أن مظهر « الفل سوت » كان يوحى بمعانى السلطة والسطوة والقهر ، وهى أمور ينفر منها الصغار لائذين منها بمعاقل البساطة التى يألفونها ويجدون عندها الطمأنينة . وقد زاد من هذا الاحساس فى

نفوسهم أن الاستاذ عز الدين كان صارماً جاداً فى كل شأنه ابان اليوم الدراسى وعلى امتداده قلَّ أن تلقاه ضاحكاً أو مازحاً ، أو آذناً فى تعابير وجهه بما يمكن أن يفهم منه أنه طلائع ضحك أو مزاح . ولعل السبب فى ذلك أنه كان ضابط المدرسة وهى درجة فيما كنا نعتقد تقارب درجة ناظر المدرسة وتفرض على شاغلها أن « يتزيا » بالحزم والصرامة ، لأن ادارة المدرسة عموماً تتطلب التحلى بهذه الصفات التى يرتدع من خشيتها العابثون من التلامذة الصغار ويسود النظام وتتوفر أسباب الانضباط . ولقد كان التلاميذ - مع اقبالهم على دروسهم واهتمامهم بما يتلقون من فنون المعارف من اساتذتهم - ميالين إلى العبث البرئ ، مولعين باتخاذ الاسباب التى تفضى اليه ، برمين ضائقين بأى نوع من الرقابة أو المتابعة يصادر بعضاً من حرياتهم الاساسية المشروعة فى « الفنجطة » « والبردبة » والصخب والضجيج خلال « الفسحة » الكبيرة التى تصبح السلطة المطلقة الوحيدة التى يعترف بها التلاميذ ويوقرونها فيها هى سلطة عم محمدين بائع الفول والطعمية والعيش المدور دون سواه . ولما كان الاستاذ عز الدين الحافظ - ربما بوصفه ضابط المدرسة وربما لأن كلمة « ضابط » وثيقة الصلة لفظاً ومعنى بكلمة انضباط - يخرج أحياناً من مكتبه ليحد من غلواء ضجيجهم وصراخهم المتصاعد ، فيأمرهم بالحزم كله أن يكفوا عن « الدوشة » والهرج - لما كان ذلك كذلك فانهم كانوا ينفرون منه فى أول أمرهم ويعتبرونه حرباً على حرياتهم التى تكفلها قوانين المدرسة نفسها . فهى التى أطلقت على هذه الفترة التى يقضونها خارج الفصول بعد الحصتين الأوليين اسم « الفسحة » ، وهى كلمة تعنى - إن أنت تمعنت في جذورها وجميع مشتقاتها - أنها فترة للراحة من عناء الدرس ، ومنطقة زمنية حرة لكى يتفسح فيها الانسان « على كيفه » . فما بال هذا الاستاذ يطالبهم بالكف عن الضجيج والهرج «والدوشة» ؟ أليست هذه « الدوشة » حقاً من حقوقهم المشروعة فى مثل هذه الأحايين ؟ ألم « يتبكموا » ويخلدوا إلى الصمت والاطراق والانتباه طوال ما يقارب الساعتين منذ الصباح الباكر مهطعين قبل استاذ الحساب واستاذ اللغة الانجليزية وهما يحاولان أن

ينفثا فى روعهم من غرائب الألغاز ما إن اثقاله لتنوء بالعصبة أولى القوة ؟ اليس من حقهم - بعد هذا الانصات الذى طال أمده وعزَّ فهم ما طرح عليهم خلاله - أن ينعموا بهذا القدر القليل من الحرية والتحلل من قيود الصرامة لكى « يبردبوا » ويركضوا ويتصايحوا كما يشاءون ؟ أليست هى فترة قصيرة ثلثها للهرج والشغب وثلثها للطعام والشراب وثلثها الأخير لمحاكاة المدرسين والتندر على بعض طرائقهم فى الحديث والمشي وترويع الآمنين من التلاميذ بأسئلة تصعب وقد تستحيل الاجابة عليها ؟ فلماذا هذا التدخل الصريح فى خصوصياتهم التى ليست من شأن المدرسة وليست بعض ساعات الدرس ؟ لكل هذه الاسئلة الاستنكارية التى كانت تدور فى رؤوس الصغار فانهم أطلقوا على الاستاذ عز الدين الحافظ لقب « ألفة الألفوات » ولكن محمد العوض كان يسميه «الفة المدرسة» ولم يكن ذلك إلا وليد سخريته اللاذعة . وذلك أن «الفة الالفوات» يمثل في نظره اداة قهر للتلاميذ عموماً من خلال بسط السيطرة والسلطان علي «الفوات» فصولهم . ولكن «ألفة المدرسة» عنده هو الذي يخضع لسطوته الجميع ، اساتذه وتلامذة وعاملين . ولقد شاع هذا المفهوم الذي بثه محمد العوض بين اولاد فصلنا علي وجه الخصوص ، لأن الاستاذ عز الدين لم يكن يقوم بتدريس أية مادة من المواد في فصلنا ، فلم نعرف فيه المدرس وانما عرفنا فيه الضابط - أو « ألفة المدرسة » كما كان يسميه محمد العوض . ومن خلال هذه المعرفة القاصرة بان لنا كعنصر للقهر والردع اكثر منه استاذاً للتدريس ورياضة العقول . ولقد عزز هذا الاعتقاد المجحف فى حقه أنه كان اذا اغرقنا فى الشغب والضجيج فى فسحة الفطور خرج علينا من مكتبه وفى يده اليسرى عصا صغيرة أوسوط يلوح به فى الهواء آمراً إياناً أن «بطلوا الدوشة» دون أن يفوت عليه أن يردد عبارته المألوفة «جاتك البلا» ! فكنا إذا رأيناه على هذه الحالة أمسكنا عن الهرولة والركض وسائر «الشقاوات» وارتدعنا الي حين . وكان هو اذا أطمأن إلى بلوغ رسالته ومعانيها- من تبعات عدم الانصياع لها - الأسماع والفهوم عاد إلى مكتبه ظافراً مطاع الأمر . ولكن سرعان ما تعاود الرحى

طحنها من جديد ويعلو صياح الفتية وتتصاعد ضحكاتهم بمجرد أن يعود إلى مكتبه ويغيب عن أنظارهم . فاذا عاد اشتمل عليهم الهدوء ، واذا غاب ثانية ساد الهرج والمرج من جديد . فلا يحسم الأمر بصورة نهائية حازمة غير قابلة لأى نوع من التراخى أو التهاون إلاجرس عم مبارك الذى يوذن بنهاية الفسحة ويدعو إلى ولوج أبواب الفصول .

ومما ساعد على ارتباط اسم الاستاذ عز الدين بهذا القهر الذى كان يتوهمه فيه التلاميذ أن مكتبه – وهو مكتب الضابط كما يعرفه الجميع – كان قريباً من مكتب الناظر ، بل آن كنبة عم مبارك التى تجسد قمة القهر الحقيقى بذلك السوط « العنج » كانت ملتصقة من الخارج بجدار هذا المكتب دون غيره ، من الناحية الشمالية ؛ ومن « ينبطح » عليها من التلاميذ فى انتظار السياط المكتوبة عليه يدرك تماماً أنه قد احيط به من كل جانب .وماذا يبقى له من « الجوانب » بعد مكتب الناظر الذى هو على مقربة خطوتين ، ومكتب الضابط الذى تحتضن الكنبة جداره الشمالى ، ثم عم مبارك بنفسه فى برد لوبته الكاكى وكراسة « المهرجلين فى الفصل » فى يده اليسرى والسوط فى بمناه ليس بينه بين الهوىً على العقب إلا أن يزيح التلميذ يده اليمنى التى يحاول أن يحتمى بها ويكف عن « الجرسة » التى لا تجدى ولا تستنقذ من نفاذ المكتوب ؟ كل هذه العوامل والمصادفات ولدت فى أذهان التلاميذ شعوراً بالرهبة ازاء الاستاذ عز الدين الحافظ وبالخوف منه والسعى للافلات من جميع المواقف التى يمكن أن تؤدى إلى المواجهة معه أو الاحتكاك به . ولقد زاد من رسوخ هذا الشعور أو الاحساس فى انفسهم أن الاستاذ عز الدين كان ذا كفاءة عالية فى القيام بواجبه كضابط للمدرسة ، ومن عجب أن هذا الأداء المتقن الذى سهَّل على ادارة المدرسة مهمة السيطرة على كافة شؤونها كان هو عين الاسلوب والمسلك الذى اعتبر التلاميذ أن فيه احصاءلانفاسهم عليهم وأن الذين يصطدمون بتياره القوى عن ارادة منهم أو عن غير ارادة انما يعرضون أنفسهم للعقاب . فالذى سرَّ ادارة المدرسة من سيادة للنظام

والانضباط هو الذى رأى فيه التلاميذ انتهاكاً صريحاً لحرياتهم التى يكفلها لهم العرف على أقل تقدير إن هم جهلوا ما يقول به القانون .

بذا قضت الأيام بين أهلها .'. مصائب قوم عند قوم فوائد

غير أن هذه الصورة التى ارتسمت فى أذهان التلاميذ عن الاستاذ عز الدين الحافظ لم تكن تنبئ عن حقيقة جوهره ومكنونات مواهبه وميزاته الكثر. ولقد وقفنا على طرف منها بعد تلك العهود بقليل . وذلك أننا التقينا الاستاذ عز الدين مرة أخرى فى خور طقت وهو لم يكن هذه المرة ضابطاً للمدرسة ، بل ان مسئولياته الجديدة نضت عنه تماماً ما كنا نحسبه ثياب القهر ولبوس الردع والتعدى على حريات التلاميذ . فبان جوهره على حقيقته الناصعة وشفت نفسه عن أصالة رقتها التى خفيت علينا طوال أزمان . ولعلَّ النضوج النسبى الذى أصابه الفتية فى خور طقت بعد سنوات قد جلى عن أبصارهم وبصائرهم غشاوات الطفولة وضباب الحداثة وظلمات الجهل بحقائق طبائع الناس . لقد كان الاستاذ عز الدين الحافظ فى مدرسة خور طقت استاذاً للغة العربية وتلك كانت هى مسئولياته الجديدة . فتحققنا للمرة الاولى أننا أمام شخص آخر غير الذى كنا نرهب طلعته فى ام درمان الأميرية. وتعرفنا - فى الفصول وخارجها - على الاستاذ عز الدين من جديد . فاذا هو استاذ نحيف الجسم فاتح لون البشرة طلق الوجه ، بسام فى غيرما تفريط ، حازم فى غيرما افراط ،. معتدل القامة متوسط الطول ، وقور هادئ المشية لا هى بالهرولة الصريحة ولا هى بالسير المكسال ، ولكنها قوام بين ذلك ، تضفى على سمته اتزاناً موفوراً وسكينة تدعو إلى الاكبار والتوقير . ولقد اكتشفنا - بعد جهل منا دام طويلاً أيام الحداثة الاولى - أن الاستاذ عزالدين الحافظ كنز من كنوز اللغة العربية موقر بيواقيت الأشعار وفصوص الحكم وسبائك البيان ، وأنه صاحب مقدرات هائلة على اجتذاب أحاسيس التلاميذ إلى رياض الأدب وامتا ع النفوس بشذى ازاهيره الزاهية اليوانع . فكانت حصته من أنفس الحصص عندنا ، نحرص على شهودها حرصاً ، ونتدافع الى الصفوف الامامية فيها تدافعاً ، ونأسى

على انقضائها فى ذلك الزمن الوجيز . فقد كان اسلوبه فى الدرس والشرح شيقاً ، وكانت مادته التى يقص علينا من أنبائها ما تيسر غزيرة ومتباينة الأطياف ، وكان تعامله مع تلامذته ينم عن رغبة صادقة فى تزويدهم بالمعارف وروح سمحة فى التغاضى عن هفواتهم وزلاتهم وجنوح بعضهم الى ما يشبه الاستخفاف بما يتلى عليهم ويلقى على مسامعهم من درر الكلم وجواهر المعانى . ولقد ادرك ذلك كثير ممن كانوا يحسبونه ادارياً معنياً بالانضباط العام دون غيره ، إذ كشف لهم فى وضعه الجديد عن هذه القدرات البيانية الهائلة فأحبوه ، واقتربوا منه وتعلقوا به وصار واحداً من أبرز هداتهم فى هذه المجالي الأخاذة الساحرة . وصار حمزة حسين العبادى ومحمد بخيت سلمان الفتيان الشاعران الموهوبان يهرعان إليه كلما استعصت عليهما بحور الشعر وانتاب قوافيها الحران . فيمهد لهما السبيل ويفتح امامهما الآفاق ولايزال بهما مشجعاً ملاطفاً حاثاً مبيناً موضحاً جالياً لهما ما خفى عنهما من أمور فلا يدعهما حتى تموج وتصطخب فى جوانحهما هذه البحور وحتى تنقاد وتأرن وتصطفق فى خاطريهما هذه القوافى . وكنت اصطحبهما فى كثير من الاحايين إليه فى مكتبه فلا يلقانا إلا بالبشر والترحاب والاهتمام . ولما رأيت ذلك منه لم يسعنى إلا أن أتجاسر على الشعر وأتقحّم قلاعه واكتب ما شاءت لى سذاجتى وجهالتى أن اكتب ، فاذا سرت ببضاعتى هذه اليه ، لم يردنى على اعقابى خاسراً ، وانما نقّى منها ما رآه أهلاً للتنقية وباعد بينى وبين الغث منها فى لطف ويسر وحسن منطق يبذر الاستعداد وينميه ويدفع الى مزيد من الاطلاع ومعاودة الكتابة ، ولا يمس كبرياء النفس بسوء . وهو اذا أراد منك أن تستبدل – فيما كتبت – كلمة بأخرى فإنه لا يمليها عليك ولا يتخيرها لك ويلقى بها اليك ، وانما يأخذ بيدك هوناً ويقارعك بحجة الذوق الشعرى السليم حتى تأتى أنت بها سهلة طيّعة هينة تستقر فى مكانها الذى هو مكانها وتؤدى المعنى المراد منها خير أداء يناسب النسق ويوافى الوزن والتفعيلة . فاذا تم له ذلك سعد فى نفسه لأنه بلغ بك المراد ، وهنأك على التوفيق الذى اصبته لأنك أنت صاحبه فى نظره ،

وان كـان هـو من ورائه البـاعث الحـقـيـقى . فـانظر إلى هذا التـواضـع الجم والى هذا الاهتمـام الوافى ، والى هذه الرقة السائلة ، والى هذا النمط الراقى فى تنمية المقدرات الذهنية للتلاميذ دون أدنى تلويح لهم بالمنة أو إشعار لهم بالاخفاق .

كان الاستاذ عز الدين الحافظ شيخـاً لطلاب الشـعر فى خـور طقت ، وهو - دون ريب - غير الاستاذ عز الدين الذى عرفه تلاميذ ام درمـان الامـيرية - أو جـهلوه على أصح وجوه التعبير - فـهو فى طليعة الاساتذة الذين اعطو ا عطاء ثراً غامراً عمرت به نفوس فتية تلك الأزمان ، وبذلوا من الجهد فى السمو بمشاعرهم وقدراتهم البيانية ما تشهد عليه أشعار حمزة حسين فى ديوانه «ميسون والمطر». ألا نضر الله ذكرى تلك الايام الغر المسعدات الخوالد وجزى الله الاستاذ عز الدين ورفاقه الميامين عنا خير الجزاء .

البكرى .. عراف لغة الأعاجم :

من الاساتذة الذين لايمكن ان ينساهم تلامذة نلك الحقب الاسـتـاذ كـمـال البكرى كيلانى ، فـهو استاذ ذائع الصيت بين طلابه وأصدقائه وقد حق له أن يكون كذلك لأنه كان قمراً مضيئاً فى سمـاء تلك الأزمنة وماتلاها من عـهود . وهو من شـبـاب الاسـاتذة الذين توالوا على ام درمـان الاميـرية تضطرم مشـاعـرهـم بآلام الوطن وآمـاله تدفـعـهـم غيرة صـادقة وحـمـاسـة مـخلصـة نحـو إرسـاء قواعد التـعليم الحديث وافـشـاء المعارف الثقـافـيـة بين التلاميذ . وذلك جيل من المعلمين والاساتيذ أحسبه كان متـشـرباً بقيـم الحـرية التى كـانت بلادنا لا تزال تحلم بهـا وبفـضـيلة الانعـتـاق التى كـانت أمنيـة من أمانى اهلنا العذاب . فقد كانت الحركة الوطنية قد شبت فى تلك السنوات عن الطوق وان اخـتلفت بهـا الطرائق وتبـاينت من بين عناصـرهـا السـبل . وبدأنا نحن التـلامـذة الصغار نحس احساسـاً غريباً ومبهماً أن هناك صراعاً يدور وأن هناك مستقبلاً جديداً يتخلّق فى رحم ذلك الزمان الذى أتيناه فى اخره . وعلى الرغم من أن الاسـتـاذ كمال البكرى لم يكن يلقى علينا دروسـاً صـريحـة فى الوطنيـة ، إلا أن بعض حديثـه الذى

يراعى فيه الحذر لأسباب لا تخفى انما كان تذكيراً على قدر طاقة العقول بأن الوطن على ابواب تحول سياسى كبير وأن طلائع النصر تلوح فى الافق القريب . ولعله من الغريب أننا لم نكن على أى قدر من المعرفة الحقيقية بأمور السياسة رغم ما كان يدور حولنا من أحداث وما تضطرب به مدينة ام درمان على وجه الخصوص من تحولات جسام هى التى رسمت وحددت - فى نهاية الأمر - مسار الحركة الوطنية فى البلاد بأسرها . وربما كان ذلك لصغر سن أغلب التلاميذ ، أو لرقابة مفروضة على أمثال هذه المدارس من قبل السلطات التى تهيمن على البلاد ، أو لتهيب الاساتذة الخوض فى مثل هذه الشؤون مع صغار لايحسنون فهمها ولايدركون عمق محتواها . ولكن الاستاذ كمال كان فى بعض أحايينه يشير الى شئ من ذلك دون أن يوغل فيه ، ويومىء إلى بعض أطرافه دون أن يسترسل فى لملمة هذه الأطراف حتى تغدو كيانا بين المعالم . فهو « يرمى الكلام » ضاحكاً مقتضباً فى غير ما اطناب وفى غير ما تتبع لما يحدثه الصدى ، كما « يشتت » طلاب الجامعة المناشير فيما استجد من عهود ، حيثما اتفق وكلما سمحت بذلك الحاسة السادسة التى كثيراً ما تصدق فى انبائها عن اعتدال الطقس الامنى أو احتمالات تكدره واحداق العواصف به . ولقد ادركنا معانى ذلك الكلام الذى كا ن « يرميه » الاستاذ كمال ولكن بأخرة ، وصرنا نعيد قرءاة صحائف الأيام الماضية من جديد وبنظرة لم تكن تطيقها بصائرنا فى تلك الأزمنة ، فأدركنا ما فات علينا من قيمة تلمحياته ولو افته . لقد نعمنا دهراً بقدراته الهائلة على التدريس واثراء كل من اللب والوجدان بكل ما هو طارف وما هو تليد .

أما الطارف فى نظرنا فهو اللغة الانجليزية التى كان تعلمها هو صيحة العصر التى لم تسمعها كل الأذان ، ولم يستجب لها كل من سمعوها . ولما كنا نحن بعضاً ممن ألقي السمع ثم استجاب فقد سحرتنا هذه الرطانة سحراً واجتذبتنا إلى رياضها وبساتينها اجتذاباً ، وكان من حسن طالعنا أن الاستاذ كمال البكرى كان فى طليعة من أناروا لنا سبيل التعرف على خباياها ولطائفها وحلاوة مفرداتها وتعابيرها .

لقد أتى الينا الاستاذ كمال فى ام درمان الاميرية مدرساً للغة الانجليزية . فاذا بنا امام شاب أنيق ممشوق القوام بهى المظهر وضاح المحيا مشرق الأسارير ، أكثر مايطالعنا وهو مهندم بالبدلة الكاملة التى يبدو فيها وسيماً بالغ الوسامة ، وجيهاً مكتمل الوجاهة .فاذا أضفت الى ذلك رباط العنق الذى برع فى تخيره وانتقائه ليتسق اتساقا لا مزيد عليه مع مظهره الكلى" أيقنت أنك أمام فنان من بعض مواهبه الذوق الرفيع . ولقد أدهشت أناقة الاستاذ كمال لفيفاً من اولاد فصلنا ، حتى صار بعضهم يقول إنه فى حقيقة الأمر مصرى ، وقال آخرون إنه تركى وكاد فريق ثالث أن يلحقه بالخواجات صراحة دون مواراة . وكأن بهاء الملبس وحسن السمت وقف على الأجانب دون أولاد البلد . ومما يؤكد هذه الدهشة التى استولت على الصبية أن محمد العوض نفسه – وهو الساخر الذى لا يكاد ينجو من شذاة لسانه أحد – قد انعقد منطقه ، وفرَّت عنه مقدرته العبثية على السخرية من كل شئ ومن كل أحد ، ونبت عنه موهبته المولعة بابتداع الاسماء والالقاب الباعثة على الضحك والتندر ، ولم يسعه إلا أن يقر أمامنا ونحن نستعرض مظاهر الاساتيذ فى فسحة الفطور أن الاستاذ كمال البكرى أكملهم أناقة وادومهم عليها . وعندما احتدم النقاش حول هذا الأمر حسمه محمد العوض – ولاول مرة دون أن يضحك تلك الضحكة التى تعلن أنه يعنى نقيض ما يقول – وذلك بعبارته الجادة الحازمة التى جاء فيها : « ياخى بالله سيبنا من دا وداك ، البدلة ياعند كمال البكرى يابلاش» . ومن عجب أن التجانى الطاهر وفتحى وصفى حاولا ترشيح استاذ آخر لهذه القمة ، وأعجب من ذلك محاولتهما إلحاق الاستاذ كمال بغير الجنسية السودانية ، مؤكدين أن اسم « كيلانى » وهو اسم جد الاستاذ كمال ليس اسماً سودانياً . ولكن محمد العض هزمهما فى جميع ما ذهبا اليه وأخرس جميع الالسن التى أحسَّ بأنها تعارض مقولته الحاسمة وكشف لنا أن الاستاذ كمال من شباب بيت المال وهو الأمر الذى اكده عبد الكريم احمد حميدة وهو يضحك راضياً عن بلاء محمد العوض وعمق معرفته وسلامة ذوقه . وهكذا انعقد لواء الأناقة بين الاساتذة

لاستاذنا كمال البكرى دون سواه فى نظر اولاد فصلنا على أقل تقدير ، ورضى الذين طوفوا به الافاق باعادته للجنسية السودانية وخلعوا عليه حق المواطنة فى حى بيت المال قانعين أو راغمين . وأنا لست أدرى لماذا نسبه البعض الى المصرية أو التركية ، ومما حيرنى وقد عقد لسانى الحياء عن الافصاح عن تلك الحيرة أن بين هؤلاء التجانى وفتحى . وكان الفاضل شريف اكثر شجاعة منى - أوقل اقل حياء - حينما قال لمحمد العوض دون أن يسمعه المعنيون بالأمر : « هو يا اخى فى مصرى ولا تركى اكتر من الاتنين ديل » ؟ ولكن محمداً انتهره وكتم بين فكيه وفي أحشائه ضحكة كادت أن تنفجر مجلجلة فتفسد عليه حججه التى قاربت بينه وبين الانتصار النهائى . غير أنى قد أجد بعض العذر للذين ذهبوا بشجرة نسبة إلى فروع وسوق وجذور خواجية عموماً وانجلو ساكسونية على وجه الدقة والتحديد . وذلك لأنه كان يتحدث رطانة هؤلاء الأقوام « كما جاءت من أهلها » . ومبلغ علمنا أنه لا يلحن فيها ولا يخطئ ولا يختلف نطقه ومخارج حروفه عن نطقهم وفصاحتهم .ولعل من رحمة لغة بنى السكسون على الفهوم والأرواح أنها خلت تماماً من علامات الاعراب الظاهرة والمستترة وبرئت من تشويهات الآثار السلبية لدخول حروف الجر على الاسماء فالبيت مثلا - House - هو البيت سواء جاء مبتدأ معرفاً أو دخل عليه حرف الجر أو حرف التمليك . فهو راكز ثابت الاركان لا يتغير فيه شئ على اثر دخول الحروف إلا أن يصير مجموعة من البيوت مثل سائر الاشياء . ولكنه فى اللغة العربية - كما تعلم وأنت سيد العارفين - ينصب ويرفع ويجر وينوّن ويصغّر ويتصاعد الاعتداء عليه والتمثيل به حتى يهد « جمع التكسير » أركانه هداً ويحيله إلى مزق وشظايا يعبر عنها بكلمة « أبيات » وهى كلمة لها جرس يوحى بالقلة وحطة الشأن وضمور الهيئة . فلغة بنى السكسون - إذا نظرت لها من هذا القبيل - فيها يسر و بساطة واذعان للانقياد . وقد كان الاستاذ كمال البكرى يجيدها تماماً دون ريب ، ويأخذ بأيدينا هوناً يجوب بنا رياضاً منها يانعات « حواشيهن أفنان»

وهو الذى دلنا - وكذلك فعل رفاقه الآخرون من بعده - إلى أهمية الأرقام التى كنا

نلقاها تحت الكلمات الانجليزية فى «الكومبانيون» المصاحب « للريدر» مصاحبة الظل للانسان ، لا يفارقه حتى تضجر الشمس وتأذن بالأفول . فدلنا بذلك على النطق الصحيح الذى يقارب نطق أهل اللغة الذين هم أهلها إن لم يبلغه تماماً ويماثله . فكل رقم من الارقام 7، 77، 67، 21، 44 وغيرها - تحت الكلمة الانجليزية - يضفى عليها نطقاً معيناً، ان أنت أحسنته فقد أحسنت هذه الرطانة وآن جهلته أو لم تحفل به صرت أعجمياً فى لغة الاعاجم ، وليس فوق ذلك من عجمة. ولن ينسى تلامذة تلك الحقب للاستاذ كمال أنه كان بصيراً برياضة الألسن أحسن تدريبها حتى ارتاضت- أو ارتاض أكثرها - وباءت بالعجمة الفصحى على خير الوجوه . ولا أرتاب فى أنهم يذكرون كيف كان الاستاذ كمال يسأل بانجليزية طلقة واضحة محببة تسحر التلاميذ وتغريهم بإعمال الفكر والذوق والحواس من أجل الاتيان بالاجابة الصحيحة . فاذا صدع بها من بينهم من وفقه الله ورزقه السداد اثنى عليه الاستاذ كمال بعبارته المشهورة المعروفة « قود بوى » (Good Boy) وهو يبسم فى رضا ظاهر وسعادة غامر ة . ومن كثرة ما كان يردد هذه العبارة فقد ألصقناها به لقباً واسماً نشير به أليه كلما طالعنا أو بَصُرنا به عن جنب وهو لا يشعر ، نملأ بها الأفواه فى محاولة منا للإتيان بها كما يأتى بها ، ونضحك معها كما كان يضحك ، ونشهر سبابة اليد اليمنى تماماً كما كان يفعل . لقد كنا نعجب من اناقته فى النطق وحسن الهندام ، ومن وسامته المقرونة بمظاهر القوة والفتوة والحزم ، ومن دقة واتساع معارفه فى عوالم لغة بنى السكسون . وهو مع كل هذا شاب هادىء الطبع لين العريكة جم التواضع رائع الأداء منضبط انضباطاً يدعو الى التبجيل والاكبار، يعامل تلاميذه بلطف وكرم وأريحية . ويفرد من مرتبه الضئيل فى كثير من الأحيان جوائز تشجيعية . فاذا طرح علينا سؤالا صعباً وتلقى عليه اجابة صحيحة نفح المصيب منا قرشاً أو شلناً أو شيئاً بين ذلك ، وكلها جوائز سخية لأن القرش يعنى قطعةباسطة وان دعمته تعريفة إضافية فأنت على موعد لن تخلفه مع الباسطة الكورنر وذلك هو النعيم الذي ليس عليه من مزيد

. ولم يجاره فى هذا النسق الأريحى الفريد إلا قلة من الاساتذة الآخرين . و لذلك كان لمحبتنا له درجة على غيرها . ولماً كان بعضنامفتوناً برطانة بنى السكسون مولعاً بنغم تعابيرها وجرس الفاظها فقد أجهد هذا البعض نفسه ليفوز بجائزة الاستاذ كمال من وقت لآخر ؛ فما اكثر ما نعمنا بحلاوتى الظفر والباسطة الكورنر ، نتيه بالاولى ونزهو ، ونلتهم الثانية فى فسحة الفطور أو بين الحصص ، والغير « خزيان ينظر » . وليس هنالك مجال « للحندكة » لأنها دعوة صريحة للشجار ، وليس هنالك مكان أو معنى لعبارة « ادينى معاك شوية » لأن الأمر ليس هو طعمية عم محمدين أو فول الحاجة وانما هو أجل وأخطر . فقد كانت الباسطة بعد انفاق قرش الفطور – وهى اليوم حتى قبل انفاق ما يقارب ألفى جنيه على الفطور – امنية غالية لا ينالها إلا من فتح الله عليه ولا يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم . هكذا كان الاستاذ كمال البكرى فى ام درمان الاميرية ، كريماً سخياً بالمعرفة والمال ، بساماً متضعاً على ما به من بهاء وحسن مظهر وسمت لا يخلو من الاعتداد بالنفس وعظيم الثقة فى المقدرات الذاتية . يطأ الثرى متمهلاً فى مشية خالية تماماً من المرح والأشر والبطر ، تجمع بين التلقائية والانضباط ، وتؤاخى بين الرقة وقوة البأس ، وتخلط الهيبة بالبشر والترحاب والقبول ، وتمزج دلائل الفحولة بصباحة الوجه وائتلاق المحُيَّا .

ولقد التقينا الاستاذ كمال البكرى مرة أخرى فى خور طقت مدرساً للتاريخ الذى كانت وسيلة تعليمنا له هى اللغة الانجليزية . فألفينا خبيراً بهذه الشؤون عليماً بأسرارها التى انطوت وتقادمت عليها العهود . وقد كانت مادة التاريخ من أحب العلوم إلىّ ، وزاد من حبى لها أن من بين اساتذتها كمال البكرى وضرار صالح ضرار ومستر جض . فمن منا لا يذكر هذا الثلاثى الرائع ؟ كانوا اساتذة كالملائكة وداعة وصفاء ورقة وغزارة علم ومعرفة وعذوبة حديث .ألفناهم فى تلك البقاع البعيدة ، واحببناهم واكبرنا فيهم تواضعهم ورفعة مقاصدهم ، فاقتربنا منهم وعرفناهم على حقيقتهم ، لأنهم قربونا منهم ومهدوا لنا السبل لاجتلاء نفائس العلوم واستصحاب

أصح العزائم لتحصيلها ، وبذلوا لنا مكنونات حصائلهم وسائر فروع معارفهم باخلاص ويسر وبساطة وصدق أريحية ونوايا . ولما كان الاستاذ كمال البكرى مولعاً بالكمال فى شتى الامور فهو ينظر أيضاً إلى ما وراء استقامة الفهوم من صحائح أصول تربية التلاميذ . ولذلك كان يعجبه « كمال الأجسام » وهو تعبير درج أهل فنون الرياضةعلى تثبيته فى الأذهان واشاعته بين الناس . فقد كان الاستاذ كمال يصحبنا – أو قل يأخذنا – فى حصة ما يسمى .P.T وهو اختصار للكلمتين الانجليزيتين PHYSICAL TRAINING والبعض يسمونه P.E ,PHYSICAL EXERCISE ولعل P.T أفصح ، والله أعلم . والمطلوب هو تدريب الجسم ليغدو العقل سليماً وأهلاً للتدريب الذي يتم فى المدرجات وفصول الدراسة ، وان كان حضور العقل وصفاء الذهن مهماً أيضاً فى ميدان الرياضة . ولكننا كنا مولعين بكرة القدم اكثر من شغفنا « بالجمباز » الذى يدعونا اليه الاستاذ كمال ، فاذا خرجنا معه فى الصباح الباكر خلال الحصة الاولى والثانية إلى الميادين Pitch Number two أو Pitch Number one كما كان يسميها مستر بروكس ويعلن عن تنظيم اللعب عليها عند « الاسمبلى » أو اجتماع الغداة – خرجنا ونحن نعجب من حزم مستر بروكس وانجليزيته السلسة الأخاذة ، ودقته البالغة فى تقسيم الميادين على الفرق والفصول ، واشاراته الواضحة بسبابة يده اليمنى وهى تدور حول أذنه اليمنى فى قرب يكاد يمس طرف نظارته ويوشك أن ينزعها عن عينيه ومؤخرة اذنيه نزعاً . فاذا انتهى « الأسمبلى » بخيره – وهو نادراً ما كان يشتمل على غير الخير – اسرعنا فى صحبة الاستاذ كمال تلقاء ميادين الرياضة والكرة بين أقدامنا تتقافز فرحة ونحن بها فرحون ، فالثار الكروى بين فريقى الفصل مثل « تار بابكر الصديق » ، لا يخمد ولا يخبو له أوار وهو دائم وليس له نهاية . ولكن الاستاذ كمال مولع بالانضباط وهو يحثنا على « الجمباظ » دون لعب كرة القدم . ولم يكن ذلك تمسكاً منه بحرفية التعبير P.T أو P.E - فهو أبعد الناس عن الوقوع تحت اسار ضيق المسميات واكثرهم ميلاً إلى المرونة

وأخطبهم لفضيلة سعة الآفاق وهو أدرى منا بما فيه خيرنا فى مثل هذه الأنشطة .
ولعلمنا بذلك كنا نطيعه راضين موقرين ، موقنين بأنه سيخلِّى - بعد قليل - بيننا وبين
كرة القدم التى كانت « هوساً » ليس للبرء منه من سبيل . فنصطف أمامه بالحزم كله
برؤوس مرفوعة وقامات معتدلة وأرجل مشدودة وأيد مقبوضة وأذرع مثبتة على
الأجناب. ويبدو هو أمامنا كقائد عسكرى يدرب فرقة من المقاتلين توشك أن تلتحم فى
عراك شرس مع عدو جليد . وبعد نداءات حازمة ومتكررة تغلب عليها «صفا» و«انتباه»
وتتجاوب معها انفراجات الأرجل واجتماعها إثر هوىٌ القدم اليمني على الأرض فى
إرزام تبتلع نصف صداه نعومة الرمال ، يسعى الاستاذ كمال بين صفوفنا فى مشية
عسكرية لا تدع ريباً فى جديته ودقة تفقده لعسكره الصغار واحداً واحداً. فاذا فرغ
من ذلك وأبصر تراخياً عند أحد منا صاح بحزم تحببه الينا ابتسامته الطلقة التى لا
تفارق محياه : «ياود أنت هناك ، أقيف كويس ، خليك مَكرَّبْ زى العربى دا» وهو يشير
إلى أنور عبد الحليم . فقد كان أنور « مكرَّباً» بحق ، رغم أنه لم يكن من النجوم
الساطعة فى سماء كرة القدم ، لأنه ربما لم يكن فى مقدور قرية « أربجى » العريقة بعد
أن تواضعت كثيراً عبر حقب التاريخ أن تلد فى تلك الأزمان نجوماً كروية ، إذ قد
اتسعت شقة المدى بين أرضها الخصبة المعطاءة وسحائب الرى الحضارى الحديث
التى قلتها وجفتها دون مراعاة لوفاء أو عرفان ، وهاجرت منها إلى سماوات آخر .
وعلى كل حال فقد كان كل منا يحاول - امتثالاً للأمر وايماناً بالحكـــمة من ورائه -
أن «يتكرَّب» ماوسعته الحيلة وواتته المقدرات ، حتى يرضى عنا الاستاذ كمال . فلقد
كان الاستاذ كمال عسكرياً فى دخيلة نفسه ، يجمع فى نسق واعتدال بين صرامة
الجندى ونفاذ بصيرة المثقف رقيق الحواشى والأعطاف . وانى لعلى ثقة ويقين من أن
هذه الرقة، وهذه البصيرة النافذة ، وذلك المستوى الثقافى العالى ، وغير ذلك من المزايا
التى كان يتمتع بها الاستاذ كمال انما هى بعض خصاله ومواهبه التى مهدت له الطريق لكى
يصبح فيما بعد واحداً من منارات الدبلوماسية السودانية وسفيراً مقتدراً قام بتمثيل

أثارة ثقل الهموم ومحاولة الصمود فى وجهها أو الاستخفاف بها ودحر أسبابها . فاذا جاء وقت الدرس ودخل علينا الاستاذ غزالى الفصل لم يضيع دقيقه واحدة فيما لا يجدى ، وانما انحصر اهتمامه في الشرح والتبيين . وهو استاذ متشرب بعلم الرياضيات حتى لا مجال عنده لغيره . وهو على الرغم من ذلك انسان فياض بالمشاعر والعواطف ، جياشة نفسه بها، يشعر بذلك من يتأمل حيويته الدافقة وهو يلقى الدرس ، غير أنك لا تدرك من هذه العواطف الزاخرة إلا ما يتعلق بصميم موضوعه الذى يلقيه عليك ، فيتملكك احساس جارف بأنه عاشق للرياضيات مدنق بها ، فهى شعره وهى موسيقاه وهى عالمه الرحب الذى يحلق فيه ويستظل بوارفات ذراه . ولو أراد لقال فيه ما قاله غيره فى ما هو ارقُّ متوناً وأعذب حواشياً وأدعى لانتقاء لطائف الكلم :

وعذلت أهل العشق حتى ذقته .·. فعجبت كيف يموت من لايعشق

وعذرتهم وعرفت ذنبى أننى .·. عيَّرتهم فلقيت فيه ما لقوا

ولو قال ذلك فى معشوقه الحساب وسمعه أهل اللغة العربية لما صدقوه . ولكن كم من صادق كذبه من لايعرفون حقيقة مشاعره ! وأنت قد تعجب كيف يمكن لعاقل أن يبتلى بعشق الدوائر والزوايا والخطوط و ألغاز المعادلات الصعبة وجداول اللوقرثمات . غير أن الاستاذ غزالى السراج كان كذلك . وليس ادلّ على ذلك من قولته الشهيرة التى لا تزال اصداؤها ترن فى اذنىّ منذ تلك العهود : اذا انتبهت من نومك فى الصباّح الباكر والفيت الدار التى أنت فيها ينتحب جميع أهلهالأن أباك أو امك أو كلاهما قد توفاه الله ، فلا تبدأ بالبكاء والعويل ولكن قل للأحياء من أهل بيتكم قبل أن تسأل عمن فارق الحياة منهم : اسمعوا ياجماعة ، المقابل على المجاور يساوى ظل الزاوية ! وبعد ذلك يحق لك أن تسأل عن حقيقة ما حدث أثناء نومك من وفيات ، وأن « تتكندك » بالتراب إذا شئت ! تلك هى قاعدته الذهبية . فهل وراء هذا العشق لعلم الحساب أو الرياضيات من عشق ؟ ونحن الآن ندرى – نتيجة لهذا الغراس الذى تقادمت عليه العهود ولكنه ظل مخضراً فى الذاكرة – أن المقابل على المجاور يساوى ظل الزاوية بالفعل وأن المقابل هو الخط من المثلث الذى يمتد فى قبالة الزاوية . ولكن الزاوية لها

مجاوران فأيهما المراد ياترى ؟ وهل يصلح أيٌّ منهما لهذه القسمة التى لا تلد إلا ظلاً ؟ وهل يعيش الظل عمراً يعتد به والشمس تبدعه إذا أشرقت طولاً وقصراً وتمحوه إذا أفلت عنه محواً دون اثبات ؟ هذه بعض الخواطر التى لا أشك فى انها كانت تبرق فى نفوس كثير من التلاميذ وهم يستمعون إلى الاستاذ غزالى السراج يحبب اليهم « الحساب » وهو عاشق له ولهان به مستهام . وربما تساءل بعضهم بعد مضى كل تلك الأزمنة فى سخرية لا تفتقر إلى أسباب : ماذا أفدنا ياترى من معرفة ظل الزاوية وما كان يجاورها ويقابلها فى حياتنا ؟ فيقال له على الفور ردعاً له على هذا الاستخفاف الساذج وتبصيراً له بأقل الحقائق اهمية : نعم كانت معرفة ذلك هى بعض الطريق إلى الترقى فى سلم التعليم ولو لا ذلك لما أصبح عمرو ضابطاً مرموقاً ولما صار زيد قانونياً ضليعاً ، ولما غدا صابر طبيباً نسياً منسياً ! وربما انتهى أحد افراد المجموعة التى كنت أنت بين ظهر انيها تتلقى هذه « الظلال » وأشباهها إلى منصب وزير ثم تقاعد أو أقيل ولم يعد يذكره أحد . وقد يتساءل مرة أخرى اولئك الساخرون عن جدوى هذه الجهود المضنية التى يبذلها اساتذة مخلصون فى مراحل تعليمية بعينها، فلا يبقى منها فى ذاكرة أغلب تلاميذ تلك العهود شئ ولا تكاد تلمس لها أثراً فى حياتهم من بعد. فلا يعدو ما يقال لهم اجابة على هذه الاستهانة بالعلوم إن المهندس الذى تحدر من رحم تلك الآماد السحيقة يدرك اليوم بعرفان قيمة « ظل الزاوية » وما يتصل به من ألغاز ، تماماً كما يدرك الطبيب ويعرف الصيد لا نى والكيميائى وغيرهم قدر الحقيقة العلمية القائلة بأن الماء ليس هو سوى زواج شرعى ودائم بين غاز الأوكسجين والهايدروجين وان كان للثانى على الأول درجة، وإن ظل استمرار هذا الرباط رهناً بدرجة أو درجات معينة من الحرارة .

انى لا ذكر أن التعابير التى كانت ترتسم فى وجوه التلاميذ تختلف من حصة إلى حصة وذلك يعنى أيضاً أنها تختلف باختلاف الاساتذة . فحصة الحساب تفرض على اكثر الوجوه سمات الصرامة الممزوجة بالحيرة وقدر غير قليل من الخوف والتوجس

تحفل بهاصفحة السبورة قبل حين ولم يبق فى أذهاننا من هذه الألغاز المضنّة إلا أن الزاوية قد تنفرج وقد تستقيم وقد تضيق ، وهذا التبسيط يريحنا ويهدئ الاعصاب التى لم تعد تحتمل من التعقيدات ما يجعل من الزوايا البسيطة الميسورة التصنيف هموماً ثقالاً على النفوس وجبالاً عاليات الذرى ... و«ليها ضل كمان » !

فاذا خرجنا من الفصل لفسحة صغيرة أو كبيرة تبارى امامنا بعض الشياطين من أولاد فصلنا فى محاكاة الاستاذ غزالى والاتيان بجميع حركاته وترديد عباراته الوعيدية التى كان يتشدد فى التلويح بها ويتراخى فى المضى قدماً فى تنفيذها . ولذلك أحبه التلاميذ على الرغم من شقائهم بمادة الحساب واخفاقاتهم المتلاحقة فى الفوز فى اختباراتها وامتحاناتها بما صار يتعارف عليه في هذه الأزمنه الحالية المغلـقة باسـم « التقفيل » ، وهو قد استيقن من محبة تلامذته له فاذا بصر بهم عن جنب – أثناء محاكاتهم له – وهم لا يشعرون فان وجهه يشرق بذات الابتسامة التى لا تدوم طويلاً ، ويمضى فى سبيله متغافلاً عما يصنعون وكأنه لا يعنيه .

الضرير الذى يرى :

وأما الاستاذ محمود الضرير استاذ الرياضيات فقد تتلمذنا عليه وأفدنا من علومه الجمة ومعارفه الواسعة فى كل من ام درمان الاميرية وخور طقت . ففى الاولى كانت وسيلته اللغة العربية ، وفى الثانية اللغة الانجليزية ، فلا جرم كان جامعاً بين الفضلين ، بحراً فى مادته ، خبيراً بكل من اللسانين . واذا كان الاستاذ غزالى السراج ربما ينفجر فى بعض أحايينه غاضباً ويزمجر متوعداً بعظائم الامور دون أن ينفذ الوعيد فان الاستاذ محمود الضرير كان على نقيض ذلك تماماً . فهو شديد الهدوء ، لا يظهر عليه أثر انفعال وان كانت كلماته التى ينبس بها توحى بأنه يخفيه بين جنبيه ولا يبوح به إلا نادراً ولدى الضـرورة . وهى ضـرورة يحـددها هـو بنفسـه وأنت لن تقف على دواعيها وارهاصاتها إلا أن تفاجأ بها وتشقى بتبعاتها من حيث لا تعلم ولا تحتسب .

وهو أبلغ فى السخرية والزراية بمن يريد السخرية والزراية بهم بين التلاميذ من

جميع زملائه الأساتيذ ، لم أر أحداً منهم يماثله فى هذه الموهبة التى يوجهها حيث يشاء فى هدوء بالغ ، وينفذها إلى أهدافها فى تسديد دقيق . وهو أوجع فى انزال العقوبة ، فاذا كانت « جلداتك » التى يقررها عليك الاستاذ غزالى عند عم مبارك ثلاثاً – وهو لا يأمر بمثل هذا الجلد الانادراً – فان هذه « الجلدات » تكون ستاً حينما يقررها عليك الاستاذ الضرير . وذلك بعد أن يقرضك من لسانه بالمقاريض ، ويجعل منك بتعليقاته اللاذعة أمثولة أو اضحوكة بين أولاد الفصل . ولكن عم مبارك كان بالرغم من كل شئ رجلاً محبوباً وسط التلاميذ . « فالجلدات » الثلاث عنده قد تُفرى العقب وتقدحه ان كان خفيف اللبد الواقيات ، ولكن الجلدات الست غالباً ما تكون عنده أقل إيلاماً وان كانت أطول مدى وأبلغ فى الردع والتخويف . ولعل هذا هو جوهر الحكمة من وراء ذلك التضعيف الذى تفرد به الاستاذ محمود الضرير وهو يبعث باسمك إلى دفتر عم مبارك ويبسم فى وجهك وكأنك على موعد منه بقطعة من الحلوى أو كأس من الداندرمة أو كوز من الشربات !

لقد كان الاستاذ محمود الضرير شديد الهدوء موفور السكينة والوقار ، لا يعرف الزعيق ولا الهياج ولا الصراخ ولا الانفعال الذى يؤدى إلى ارتفاع العجيرة وانفجارات الغضب واصطكاك الاسنان وتقلص عضلات الوجه . إذا غضب أو أغضب أو استنكر أمراً أتاه تلميذ أبقى على ابتسامته الساخرة التى تلوح دوماً على وجهه لا تفارقه ، وفزع إلى سكينته الملازمة له يستهديها كيف يُنَفِّسُ عما ألمَّ به من موجدة وطفق يستلهمها أبرع الوسائل وأسلمها لأخذ الثأر وإرضاء النفس دون أدنى قدر من الصخب والضوضاء . فهو لا يلجأ إلى استخدام يده لأنه يعلم أن لسانه أمضى حَدّاً وأشد فتكاً ، ولا يستصحب سوطاً ولا « بشمةً » لأنه موقن بأن من دخل اسمه دفتر عم مبارك فهو غير آمن وان هبت لنصرته جميع منظمات حقوق الانسان المنبثة على ظهر اليابسة . فهو استاذ بارع فى تدريس علم الرياضيات دون ريب ، بل هو أشد براعة فى الأخذ بالثأر لنفسه من أى تلميذ لا يعجبه مسلكه أو أداؤه ، وذلك بأيسر

فانه لايقيم وزناً لامثال هذه المحاذير وانما يطلق لسانه ذرباً حاداً سليقاً موجعاً لايخاف بأساً ولابخساً ولارهقاً . فهو قد « ضبطني » ذات مرة وانا اتحدث مع جاري اثناء شرحه ، واتهمني « بالهرجلة » التي انكرتها في حينها . فقال لى وهو يبتسم ابتسامة كانت ابلغ من كل عقاب : « ياموسي ياخي انت اسمك منو» ؟ فضحك من سمع قولته وتعجب منها من لم يدرك ماوراءها . فقلت له : اسمي موسي يا افندي . وانا اعلم انه يعرف اسمي وقد جاء به فى معرض سؤاله الذي يوهم بأنه لا يعني مايقول . فلما أجبته بهذه الاجابة لم يزد علي ان وسع من نطاق ابتسامته واردف ساخراً : طبعاً ، يعني حيكون اسمك منو ؟ ولم يفت علي إحتشاد عبارته بالخبث المقصود والزراية الماحقة . وهو اوشك أن يسألني من أي الاصقاع أتيت . ولكنه اكتفى بالتلميح عن التصريح . وعنده أن « فيصل » « وكمال » وربما « رأفت » « وبهجت » « وعزت» وأشباهها هي الاسماء التي تنبئ عن حضارة حامليها ورقيهم واتسامهم بالمدنية . اما اسماء موسي وعيسي وآدم ومثيلاتها فهى التي يستحق حاملوها من المهرجلين ان يقال لهم : طبعاً ، يعني حيكون اسمك منو ؟ . ولا يظنن احد أنى احمل ضغناً علي الاستاذ محمود الضرير لهذه المقولة التى لا ارتاب في انها لم تكن الا وليدة سخريته التى عرف بها فكنا نذهب – من فرطها – في تفسير تعليقاته شتى المذاهب . وذلك انى اعتبره محقاً فيما ذهب اليه فى ذلك الحين ، ولاتثريب عليه ان جهل الاعراق والاصول . فقد قدر لى من بعد سنوات طوال ان اذهب لاحضر ابنى محمداً من مدرسة كمبونى فى ام درمان وهو طفل صغير بعدانتهاء اليوم الدراسى . وفى مرة من المرات كنت انتظر ابنى محمداً خارج المدرسة والاطفال يتصايحون ويركضون . وفى ذلك الخور العميق الاخدودى الرابض أمام المدرسة ابصرت وسمعت بعض الصغار ينادون واحداً منهم اسمه موسى فتملكنى الفضول وقلت اقف برهة حتى يخرج موسى هذا لارى إن كان بين تلاميذ كمبونى في هذه العهود الجديدة من يمكن ان يحمل هذا

الاسم القديم . فاذا الذى يخرج من اعماق ذلك الخور الذى تحتشد فيه وعلى جنباته الاوساخ والقاذورات طفل اشد سواداً من الغراب وأشمل «كندكة» – من أى «بعاتى» – بالتراب . وهو تلميذ في كمبونى في ثمانينات هذا القرن . وساعتها تذكرت الاستاذ محمود الضرير ، وقلت في نفسى : طبعاً ، يعنى حيكون اسمك منو ؟ غير انى وهذا الطفل الذى ربما صار الى الجامعة الان سودانيان اصيلان وكلانا يحمل اسماً كفى به شرفاً انه اسم كليم الله واحد الخمسة اولى العزم من رسله الكرام . ولو ان الاستاذ محمود الضرير – وهو التقى سليل الاتقياء – تفكر فى امره واستلهم هذه المعانى لكفانى شر سخريته التى تقتصد فى الكلمات والتعابير وتسرف فى المعانى والدلالات .

لم يكن الاستاذ محمود الضرير من المؤمنين بمبدأ الاستاذ غزالى السراج القائل بأن معرفة حقيقة ان المقابل على المجاور يساوى ظل الزاوية اهم من معرفة من توفاه الله من الابوين ، ولكنه كان حريصاً على النظام والمثابرة وعلى ان يستوعب التلاميذ ما يلقيه عليهم من دروس الحساب اتم واكمل استيعاب . غير ان هذا الكمال لم يكن في متناول الجميع . فالمقدرات تتفاوت ، وما لاينال كله يكتفى بجله او بعضه . ولعله ادرك ذلك بأخرة ، وان لم يفارقه حرصه واصراره على تحويل جميع تلامذته الى «حسابيينْ» مقتدرين . فلست انسى انه كان يدرسنا الرياضيات في مدرسة خور طقت الثانوية ، وانه فاجأنا ذات مرة ونحن فى السنة الثالثة بامتحان فى كل من الجيو مترى والجبرا والحساب والتريقونومترى انتقى مسائله كلها من «نوات النجوم » العواصى . فحصل واحد منا فقط – وهو عيسى ابكر – على مائة درجة من مائة . وحصل كاتب هذه السطور على اربعة واربعين درجة من مائة . وغضب الاستاذ محمود اشد الغضب ، وان لم يمح ذلك عن وجهه ابتسامته المعهودة وانما خالطها من غضبه المكبوت ما يشبه الحزن والاسى . وتحت الحاح الطلاب اعاد الامتحان فظفر هذه المرة كثير منا بالدرجة

وهذا ناظر كان امره عجباً . فهو موردى اصيل عظيم الجسم ضخم الكراديس مستدير الوجه داكن لون البشرة . يغطى راساً كبيراً انحسر عنه الشعر بكسكتة حيناً وبرنيطة احياناً أخر . ويرتدى القميص الابيض والبنطلون الكاكى ، ويمشى كضيغم بدر ابن عمار .

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلا

يطالعك بوجه صارم او هو اشد ميلاً للصرامة منه الى الابتسام وابعد عن الضحك منه الى متطلبات سلطان الادارة ، يوحى اليك بشتى صنوف المعانى واخفى ضروب الإشارات التى لاتخرج في مجملها عن التذكير بالقوة والتلميح بالعقاب والتلويح بدلائل الغلبة والقهر والترهيب . ومن عجب ان الابتسام يمحو عن الوجه والمحيا كل هذه المعانى والايحاءات ، وان كانت اموراً باقية ومسلماً بها وتظهر في الاحيان المناسبة لظهورها . ولذلك فان التلاميذ يأنسون بالاساتذة الذين يكثرون من الابتسام فى وجوههم ، وهو انس ليس وقفاً عليهم وحدهم لسذاجتهم ولصغر السن ، وانما هو بعض طبائع البشر على وجه العموم ، ومن اوتى كثرة الابتسام فى وجوه الناس فقد اوتى خيراً كثيراً . الم تسمع قول الشاعر وهو قد اجاد وابدع فى هذا المعنى :

اضاحك ضيفى قبل انزال رحله ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف ان يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

وهو عين المعنى الذى قال فيه غيره :

بشاشة وجه المرء خير من القرى فكيف بمن يأتى به وهو ضاحك

ولايظنن من يقرأ عنى هذه الكلمات انى اعرض بالاستاذ محمود بلال رزق او ارمى الى النيل منه ، فأنا لست اشك ابداً في انه كان رجلاً كريماً في داره يقرى اضيافه صنوف الطعام والضحك والابتسام فتلك كانت خلائقه التى هى خلائق جيله بأسره . ولكنى اسجل انطباعات تلميذ صغير قرأها ابان تلك الحقب الدوارس فى وجه ناظر

مدرسته واستقرت وانطبعت في مخيلته الساذجة في وقتها وحينها . فهى لاتزيد ولاتنقص عن الانطباع المرهون بوقته ولاتدعي الصحة ولا الدقة لهذا الانطباع او موافقته للحقيقة . فقد كنا نقرأ فى وجه الاستاذ محمود هذه الصور . وكنا نطالع في عينيه احمراراً يردنا علي أعقابنا فراراً من بأس مخوف . وهو عين الاحمرار الذى عفر بدر بن عمار صاحبه بسوطه ، وخلده ابو الطيب بوصفه الرائع :

ما قوبلت عيناه الا ظنتا تحت الدجى نار الفريق حلولا

كان الاستاذ محمود بلال رزق يطلع – بجانب ادارته لشؤون المدرسة بوصفه ناظراً لها – بتدريس اللغة الانجليزية في بعض الفصول ، وهو مولع باختبار التلاميذ وامتحانهم كلما امكنه ذلك ، ولاريب عندى ان ذلك كان وليد حرصه الشديد على ان يبلغ تلامذته الذرى العوالى من اتقان اللغة الانجليزية ، ولذلك اشتهر بالاكثار من الاملاءات (DICTATIONS) حتى يحسن مران التلاميذ على كتابة هذه اللغة وتنقاد لهم كلماتها سلسة طائعة . وقد أكد لنا بعض التلامذة فى الفصول التى تتقدمنا أن الاستاذ محمود بلال رزق ذو معرفة واسعة بلغة الانجليز وأنه يستحق أن يسمى الانجليزى الأسود تماماً مثل الاستاذ احمد محمد صالح الذى حمل لقب «BLACK ENGLISH MAN» ، وهذا فى نظرى عين توكيد المدح بما يشبه الذّم وهو فن من فنون البلاغة وقفنا عليه بعد سنوات . وقد قيل لنا إن الاستاذ محمود بلال رزق حينما ينطق كلمة «املاء» (Dictation) بالانجليزية فانه يفلقها نصفين . فاذا قال Dic طارت منه زرارة لو صادفت عيناً لفقأتها ، ولكنها ترتطم بالجدار ولا يتابع احد منقلبها ومستقرها ومستودعها . ثم يأخذ نفساً وبعده يأتى ببقية الكلمة (Tation) فتطير زرارة اخرى . ولكن رحمة الله وحكمته اقتضت الا ينطلق مع كل شطر من شطرى الكلمة الا زرارة واحدة ، وان ثمن المائة منها – فى تلك الايام الرخية – بخس لا يعدو القراريط او الملاليم . وكان الاستاذ محمود اذا دخل الفصل يبس الحديث على

الشفاه وساد عرصات الحجرة صمت أصم بهيم وبدا الفتية كالخشب المسندة لايكادون يفقهون قولا . . وخمدت من بينهم تلك الحيوية وانحسرت جميع معالمها حتى لاتكاد تسمع الا همس الانفاس المتصاعدة من فرط الفزع والفرق وتوقع الشرور والثبور وعظائم الامور . واما اذا جاء من خلفه عم عبد العزيز وعم محمود او عم جادين وكل منهم يتزيا بالبنطلون والسترة الكاكى والعمامة التى كأنها نبتت مع الراس من يوم رأى النور فتلك هى الواقعة التى لا منجاة منها وذلك هو اليوم القمطرير . وذلك ان مهمة هؤلاء النفر الكرام عقابية بحتة فلا احد يرجو خيراً اذا راهم يدخلون خلف الناظر . فاذا كنت من الذين حلت عليهم لعنة الناظر حملك هذان الماردان من اليدين والقدمين وانهال عليك الاستاذ محمود ضرباً مبرحاً «بالبشمة » ، عشر جلدات او ما شاء الله لك . فان صبرت على هذا الاذى وسكنت جوارحك حتى يتم القصاص منك ابصرت فى وجه الناظر معنى خافتاً مبهماً للاعجاب يبطنه ولا يود ان يظهره وقد يند عنه ما يدل عليه دون أن يعبر عنه بكلمة . اما اذا بلغ منك الفرق والجزع درجة الصراخ والعويل «والمرصعة» «والملاواة» التى لاتجدى فتيلاً فاعلم انك جالب لنفسك على وقع انغام «البشمة» على جسدك الرخو الغرير لعنات الناظر ايضاً . . يا كلب . . يا ابن الكلب . يا قليل الادب . . الى اخر مفردات قاموس التشهير، ثم انت لا تقرأ على وجهه الغاضب الا كل معانى السخرية والزراية برجاءاتك التى لا تستجاب ولا يلتفت اليها ، وجبنك وخورك الذى هو في نظره اكبر المثالب وانكر العيوب . وذلك ان الناظر رجل «حمش» يعجبه الثبات فى مواقع المعاناة والالم وتغضبه «الجرسة» وهو يسميها «الفضايح» فيلا حقك اذا انت تململت او تخاذلت عنك رباطة جأشك تحت نكير البشمة بصوته الجهورى المفزع صائحاً : يا ود ما بلاش فضايح ، شد حيلك شوية . فهو من المؤمنين بصحة المثل القائل . الصقر ان وقع كتر البتابت عيب . وقد راينا بأعيننا كم من «صقر» من صقور الاوائل والتوانى قد وقع وكم كانت البتابت مذاهباً وضروباً ، وان

من الحمائم لمن هو اشد صبراً على الاذى واكثر احتمالاً للالم . ومهما قيل فالحق هو ان «السترة والفضيحة متباريات» . وقد تتزلزل وتضوى عزيمتك من البشمة الاولى وتنهار قواك وينفد صبرك فتأتى من سقطات الجزع ما يقلل من شأنك في نظر الاستاذ ويجعلك مضغة في افواه الاقران ، وقد ينعم الله عليك بالجلد والتماسك ، فاذا صبرت على البشمات الثلاث الاولى فان اغلب الاحتمالات انك ستصبر علي بقية البلاء ، وساعتها يكبر قدرك عند من حولك جميعاً ويقيك الله شرور التعليقات القارصة التى عادة ما تتناوش الجزعين لازمان بعد انقضاء تلك الدقائق الطوال الحرجة .

ومن منا لايذكر قصة ذلك التلميذ العابث الذى حرر خطاباً لاحد زملائه ووضعه في درجه من دون توقيع بالطبع وقد حشد اسطره بأقبح الكلام ؟ فلما فضّ زميله الخطاب ووقف على محتواه استشاط غضباً وزاد من غضبه انه لم يستطع ان يهتدى لاسم الراسل . فاستحال غضبه الى حزن عميق وتحول من بعد ذلك الى انتحاب صامت تشى به على وجهه الدموع ، وإلى شقاء ظاهر هيمنت علاماته على كل ملامح وجهه وعلى صلاته بالأقران . ولما بلغت به هذه الحالة الكئيبة مبلغاً لم يعد يحتمل اثقاله على نفسه الجريحة باح بالامر الى ابى الفصل واطلعه على الخطاب . وكان ابو الفصل استاذاً محبوباً بين تلامذته ملء الاسماع والابصار ، وهو شاب رقيق ومسالم ، عظيم الاهتمام بتلامذته شديد الحرص على سلامة سلوكهم عموماً وحسن تحصيلهم في الدروس على وجه الخصوص . فساءه ما علم اشد مساءة واحزنه ما قرأ ابلغ حزن . وظل مغموماً مهموماً يسأل عمن كتب هذا الكلام الغث النابى فلا يلقى احداً يجيب . وبعد ان باءت كل محاولاته للتعرف على فاعل تلك الفعلة المنكرة بالفشل والاخفاق امرنا فى ذات صباح ان نجمع كراسات الانشاء ، وما كنا ندرى ما هو السبب الحقيقى من وراء ذلك لأن الكراسات انما كانت تجمع للتصحيح ولم يكن هناك ما يتطلب تصحيحاً . ولكن مجموعة عبد الكريم اخبرتنا في الفسحة ان الامر يتعلق بمحاولة الاهتداء الي

خط كاتب تلك الرسالة الملعونة التي أشقت لحظاتنا تلك وجللتها بالبؤس والاسى . فأصابنا مزيد من الهلع ، وعجبنا كيف يمكن لسلطات المدرسة ان تكتشف خط «المجرم» - كما صار يشار الى كاتب الخطاب - وسط خطوط قد تتشابه ويصعب التمييز بينها ، فلربما اخذ البرئ بالظنة وافلت المسئ الحقيقى من ربقة العقاب . فعشنا اياماً من الهلع كئيبة لا تنسى . وكان بعضنا يجلس تحت الشمس حتى اذا احس دفئاً فى جسمه او بعض اعضائه فرح بذلك وادعى انه يعاني من الحمى ولاذ بدفتر المستشفى ليذهب به الى حيث مظان الرأفة ، عساه يظفر براحة ليوم او يومين او يلزم سرير المرض ، ولتكن حقن الكينيا التى تشوى الاصلاب او شرابها العلقمى الذى تتلظى من مرارته الحلاقيم والاحشاء ، فكلاهما ارحم من «بشمة» الناظر التى تنضج الجلود وتقدح النار في سائر كيان الجسد . فلعل الظافر بهذه الراحة من سلطات المستشفى ينجو من عذاب وشيك الوقوع لامردله من سبيل . ولكن هذه «الحمامات» الشمسية التى يفزع اليها البعض في مثل هذه الظروف كثيراً ما كانت تعود عليهم بنتائج عكسية ليست تعجز عن درء البلاء فحسب وانما تفاقمه وتضيف اليه ابعاداً اخرى جديدة . فان الذين يجلسون في عيادة المستشفى الخارجية لايحفلون كثيراً بالاسباب الحقيقة من وراء ظهورك امامهم وانت «تقنت» وتدعى عسر التنفس والتهالك وما هو قريب من الاغماء ، فهم مشغولون بعشرات ومئات غيرك ممن تقاطروا عليهم من كل ارجاء المدينة يبغون العافية ويلتمسون عندهم الشفاء . فاذا وضع بين شفتيك «الثيرموميتر» ثم انتزع بعد لحظات وحدق فيه محدق وقطب حاجبيه اعتراك شعور صادق بأنك تكذب ، وغمرك احساس محبط بأنك امام من هم ليسوا اكثر رحمة من سلطات المدرسة ، وغشيت نفسك الهموم واحاطت بها من كل ناحية . ثم انت لاتدرى مايكتب قبالة اسمك في دفتر المستشفى . وماذا انت فاعل لوكتب حيال اسمك كلمة «متصنع» وختم ذلك بختم المستشفى ؟ وقد كان هذا يحدث بالفعل احياناً فيعرض

«المتصنع» لعقوبة اشد واقسى من تلك التى خشى وقوعها ولاذ منه بذلك الدفتر العجيب الذى قد تتغشاك من بين دفتيه الرحمة وكثيراً ما يربض تلقاءك بينهما العذاب المهين . فتغدو انت خاسراً كالمنبت لا ارضاً قطع ولا ظهراً ابقى ، يفوتك من الحصص والدروس ماغبت عنه وانت لائذ بالفرار ويحل بك من العذاب المضاعف ما طلبت قبلاً النجاة من نصفه ، وينالك من شماتة الملسنين الهازئين من اقرانك ما كنت تحرص على اجتنابه والبعد عن المزالق المفضية اليه .

وعلى كل فقد ظللنا اسارى هذه الحيرة وهذا التوجس ثلاثة ايام حسوماً . وعندما جاء اليوم الموعود ودخل علينا «أبو الفصل» أسرعنا قياماً لتحيته . ولكنه كان لايزال حزيناً مغتماً باكى السمات من هول ما حدث ، وهو الذى ظل يبشر بين ظهرانينا بالوداعة والصفاء ومكارم الأخلاق . فقال في تلك اللحظة وقد غابت عن وجهه ابتسامته المعهودة : جلوس . نطقها وكأنه يتقزز منا جميعاً ، وبطريقة نفت عنها تماماً تلك الرنة المؤنسة التى كانت فيما مضى تهيئ عقولنا الصغيرة وتدعوها بوداد وترحاب الى تلقى ما كان ينثره على اسماعنا وخواطرنا واذهاننا من نفائس الدرس والحديث . ثم جئ بكراسات الانشاء التى تم جمعها ووضعت على منضدة الاستاذ ، وهو صامت مثقل الخاطر لاينبس بكلمة ولا ينفك عن وجه تلوح على محياه آثار الحزن والشقاء . وبعد قليل جاء الناظر الاستاذ محمود بلال رزق بذاته وصفاته والبشمة في يمناه كسيف فارق الغمد وحنّ الى الرقاب ، ومن ورائه عم محمود وعم عبد العزيز وكل منهما في السترة والبنطلون الكاكى والعمامة المثبتة كالمغفر تغشى به حومات الوغى ، وعلى وجهه نصف ابتسامة ماكرة تنبئ عن سبب مجيئه الينا في تلك اللحظة في وضوح لاغموض فيه . وقف الاستاذ محمود بلال رزق بجسمه الضخم المعافى ، وبعد أن تأكد من توزيع كراسات الانشاء لأصحابها ، قال بصوته الجهورى المرعب الذى اذا زمجر ترددت اصداؤه في كل عرصات المدرسة : «طلعوا المجرم» . قالها بغضب لم يترك فى

نفوسنا ريباً في سوء المنقلب وبؤس المصير . واشتمل علينا من الرعب والرهب والخوف مالا مزيد عليه وما لاقبل لنا بمثله . ولقد خيل اليّ ان المجرم اذا كان حجراً لبرز امامه من تلقاء نفسه في تلك اللحظة . ولو ان احد التلاميذ علم حقيقته لأشار اليه دون تردد ، حتى ينجو بنفسه وينجي غيره من ذلك الوعيد الذى تفجر من بين شفتي الناظر ودوّى دوياً . ثم أردف الناظر مرعداً مرة اخرى : «أحسن تطلعوا المجرم» . ومن عجب أن كلمة «أحسن» هذه – وهي كلمة رقيقة اذا ما وجدت السياق المناسب لها – وقعت من أنفسنا موقعاً هو أشد ارهاباً وامضى وعيداً ، بل أفصح إخباراً وأصح إنباءً بما اوشك ان يصير اليه حالنا . فاصطلكت الاسنان ، وارتعدت الفرائص وساخت الاوصال ووقفت شعور الرؤوس كأشواك القنافذ ، وانهتكت استار الجأش وخارت القوى وانحطمت النفوس ، وتمكن الفزع من القلوب فاشتد وجيبها وتسارعت وتيرات ضرباتها ، وصارت الايدى على الادراج تهتز وترتعد ارتعاداً . ولست ارتاب في ان كل تلميذ منا قد لاذ في تلك اللحظات بما في صدره من ذخيرة من القرآن والدعاء ، فقرأ في سرد كل ما تسنى له ان يقرأ عائذاً بربه لائذاً به من سوء ما تنطق به النذر وشر ما يوشك ان يحيق بالناس . وكأني بلسان حال الصبية الصغار يضرع الى المولى جل وتعالى (لما أخذتهم الرجفة) وهو يتلو ما جاء من قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) . ثم صاح الناظر وقد عيل صبره : «المجرم يوقف على حيلو » . فكاد كل منا ان يقف ، لان الوقوع في الشر أهون من توقعه . ولكن خذلتنا الارجل وأقعدنا الفزع وثقلت عن الوقوف الاجسام . ثم اخذ الناظر يمشي بين الادارج ، تلك الشية الغضنفرية المتمهلة الماحقة ، التى تحمل في كل خطرة من خطراتها جميع مقدمات الافتراس ومعانيه ، وينظر الى كل تلميذ نظرات فاحصة ذوات دلالات طاحنة فلا يجرؤ هذا ان ينظر اليه . حتى القنادف رجالات الربع

الخراب ، عبد الكريم ومكى ومحجوب والحاج الكبتل ، ظلوا نواكس الاذقان مثبتة انظارهم على بلاط الارض ، كل يتعوذ في سريرته بما فتح الله عليه من قرآن ودعاء (مهطعين مقنعى رؤوسهم لايرتد اليهم طرفم وأفئدتهم هواء) ، والناظر يقف حيال كل واحد منا بعض ثوانٍ تبدو له وكأنها سود دهور جمعت ازمانها من عجاف السنين . ولما شاء الله لهذا الكرب ان ينجلى عن الصدور وقف الناظر أخيراً قبالة احد التلاميذ قألفاه وقد جحظت عيناه من الرعب والهلع واصطكت أسنانه واهتز من ارتجاف أعضائه «الدرج» الذى كان أمامه . كان الناظر قد عرف من كراسة الانشاء من هو المجرم بعد مضاهاة الخطوط ، ولم تدم وقفته أمام هذا التلميذ طويلاً فهو هدفه ومبتغاه . وسرعان ما قال بصوت كالرعد – استغفر الله ، فالرعد هو صوت رحمة الله – وهو يشير اليه بسبابة يمناه : انت المجرم.فخارت قوى التلميذ ولكنه أنكر قائلاً في رجفة ومحاق : لا يافندى دا ما انا والله . ولم يجد اذناً صاغية لضراعته . وصدرت الأوامر : «محمود . . عبد العزيز . . شيلوه » ' فحمل من مكانه الى مقدمة الفصل ، عم عبد العزيز يمسك باليدين وعم محمود بالرجلين والتلميذ يصيح : فندى عليك الله يرددها دون ان يحظى بانتباه او استجابة . وأخذت البشمة تنهال على عقبه في قوة ورتابة . ورغم ان بقية التلاميذ قد تنفسوا الصعداء الا انهم رقوا لحاله وودوا لو انهم له بمصرخين . ولست ادرى كم بشمة تلقى ذلك الشقى على عقبه ، ولكن الذى لا مراء فيه هو انه نال «علقة» العمر ، ولولا ان أحد الاساتذة قد شفع له لفصل من المدرسة كذلك . وانتهى ذلك اليوم المفعم بالرعب لتستقر اصداؤه في ذاكرة الصغار حدثاً لا يمحى ولا ينسى .

حقاً لقد كان الاستاذ محمود بلال رزق ناظراً مهيباً مخوفاً مرعباً . وربما كان الحزم والشدة أمرين تمليهما الضرورة وتدفع للتمسك بهما لان التلاميذ فى مثل هذه الأعمار الباكرة انما يكونون اكثر جنوحاً للفوضى منهم الى النظام ، ولابد لهم من

مؤدب يخشون سطوته وبطشه حتى تستقيم قناتهم ويرتدع مردتهم وشياطينهم وترتاض نفوسهم وطبائعهم ، وان كانت الشدة المطلوبة والحزم المراد والردع المبتغى أموراً تختلف درجاتها باختلاف الظروف وتباين الفلسفات التربوية . وانا لست اروى هذاالذى ارويه عن الاستاذ محمود بلال رزق من باب القدح في اسلوبه او انتقاد وسائله ومنهاجه ، فلعله كان على حق ، ولعله - ان لم يفعل ما كان يفعل - لايبلغ من الامساك بأزمة الامور مبلغاً . ولكنى على كل حال اسرد طرفاً من ذكريات رسخت في الذاكرة واستقرت فيها فهى باقية لاتبرح ولا تريم . ولقد كان التلاميذ يصورون الاستاذ محمود فى اذهانهم وفى اقاصيصهم «الونسية» صوراً شتى ، ولكنها جميعاً تلتقى عند نعت الشدة والجبروت . فذلك هو جوهر الانطباع . ولم تكن قصة الزرائر التى تطير تباعاً فى حصة الاملاء الانجليزية الا بعض تحقيق تصويرى لهذا الانطباع . فالزرارة التى تخطئ العين - في قولهم - انما ترتطم بالجدار او الدرج لتحدث فرقعة اشبه بانفجار رصاصة صغيرة . ولقد كنا - من فرط سذاجتنا وتصديقنا لكل ما يروي - نحمد الله ان الاستاذ محمود لايدرسنا الا نادراً ، اذ لا طاقة لنا بانطلاق هذه القذائف الزرائرية التى تفقأ الاعين ، ولاقبل لأسماعنا بهذه الفرقعات المدوية التي يمكن ان تحدثها فتنشر الفزع وتصدع القلوب والالباب .

ولقد كان من بين التلاميذ من يتهم الاستاذ محمود بلال رزق بإضفاء جو خانق على المدرسة ، هو عين ما يسمى في لغة العصر الحديث بجو الارهاب . وربما كان من بين الاساتذة ايضاً من يرميه بهذا الاتهام . ولكن العبرة بالمقاصد والغايات وليست بالوسائل والاساليب ، وليس من شك في ان مقاصد الاستاذ محمود لم تكن غير سيادة النظام وكمال الانضباط وتهيئة أنسب الظروف - فى تصوره واعتقاده - للتحصيل والنجاح . ولا مشاحة فى ان الارهاب بمعناه الذى يتبادر الى الذهن والذى لا ثانى له فى حقيقة الامر انما هو منهج ممقوت ومسلك منفر . ومع ذلك فهو - كوسيلة لقضاء

الحاجات وبلوغ الغايات – قديم في طباع البشر قدم الانسان على ظهر هذا الكوكب الارضى . الم تسمع الى قوله تعالـى يصور الظلم الـذى يترتب عليه اروع تصـوير : (واتل عليهم نبأ ابني ادم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك) ؟ كان هذا قمة الارهاب . ولكن الذى تعرض لهذا الارهاب الوعيدى استقبله بنفس ملائكية راضية (قال انما يتقبل الله من المتقين). ثم هو قال من بعد ذلك : (لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما انا بباسط يدى اليك لأقتلك ، انى اخاف الله رب العالمين) . وعلى الرغم من هذا النمط الرفيع من الحديث والسلوك الحكيم فقد قتل الاخ أخاه ، وأصبح من الخاسرين ، ثم ندم على فعلته ولات ساعة مندم ، وبعد ان عجز ان يكون مثل الغراب فيوارى سوأة أخيه . غير ان الاستاذ محمود بلال رزق لم يبسط يده ليقتل احداً ، وان كان هنالك بسط فهو من باب ما يسمونه «البسطة العراقية» ، وهى لاتبلغ مرتبة «الفسحة» عندنا بأى حال من الاحوال ! وذلك ان من «بسط» بقى معه الامل ، ومن «فُسِّحَ» فقد زحزح عن البقاء وأجره على الله . والمسألة بالنسبة للتلاميذ على كل حالٍ إنما هى أمر وسط بين «البسطة» فى القاموس العراقى «والفسحة» فى معجم الالفاظ السودانى ، والاجال بيد الله (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) . ومهما قيل عن الارهاب فهو واحد وأن تعددت اشكاله ودوافعه ومراميه ، وهو يوحى اليك – إن لم تكن غافلاً – بعبارة زياد : «أنج سعد فقد هلك سعيد» ، وهو ينقش فى وجدانك آثاراً لا تزول ، وربما أوغر صدرك ان انت نجوت منه وحملك على السعى الى الثأر والانتقام .

ولما كان ذلك كذلك فلربما خامرت عقول الصغار بعض نوايا السوء ، وهم يعلمون ان ليس للمواجهة الصريحة من سبيل . ولكن البشر هم البشر ، اذا حصرت احدهم في ركن ضيق ولم تترك له منفذاً فربما أصابك ببعض خدوش . ولايصح ان يسمى ذلك اعتداءً ولا حتى دفاعاً عن النفس ، ولكنه نوع من البحث عن مخرج ينجى من السيف

والنطع ويحفظ او يرد بعض الكرامة والكبرياء مما لايمكن ان تخلو عنه نفس انسان .
فاذا ضاقت عليه الارض بما رحبت امكنه ان يأتى بما كان يعجز عن الاتيان به في غير هذه الظروف والمواقف . واذا وجهت اليه الاساءات والأذى ونلت منه بالكلام مالاتناله منه السياط فاعلم انك قد ملأت نفسه بالحنق عليك ، ولن يعجزه ان يحتال عليك ويسعى فى ايذائك بما يتوفر له من وسائل ، ولو ان يأخذ ضغثاً فيضرب به ولايحنث ، علماً بأن جميع خلجات نفسه مقسمة على الثأر والانتقام . ومن لايدرك هذه القاعدة البسيطة يجهل تركيب الانسان العادى ، وهو النمط الذى يشكله اغلبية البشر وذلك ان العافين عن الناس والمتبعين السيئة الحسنة تمحها انما هم قليل .

فقد اصبحنا – كما بينت لك فى غير هذا الموضع – في ذات يوم من ايام نظارة الاستاذ محمود . لنجد ان جميع الجدران في المدرسة تقريباً ، فضلاً عن النوافذ والابواب ، قد سُوِّدت بكلمات وتعابير مسيئة موجهة الى الناظر ، لا ارتاب فى ان تلاميذ تلك الحقب يذكرونها اليوم بوضوح . بعضها يحمل اسم الناظر بين احرفه صريحاً لا مواراة فيه ، والبعض يشير اليه اشارات لا تخفى عليه ولا على غيره من الناس . وعلى كثرة التلاميذ والاساتذة الذين تجمعوا فى فناء المدرسة الواسع في ذلك الصباح فانى لم آنس على وجه واحد منهم تلك الطلاقة التى كنا نألفها ، اللهم الا فى وجه الاستاذ محمد الدرديرى ، وهو استاذ يتمتع بروح مرحة ولايخفى اعتزازه بأصله وانتمائه ومنبته العمرابى وانه ابن الاستاذ الدرديرى محمد عثمان المعروف لأهل السودان عموماً ولأهل ام درمان على وجه الخصوص . وانى لاحسب ان الاستاذ محمد كان من الناقمين على سياسة الناظر المتشددة عموماً ولكن كان يمنعه الحياء من إظهار نقمته ، فوجد فى ذلك الصباح فرصته وهو يطالع مايغطى جدران المدرسة من شتى صنوف الكلمات القادحة في شخص الناظر . ولذلك اطلق نفسه على سجيتها وتحدث عن شوالات او اطنان الفحم التى تم استهلاكها «عشان يطلعوا ذمة الناظر»

على حد تعبيره ! وقال الاستاذ محمد غير ذلك وهو يبسم ضاحكاً . ورغم ان اغلبية التلاميذ كانوا خائفين مكروبين فزعين من البطش المتوقع الا انهم كانوا في غاية الفضول والترقب ولم اسمع بينهم صوتاً يعلو باستنكار ماحدث . أما بعض الأساتذة الآخرين فقد بدا لنا نحن الصغار أنهم - على ما كان يزينهم من وقار وامساك عن التفوه بما لايجوز او قد لاتحمد عقباه - لم يتمكن آحاد منهم من اخفاء ارتياحهم لما حلّ بالجدران - او قل حل بالناظر - فمنهم من بادل الاستاذ محمد الدرديرى التعليقات الساخرة ، ولكن بأصوات لايكاد يتبينها الا من يقف على مقربة منهم . وقد بان جلياً للجميع ، اساتذة وتلامذة ، ان هذه النازلة لن تمردون ان تزعزع أمن المدرسة وسكينتها ، وان هذه الفعلة لن ينجو من الاتهام باقترافها الا من عصم الله . فيد الناظر لاحقة وهى قاصمة في حد ذاتها ناهيك عن «البشمة» التي لا تكاد تفارقها . ولذلك كانت مشاعر التلاميذ خليطاً عجيباً متنافر العناصر امتزجت فيه الحيرة والدهشة بالرعب والفزع والهلع ، واشتجر فيه الارتياح الخفى الدفين مع النفور والتقزز والانكار ، وتلون الخوف والفرق فيه بشئ من استشعار الاقدام والرغبة في اقتحام حصون الجبروت وجعلها جذاذاً وانهاء اسطورتها الي الابد . ولذلك كانوا يستقبلون تعليقات الاستاذ محمد الدرديرى الساخرة بنصف ابتسامة حذراً وحيطة من ان تشّى هذه الابتسامة ان هى اتسعت بما يشبه الارتياح والرضا الصراح . وذلك لان سطوة الاستاذ محمود بلال رزق لاتقاوم ، ومن نجا من بشمته لابد واقع فى كراسة عم مبارك ، فالأعناق الصغيرة تشرئب في حذر الى ما سطره الفحم على الجدران ، كل يقرأ في سريرته ولايجرؤ على ترديد حرف واحد مما كتب علانية . وكان السؤال الذى يضرم نيران الفضول واحداً : من فعل هذا بناظرنا ياترى ؟ ما اشجعه ! ولكن كيف يفلت احد من الاتهام ثم من العقاب ؟ وبينما الصبية غارقون في هذا الجو الصامت الحزين وبعض الأساتذة يعبرون للناظر عن تعاطفهم معه ، ولا احد يعلم ما يضمرون

ويسرون غير علام الغيوب ، اذا بعم مبارك يقرع الجرس قرعاً متصلاً مفعماً بالنذير ، واذا بالتلاميذ يتدافعون صفوفاً وهم يوزعون ، واذا بالناظر في وسط ذلك الحشد كأنه موكل باخراج الانفس ومناقشتها الحساب . ثم كان ما كان مما قد رويت لك طرفاً منه في غير هذا السياق .

سامى وأشعار الفحول :

وكان من استاذة اللغة العربية فى تلك العهود الاستاذ احمد عبد الله سامى . وهو ايضاً من شبان الاساتذة ، شديد العناية بمظهره ، يتخير هندامه تخيراً ، اكثر ملبسه القميص والبنطلون وان كان في احيان غير قليلة يرتدى البدلة الكاملة وربطة العنق . وهو يفضل الالوان الداكنة على غيرها ، ويبدو فيها على درجة عالية من الاناقة وحسن الانسجام . يخطر أمامنا دائماً مرتب شعر الرأس وكأنه غادر دكان الحلاق لتوه . ويمكن القول بأن درجة غزارة شعر الرأس عنده كانت متوسطة دوماً ، لاهو بالكث المطبق ولا هو بالخفيف الذى يقارب الصلع ، وان كان نصيبه من الخفة اكثر . وهو شعر «قرقدى» كما يصفه اهل السودان ممتدحين ، وليس بالسبيبى ، ولا يبدو على الاستاذ احمد سامى انه يحفل بتصفيفه كثيراً . وهذا الشعر – على قلة كثافته التى يحافظ عليها الاستاذ سامى ولايدعها تتزايد – فهو فاحم السواد ليس به من اثر الشيب الا بضع شعيرات بيض لايبصرها الا من يدقق عن قرب ، وهو يغطى رأساً اكبر فى حجمها من المتوسط ، ولكنها متناسقة مع بقية جسمه تناسقاً طيباً . فى عينيه مكر هادئ لايوحى بنية الاعتداء على احد ، ولكنه ينم عن استعداد فطرى طبيعى لمواجهة العدوان ، وعن يقظة دائمة مستعصمة بالحضور الذهنى التام عن الغفلة والتهاون . وقد يطالعك منهما ما تحسبه شروداً وسياحة في عالم مجهول اذا فرغ لتوه من القاء احدى القصائد التى تحرك مشاعره وتهز كيانه هزاً . وذلك انه يصمت هنيهة ولاينبس بكلمة وكأنه يتابع بعينيه واذنيه اصداء ما كان يتلو حتى تغيب عنه وتنقضى .

ولكنه ليس بشارد لب ولا ساهم عينين . وآية ذلك انه يكاد يسمع دبيب النملة فى الفصل ويضع حداً له فى حينه اذا اراد . وهو استاذ يغلب علي طبيعته الحزم ، فلم اره يضاحك تلامذته او يبادلهم رواية الطرائف ، سواء كان ذلك في داخل الفصل او خارجه . ولذلك كانت بينه وبينهم مسافة معينة كالمنطقة الحرام ، لايتسنى لهم ان يقتحموها اقتراباً منهم اليه ولم يرد هو ان يطويها ليدنو منهم اكثر مما كان عليه حاله . وبالرغم من ذلك فقد كانوا يحبونه ويجلونه ويمتدحون مقدراته علي التدريس وابلاغ المادة العلمية المرادة الى نطاق الفهوم . ولقد امتاز الاستاذ احمد سامى بحسن الالقاء مع وضوح في مخارج الحروف واشباع للحرف والكلمة بدرجة تجعل وقعهما على الاذان مقبولاً ومؤثراً ودافعاً الى المتابعة واجتلاء المعانى وخفايا الجمال اللغوى . فاذا قرأ علينا الشعر احسن وأجاد واوفى النطق حقه واثار مشاعر مستمعيه . وهو مولع بالشعر ولعاً ظاهراًيبديه لك إلقاؤه لهذا الشعر . فعندما يتحول من الكلام المنثور إلى الكلام المقفى فانه يتحول بكليته ويجعلك تشعر بوضوح انه يتحول من حال الى حال ثانية . فتراه عند قراءة الشعر يقف في مكان واحد لايتعداه ، ويرفع رأسه عالياً ويبدو وجهه اشد حزماً مما كان عليه قبل قليل ، ويستعين بيده اليمنى على ابراز أهم المقاطع التى يشتمل عليها بيت القصيد ، ويكتسب صوته جرساً خاصاً يجمع بين تأثره بّما يلقى على مسامع الناس وبين رغبته فى التأثير بهذا الذى يلقيه . فهو يعيش فى جو المعانى التى تتفجر بها هذه الاشعار ويجهد نفسه حتى يجعلك تشاركه هذا النعيم ، ويسعده ان تستغرق انت فى متابعة كل كلمة ينطقها بدقة واهتمام . فاذا كانت القصيدة رثاءً كاد – وهو يقرأ ابياتها فى القاء رائع مؤثر – ان ينتحب او تدمع عيناه ، واذا كانت فخراً اكثر من الاشارة بيده اليمنى كلما جاء بكلمة او صدر او عجز او بيت يرى انه من القمم فى مثل هذه المعانى ، واذا كانت غزلاً او تشبيباً او نسيباً فانك واجد فى نطقه وطريقة القائه خفة ووداعة وجمال نبرة ، وملامس من سيل كلماته رقةً وعذوبة

وطلاوة حديث ، واذا كانت متصلة بالفروسية وبيان شدة البأس فانه مقتدر على اخراج كلماتها قصاراً متتابعات مرزمات مثل فرقعات البارود ، او سناناً باترات أشبه ماتكون بصليل السيوف . فاذا فرغ من انشاده صمت هنيهة وهو بالغ التأثر ورنا الى تلامذته يستطلع احاسيسهم ويستجلى ماعلق بوجدانهم من أثر وانفعال .

واني لاذكر انه كان معجباً بشعر محمود سامي البارودى ، ولست اعلم ان كان اسم الشاعر واحداً من أسباب هذا الاعجاب ، ولكنى اميل الى الاعتقاد بأن المعانى التى يطرقها البارودى فى اشعاره ويأتى بها فى تلك الصور الجميلة المعبرة هى التى اطبت الاستاذ احمد سامي وسحرته . فتلك ايام كان الحديث فيها عن شرف النفس ورفعة المقاصد وقوة العزيمة وسائر معانى الصمود وجلائل القيم هو الحديث المجتبى وهو البحر الذى يحسن الخوض فيه . تلك سنوات شهدت اشتداد ساعد الحركة الوطنية بعد ان انجبت رحم مدينة ام درمان احزاب البلاد السياسية . فعاد السودانيون يتغنون جهرة بذات القيم الرفيعة التى تخلق بها اسلافهم على مختلف العهود والمناحى ، وفى طليعتها الطهارة والنقاء والامانة والتواضع والشجاعة والمحافظة على عزة النفس عند المكاره والمسرات . واذا كان التلاميذ صبية صغاراً لم يبلغ وعيهم درجة استيعاب متقدمة لما كان يضطرم حولهم من احداث وما كان يتبدى لقادتها مّن رؤى ويتخلق فى خواطرهم من آمال ، فان اساتذتهم كانوا رعيلاً من الشباب الوطنى المخلص تفتحت اعين بصائرهم على بدايات تلك العهود الغر التى شهدت ميلاد فجر جديد ، وحنيناً مشبوباً مشروعاً الى امجاد أمتهم الصامدة التى كانت تخفق فى سمائها عاليةً منذ حين اعلام الحرية والاستقلال الوطنى ممهورة بدماء الشهداء الخالدين . وكأنى بالشاعر السودانى المبدع تاج السر الحسن يشير الى ذلك دون سواه اذ يقول في احدى روائعه : الارض تضئ بزيت الدم

فشهيد مات . . ومن دمه سمقت آلاف الانجم . .

فمن ذلك الدم الذى روّى ارض الوطن فى كل بقاعها فى اواخر القرن الماضى سمقت هذه الانجم التى بلغت رشدها فى مراحل متعددة قبل أن ينتصف هذا القرن الذى كاد اليوم ان يأذن بالأفول . ولذلك كنت ترى فى اساتذتنا الشبان فى ام درمان الاميرية نماذج حية لهذا البعث الوطنى ، وشواهد ناطقة بأصالة هذه البلاد التى حفل تاريخها بامجاد البطولات والإقدام والفداء .

وعلى الرغم من كثرة انشاده للأشعار السودانية الوطنية وتغنيه بها ، فقد كان الاستاذ احمد سامى مولعاً – كما قلنا بأشعار البارودى وبخاصة تلك التى تجسد المعانى السامية وتبشر بالقيم الرفيعة وتدعو الى الطهر والنقاء والبسالة وسائر الفضائل المحببة . فمما كان يلقيه على مسامعنا ويكتبه على السبورة ويأمرنا باستظهاره وانشاده مرة اخرى دون لحن او خطأ او تصحيف قصيدة البارودى التي اذكر منها منذ تلك الايام قوله :

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرةٍ ... على يداً أغضى لها حين يغضب
وما انا ممن تأسر الخمر لبه ... ويملك سمعيه اليراع المثقبُ
ولكن اخوهم اذا ما تأرجحت به ... ثورة نحو العلا راح يدأب
نفى النوم عن عينيه نفس ابية ... لها بين أطراف الاسنة مطلب
فلست لأمر لم يكن متوقعاً ... ولست على شئ مضى أتعتب

وانت اذا تأملت هذه الابيات وجدتها قوية جزلة الالفاظ سلسلة الروى متينة القافية محتشدة بكبار امهات المعانى . وقد كان الاستاذ سامي يلقيها على مسامعنا القاءً رائعاً وهو يهتز طرباً ويتمايل انتشاءً ويستعين بيديه وكأنه يود ان يوقظ بهما نُوَّمَ العقول ويزيل بهما الاستار والاغشية عن الفهوم .

وفى حقيقة الامر وضح لنا ان الاستاذ سامى معجب بكل الشعراء الفحول وربما كان يحفظ كثيراً من اشعارهم عن ظهر قلب . ولست اعلم ان كان هو نفسه ينظم

الشعر فهو لم يقرأ علينا قصيدة ينسبها لنفسه ، ولكني كنت موقناً ان فى روحه شعراً وانه قادر على ان يكتب الشعر ويجيد فيه ان توجهت نفسه اليه . وقد يكون بعض تواضعه قد أملى عليه الا يزعم امامنا انه يقرض الشعر ، ولكن كلفه بالشعر وهيامه به كان امراً ظاهراً لاخفاء فيه وكان حقيقة كبرى من حقائق رقائقه الوجدانية التى تفيض على طريقته الواثقة فى الإلقاء فتضفى عليها مزيداً من الروعة والاستغراق والجلال . وقد حمدنا له انه ظل يتحفنا دوماً بعيون القصيد . وقد لمسنا منذ تلك الازمنة انه مفتون ايضاً بشعر محمد سعيد العباسى يقرأ علينا منه ابياتاً تارة ويكتب منه غيرها تارة اخرى علي السبورة ، ثم يمحوها بعد حين ويطلب الى بعضنا قراءتها من الذاكرة . ولما الفنا ذلك منه صرنا نركز عقولنا الصغيرة على ما يكتب ونجهد ان نلصقه بالذاكرة فى حينه ثم نتلوه عليه استظهاراً منها قرب نهاية الحصة . وقد كانت هذه هى احدى وسائله فى تحبيب الشعر الينا واغرائنا بحفظ واستظهار أحاسنه . وهو كان كثير الإنشاد لأبيات ثلاث من شعر العباسى لعلها انطبعت في ذاكرة كل فرد منا منذ تلك الاحايين الرغدة السعيدة ، وهى عندى غاية فى التشبيب :

بالله يا حلو اللمى   مالك تجفو مغرما

صددت عنى ظالماً   أفديك يا من ظلما

هلاّ ذكرت يا رشا   عيشاً تقضى بالحمى !

اما تلك القصيدة الرائعة التى انشأها العباسى في «التشبيب» بمصر واهل مصر ، والحنين الى ايامه النواضر التي قضاها فى ضيافة ارض الكنانة ينهل العلوم والمعارف متتلمذاً على استاذه الزناتى ، فقد كانت – فى نظر الاستاذ سامى ، وفى نظرنا ايضاً ، على الرغم من ضمور معارفنا – من احسن واسلس وابدع ما نظم فى امثال هذه المناحى الوفائية ومن ابلغ ما قيل فى اشباه هذه العلائق الانسانية التى يكون الاخلاص لها نابعاً من هيام وجدانى حقيقى قادر على الهام صاحبه أجمل الكلام

وأحسن المعانى وأبهى الصور . ولقد جاء فى هذه القصيدة الخالدة قول العباسى يرحمه الله :

أقصرت مذ عاد الزمان فأقصرا ... وغفرت لما جاءنى مستغفرا

ما كنت ارضى يا زمان لو اننى ... لم الق منك الضاحك المستبشرا

مصر وما مصر سوى الشمس التى ... بهرت مثاقب نورها كل الورى

ولقد سعيت لها فكنت كأنما ... أسعى لطيبة او الى ام القرى

فانظر الى هذا البيت الاول علي وجه الخصوص تجده من احسن الكلام ومن اروع ما قيل فى الزمان ، وانظر الى هذا «الاقصار» وهو الكف عن اللوم ، كيف اسنده للزمان فى هذا المعنى السلس المنساب الذى كاد من فرط دقة العبارة ان يجعل للزمان لساناً وشفتين . ثم انظر اليه كيف بوأ نفسه مواطن العزة والكبرياء والشموخ فلم يقصر ويصفح الا بعد ان انطق الزمان وجعله يقصر ويكف عن معاندته . بل ان صفحه عن الزمان لم يكتمل الا بعد ان جاءه الزمان مستغفراً ، فغفر من موقع الغلبة والاقتدار . ولقد ابان فى البيت الثانى عن حقيقة عزة نفسه وسبب رضاها عن دهرها . فهو ما كان ليرضى الا بتحقيق بغيته الغالية ، وقد مطله الزمان حيناً ثم جاءه ليس مستغفراً فحسب وانما ضاحكاً مستبشراً ايضاً . ولقد كان الاستاذ احمد سامى يهتز طرباً وهو يلقى على مسامعنا هذين البيتين وكأنه هو المعنى بهذا الاستغفار والضحك والاستبشار . وانظر الى الشاعر كيف يصف حاله عند فراقه لمصر ثم حاله حين عودته اليها بدقة بيانية رفيعة تعد طوال الاعوام عداً ، وتقيس المدى الزمانى قياساً ، وتجعل من الأثر المترتب على تعاقب السنين الراكضة ابلغ دليل واصح معبّر صادق على هذا العد والقياس دون حوجة الى اقحام أى كم او رقم من الارقام . فهو يقول فى هذا المعنى عن مصر التى احبها ثم عن نفسه :

فارقتها والشعر فى لون الدجى ... واليوم عدت به صباحاً مسفرا

سبعون قصرت الخطى فتركتني   أمشى الهوينا ظالعاً متعثـــــرا

ثم هو يصور بعد ذلك عظيم الترحاب الذي قوبل به وهو عائد الي الديار التى عرفها فى سنى شبابه والى اهله الذين احاطوه بعنايتهم ايام تلقيه العلم بين ظهرانيهم ، فيمضى فى ما يجسد الوفاء والعرفان ويعبر عن فرحته بعوده الاحمد بما هو انتحاب وجدانى صريح وبكاء ولهان على ايام الصبا والشباب ، وتذكر شجىّ مؤثر لامجاد اخوانه مفعم بالحب والوفاء . وذلك قوله بعد هذين البيتين المتقدمين :

فلقـيت من أهلى جـحـاجح اكـرمـوا   نزلى واولونى الجـــمــــيـل مكررا
وصـــــحــــابة بكروا الى . . وكلهم   خطب العـــلا بالمكرمـــات مـــبكرا
يامن وجـدت بحـبـهم مـا اشـتـهى   هل من شـبـاب لى يبـا ع ويشـتـرى
ولــــوانـهم ملـكـوا لما بـخلوا به   ولارجـعـونـــى والزمـــان القـهـقـرى
لأظل ارفل فى نعــــيم فـــــاتنـــى   زمــــن الشباب وفتـه متـحـسـرا
دار درجت علـــى ثراها يافـــــعـــــاً   ولبـست من برد الشـبـاب الانضرا
يا دار ايـن بـنوك اخـــــوانى الالى   رفـعـوا لواءك دارعين وحـســــــــرا
زانوا الكتـــائب فـاتحين وبعـضـــهم   بالسـيف مـاقنعـوا فـزانوا المنبـــرا
انـــى لاذكـرهم فـيـضنينى الاســـى   ومن الحـبـيـب الى ان اتذكـــــرا

فهذا شعر لايجئ بمثله الا الفحول ، وفيه من صدق العاطفة مالايمكن ان تسعه الا هذه الكلمات القوية المعبرة التى احسن الشاعر انتقاءها وبرع فى نسيجها بهذا النسق الفريد . ولاريب عندى فى ان هذه القصيدة الخالدة قد بلغت من التأثير على وجدان استاذنا احمد سامى ما جعل العباسى شاعراً اثيراً عنده ، ومادفعه - بعد ازمان تلت تلك العهود التى نتحدث عنها - الى تصنيف دراسة علمية مستفيضة جعلها رسالته لنيل درجة الدكتوراه . فهى اليوم بهذا الاعتبار كنز ثقافى هائل من مكونات المكتبة السودانية فى هذا المجال .

فـهذا هو الاسـتـاذ احمـد عبـد الله سـامى الذى كـان مولعاً بالادب العـربى وكلفاً

بأشعار العباسى . لايضايقه شئ مثل ان تقاطعه اثناء القائه لقصيدة او شرحه لدرس . ويغضبه ان يسأل التلاميذ مسألة فى المادة التى يقوم بتدريسها فلا يظفر بالاجابة الصحيحة . وهو استاذ معتدل المزاج فى كل أحيانه تقريباً الا القليل . ولكن هذا القليل يمكن ان يجلب التعاسة للبعض من معادنها . اذا آنس انتباهاً وحسن إصغاء من التلاميذ فإنه يطرح اسئلته عليهم من حيث يقف قرب مقعد الاستاذ غير بعيد عن السبورة ، ولايختص احداً بذاته بهذه الاسئلة . فاذا وافته الاجابة الصحيحة – أياً كان مصدرها – تهلل وجهه بالبشر وربما اثنى على من صدع بهذه الاجابة وامتدحه على «شطارته» . واذا لم يتلق مثل هذه الاجابة حزن حزناً لايخفى على احد ثم ابان لنا الصواب وحذر من مغبة نسيانه وعدم الاهتمام به . اما اذا أحس بشئ من «الهرجلة» او عدم الانضباط فى الفصل فانه – فى اغلب احواله – لا يأخذ احداً بالظنة ، بل يستخدم حضوره الذهنى التام ويقظته البالغة ليحصر الاتهام فى اقل عدد واضيق نطاق . فاذا اكدت له حواسه الست صدق ماذهب اليه اقتصّ ممن قنعت نفسه بأنهم اهل الهرجلة واصل الشغب . وان ارتاب فى امرهم او لم يقطع الشك باليقين احالهم الى عم مبارك ونفض يده مما يمكن ان يأثم بافترائه عليهم . وربما كان ذلك لانه يعلم ان دفتر عم مبارك مثل نار جهنم ان منا الا وارده ، وان العقوبة عنده واحدة فى اغلب الحالات لاتتعدى ست جلدات وان تكرر ظهور اسم التلميذ فى ذلك الدفتر مرات فى اليوم الواحد . والاستاذ احمد سامى اذا حددت له حواسه الست مواقع الشغب في الفصل فانه يذرع ارجاءه بين الادراج يتأمل اوجه التلاميذ ، ويقف امام من هو اشدهم – فى اعتقاده – مظنة للاتهام ، يتفحصه بوجه غلبت على ملامحه علامات الحزم والجد والغضب ، ويطميه ويطمره بسيل جارف من الاسئلة العصية ، حتى اذا داخ المسكين او قارب الدوخان ايقظه بصفعتين او ثلاث وغادره وقد اشتفى وانفثأ عن مشاعره الحنق . وكل تلميذ فى الفصل يعلم ان الاستاذ احمد سامى يعنفه

تعنيفاً اذا قصر فى واجب الدرس . ويعلم اكثر من ذلك انه لايتردد فى ان يصفعه اذا جنح للفوضى واستحل الشغب اثناء الالقاء والشروح . وكان الصقور لايحبونه فى اول عهدهم به لانه – كما قالوا – يفتش الفصل ولايبقى فى مكانه . ولانه يعتبر الاصوات التى يحدثونها بمعدات الهندسة هرجلة وهى عندهم موسيقى مهدئة للأعصاب وطاردة للملل ومنعشة للارواح . ولكنهم بعد ان استمعوا اليه مراراً وهو يلقى الأشعار ويجيد الالقاء وينفعل كيانه كله مع كل لفظ ومعنى اعاروه آذاناً صاغية وقلوباً واعية والباباً مستبصرة فاستباهم سحر البيان وهزهم حسن الالقاء وايقظ فى نفوسهم ارق المشاعر ، فافتتنوا بمقدرات استاذهم احمد سامى واحبوه وحرصوا على ارضائه بالكف عن عزف مقطوعاتهم المحببة الى نفوسهم . وداوموا على الإصغاء الى كل حديثه المنثور منه والمقفّى ، وجنوا – دون ريب – من ذلك خيراً كثيراً .

القواعد . . وبنود الغازينة :

ليس هنالك من شك فى ان اللغة العربية ساحرة اذا قدر لك ان تحسن تذوقها واذا حباك الله بمعرفة اسرارها ودقائقها . ولكن مثل هذا التذوق ومثل هذه المعرفة امران يحتاجان منك الى شيخ او شيوخ تتحور عليهم والى مراس قد يطول أمده . فاذا يسر الله لك الشيخ العارف ورزقت صبراً على مكابدة اسرارها ورقائقها فانك تجنى معارف جمة وتظفر بخير عميم . كانت هذه هى تعاليم استاذنا الشيخ يوسف الخليفة استاذ اللغة العربية فى ام درمان الاميرية . اما المعرفة بأسرار اللغة فقد كان الشيخ يوسف احد اساطينها . واما الذوق فقد اجهد نفسه مشكوراً لتعليمنا اياه ، ولكنه حاول أمراً صعباً . وذلك لانه كان يضع الالمام بقواعد اللغة من نحو وصرف واعراب كشرط أساسى ينبغى تجويده لترقية الاذواق وجلائها من رين العجمة واللحن . وما كان لنا فى تلك المراحل المبكرة ان نحسن شيئاً من هذه الشؤون . فكان من بيننا من يرفع المفعول به وينصب الفاعل ولايقيم وزناً يذكر لدخول حرف الجر على الاسم . واما كان

واخواتها وإن واخواتها فقد كان منا من يؤاخي بينها جميعاً ، ومنا من ينسب اخوات هذه الى تلك واخوات تلك الى هذه ، فتلقى اللغة العربية على السنتهم ما كان الشيخ يعتبره هواناً فى حقها ومروقاً من ديانة فصاحتها واستخفافاً بأصول الادب الواجب المبتغى في ديرها ومحرابها . وقد كاد الشيخ يوسف ان يعلن على الملأ انه انما يتعامل مع فصل ربما كان تلاميذه مصابين بعقلة في اللسان على احسن الفروض . وهو قد عبر عن سخطه بشتى الوسائل وأوشك ان يعتزل فصلنا او ان يهجره ملياً . ولكنه ادرك بأخرة ان الفتية ليسوا بأعاجم ، وان ما يأتون به من لحن وتصحيف وخلط انما كان امراً مقصوداً واخلالاً متعمداً بسلامة النطق ومراعاة القواعد واحتجاجاً مغلفاً على

إكثاره من تدريس «القواعد» ومغالاته فى ذلك ، وتعبيراً عن البرم بها واشعاراً له بأنها ثقلت عليهم ولم يعودوا يطيقونها صرفة جافة مثل بنود القوانين التى تشتمل عليها غازيتة جمهورية السودان التي رات النور فى عهود لاحقة. ربما لم يكن هناك تآمر حقيقى او منظم بين التلاميذ لاغاظة الشيخ يوسف ، ولكن المشاعر كثيراًما كانت تلتقى بعفوية ليس من ورائها تخطيط او تدبير فيبدو هذا التلاقى كانه أمر حيك بليل

ورسمت خطوطه من خلف ستار . ورغم ان اولاد فصلنا لم يبرأوا من الشجارات الطفيفة والمنازعات التى لاتبقى طويلاً فيما بينهم الا انهم امتازوا بروح جماعية فريدة فى اكثر احوالهم . ولقد كان هذا الاجماع التلقائي – وهو لم يكن اجماعاً سكوتياً لانهم لايعرفون السكوت على الهوان – امراً كثير الحدوث . فلما اجتمعت كلمتهم على

الثأر من الاستاذ السبكى الجزولى لانه اطلق اسم احسان عبد القدوس على احد زملائهم لم يكن ذلك وليد تخطيط وتدبير واجالة متهملة للرأى وانما جاء فى لحظة واحدة معبراً عن مشاعر متشابهة متطابقة . وعندما اعتمدوا السكوت الامتناعى سلاحاً يشهرونه فى وجه ما اسموه بتجاوزات الشيخ ابى بكر لم يكن ذلك الانتاج لقاء

وجدانى فى وجه عاصفة ايقنوا تلقائياً الا نجاة لاحد منهم من نكيرهاالا باتخاذ موقف موحد . ورغم انهم اطلقوا على هذا الموقف اسم «السكوت الامتناعى» الا انه كان سكوتاً - او قل عزوفاً - عن التسميع ، ولذلك وصفوه بأنه امتناعى ، فهو لم يمنعهم - وهم لم يكونوا يريدون ان يمتنعوا - عن الهرجلة والشغب والهمس والضحك الصراح ودق الرمية لى كرم وكرم يرقص ، مستعينين فى ذلك - والشيخ غاضب حيران - بجميع الادوات الهندسية والايدى والارجل وسائر وسائل الاتصال التى احدثوها فيما بينهم حتى تخفق عالية راية المقاومة السلمية معلنة لكل فرد منهم بلسان الحال : «سكت عن شئ ونابت عنك اشياء» والمعنى : قامت بالنطق اشياء ! ولذلك لم يكن مستغرباً ان تلتقى مشاعر الفتية فى ابتداع اسلوب يعبر عن برمهم بكثافة مايصب على رؤوسهم من حميم القواعد الصرفة بمافيها من علامات الاعراب التى تظهر حيناً وتختفى أحياناً أخرى فتقدر تقديراً وتلتمس الأسباب لعدم ظهورها تارة بالتعذر وتارة بحرف العلة .

ويقينى ان استاذنا الشيخ يوسف كان غيوراً على اللغة العربية ، وانما قصد بمحاولته لتمكين تلامذته من قواعدها ان يحمى قداستها من اعتداءات الالسن المتكررة وان يذود عن نضارتها مايمكن ان تعصف به جهالاتنا وقلة اداركنا لاسرارها وغوامضها . ولكنه ما أن احس بهذا الضيق الذى لحق بتلامذته من كثرة «مافلق رؤوسهم» من حصص القواعد حتى آخذ يراخى من شدة هذه القبضة الخانقة وطفق يدلف بنا رويداً رويداً الى مغانى الشعر ونظيم الكلام ، ولم تمض به على هذا النسق الا ايام قصار حتى ألفى من تلامذته اقبالاً لم يعهده من قبل وحتى لمس فيهم تجاوباً لم يقف على مثله فى ماتقضى من حصص ، فكما ان الالحان والموسيقى والغناء طوارد للملل وشوافى للاسقام وبواعث للأرواح فكذلك الشعر اذا كانت قصائده ومقاطعه من الجياد ، فيها شفاء لعلل النفوس ودواء لاسقام الضجر ومتحول موطد الأكناف عبق الارجاء

عن ديار الرتابة والملالة والركود والجمود . وذلك ان جياد الشعر موسيقى تنقش اللحن فى أوتار القلوب وتضرم نيران الحياة فى هو امد النفوس ، وتغذوها بلطائف المعانى وتجلو المسغبة عن العقول والألباب . فاذا بالارواح تسعد وتنتشى ، واذا بكل شئ فى الكون يبدو جميلاً يغنى للجمال . ولقد كان مدخل استاذنا الشيخ يوسف الي رياض الشعر تلك القصيدة الرائعة التى تضج فى عروقها الحياة فياضة بضروب المنى وبواسق الآمال ، وهى - ان لم تخنى الذاكرة - من خوالد ايليا ابى ماضى ، يعتب فيها أرق العتب على من لايرون فى عيشهم الا المشقات ولايبصرون فى نعيم الحياة الا مايتخلله من كدر وسوء ، يتغاضون عن جليل النعمة الالهية ،يجأرون بالشكوى وهم بعد فى اتم العافية والسلامة . فهذه قصيدة تبدأ بهذا العتب وهذا السؤال المفحم البليغ :

ايها المشتكى ومابك داء   كيف تغدو اذا غدوت عليلا ؟

ومثل هذه الشكوى عند الشاعر جناية ، وصاحبها عنده هو شر الجناة ، ولذلك تراه يقول فى امثاله ·

ان شر الجناة فى الارض نفس   تتوقى قبل الرحيل الرحيلا

فالرحيل امر لابد منه في نهاية المطاف ، والعاقل من استعد له بما يرضى الله ، والاحمق من نكره او سوف او استهان بالعاقبة . ولن يفلت من هذا المصير أحد لأن الله تعالى خاطب أفضل خلقه واحبهم اليه فقال : (انك ميت وانهم ميتون . ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) . الزمر اية ٣٠ . وقال : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين . ثم انكم بعد ذلك لميتون . ثم انكم يوم القيامة تبعثون). سورة المؤمنون اية ١٢-١٦. فالموت نهاية كل مخلوق حى . والحياة نعمة مهداة ، وليست عبثاً من غير طائل . فمن ادرك الحكمة من وراء خلقه نعم بالنعيم الذى اوتيه من غير تضييع

لحقوق المنعم اوتهاون فيها . ولقد ادركت حتى الطيور التى لا تعقل شيئاً كيف تمتع نفسها بالبقاء وهو قصير شديد القصر . ولذلك قال الشاعر معاتباً هذا المشتكى مشيراً فى شئ من التبسيط الى كنه الحياة دون اسراف او خوض فى تفاصيل هذا الكنه وهذا المغزى لانها معلومة :

ادركت كنهها طيور الروابـــى فمن العار أن تظل جهــولا

أما تراها والحقل ملك سواها تخذت فيه مسرحاً ومقيلا ؟

تتغنـــى وعمرها بعض عــام أفتبكى وأنت تحيا طويلا ؟

وبعد أن ضرب لك الشاعر هذا المثل الرائع وابان لك هذه الحقيقة البسيطة عارية الا من هذه الصياغة البيانية الزاهية ، وبعد ان اوقفك علي حقيقة احلام العصافير حتى كدت ان تظن بعقلك الظنون فانه قد حملك حملاً وعلى اجنحة خضر رفيقة حانية من قفار الكدر والاسى والقنوط الى مشارف الامل والفرح والرجاء ، وبث فى جوانحك وأوصالك وروحك وشغاف قلبك حديثاً يعافيك اذا وقــر فــى جنانك وانطلق به منك اللسان :

فتمتع بالصبح مادمت فيه لاتخف ان يزول حتـــى يزولا

فان اوتيت فهماً سليماً لقوله لاحت امام ناظريك جلية ناصعة كرائم المقاصد ، فحفظت دينك وعمرت دنياك واوتيت فقهاً فى معانى الجمال . ولذلك نفذ الشاعر الى وجدانك عنوة بعد أن حاجه بهذا اللطف فقال :

والذى نفسه بغير جمال لايرى فى الوجود شيئاً جميلا

ايها المشتكى ومابك داء كن جميلاً ترى الوجود جميلا

وانى لأجد نفساً من مصداق ذلك عند بعض أهل الله ، فقد قالوا : ومن رأى الكائنات منه – أى من الله سبحانه وتعالى – راها كلها جميلة . وفى ذلك أنشد منشدهم :

واذا رأيت الكائنات بعينهم فجميع مايحوى الوجود مليح

وهو قول أنكره من رأى فى معناه الاشتطاط والمروق وأقره من حمله المحمل الحسن ولزم معه نقاء الاعتقاد .

وعلى الرغم من أن استاذنا الشيخ يوسف الخليفة لم يحملنا على سفائن كل هذه المعانى والتأملات الا انه - بقراءته لهذه الاشعار وحثنا على استظهارها واستيعاب مقاصدها الوضيئة المتفائلة فى استمساك متين بعرى الطهارة والنقاء وسائر الفضائل - قد بث فى اقطار عقولنا البضة الصغيرة بعض اشارات لبقات تقرع اليأس وتطرد الشقاء وتنبت الأمل . وكان هذا هو مبتغاه ، وهو الذى يلائم روح البعث الذى اخذ يسرى بين ابناء الوطن فى تلك الازمنة لان التفاؤل واتساع رقعة الامل هى دعائم العمل الوطنى التعبوى وركائز الخطاب القومى الذى صار يحمل فى طياته طلائع البشرى بانعتاق الوطن من اسار الاحتلال . فهذا الشعر المتفائل انما هو عون لتلميذ تلك الايام لانه يفتح امام بصيرته ومخيلته على السواء آفاقاً رحاباً لتدبر بعض الحكمة من وراء الحياة ، وينير له طريقاً يبسا بين اتراحها فلا يخاف منها دركاً ولايخشى .

وانا لن استطيع فى هذه العجالة ان ارصد لك جميع الدروب البيانية التي سلكها بنا الاستاذ الشيخ يوسف لانها كثيرة لاتحصى . ولكن يمكننى القول بأنه جعل مّن هذه السياحات المتمهلة فى رياض الشعر وسيلة بالغة التأثير على صقال الاذواق والارتقاء بها . فاذا رقت الاذواق وصفت ودق احساسها فانها توحى اليك ايحاءً صادقاً بصحائح قواعد اللغة وغرائب اعرابها فتحسن القياس وتأتى بها سليمة معافاة من شوائب اللحن والخلط والتصحيف . وانا لست ازعم انك لاتحتاج الى معرفة اسس هذه القواعد بدءاً فذلك ما لايقول به احد ، ولكنى رأيت نفوس الصغار تستشعر نفوراً من يبس القواعد وجفافها وجفائها ان هى انصبت عليها تباعاً بتلك الرتابة التى تغص بها المشاعر ولاتستسيغها ، ولكنها تلتقطها التقاطاً هيناً على النفس من بين مونقات

رياض الشعر كما تجتنى الورود العبقة من بين افرع شجيراتها وهن مائسات يتراقصن بين اذرع نسيمات الفجر الوليد . وكما انك تحتال على مرارة الدواء النافع بماء عذب يذهب هذه المرارة فلايذهب به تأثير الدواء ، فانك تحسن صنعاً اذا اذبت قليلاً من القواعد فى كثير من الشعر حتى تنصقل فيك حاسة الذوق وترتقى ، فيواتيك فى يسر واضطراد وتلقائية ماكنت تحسبه مستعصياً عليك وأنت تجرعه صرفاً يشوى حلوق الافهام . ولقد قلت لك ان الشيخ يوسف ادرك ذلك فعطف بنا على رياض القصيد . وهو قد اكثر من هذه السياحة وشحذ منا المقدرات على استظهار المقطوعات الشعرية فى غضون الحصة الواحدة ، وجعل جوائزه على حسن البلاء تتراوح بين الاطراء والمكافآت النقدية ، وكثيراً مايجتمع لك كلاهما اذا انفردت انت وحدك بترديد الابيات الشعرية من ذاكرتك في حينها دون ان تلحن او تخطئ فى كلمة من كلماتها او حرف من حروفها . فمن منا لايذكر قصيدة ابى الطيب التى كتبها الشيخ على السبورة ثم ازالها منها وطلب الينا ان نقرأها عليه ؟ تلك كانت ميميته المعروفة التى يقول فيها هذه الابيات التى اذكرها منذ تلك الايام :

ذكر الصبا ومراتع الارام ... جلبت حمامى قبل وقت حمامى
دمن تكاثرت الهموم علىّ فى ... عرصاتها كتكاثر اللوّام
فكأن كل سحابة وكفت بها ... تبكى بعين عروة بن حزام
ولطالما أفنيت ريق كعابها ... فيها وأفنت بالعتاب كلامى
قد كنت تهزأ بالفراق مجانة ... وتجر ذيلى شرةٍ وعُرام
ليس القباب على الركاب وانما ... هن الحياة ترحلت بسلام
ليت الذى خلق النوى جعل الحصى ... لخفافهنّ مفاصلى وعظامى
متلاحظين نسح ماء شؤوننا ... حذراً من الرقباء فى الآكام
ارواحنا انهملت وعشنا بعدها ... من بعد ماقطرت على الأقدام

وما ان قرأنا ها عليه بعد حين صافية صحيحة مبرأة من عيوب اللحن والإقواء حتى

ام ضنب . . . وغير ذلك كثير . . . حتى يكتمل الفريقان باشراف عبد الوهاب سلسيون وأب زعانف ومحمد عمر وآخرين . واذا انتقلت الى جامع الخليفة بشريط الذكريات أبصرت فى نفق هذه السنين الدوارس الاستاذ هاشم ضيف الله وهو يدرب امير الكرة صديق منزول على فنون تسديد ضربة الجزاء . ولولا ذلك الهيام القديم لما بقيت امثال هذه الصور والاطياف في الذاكرة ، ولولا تسامح الاستاذ يوسف الخليفة ومرونته لما كان لمثل كل هذه المفارقات جامع يؤلف بينها فى مثل هذا النسق الذى يجمع الاشتات المتنافرة فى صعيد واحد .

ويقينى ان الشيخ يوسف كان – كغيره من رفاقه الاساتيذ – شديد التفاعل مع موجة البعث الوطنى التى انتظمت اقساماً واسعة من المتعلمين والمثقفين . واية ذلك انه كان بالغ الاحتفاء برموز الحركة الوطنية يلمس ذلك من يلمسه في بعض مقولاته . ولقد جاءنا في ذات صباح وهو فرح مسرور يعلن ان الاستاذ احمد محمد صالح – وكان استاذاً فى مدرسة التجارة الثانوية على ما اعتقد – سيزور فصلنا فى الحصة الاخيرة ، وكتب لنا على السبورة بعض أبيات من إحدى قصائده وأمرنا باستظهارها وتلاوتها عليه من الذاكرة حين مقدمه . ولقد استظهرتها فيمن استظهروها بسرعة فائقة ، وقرأتها عليه حين دخل فصلنا فى الحصة الأخيرة وهو يرتدى بدلة كنا نصف لونّها بأنه «سمنى» وهو مايسمى في الرطانة الانجليزية – ولعلها الفرنسية بصورة ادق – «بيج » . وهى قصيدته المشهورة المسماة فينوس يجارى فيها قصيدة الشاعر المصرى الاستاذ على الجارم التى كتبها عام ١٩٣٧م وكان مطلعها :

عيد الجلوس صدقت وعدك بالمنى وصدقت وعدى

فما ان اذن لى الاستاذ الشيخ يوسف حتى تلوت على مسامع الاستاذ احمد محمد صالح هذه الابيات من قصيدته من الذاكرة ، وتعمدت القائها بأحسن ما اوتيت من مقدرات :

أخلفت ياحسناء وعدى ... وجفوتنى ومنعت رفدى

فينوس يا رمز الجمال ... ومتعة الايام عندى

لما جلوك على الملا ... وتخيروا الخطاب بعدى

هرعوا اليك جماعة ... وبقيت مثل السيف وحدى

استنجز الوعد النسيم ... واسأل الركبان جهدى

يا من رأى حسناء تخطر ... فى ثياب اللاز ورد

الى قوله :

لو كان زندي واريا ... لتهيبوا كفى وزندى

او كان لى ذهب المعز ... لاحسنوا صلتى وودى

لما تنكر ودهم ... جازيتهم صداً بصد

هذى اليراعة فى يدى ... لو شئت كانت ذات حد

فاذا رضيت فانها ... شهد مصفى أى شهد

لى من بيانى صارم ... وكتائب العزمات جندى

علم شباب الواديين ... خلائق الرجل الاشد

علمهم ان التمسح ... بالفرنجة غير مجدى

وأبن لهم ان العروبة ... ركن إعزاز ومجد

ولما فرغت من القاء هذه الابيات سر الشيخ يوسف سروراً عظيماً واشاد بما اسمّاه حسن ادائى وهنأنى عليه . وقد ضاعف من سروره ان كان الاستاذ احمد محمد صالح بين ظهرانينا يستمع الى احد تلاميذ الشيخ يوسف وهو يتلو عليه بعض خلجات نفسه ويعرض امامه سرباً من بنات مشاعره . واما الاستاذ احمد محمد صالح نفسه فقد سعد سعادة ظاهرة وظل يتبسم فى رضاً وارتياح طوال فترة الالقاء . ثم دعانى اليه وهنأنى وشد علي يدى بحرارة ، ورفدنى بهديتين - او قل جائزتين - لازلت اذكرهما بعرفان . الاولى انه ابان لى ان الصواب فى امر الكلمة الاولى من البيت الرابع من هذه القصيدة هو ان تنطق بضم الهاء وكسر الراء مع ترقيقها ، وليس بفتح الهاء وفتح

الراء وتفخيمها كما كنت أقرأ . وهذه فائدة كبرى وهدية قيمة وجائزة ثمينة ، وان كان الامر قد بدا لى غريباً في حينه وحتى من بعد ذلك الحين ، الى ان وقفت على حقيقته بأخرة وايقنت انه افصح الكلم . قال تعالى فى سورة هود (اية ٧٨) : (وجاء قومه يهرعون اليه) . وقال تعالى في سورة الصافات (اية ٧٠) :(فهم على آثارهم يهرعون) . وليس بعد التنزيل الحكيم من مرجع يحتكم اليه . واما الجائزة الثانية فقد كانت مكافأة نقدية سخية بمقاييس تلك الازمان نعم بخيرها جميع اولاد فصلنا في نهاية اليوم الدراسى وعدت وانا خالى الوفاض منها تماماً ولكنى كنت مغتبطاً سعيداً راضى النفس بكل الذى كان . ورغم انى ماكنت لأبخل على زملائى بشئ مما رزقنى الله الا انى سمعت نقاشاً هامساً يدور بين بعض التلاميذ ونحن نمضى زمراً الى متجر الباسطة ناحية الشمال الشرقى لفناء المدرسة ، وهو همس وحديث لم يكن يخلو من طرافة وبعض مكر وسذاجة . همس بعضهم ناصحاً – من مواقع العطف على كداع لهم الى هذه الوليمة – ان العدل يقتضى الابقاء علي ستة قروش على الاقل ، ثلاثة منها لدار الرياضة ، وثلاثة منها لدخول سينما برمبل شعب ، وان امكن الابقاء على قرشين آخرين للطرماج والتسالى فذلك منتهى الانصاف لزميل لهم شقى بالحفظ واقدم على التسميع فرفع راسهم عالياً . ولكن احد الصقور لم يرق له هذا القول ولم تعجبه هذه السذاجة فزجرهم بما هو فوق الهمس ودون «الكواريك» قائلاً : ياجماعة انتو مالكم ومالو ؟ هو عاوز يعزمنا . هى قروشكم ولا قروشو هو ؟ فارتدع الهامسون ولاذوا بالضحك الخافت وكفوا عما بان لهم جلياً انه لايرضى الصقور . وتدخل أهل المكر فوفقوا بين الفريقين وساقوا الحجج التى ارضت الطرفين . قال محمد العوض وهو «يكتكتت» من الضحك : ياجماعة البعرف يتشعبط الحيطة ما بحتاج لتلاتة قروش عشان يدخل دار الرياضة . وقال التجانى الطاهر : لو عايزين تذاكر الشعب لسينما برمبل انا ممكن اجيب ليكم مية تذكرة من «بلة الاحمرانى» . ولقد أعجبنى تواضع

محمد المصطفى بلال وعبد الرحيم سعيد واولاد الموردة اذ لم يدع آى منهم أنه بمقدوره ان يسخر اللبخ او كبس الجبة لتسهيل مهمة دخولى الى هذين المرفقين العزيزين . ولو انهم ارادوا مثل هذا الادعاء لزعموه والتزموا به على رؤوس الاشهاد . تلك كانت «عزومة» الموسم ، وقد سماها محمد العوض «مأدبة فينوس» ! وذلك من ذكائه ، فهو لم ينسبها الى الاستاذ احمد محمد صالح ، وهو ان فعل ذلك لكان محقاً ، ولكنه خشى عاقبة التقليل من دور الاستاذ الشيخ يوسف وهو الذى هيأ لها الاسباب . وقوله «مأدبة فينوس» يشرك الاستاذين في الفضل ، ويتجنب ذكر اسم أى منهما ، فان كان احدهما صاحب القصيدة ومؤلفها فالثانى هو الذى عرفنا عليها وهو الذى اخرج المشهد الذى ساق الينا الجائزة النقدية . الم أقل لكم ان محمد العوض كان تلميذاً موهوباً بارعاً حاد الذكاء ؟

لقد كان استاذنا الشيخ يوسف الخليفة رجلاً عالى الهمة ، شديد الغيرة على مستويات تلاميذه فى اللغة العربية ومن الممكن القول بأنه قد افلح تماماً فى ارساء قواعد اللغة العربية في الاذهان عن طريق استخدام جياد الشعر . فارتقت عند تلامذته ملكة القياس ، وتفتحت عقولهم على نضارة البيان ، ورقت عندهم المشاعر وحسن فيهم صقال الأذواق . ولو انه مضى علي سيرته الاولى لما بلغ بنا مبلغاً ولحال الملل دوّن الانصات بحواس الوجدان . ولكنه ادرك هذه الحقيقة في وقت مبكر وابتكر من أجل تجاوز آثارها منهاجاً جعله اكثر قرباً لأحاسيس تلامذته ، فجذب انتباههم الى دروسه واحاديثه جذباً ، وسما بمعارفهم ومداركهم سمواً ، وأيقظ في نفوسهم مقدرات وملكات غافيات ، ربما خفيت من قبل عليه وخفيت عليهم وهم في غفلة معرضون . فلما اقبل عليهم بما راقهم اقبلوا عليه بما سرّهُ واسعده . ولقد ظل الشيخ يوسف يتعهدنا بدروسه القيمة وعنايته الهادفة حتى جلسنا لامتحانات الدخول الى المدارس الثانوية فكانت ام درمان الاميرية واحدة من القمم القلائل وكان اداء التلاميذ في اللغة العربية

ممتازاً شهد بامتيازه اصحاب الشأن فى تلك العهود . لقد عرف الشيخ يوسف مدخله الى قلوب تلامذته فأحسن الدخول وأبان عن مرونة بصيرة بالامور :

اذا ما اتيت الامر من غير بابه   ضللت وان تقصد الى الباب تهتد

ابو الفضل الذى أحببناه :

كنا في السنة الثانية نجلس في فصل قريب من مكاتب اساتذة اللغة العربية وهو يقع فى الجزء الشرقى لفناء المدرسة ، تتجه وجوه التلاميذ وهم فى داخله الى ناحية الغرب ، وتفتح نافذتاه على فضاء يحده السور الشمالى للمدرسة ، ويطل بابه من الناحية الجنوبية على بهو صغير يقع غربى مكتب الاستاذ عثمان على ابراهيم ويشكل بالنسبة لهذا المكتب والمكتب الذى يجاوره رئة هامة ومتسعاً رحباً وظلاً ظليلاً للقاعات العابرة بين الاساتذة ريثما يمضى كل منهم الى وجهته التى هو موليها . لقد كان لقرب مكتب الاستاذ عثمان على من فصلنا اثر بالغ الاهمية بالنسبة لنا وذلك لان الاستاذ عثمان كان من اولئك النفر الذين يحبهم التلاميذ ويعجبون بهم ، فهو لاينتهر أحداً ولايمد يده اليه بعقاب . وصار قرب مكتبه من فصلنا مدعاة لنا لمزيد من التعرف عليه . وهو شاب بسام لين الجانب ودود الطباع . إذا احتشد التلاميذ فى مكتبه يستنبئونه عن شأن من شؤون دروسهم فهو لايبدى ضجراً ولايلقاهم الا بوجه ضاحك صادق الترحاب ولو علا ضجيجهم وضاق غيره من شو شرتهم . يجيب على كل سؤال يطرح عليه وكأنه هو التلميذ والسائل الاستاذ . ويشرح لك ما استعصى عليك من دروس ولوكانت الكراسات على منضدته اكواماً مكدسة تنتظر التصحيح . شديد الحيطة والحذر ازاء كل كلمة تخرج من فيه ، لاينطق هجراً من القول ولايلقى على مسامع تلامذته ما يؤذى احداً من بينهم . هو فى طول قامة زملائه الاستاذة الشباب ، ينهج نهجهم في العناية بحسن مظهره ، ولايغالى مثل آحاد منهم حتى تشغله هذه المغالاة عما هو اهم فى نظره واجدى . ما رايته تأخر عن درس التزم بالوفاء به ابداً ،

ولارأيتـه تثاقل عن استيفاء شرح نذر وقتـه له ولو طال امد هذا الشرح وتشعبت طرائقه . اكثر هيئاته التزيى بالبدلة الكاملة وأحب الوانـها اليه الرمادى والداكن مع ربطة عنق حـمـراء فـاقع لونهـا تسـر الناظرين او ذات الوان هـى غـاية في التناسق والانسجام . شعر راسه فاحم السواد عوان بين الرخاوة و «الفلفلة» لا هو بالكث ولا هو بالقليل ، مصفف بعناية ولكنه برئ من الدهون والاصباغ . يكثر من لبس النظارة السوداء ، فيبدو فيها اكثر صرامة وحزماً مما هو عليه غير ان ذلك لايجعله فى منأى عن وجدان تلامذته . فاذا خلعها اقترب منهم قرباً يكاد يرفع الكلفة بأسرها بينه وبينهم ، واوشك ان يصير واحداً منهم . فهو شاب متواضع شديد التواضع ، لايفرق بين تلامذته وانما يلقاهم جميعاً بذات الروح السمحة وبذات البشر والترحاب . اذا مشى فهو يخطو خطوات متزنة ولكنها اقرب الى الاسراع منها الى البطء لانها بعض حيويته المتدفقة ، وطرف من نشاطه الدؤوب . فى مشيته وقار موسوم باليقظة واتزان مرصع بالهيبة وشموخ ناطق بعزة النفس . فى عينيه ذكاء وقاد وعلى جبينه سمات الصفاء والوداد والقبول ، وفى حديثه لباقة منطق وحرارة مشاعر وصدق عواطف . ولولا ان مكتبه كان على مقربة من فصلنا لماتسنى لنا أن نلقاه كثيراً . ولولا هذه اللقاءات الكثر لما وقفنا على حقيقة امره بالقدر المطلوب . ولولا تواضعه الجم ومرونة طبعه المواتّية لأعوزتنا الجسارة على اقتحام مكتبه وابتداره بالحديث . فهذا استاذ فتح قلبه لتلامذته الصغار يطرحون عليه قضاياهم فى شتى صورها وانماطها ويحملون اليه بثوثهم وظلاماتهم ، فلا يلقاهم الا بوجه طلق مضياف ولا يغادرونه الا وقد سرى عنهم وزالت عنهم الهموم .

كان الاستاذ عثمان على يدرسنا اللغة العربية فى السنة الثانية على ايام ام درمان الاميرية الوسطى وهو الذى استطاع بمقدراته الهائله ان ينقلنا من دنيا الاناشيد الساذجة والأراجيز البسيطة الى عوالم الشعر المونقة المثقلة بقطوف المعانى . فانتقلنا

بفضل جهده الدؤوب ونهجه المعافى من بدايات «احب الماء والشجرا» الى مراقى «وشاة بلا قلب يداووننى بهـا # وكيف يادوى القلب من لال له قلب » – وهى نقلة كبرى من دروس اللغة العربية في السنة الاولى الى دروسها في السنة الثانية . وانا لست اعيب بذلك علي اساتذتنا في السنة الاولى فقد كانوا يعملون فى اطار نهج مقرر ويتعاملون مع صغار يخطون خطواتهم الاولى فى هذه المرحلة الدراسية ، وهم قد مهدوا لاقدامنا الرخوة السبل وهيأوا عقولنا الغضة للتلقى ، ولولا هذه المقدمات التى قد تبدو ساذجة في نظمها ومحتواها ولولا انهم اشقوا انفسهم في تبصيرنا بها لما تيسر لنا ان نطيق هذه النقلة التي حملنا عليها الاستاذ عثمان على . فلهم منا عظيم العرفان والامتنان لايقافنا على بدايات الطريق بأقدام راسخة ، ولاستاذنا عثمان على جليل الشكر والتقدير على اقتحامه بنا قلاع الشعر العصية . لقد انتقلنا بفضل مثابرته وصبره الى افاق المتنبى والشريف الرضى واحمد شوقى وحافظ ابراهيم وغيرهم من الفحول وطفقنا معه نغادر قمة لنحط على اخرى حتى اغتنت معارفنا وسمت مداركنا وحسن المامنا بما يناسب تلك الاعمار الصغيرة ويربو علي ذلك . ولقد استطاع الاستاذ عثمان على باسلوبه السهل الرصين ان يغرس في نفوس تلامذته حب القيام بأدوار تعرض علي خشبة مسرح المدرسة يضطلع القائمون بها من التلاميذ بالقاء الشعر إلقاءً حسَناً مبرأً من العيوب ، وهو شعر يزخر بفصوص المعانى الرفيعة ويمور بدرر القيـــم السامية . فهو الذي علم محمد العوض وحبب الي نفسه القيام بدور قيصر وانطقه بشعر بالغ الجودة مازلنا نذكره ونحن الي ايامه . وهو الذى مرنت بفضله السنتنا على اشعار منسوبة الى عنترة والى ابن الملوح ، كنا نسعد بها ونشدو بها فى فصاحة واتقان ونحن نمثل فصول رواياتها المختلفة علي المسرح وامام ملأ من الناس ، أكثرهم التلاميذ ومن بينهم رهط من اساتذة المدرسة وبعض العاملين فيها . فاذا شرعنا في تمثيل الادوار المنوطة بنا رايت الاستاذ عثمان يكثر من القيام والجلوس ومن الحركة عموماً فى قلق

ظاهر مبعثه شدة حرصه على ان يتقن تلامذته تلك الادوار اتقاناً ، وان تنطلق السنتهم بصحائح الاشعار انطلاقاً ، وان يحدث اداؤهم الاثر الذى يتطلع اليه والذى ينبغى ان يحدثه بعد ذلك المران الدؤوب وذلك التدريب المضنى . فاذا كان ذلك رايت الاستاذ عثمان وهو اسعد الناس لانه اشقى نفسه ليكون الذى كان ولانه هو السر الحقيقى الكامن وراء ذلك النجاح . ولقد كان للاستاذ عثمان اسلوب فريد فى التعامل مع تلامذته . مارايته يعاقب تلميذاً ابداً . وعلى الرغم من ذلك كان التلاميذ اكثر ما يكونون هدوءاً فى حصته ، فقد اوتى ملكة فريدة في اجتذاب اهتمامهم لما يقول وقدرة ساحرة على ترويض انتباههم وتركيزه على مايلقى على مسامعهم من حديث سواء كان ذلك نثراً او شعراً . وهو قد استطاع ان يسحر عبد الكريم ويلهيه طويلاً عن ممارساته الشغبية المعهودة وانغامه الشفرية البرجلية الحبيبة الى نفسه وانفس اقرانه من اولاد الفصل . وعندى ان ذلك قمة الاقناع وغاية الاقتدار على طرح البدائل بوسائل خلت تماماً من اي اثر للترهيب . فهو الترغيب فى احسن صوره ، لانك تأتيه طائعاً وانت راغب مأخوذ . ويقينى ان هذا الاسلوب الذى انتهجه الاستاذ عثمان على مع تلامذته انما هو سجيته التى فطر عليها حتى يخيل اليك انه لو ارد سواه لما افلح فيه ولما انقاد اليه طبعه . وقد عرف فيه تلامذته هذه الخصال الآسره فوقروه واحبوه وتأدبوا فى حضرته وعزفوا عن احداث الشغب وعزف المعزوفات التى كانوا فى اوائل عهودهم به يتبادلونها بينهم تماماً كما يفعلون فى حصص الأساتذة الاخرين . فهى ان كانت تثير عليهم حفيظة هؤلاء فان الاستاذ عثمان لم يكن يحفل بها اويلقى لها بالاً ، وانما يتغافل عنها وربما ابتسم لها فى بعض احيانه دون ان يبدى أى نوع من الاهتمام الظاهر بأمرها . فقد كان شديد الثقة بنفسه وبمقدراته على جذب انتباه التلاميذ الى ما يلقى عليهم من درر البيان وكرائم الاشعار . ولقد صدق حدسه وحق له ان يثق بمقدراته لان أهل الشغب قد كفوا عن شغبهم او كادوا وانتصر هو بذلك لفضيلة الحجة والاقناع السلمى الهادئ

واعلى رايةالمنطق واعتمده وسيلة رابية على وسائل الترهيب وبديلاً – ان انت احسنت استخدامه – عن خيارات اشق واقل جدوى . فهو لايخاطب عقول تلامذته وحسب وانما يخاطب وجدانهم ايضاً ويلامس ببساطته وتواضعه مواضع القبول في مشاعرهم وذلك انه لايفرق بين احد منهم ، ويوحى الى كل فرد منهم بأنه تلميذ «شاطر» ومقتدر على فهم هذه الاشعار وتذوقها ، بل على كتابة الشعر تأليفاً وابتداعاً . فكثر على أثر ذلك الراغبون فى تمثيل الادوار التى كانت تعرض على مسرح المدرسة روايات شعرية ، واحتد التنافس بين الفتية ، وظهرت بينهم ملكات كانت خافية وبانت مقدرات كان يحبسها الخجل وربما قعد ببعضها خوف اللحن عند صعود المنابر . فكان محمد العوض بطل «الخشبة» فى اكثر من رواية وكان غيره قمماً – بمقاييس تلك الاعمار – فى اتقان العروض المسرحية وسلامة الالقاء الشعرى .

ولما كان الاستاذ عثمان يشجعنا على تأليف الاشعار ويساعدنا علي ذلك فان بعضنا لم يتحرج فى كتابة الشعر . وانى لاذكر انى كتبت «قصيدة» اسميتها «كررى» وعرضتها على الاستاذ عثمان فأشاد بها وأشعرنى انها اعجبته وطلب منى ان القيها امام حشد كبير على خشبة مسرح المدرسة . وقد فعلت ذلك بجسارة كلما ذكرتها الان عجبت منها ، وهى من بعض افضال الاستاذ عثمان علينا ، فقد كان يغرس فى نفوس تلاميذه هذه الجسارة ويغذوهم بأمثال هذا الاقدام الادبى فتخصب أخيلتهم على الابداع وتتنامى مقدراتهم على الافصاح عما فى سرائرهم ويحسن اقبالهم على القاء الشعر فى ملأ من الناس دون اضطراب او فزع . وانا وان كنت قد نسيت هذه القصيدة التى كتبتها وانا تلميذ في السنة الثانية الوسطى – اوقل ضاع عن ذاكرتى أغلب ابياتها – فانى مازلت اذكر بعضاً منها . ولست ارتاب فى ان اغلبها لم يكن شعراً بالمعنى المفهوم وانما كان محاولة لكتابة الشعر وهو عين الامر الذى كان يريده الاستاذ عثمان من تلامذته ، فقد يفضى بهم فى وقت من الاوقات الى كتابة الشعر

الصحيح . ورغم انى لم اصبح شاعراً ابداً الا انى اذكر امر هذه القصيدة جيداً وذلك لاسباب ثلاث : اول هذه الاسباب هو ارتباط هذه القصيدة بالاستاذ عثمان فهو استاذ اثير لاينسى ولاينسى ما ارتبط به فى الذاكرة منذ تلك العهود . وثانيها ان هذه القصيدة كان موضوعها معركة كررى الخالدة ، وتلك ملحمة مازالت اصداؤها تدوى فى الآفاق . ولقد كان مطلع القصيدة :

الطبل يضرب والرجال تنادى   والموت نهر والنفوس صوادى

وجاء فيها هذا البيت :

كررى قسوت على بنيك ، دماؤهم   سالت واروت ارض ذاك الوادى

وليتنى لم اقرأ هذه القصيدة ، فقد صرت بها مضغة فى فم محمد العوض مصطفى الذى كان كلما لقينى اغرق فى الضحك وهو يردد بلهجة مليئة بالسخرية : الطبل يضرب والرجال تنادى . حتى مللت ذلك منه وكدت ان اشتجر معه لولا انه كان خبيراً بتجاوز مثل هذه المواقف وتحويلها الى مالايدفع للشجار .

واذا كنت قد سلمت من سخرية محمد العوض ومن شذاة لسانه القاطعة بعد أن صمدت فى وجه «مطاعناته» صمود الابطال فانى لم اسلم تماماً من تندر غيره على بل ومن ظلم ذوى القربى الذى قيل فيه واجيد القول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

وهذا هو ثالث الاسباب التى جعلت امر هذه القصيدة يعلق بذاكراتى حتى هذا اليوم على الرغم من ان اكثر ابياتها قد غابت عنى وطوتها غيوم النسيان ، فقد زارنى فى تلك الايام احد اقاربى وهو شخص حبيب الى نفسى ، ووجد هذه القصيدة في يدى اتأملها وانا راض عنها تمام الرضا . فسألنى : ما هذه الاوراق التى تقرأ ؟ قلت هى قصيدة كتبتها عن معركة كررى والقيتها فى المدرسة امام ملأ من التلاميذ والاساتذة . وطلب الاطلاع عليها فأمكنته من ذلك . وكنت واثقاً من انه سيطريها وسيمتدح جهدى

فى كتابتها لان الاستاذ عثمان على فعل ذلك ، ولان الذين استمعوا اليها استحسنوها واثنوا عليها . وكانت دهشتى عظيمة حينما ارجعها الى بعد ان فرغ من تلاوتها ، وجميع تعابير وجهه ناطقة بما يشبه التقزز والاستنكار . وصمت بعض دقائق ثم قال لى : هذه قصيدة موزونة بميزان حطب ! وقد صدمنى هذا القول واوجعنى في حينه . وليته وقف عند هذا الحد . ولكنه اشار الى كلمة في القصيدة وهى كلمة «الاجناد» - وانا اذكر ذلك جيداً ولكنى انسيت البيت الذى وردت فيه - فقال لى هازئاً : هل هذاجمع تكسير التكسير ؟ فلم أجب بكلمة . ولكنى حزنت حزناً شديداً لأن صاحبى هذا وهو رجل راشد ومعلم أيضاً كان من أحب الناس إلى نفسى . وزاد من حزنى أن تعليقه أقتصر على هذا النقد الجاف دون التبصير بصحائح الامور ودون أى تشجيع على اجتلاء هذه الصحائح ، فكان فيه من التثبيط ما يورث النفس الأسى والخذلان . ولم أنم تلك الليلة إلا غراراً . وفى الصباح الباكر حملت مظلمتى إلى الاستاذ عثمان على دون ان ابوح باسم قريبى هذا له ، ورجوته ان يعيننى على تلافى هذه العيوب التى حفلت بها القصيدة كما انبئت ، حتى أخرج من ميزان الحطب الى ميزان الذهب ، وحتى لا احدث مزيداً من التكسير لجمع هو أصلاً ضحية هذا التكسير ! فوجدت عند استاذى عثمان على عطفاً كريماً وسنداً هائلاً وتأكيداً لايرقى اليه الشك بأن القصيدة موزونة ، وان كلمة «الاجناد» كلمة عربية صحيحة . وخرجت منه مرفوع الرأس وقد استرددت من كرامتي وثقتى بنفسى قدراً عظيماً لايستهان به ، وان بقى فى خاطرى شعور قوى بأن الاستاذ عثمان انما كان يشجعنى ويرفع من هممى ويخفى عنى قصورى عن فهم الاوزان الصحيحة والالفاظ الفصيحة خشية ان ينال ذلك من مثابرتى ورجاء ان اقف بنفسى فى مقتبل ايامى على هذه العيوب فأقيمها واصلحها بما يتوفر لى من معارف جديدة اثر تطور طبيعي للمدارك يصاحب النمو العقلى للتلميذ . فهذه محمدة من محامد الاستاذ عثمان الكثر وهو نهجه الذى ارتضاه فى تعامله مع تلامذته

ويرهنت الايام والاحداث على سلامته وجليل فائدته . ومن عجب انى تأثرت بهذه الواقعة تأثراً شديداً وظللت اسائل نفسى عن دوافع قريبى التى حدت به لان يفجعنى بهذه التعليقات القاسية وانا بعد تلميذ هش المعارف نزق الاحاسيس . وقد وقفت بعد سنوات طوال على قناعة راكزة بأن تلك القصيدة قد كانت بالفعل سليمة الوزن الشعرى وان كلمة الاجناد انما هى كلمة عربية فصيحة ، وهى ان كانت جمع تكسير فان كلمة جند هى ايضاً جمع تكسير لان المفرد هو «جندى» ، ونحن لا نقول «جنديون» أو «جنديات» وإن كانت الأخيرة تصلح جمع مؤنث سالم لكلمة «الجندية» المؤنثة . فانظر كيف يمكن لحدث بسيط كهذا ان يبقى في الذاكرة لايفارقها بعد مضى ما يقارب نصف قرن من الزمان . وانظر الى هذا الانطباع الحسن الذى تركه الاستاذ عثمان فى ذاكرة احد تلامذته ، وقارنه بهذا الانطباع الاخر الذى وقر فى ذاكرتى على أثر كلمات قليلة دفع بها فى وجهى احد احب اقاربى الى فى مدى زمانى لم يتعد فى حينه بضع دقائق معدودة . وانا لست اقول هذا الذى اقول من موقع الحفيظة والحنق ، فما زال قريبى هذا من احب الناس الى نفسى ، وهو من احسن الناس خلقاً فى نظرى ومن ارفعهم قدراً فى اعتقادى . ولكنى اسجل انطباعات كما قلت لك من قبل واحرص على الاتيان بها كما ارتسمت فى ذهنى فى وقتها ، فهى وليدة وقتها . وأنت قد تفسر قوْلاً قيل لك بغير ما أريد منه ، وتذهب فى معناه غير المذهب الذى عناه الشخص الذى نطق به . والاحوط عندى ان يتدبر الاساتذة جميع الاثار التي يمكن ان تنجم عما يلقونه على مسامع تلامذتهم الصغار لان عقولهم البضة اوعية جامعة تحفظ كل مايلقى عليها وتصنفه تصنيفاً . فان كان خيراً ذكروك بالخير ، وان كان غير ذلك فهو غير ذلك . ولقد قال شكسبير – ان لم تخنى الذاكرة – وصدق فيما قال : ان الاشياء الحسنة التى يعملها الانسان تدفن معه بعد وفاته ، وان الاشياء السيئة التى يجترحها الانسان تبقى بعد موته !

The good things that men do are burried with them , the evil thngs that men do live after them .

وفى قوله هذا جانب كبير من الحقيقة ، وفيه نوع من السخرية (cynicism) وهو قول فضفاض ولكنه يشمل مانتحدث عنه من صلة الاستاذ بتلامذته الصغار ، وقد طاف كثير من الامثلة السودانية حول هذا المعني ، وبعضها اتي به في كلمات قلائل جامعة دون سرف في الكلمات ودون قصور في بيان المقصد ، والله أعلم . علي ان الذي يهمنا في هذا السياق ليس هو شكسبير فنحن لم نسمع به في عهودنا الباكرة ولم نقف علي اشعاره الا في المرحلة الثانوية ومازلنا نتعثر في فهم كثير منها بعد أن بلغنا من العمر عتيا ، ولكن الذي يهمنا هو ماوقر في الذاكرة وانطبع فيها من أحداث تلك العهود وسير تلامذتها واساتذتهم . وبين الاساتذة تفاوت وتباين في الاسلوب التربوي الذي يتبعونه مع تلامذتهم ، وبين التلاميذ تفاضل واختلاف في تسجيل أحداث الصغر بين دفتي كتاب الذاكرة ، ولكن العقول الصغيرة متقاربة في الفهم والادراك الا ماشذ منها وهو قليل ، وعقول الكبار متباعدة في هذا المضمار اشد تباعد . ولست أرتاب في ان جميع الاساتذة الذين تتلمذنا عليهم في تلك الايام الزاهية كانوا رجالاً اكفاءً وكانت مقاصدهم حسنة وسوية . وقد يحسن القصد عند استاذ واستاذ ويختلف الانطباع الذي يخلفه هذا في اذهان تلاميذه عن الذي يخلفه ذاك.والسر من وراء ذلك كامن في تباين اساليب التعامل مع الصغار واستصحاب اليقظة التامة في هذا التعامل وذلك لأن الفتي الصغير – وان قلت معارفه وتجاربه – له عقل شديد الحساسية وذاكرة مكتملة الصفاء تصور الاحداث تصويراً وتختزن صورها اختزاناً ولاتغادر شيئاً إلا ومنه في تجاويفها بعض أطياف . وهو عقل شديد الاحتفال بما يسره ويرضيه ، وافر القدرة علي التمييز بين الحسن والأحسن ، قليل الاكتراث بما دون ذلك . ولقد كان الاستاذ عثمان من جيل الاساتذة الذين ادركوا هذه الامور أطيب ادراك ، وسلكوا إلي قلوب تلامذتهم أهدي السبل وأجداها فخلفوا في ذاكرة أذهانهم أروع الصور وأبقاها .

ولم يكن الاستاذ عثمان بمنهاجه الذي اقترب به من وجدان تلامذته مصطنعاً ماليس في طبعه ، بل كان منهاجه وليد خلائقه التي جبل عليها . ولو كانت هي بخلاف ذلك لما خفي منها شي علي دقة ملاحظة أولئك العفاريت الصغار ولما انطلي عليهم قول يخالف طبيعة قائله ولما انتقشت عنه في ذاكرتهم هذه الصور الزاهيات الحسان .فقد التقينا الاستاذ عثمان علي مرة أخري في خور طقت الثانوية فكان امتداداً عبقاً وارف الظلال لذات الخصال التي خبرناها فيه ايام امدرمان الاميرية الوسطي . بل ان النضج النسبي الذي أصابه التلاميذ قد لاقي ادراكاً واعياً من الاستاذ عثمان لمضمون المتغيرات التي انتظمت البيئة المغايرة والحياة الاجتماعية الجديدة والمستوى الذهنى والفكرى المتطور الذى احدثته بضع سنوات فى نفوس فتية اكثرهم دون منتصف العقد الثانى من العمر . ولذلك انطوى كثير من المسافات الوجدانية التى كانت تفصل بين التلميذ والاستاذ واصبح القرب بينهما أرفع درجة واغزر معنى ومضموناً واجدى وابلغ اثراً . فصار الاستاذ عثمان صديقاً لنا بحق ، وظل يحمل راية تدريس اللغة العربية فى اخلاص وثبات وتفانٍ لايدخر وسعاً ولايرضى الا بالكمال الذى هو فى مقدور البشر . وهو الذى طاف بنا جميع رياض الشعر نقطف منها الورود ونصافح من أهلها بعواطفنا واخيلتنا ابا الطيب المتنبى وابا العتاهية والبحترى وابا تمام وابن هانئ وابْن زيدون وغيرهم من أئمة القوافى والبيان . ولكن ذلك هو شأن خور طقت الذى قد نتناوله ان شاء الله فى الجزء الثانى من هذه الاصداء فلنتركه إذاً حتى ذلك الحين إذا مدّ الله فى الأيام . غير أن الحديث عن الاستاذ عثمان ومايمكن أن يفتقه هذا الحديث من ذكريات متداخلة يمكن ان يطول . وليس المقصود من هذه الصفحات سوى بعض لوافت لأطراف ذكريات ، فماهى بالدراسة المتأنية المستقصية ولاهى بالبحث التحليلى العلمى لرموز او اشخاص او حقبة زمنية منتقاة للتقصى والتفصيل . وربما حسن مثل هذا المنهج – مع كثير من التهذيب والالتزام العلمى الموثق – لدراسة عطاء ذلك الجيل

الفذ من أساتذة تلك العهود المواضى ، وربما لدراسة النمط السلوكى لتلامذة تلك العهود ايضاً ، وهو عمل اذا قدر له ان يتم على أسس جديدة يمكن أن يكون عظيم الفائدة . ومهما يكن من أمر فقد كان الاساتذ عثمان على ابراهيم واحداً من اجل اساتذتنا فى ام درمان الاميرية وخور طقت . ورغم انه صار فيما بعد صديقاً لى ولغيرى من زملاء تلك العهود فهو لايزال بالنسبة لى استاذاً ومن آثر الأساتذة عندى ، فاذا رايته على البعد وقفت لتحيته وكأنى لا ازال تلميذاً فى فصل التوانى او فى فصل الرشيد او ابن رشد، واذا حييته ورايت انى لم اوفه حقه من التبجيل والاحترام لمت نفسى على هذا التقصير وعنفتها عليه تعنيفاً . فهو يلقاك بشوشاً دوماً وعلى وجهه ذات الابتسامة القديمة التى مهدت له السبيل الى قلوب تلامذته واقاصى مشاعرهم ، وبذات التواضع الجم الذى عهدناه فيه ونحن تلامذة صغار لا نحسن التفريق بين الحال والتمييز ، وبذات الدفء العاطفى الذى كان بعض ايادية على كل من تتلمذ عليه فى تلك الازمان . اليس من حقه علينا ان نذكره بالعرفان ؟

انا الوفيُّ وتأبى الغرّ من شيمى　　كفران نعمة من أسدى الى يدا

استاذ على . . والصخرة الملساء :

وأنت اذا ذكرت تلك الكوكبة المضيئة من شباب الاساتذة فى ام درمان الاميرية فانك لاتملك الا ان تذكر بالعرفان والتبجيل فى مقدمة طلائعهم الاستاذ على محمد خير . فقد جاء الاستاذ على وهو شاب نظيم الهيئة بهى الطلعة حسن الخلقة والخلائق ليعلمنا فنون أوليات علوم الرياضيات . ولعله كان مثل بقية شباب الاساتذة حديث التخرج من الجامعة ، ينبئ عن ذلك حماسته الدافقة والتزامه الدقيق بالمواعيد وحرصه على الاسهاب فى الشرح والتبيين وابلاغ كل من كان له قلب من التلاميذ ، او القى السمع وهو شهيد . وهو مثل رفاقه من شبيبة الاساتذة «يتدبج» بالبدلة الكومبليت التى غالباً ماتكون رمادية اللون أو مقاربة لذلك ، ولكنه – فى اكثر أحيانه – يبدو أكثر ميلاً

للبساطة ، فيكتفى بالقميص الابيض والبنطلون ذى اللون «الغامق» ، فتكسبه هذه البساطة مع اعتدال جسمه وميله الى النحافة اناقة وهيبة وبهاء مظهر . ولقد استقر فى خلد التلاميذ ان الاستاذ على يكون اكثر تشدداً معهم حينما يلقاهم وهو متهندم بالبدلة الكاملة ، وهو أقرب للعفوية واكثر صفحاً عن زلاتهم الدروسية والانتباهية عندما يطلع عليهم وراء بساطة القميص والبنطلون . وكان ذلك امراً محيراً بعض الشئ ماكنا لنهتدى لاسبابه لولا ان بعض عفاريت الفصل تطوعوا بتحديدها - اوقل تأليفها - حسبما كان يتراءى لهم . فقد قيل فى معنى ذلك او اسبابه ان الاستاذ على حينما يكون فى البدلة الكاملة يختلف حاله عما يكون عليه فى غيرها . وذلك من عدة وجوه . اولها انه لايمد يده للبشاورة ابداً وانما يكثر من اصدار الاوامر للتلاميذ : يا ود انت ، امسح التختة ، ويحرص أثناء ذلك على الابتعاد عن غبار وعفار الطباشير حتى لايعلق ببدلته . هذه واحدة ، وقد يكون محقاً فيها ، ولكنها من الامور التى قد تثير عليه حفيظة بعض التلاميذ وتفتح المجال امامهم واسعاً لاتهامه «بالقرضمة» . وهذه تهمة خطيرة لانها اذا استقرت عنك في أذهان التلاميذ فانها - بجانب انها منقصة فى نظرهم - باعثة على مواجهتها بردود فعل متباينة ، ليس من بينها الرضا عنك ولا التسليم لك عن طواعية . وثانى هذه الوجوه هو أن لبس البدلة الكاملة - اذا لم يكن مصحوّباً بالابتسام الدائم وملاطفة التلاميذ والتغاضى عن تجاوزاتهم - انما يوحى بمظهر من مظاهر السلطة والقهر ويجعل الاستاذ فى نظر التلاميذ أشبه مايكون بالبروقراطية الادارية او ماهو قريب منها ، وفى النفوس نفور تلقائي عن كل ما هو لصيق بالادارة لانها هى التى ترعى الانضباط وتتشدد فيه ، وهو عين الامر الذى يؤدى الاخلال به - وهذا كثيراً مايحدث وكثيراً مايكون عن غير قصد - الى المساءلة والعقاب . وثالث الوجوه هو ان تندر التلاميذ على الاساتذة فى الفصل - وان كان كله همساً وإشارات وتلميحاً دون توضيح - انما يتزايد الي حدود معينة مع تزايد صرامة الاستاذ

واصراره على متابعة كل تلامذته لشروحه ، وخاصة اذا كان مظهر الاستاذ وعنايته به وطرائق حديثه معهم تشير - من قريب او بعيد - الى ما يسمونه «القنزحة» او «القرضمة» او «التعلبة» ، فهذه امور لايطيقونها ، وانما يستلهمون افانين شيطنتهم للرد عليها بما هى مستحقة له فى نظرهم. غير ان الاستاذ على لم يكن «متقرضماً» ابداً ، وقد ظلمه الذين رموه بهذا النعت البغيض وأجحفوا عليه ، وقد ساءنى ذلك لانى رأيته استاذاً عالى الهمة غزير المعرفة بصيراً بوسائل الشرح والتبيين . وكنت احسب ان الذين أهالوا عليه مثل هذه التهم التى تفتقر الى البرهان الواضح وتشتمل على البهتان الصريح انما هم فتية الصفوف الخلفية فى الفصل . ولكن عبد الكريم اكد لى أنهم بريئون من ذلك وان العقل المدبر وراء إشاعة هذا الارجاف بين الناس لم يكن سوى هاشم مصطفى ، ووعدنى بزجره وايقافه عند حده اذا هو لم يرتدع من نفسه ويعمل غير الذى كان يعمل . وقد كان احد الخبثاء - وكنت اظنه هاشم مصطفى غير انى لم اجزم بذلك حيال نكرانه - قد كتب على السبورة قبيل دخول الاستاذ للفصل شيئاً من الشعر جاء فيه هذا البيت الذى لا طعم له ولا لون ولا رائحة :

إن الامور همة ليس الامور «قرضمة»

واحسب ان الكلمة التى استبدلها هذا العفريت بكلمة «قرضمة» هى كلمة ثرثرة . وعلى كل حال فهو شعر سخيف ولست اعلم ناظمه وقد أنكر هاشم كتابته رغم ان محمد العوض الذى يجلب الضحك للناس من معادنه لايمكن ان يفوت فرصة مثل هذه فقد قال لى : ياخى ينكر شنو ؟ هو دابيت الشعر الوحيد الحافظو هو ! وعلى كل «الشينة منكورة» وهى شينة فى حق الاستاذ على كما أكد لى ذلك عبد الكريم ، الذى وافقنى على ان الاستاذ على انسان ممتاز ولكنه مطيل فى الشرح ومولع بطرح الاسئلة الصعبة . ومن شروط عبد الكريم التى اشترطها على ثمناً لمحبته للاستاذ على وارغام الآخرين على هذه المحبة - وكأنى مبعوث من قبل الاستاذ على للتفاوض معه على هذا

الامر – ان يتركه الاستاذ على وشأنه ولايتدخل في الانشطة والانغام الموسيقية التى يبدعها ويسوق لها مشاعر الاخرين . ومن عجب ان الاستاذ على كأنما احس ذلك كله دون ان يشى به اليه احد ، فتركه وشأنه لايسأله وترك الآخرين . ولذلك أزال الكبتل بيت الشعر عن السبورة قبل دخول الأستاذ على ووضع اسم هاشم مصطفى فى صدر قائمة المهرجلين في الفصل وحرص على التأكد من اثبات اسمه فى دفتر عم مبارك .

والاستاذ علي عندما بدأ تدريس الرياضيات فى فصلنا استهل ذلك بحماس منقطع النظير ولم يتمعن فى الوجوه ولا شغل نفسه بمعرفة الاسماء من اول وهلة . ولكنه فطن بعد حين الى ضرورة تأمل وجوه التلاميذ ليستشف – على اقل تقدير – مقدار درجات الاستيعاب وتفاوتها بين مختلف الفتية في الفصل . فالتعابير التى ترتسم على الوجه على أثر الايغال فى الشروح لاشك منبئة بخبر تقاس به درجة الفهم ويقرأ منه انعدامه وتعذره . ولعل الاستاذ على اندهش عندما حدق ملياً فأبصر رجال الربع الخراب : عبد الكريم ، ومكى ، والحاج الكبتل ومحجوب و تساءل فى دخيلة نفسه – من غير ان يبوح بذلك شئ من تقاطيع وجهه – كيف حكمت عليه الأقدار ان يقوم بتدريس هؤلاء الصبية العماليق الذين يضارعونه طولاً وعرضاً وليس يفوقهم هو سناً الا بأعوام قليلة ؟ ولما لم يجد لتساؤله الذى طرحه علي نفسه اجابة شافية لأن الأقدار لايمكن محاسبتها علي ماجرت به واقتضته سنتها التى هى بعض قضاء الارادة المحيطة ، فان الاستاذ على ادرك الا طائل من وراء منازعة القدرة ، وان لا راد لقضاء الله ، وان لا فائدة ترجى من محاولة ترويض السباع ، فقصر اهتمامه على من يجلسون فى الصفوف المتقدمة فى الفصل ، قفلاً لجميع ابواب الشر التى تأتى منها الريح ، وطلباً للسلامة ، واحتراماً مرناً حصيفاً لرغائب الصقور . وذلك ان عبد الكريم حينما يغرس حد الشفرة في شق درجه ويعزف – او يعبث – عليها بأطراف البرجل والمنقلة والمثلث ، انما يحدث انغاماً موسيقية خاصة يألفها اولاد الفصل وقد ينام علي ايقاعها الرتيب بقية رهطه من العتاة

، فلا يجرؤ احد على معارضة سيل احلامهم الوردية . وقد لاحظ الاستاذ على نفسه انه كلما أفاض فى الشرح وأوغل فى حل معضلات المسائل الحسابية ، كلما تعالى الضجيج المتقطع من الربع الخراب ، واختلطت الانغام مع الهرجلة الخافتة التى تسمع ولايستبين مصدرها الحقيقى بصورة قاطعة لانه متعدد الجهات متنوع أطوال الموجات . فاذا تصاعد هذا الهرج الذى يخلط نغماً بشوشرة وهمساً مسموعاً بضحكات خافتة ومتقطعة استشكل على المهتمين والمنتبهين فهم ما هم بصدد فهمه وأضافوا باستنكاراتهم العفوية زخماً جديداً الى الضجة التى كانت وحدها كافية لتزهيد الاستاذ على فى مواصلة الدرس . ولما انضم عثمان محمد الحسن – الذى أتى الينا من شندى – لهذا الرباعى الباتع أصبح القوم اكثر جنداً وأعز نفرا ، وتسلموا السلطة الفعلية فى الفصل وانتزعوا لها من الصلاحيات ما كاد ان يجعل بقية اولاد الفصل رعايا بلا حقوق وكاد أن يجعل من الاستاذ مجرماً يقف مصفداً داخل قفص الاتهام . وساعدهم على ذلك ان بين ظهرانيهم الكبتل وهو الالفة المعين من الجهات الرسمية ، والحاكم الفعلى للفصل المعترف بشرعية حاكميته في غياب الاستاذ ، واحياناً رغم حضوره . فالويل لمن عارض الكبتل او احتج علي تعاطفه مع فتية الربع الخراب فان الفترة القصيرة بين الحصة والأخرى قبل دخول الاستاذ للدرس الجديد هى فترة سلطته المطلقة التى يمارسها بتأييد كامل من الصقور ، وخلال هذه الفترة بوجه خاص يمكنه ان يشقيك ان اراد فيصنع بك ما يصنع الحداد . وذلك انه فى هذه الفترة القصيرة يقوم بتنظيف السبورة ثم يكتب عليها بخطه الواضح وضوح النقرابى على خديه عبارة «المهرجلون فى الفصل» ، وكفى بذلك رادعاً لمن تحدثه نفسه بالعبث أو «البردبة» أو الهرجلة أو الحركة أحياناً باستثناء الصقور . هذا مع العلم اليقينى بأن الهرجلة الحقيقية إنما كانت تأتى من الصفوف الخلفية ، وعلى وجه التحديد من الربع الخراب وهو الصف الأخير وقد علمت جنده وعرفت سيماهم . ولما كانت عبارة

«المهرجلون فى الفصل» عنواناً لابد له من محتوى فان الامر ينتهى عادة بستجيل بعض الاسماء من تحته لن تخطئ عيناك من بينهم اسماء كل من محمود احمد مهدى وعباس صالح وهاشم مصطفى وقد كان الاخير منهم ابليساً فى الهرجلة نسيج وحده . ولكن القائمة تحوى ايضاً بعض الابرياء . فيرد ضحايا هذه السلطة الغاشمة جميعهم موارد السوء عند عم مبارك فلا يخلى سبيلهم إلا بعد تلقى جلدات يأخذونها على «اللباد» ، وهو فى كثير من الأحيان لباد حقيقى كما سلفت إلى ذلك الاشارة . ولكن الاستاذ على لم يكن يعبأ كثيراً بأبلاغ قائمة المهرجلين إلى عم مبارك ولم يكن ميالاً الى عقاب التلاميذ عقوبة بدنية على وجه العموم ، بل هو يكتفى فى اغلب الاوقات بالتوبيخ على الإخلال بالنظام ، وبالتندر والسخرية المغلفة على بطء الاستيعاب والتسرع في الاجابة مما يوقع فى الخطأ الذى يمكن تجنبه بالتمهل وحسن الاستماع الي السؤال وتفهم المطلوب من ورائه والمراد . وهو يغضب أحياناً للخطأ الفاحش يرتكبه التلميذ ولكنه لايسرف فى المؤاخذة ويحاول جهده ان يخفى هذا الغضب وان كانت تعابير وجهه تنطق به فى وضوح يلمحه من لايفوت عليه ان يبصر على خده الايمن خاصة اثار فصد حسن البرء قديم . ولما استيقن التلاميذ من حسن نوايا الاستاذ على احبوه ووقروه ، وكف المشاغبون منهم عن المشاغبة في حصته ، اللهم الا عبد الكريم ومجموعته الهازلة المرحة . فهؤلاء فتية آلوا على انفسهم الا يدعوا استاذاً ينعم بالهدوء الكامل الا ريثما يلتفون من حول تحوطه وضبطه للنظام فيأتونه من حيث لايحتسب وبما لايتمكن من تحديد مصدره على وجه الدقة من ازعاج . ولذلك فضل الاستاذ على ان يغض الطرف والاذن ايضاً عن تجاوزاتهم الموسيقية وان يكف عنهم ماكفوا عنه ماهو ابلغ من ذلك من فوضى «وكركبة» ادراج واصوات تنتج عن قدح بلاط الارض بالأرجل المنتعلة هو عين مايدعى فى الامارات «بتصبيح الويل» !

ويبدو أن الاستاذ على محمد خير كغيره من شباب الاساتيذ كان قد جاء الى ام

درمان الاميرية لفترة قصيرة بعض الشئ ، لأنه فارقنا بعذ ذلك . وقد افتقده تلاميذه كثيراً لأنهم أدركوا بأخرة معنى سمته الجاد ومدى حرصه على بذل العلم والمعرفة بأحسن السبل وعلى أتم الوجوه . وافتقده ايضاً فتية الربع الخراب لانه حينما هدى الى أسلم طرق التعامل معهم بعد تفكر وتدبر أخذهم باللين والرأفة ، وداوى جراح صخبهم بالصبر عليها حتى كان منهم من يعتذر اليه جهرة فى بعض الأحايين . وما كان ذلك الا ثمرة صبره على البلاء وحسن تقبله للمكروه . فالمعتذر عن الخطأ قريب من النادم عليه المنتوى الا يعود اليه ، وإن كان ممن يصح أن يقال فى حقه «يفلق ويداوى» . ومهما كان من أمر فانهم سرعان ما وثقوا بالاستاذ على فأقبلوا عليه بعد صدود وأنسوا به بعد وحشة واطمأنوا إليه بعد أن كاد يزيغ قلوب فريق منهم . ولذلك افتقده الجميع عندما فارقنا بعد قليل . ولكننا التقينا به مرة أخرى فى مدرسة خور طقت استاذاً للعلوم يقص علينا من أنبائها وطلاسمها باللغة الانجليزية ما أكسبه بين ظهرانينا مزيداً من الاكبار والتبجيل . بل صار هو الاستاذ المقيم المسئول عن داخليتنا (House Master) . ولن أنسى ذلك العنبر الذى كنت اقيم فيه فى داخلية ود التوم فى رفقة من الأشقياء كان من بينهم السمانى عبد الله وعبد الله يعقوب أبشر وحبيب الله الحصاحيصى وادم مادبو وحسب الله وغيرهم . اولئك فتية كانت لاتحلو لهم الونسّة والشوشرة والضحك الا بعد ان يصمت الدينمو ينبوع الضياء الكهربائى بعد الساعة العاشرة ليلاً . فتتناثر الملح والطرائف والقفشات تباعاً وتتفرقع الضحكات صوادح مفرحات ويتعالى الضجيج لتقفز أصداؤه الى ما وراء الجدران . فيأتى الاستاذ على محمد خير من غرفته وهو نصف غاضب ونصف وسنان ليزجر المشاغبين او يعتب عليهم او يستصمتهم بالحسنى . فان خاطبهم بالرقة واللين ارتدعوا وانصاعوا . وان أغلظ عليهم في القول أوغر صدورهم عليه . فهم يتناومون ولايجيب أحد منهم على أسئلته التى يطرحها فى الظلمة بحثاً عن رأس الحلقة وامير الشغب ، فلايجد سبيلاً

ليعرف من هو قائد الفوضى . بل هو لايستطيع أن يجزم ان كان الفتية أيقاظاً أم نياماً . فيلبث بينهم حيناً تنبئهم عن وجوده أنفاسه التى تبلغ آذانهم من وراء ذلك الصمت المحيط ، كل منهم يستغشى بطانيته البنية السمراء ويبدو وكأنه يغط فى سبات عميق . وما أن يغادر الاستاذ على العنبر حتى تنضا البطاطين عن الوجوه وتعلو الضحكات من جديد ويتصايح الفتية فى براءة لاتضمر التحدى وان كانت توحى به وتدل على مايشبهه ، وضوء القمر السارى يتصفى رقراقاً من خلال ثقوب النمليات التى تغشى نوافذ العنبر ، فيسبح الفتية وهم علي اسرتهم فى لجينه الصافى ، وتمتلئ نفوسهم بالأحلام والأمانى وتفيض بالبهجة والرضا والسرور . فاذ تصاعد هرجهم وضحكهم عاد الاستاذ على مرة اخرى مرزماً متوعداً فلايلقى الا صمتاً محيراً وسكينة صماء . وهكذا تتعاقب دورات هذه الملهاة العبثية التى يطول مداها ولاتكاد تؤذن بانقضاء: همس -إذا أمن الفتية- يبدأ مثل الفحيح من تحت الأغشية التى أسبلت على الوجوه لتوحى بالسكون ، ثم ضحكات خافتة لا تلبث هنيهة الا ريثما يكتمل الاحساس بالأمان لتتعالى من جديد ، وتختلط بأصوات دبت فى نبراتها الحياة مرة اخرى فراحت تجهر بأفانين الشغب الحبيس . فاذا تناهى الى الاسماع وقع قدمى الاستاذ على وهو يجر رجليه مغيظاً حانقاً صوب مظان الثرثرة والهرج خرست الألسن وفاض السكّون على ارجاء المكان فلست تسمع همساً . ويرتد عائداً مغتماً حتى اذا فارق الاذان حفيف خطاه ارتدت ثانية عن فضيلة الصمت الأفواه . صورة قريبة - وان اختلفت الملامح وتباينت دقائق الأشياء - من تلك التى أبدعتها منذ أزمان بعيدة عبقرية التجانى الخالد وشياً منمنماً على جبين الخلوة وهو ينشد فى ادكار عذب رقيق :

قصف الرعد فـــى المكان ودوىّ   مرزماً صاخباً قـوى الصياح

فاستفاقت وهيمنت بعض أشياء   وعـادت . . وعاد قصف الرياح

ولقد رأى أحد شياطين عنبرنا رؤية منامية قصها علينا فيما بعد . فقال انه رأى

فيما يرى النائم فى نومه أنه فى ذات مساء كانت الامور تدور على نسقها المعهود ، فاذا بالاستاذ علي يدخل العنبر ويحاول ان يتوغل فيه ظناً منه أنه سيباغت الفتية هذه المرة ويقف بنفسه على امام الشغب الحقيقى من بينهم . ولكنه يفاجأ وهو مسرع الخطى بحبل قوى ممتد بين سريرين متقابلين يعترض سبيله ويعتقل سيره دون ان يراه قبل ارتطامه به . فيعثر وتزل قدمه ثم يترنح ويهوى الى أحضان بلاط الارض بين أسرة التلاميذ وقريباً من سرة العنبر . ولم يعلم الراوى على وجه التحقيق مالحق بالاستاذ من أذى إثر تلك السقطة المدوية . فقد كانت سدول الدجى الساجى مرخاة على المكان . وكان القمر فى تلك الليلة ضنيناً بأسباب الضياء لانه عاد كالعرجون القديم . وكانت نجوم السماء بعيدة حيية اللألاء كأنها ارتاعت وفرت لواذاً من وحشة اطباق الظلام . ولعل رأس الاستاذ كما اشيع في الغداة الباكرة ارتطمت بالارض او كراع العنقريب وربما زاغت كتفه اليمنى فى أحد اقوال الرائى ، او انقرض لسانه بين اسنانه فسال دماً قبل أن يواتيه النطق فيتفجر بآيات الوعيد اذ كان ذلك ايضاً بعض ما ارجف به اقوام على حد قول صاحب الرؤية . ومهما كانت حقيقة المكروه الذى حل بالاستاذ على في تلك اللحظات الحزينة من الرؤية المنامية فان الفتية المكرة تركوه وحيداً يجمع اطرافه ليستقيم واقفاً دون ان يهرع الى عونه والاخذ بيده احد . وتناوموا جميعاً أو تغافلوا عما حدث وكأنهم لايعلمون . غير أن الضحكات الخافتة من وراء البطانيات السمر المستغشاة طفقت تعلو وتختلط وتتناغم هازئات نواطق بالسخرية البريئة والشماتة المستترة ، التي عجزت جميع وسائل الادارة المدرسية فيما بعد عن اثبات التهمة بها علي الفتية او استقصاء من تولي كبرها منهم او الاهتداء الي الايدي الآثمة التي نصبت حبلا شركاً بين عنقريبين فصار مصيدة لم يفلت من الوقوع في احبولتها مراقب الداخلية الاستاذ علي محمد خير . وهو معلم الرياضيات والعلوم التي لم تغن عنه في هذا الموضع شيئاً ولم تجد عنه فتيلا . ولم يهرع الي نجدته من التلاميذ اهل

المروءات أحد . ولعلهم معذورون في هذا التثاقل الي الأرض لأن المروءة في مثل هذه المواقف قد تجر علي صاحبها من الويلات ماليس في حسبانه وماهو في غني عنه . تلك هي خلاصة الرؤية المنامية التي قصها علينا ذلك العفريت ونحن نستمع اليه مأخوذين متعجبين .

ولو أنك سألت أهل مدينة الكوة القدماء لسردوا عليك طرفاً من أنباء عم «دراج» الذي كان في السنين الغابرة رئيسا لخفراء السوق في بلدتهم العريقة . وعم «دراج» هذا رجل عرف بالمروءة والشهامة والنجدة والشجاعة .. وعرف ايضاً بالذكاء والحيطة والحذر وحسن الحيلة . وفي ذات ليلة مقمرة كان ينام علي عنقريبه «الهباب» في «السهلة» وسط السوق . فاذا باستغاثة ونداء متلاحق يوقظه من نومه:«يا دراج .. يا دراج .. الحقني .. الحرامية كتلوني».«فهب عم دراج» مسرعا يلتقط عكازته وفراره وكوكابه وسائر أسلحته الدفاعية الهجومية الماحقة . ولكنه تأني ونظر فاذا الذي يستنصره منذ حين - وهو أحد مرؤوسيه من الخفراء - مستلق علي «عنقريبه الحبل» وقد وقف الحرامي علي رأسه وهو يشرع في وجهه مدية طويلة يتهدده بها ، بينما طفق الحرامية الآخرون يحاولون «تفليس» أقفال كبريات الدكاكين وأرفعها شأنا وأجلها خطراً وهم مدججون بالسكاكين والهراوات الغليظة والحراب فضلا عن مظاهر القوة والعتو والجبروت التي لا تخطئها العين الفاحصة . فتدبر عمك «دراج» في أمره جيداً وعلم يقينا الا قبل له بالتصدي لهؤلاء «العتاولة» المسلحين ومصادمتهم والاكتواء بنيران بأسهم . ورغم ان قمر التم كان في كبد السماء الصافية ينشر الضوء في كل ركن من أركان الأرض الا أن «دراج» الحصيف الذكي - بعد ان رأي ما رأي وأدرك ما أدرك - عاد مستلقيا علي عنقريبه وهو يقول للذي استنصره من خفرائه بصوت مسموع تبسم له جميع الحرامية في رضا تام وتفهم عميق :« يا عبد هوي . موت موتك .. دراج منو البجيك في الضلمة دي » ؟! ثم كان ما كان مما عمرت به مجالس الانس في الكوة من النوادر والملح والطرائف ردحا من الزمان . وعلي الرغم من أنه لم يكن من بين فتية عنبرنا في داخلية ود التوم «دراج» يستنجد به ورغم أن

الاستاذ علي حسب هذه الرؤية المنامية لم يجزع ولم يناد علي احد منا يستنصره او يستعين بـه ، الا انه يبدو اننا جميعاً خلدنا الي حكمة عم « دراج » الذكية وتركنا استاذنا علياً وحده ليعالج امره مع الحبل الاحبولة ، تماماً كما ترك دراج رفيقه وحيداً ليفض نزاعه مع «الحرامية » بالطريقة التي ترو ق له وتعجبه . فاعجب لاستاذ الرياضيات الذي دارت عليه « الدوائر » من مكر تلامذته الصغار وأحاطت به من كل جانب ، واسقطه علي الارض حبل ممدود بين عنقربين لم يكن سوي « خط مستقيم » ليس فيه عوج ولا أمت . ثم لم تهده معارفه الجمة الي زاوية قائمة او حادة او منفرجة لينفذ عبرها وينجو من مكر المصيدة ، او يأوي الي « ظلها » الذي طالما « انحشت » رؤسنا الصغيرة بأهمية معرفته ! فلم يلفه الاستاذ علي إلا مثل « ضل الدليب » يظل البعيد ويحرم أقرب الناس اليه ، تماماً كبعض البشر ممن قيل في حقهم :

من الناس من يغشي الأباعد نفعه # ويشقي به حتي الممات أقاربه

ومن غريب ما علمته من احد رفقاء تلك الايام بعد ازمان ان احد عفاريت عنبرهم رأي في نومه ايضاً انهم صنعوا مع الاستاذ علي نفسه في عنبرهم عين الذي صنعته به هذه الرؤية في عنبر داخلية ود التوم ! فعجبت لمؤمن يقع في ذات الشرك مرتين ويلدغ من ذات الجحر مرة أخري !

وعلي كل فقد قال صاحب الرؤية المنامية في عنبرنا ان الاستاذ علي عاد في تلك الليلة التي لاتنسي الي غرفته غضبان اسفاً دون ان يظفر بضالة او بطائل . ولعل حلمه وسماحته غلبت عليه فعفا وغفر ولم يزد علي التلويح بالتهديد الشكلي والوعيد الآني وهو يقفل راجعاً موقناً ان خير وسيلة لمحاربة هذا النوع من العبث الساذج البرئ هي الا يحجر عليه وان يتركه ليجري مجراه . فلا بد ان يهدأ كل شئ بعد قليل من تلقاء نفسه ويمضي الفتية في سبات حقيقي عميق تماماً كصبية الخلوة يصورهم التجاني الشاعر المثال اذ يقول :

ونفوس سجي الكري في حواشيها # ودب الفـــــــتور فـــي الارواح

فـــارجـــحنت مهومات وماتبرح # مـــــركوزة عـــــــلي الالـواح

صـــور من الصـبا الاغر موشاة # بـــــأحلام ضـــوء الصباح

يـدفق البـــشر من مفاتن دنياها # وتفتر عـــن سنا وضـــــــــاح

لقد كان الاستاذ علي محمد خير من جيل الاساتذة الذين اشربوا في نفوسهم حب بلادهم واهلها وهم طلاب يشهدون الارهاصات الاولي لتعاظم التحرك الشعبي واصطفاق موجات المد الوطني الذي اتخذ أشكالاً عديدة من الوان التنظيم السياسي والوعي الثقافي والطلابي . وولج مع رفاقه واقرانه ابواب مهنة التدريس موقناً مثلهم ان رسالته التربوية التعليمية انما هي ابلغ الرسالات الوطنية في تلك الحقب وجميع ما يتلوها من مراحل . بل هي أجداها وادومها نفعاً لناشئة البلاد . وذلك لأنك اذا علمت احداً واعتقته من ربقة الجهل فكأنما علمت جميع من حوله من رهطه . فاذا فشت المعرفة بين الناس استناروا واسفرت مداركهم بالوعي وتفتحت عقولهم لاستيعاب حقائق العصر ، وفارقت بصائرهم غشاوات الجهالة والاوهام . ولذلك اقتصر مجهود ذلك الجيل من الاساتيذ تلقاءنا - فيما نعلم - علي التشديد في اجادة معرفة المواد التي تدرس واتقان جميع الفروع التي قد تشتمل عليها المادة الواحدة . ولا أحسبهم ضيعوا وقتا في محاولة تزويدنا بأفكار او نظريات خارجة عن حدود ماهم موفدون من اجله ومعنيون به ومؤتمنون عليه ، وقد يكونون محاسبين عليه لأن من بين كبار الاساتذة الذين يقفون في بعض الاحيان علي الاداء الاستاذ احمد محمد صالح والاستاذ محمد عثمان ميرغني عليهما الرحمة . وربما ندت من بعضهم لوافت واشارات توحي باحاسيس وطنية وتنبئ عن رغبة دفينة صادقة وامينة في تعريف الصغار بما تمر به البلاد من احداث وماتضطرم به النفوس وتصبو اليه من الاماني ، وما يتخلق في ضمير الغيب من صور وملامح واعدة بالأمل والبشري . ولم يكن الاستاذ علي مثل صنوه الاستاذ كمال « يرمي الكلام » ويدعو لتأمل اطراف الحديث ابتغاء ايقاظ ملكات الفضول او إغراء العقول الغضة اليانعة بمحاولة سبر أغوار الامور الجسام ، ولكنه كان

اشد استمساكاً بدقائق الانضباط الحرفي الذي لا يدع مجالا لفلتة لسان تنبو به عن السياق المعلوم . وعنده ان نوافل الحديث قد تضر بفرائض الدروس ، وقد رأينا انها عند الاستاذ كمال – ربما لندرتها – لاتفعل ذلك . ولعل الفرق بين اسلوبيهما ان مادة الاستاذ علي التي يدرسها إنما هي متون صرفة ليس فيها متسع للحواشي . أما مادة الاستاذ كمال التي يلقيها علي مسامعنا – وكثيرمنها يخاطب الوجدان والعقول علي السواء – ففيها متسع او بعض متسع لسياحات قد تطول وقد تقصر خارج حدود الدرس المعلومة . ومهما اختلفت الوسائل وتباينت وسائط الاقتراب من فهوم التلاميذ فقد كان الهدف واحداً وهو تنمية العقول واعداد الناشئة لأثقال هموم الوطن . وقد ابلي كلاهما في هذا الامر احسن بلاء . ولو ان الاستاذ كمال كف عن هذه اللوافت التي يرمي بها في احايين متباعدة لثقل علينا الدرس ولاحتبسنا رهن معاقل هذه الرطانة لانغادرها وللامه بعض « كبارنا » علي تجاهله التام لما يدور حولنا من احداث وارهاصات . ولو عمد الاستاذ علي الي مثل هذا السياحة ولو قليلاً لقلل ذلك من صرامة مادته التي يدرسها في نظر التلاميذ ولأصاب تركيزهم الدقيق بشئ من الوهن ولربما بث فيهم روح استرخاء ليس في علم الرياضيات مكان لاقل درجة منه . فانظر كيف اصاب كلاهما وكيف انتفع التلاميذ من النهجين المتباينين .

ولقد كان الاستاذ علي محمد خير الذي درسنا الرياضيات في ام درمان الاميرية والعلوم في خور طقت الثانوية هو عين الاستاذ الذي تتلمذنا عليه في علم الكيمياء ونحن طلاب بالسنة الثانية بكلية الطب في جامعة الخرطوم . وقد كان معه في قسم الكيمياء من المعلمين البروفسور هنري وهو بريطاني الجنسية ، والاستاذ مصطفي حسن وهو الذي صار فيما بعد مديراً لجامعة الخرطوم . اما بروفسور هنري فقد كان استاذاً متمكناً من مادته ولكنه كان بالنسبة للطلاب سوط عذاب ما في ذلك شك . واما الاستاذ مصطفي حسن فقد كان مدرساً ممتازاً بالغ الالمام بما يقدم لنا من علوم الكيمياء ولكنه كان علي مدي ما من البعد عن وجدان طلابه حتي نعته بعضهم بالتعالي

ومـاهو من ذلك في شئ . واما الاستاذ علي محمد خير فقد كان احبهم جميعاً الينا واميزهم في نظرنا وآثرهم عندنا ، واقربهم من وجدان طلبته واحلامهم وامانيهم الوطنية . فقد اصبح استاذ الرياضيات في ام درمان الاميرية وقد كان محاذراً لا يخوض في غير مادته - اصبح اكثر جرأة وهو استاذ لعلم الكيمياء في جامعة الخرطوم ، واوضح ميلاً لمقاسمة طلابه فضيلة التفاكر في هموم الوطن . وليس في ذلك من عجب إذ قد اصاب صغار الامس نضوجاً واستوت منهم الزروع علي سوقها ، وتحولوا من ضيق مجتمع الحداثة وانغلاقه النسبي علي ايام ام درمان الاميرية الي اتساع مجتمع الشباب الباكر في الجامعة وموره وانفعاله الواعي بقضايا الوطن . فأفدنا من استاذنا علي محمد خير معارف كثراً لاحدود لها ولا انقطاع . ولقد تفاني هو في ابلاغنا ما ارتقي بفهمنا وادراكنا بكل ما اوتي من مواهب ومقدرات . وكان علم الكيمياء عقبة كأداء في طريق جميع طلاب الطب في تلك العهود السحيقة ، بل هو قد تسبب في فصل البعض من كلية الطب لرسوبهم في امتحانه العصي ، وأعجز آخرين بدرجة اقل وأخرهم عاماً دراسياً باكمله وقعد بهم عن اللحاق بزملائهم « المحظوظين ». ولولا الاستاذ علي وكمال أدائه الرائع وقربه الوجداني المؤثر من هموم تلامذته وأوجاعهم الكميائية والفكرية لما افلحنا في الصعود علي تلك الصخرة الملساء بسلام . ولقد حسبت في وقت من الاوقات - او لعل ذلك بلغني ممن لم يحسن النقل - ان الاستاذ علي كان لا يعجبه قولي انه درسني في ثلاثة مراحل دراسية متتابعة . ولكنها حقيقة ، وهو يعلمها ، وانا بها مباه وفخور . وهي تنبئ عن عظم الجهد الذي بذله في تأهيل نفسه والارتقاء بمعارفه العلمية . فقد تتابع نيله للشهادات العليا دون توقف . ولست ارتاب في حقيقة انه واحد من قلائل نادرين هم افضل من نعمت بهم هذه المؤسسات التعليمية علي اختلاف مستوياتها علماً ومعرفة واتضاعاً وكرم خلق وحسن اداء . وهو يقف اليوم في طليعة اساتذة جامعة الخرطوم ومافي يده من حطام هذه الدنيا شئ . واني لأدعو الله ان يمتعه بالصحة والعافية والقدرة علي المزيد من خدمة

الوطن ، وأعلم يقيناً ان ما ناله من محبة تلامذته وتقديرهم واجلالهم له لاتقاس قيمته بمال ولا نشب ولامتاع .

منصور ... والعدالة الناجزة :

من اساتذتنا الذين خلفوا في اذهاننا انطباعات لاتزول الاستاذ منصور حسن أمين وهو استاذ شاب ايضاً ولكنه كان يبدو اسن من بقية شباب الاساتذة بعض الشئ . كان طويل القامة مع امتلاء في الجسم هو فوق النحافة ودون السمنة المفرطة . اكثر لباسه القميص الابيض والبنطلون الاسود او الرمادي ، واكثر انتعاله الشبط الذي يريح القدمين من حبسة الحذاء المقفول « والشراب » « الخانق » . ولكنه يتزيا في بعض احيانه بالبدلة الكاملة مع ربطة العنق ، ويوشك في هذه الهيئة ان يصير خواجة في نظرنا لولا ان سمرة بشرته تذكرنا دوماً انه « ود بلد » ومن اهل ام درمان العريقين . فقد لاحظ بعضنا انه يباشر التدريس في حصص اللغة الانجليزية وهو في البدلة الكاملة . اما في غير ذلك من الحصص فهو يتبسط في ملبسه . وقد يكون ذلك الامر مصادفة ليست نتيجة لتفكير وتدبير ، وقد يكون امراً مقصوداً في حد ذاته . ونحن لم نقف علي اي دوافع او اسباب مقنعة لاختيار زي معين لحصة بعينها ، وهندام آخر مغاير لحصة مغايرة . كل ما هنالك ان بعض اولاد الفصل كانوا يمتازون بدقة الملاحظة وقد جربنا فيهم هذه الدقة وخبرناها ، ولذلك انجذب انتباهنا الي ما أبدوه حول اختلاف مظهر الاستاذ منصور باختلاف مادة الحصة التي يقوم فيها بمهمة التدريس . وقد تبين لنا أن هذه الملاحظة لاتعدو الحقيقة كثيراً وان لم تكن مطابقة لها كل المطابقة . ولقد حار العلماء ببواطن الامور من اولاد فصلنا في هذه الظاهرة وافردوا لمناقشتها عدة لقاءات متباعدة في اوقات الفسحة شارك في النقاش حولها خلق كثير . وذلك ان مثل هذه الامور كانت مثار اهتمام عند التلاميذ وهم يحاولون ان يجدوا لأي ظاهرة من الظواهر تفسيراً يجيب علي تساؤلاتهم الفضولية ويروي في نفوسهم ظمأ حب الاستطلاع . فهم لايستفسرون اساتذتهم إلا فيما يتعلق بالدروس والالعاب

وماشابه ذلك من الانشطة المدرسية ، ويعلمون أنه ليس من حقهم ان يدخلوا فيما لا يعنيهم من هيئة الاساتذة وملبسهم . ولو علموا ان لهم بعض حق في ذلك لأعنتوا اساتذتهم إعناتاً ولصبوا علي مسامعهم سيلا من الاسئلة التي قد تصعب الاجابة عليها . وهم في ذات الوقت يقرون بحقوق الاساتذة عليهم ومساءلتهم اياهم عن اي بقعة في الجلابية او « كرفسة » في الياقة او ثقب في العمامة او نقص في الزرائر او قصر في رباط الجزمة الباتا او شعث في اطراف شعر الرأس تعجز ان تخفيه عن الاعين لفة العمامة او قطرة افراز في مدخل احد المنخرين حتي في عز الشتاء . والإجابة علي مثل هذه المساءلة يتعين ان تكون فورية ومقنعة . وعند تعذر ذلك فان امرك يحال الي عم مبارك فائت في نهاية اليوم ملاقيه . ولكن الاستاذ منصور لم يكن مولعاً باسناد هذه المهام الي عم مبارك ، فهو يقل من ذلك ويكثر من مباشرتها بنفسه ، وخاصة عندما يكون متهندماً بالبدلة الكاملة . ولقد شقينا كثيرا في محاولتنا الرامية الي تبين السر الكامن وراء ميله للتزيي بالبدلة الكاملة في حصة الانجليزي علي وجه الخصوص . فهي ان كانت في فصل الشتاء امراً لابد منه إلا انها ليست كذلك في غيره من اوقات الحر القائظ . فذهب اولاد الفصل في تفسير هذه الظاهرة مذاهب شتي . منهم من قال ان حصة الانجليزي تحتاج الي مناخ انجليزي يشمل فيما يشمل زي الاستاذ والبدلة الكاملة هي اساس المناخ الانجليزي لأن اولاد البلد يلبسون الجلابيه او « يتلفحون » بالتوب او يرتدون العراقي والسروال . الم تسمع بالأغنية الشهيرة التي كانت سيدة الاغاني في بيوت الاعراس وغيرها ، التي جاء في بعض مقاطعها « مدير الري الفسحة بالعراقي » ؟ وذلك في معرض التخصيص والتمييز والإقرار بعظم الشأن ورفعة المقام . ولكن هذا يكون في اوقات الراحة ، اما في ساعات العمل فان مدير الري يحسن منه التزيي بالبدلة الكاملة لأنها توحي بغير ماتوحي به « سبهللية العراقي » بل هي تذكر كل من نسي او تغافل بأن الامر جد لاهزل فيه وانه « حكومي » وليس اهلياً ، « وشغل خواجات مش لعب عيال » . وهذا هو المناخ الانجليزي الذي كانت تري هذه

الطائفة من الفتية ان البدلة الكاملة تشكل أساسه ، وانها بخلق هذا المناخ وضمان سيادته تساعد وجدان التلاميذ وخيالهم علي الانتقال بألسنتهم الي الرطانة الانجليزية في وثبة واحدة لاتراجع فيها حتي تنقضي الحصة . وتبقي البدلة الكاملة أمام اعينهم لتذكرهم بأن لغة التخاطب هي الانجليزية دون سواها . وقال قوم آخرون إن السبب يكمن في أن البدلة الكاملة توحي بالقهر والسلطان والمقصود منها إذا هو قهر أي مشاعر قد تباعد بين صاحبها ومحاولة استيعاب دروس اللغة الانجليزية ، ولولا مرأي الاستاذ في هذه الهيئة المهيبة لما خشيه التلاميذ ولما عظم اهتمامهم بدروس الرطانة التي يلقيها علي مسامعهم . وذهب فريق ثالث الي ان لبس البدلة الكاملة هـــو محض « استعراض » ، ولما كانت معرفة اللغة الانجليزية واجادة التحدث بها من اهم دواعي « الاستعراض » في نظرهم فان « الاستعراض » يبلغ ذروته عندما تجتمع حصة الانجليزي مع البدلة الكاملة . ولكن ابا الدفاع كان يتحدث الانجليزية في كبري ودنوباوي بطلاقة لم نألفها عند غيره وهو غالباً مايكون في العراقي والسروال او في الجلابية وهو حاسر الرأس حافي القدمين . وهو رجل متواضع لايعرف الاستعراض وهو يصلح ان يكون اســـــتاذاً للغة الانجليزية في ام درمان الاميرية فهل تراه يتنكر لبساطته السابقة اذا قدر له ذلك ويلجأ الي الظهور امام تلامذته وهو متسربل بالبدلة الكاملة ؟ طرحت علي هذا النفر من الفتية هذه الحقائق والتساؤلات فازدادت حيرتهم وعجزوا كما عجز غيرهم عن ايجاد تفسير شاف ومقنع لارتباط حصة الانجليزي بالنسبة للاستاذ منصور هذا الارتباط الوثيق بالبدلة الكاملة . وعندما اراد الله ان ينصف الاستاذ منصور ويسلمه من السنة تلامذته الحداد ورجمهم اياه بالغيب وافتآتهم عليه سخر لهذه المهمة مستر كوك (Mr . cook) وهو خواجة انجليزي دون ادني ريب جاء – كما قيل – لاختبار ذكاء التلاميذ وهو تقييم ما يسمي (I . Q) ومعناها علي ما اعتقد مؤشر الذكاء . فكان هذا الخواجة الحازم الذي لا يتكلم إلا بالانجليزية في البدلة الكاملة . ومن الصعب علينا ان نتهم الخواجة ايضاً بالاستعراض لأن من يستعرض

منا انما يتمثل في نظرنا بالخواجات فبمن يتمثلون هم اذا صح انهم يستعرضون ؟ هذا مالا يجوز ان يكون ، لأن الخواجة خواجة ، وليس وراء ذلك من درجة . وهكذا انصفت المقادير الاستاذ منصور وتفهم التلاميذ هذا التطابق المريح الذي تفرضه الضرورة بين حصة الانجليزي ونمط زي الاستاذ لاحراز اعلي درجات الاتقان من ناحية التدريس وبلوغ أقصي مستويات الفهم بالنسبة للتلاميذ .

ولقد كان الاستاذ منصور حسن امين استاذاً مهيباً ومهاباً ولكنه لم يكن بعبعاً مفزعاً . فهو حازم صارم ليس فيه من اللين شئ يذكر ، غير ان حزمه وصرامته يمكن وصفهما بأنهما « موضوعيان » لأنهما خاليان من الظلم والشطط بريئان من القسوة والامتهان . فهو لا يأخذ احداً بالظنة ولا يعاقب بريئاً بمسئ ولايحمل احداً اكثر مما يستحقه ذنبه الذي جناه ولا ينكر لصاحب فضل فضله وان كان قليلاً لا يعتد به . إنه استاذ عادل مشغوف بالعدالة في كل شؤون ذلك المجتمع المدرسي الصاخب الذي كنا نعيش فيه . يصر علي استيفاء حقوقه كاملة كاستاذ يجب علي تلامذته تبجيله وتوقيره وانفاذ اوامره ، ويضطلع بواجباته في الفصل وفي منتديات الجمعية الادبية والجمعيات الأخري وفي ملاعب الكرة ، فلا ينقص من هذه الواجبات شيئاً بل يأتي بها جميعاً علي الوجه الاكمل ويجهد نفسه ويشقيها من اجل تحقيق ذلك . ومن ضمن حقوقه التي يحرص علي استخلاصها من تلامذته ان يكونوا دوماً في مستوي دراسي رفيع . هذا امر لا يتراخي فيه إن تراخي في غيره ولا يجامل فيه إذا جامل في ماعداه . ولكنه كما قلت لك منطقي في حزمه وموضوعي في صرامته . لايثب الي الاستنتاجات ولا يتسرع في اصدار الاحكام ولا يضعك في موضع يذيقك مرارة الاكراه وحموضة العسر وانبهام السبل . بشعرك يدينك ان كنت اهلاً للادانة وذلك لأنه يباشر معك حواراً صبوراً حتي تضع الحبل انت حول عنقك راضياً مختاراً . وعندها يقتص منك بما يوازي جرمك من عقوبة ، لا ينقص منه حبة هباء ولا يزيد عليه زنة قطمير . اما اذا كنت من اهل الكرامة فانه ايضاً لا يسارع بالباسك تاجاً ولكنه يستدرجك بعض

استدراج ينطقك بفضائلك دون استحياء ودون خيلاء حتي تعلم ان الاتيان بالفضائل هو من صميم واجباتك وحتي تضع الغار انت بنفسك علي رأسك ، وساعتها يطريك ويكافئك ولكن بقدر ما تستحق ، لايبخسك مما انت اهل له عشراً من خردلة ، ولا يزيدك علي ما انت مستحق له قشرة من بصلة ! ولقد اكبر فيه تلامذته هذه الموازين الدقيقة التي كان يزن بها اعمالهم ويفتي بمقتضي دقتها فيما يجب ان يكون عليه عنده مآلهم . فيحرص علي الا يظلم مستضعفاً لايجد ما يحمل نفسه عليه من قوة المنطق ، ويحاذر الايحابي قوياً قد يكون مخطئاً ولكنه أقدر وألحن بحجته عمن سواه . غير ان هذه النظرة الي احكام الاستاذ منصور وتمسكه بأسس العدالة بين تلاميذه قد تكون صورة زاهية تبدو وكأن فيها كثيراً من المبالغة . وذلك لان الكمال لله وحده والعدل المطلق صفة تفرد بها مبدع الاكوان . ولكني كما قلت لك من قبل اسجل انطباعات وقرت في الذاكرة بعضها تعززه دلائل قطعية ومتواترة ، وبعضها لايعدو ان يكون مجرد انطباع التمسته بعد مضي نصف قرن من الزمان فاذا هو كامن في طي من طيات الذاكرة واذا هو علي هيأته التي كان عليها يوم ان كان . والعثور في طيات الذاكرة علي اثار وصور تبلغ من العمر هذا المدي ليس بالامر الهين اليسير ، وتملق الذاكرة واستدرار عطفها حتي تجود عليك بما اخفت واستبطنت في وديان منعرجاتها ليس بالسهولة المواتية التي لا تخيب . والناس في هذا الشأن صنفان : صنف ينسي ولا يجهد لكي يتذكر ، وصنف يتذكر ويستزيد ويلح بعاطفة صادقة فاذا بكل شئ - بعد الجهد - رأي العين . فريق يحاول مرة ولا يعيد الكرة ، فلا يظفر بطائل . وفريق يقارع اليأس مراراً ودون كلال فيبصر كل شئ بعد حين . وربما صح تشبيه مطاردة الذكريات البعيدة بملاحقة عصيات القوافي والاشعار لأن كلاً من الصيدين مراوغ يجيد الانفلات ويحسن الازورار . فاذا واتاك الحظ ونصرك الله علي قوي النسيان فلا يركبنك الغرور ، واعلم انك دون منزلة ابي الطيب المتنبي بكثير . وذلك ان الشبه الذي اشرنا اليه شكلي بحت وشتان ما بين تذكر ما كان وابداع ما لم يكن . فقد عمل ابو الطيب

أبياتاً من الشعر علي البديهة فتعجب ابو العشائر من بديهته وأعلن ذلك التعجب فما كان من الشاعر الخالد إلا أن اجابه علي البديهة ايضاً بقوله بعفوية وفوراً دون ابطاء :

أتـــنكر مـــا نـــطـــقت بـه بـديهاً # وليس بمنكر سبق الجواد

اراكض معوصات الشعر قسراً # فأقتلها وغيري في الطراد

ولكن كاتب هذه السطور يراكض معوصات الذكريات قسراً ثم هو لا يجزم الا بقتل بعضها ولا يدري ان كان غيره يعبأ بمثل هذا الطراد . واذا كان الاستاذ منصور جزءاً هاماً من هذه الذكريات فالامانة تقتضي ان نوفيه حقه كاملا مثلما اوفانا حقوقنا كاملة ونحن بعد في ميعة تلك الحداثة . فالاستاذ منصور كان شديد الحرص علي أن يري تلامذته متفوقين ، يفرح بذلك فرحاً عظيماً ويغتم لما دونه أشد اغتمام ، ولكنه في كل من حال الاشادة والمؤاخذة يقسط ولا يتعدي حدود الاتزان وخاصة فيما يتعلق بالثانية من الحالين . اما فيما يتعلق بالأولي فقد يباهي بك ان كنت من اهلها وهو لا يقصد من وراء ذلك الي المغالاة او تعدي الحدود وانما يرمي الي ضرب المثال علي الاقتداء والاغراء بالتكريم اذا استوفي الاستحقاق .

ولست انسي للاستاذ منصور بعض مواقف مشهودة ما كان لي ان اقوي علي تحمل اثارها لولا انتصاره لقضيتي وتشجيعه إياي علي اجتيازها بتماسك وسلام . اول هذه المواقف كان من النوع الذي قد يخجلك او يخدش حياءك ان كنت تلميذاً حيياً . ليس ذلك فحسب بل انه قد يثير عليك سخط زملائك - اوقل غيرتهم - فيقطعون لحمك بألسنة كالسكاكين ، ويهددون امنك بغمزات عيون فيما بينهم كالسهام او النصال ، وربما اضمروا لتأديبك خطة توشك ان تصيبك بمعرة او مكروه حتي لاتطغي عليهم او تحدثك نفسك بما يشبه الطغيان . فقد درج الاستاذ منصور علي احتقاب كراساتي التي تسجل جهدي في اللغة الانجليزية واللغة العربية ، وعلي الطواف بها علي الفصول بما في ذلك تلك التي تتقدمنا بعام وعامين ، يقرأ محتوياتها عليهم ويشيد بها ويعلن عن رضائه عنها ، ثم يعيدها لي في نهاية اليوم الدراسي . ومن عجب اني لا أذكر ابداً اني

استشعرت اي نوع مما يسمونه « كبر الرأس » علي اثر هذا الاطراء ، ولكن ربما كان ذلك ناتجاً من تخوفي من بطش الباطشين الذين قد تستفز مشاعرهم مثل هذه المقارنات ، وانشغالي بهذا التخوف وباعداد نفسي لما يمكن ان يترتب عليه ان صدق الحدس ، وخاصة من تلامذة الفصول المتقدمة . وقد كان لتشجيع الاستاذ منصور إياي أثر هائل في تزايد ثقتي بنفسي وصدق عزيمتي علي الصمود في وجه كل الاحتمالات . ورغم اني سلمت بحمد الله من بطش الايدي وركل الارجل ونطح الرؤوس إلا أني لم اسلم من « مقاريض » الالسن الحداد ، فلطالما استرقت اذناي اصداء التعليقات الساخرة فاستقبلتها بحكمة « أضان الحامل طرشة » . بلغني من تعابير التندر مالايحصي : يعني خلاص الود ابن كلب . يعني الود خواجة يعني الود شوقي ، او حافظ ابراهيم ، او المتنبي . يعني الود ما بغلط اصلو . ياخي انت اصلك كمال البكري ؟ ياخي انت قايل نفسك حسين الغول ؟ ياخي انت احسن من منو ؟ ما اي واحد لو قعد ممكن يكتب زيك وأحسن منك . طيب ياخي ما يودوك سنة تالتة ولاسنة رابعة ، قاعد معانا في الفصل داليه ؟ وكان امثال ذلك كثيراً لايحصي . ولكن عزائي هو ان هؤلاء الساخرين لم يكونوا سوي قلة من اولاد فصلنا ولن انسي لأكثريتهم انهم تعاطفوا معي اكرم تعاطف ، وربما كان ذلك من اهم الاسباب التي عصمتني من بوائق اقوام وبوادر انتقامهم التي كانت تلوح في الافق وتوشك ان تنزل بي مالاقبل لي به ، ثم يصرفها الله عني بفضل عدالة الاستاذ منصور وتجدد ثقتي بنفسي وانصاف اكثرية اولاد فصلنا ووقوفهم لجانبي . ورغم كل ذلك وغيره فقد كان اطراء الاستاذ منصور يسعدني ويشقيني في ذات الوقت ، فاعجب لشقاء في ثوب سعادة ولسعادة في أتون شقاء . غير ان عدالة الاستاذ منصور كانت سلوتي في ذلك الشقاء بينما كانت نذر النكير التي تلوح في الافق فيطفئ الله نارها هي سبب شقوتي بتلك السعادة القلقة .

وثاني هذه المواقف كان علي اثر تجاوز خطير اقترفته في حق احد الاساتيذ وهو الاستاذ يوسف الخليفة . فقد حدد لنا هذا الاستاذ يوماً بعينه لاختبار في اللغة

العربية . وكنت اعلم ان اليوم السابق لهذا اليوم سيشهد مباراة هامة بين فريقي الهلال والمريخ في ميدان البلدية بمدينة الخرطوم بحري . فذهبت من ود نوباوي في رفقة من اولاد الانصار وعلي رأسهم الصديق محمد ابكر لنشهد تلك المباراة . تحركنا من ود نوباوي في الثانية ظهراً وركبنا معدية شمبات التي لم يكن فيها موضع لقدم ولم يكن سواها من جسر فوق النيل . بلغنا استاد البلدية بعد لأي وجهد جهيد ، وشهدنا مباراة مخيبة للآمال انتصر فيها فريق المريخ علي فريق الهلال . وعدنا نجرجر خطانا في حالة من الخزي والاسي لم نشهد مثلها من قبل . وكانت ثالثة الاثافي انا بقينا علي الشاطئ ساعات طوالاً نصارع وسط تلك الامواج البشرية الهائلة بغية ان نجد منفذاً الي داخل المعدية ، ولكن دون جدوي . فالمعدية محدودة السعة وهي بطيئة السير أيضاً . تنقل فوجاً الي البر الغربي لتعود ثانية لحمل فوج آخر . لقد تعددت رحلاتها جيئة وذهوباً فلم نتمكن من بلوغ الشط الغربي إلا مع « هبايب الصباح » . ولم يبلغ كل منا داره في ود نوباوي ألا والشمس ساطعة في الافق الشرقي البعيد ، والا ونحن اقرب الي الاغماء من الصحو ، او اقرب الي الموت من الحياة . ولذلك لم اتمكن من الذهاب الي المدرسة في ذلك الصباح وانما اخلدت الي سبات عميق . وعندما ذهبت الي المدرسة في اليوم الذي يليه كان اختبار اللغة العربية قد فاتني وفته متحسراً . واستدعاني الاستاذ يوسف الخليفة وهو في اشد حالات الغضب يسألني عن سبب غيابي عن الاختبار . وعندما قصصت عليه الامر كله دون ان اكذب او ادعي مرضاً زاد غضبه وتوعدني بأشد انواع العقاب البدني والمعنوي . اما النوع الاول فقد تلقيته راضياً عند عم مبارك ولم يتعد الست جلدات . واما النوع الثاني فقد هالني وأفزعني لانه اكد لي اني سأنال صفراً في الامتحان النهائي مهما او تيت من حسن بلاء . ولقد تملكني الغم واحتوشتني التعاسة وكدت اسقط من نظر الاستاذ يوسف الخليفة الذي اعتبر اعترافي بأسباب التغيب تحدياً له وهو مخطئ في ذلك غير مصيب . وعندما سألني الاستاذ منصور قصصت عليه ذات النبأ ، فصدقني في كل حرف قلته ، واكد

لي اني مستحق لأكثر من الست جلدات التي تكرم بها علي عم مبارك ولكنه شفع لي عند الاستاذ يوسف الخليفة وظل يسعي بيني وبينه حتي رضي عني الاستاذ يوسف ورفع عني وعيده بذلك الصفر المفزع فاستمر مريري وارعوي الوسن . تلك واحدة من حماقات هيامي بكرة القدم ، وذاك مثل من امثلة التسامح وسماحة النفس عند الاستاذ يوسف الخليفة ، وهذا واحد من افضال الاستاذ منصور حسن امين وضرب من ضروب عدالته واتزان احكامه تجاه تلامذته ، فقد كانت عدالته ناجزة وكان حكمه متزنا .

واما ثالث المواقف فقد كان هو غيابي عن انتخابات الجمعيات المدرسية في تلك «العصرية » التي رويت لك احداثها في غير هذا السياق . ولعل انتخابي – رغم غيابي – رئيساً لجمعية الثقافة ومن ثم الجمعية الادبية ايضاً كان هو الذي شفع لي اوقل باعد بيني وبين العقاب . ومهما يكن من امر فقد صدقت الاستاذ منصور الحديث عن سبب غيابي فأكبر هذا الصدق وزاد من اكباره أني نلت ثقة زملائي وأنالست بين ظهرانيهم . ولكنه ابان لي بوضوح اني استحق العقاب وانه لهذين السببين المتقدمين قد عفا عني ، وعبر عن أمله في ان أكون عند حسن ظنه في ادارة هذه الجمعية . واني لاذكر كيف كان الاستاذ منصور يحرص علي شهود اجتماعات الجمعية الادبية ويشد من عضد دفع الله الحاج يوسف ومن عضد كاتب هذه السطور حتي اكتسب هذا النشاط مركزاً عالياً في نظر التلاميذ والاساتذة وحتي صار هذا المنتدي الثقافي في الحشود التي تداوم علي شهوده اشبه بالنمط الدراسي العادي في صباح كل يوم . فقد كان يؤمه نفر غفير من التلاميذ والعاملين في المدرسة وبعض الاساتذة فيقضون ساعات ممتعة تلقي خلالها القصائد وتدور المناقشات حول مختلف القضايا الادبية ويتباري اهل البيان ورواة الملح والطرائف في تقديم روائعهم في جو مشبع بالوئام والصفاء . ولقد ابان الاستاذ منصور طوال الفترة التي ظل خلالها مرشداً للجمعية الثقافية عموماً وللجمعية الادبية علي وجه الخصوص عن عزائم ومقدرات قيادية وتربوية

عظيمة وعن ادراك عميق للقدرات الكامنة في نفوس تلامذته . ورغم انه عرف بالشدة والحزم فانه عرف ايضاً بالتحلي بالأناة وذلك هو جوهر عدالته التي ميزت احكامه بالانصاف ومراعاة الحقوق . فهو حازم في غير ما مغالاة في الشدة ، ولين في كثير من احيانه في غير ما ضعف يغري اياً من تلامذته بالتهاون . ولقد كان لي بعض مواقف اخري هي دون ما ذكرت اهمية وبعد صيت ، ولكنها كانت كلها تذكرني بوضوح ان الاستاذ منصور رجل حقاني لايهضمك حقاً من حقوقك ولو آنس منك مالم يرقه ويعجبه ، ولا يماريك او يحابيك ان قصرت فيما لايري سبباً في تقصيرك فيه حتي ولو كنت اقرب الناس اليه او كان ابوك هو ناظر المدرسة او مدير مصلحة المعارف ! ولكنه كان بين هذين البعدين ذا بصيرة وصاحب نظر ، يدرك مواهب تلامذته وهي بعد في طور التكوين فيتعهدها بروح سمحة تمهد الطريق لاكتمال عناصرها وازدهارها وبيقظة مستبصرة وقوة عارضة نافذة ناقدة تشير الي الخطأ في حينه فتشجبه وتنهي عنه ، وتلمح العيب وان صغر في وقت ظهوره فتتعامل معه بالحزم المطلوب والشدة المبتغاة لاتستهين بأمره وان دق وخفي علي الناس . ومن العجب انه لم يجد في كل ذلك مشقة تذكر وقد رضي هو عن نفسه ورضي عنه تلاميذه . ولست اذكر استثناء لذلك إلا ما كان يرويه لنا بعض تلاميذ الاوائل من ان احدهم اتعبه واشقاه حتي صرح الاستاذ منصور بذلك جهرة امامهم وكاد يعلن عن يأسه وعجزه عن اقامة ذلك العفريت الموهوب علي الجادة . ولعله قد استرجع عندما بلغ ذلك المبلغ وتلا في سره قول اصدق القائلين رب العالمين : (إنك لاتهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء) . وذلك انه – كما قلت لك – عادل في احكامه متزن في تقييمه لتلاميذه ، يحملهم علي الاجتهاد وحسن الاداء حملا ، ولكنه في ذات الوقت يستنبئ مقدراتهم الحقيقية فلا يسرف في الاثقال عليهم ولا يحملهم مالا يطيقون . يستخدم هيبته استخداماً حكيماً قسطاً يبغي من وراء ذلك ان يرتقي بمعارفهم الي اسمق الافاق ، فهو في نظرهم حاضر دوماً حتي في غيابه ، غير انه يدأب ما امكنه الا يغلظ علي احد فيدفعه الي الخصومة او اهتزاز ثقته

بنفسه . فاذا رأي انه اوشك ان يفعل ذلك قفل راجعاً الي الوسطية والاعتدال . فهو مهيب ولكنه قسط الموازين .

لـم يكن فـي غـلوه ضـيق الصـدر # ولا كان عاجزاً في اعـتدالـه

لا يـعادي ، ويتقي ان يـعادي # ويخلي سبيل مـن لم يوالـه

محمد المامون والقاعدة الرياضية السحرية :

كان معظم شبان وشيوخ ذلك الجيل من الاساتذة الذين تلقينا عليهم بواكير العلوم يهتمون اعظم الاهتمام بمظهرهم ويعتبرون ذلك من تمام الهيبة وكمال الرفعة الداعية الي الاحترام والتوقير . ومن تقاليد معظمهم انهم يحتفظون لأنفسهم بمسافة مناسبة البعد عن تلامذتهم يمكن وصفها بأنها وسط قوام بين النأي والقرب ، وذلك تمشياً مع الاعتقاد السائد آنذاك في ان شدة القرب من هؤلاء العفاريت الصغار مدعاة لجعل البساط احمدياً ودعوة لهؤلاء الصغار ان يتجاسروا علي اساتذتهم ويجعلوهم مضغة في أفواههم ولربما سخروا منهم واتخذوهم هزواً . اما الابتعاد القصي عن التلاميذ فربما اظهر الاستاتذة بمظهر التعالي والكبر وهو خلق تنفر منه نفوس الصغار ويوغر صدورهم علي اساتذتهم فيتصيدون زلاتهم - ولا يخلو بشر من بعض زلات - ويجعلون من الحبة قبة فيعود ذلك علي الاساتذة وبالاً وسوء ذكري علي الالسن وفي الخواطر. ولذلك فان معظمهم قنعوا بهذه الوسطية في تحديد واتخاذ المسافات العلائقية التي تفصل وتربط في ذلك الوقت بينهم وبين تلامذتهم الصغار . ولست ادري ان كان مثل هذا النهج نهجاً علمياً صرفاً تمليه اساسيات علم التربية المدروسة باتقان وبعد تجارب وتمحيص . ويقيني ان اولئك الاساتذة الكرام ادري مني ومن غيري بهذه الشعاب التي هم اهل مكة العليمون بدروبها ومنعطفاتها . ولكني رأيت بالتجربة الذاتية والمقارنة ان التلميذ في تلك السن المبكرة يكون اكثر تعلقاً باستاذه واعمق احتراماً له كلما زاد قرب ذلك الاستاذ منه وكلما دنا هو من استاذه ولقي ترحاباً واحتفالاً بهذا الدنو والقرب . فمثل هذا الترحاب والاحتفال يضاعف من ثقته بنفسه ويرفع من قدر استاذه في نظره.

ولقد كان استاذنا محمد المأمون الريح من القلائل الذين سلكوا هذا الطريق - طريق طي المسافات التي تباعد بينهم وبين تلامذتهم . وكان من القلائل الذين مهدوا السبيل لهذا القرب الذي يؤلف بين القلوب ويطرح عن الانفس الحرج ويصل بينها وصلة وداد تميط الحواجز وتكاد تزيل الفروق . فهو استاذ متبسط في مظهره وفي حديثه وخطابه لتلامذته . ما سمعته ابداً ينادي قائلاً - كما يفعل البعض - « ياود انت هناك » او ماشابه هذا القول الذي يوحي ببعد المسافة إيحاء وينبئ عن الفوقية الاستاذية إنباء ويذكرك - إن كنت ناسياً - بأنك تتلقي من الاوامر مايتوجب عليك تنفيذه دون إبطاء . ولكنه اكثر ما كان يلجأ الي عبارات خلت من مثل هذه الايحاءات وصرف التعليمات ، لأن من مخاطباته المألوفة : اسمع يا محمد (او عباس او محمود او احمد أيا كان الاسم)، يامحمد ياخي ، لاياخي مش كده ، انت نسيت ولاشنو ؟ ثم يشرح لتلميذه ما استعصي عليه فهمه من مادة الدرس . فهو يناديك باسلوب يوحي بالقرب ويدعو اليه ، فينسيك - وان كنت ذاكراً منذ حين - انك في حضرة استاذ يمكنه ان أسأت الادب معه او تطاولت عليه ان يعرك أنفك في التراب . وحق لك أن تنسى وأن تسقط مابينك وبينه من حواجز ، لأنه لا يروعك ابداً ولايثنيك ، يتلقاك سهلاً في بساطة مجبولة فيها من اللطف مايغريك بمزيد من الدنو والاقتراب ، وعليها من الهيبة والاعتدال مايعصمك من ان تسئ معه الادب . فتري نفسك وكأنك مع شقيقك الاكبر ، تستحي من ان ترفع عنده الكلفة لأنه أسن منك ، وتوشك ان تفعل في حضرته ما تشاء لأنك شقيقه الاصغر . فهو لايمنعك من هذه او تلك ، ولايزجرك ولا يعنفك ولكنه ينفث في روعك بابتسامة مرحبة وقورة متماسكة ان تلزم في القرب قواعد الظرف والادب .

كان الاستاذ محمد المأمون بسيطاً يحب البساطة . وعلي الرغم من انه يظهر أحياناً في البدلة الكاملة كما يفعل غيره من الاساتيذ خاصة في اوقات البرد وعند المناسبات التي تقتضي مثل هذا التزيي إلا أنه في اغلب حالاته كان يكتفي بالقميص والبنطلون ، وهو زي يناسب بساطته السلوكية ويتسق معها احسن اتساق . وهو

استاذ نحيف لايربوطول قامته كثيراً عن بعض تلامذته ممن عرفوا بلقب الصقور . فاذا ألفيته بينهم في فناء المدرسة ابان فسحة الفطور كدت ان تجزم انه واحد منهم لولا انه لايرتدي الجلابية كما يفعلون ولا يتناول فطوره عند طبلية عم محمدين كما هم يتناولون . غير انهم يأنسون به في مثل هذه الاوقات ويمطرونه بوابل من الاسئلة الحيري التي تزدحم بها اذهانهم الغضة وتتطلع للاجابة الشافية عنها نفوسهم المضطرمة بالفضول وحب الاستنباء عن كل شئ يخطر علي البال والوقوف علي حقيقته . وهو يحاول جهده أن يجيب علي اسئلتهم لا ينتهرهم ولا يستخف بأحد منهم بل يلاطفهم هوناً ويسايرهم يسراً ويبسم في وجوهم ويدعوهم الي مزيد من القرب والتداني . ورغم حزمه الذي يبديه في الفصل طوال حصة التدريس فقد كان تلامذته يجلونه ويحبونه لأنهم علموا حقيقة أمره واطلعوا علي جوهره الذي يقوم علي التواضع وسهولة الطبع ونبل المقاصد . ولما كان عبد الكريم احمد حميدة من الذين لايعجبهم العجب فقد وصفه لي مرة بأنه استاذ ماكروانه يملك اكثر من اذنين لأنه يستطيع ان يسمع همسك مع جارك وانت في الربع الخراب وهو يقف أمام الفصل بالقرب من السبورة ومنضدة الاستاذ . وقال عبد الكريم إنه في مثل هذه الحالات يسدد اليك نظرات نافذات ذات معان وعيدية هي ابلغ في الردع والتحذير من كل عقاب بدني ، وادعي للكف عن العبث والي معاودة الانتباه من كل زجر او عتاب او تلويح بعنت الاقتصاص . ولقد وقفت بعد حين علي صدق قول عبد الكريم . وذلك ان الاستاذ محمد المأمون كان يقص علينا في ساعات الصفاء التي نلقاه خلالها في حوش المدرسة جميع ما دق وخفي علينا من همس البعض وهرجلتهم الخافتة اثناء حصته . ولقد ادركت وقتها ان هذا الاستاذ لم يؤت اكثر من اذنين فحسب وانما أوتي اكثر من عينين كذلك ! فهو يعلم - ويقص علينا هذا الذي يعلم - ان محموداً ناول عباساً استيكة او قلم رصاص وان مكي برعي قرب كراسته من نظر محجوب ، وان محمد الحسن الشايقي ابدي برماً ظاهراً بالحصة عبرت عنه صرة وجهه حتي التصق حاجباه التصاقاً ، وان محمد عبد الله الشيخ كان ساهماً مسرحاً

ينظر من خلال النافذة الجنوبية لا يلقي بالا الي شرح الاستاذ ، وان محمد العوض مصطفي كتم بين اشداقه ضحكة كادت أن تنفجر مجلجلة في الفصل لأنه ابصر في وجه هاشم الأطرش كل معاني الحيرة وهو يتابع رطانة الاستاذ بالانجليزية دون ان يفقه كل ما اشتملت عليه . فبان لي ولغيري جلياً ان الاستاذ محمد المأمون علي قدر من المكر دون ريب ، وآيه ذلك انه دقيق الملاحظة ويستشعر كل همس وحركة في الفصل ويحسن قراءة المعاني التي يشتمل عليها مايرتسم علي الوجوه من تعابير لايغادر من ذلك خطرة ولا يفوت عليه منه شئ . غير انه مكر لايتعدي نظرات الوعيد ، لأنه علم بالمراس انها كافية لاحداث الأثر المطلوب ومغنية عن اللجوء الي إنفاذ ذلك الوعيد . ولا يعني هذا ان عبد الكريم قد اقلع نهائياً عن احداث ما كان يحدث من هرجلة وموسيقي اذ لم يكن في مقدور احد ان يحول بين عبد الكريم وإمتاع نفسه وغيره بهذه التجاوزات العبثية البريئة لأنها أصيلة في نفسه محببة الي اقرانه ذائع امرها بين اساتذته ، يغضون الطرف والسمع عنها في اكثر احيانهم ، ويواخذونه عليها في بعضها اذا سرت موجتها وعمت واصبحت اكثر مثاراً لاهتمام التلاميذ من شروح الاستاذ . وقد كان عبد الكريم من الحصافة بحيث يراعي الخطوط الحمراء فلا يتعداها إلا في حالات البرم الحقيقي والضجر البالغ ، ويجعل لنفسه خطوطاً صفراء يترك لها الخيار في تجاوزها ان أراد او في البقاء ضمن حدودها اذا كان راضياً عن الاستاذ . ولما كان الاستاذ محمد المأمون من الاساتذة الذين رضي عنهم عبد الكريم فان حصصه لم تكن تشهد من نشاط عبد الكريم العبثي الا الحد الادني الذي لا يسلبه حرية ممارسة هذه المواهب ولايحرم زملاءه من متعة شهود هذه الممارسات والاستماع اليها ولايشعر استاذه بأنه مستهدف للسخرية وشق عصا الطاعة عليه . وقد ادرك الاستاذ محمد المأمون كل هذا وتعايش معه في اناة وارخاء واكتفي بتذكيرنا في الاوقات التي نلم به خلالها في فناء المدرسة انه عالم بكل مايجري في الفصل اثناء الحصة وانه لا ينوي ان يضع سوطه حيث يكفيه لسانه إلا اذا ايقن ان النطق وحده لايستوفي ما أريد به من

مقاصد . وكذلك ادرك عبد الكريم ورفاق عبثه البرئ كل هذا فامتازت فترة الاستاذ محمد المأمون معنا بهذا التعايش السلمي المتفرد وهذا الاحترام المتبادل الموسوم بالاخلاص والتقارب .

ولقد تميز الاستاذ محمد المأمون من بين أقرانه الاساتذة بأنه رياضي مولع بالرياضة يمارسها مع تلاميذه وكأنه واحد منهم . فكنا نلقاه في العصريات في ميادين جامع الخليفة وهو يرتدي القميص والشورط او سراويل الكاكي القصيرة ، وينتعل الجزمة الباتا . يلعب معنا كرة القدم طوال الشوطين حتي نكاد ان ننسي – من فرط تواضعه وبساطته – ان بين ظهرانينا استاذ من اساتذة المدرسة . ولكنه في ذات الوقت يحرص علي تعليمنا فنون المراوغة بالكرة والانفلات بها من محاصرة الخصم ، والقدرة علي ارسال « الباصات » الرابحة الي الامكنة المواتية والاقدام الطليقة الخالية من الرقابة ، وعلي التصويب القوي الهادف في المرمي في الوقت المناسب دون ابطاء . وهو لايكتفي بمشاركته ايانا لعب كرة القدم لأنه كان مولعاً بشتي فنون الرياضة وكانت بنية جسمه القوية رغم نحافته تنطق بذلك . كان محباً لرياضة الجري والسباق ، يدعونا اليها ، في كثير من الاحيان ، فتصطف مجموعة منا في خط افقي واحد وهو من بيننا، ثم يصدر هو النداء وينطلق وننطلق نحن معه راكضين سراعاً بكل ما اوتينا من قوة حتي اذا انتهينا الي الغاية القصوي كان هو في المقدمة لم يسبقه منا احد . فنضحك نحن من هزيمته لنا وعجزنا عن اللحاق به ، ويفرح هو بطلبنا لاعادة الكرة وبتأسينا به . فاذا اعدنا الكرة سبقنا الي « الميس » كما فعل من قبل ، والهب بذلك فينا الحماس لهذا الضرب من ضروب الرياضة وشوقنا الي تجديد العزائم وحببنا فيه . وكانت رياضة الركض والسباق في تلك الازمنة مما لايعبأ بأمره كثيراً اذ كانت كرة القدم – وهي لا تزال – سيدة النشاط الرياضي . وتلك محمدة واحدة من محامد الاستاذ محمد المأمون الكثر ، ان حبب الي انفسنا رياضة الجري او الركض او السباق في شكلها التنافسي المنتظم . فقد كان يفرد في بعض الاحيان جوائز نقدية متواضعة – ولكنها

مغرية - للفائزين في منافسات السباق التي ينظمها التلاميذ . ولست اذكر اني حظيت مرة واحدة بجائزة من هذه الجوائز رغم شغفي بهذه الرياضة الجديدة واشتراكي في اغلب منافساتها . وعندما شكوت ذلك لمحمد العوض ضحك علي وسخر من تطلعاتي التي لايسندها منطق في رأيه وابان لي في بساطة - وهو محق - ان من يراكض ابراهيم الامين صاحب القدمين الفولاذيتين ، وزين العابدين الشفيع ذا الساقين الفلكابيتين الطويلتين ، والصقور العتاة ذوي البأس وألاذرع التي تقوي علي التجديف المؤثر في الهواء فتستدفع الريح التي تزيد من السرعة ، عليه ان يتذكر ان الغلبة رهينة بتوفر هذه الاسباب ، وان يقنع بما دون النصر واحراز قصب السبق . واكد لي محمد العوض الا امل لمثلي في الفوز علي هؤلاء ، إلا ان اراكض الهاشمين فتقعد بأحدهما محبته للضحك وتمتمته حتي في الجري عن ان يسبقني ، ويقصر بثانيهما قصر قامته وقلة حجمه ورقة قدميه عن ان يبلغ هدف المراكضة قبلي او يقترب من ذلك اي نوع من القرب المناسب . ومحمد العوض كما قد علمت شديد السخرية من الهاشمين كثير التندر عليهما وانما عني بتنبئه وثقته بفوزي عليهما اذا نحن تراكضنا ان يمد لي لسانه في معرض سخريته العابثة معلنا ان مثل هذا الفوز مما لايعتد به ولا يصلح ان يكون مدعاة لمكرمة رياضية . وعندما دعوته هو نفسه لمسابقتي اغرق في الضحك واشار الي الاستاذ محمد المأمون مؤكداً انه لن يدخل في منافسة فردية مع احد إلا بأمره واذنه ، وان الاستاذ يعلم مقدراته علي الجري والسبق وانما يدخره للمنافسات الكبري مع بقية الفصول . وانا اعلم ان ذلك ليس صحيحاً ولكن محمد العوض كاد يقنع جميع من حولنا من التلاميذ بصدق دعواه ، وكاد و هو يشير الي الاستاذ ويسخر مني ان يعلن علي الملأ - ويقيني انه لو علم لفعل - مقولة أبي الطيب في سيف الدولة وعن نفسه :

إذا شاء أن يلهو بلحية احمق # أراه غباري ثم قال له الحق

ولله الحمد والمنة ان محمد العوض لم يكن أبا الطيب وان الاستاذ محمد المأمون لم يكن سيف الدولة ، وان كاتب هذا السطور لم يكن صاحب لحية حتي يمكن ان يرمي

بالحمق او الحماقة ، وان « غبار » محمد العوض لم يكن سوي « مثار النقع » الذي تحركه دعاباته العابثة في نفوس اترابه ولكن سرعان مايستيقنون انها بعض طرائفه التي لاغبار عليها . ولو انك اخذت كل ضحكة من ضحكات محمد العوض عليك مأخذ الجد من اول وهلة دون ان تنفذ الي مقاصدها الدعابية العابثة البريئة لأشقيت نفسك شقاء ولتعذر عليك التعامل معه بيسر وبساطة ولحرمت روحك من اغني كنز من كنوز المرح عرفته ام درمان الاميرية في تلك العهود . وذلك ان محمداً كان زهرة مجتمعنا المدرسي يضوع بالعطر والشذي . وقد عرف فيه الاستاذ محمد المأمون هذه الغلاءة فاكبره وعامله باللطف واللين ، ولم يكرهه علي السباق وكان يكرمه احياناً بمهمة التحكيم وينفذ احكامه وأقضيته . ورغم ان محمداً يستحق هذا الاكرام إلا ان الاستاذ محمد المأمون لم يكن يجهل سلاطة لسان محمد العوض ولا مقدرته الخارقة علي التأثير في المجتمع المدرسي بأسره وخاصة حينما يكون موضوع الحديث متعلقاً بسيرة احد الاساتيذ . فكان من ذكاء الاستاذ محمد المأمون ان حفظ لمحمد العوض مكانته التي هو أهل لها وكفي نفسه في ذات الوقت شر ذلك اللسان الذي يمكن - إن أراد صاحبه وفي خفاء تام - أن يحيل بقاء الاستاذ إلي جحيم لايطاق . ولقد عجبنا في أول أمرنا للمعاملة الكريمة التي تلقاها محمد العوض من الاستاذ محمد المأمون من أول وهلة . ولكن ذلك العجب زال عنا بعد حين عندما علمنا أن أستاذنا كان علي قدر طيب من الإلمام بسيرة أولاد الفصل ، وقد بلغته عن محمد العوض انباء افاد منها في بناء الاسس التي قام عليها تعامله معه ومع بقية التلاميذ . فهو قد سمع بقصة التلميذ الذي اخذ من محمد العوض قطعة من الطعمية فجعل منه محمد بنكل (PINKLE) الذي يسرق كل شئ واوسعه هزءاً وسخرية . وسمع بقصة « دمشق نمرة اثنين » التي كادت ان تزهد علي محمود طه في المدرسة . وبلغته الانباء عن مقدرات محمد العوض الهائلة علي ابتداع الالقاب والاسماء والكنيات التي تلتصق بمن يطلقها عليه التصاقاً وربما صارت بالنسبة له مصدر شقاء وحرج . علم كل ذلك عن

محمد ولكنه علم ايضاً انه تلميذ ذكي لبق حاضر البديهة دافق الحيوية فصار يحترمه احتراماً واضحاً ويوليه عناية زائدة . ولقد افلح الاستاذ محمد المأمون في انتهاجه لهذه السياسة الرشيدة في تعامله مع محمد العوض اعظم فلاح وكف عن نفسه « بوائق » لسانه بأيسر السبل ، ولولا ذلك لخلد الاستاذ محمد المأمون في اذهان تلامذة تلك الازمان بلقب او اسم قد لايرضيه وقد يغضبه . وكان من الاساتذة القلائل الذين رضي عنهم محمد تمام الرضا ولم يجعلهم هدفاً لسخريته في اي وقت من الاوقات .

لقد تفرد الاستاذ محمد المأمون من بين زملائه بشيئين كانا مثار اهتمام التلاميذ ومبعث دهشتهم وتعجبهم في ذات الوقت . اولهما هو ولعه الظاهر بالرياضة واقباله علي ممارستها مع تلامذته جنباً الي جنب . وهذا امر لم يكن يحفل به اكثر الاساتذة الآخرين ، وقد كان ذا اثر بالغ في التقريب بين هذا الاستاذ وتلاميذه . وهو يتماشي تماشياً منطقياً مع روح التواضع التي تميز بها والتي وسمت تعامله معهم فكان اذا لقيهم في فناء المدرسة التفوا من حوله التفاف قرب وإعجاب وطفقوا يناقشونه في مختلف القضايا التي تتسع لها أفهامهم وهو يبادلهم ضاحكاً مرحاً ألوان الحديث . واذا كانت مثل هذه اللقاءات العابرة لا تكلفه شططاً يذكر ولا تأخذ من وقته إلا بضع لحظات قصار فان مجيئه الي جامع الخليفة في « العصاري » خصيصاً ليلعب معهم كرة القدم او كرة الشراب ويدربهم علي السباق ورياضة الجري ويشاركهم في ذلك مشاركة حقيقية قد كان امراً جديداً بالنسبة لهم ربما لم يحدثه في الماضي استاذ غيره او انه كان نادر الحدوث . فالاستاذ في نظرهم كان صاحب هيبة تمنعه من مثل هذا القرب اللصيق . ولقد ابان لهم الاستاذ محمد المأمون غير ذلك ، واقنعهم بالممارسة الفعلية ان هيبة الاستاذ ليست رهناً بابتعاده عن تلامذته ، بل ان هذا الابتعاد لايورث إلا هيبة زائفة ، ولا يكون الامتثال للهيبة الزائفة الانفاقاً ومداهنة ومداجاة . ولقد كسب الاستاذ محمد المأمون بسلوكه الموفق مع تلامذته مرتين : فهو قد اقترب من وجدانهم وألم بحقيقة مشاعرهم فأحبوه ، وفرض هيبته عليهم دون إكراه فوقروه وعلا ذكره في

السنتهم . ومن يدري ، ربما كان غيره من الاساتذة « الناشفين » - كما يسمي التلاميذ بعضهم - يحملون في دخائلهم مثل هذا الصفاء والنقاء ولكنهم بابتعادهم عن تلامذتهم صاروا كأسفار مغلقة عجز الصغار عن الاطلاع علي ما بين دفاتها وان كان كله خيراً عميماً . فاذا كان من بعض هموم الاستاذ ومقاصده ان يتفهم نفسية تلميذه فان هذا يقتضي القرب ويفرضه . واذا كان حسن التلقي عند التلميذ لا يتصور الا بوجود الثقة في الاستاذ فان هذه الثقة لايمكن ان تتأتي إلا عن قرب يصرف الخوف ويبدله بالامان . ولن تكمل ثقة التلميذ بنفسه ليبدي عن مقدراته الحقيقية إلا في جو تتكامل فيه هذه العناصر وتتحد وتتناسق . فالقرب الهادف بين الاستاذ والتلميذ هو الذي يثمر المعرفة ، وهو التعامل المبتغي الذي يصنع اجيال المستقبل المقتدرين ويكمل رسالة اساتذتهم علي خير الوجوه . ولقد كان الاستاذ محمد المأمون واحداً من الاساتذة الذين ادركوا ذلك فأعطوا عطاء حق لهم ان يفاخروا به ويباهوا .

اما الشئ الثاني الذي كان مثار اهتمام تلامذة هذا الاستاذ المحبوب ومبعث دهشتهم فقد كان هو عجزهم عن تحديد لونه الكروي . فقد تضاربت الآراء حول انتمائه الكروي تضارباً شديداً . فقال قوم انه هلالابي وهم الاكثرية . وقال آخرون إنه موردابي وقد ساعدهم علي هذا التصنيف ما كان يوليه محمد العوض من معاملة كريمة وصفت بانها خاصة . وقد فات عليهم انها لم تكن خاصة بالمعني الذي يتبادر إلي الذهن وان كانت كريمة بالفعل وان اسبابها الحقيقية انما تكمن في مواهب محمد العوض الكثر وليس من بينها انتماء محمد الكروي . وأرجف فريق ثالث - وعلي رأسه الهاشمان - ان الاستاذ مريخابي . وكان هذا الارجاف وليد تخلف الهاشمين عن مباريات السباق اثر اخفاقهما في بعضها وطعنهما في تحكيم محمد العوض الامر الذي لم يحفل به الاستاذ محمد المأمون ولم يلق له بالاً . فكان هذا الاتهام بالمريخابية من باب التعريض بالاستاذ ولذلك اعرض عنه الكثيرون ولم يقيموا له وزناً يذكر . وعلي الرغم من ذلك فقد ظلت الحيرة مسيطرة علي اذهان التلاميذ ، فهو مع كلفه بالرياضة

عموماً ومشاركته لهم لعبة كرة القدم الا انه لايفصح عن هويته الكروية ولا يبدو علي ملامحه حزن عميق او فرح غامر اذا انهزم هذا الفريق او انتصر ذاك . وهذا امر محير بالفعل فقد قل في تلك الازمنه من لم تحركه الانتصارات او الهزائم التي يحرزها او يمني بها هذا الفريق او ذاك من الفرق الكروية الرياضية الكبري في البلاد ، وندر من لم يكن حزنه عميقاً او سروره بالغاً حسب نتيجة المباراة المعينة وحقيقة انتمائه الكروي . ومن العجب ان الذي أراحنا من هذه الحيرة وحل طلاسمها لنا حلاً مقنعاً لم يكن سوي عبد الكريم . واعجب من ذلك انه استند في ابتداعه لهذا الحل – فيما يقول – علي القاعدة الرياضية (او الحسابية) المعروفة : « نفي النفي إثبات» . فطلع بذلك علي أذهاننا بحيرة جديدة ! فهو الذي بلغ من برمه بدروس الرياضيات (أو الحساب) انه كان يستخدم ادواتها في كل انماط هرجلته الموسيقية مما يبين عن استخفافه بها او بما صنعت من اجله . ثم هو بعد كل ذلك يحاول ان يقنعنا بأنه قد هدي الي حل ألغاز الانتماء الكروي لاستاذ من الاساتذة عن طريق استخدام هذه القاعدة الرياضية الحسابية ، قاعدة نفي النفي اثبات ! ولكن حيرتنا معه لم تطل ، فقد وضح الامر توضيحاً حين قال في تطبيقه لهذه القاعدة ان المريخاب عموماً يسكنون حي ود نوباوي والاستاذ محمد المأمون لايقطن هناك ، وان المورداب عموماً هم اهل حي الموردة والاستاذ ليس من ذلك الحي ، وان غالبية الناس في حي أبي روف وبيت المال هلالاب والاستاذ محمد المأمون يقيم في حي أبي روف . وبهذه البساطة افتي عبد الكريم بهلالابية الاستاذ محمد المأمون . ولقد أثارت هذه الواقعة سخرية محمد العوض فأشاع في الناس – وبالطبع من وراء ظهر عبد الكريم – ان عبد الكريم سيطلع علينا باكتشاف رياضي جديد يدور حول قاعدة جديدة سوف يعلن عبد الكريم أنها : إثبات الاثبات نفي ! فالذي طبق تلك القاعدة بهذه الصورة قادر علي ابتداع قاعدة جديدة لن يجرؤ احد منا علي ردها عليه . ولكن اعجب من كل ذلك ان التلاميذ اكتشفوا في نهاية الامر ان الاستاذ محمد المأمون هلالابي بالفعل لأن جميع اهله هلالاب . ولقد صدق

عبد الكريم وبرهن برهاناً قاطعاً علي ذكاء فطري يبلغ به النتائج الصائبة وان استصحب في سبيل ذلك منهاجاً يجانب الصواب . الم اقل لك ان عبد الكريم كان فيلسوفاً حكيماً ؟

فانظر معي بعد كل هذا الذي ذكرنا عن مدي قرب الاستاذ محمد المأمون من تلامذته كيف ان هذا الاستاذ قد ملأ ذكره الافاق وشغل الناس . ولولا هذا القرب وهذا النهج الصائب الذي انتهجه في تعامله مع تلامذته لما انشغلوا به الي هذا الحد ولما كانت كل هذه السطور التي تحدثت عن سيرته بين يديك ، ولما اجهد عبد الكريم نفسه هذا الإجهاد ليخرج علينا باكتشافه البارع الذي بناه علي قاعدة حسابية متينة وصحيحة . وهي في حقيقتها تذكر بتلك المعادلة التي تعلمناها فيما بعد في المدرسة الثانوية وتمكنا استناداً عليها ان نبرهن برهاناً قاطعاً ان واحداً يساوي اثنين . وانت اذا لم تصدقني فاستدع مابقي في نفسك من اثار علم الحساب او الرياضيات وانظر ماذا تري في هذا المنطق الرياضي :

لنفترض ان أ = ب

إذاً أ٢ = أ ب

إذاً أ٢ – ب٢ = أ ب – ب٢= ب (أ – ب)

ومعلوم ان أ٢– ب٢ = (أ – ب) × (أ + ب)

اذاً (أ – ب) × (أ + ب) = ب (أ – ب)

فاذا اسقطت (أ – ب) من جانبي المعادلة بقي معك :

أ + ب = ب

ولما كانت أ = ب من افتراضنا الاول

إذاً ٢ ب = ب

إذاً ٢ = ١

فأنت تري بعيني رأسك وبالبرهان القاطع الذي امامك ان واحداً يساوي اثنين .

فكيف تأخذ علي عبد الكريم لجوءه الي قاعدة ثابتة ومعروفة في علم الرياضيات - وهي ان نفي النفي اثبات - استطاع بها ان يكشف لك عن حقيقة الانتماء الكروي للاستاذ محمد المأمون الريح ؟ وهو لم يكتف بهذا البرهان العلمي الساطع بل انه اشار الي اهم القرائن وهو صلة الود التي كانت قائمة بين هذا الاستاذ واحد العاملين في المدرسة وهو عم عوض سالم . وكان عم عوض سالم رجلاً طويل القامة فارع الطول ابيض لون البشرة كأنه خواجة ، غير انه لايرطن الانجليزية كما علمنا . وهو اهم العاملين في المدرسة علي الاطلاق في نظر التلاميذ وذلك لسببين رئيسيين . الاول انه كان في المدرسة مسئولاً عن تجهيز كل ادوات لعبة كرة القدم وتهيئتها للمباريات التنافسية بين فرق الفصول والمنازل او بين التيم الاول والفرق التي تأتي من خارج المدرسة لمنازلته . . وعلي رأس هذه الادوات نفخ الكرة بالمنفاخ والتأكد من سلامتها وجودتها ومقدرتها علي الصمود طوال « الماتش » . ومن بين هذه الادوات ايضاً « الفنايل » والفاولات وأحياناً «الكدارات » حينما يكون الامر متعلقاً بالتيم الاول الذي هو وجه المدرسة المشرق . واما السبب الثاني - وربما كان هو الاهم وان لم تكن له علاقة مباشرة بالمدرسة - فهو ان عوض سالم كان يطلع بذات هذا الدور في نادي الهلال . فكنا كثيراً ما نلقاه في نادي الهلال مع عم صباحي الذي كان بمثابة امين النادي ، وخاصة ابان الفترة التي كان نادي الهلال الرياضي طوالها في شارع العرضة الحالي ، قريباً من التخوم الغربية القصوي لام درمان تلك الحقب . من هذا يتبين لك ان عم عوض سالم كان رجلاً ذا خطر شديد وأهمية بالغة بالنسبة للتلاميذ وهو بالقطع روح فريق الهلال لأنه هو الذي ينفخ الكور ويعدها للمباريات فهو الخبير بأمرها العليم بأسرارها . واذا كانت اواصر الود الحميم قائمة بين الاستاذ محمد المأمون الريح وعم عوض سالم - وهذا امر تأكد منه عبد الكريم وكان ظاهراً أمام اعين التلاميذ جميعاً - فان ذلك دليل قاطع ، او قل قرينة حالية قوية لا يمكن أن يتطرق اليها الشك ـ ان الاستاذ محمد المأمون هلالابي ممعن في الهلالابية موغل فيها . لقد استعان عبد الكريم بهذه القرينة المفحمة ليعزز بها

نتائج نظريته الحسابية التي افضت به الي تحديد الانتماء - او قل العشق - الكروي للاستاذ محمد المأمون بصورة تقطع الشك باليقين . وهكذا فقد اجتمع لهذا الاستاذ - في نظر اغلب اولاد فصلنا علي الاقل - جميع الفضائل : فهو هلالابي من اود اصدقائه عم عوض سالم نافخ الكور الاول لنادي الهلال ، وهو بسيط لايلبس البدلة إلا فيما ندر ، وهو صاحب روح اجتماعية نادرة المثال لأنه « يتونس » مع تلامذته اثناء فسحة الفطور وفي العصريات في جامع الخليفة ، وهو متواضع يلعب معهم بكرة الشراب او الكفر حسبما يتفق له ، ويلبس اثناء ذلك الجزمة الباتا والشورط ويجري معهم جميع أشواط السباق ، ولم يبق له من أن يصير واحداً منهم بالفعل إلا أن يرتاد معهم سوق الزلعة او « يتشعبط » معهم حيطة دار الرياضة الشمالية او يتزاوغ معهم من كمساري الطرماج ومفتشه حتي يضطر للنزول اثناء الكشة عديل او عكس مع كل ما يمكن ان يترتب علي النزول العكس من بهدلة وكشف حال . وهو فوق كل هذه المواهب استاذ مقتدر يدرس الانجليزية بكفاءة عالية فلا يلحن ولا تختلط عليه الفاظ هذه الرطانة ولا تستعصي عليه ألغازها . ولذلك فكلهم أحبوه واقتربوا منه ونعموا دهراً بذلك القرب والاقتراب .

كشف الغطاء له فكل عبارة # في طيها «للسامعين» ضمير

لم يعيه لفظ ولامعني ولا # غرض ، ولا نظم ولا منثور

الغول وعم حسين .. وا لخل الوفي :

كان الاستاذ حسين الغول ربعة ممتلئ الجسم في قوة ظاهرة تنتظم الاعضاء فلست تري فيه - علي امتلاء جسمه - أدني أثر للترهل أو السمنة أو الوهن . وهو ذو صوت جهوري آمر فيه شئ من الجبروت يشد الانتباه اليه شداً اذا تحدث ، ورغم ذلك فهو صوت هادئ مستقيم النبرات مرسل الموجات ، لايرعبك ولايخيفك اذا وجه اليك ولكنه يجتذ بك اجتذاباً ويستحوذ علي احترامك ويدعوك الي الامتثال وأنت راض بما يقضي به او يشير اليه . فهو لايشبه صوت الاستاذ محمود بلال رزق الا من حيث وفرة سمكه ان

صح لنا ان نصف طبقات الاصوات بالسمك ، ولا يهبط الي انخفاض صوت الاستاذ محمود الضرير إلا من حيث استقامة موجاته علي نسق واحد حتي ليكاد الصدي الذي يتبعه لصيقاً به ان يرسم علي صفحات الأثير خطاً مستقيماً خالياً من التعرج والذبذبة ليس فيه عوج ولا أمت . هذا الاعتدال هو خاصية تميز بها صوت الاستاذ حسين الغول. فهو نسق واحد في ارتفاعه ونسق واحد في انخفاضه وان كانت اغلب حالاته الارتفاع . وما كان ذلك الارتفاع يحدث نتيجة غضب او انفعال ولكنه بعض طبيعته التي فطره الله عليها « مفترعاً من فمه سر البيان فنطق » كما قال التجاني يرحمه الله . ولعله الصوت الوحيد من بين الاساتذة الذي لايتغير بتغير المزاج إلا فيما يختص بالعلو والانخفاض ، وهما أمران يتحكم فيهما الاستاذ حسين احسن تحكم ، وذلك دون جهد أو عناية خاصة تذكر . وليس معني ذلك انه لايغضب . فهو يغضب كما يغضب الناس ويرضي كما يرضون . ولكنه اذا غضب فان عجيرته لاترتفع عن المألوف وانما ينم عن غضبه طيات نواطق علي جبينه وبعض احمرار في عينيه اذا خلع عنهما المنظار. أما اذا رضي فانه لايدل علي رضاه انخفاض صوته أو ارتفاعه أو استقامته علي ما كان عليه قبلاً ، وانما يدل عليه انطلاق ظاهر في وجهه وافترار بين عن ثغره وبسمة قصيرة المدي تتناهي الي ضحكة خافتة عجلي سرعان ما يلملمها ويخفيها في غضون وجه لايبقي فيه من اثرها الامثلما يبقي من اختضاب الافق بذلك اللون القرمزي الممتقع في أويقات الغروب .

والاستاذ حسين الغول يختلف عن زملائه الاساتذة من وجوه أخري أيضاً . فلست أذكر أني رأيته يرتدي البدلة الكاملة في وقت من الاوقات ، وانما تغلب علي ملبسه البساطة التي هي من شيمه وبعض شؤونه التي يعبأ بها ويحرص عليها تمام الحرص . فأكثر ظهوره في البنطلون الازرق أو الاسود او الرمادي - فهو قليل الاحتفاء بالألوان الفاتحة - والقميص الابيض ذي الأكمام القصيرة او الطويلة . وهي بساطة يلمحها التلاميذ في هندامه ولكنها لانمتد الي رفع الحجب والاستار بينه وبينهم إلا في حدود

معلومة لا تتعداها . وهم قد ابصروا هذه البساطة في اروع صورها واقرب معانيها الي مشاعرهم عندما يكون الاستاذ حسين الغول مع زملائه المدرسين . وذلك انهم يسترقون السمع في بعض الاحايين بغية الالمام بعوالم الونسة التي تجري بين الاساتذة وقد خفيت عليهم مادتها واسرار حيويتها التي كانت تثير في بعضهم شيئاً من الغيرة وكثيراً من الفضول . اما الفضول فانه من خصائص الطفولة التي فطرت علي حب الاستطلاع والسعي الي ادراك كل ما خفي وأنبهم ومحاولة فك الطلاسم وفتح رتاج المجهول . واما الغيرة فقد كان مبعثها الاعجاب بتلك الاسرة المتحابة من الاساتذة التي بلغ التجانس بين افرادها درجة عالية لم تسمع معها ابداً بشجار او عراك نشب بينهم كما كان يحدث بين التلاميذ . ومن عجب ذلك في نظر التلاميذ الصغار ، لأن مجتمع الاساتذة كان فيه ايضاً المريخاب والهلالاب والمورداب . ورغم ارتفاع راية التعايش السلمي بين التلاميذ علي اختلاف انتماء اتهم الكروية عموماً إلا ان المنازعات والمناكفات والشجارات فيما بينهم لم تكن نادرة الحدوث . اما بين الاساتذة فانها لاتحدث ابداً لا في السرولا في العلن . ولو ان شيئاً من ذلك وقع لتناقلته الألسن ولسار بحديثه وخبره الركبان . وقد لاحظ التلاميذ ان الاستاذ حسين الغول محبوب بين زملائه المدرسين اثير عندهم ، ويبدو انه صاحب ملح وطرائف ، لأنه كلما اجتمع بهم وتحدث اليهم تعالت ضحكاتهم من كل جانب وغمرهم المرح وعلت وجوههم علامات الارتياح ، وبان جلياً وهم يستمعون إليه انه هو منبع النوادر التي يسعدون بها ويمرحون ويضحكون حتي تبلغ نبراتهم درجات الصخب والضجيج . ولقد حيرنا هذا الامر كثيراً ، لأن الاستاذ حسين الغول لا « ينكت » في الفصل ولايروي لنا من هذه الملح والطرائف شيئاً ، ولا يعبأ بطرائفنا وملحنا ولا يبدي استعداداً لسماع شئ منها . ولكنه يصير مع زملائه الاستاتذة شخصاً آخر غير الذي نعرفه في الفصل ، فيرسل نفسه علي سجيتها ويقص عليهم مايسرهم وينتزع منهم الضحك والاعجاب . فهو بينهم مثل محمد العوض بيننا حكيم عراف بصير بانتقاء الطرفة والدعابة التي تستجلب المرح

وتخفف من ثقل هموم الحياة وتخلع علي الامور كلها معان قشيبة تسمو بالروح وألواناً زاهية تسر الناظرين . ولكن الشئ الذي كان يحيرنا هو ان الاستاذ حسين الغول الذي تمتد حصته الواحدة معنا الي قرابة ساعة من الزمان لا يجد وقتاً ليطلعنا اطلاعاً مباشراً علي ذلك الجانب المرح من شخصيته وانما يضن به علينا ضناً ويخفيه عنا إخفاءً حتي إذا لقي زملاءه فاجتمعوا من حوله وهم يتطلعون اليه افضي بهم في دقائق معدودات الي حالة من الفرح والحبور تنبئ عنها ضحكاتهم المرحة التي لاينفكون عنها حتي يغادرهم الاستاذ حسين او يباغتهم الاستاذ محمود بلال رزق او تأذن هي بانحسار اسيان اذا صلصل جرس عم مبارك وآذن بالانتقال من حال الي حال . فاذا انفض السامر اثر هذه الصلصلة ظلت اصداء ذلك المرح قريبة من الاسماع وبقيت ملامح اثاره عالقة بالوجوه . ولقد زاد من حيرة التلاميذ ان الاستاذ حسين الغول بسيط في مظهره كما قدمنا وان هذه البساطة مغروسة فيه وطبع من طباعه وليست مظهراً من المظاهر المصطنعة ، ولكنها رغم ذلك لا تطوي المسافات التي تمتد بينه وبينهم بما يكفي ، ولاتدفعهم الي الدنو منه اكثر مما يجب . غير أنهم يحترمونها ويجلونها ويعجبون بها ، ويتمنون لو أنها ترامت بظلالها تلقاءهم أكثر مما هي عليه . ولربما كان بعض اسباب ذلك انهم تلقوا بواكير معارفهم في لغة بني السكسون علي يديه وحملها الي اذانهم وعقولهم منه ذلك الصوت الجهوري الامر المستقيم . ففي تلك الازمان الغابرة كان دخولك المدرسة الوسطي يعني نقلة كبري من دنيا الكتاب – أو المدرسة الأولية – الي عوالم الابتدائي أو المدرسة الوسطي حيث دروس اللغة الانجليزية التي يمكنك اذا اتقنت من اولياتها شيئاً ان تطلع بأولاد حارتك الجو وان تصبح في نظرهم « خواجة عديل » إلا من البدلة و« الكرفتة » والكدوس . واني لأذكر جيداً كيف سألتني شقيقتي وهي بعد في المدرسة الاولية ان كان حقاً اننا نتعلم في مدرستنا الانجليزي . فلما أكدت لها ذلك قرأت في عينيها الريبة في قولي ، وطفقت تمطرني بوابل من الاسئلة الساذجة : طيب انا اسمي بالانجليزي شنو ؟ وانت اسمك

بالانجليزي شنو ؟ وهل ممكن تضحك لينا بالانجليزي ؟ وهي لم تشعرني انها مصدقة لكلامي تماماً حتي بعد ان اريتها ريدرون . (Reader One) والكومبانيون التابع له . تلك هي سذاجة الطفولة وذلك هو حب الاستطلاع البريء المقترن بها اوثق الاقتران . ولما قلت لها ان استاذنا الذي يعلمنا اللغة الانجليزية اسمه حسين الغول ضحكت ضحكة مشوبة بالخوف وتساءلت بما يشبه الاستنكار : كمان بيدرسكم الغول ؟ ولست ارتاب في ان الغول الوحيد في عالمها لم يكن سوي ذلك الذي كثيراً ما نامت علي اقاصيصه ترويها عليها « حبوبتها » تحت ضوء القمر البلوري السائل من سماء صافية كأنها لم تعرف في حياتها الغيوم . وحق لها ان تستغرب هذا الاسم فقد استغر بناه قبلها ولكننا ابصرنا بأعين رؤسنا – ولأول مرة – شخصاً يحمل اسم الغول . فالغول لا يدرس الناس ولكنه يأكلهم اذا عثر بهم . وهو يرعبهم علي اقل تقدير وهم يصطرخون ويفزعون لمجرد سماع اسمه لأنه مرتبط دائماً بتهديد بقائهم علي ظهر البسيطة . فالغول عند الصغار مخلوق ضخم يلتهم البشر التهاماً ولايمكن وصفه بأي نوع من الدقة لأن من يراه لا يمكن ان ينجو منه فكيف يمكن ان يقف علي اوصافه الحقيقية انسان ؟ واما عند الكبار الراشدين العقلاء فهو اول المستحيلات الثلاث . ألم تسمع قول الشاعر:

ولقد علمت المستحيل ثلاثة # الغول والعنقاء والخل الوفي ؟

ولكن هذه الثلاثة ليست مستحيلة عند الصغار . فنحن قد رأينا الغول وهو استاذ محترم يدرس اللغة الانجليزية ولو لم يكن غولاً لما تسني له ذلك . وتعبير « الخل الوفي » ربما كان لغة ليست سهلة الفهم علي عقول الاطفال ولكنهم يعيشون معناه فيما بينهم ويطبقونه أروع تطبيق . وأما العنقاء فلا يشتغلون بها أصلا لأنها لم ترد ابداً بين احاجي الحبوبات . ومجمل القول ان الاستاذ حسين هو اول غول بشر مسالم حقيقي نلتقي به في حياتنا . ولذلك كان للاستاذ حسين الغول في نفوسنا منزلة خاصة . فهو اول من علمنا حرفاً باللغة الانجليزية منذ ان وطئت اقدامنا اليافعة الغضة أرض فصل

التواني ومنذ ان كان ذلك الفصل في بدء امره - ولم يتجاوز الاشهر القلائل - في ذلك الموضع القريب من حي بيت المال . وهو مدرسة لاتزال قائمة حتي اليوم لم تمسسها يد التغيير طوال هذه الأزمنة المتعاقبة بشئ يذكر سوي مئذنة قصيرة لا تبعد عن مسجد الحى الرسمى إلا بخطوات قلائل وأنها صارت مدرسة من مدارس الاساس يؤمها اطفال في السادسة من اعمارهم بعد ان كانت مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي « التواني » . وفي هذا ما يذكر بمعني التقدم والتطور عندنا في السودان ! غير ان هذا امر أخر لسنا بصدد الحديث عنه في هذه الصفحات[1]. فالذي يهمنا هنا هو استاذنا حسين الغول ، الذي كنا نباهي به في احيائنا السكنية بين الاولاد الاخرين ونروي عنه العجائب والخوارق .

ومن عجب اننا تعرفنا في ود نوباوي علي عم حسين الفوال في استراحة الدائرة . وقد أطلق عليه اهل الحي اسماً عرف به بين الناس ويمنعني الحياء من ان أصرح به علي هذه الصفحات. ولكن الناس لا يعرفونه اذا لم يقترن هذا الاسم الغريب باسمه الاول ولست ارتاب في انه هو نفسه لم يسمع بهذا الاسم الذي اشتهر به شهرة ليس عليها من مزيد لأنه لا يجرؤ احد ان يناديه بهذا الاسم في وجهه . فهو عم حسين . وهو رجل قصير ضخم البنية سهل الطبع بشوش ضحوك له وجه طفل ومشية طفل وبراءة طفل . فاعجب لرجل عرف باسم يعلمه جميع الناس إلا هو نفسه ! ورغم انه لم تكن هناك مقارنة تذكر بينه وبين الاستاذ حسين الغول إلا ان عبث الطفولة كان يحبب الينا اختلاق هذه المقارنات وان كانت في حقيقتها مفارقات .

فعم حسين لا يدرس الانجليزي ولا العربي واغلب الظن أنه لا يفك الخط ولكنه صاحب « قدرة » فول يتحلق من حولها في الامسيات خلق كثير . فاذا افتخر ابن الحجام وهو يباهي بصنعة ابيه ليجعل لها شأناً بين الناس فانك تسمعه ينشد في زهو واعتداد :

انا ابن من دانت الرقاب له # مابين مخزومها وهاشمها
تأتي اليه الرقاب صاغرة # فيأخذ من مالها ومن دمها

ومثل هذا القول يثير الغيرة في نفس ابن الفوال لأنه يعتبر أن صنعة الحجامة لا تساوي شيئاً بالنسبة لصنعة أبيه . ولذلك فهو يرفع رأسه عالياً وينشد في وجهه رداً عليه :

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره # وإن نزلت يوماً فسوف تعود

تري الناس أفواجاً إلي ضوء ناره # فمنهم قيام حولها وقعود

فالناس افواج حول ضوء نار عم حسين ، منهم قيام حولها وقعود وذلك ان صحن الفول عنده يشبع الفيل ، ليس كصحن فول هذه الايام الذي لايشبع فأراً وتبلغ تكلفته قرابة ألفي ضعف لما كان يتقاضاه عم حسين عن صحن فول « زي الفرصة » مترع بزيت السمسم وليس بزيت « الغلغل » الذي يتجرعه اطفالنا اليوم مع حبات الحصي التي صارت تسمي فولاً مجازاً او « موية » مايشبه الفول حقاً وصدقاً . وعم حسين رجل كريم لا يبخل عليك « بوصلة » ان طلبتها منه في ادب ولباقة ، والفول عنده دائماً « مصلح » وأحياناً بالسمنة لبعض الاثيرين عنده من اولاد الحي . واطباقه دائماً نظيفة وهي « صحانة الطلس » الانيقة التي ليست كمثل « صحانة » هذا الزمان القلق البئيس « المطرقعة » التي تسمي «ألمونيا » وهي ليست من «الألمونيا» الحقيقية في شئ. ليت شعري متى يرحل عنا الي غير رجعة هذا الجدب والقحط والمحل الذي صارت فيه رغيفة العيش التي تشبه ذنب السحلية امنية عزيزة المنال بالنسبة لخلق الله الجياع .

ولقد كان عم حسين رجلاً ظريفاً بحق فهو دائم الابتسام كثير الضحك والقهقهة ولا يغضب أبداً من احد واذا كنت مفلساً وتتوق نفسك الي صحن الفول فهو لايردك أبداً بل يسلفك ولا يلاحقك وان كثر ترددك عليه . فهو يجلس علي عنقريبه لا يتحرك منه الا نادراً لأن جسمه الضخم لا يواتيه في الحركة . ومن ذلك العنقريب يدير مؤسسة كاملة ابرع ادارة . فهو قد اتخذ كاتباً يجلس علي « بمبر» بمقربة منه لا يغادر تعريفة علي احد إلا وسجلها في دفتره قبالة اسم صاحبها . فاذا طلع الشهر الجديد هرع الجميع بسداد ما عليهم من ديون لاتتعدي في اغلب حالات السرف بضع ريالات . ونحن لم

نسمع ابداً بأحد فر بدينه من وجه عم حسين . ولم يكن ذلك ابداً لان عم حسين صاحب يد لاحقة كما يقولون وانما كان ذلك لأمرين لا ثالث لهما : اول هذين الامرين واكثرهما اهمية هو ان الفرار بالدين من وجه الدائن كان في تلك الازمنة سبة ولذلك فهو عنقاء الصغار وثاني المستحيلات في خلائقهم وان صار هذا الفرار في هذه الازمنة « اللكع » الغبراء التي نعيشها مسلكاً موسوماً بالشطارة والذكاء لأنه جلوب لصاحبه الثراء العريض من معادنه حتي بعد وقوعه في يد السلطان واجراءات التسوية المعروفة . وذلك ان قاعدة « المال تلتو ولا كتلتو » اصبحت من من قواعد المجتمع المتعارف عليها والتي تطبق في كل صباح . فاصبح صاحب الحق مثل المذكور في سنة الوصية له « الثلث والثلث كثير » ! واما الثلثان فانهما - بعد اجراء التسويات بزمن قصير - ينبتان العمارات الشاهقة ويستوردان السيارات الفارهة شبحاً كانت أو أوتومبيلات ذوات أصلاب ضخام لأقوام عرفوا كيف يتحايلون علي الناس والتقاليد والقانون . واما الامر الثاني الذي كان يجعل الناس يسارعون بسداد ديونهم لعم حسين فهو ان عم حسين كان رجلا مهذباً مرحاً محبوباً بين الناس وكان له من خلائقه العذبة وقاء من أن يظلم أو « يؤكل » او يجهل عليه . ومن ذكاء عم حسين انه لم يكتف بقدور الفول الراسيات بكرة وعشياً وانما امتد نشاطه التجاري الي صناعة لقيمات الشاي في الصباح الباكر . ويمكن ان تباكره من صبح الرحمن بتعريفة واحدة تعود منها الي دارك بقرطاسة ضخمة من قطع الزلابية الصغيرة لتتناول شاي الصباح « وتفك الريق » ثم تمضي الي مدرستك في نشاط وغبطة لا تعوزك الطاقة والقوة علي السير بقدميك او المخاطرة بركوب الطرماج مع كل ما يمكن ان يترتب علي ذلك من زوغان من الكمساري والمفتش او نزول مفاجئ الي الارض والمركبة تكاد ان تطير في الهواء من فرط السرعة وانتهاب القضبان .

ورغم أن عم حسين كان يعلم أن له بعض المنافسين في صنع « اللقيمات » في الحي إلا انه لم يكن يخشاهم او يعبأ بأمرهم كثيراً . فعنده ان لقيماتهم مثل « الحمبك »

ويعتبر ذلك تطفيفاً صريحاً في الكيل ، وذلك لانه رجل يخاف الله ولا يخاف الناس .
غير انه كان يحترم واحدةً من منافسيه ويصفها بالأمانة ، وهي « امي التقيل » يرحمها الله . فهذه سيدة مسنة تبيع اللقيمات فى حوش السيد على المهدى .وهى امرأة مرحة ضحوكة جذابة ، تزيدك على بيعك ثلاث أو أربع حبات لوجه الله . وأنت عادة تجدها فى الصباح الباكر وقد تجمهر حول كانونها خلق كثير من الأولاد وناره الهادئة تنضج أجيالاً متعاقبة من اللقيمات بأحجام صغيرة متساوية ، ويدها المعروقة السمراء تقطف سرباً منها وتحشد من خلفه سرباً آخر تقلبه لينضج في سرعة وخفة ومهارة فائقة تماماً كخباز ابن الرومي الذي انشد في حقه :

إن أنس لا أنس خبازاً مررت بـه # يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

مـابين رؤيتها فـي كـفة كرةً # وبين رؤيتها حـوراء كالقـمر

الا بمقدار مـاتنداح دائـرة # في لجة المـاء يلقي فيه بالحجر

فانظر الي هذا الوصف الرائع البديع . لو أن ابن الرمي بصر بهذه السيدة الماهرة لما بخل عليها بمثل هذا القول المحكم البليغ . فهي مع كل هذا الاقتدار والاتقان لاتفتأ تقص علي زبائنها الاقاصيص والنوادر وتتحفهم مما تختزن من الملح والطرائف بكل محدث وتليد وتضحك مثل الطفلة الغريرة ملء الروح والاشداق . وقد عرفت في الحي بأنها امرأة ذكية ومحسنة ، ولذلك كان عم حسين ينعتها - دون غيرها من منافسيه الآخرين - بالامانة والنزاهة وحسن الاحدوثة . فكنا اذا تحول منتدي سمرنا في بعض الامسيات من كبري ود نوباوي الي نار عم حسين نلقاه يذكرها بالخير ويصف غيرها بالتطفيف وعدم الحياء .

بعد كل هذا الاستطراد قد يبدو من حق سائل ان يسأل عن علاقة كل هذا الذي

ذهبنا اليه باستاذنا حسين الغول . وهو سؤال نقول في الاجابة عليه ان عم حسين يشبه استاذنا حسين الغول ليس في الاسم الاول فحسب وانما في الاخلاق والاستقامة والامانة ايضاً . وهذه هي ملاحظة الفاضل شريف الذي ذهب في المقارنات الي ان الشبه بينهما من وجوه . فكلاهما ضحوك ممراح مع المجموعة التي تناسبه وتلتف من حوله . وكلاهما صارم في غير ماسرف تجاه زبائنه او تلامذته الصغار . وكلاهما يود ان يغادروه وهم عنه راضون سعداء بما نالوا عنده من القري للجسم او العقول . وليس تناول الفول مساء او ابتياع قرطاس اللقيمات في الصباح الباكر من عم حسين دون عناء بأقل أهمية من متابعة حصة الاستاذ حسين الغول وهو يرطن بالعجمية الفصيحة دون مشقة تعتريه ، فيشد الانتباه إليه شداً بذلك الصوت الجهوري المستقيم . أما ديار عم حسين التي شهدت في ذات حين قدراً لا تنزل الدهر عن أثافيها فقد درست وطال عليها سالف الأمد . ثم تحولت من بعد ذلك الي مساكن ربما لم يسمع اهلها الحاليون ابداً بخبر عم حسين . فالأرض لله يورثها من عباده من يشاء . واغلب ظني ان عم حسين قد توفاه الله فقد كان في تلك السنوات رجلاً لا أحد يستطيع ان يخبر عن عمره الحقيقي . وذلك ان وجهه كوجه الطفل براءة ونقاء وصفاءً ، فهو « أمرد » لا أثر لشعرة واحدة علي وجهه المتهلل الضحوك . واما الاستاذ حسين الغول فقد علمت من قريب إنه علي قيد الحياة اطال الله في ايامه ومتعه بالصحة والسعادة . فقد كان والله امة من المعرفة والاحاطة بمادته التي يدرسها ، عليماً بأسرارها ، بصيراً بأسباب نقلها هونا الي ادمغة تلامذته الصغار في كفاءة وصبر وأناة ، وفي يسر وسهولة وعمق نفاذ . ولقد استن فيما بيننا وبينه سنة حسنة لا زلنا نذكرها بالعرفان والتقدير . وذلك انه اوجب علي تلامذة الفصل التحدث باللغة الانجليزية طوال الحصة وأفرد جائزة نقدية تشجيعية لمن يتفوق علي زملائه التزاماً بهذا الشرط حتي نهاية الحصة . وكان ذلك بالطبع بعد ان ابحرنا معه قليلاً علي زورق اللغة الساحرة الجديدة . وما اكثر ما كنا نمزق لغة الخواجات ونمثل بها ونستبيح حرماتها . ولكنه صبر علينا صبراً جميلاً وطفق يرقع

عنا ما تخرقه منها ألسنتنا وجهالاتنا حتي لانت لكثير منا قناة مبادئها الاولي وارعوت وذلت لمنطقنا كلماتها وتعابيرها واحرفها وحبب الينا التحدث بها في غير اوقات الدروس . فتلك محمدة من محامد الاستاذ حسين الغول التي لاتنسي وتلك ثمرة من ثمار جهده المثابر الذي لم يكن يعرف الكلال . وذلك جيل من الاساتذة ما كان لهم من هم سوي تنشئة تلامذتهم علي أقوي وأمتن اسس المعارف . فكانوا يعطونهم كل ما يملكون ويحملونهم – رغباً غالباً ورهباً نادراً – علي بلوغ اعلي المستويات . فلا جرم كان تلاميذ المدارس الوسطي في تلك الازمنة يخوضون تجربة امتحان « السي اس » (C . S) – وهو امتحان للتأهيل للخدمة المدنية – بنجاح منقطع النظير . بل منهم كثيرون قد نالوا شهادة كمبردج من منازلهم بعد سنوات من إكمال المرحلة الوسطي دون تلقي تعليم نظامي في مدرسة ثانوية . وقد كانت اللغة الانجليزية حجر الزاوية في كل تلك الامتحانات وكان النجاح فيها هو الذي يحدد النجاح ونيل الشهادة المعينة بصورة قاطعة . ورغم اني سعدت كثيراً اذ علمت ان استاذنا حسين الغول بصحة وعافية إلا اني حزنت كثيراً ايضاً لما بلغني انه قد كف بصره فتملكني الاسي علي ذلك البصر الحديد الذي طالما كان يري كل عيوب ما نكتب فيصلح منها ويقومها حتي صنع من تلامذة « ريدر ون » في تلك الحقب رجالاً تمكنوا بعد سنوات معدودة من قراءة واستيعاب « تنسون » « وشلي » « وقولسويرذي » « وبرنار دشو » « وشكسبير » واقاثا كريستي « وألفن توفلر » وغيرهم . وحق للاستاذ حسين – اطال الله بقاءه ومتعه بالعافية – ان ينشد معتزاً مفاخراً ومن ورائه كل هذا العطاء الهائل الذي قدمه للأجيال المتعاقبة :

تعجبت در من شيبي فقلت لها # لاتعجبي فطلوع البدر في السدف

وزادها عجباً أن رحت في سمل # ومادرت در أن الدر في الصدف

الشيخ الذي ملأ الدنيا وشغل الناس :

إذا تم اجراء استفتاء في مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي بين تلامذة تلك العهود

حول اكثر الاساتذة شعبية واحبهم الي نفوس تلامذته واقربهم الي وجدانهم فلست ارتاب لحظة في ان الشيخ ابابكر عبد الله - يكون هو ذلك الاستاذ . وهذا امر قد يكون مثار استغراب وحيرة عند بعض الناس الذين عرفوه في تلك العهود . فهؤلاء يعلمون ان الشيخ لم يكن شعبياً في أي من مظهره العام ومكانته الاجتماعية . اما في مظهره العام فقد كان يتخير ملابسه تخيراً فيرتدي ماغلا ثمنه ودق نسيجه وحسنت هيئته ونعم ورق ملمسه . قفطانه ناصع وجميل محكم التطريز انيق القيطان وفرجيته منمقة ملساء يومض و« يتلاصف » في لحمها وسداها حرير موضون . وحذاؤه البني او الأسود الطري اللامع مصنوع من الجلد الخالص وهو دون ريب مستورد من خارج البلاد ولا بد ان يكون غالي الثمن اذا ما قيس ذلك بأسعار الاحذية التي تنتج محلياً حتي لو كانت هذه من النوع « الوصاية » . وعلي رأسه عمامة قصيرة ولكنها ناصعة البياض ولعلها سويسرية الصنع ، تلتف في نسق واضح حول طربوش ناعم احمر قان مزركش القرص والذؤابات . واما مكانته الاجتماعية فهي تعلن عن نفسها بجلاء في رقة الملبس واناقة النعل وجمال الهيئة وتنبئ عنها وظيفته الراقية كاستاذ للدين الاسلامي والقرآن واللغة العربية في مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي التي ذاع صيتها وطبق الآفاق وكانت بحق وحقيق « حاضرة » المدارس الوسطي في البلاد علي قلة تلك المدارس ، وانتقلت بشقيها علي أيامنا الي قلب مدينة ام درمان التي هي قلب السودان بأكمله . فتلك مكانة اجتماعية مرموقة « حسن في مثلها الحسد » .

لقد تعرضنا للشيخ ابي بكر في غير ما سياق خلال صفحات هذا الكتاب . وما ذاك إلا لأنه كان في دنيا تلامذته الكثر بحراً زاخراً مليئاً بالأصداف واليواقيت وكان بين زملائه الاساتذة قمراً منيراً في صفحة سماء صافية . صح ان يقال عنه انه ملأ الدنيا وشغل الناس ، وترك اثاراً في اذهان تلامذته علي وجه الخصوص هي اشبه بذلك الدوي الذي اشار اليه ابو الطيب المتنبي اذ يقول :

وتركك في الدنيا دوياً كأنما # تداول سمع المرء أنمله العشر

فهذا دوي وذاك دوي ، وشتان ما بين دوي ينتجه العنف والاحتراب فينجلي غباره عن نقص في الأموال والأنفس والثمرات ، وبين دوي مبعثه الحيوية والفطنة وذرابة اللسان فيثمر قطوفاً من المعارف واشتاتاً من الذكريات المرحة المستظرفة التي ماتزال باقية في الأذهان منذ تلك العهود . حقاً لقد ملأ الشيخ أبو بكر دنيانا الزاهية التي عشناها بين رحاب ام درمان الاميرية الوسطي وشغلنا فيمن شغل من الناس . وليس أدل علي ذلك من انه الاستاذ الوحيد الذي حاول التلاميذ ان يقفوا علي ما كل ما جل ودق من خبره حتي بلغ بهم الفضول ان يبحثوا بكل ما اتيح لهم من مقدرات علي التقصي والاستنباء عن أصوله القبلية ومنابته العرقية . فذهب بعضهم الي انه شايقي وقال آخرون انه رباطابي ، وظن فريق ثالث انه جعلي وانما نشأ وتربي في بيئة شايقية الملامح وطرائق الحديث . ولم يجرؤ احد ان يسأله عن أصله او قبيلته ولو فعل ذلك احد لجعل منه الشيخ اضحوكة بين الناس ومادة خصبة للتندر والهزء والسخرية بين الالسن . وما كان لهم ان يستبينوا عن جذوره القبلية من زملائه الاساتذة فتلك جسارة لم يكن يطيقها احد وهي ربما عادت علي السائل بما لا يحب ولا يرضي لأنها في نظر قيم الحياة السائدة في تلك الازمان قد تعتبر في حق السائل فضولاً ليس له من مبرر وحشراً لأنفه في مالا يعنيه من الامور . غير ان اولاد الرباطاب في المدرسة كانوا يجزمون بأن الشيخ رباطابي وان لهجة الرباطاب قريبة من لهجة الشايقية ، او ان الشيخ عاش سني حياته الاولي في وسط شايقي . ومن عجب ان التلاميذ لم يحفلوا ابداً بتصنيف الشيخ علي اساس انتمائه او عواطفه الكروية علي الرغم من ان مثل هذا التصنيف كان بالنسبة لهم غاية في حد ذاته اذ علي اساسه كانت تصدر الاحكام بالرضا والقبول او تنفسح المسافات بالقلي والنفور . فعقيدة الاستاذ الكروية كانت تدنيه من مشاعر التلاميذ وان اختلفت عن عقائد بعضهم وذلك لأنها تشعرهم بأن الانتماء الكروي ليس عبث صغار وانما هو عشق مشروع يتقلب في نيران جواه حتي الكبار . وعندهم أن الذي يخلو من عقيدة كروية معينة - حتي وإن كانت تشيعاً لأحد

فرق كرة القدم الصغيرة – انما هو كالماء الذي ليس له لون ولا طعم ولا رائحة . ومثل هذا الماء في نظرهم لا يروي الغلة وان كان ضرورة لا تقوم من غيره الحياة . وذلك انه يحلو عندهم ويغدو مستساغاً ان كان له لون مميز ، فاللون عندهم هو الذي يعذب معه المذاق وهو الذي ينشر الشذي وطيب الرائحة . فلا بد للماء من اناء يلونه . وتلك حكمة من حكم الصغار تجد مصداقاً في اقوال الفلاسفة . الم تسمع قول المعري يرحمه الله

ولا لون للماء فيما يقال # ولكـــــن تلونه الأواني

ولكن الاواني قوالب لا تلون الماء حتي تحبسه وتعتقل انسيابه كما تحبس القيعان والأخاديد فضول هوامي الغيوث . اما العقائد الكروية فهي ليست بالأواني الساكنة الصماء ذوات الجدر والحدود ، ولا هي بالقيعان المنحفرة ، وانما هي عوالم شفيفة رحبة طليقة في وديان الحرية وسهولها لا تعترف بالحدود ولا بالأركان ، يسيل الماء فيها سيلاً فينقي ويطيب . وذلك قول الشافعي يرحمه الله :

إني رأيت وقوف الماء يفسده # إن سال طاب وان لم يجر لم يطب

فالماء الطيب عموماً يضيق بالانحباس فيأسن لأنه مثل العطر النموم اذا ارتهنته بين ارجائها القارورة حبست شذاه وضنت به ان يضوع ، او مثل شراب فردوسي الطعم واللون لم يسكب بعد في آنية او ماعون ، فهو بعض ما اشار اليه ابو الطيب المبدع اذ يقول :

لها ثمر تشير اليك منه # بأشربة وقفن بلا أواني

فانظر اليه كيف اخترق بخياله الخصيب النفاذ أحشاء الاماد والعصور المقبلة حتي اوشك ان يقف علي ما يمكن ان يجعل منه العلم الحديث حقيقة جديدة ملموسة !

ونحن رغم اخفاقنا في العثور علي أسس يمكن استناداً عليها تحديد انتماء الشيخ الكروي الا اننا ألفينا فيه سحراً أغنانا عن مثل هذه التصنيفات . فهو علي الرغم من انه قد ادار ظهره الي عوالم كرة القدم ومغزي التحزب لأي فريق من فرقها الا ان ذلك لم يزدنا إلا محبة فيه وتعلقاً به وشدة شوق الي « حصصه » وليس لهذا من سبب

سوي طلاقة روحه الاسرة وخفة دمه الشربات . ذلك قول ما هو من التندر في شئ انما هو الحق الأبلج الصراح . فالشيخ محبوب بين كل التلاميذ لا أستثني منهم احداً ، علي الرغم من تجاوزاته التي تعرضنا لأمثلة منها فيما تقدم من صفحات . وهي تجاوزات لو لم تكن صادرة من ذات صاحب هذه الخفة وهذه الجاذبية المحيطة لما تقبلها الناس ولجرت علي صاحبها من المتاعب مالايحصي . فهو يستطيع ان يشتمك ويشتم اباك وامك ومن في الارض جميعاً من اقاربك ، وان يضربك حتي تعيا كفه وتضوي ، فلا تجد في نفسك أثراً لحنق عليه أو نفور منه ، ولا تملك الا ان تضحك مرحاً وتتقبل جميع تصرفاته بالرضا والامتثال . بل ان التلاميذ كانوا يتطلعون لحصته رغبة في التلذذ بمثل هذه التصرفات التي تشكل مادة « ونستهم » العظمي وتثري اسباب عبثهم ودنياوات ملحهم وطرائفهم بأفانين من النوادر والمتع . وآية ذلك أننا لم نسمع بتلميذ واحد ابلغ اباه او ولي امره بأي طرف من أطراف تجاوزات الشيخ ، ولم نعلم أحداً جأر بالشكوي منها لادارة المدرسة . وحقيقة الامر هي ان الشيخ استاذ حلو الحديث بارع في الوصف موفور الذخيرة اللغوية التي تواتيه دائماً طيعة سلسة منقادة في اي افق من الآفاق التي يريد ان يحلق بك فيها ، وفي سهولة ويسر وتمام توفيق . وهو كذلك مر شديد المرارة في ذات الوقت سواء كانت هذه المرارة صادرة تلقاءك من لسانه او يده . فقد أوتي أيضاً ذخيرة هائلة من قوارص الكلم تواتيه طوائع متتابعات دون مشقة او عناء ، وأوتي كفاً لم تغادر صفحة من وجوه اولاد فصلنا - علي اقل تقدير - إلا وأنزلت بها صفعات تلهب الخد وتشعل في العين البريق . اما حديثه الحلو الذي يواتيه فانه ينفذ الي القلوب وينزل عليها برداً وسلاماً . واما كلماته القوارص المتتابعات فمن عجب انها لا تفسد هذه الحلاوة إلا بمقدار ما تلهيك عضة « الشحموطة » الصغيرة عن متابعة اغنية هادئة رقيقة شجية اللحن موضونة المعاني والكلمات ، والا بمثل ما يعود به عليك حكك جلدك موضع قرصة النملة بذلك الاحساس الغامض اللذيذ . فالشيخ بهذه المعاني عذب واجاج ولكن في خليط سائغ لذة للشاربين . وهو حلو ومر

ولكن في مزيج مرئ فريد هو « الحلومر » العذب الناقع المسكر المصفي بذاته في نهاية المطاف . فمن ظن ان ما رويناه عن الشيخ علي متن بعض الصفحات في هذا الكتاب هو من قبيل التعريض به والتعرض لرصد عيوبه فقد أخطأ قراءة المعني وجهل مدلول الاشارة . وذلك انها احداث رويناها كما وقعت بالفعل وصور استعرضناها كما ارتسمت بالعمل والقول ، ومبلغ علمنا اننا نقلناها لك عن صحائف دفتر الذاكرة كما انطبعت عليها في تلك الأحايين الغابرة . واني لعلي ثقة ويقين بأن التلاميذ كانوا يتلقونها بالفرح والغبطة والحبور وبالقبول الذي حاولت ان ابين لك دواعيه منذ حين . ولقد كان مبعث هذه الصور والمعاني واثرها في اذهان التلاميذ هو هذه العذوبة التي نعتوه بها صادقين ، والتي ظل هو متحلياً بها مشتملاً عليها في جميع احواله . فكنا نضحك لمجرد ان نراه وما كان ذلك بدافع الاستخفاف به او السخرية منه ولكنه علي النقيض من ذلك كان تعبيراً صادقاً عن الفرح به والاعجاب الشديد وعن المحبة الصرفة له والاحتفال بأمره اعظم احتفال . وذلك ان الشيخ ابابكر قد اوتي من دون ريب مقدارات فريدة ميزته عن جميع الاساتذة الاخرين ومواهب نادرة لم توهب لغيره منهم . فاجتمع له من اسباب الجاذبية الحقيقية والقبول ما جعله في نظر التلاميذ اعجوبة الاعاجيب وما جعل تعلقهم به وتحرقهم لشهود حصصه التي جمعت بين العلم الرصين الباقي والفكاهة الممتعة المرسلة ابرز معلم من معالم ذلك المجتمع المدرسي السعيد . وآية ذلك انك ان لاقيت احد زملاء تلك الازمان بعد طول فراق فان اول ما تتنا ولانه من ذكريات ذلك الماضي بالمرح والضحك والحنين هو سيرة الشيخ ابي بكر الثرة العطرة دون سواها ، وهو نوادره الكثر اللبقة الذكية الخالدة .

لقد كان الشيخ ابو بكر حجة بالغة في علمه وبحراً زاخراً في الفقه واصول الدين . وقد كان واضحاً جلياً انه يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، فاذا تلا علينا منه شيئاً رأيته وهو اقرب للبكاء منه لأي شئ آخر ، وذلك من فرط تأثره بما يتلو من محكم القول وأصدق الحديث . وأبصرت بعيني رأسك وأنت الصغير الغر جلالاً يحف به ورونقاً

يشتمل عليه ويعلي من قدره في اعين الناس . ولا مست احاسيسك منه صفاء ونقاء كما لو عارض كفاك سلسالاً من الماء ناقعاً بلوري الاديم . فهو يسبح بك في تلك العوالم القدسية سباحة مقتدر بصير بكنوز الثبج واللجة والاعماق . فيقرب الي ذهنك بتلاوته الفصيحة الحنونة روائع امهات المعاني ويوقد في روعك ووجدانك وسائر حواسك ومشاعرك أضوأ سرج التلقي والاذعان لهدي القرآن الكريم . فاذا فرغ من تلاوته التي تأخذ بمجامع القلوب وتنفذ بالأمن والطمانينة والسلام الي اعماق النفوس فانه يصمت هنيهة وكأنه يستمع في رهبة وخشية واخبات الي اصداء ما كان يرتل علينا منذ حين . فتلك هنيهة من الهدوء لا يفسد روعتها وجلالها همس ولا قيل ولا حراك . حتي اذا ادكر بعد امة طفق يشرح ما استعصي علي الفهوم الصغيرة من المعاني والمفردات . فهو عالم بليغ ملم بغرر المعاني ودرر الالفاظ أحسن إلمام . ومن عجب انه لايكتب علي السبورة ابداً ، ولا يستصحب في حصته كتاباً من الكتب او مرجعاً من المراجع . يحمل علومه في خزائن رأسه حيثما ما مضي ، ويطلعك من كنوزها علي النسق والقدر الذي يطيقه فهمك وتلين له اعضاؤك وتتسع له مداركك وترقي به معارفك وتتنامي من فيضه قدراتك ومواهبك . وهو استاذ ذكي شديد الذكاء لا يفوت عليه أبداً شئ من عبث العابثين أو مثابرة المثابرين . ولكنه يتغافل احياناً عن هذا وذاك . وما تغافله عن عبث الثالوث الذي حبب اليه في فصلنا في اول امره بغائب عن احد ولكنهم اخلدوا الي سراب الاصطفاء البشري الذي لا يدوم واذهلهم نوم الغفلة عن اليقظة والرؤية ، وفات عليهم ان الشيخ – مع وقاره واخباته وتقواه – يستبطن مكراً وانه واسع الحيلة والدهاء . فهو مازال بهم يمد لهم مداً حتي اذا أمنوا واستعاض كل مهم عن حفظ سور القرآن بما ظنه مكانة عالية له في نفس الشيخ ، اتاه الشيخ من حيث لا يحتسب ، فانزلهم جميعاً – في تتابع درامي غير مسبوق – من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب – وان كان رعباً مسلياً ومحبباً كما قدمت لك – مثني منهم بقي في المدرسة يلعن الغفلة وينال من الشيخ بما لايؤذي ولا يستنكر والتلاميذ من حولهما يضحكون ملء الاشداق

لأنهم به معجبون ، وثالث الاثنين قد غادر المدرسة نهائياً بلا رجعة . اما الاثنان فهما غكود والدرديري . وقد صار سقوطهما من تلك الاعالي واحدة من أخلد قصص ام درمان الاميرية التي تبعث علي الضحك واجتلاء احلي الذكريات كلما التقي رهط من ابناء تلك الايام فطاروا بأخيلتهم الي تلك المراتع الحبيبة . واما ثالثهما الذي غادر المدرسة إثر تلك السقطة التي مازالت حدثاً منقوشاً في ذاكرة كل من عايش تلك الايام الرغدة الرخاء فهو الحبيب . ولم تكن تلك السقطة التي مني بها من نظر الشيخ إلا عاملاً مساعداً لوضع حد لأيامه وبقائه في ام درمان الاميرية ، ولعلها لم تكن إلا مصادفة لا علاقة لها اصلاً بأسباب زهده في المدرسة ومفارقته لها في تلك السن المبكرة . وقد كان لسان حاله في تلك اللحظات يخاطب الشيخ منشداً من وراء احزانه الكثر وبثوثه التي لا يفصح عنها لأحد ولا يبوح بها إلا لخالقه :

أيذهب يوم واحد إن أسأته # بصالح أيامي وحسن بلائيا ؟

ولقد ادركنا جميعاً بعد تلك السقطات المتتابعة المدوية التي مني بها ثالوث الاصطفاء والاجتباء بعد ان قلب له الشيخ ظهر المجن ان الخير كل الخير في الاستعداد قبل الفوات ، وانك ان أردت الأمن الحقيقي فاحرص علي ان تلقي الشيخ وقد احطت بمالم يحط به غيرك خبراً ، والا تغادر شيئاً مما يتحتم علي مثلك معرفته والاتيان به علي احسن الوجوه التي ترضي الشيخ إلا وبذلت فيه من الجهد والمثابرة بغية الاستيعاب الكامل ما إن أثقاله لتنوء بغيرك من العصبة أولي القوة علي الاستذكار وحفظ سور القرآن وأحياناً نصوص الاحاديث وشرحها وما يستنبط منها . فانك لا تدري ما ينطوي عليه الشيخ وما يمكن ان يباغتك به من سؤال . فهو كالصبح وضوحاً وكالليل خفاءً وانبهاماً :

فبين اختلاف الليل والصبح معرك # يكر علينا جيشه بالعجائب

لقد كان الشيخ أبو بكر – كما قدمنا – يدرس في فصلنا القرآن . وهو اساس الدين كما تعلم . غير اننا كنا نتلقي دروساً آخري تسمي حصص الدين تشمل الفقه

والاحاديث النبوية وشرحها وما يستفاد منها من حكم ومواعظ وهدي مستقيم ، ورغم ان حصص الدين كان يضطلع بها غيره من الاساتذة إلا أنه كان يتحفنا ببعضها احياناً علي غير دوام او انتظام . فكان يحلو له اذا فعل ذلك ان يحلق بنا في عوالم ما يستنبط من الحديث . واذا بنا ونحن نستمع اليه امام بحر زاخر من العلم لا ساحل له ولا شطآن ، وأمام محيط هائل من لغة العرب وآدابها كم تمنينا ان نسبح فيه ونغرق في ثبجه راضين مأخوذين مبهورين . فقد جمع الشيخ بين رخامة الصوت في التلاوة وعمق المعرفة باللغة واصول الدين واللباقة وحضور البديهة والمقدرة الخارقة علي حسن الاستشهاد . وعلي الرغم من انه لم يكن يتعمد رواية النكات والملح والطرائف علي اسماعنا إلا أنها كانت دائما تأتي عفوية مرسلة في متون وحواشي حديثه العذب الجذاب دون جهد او تعمل او اصطناع . فكنا نتابع مقولاته الذربة المحلاة بفصوص الحكم ولطائف الفكاهة فلا نمل وان طال حديثه وهو عادة لا يطول ، ولا نستنكف وان اصلينا من سخريته اللاذعة ناراً وهي عادة لا تخبو حتي يتصاعد منها اللهيب . فالظرف والطرفة والبلاغة هي بعض مواهبه ، والسخرية الحارقة اللبقة التي تبعث علي الضحك والمراح واحدة من أحلي خصائصه ، والدقة واليقظة وتمام الحيلة في متابعة العبث الطفولي المستتر في مظانه التي هي مظانه دلائل صفاء حواسه الست المتساوية المقدرات . فاذا عثر بك وانت مقارف لجرم الشوشرة والهرجلة والاخلال بقواعد السكينة والهدوء خلال شروحه المقتضبة الحاوية فالخير لك في ان تعترف ولا تجادل فانك ان فعلت ذلك دون لجاجة او مشاحة أعجبته فيك شجاعتك وربما عفا عنك وصفح ، وان جادلت عن نفسك فلن ينفعك الجدال . ولهذا الذي ذهبنا اليه من طرائق تعامل الشيخ مع تلامذته أمثلة عديدة تضيق صفحات هذه الذكريات عن بسطها وسرد احداثها وتفاصيلها . ولكننا نشير إلي بعضها اشارات عابرة في هذا السياق . فهو قد ضبط عبد الكريم احمد حميدة مراراً وهو يحاول اخفاء ادواته الهرجلية الشغبية . غير انه كان في بعض الاحيان يتغافل عنه ويمهله ويمد له مداً ، حتي اذا ضاق به ذرعاً

اذاقه صنوفاً من كرب يده ولسانه . وكثيراً ما كان يهتف : اوقف انت يا مكي يرعي (بياء قبل الراء) ويري في ذلك زراية موجعة له لقاء ما ظن او استيقن انه قارف من تجاوز لحسن الأدب . واذا برم بمشاغبة محمد العوض لم يجد - بعد ان اعيته العقوبات التي انزلها بمحمد وهو « يكتكت » بالضحك - غير انه يقول له في هدوء تام ونبرة توحي بالوعيد : « أحسن تنطم انت ياعبد السوء قبال ما اكسر سنيناتك المتل سنينات الفار ديل » . ولكن محمداً « لا ينطم » وهو يعلم ان وعيد الشيخ بتكسير السنينات ليس اصدق من تهديده بكسر الرؤوس . وما اكثر ما كان يروي تلاميذ الفصول الأخري من نوادر الشيخ معهم ! ففي ذات مرة سأل التلميذ عبد المحمود ابو شامة الشيخ عن تحريف الانجيل وسلامة القرآن من التبديل . فاستعظم الشيخ مثل هذا السؤال من تلميذ في السنة الاولي ، وطفق يحاكيه في طريقة كلامه حتي اثار عليه الضحك من بقية زملائه . ولما بلغ به من التندر عليه حد « التدويخ » ختم نكيره عليه بصفعة مباغتة علي خده أومضت لها عين الفتي ببريق كتطاير الشرر . ولكن عبد المحمود اسرها في نفسه ولم يبدها لأبيه . وغلب عليه فضوله فوجه ذات السؤال لأبيه ، وهو الشيخ ابو شامة العالم الديني المعروف والمفتي والقاضي الشرعي الشهير وأحد الرواد القلائل الذين قام علي اكتافهم معهد ام درمان العلمي . ولم يضق الشيخ ابو شامة ذرعاً بسؤال ابنه فهو يعلم انه تلميذ ذكي سأل لحوح فما زاد علي ان ابان له الحقيقة واحضر له في اليوم التالي نسخة من الانجيل المعرب المتداول بين ايدي الناس . فحمله عبد المحمود معه الي الفصل . فلما ابصره الشيخ ابو بكر عنده سأله : ما هذا الكتاب ؟ فقال : هو الانجيل الذي سألتك عنه ، وقد احضره الي ابي . فتعجب الشيخ من « ملاواة » عبد المحمود واصراره في هذه السن المبكرة علي الوقوف علي مالا طائل له من ورائه . ولكنه امسك عنه يده ولسانه هذه المرة واكتفي باحالة الامر برمته الي الاستاذ يوسف زمراوي ناظر المدرسة . ولما كان الاستاذ يوسف زمراوي رجلاً « حبوباً » متسامحاً وهو يعرف الشيخ أبا شامة حق المعرفة فانه لم يأخذ علي

تلميذه الصغير شيئاً من ذلك وانما ارسله راضياً موفوراً . ولقد عجبنا في بادئ الامر من تصرف الشيخ ابي بكر ازاء هذه القضية ولكنا ادركنا بأخرة انه كان حريصاً علي ان لا يخوض تلامذته الصغار في مثل هذه الشؤون التي ربما كانت ما تزال بعيدة عن حسن ادراكهم وربما افتتنوا بالخوض فيها عن دينهم وتفرقت بهم السبل . وفي هذا من الفطنة والحذر مافيه . غير ان الشيخ ظل يردد من حين لآخر مقولات عبد المحمود ويحاكيه ويتندر عليه حتي شغل عبد المحمود بنفسه وألهاه وزهده في مثل هذه اللجاجات بما أثاره فيه وفي زملائه من الضحك وابدال الجد الذي لايجدي بالفكاهة التي تحلو بها الأوقات وتزدان بها الايام وتزدهي وتطيب .

لقد فارقت عبد المحمود بعد تلك الايام الهانئة الضاحكة ردحاً من الزمان . ثم التقينا بعد طول فراق علي غير موعد وبدون سابق تدبير . فعرفني وأناله منكر . غير ان عذري انني كنت اسير بعض همومي التي حملتني الي حيث لقيته مصادفة دون قصد ولذلك لم انظر الي وجهه بأي نوع من التدقيق ولو فعلت لعرفته ولما خفي علي امره . فان التلاميذ الذين عرفتهم عن قرب في تلك العهود الخالية ماتزال صورهم ووجوههم محفورة في ذاكرتي منقوشة في مخيلتي لا اجد مشقة تذكر في التعرف علي اي منهم ان بصرت به عن جنب او لاقيته وجهاً لوجه . ولقد زاد من خفاء وجه عبد المحمود عني انه كان في تلك اللحظة التي لقيته فيها يحجب عينيه من وراء نظارة سوداء . ولكنه كان سباقاً الي المكرمات كدأبه فخاطبني باسمي كاملاً وهو يبتسم في بشر وترحاب ويميط عن وجهه المناظير ، ويذكرني باسمه كاملاً في ادب جم وذوق رفيع ويضيف في دقته المعهودة : ام درمان الاميرية الوسطي ! وذلك حرصاً منه دون ريب علي الا استشعر حرجاً ان انا نسيت شيئاً مما ذكر واوضح . ولقد تعرفت عليه تماماً في اللحظة التي خلع فيها النظارة عن عينيه وطالعني ذات الوجه الذي عرفته منذ ازمان ، وذات الانف العربي الموفور الذي طالما كان موضع تعليقاتنا العابثة اللاهية نبادره بها فيضحك هازئاً من ضحكنا ونضحك مْن ضحكه علي ضحكنا حتي نقضي وطراً من لحظات

مـرح لنخوض في لحظات غيرهـا عامرة بالمرح الذي يسـعد النفوس ويجلو الصدأ عن القلوب . وطالعتني العينان اللتان عرفت منذ ازمان بعيدة يشـع منهما ذلك الذكاء الذي استوقد في احشائه ناراً من العزائم والطموح افضت به الي اعرق وأرقي معاقل العلم والمعرفة فنهل منها ما جعل منه اعلامياً فذاً لا يشق له غبار ومؤرخاً عليماً بأسرار ما انطوي من الازمنة فـي بلاده وغيرهـا قل ان تجد لـه – في عمق ثقافتـه وسعة اطلاعه وصـدق إنبائه – شبيهاً او مساوياً او رصيفاً . انهما ذات العينين اللتـين كان يومض فيهما ومنهما ذلك المكر الطفولي الساذج الذي اثمر مع طول الدهر وتقادم العهود دربة فـريدة مـحيطة بشتي فنون الصنائع والمهارات ، ومعرفة دقيقة بشؤون الدنيا وطبائع الناس ، وتواضعاً اصيلاً آسراً يوطئ له حيثما توجه اكناف القبول والاعجاب . لقد تعانقنا طويلاً عند ذلك اللقاء ورحنا نتذكر ايام ام درمان الاميرية الوسطي وتلامذتها واساتذتها وفـي طليعتهم الشيخ أبا بكر اسـتاذ القرآن والدين واللغة العربية وقطب الرحي في كل مـا عطر تلك الاجواء الفرحـة الجـذلانة مـن فكاهات واحـداث مـفـعمـة بـالطرائف واللمع والرقائق . ومنذ ذلك الحين الذي تجدد بيننا فيه اللقاء لـم تنقطع صلات الوداد والوفـاء بين اسرتينا . تعرفت علي زوجه العالمة المثقفة المتواضعة السيدة الفضلي « ان ابو شامة » وعلي وحيدته الطبيبة الذكية النابهة المقتدرة السيدة الدكتورة ماندي عبد المحمود ابو شامة فغدونا بهـم جميعاً اكثر جنداً واعز نفراً . ولولا ام درمان الاميرية ، ولـولا تلك المادة الغزيرة من الفكاهة ولطائف الحكايا التـي وفرتـها لخيالاتنا المشبوبة حيوية الشيخ ابي بكر ولوافت خـالدة من سير غيره من الاساتذة لما بقيت هذه المودات بين ابناء ذلك الجيل علي غضـارتهـا ونضـارتهـا وطلاوتهـا التـي حفلت بهـا واشربتها منذ نصف قرن من الزمان ، ولما صح ان ينشد في حق ايامها منشد :

وما تفضل الايام اخري بذاتها # ولكن ايام الملاح ملاح

ولما قارب الحقيقة او اصـابها من تحمله اطياف الذكريات الي ذلك الندي العامر وذلك السامر اللاهـي البرئ فيرده بخيال مشوق ويصدر عنه بقلب ملتاع وهو يتغني من

حسرة الفراق والحنين :

وكيف التذاذي بالأصائل والضحي # اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبــا

ذكرت به وصلاً كأن لــم أفز بـه # وعيشـاً كأني كنت أقطعه وثـبا

ومن طرائف الشيخ التي ما زلنا نذكرها ماجري بينه وبين تلميذ فصل الاوائل محمد ياسين عبد العال . فقد انشب الشيخ أظفار هزئه وسخريته في لحم ياسين وشحمة كبريائه رغم انه كان تلميذاً علي درجة عالية من الذكاء والنباهة وعلي قدر وفير من الاعتداد بالنفس . وذلك انه تلميذ مجد طيب السمعة بين اقرانه حسن الهيئة والخلقة والاخلاق . ولكن الشيخ مولع – كما قد علمت – بالدعابة يبتدع اسبابها ابتداعاً ويجتلي بواعثها اجتلاء . اذا اثارك حديثه كان ذلك عين المراد لأنه يتخذ من رد الفعل الذي تبوء به مبرراً مواتياً ليبعثرك ويشتت شملك . اما اذا لم تغضب لحديثه فربما تغافل عنك وصفح ، وفي نفسه ترة من غيظ وبقية من حنق وشئ من الاكبار الخفي قلما يبوح به اللهم إلا اذا اراد ان يهجو غيرك بمدحك . فهو كلف بعقد المقارنات التي ترفع اقواماً وتخفض اخرين . ولذلك كان كلما شتم عبد الكريم اومكي او محمد الحسن الشايقي ختم بالثناء علي الحبيب او عكود او الدرديري او ثلاثتهم جميعاً . غير ان ياسين عبد العال كان من البراءة بحيث لم يدرك هذه المرتكزات المفتاحية لفهمك الشيخ وتهيئة نفسك للتعامل مع تقلبات مزاجه . فلما تناوله الشيخ بما ألفه الناس في مثل هذه الحالات كبر ذلك علي نفسه الأبية وهاله أن يجهل عليه في ملأ من الناس فصاح بالشيخ محتجاً : « يافندي ماتسيئني » . ومادري أن ذلك هو عين مبتغي الشيخ وأنه جالب له من البلاء مالا يطيقه . فأظهر الشيخ التعجب من وراء بسمته الماكرة ، ومد عنقه وفارق بين يديه ، وسار تلقاءه وقد انفرج قفطانه لنصفين كجناحي عقاب يوشك ان يقلع من وجه الارض ، واخذ يهتف به في سخرية بلغت اقاصيها في تموجات صوته خفضاً ذا معان وعيدية وارتفاعاً ذا دلالات إنفاذية : « فندي ماتسيئني ». « فندي ماتسيئني » اوقف يا ... « فندي ماتسيئني » . ثم كان منه من الزراية بياسين والتندر

عليه والاشتفاء بالكف ما صار حديث مجالس التلاميذ آنذاك وما ظل عالقاً بذاكرة الكثيرين ممن بقي منهم حتي يومنا هذا . فهذا هو بعض إباء ياسين الذي اشقاه ، وتلك هي بعض مخاشنات الشيخ التي لونت ظرفه ودعابته وطرائفه حتي ملأ الدنيا وشغل الناس .

وفي ذات مرة نفح الشيخ احد التلاميذ مكافأة نقدية لأنه اماط عن طريقه الاذي فسره ذلك واعجبه . ولكن تلميذاً آخر من زملاء هذا التلميذ – وهما في فصل يتقدمنا بمرحلتين دراسيتين – طالب الشيخ بنفس المكافأة زاعماً انه لم يكن اقل بلاء من زميله في ازالة الاذي عن الطريق . فصار هذا المسكين هدف تندر الشيخ وسخريته ومحاكاته التي لا تغادر دقيقة من دقائق الحدث والحركة والقول إلامثلته ابرع تمثيل والا أخرجته اروع اخراج وإلا أضافت عليه من الرتوش والنقوش والتداعيات ما يجعله طرفة الموسم وحديث الناس ومجتلي أنس مجالسهم ودعاباتهم الي امد بعيد . لقد صار حسان المسكين – علي اثر مقولته البريئة وطلبه للمكافأة التي زعم انه يستحقها – مادة غنية مواتية لبراعة الشيخ وهزئه السافر المحبب الي النفوس ومقدرته الفائقة علي المحاكاة واتقان الرواية علي اكمل الوجوه وأبلغها في إثارة الضحك واشاعة الجذل والفرح والغبطة في الانفس والصدور . وظل الشيخ يروي علي تلامذة ذلك الفصل كيف التقي بالتلميذ الذي فاز برضائه وجائزته وكيف جاء اليه حسان بدافع الغيرة وابتغاء الحظوة ينسب الي نفسه مالم يفعل من حسنة ويزعم انه اهل بذلك للاحسان . وهو يروي ذلك الحديث في صوت متميز النبرات متخير الموجات ظاهره البراءة والرحمة وباطنه من قبله السخرية والعذاب : شفتو اخوكم حسان الكلب شافني اديت رفيقو قال لي : حتي انا يافندي ادني ... حتي انا يافندي ادني ... حتي انا يافندي ادني ... وطفق يردد هذا التعبير الاخير – رواية عن حسان وزراية به وتندراً عليه – بلهجته الغريبة المعبرة التي جمعت بين اللسان الرباطابي والنغمة الشايقية في نسيج بديع نادر المثال ، وفي حركات مسرحية « منلوجية » يتطلب أداؤها بتلك الدرجة من الاتقان والتأثير مقدرات

بهلوان هبط علي هذه الارض من السماء السابعة ، او قدم اليها – وهو يحتقب الخوارق والمعجزات – من قلب وادي عبقر ! واستمر الشيخ يقرض « حسان » بلسانه الذرب البليغ ، ويستعين علي محاكاته بيديه ورجليه ورأسه وعينيه وسائر حواسه وجوارحه حتي « مسخ » الدنيا علي حسان وحتي تقطعت مصارين الاولاد من الضحك « والقرقراب » والعجب . وخنس حسان المسكين وهو يضحك ايضاً ولكن في حزن وأسي ، حتي اذا اوسعه الشيخ شماتة واشبعه تندراً ومحاكاة وتقريعاً باء بندامة وأسف وانتفخت أشداقه من « الغلب » والغيظ فهو كظيم . ولم يتركه الشيخ الا بعد ان أصلاه سعيراً من البهدلة « وشيل الحس » حتي احمرت عيناه وتراخت شفتاه واطبقت علي وجهه « التلاليش » واوشك الامر ان يفضي به الي البكاء الصراح والنشيج والنحيب . فعند ذلك امسك الشيخ عنه وكف عنه اذاه فقد رزق الشيخ – كما اوضحت لك من قبل – حاسة سادسة شديدة الصفاء تشير اليه في الوقت المناسب وقبل فوات الاوان بأن ينتقل من حال الي حال ، « يفلق ويداوي » ، ويتحول الي موضوع آخر بسرعة وحنكة ولباقة ، ومن خلاله يذم اقواما ويمدح آخرين ثم لا ينسي ان يختم ذلك المنلوج الدرامي برشاش من الفاظ احسن انتقاءها ينثرها علي من يريد وكيف يشتهي ، فلا يغادر عبد الوهاب سنادة إلا ونعته بقوله « سنادة الدني » دون جريرة معلومة الا ان تكون مكراً سنادياً خفي علي الناس واطلع الله عليه الشيخ من وراء الغيوب والحجب والاستار . وذلك ان عبد الوهاب سنادة – علي ما اشتهر به من ذكاء حاد وذهن وقاد – قد عرف بميله الشديد الي الهدوء والسكينة وتفضيله الواضح للصمت علي الكلام ، حتي صار يدعي « أبا الهول » بين زملائه فيماتلاتلكالازمنة من عهود . فاذا كان « أبو الهول » مظنة الهرجلة بين اولاد الفصل في نظر الشيخ ، وهي التي تثير حفيظته وتغريه باطلاق لسانه علي من يتهم – فما ظنك بأهل الهرجلة الحقيقيين الذين لا يمكن ان يخفي امرهم علي الشيخ ؟ فهو الذي رزق من فوق حواسه الخمسة « رادارا » مقتدراً علي التقاط جميع الانفاس والحركات والسكنات . وانت اذا وقعت في

دائرة غضب الشيخ – سواء كان ذلك زوراً او نوراً – فاعلم أنك مهما تحايلت واتخذت من وسائل النجاة من مثلة لسانه بك فلن تعجزه هربا . فقد قل أو ندر من بيننا من لم يقع في القبضه ، وانه ليكاد من فرط احساسه بالوقوع الوشيك ان يتمثل – وهو ينظر الي الشيخ – قولة النابغة في بعض اعتذار ياته :

فانك كالليل الذي هو مدركي # وان خلت أن المنتأي عنك واسع

وعلي الرغم من ان هذا الادراك في حالة الشيخ قد يكون ادراكاً باللسان دون السوط ، وهو دائماً يشتمل علي كل ما يبهج ويسلي من الطرائف ، الا انه يمكن ان يخالف ذلك في بعض احايينه ويستحيل الي زراية موجعة أليمة ، يزيد من شدة وقعها علي نفسك واذاها سرعة انتشارها بين الناس ومدي تداولها وتناقلها فيما يشبه اشتعال النار في الهشيم .

غير ان التلاميذ – كما ذكرنا – كانوا يستملحون كلام الشيخ استملاحاً ويتلقون شتائمه في اغلب احيانهم بنفوس راضية وصدور رحبة تكاد ان تكون مثلجة ايضاً ، حتي اذا انتهي بهم الأمر الي الصفعات واللبعات والكفوف . ولقد كان كاتب هذه السطور من التلاميذ المعجبين بالشيخ ابي بكر اشد اعجاب ، وليته عرف ذلك عني فأخرجني من دائرة ريبه وشكوكه . غير انه – والحق يقال – كان كثيراً ما يتغاضي عن هرجلتي وذلك قبل حادثة « ويل للمطففين » التي قصصتها عليك من قبل ، ايام كنت في نظره « الشريف » الذي يحفظ القرآن ، والذي هو ولد مؤدب ومرآة البيت وغير ذلك من النعوت الزاهية التي اسكرتني حتي دارت علي الدوائر ، وأسكرت غيري حتي ظهر أمر الله وهم كارهون . واني لأذكر ان الشيخ استدعاني في ذات صباح الي فصل السنة الرابعة « الثواني » وكنت في ذلك الحين في السنة الثانية . ولما مثلت بين يديه اعطاني ورقة كبيرة ودعاني الي الاشتراك مع اولاد ذلك الفصل في كتابة مقطوعة انشائية كان موضوعها كتابة خطاب الي ناظر المدرسة يشتمل علي المطالبة بتخفيض المصروفات الدراسية ويبين الاسباب الداعية الي ذلك . ولقد دهشت كثيراً لهذا الامر الذي كان

مفاجئاً بالنسبة لي وذهبت في تفسير مغزاه مذاهب شتي لم يكن من بينها أنه يحسن الظن بي الي هذه الدرجة . فهو لا يمتعك ابداً باطالة حسن ظنه فيك الا ريثما ينقلب عليك من حيث لا تحتسب فتغرم أضعاف ما اعطاك . ولذلك فاني ظننت ان الشيخ اراد ان يوقع بي لأمر في نفسه لست اعلم له مبرراً يمكن ان اركن الي عدالته . غير انه قد ظهر لي جلياً بعد حين انه كان صادقاً فيما نوي وانما اراد ان يسخر من اولاد السنة الرابعة لبعض قصور لمسه فيهم او تصرفات منهم اغضبته عليهم فالتمس تلميذاً في السنة الثانية كان يحسب انه يمكن ان يتفوق عليهم في اجادة كتابة الانشاء . وهو عندي كان يريد من وراء ذلك ان يستثير الحمية والغيرة فيهم وان يدفعهم دفعاً بهذا الاختبار الصعب الي اظهار احسن ما عندهم من مقدرات حتي لا يتيحوا الفرصة لتلميذ صغير « هايف » من اولاد سنة ثانية ليمرغ انوفهم في التراب . ولكن التجربة كانت بالنسبة الي بالغة القسوة وكان عنصر المفاجأة فيها يكاد ان يكون مثبطاً ان لم نقل مدمراً . ولقد ظننت – ثم تبين لي صدق ظني بعد ان قطعت الشك باليقين – ان الاستاذ منصور حسن امين كان أيضاً من وراء ذلك التدبير . وذلك انه اخذ اوراقي – بعد تلك التجربة المريرة التي لا احسب اني اجتزتها بنجاح يذكر – يطوف بها علي الفصول فيما يشبه المباهاة بانجاز واحد من تلامذته الذين احسن تدريسهم وتدريبهم وتعهد مقدراتهم بالرعاية الصادقة والعناية القصوي . واني لأ ذكر ذلك الفزع الذي اصابني في اول امري فارتج علي قلمي حتي كاد ان يسقط من يدي وذلك علي اثر نظرات مستنكرة حانقة ملأي بالوعيد ونذر الشر والثبور كان يحد جني بها لفيف من اولاد ذلك الفصل يكادون يسطون بي ليحيلوني مزقاً منثورة . ولست علي ذلك بلائم أحداً منهم ولست علي الجهر بلوم الشيخ علي ما أدخلني فيه من ذعر وحرج بقادر . ولولا ان شقيقي الفاتح كان واحداً من اولاد ذلك الفصل لتدافعت إليّ في فسحة الفطور لا كمات الايدي وراكلات الارجل ونواطح الرؤوس ، ولتناوشتني الانياب والاظفار والألسنة الحداد من كل صوب ، ولأصبحت عبرة لمن يعتبر وكان أمري فوطاً .

ومن عجب ان الشيخ لم يجزني علي مادفعني الي المنافسة غير المتكافئة في حلبته ، ولم يعصمني حسن بلائي النسبي من سوء ظن الشيخ الذي صيرني الي درك « صفر من اطناشر » فيما بعد فلم يشفع لي عنده حين ذاك أني كنت لديه فيما مضي من المقربين . غير أنه تكرم فأبقي لقب « الشريف » الذي كان قد خلعه علي منذ يومه الاول ، وان كاد في احدي سورات غضبه اللاحقة ان ينزعه عني نزعاً وان يجردني منه تجريداً ، وان يهدر من بعد ذلك دمي حتي يتفرق بين القبائل .

ولقد كان مما حيرني واشكل علي فهمه بعد تلك التجربة المريرة التي دفع بي الي رحاها دفعاً وانا كاره مرتاب ان الشيخ لم يبد اي نوع من الاهتمام الحقيقي بما اسفرت عنه المنافسة او المشاركة في كتابة الانشاء او المناطحة او سمّها ما شئت . ولعل ادائي كان دون المستوي الذي يريده فلم يعجبه ولم يستهويه . او لعله خشي ان هو عبر عن شئ من الرضا عنه والاحتفال به ان يثير ذلك حفيظة اقوام فتشتعل نار الفتنة الهوجاء من جراء ذلك تضرمها شماتة الشامتين وتعلي من ألسنة لهيبها مجانات العابثين فيضيق علي الناقمون الخناق ويفجعونني بضرب البنان وشد الوثاق ، ويذيقونني ضروباً من كل ما هو مر المذاق من نكيرهم وبأسهم الذي ليس عليه من مزيد وهم قد قدموا الي من نظراتهم الساحقة الماحقة بالوعيد . فأبوء بالخسران والحسرة وسوء المنقلب والعذاب الشديد ، جزاء وفاقاً علي تقحمي المصاعب واستهانتي بالعواقب والشر قدام عيني باسط ذراعيه بالوصيد ! او لعل مبتغي الشيخ اصلاً لم يكن ليتعدي اقامة ذلك المشهد الدرامي المثير اشباعاً لرغائبه في براعة الاخراج ، وتعبيراً «مفتشراً» عن نقمته علي أولاد الفصل وفق المزاج ، وإنذاراً صريحاً لكل من تحدثه نفسه بالبرم والاحتجاج . او لعله اراد ان يلهو بعض اللهو ، والفصل في سكونه مثل بحر موسي رهو ، ليهيئ لسخريته المحببة الي نفسه مادة حية جزيلة ، فلم تبلغه مرتجاه مقدراتي الضامرة الكليلة ، ولم تمكنه من تحقيق ما عزم عليه وانتواه ، ولم تساعده علي ادراك ما أحبه وابتغاه ، من مكر بفتية ذلك الفصل ، وتقليل لشأنهم

بالفعل . علي ان يكون ذلك الحدث علي رؤوس الاشهاد ، وتجري فصوله امام نظر كل الخلق والعباد . ويبدو لي أن ما قام به الاستاذ منصور ، من اذاعة حثيثة للنبأ المثبور ، حتي فشا وشاع بين الناس ، وأفرخ في صدورنا الوسواس ، لم يكن وليد نقمة علي اولاد ذلك الفصل ، وما كان في حقيقته وبواعثه بالهزل ، بقدر ما كان حماية منه لواحد من تلامذته الصغار ، وتشجيعاً له علي تقحم الأهوال والأخطار ، كلاءة له ورفعاً لروحه المعنوية ، في وجه صمت الشيخ عن نتيجة القضية . وذلك لما كاد تلميذه الصغير ان « يتلجلج » ، ووجه الشيخ من فرحته يتبلج ، لأنه قد اجاد صنع المقلب ودفع بالغرير في المطب . فأصبح المسكين رهن القيد ، في لعبة المناطحة والتحدي . يخوض معركة عديمة التكافو مع فتية قد اضمروا التواطؤ . فغاية مايرتجي من مثله الصمود في غابة الصقور والنمور والفهود . الي ان يهيأ الله له كريم المخرج من ربقة الاسار والحرج .

علي ان الشيخ ابابكر لم يكفه تقتيراً علي انه ما ذكر جهدي بخير ، وانما اباح لنفسه ان يجعل مني ايضاً هدفاً لسخريته ، فراح ينسج حول ذلك المشهد الاقاصيص . ومن أعجب الأشياء أنه علي الرغم من أنه بليغ يمتلك ناصية اللغة العربية أحسن امتلاك ، ومقتدر علي الفتوي في كافة شؤونها وفنونها اعظم اقتدار إلا اني لم اسمعه ابداً يتمثل بالشعر او يتغني به ، مع أنه قد اوتي كل الخصائص التي تمكنه من نظمه أوروايته علي اقل تقدير . فهو لايستدل بأي نوع من الشعر علي ما يريد ايضاحه وتبيينه لنا من شروح وعلوم . ولعله كان يصول بمثل هذه المقدرات التي خفيت علينا في الفصول الأخري التي يقوم فيها بتدريس اللغة العربية كمادة قائمة بذاتها . ولكني رأيته سجاعاً مولعاً بالسجع كلفاً بهذا الفن من فنون البلاغة حتي في حديثه باللغة الدارجة . وما إتياني بهذه السجعات المملة التي تقدمت الا محاولة للتحليق في ذات الأجواء التي كثيراً ما كان الشيخ يطير بنا اليها ويحلق بنا في رحابها . وهو قد اوسعني زراية وتندراً اثر تلك الحادثة التي رسم معالمها بنفسه وحاك خيوطها بيده وأدار فصولها بدهائه من بعد وكأنه لا يعلم . فكانت زرايته بي سجعاً خالصاً : « الشريف خاف قبال

ما اندق القراف » (وفي المثل السوداني السائر : دق القراف خلي الجمل يخاف !) .
وكان الشيخ ينطق كلمة « خاف » هذه بطريقة هي غاية في الغرابة ويرددها بنبرات متباينة ويأتي مع كل نبرة منها بحركة من جسمه ويديه تختلف عن الأخري . «الشريف رجف ، وقدر ما قتلو اقيف ما وقف » . « الشريف كان يرجف في الكتابة تقول ايدو فيها ربابة ».« الشريف تاريه خويويف ، لكنو برضو ولد ظريف ».وهذا هو معني ماذكرته لك من قبل ان من مواهب الشيخ انه « يفلق ويداوي » في ذات اللحظة ان اراد . وكثيراً ما « يفلق » دون ان يعبأ بالمداواة . وهكذا استطاع الشيخ ان يصنع مني – بعد تلك التجربة التي أدخلني فيها – مادة طيعة سائغة لسخريته ومضغة هينة في الافواه ليس له من هدف وراء ذلك إلا ان يتسلي ويسلي غيره وإلا ان يضحك ويضحك الناس . واني لأ علم انه لولا الاستاذ منصور ومنافحته الصادقة عما اسماه بحسن ادائي في تلك المعركة غير المتكافئة لصرت « ملطشة » في عيون اولاد فصلي التواني وافواههم . ولولا تقتير الشيخ ابي بكر وحبسه عني اي نوع من الاطراء او الثناء علي ما يمكن ان تكون قد احرزته مقدارتي القاصرة في منازلة غير عادلة لما سلمت من بطش اولاد ذلك الفصل الذين ما ان ادخلت عليهم حتي قرأت في وجه كل منهم ايات النذر والوعيد . فاعجب لمسلكين متناقضين من استاذين متوافقين جنيت من تعارضهما الامن والامان وظفرت من تباينهما بالعافية والسلامة . الم اقل لك ان الشيخ ابابكر كان دنيا من المباهج نسيج وحده وان الاستاذ منصور كان حقانياً عدلا قسط الموازين ؟

لقد قلت لك إن الشيخ أبا بكر كان أمره كله عجباً . ويمكن القول بأنه قد تفرد وامتاز علي جميع اقرانه الاساتذة بقدرات ومواهب لم يضارعه او يدانيه في أي منها أحد . فأول هذه القدرات والمواهب التي انفرد بها هو ذلك الصوت الرخيم العذب الشجيّ الذي يرتل القران ترتيلاً تقشعر منه الجلود (ثم تلين جلودهم وقلوبهم الي ذكر الله) وتتقطع علي اثره نياط القلوب ، وتشرئب تلقاء جلاله وصفائه الاعناق والحواس ،

وتتوقد في النفوس من نوره مصابيح الهدى والايمان والاذعان والتقي والانقياد ، وتتهامي من فرط التأثر به وهيبة اشاراته ومعانيه المدامع علي الخدود . وثانيها هو تلك المعرفة الجامعة المحيطة بأسرار اللغة ومقاصد الحديث النبوي الشريف ومتونه ، الفاظاً درراً غوالى هاديات ، ومعاني ذهباً صرفاً مسبوكاً موضوناً ، ودلالات نواصع وافيات تستقر تباعاً في الفهوم والوجدان. أما ثالثة مواهبه فهي خفة دمه وروحه علي السواء ، وذلك الظرف الذي هو ملازمه حيثما كان ، والذي هو بعض اسباب سلطانه علي المشاعر والاحاسيس . اما خفة دمه فهي التي هيأت له القبول عند التلاميذ ووطأت له في قلوبهم أكناف المحبة وقاربت بينه وبين مشاعرهم قرباً جعلهم يتشوقون الي حصصه علي ما كان يشتمل عليه بعضها من وكزات حسية ومعنوية بالغة الايذاء . فاذا غاب عنهم افتقدوه وسألوا عنه وألحفوا في السؤال ، واذا ألم بهم بعد غيبة فرحوا وأقبلوا عليه واحتفلوا بأمره أعظم احتفال . ففي روحه وداعة ورقة وخفة وشفافية ، وان كان في بعض تعابيره التي يطلقها مرسلة شوارد بعض غلظة وجفاف ، ومع ذلك فهي تشكل مادة ممتعة لونستهم في شتى المجالس . ولو كان الشيخ ممن يحفلون بالشعر لحق له ان يتمثل قول أبي الطيب دون حرج يذكر أو لوم عليه من أحد :

أنام ملء جفوني عن شواردها # ويسهر الخلق جراها ويختصم

وأما ظرفه فانه لم يقتصر علي الدعابات الذكية البارعة وانما عبر عن بعض جوانبه باهتمامه العميق بقضايا التلاميذ ومشاكلهم الخاصة اذ كان يسعى بها الي ادارة المدرسة ابتغاء مساعدتهم وانصافهم وان كان ممن لا يحتفظون بأسرار الناس وانما يفشيها إفشاءً ويشيعها علي الملأ ويتعقبها بسخريته المعتادة ولكن بعد ان ينتصف لأهلها ويقضي عنهم حوائجهم لا يبقي منها شيئاً . فهو امرؤ تلذ له السخرية « والمطاعنة » ولا يري في ذلك ضيراً علي احد . وأما رابعة مواهبة فهي تلك الجاذبية الآسرة التي حباه الله بها فضلاً من عنده ويسر له بها عند تلامذته هذه المحبة الفريدة وذلك الاعجاب البالغ ، وذلك كيفما كان مزاجه ومهما بلغت مرارة سخريته وحرارة

صفعاته وغرابة تعابيره ومفرداتها التي لا يجد حرجاً في صبها علي المسامع صباً ، ولا تفتأ تسيل في عفويتها وارسالها سيلاً دون جهد أو عنت أو تصنع ، فتنساب هينة لا تؤذي الا بمقدار ما تؤذيك حقنة الدواء تراد به العافية ، ولا تثير في النفوس من أثر يبقي سوي المرح والحبور وداوعي الاعجاب ، ولا يعلق من اثارها بالذاكرة إلا ما يلهم الخيال بنوادر القصص ومستظرف التصاوير . لقد اجتمعت هذه الخصال الأربع في الشيخ لتجعل منه في نظر تلامذته ياقوتة ليس لها من ضريب . ولو علموا لأنشددوا في حقه وهم يتعجبون من روعة اجتماع المفارقات في شخصه الفريد :

ترمي بطرفك في المجامع لاتري # غير التعانق واشتباك الـــراح

سحبت علي الاحقاد اذيال الهوي # ومشى علي الضغن الوداد الماحي

وجرت أحاديث العتاب كـأنــها # سمر علي الأوتار والأقـــداح

حـــــلو السجية في قناة مرة # ثمل الشمائل في وقار صـــاح

الخــاتـمة

وبعد كل هذا الذى قلت فانى أعلم أنى لم آت بجديد . وما كان مرماى أن آتى بجديد . ولكنى استشعرت وفاء يشدنى إلى هذا القديم ويحبب ذكراه إلى نفسى ، فما أحلى الرجوع اليه ! تدافعت إلى مخيلتى تصاوير أيامه التى انطوت فى حنايا الدهور ، وتنادت إلى مسامعى أسراب من أصدائه وقد تفلتت من وراء جدران الغيوب . ولو أنى أطلت الإصغاء لكل مقطع من مقاطعها ولكل رعشة من رعشاتها لما اتسع لفصولها هذا الكتاب ، ولعجزت عن أن تحتويها وتحيط بها هذه الأسطر والصفحات . وذلك لأنها غنية بالمرائى والطرائف والمعانى الشرد السائرات ، « لا يختصصن من الأرض داراً » . فقد جمعت مدرسة ام درمان الأميرية الوسطى فى تلك الأيام الزاهية نسيجاً زاهى الألوان من أساتذتها وتلامذتها وسائر أفراد أسرتها يمثل روعة التنوع فى رحاب نسق الائتلاف ... ثم جاءت خور طقت الثانوية لتضفى على هذه الصورة البديعة مزيداً من البهاء وقوة التأثير . وهذه بعض مواهب مدينة ام درمان الخالدة التى صنعت من الفرقة اجتماعاً ومن القطيعة اتصالاً ، ومن التباين رونقاً واتساقاً . ولكننا نعيش اليوم فى زمن لا تعدل ساعاته الطوال بضع ثوان من لحظات تلك الأيام الغالية ولا تساوى شهوره المظلمة وسنيه الكبيسة مقدار هنيهات قصار من تلك الأويقات الضاحية الرخاء . ولقد أثبت فى هذه الصفحات ما شاء الله لى من صور وأحداث تراءت جليات صافيات أمام عينى وهما تجولان فى « سراديب الصدى » وتحدقان فى غيابات دروب المدى ، وما قرع أذنى من رجعه المسعد طوراً خطاباً جهيراً وطوراً نداءً خفيا . فتباينت الصور التى ارتسمت كلمات على هذه الصفحات بتباين درجات الظهور والخفاء . فهى حيناً كواسٍ وحيناً حاسرات ... بعض سواطع وبعض غائمات . وفى جوف هذا المدى ما هو منها قوام بين ذلك ، لا يتوارى ولايستبين !

حقاً لقد كانت تلك العهود أوقاتاً هانئة . ومن عجب أننالم ندرك ذلك فى حينه ، أو

أننا أدركنا فيه معنى غامضاً فلم نحفل به ، لأننا كنا نحلم بما هو أبهى وأطيب وأزهى . وربما تحقق بعض هذا الحلم لطائفة من فتية تلك الأزمان . ولكنى رأيت أكثرهم « يجهشون » بالحنين إلى تلك الصباحات والأصائل ، فأيقنت أنى إنما أعبر بهذه الصفحات عن مشاعرهم وأنقل على متنها صوراً من صوادق أحاسيسهم . فتلك أيام تستحق أن نذكرها بالشوق والحنين لأنها أهدت الينا – ونحن فى تلك السنوات الغضة المبكرة – طوائف من خيرات ونعمى ما تزال تبعث فى الأنفس مشاعر الإكبار والعرفان

أعطتنى أيـــامى أشـهى ∴ مامـــر عــلى خاطر نعمه
ومساحب أيامى فى الترب ∴ حديث العطر إلى النسمه
بَغْىٌ مــــنى الاَّ أرعـــى ∴ لعطايا أيـامى حــــرمه

تلك أيام لعطاياها حرمة فى الأفئدة والأعناق .. ورعاية هذه الحرمة من بعض قيم الوفاء ومن صميم خلائق العرفان . ولذلك أجهدت نفسى لكى أبعث ذكراها رطبة ندية فى أذهان وخيالات من يطلعون على هذا السفر وهم من أقاصيصه بمكان ، سواء وردت أسماؤهم بين دفتيه أو لم ترد فليس بمقدورى أن أقف عند كل أحد وأن أحيط بكل شئ . وليت غيرى يصدع بمثل ما به صدعت فيأتى بما توارى عن جنانى واستقر فى ذا كرته . فلست أزعم أنى أشد وفاءً وحنيناً لتلك السنوات الخضر المونقة من غيرى ، ولا أقدر منهم على نقل صورها عوارى ومؤتزرات عبر كل تلك المفاوز الزمانية السحيقة ، لتمثل أمام الأعين تارة أخرى وتضج وتضطرم بالحياة والحيوية من جديد .
قال أحد الشعراء يعلل نفسه بحلاوة الأسى على ما فات :

أمنياتى ذهب الماضى بها ∴ وخيالاتى طواها العدمُ
وبقايا ذكــــرياتى تعبت ∴ فهى لا تبكى ولا تبتسم

وهو قد يكون صادقاً فيما ذهب اليه لأن كثيراً من الناس يشبه حالهم حاله . غير أن هذه الذكريات التى نجتلى من وراء الحقب والآماد لم تعرف فى أى من أطوار حياتها التعب ولا البكاء ... وانما جبلت وشبت على النشاط الدؤوب الموسوم بأفانين «

الشيطنة » ، وازينت بالابتسام الملازم الذى لا يعجز أن يبلغ بها مراقى الضحك الهانئ الصراح . وذلك لأن أحداثها نبتت فى عافية كفلتها لها براءة الطفولة وخصوبة الأزمنة ونقاء الهواء . فمثلها لا يذهب به الماضى وانما يبقى ، ومثل خيالاتها لا يطويها العدم وانما تتوهج من وراء ظلماته .

هذه ذكرى «أجيال » من رفقة الحداثة والأساتذة والعاملين ... نعمت بالعيش بين ظهرانيهم عدد سنين . التقينا على المودة ، وافترقنا على الوفاء . تعرفت عليهم جميعاً عن قرب ... فما ألفيت إلا بدوراً سواطع وأنجماً لآلئ فى صفحة سماء صافية الأديم . تشابهت منهم النفوس فى خلائق الخير ، وبرئت الصدور من بوائق الغل . سمقت المقاصد والأمانى إلى منازل الثريا ، والتصقت الأرجل بتراب الأرض . فاجتمعت الملائكية بالترابية لتجعل منهم أناساً متفردين نسيج وحدهم ... فى زمان متفرد نشر عليهم رواق الأمان . كان صغارهم كباراً مدركين ، وكان كبارهم هداة مبصرين . مشاعرهم ريانة بالمراح والضحك والعبث البرئ ، وقلوبهم معلقة بالطهارة والأمانة وحب الوطن والآخرين . (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) . فيارحمة ربى انسكبى على من سبق منهم إلى دار الكرمة ، وياخير مسؤول جد على من بقى منهم بولايتك الخاصة التى وعدتها عبادك الصالحين . فقد كانوا جميعاً أهل صدق وإخلاص وحب للصالحين . لست بهذا أزكيهم على أحد ، فان الله يزكى من يشاء . ولكنى رأيت أن الطيب من الناس يتقاضى حقه فى الطيب من القول والإنصاف

وإن جحده عليه من جحد . ولا يظنن أحد أنى أفضل من ذكرت على من لم أذكر من أهل تلك الديار والأزمنة ، أو أن من أطلت الحديث عنه يفضل من اقتضبت مثل هذا السرد فى حقه . فما كان ذلك مبتغاى . وانماهم فى نظرى متساوون ومتشابهون ... هذا يقوم مقام ذاك ... وذاك هو رديف هذا .... فى نقاء الطوية وحسن الخلق وسائر المكرمات . واذا كانت بلادنا لم تحفل بهم كما يجب أن يكون – وكلهم قدم لها أغلى ما يملك إنسان – فهذه سنة الكون الذى نعيش فيه ، ويقينى أنهم فى رضا منها وقبول .

ولئن جاز لى أن اعبر عن مشاعرهم دون استئذان لأنشدت مع عمر الشاعر قوله :

فكم جبل يغفو على النجم خـــده .·. وأذيـــاله للسائمـــات ملاعب

نظرت إلى الدنيا فـلم الف عندها .·. كـبيراً اداري أو صغيراً اعـاتب

وما هان لى فى موقف العز موقف .·. ولا لان لى فى جانب الحق جانب

فيا غربة الأحرار ما أطول السرى .·. ومـلء غيابات الـدروب غياهـب.

فهرس الكتاب

من هذه العناوين الجانبية ما يختلف بعض اختلاف طفيف عما هي عليه في متن الكتاب .. فهي اشارات مقتضبة لا تسع المحتوي وانما تعبر عن جانب منه يسير .

الصفحة

الصفحة

الصفحة

❐ الباب الثالث



دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو المعالي (المحروزة) الجيزة - ت/ فاكس: ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الرقاريق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - جيزة
تليفون وفاكس ٥٦٣٤٦٩٩